

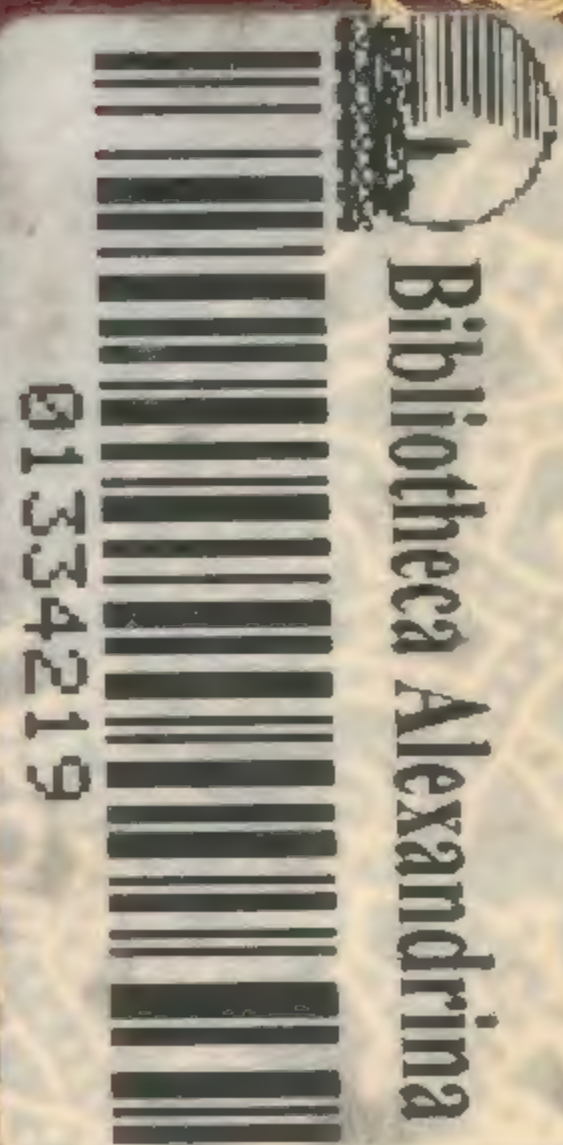
تاريخ لبنان

مُذْأَقْدَمُ الْفُصُورِ وَالْتَارِيخِيَّةِ إِلَى عَصْرِنا الْحَاضِرِ

تأليف

الدكتور فلييب حيتي

دار الثقافة
بيروت - لبنان



فَاتَّخَذَ لِبَنَاتِهِ

فَاتِحُ لِبَنَاتِ

مُنْذَاقَدَمِ الْعُصُورِ التَّارِيخِيَّةِ إِلَى عَصْرِنا الْحَاضِرِ

تَأَلِيفُ

الدُّكْتُورِ فِيلِيْبُ حِشِّي

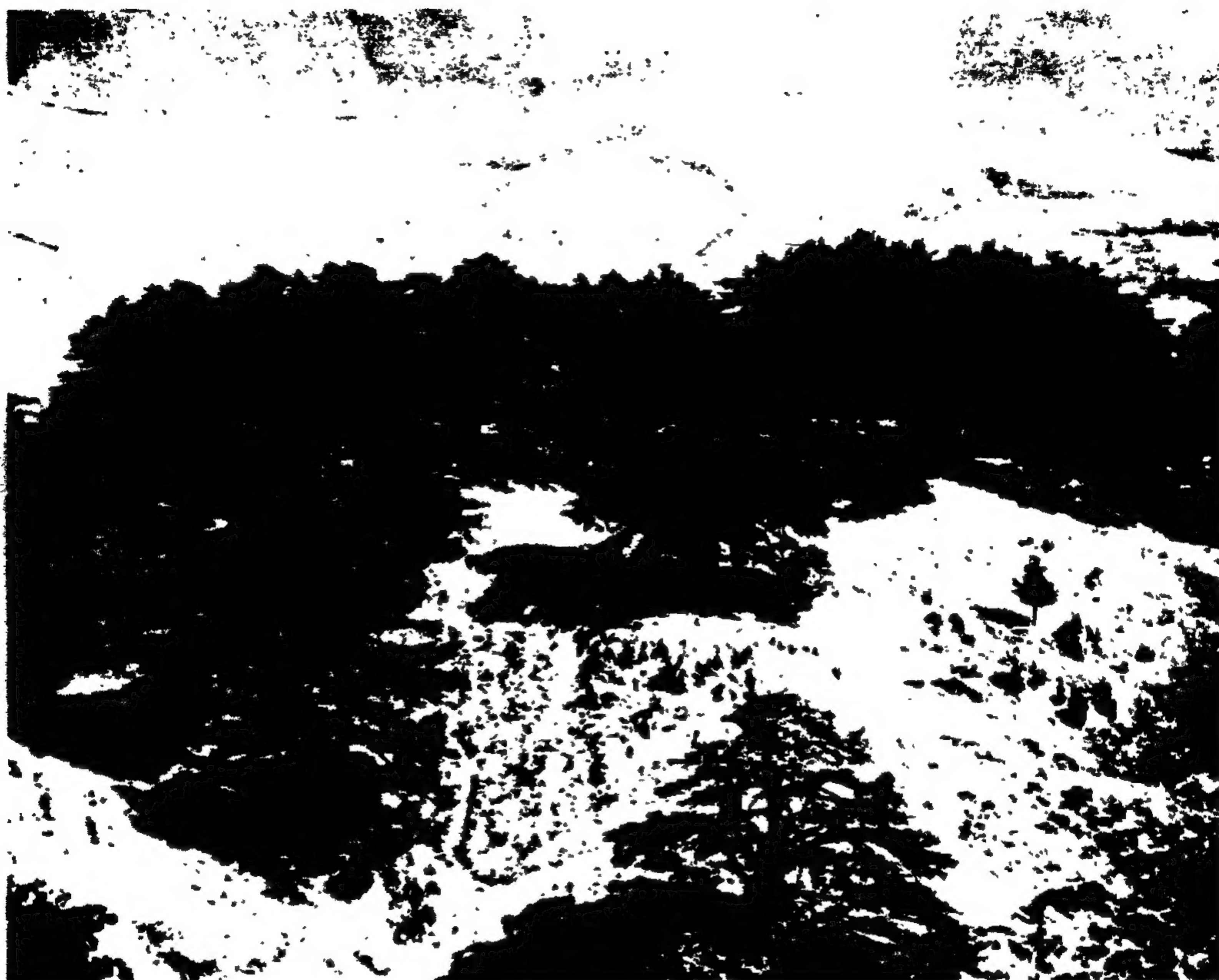
ترجمة: الدكتور أنيس فرجة - مراجعة: الدكتور نقولا زيادة

أشرف على تنقيح هذه الطبعة وتجهيزها

الدكتور هبة راسم جبور

دار الشروق للطباعة

بيروت - لبنان



أرز لبنان

للإهداء

إلى حمفدي الصغير بايلي فيليب ويندر راجيا أنى عند ما يكبر
سيجى في هذا المؤلف مادة عن موطن هذه نشأته باهتمامه وعنايته
وآمل أنى سيجرى هو أيضا على أن يخدم : ما لبانت وأهلها .

مقدمة الطبعة الثانية

إنّ نفاذ نسخ الطبعة الأولى من هذا الكتاب أتاح للمؤلف الفرصة لمراجعته
مراجعة انتقادية مدققة . حاول في أثنائها إصلاح ما فيه من أغلاط مطبعية
وغير مطبعية . ثم أضاف مختصراً بما جدد في لبنان من الحوادث الهامة في السنوات
الآخيرة . ولي الأمل ان الكتاب بطبعته الجديدة يفي بحاجات طالب العلم في
المدارس وطالب المعرفة من أبناء البلدان العربية .
ولعلّ القارئ يلدّ له أن يعلم أن الطبعة الانكليزية الأولى من هذا الكتاب
بإشراف شركة مكملان في لندن وسانت مارتن في نيويورك نفدت قبل الطبعة
العربية بكثير برغم أن عدد نسخها يفوق عدد نسخ الطبعة العربية الأولى .

برنستون في آذار سنة ١٩٧٢

فيليب حتي

مقدمة الطبعة الأولى

ان جمع الاخبار ووصف الاحداث التي حدثت عبر العصور التاريخية في البقعة التي نعرفها الآن بالجمهورية اللبنانية ، وذكر المآتي الهيدة والخدمات الجلى التي قدمتھا الشعوب المتتالية التي توطنت لبنان الى الحضارة الانسانية ، نقول ، ان جمع هذه الاخبار الخطيرة وتلوين هذه الاحداث ذات المغزى التاريخي في قصة واحدة متسلسلة محاولة جريئة يقوم بها المؤرخ . ان لهذه المنطقة ، الى حد بعيد ، شخصية خاصة بها فرضتها طبيعتها الجبلية وقربها من البحر واتجاهها نحو الغرب وخصائص ساكنيها . وقد يتساءل امرؤ عن معنى قولنا « أخبار خطيرة واحداث ذات مغزى تاريخي » ما دام الكلام عن بلد صغير كلبنان ، فنقول ان الاحداث التي لها صلة وثيقة بما يجري في لبنان المعاصر، والاحداث التي كان لها اثر في السياسة العالمية لأحداث على جانب عظيم من الخطورة . وعليه فقد انتقينا من اخبار التاريخ، وفسرنا منها تلك الامور التي نحسبها على غاية من الاهمية لتعليل مشاكل المنطقة المعاصرة، ولتفهم الاحداث الجارية ولربطها بالشؤون العالمية. اما في العصر القديمة فقد كانت احداث لبنان التاريخية وثيقة الصلة بتاريخ مصر وبابل واشور وبلاد الكلدان وفارس ومقدونيا وروما . اما في العصور المتوسطة فقد كان تاريخ لبنان جزءاً من تاريخ البيزنطيين وتاريخ العرب والمسلمين ، اما في العصور الحديثة فقد كان تاريخه جزءاً من تاريخ الاتراك العثمانيين والافرنسيين . قصة لبنان عبر التاريخ اذن قصة العالم المتمدن ، ولكن على نطاق صغير . ولكن بالرغم من اهمية هذه القصة فاننا لا نعرف ان مؤرخاً اخذ فترة من فترات تاريخ لبنان المديد المجرأ — لا سيما الفترة الحديثة — بالدراسة العميقة المركزة . وقد نستفي من تعميمنا هذا تاريخ الفينيقيين الذي تناوله علماء التاريخ في الغرب بالدر من المفصل، وذلك بفضل علاقة فينيقية بتاريخ اسفار العهد القديم . اما نحن فقد خصصنا قسماً كبيراً من هذا المؤلف لدراسة الفترة الحديثة .

ان المادة التاريخية في هذا المؤلف مستقاة بالدرجة الاولى من المصادر الاولى،

ومعززة بآخر ما توصل اليه البحث التاريخي الحديث. غير ان عرض هذه الحقائق يهدف الى وضعها في متناول طلاب التاريخ وفي متناول القراء العاديين لا الاختصاصيين في التاريخ . وهذا ما فعلناه عندما وضعنا مؤلفينا في « تاريخ العرب » و « تاريخ سورية » .

ولست هذه البقعة من الأرض التي يعنى المؤلف بتاريخها غريبة عنه . فهي الموطن الاول الذي نشأ فيه، والذي لم يتقطع عن زيارته له او عن الاتصال المستمر باهله . واذا كان الزعم بان معرفة الماضي ضرورة حتمية لفهم الحاضر فلا شك ان معرفة الحاضر معرفة حسنة ، وعن كثب ، ضرورة لفهم الماضي وادراك معنسى الاحداث التاريخية ادراكاً واعياً .

ولقد استبحنا لانفسنا حرية التصرف عند عرض القضايا التاريخية المعقدة ، او الامور التي هي موضع جلد ونقاش، وذلك حباً بالاختصار والوضوح. ولكتنا اشرفنا في الهوامش الى الكتب المصادر التي لا تغزى الاستشهاد وحسب ، بل من شأنها ان تكون عوناً للقارئ الذي يطلب المزيد . وقد درجنا على ان نذكر عنوان الكتاب الكامل واسم مؤلفه عند اول مرة تأتي على ذكره . اما في فهرست فاننا نذكر الكتاب تحت اسم المؤلف . وتجدر الاشارة الى ان تاريخ نشر بعض الكتب التي اشرفنا اليها مذكور بالسنة الهجرية (التي تبدأ ، حسب التساريف الميلادي ، سنة ٦٢٢) .

وقد راجع الاب المحترم ج. فرنكلن ايونغ من جامعة فورد هام المادة التي تعنى بالفترة السابقة للتاريخ المدون (الفصلين الرابع والخامس) مراجعة نقدية دقيقة . اما الفصول التي تعنى بتاريخ الفينيقيين (السادس الى الثامن) فقد راجعها الاستاذ روبرت هـ. بيفر من جامعة هارفرد. اما القسم الذي يتناول تاريخ الفترة الاغريقية الرومانية (الفصل الحادي عشر الى السادس عشر) فقد راجعها المرحوم الاستاذ الن. جونسون من جامعة برنستون. وقد راجع زميلي الاستاذ لويس ف. توماس القسم الذي يتناول تاريخ العثمانيين (الفصل الرابع والعشرين الى الفصل السادس والثلاثين) . واني بهذه المناسبة ارفع جزيل شكري وامتناني الى هؤلاء العلماء الافاضل ، واطلب الى القارئ الكريم ، اذا شعر ان هنالك نقصاً او خطأ في

التفسير والتعليل الا يعتبر احداً منهم مسؤولاً عن هذا النقص او الخطأ . وقد كان
للعون الذي اسدته اليّ زوجتي الفضل في اتقان العمل وسرعة انجازه . ومن جملة
طلابي الذين قدموا بعض الاراء والمقترحات المفيدة اذكر ، وبكثير من الشكر ،
قيصر فرح وجون جوزف وروبرت و. كروفرد وابراهيم ابو لغد وريتشارد ن
فردري ونورمان ر. بنت ويتر ب. ادموتز وجورج ت. سكانلون . وعليّ ان
انوّه بالعون الذي قدّمه اليّ كل من الامير موريس شهاب مدير الآثار في الجمهورية
اللبنانية والاستاذ ديتري برامكي مدير المتحف الاركيولوجي في الجامعة الاميركية
والدكتور جورج ميلز من الجمعية الاميركية للنبات . فان الحصول على كثير من
الرسوم في هذا المؤلف يعود الى هؤلاء العلماء الافاضل الذين ارفع اليهم شكري
وتقديري .

نيسان (ابريل) ١٩٥٦

فيليب حتي

المشهوره في افراج هذا الكتاب

المؤلف : الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦ ، ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت : فنال شهادة بكالوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨ ، ثم سافر الى اميركة والتحق بجامعة كولومبية ونال الدكتوراة منها في اللغات الشرقية وآدابها سنة ١٩١٥ . وعين بعد تخرجه استاذاً فيها .

وعندما انتهت الحرب العظمى الاولى عاد الى وطنه بطلب من الجامعة الاميركية وعين استاذاً لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦ . ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ العرب اولا ، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها . وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤ ، حين احيل على التقاعد .

ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك ، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد . وهو الآن عضو في مجلس امناء جامعة بيروت الاميركية في الولايات المتحدة ، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس .

له من المؤلفات : تاريخ العرب المطوك (مترجم الى العربية) ، وتاريخ العرب المختصر (مترجم الى العربية) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين .

المترجم : الدكتور انيس فريجه : استاذ اللغات السامية في الجامعة الاميركية بيروت له مؤلفات عديدة منها : نحو عربية ميسرة ، اسمع يا رضا . اسماء القرى والمدن اللبنانية وتفسير معانيها . الامثال اللبنانية "عامية" (في مجلدين) . حضارة في طريق الزوال : القرية اللبنانية اللهجات واسلوب دراستها . تبسيط قواعد اللغة العربية على اساس جديدة : اقتراح ونموذج ، وغيرها .

المراجع : الدكتور لقولا زياده : يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة لندن . عمل استاذاً في المدارس الثانوية في فلسطين وفي الكلية الرشيدية والكلية العربية .

ودرس في جامعة كبردج . وهو الآن استاذ التاريخ العربي الحديث في الجامعة
الاميركية بيروت .

وضع عدداً كبيراً من المؤلفات بالعربية والانكليزية . منها في الاولى : رواد
الشرق العربي في العصور الوسطى ، والرحالة العرب ، وصور من التاريخ العربي ،
وليبييا من الاحتلال الايطالي الى الاستقلال . وفي الانكليزية : سورية ولبنان ، ومصر
شمال افريقية ، والسوسية ، وسورية في زمن المماليك .

المشرف على تحرير هذه الطبعة : الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت (سابقاً) وهو
الآن أستاذ فخري . له عدة مؤلفات في الأدب العربي منها عمر ابن أبي ربيعة
في ٣ أجزاء (عصره ، وحياته ، ووجه وشعره) وابن عبد ربه وعقده . وقد
شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب المطول للمؤلف
وترجمتها .

القِسْمُ الأوَّل
عصر ما قبل التاريخ

الفصل الأول

الطابع المميز : الجغرافي والتاريخي والحضاري

عند مصب نهر الكلب - على مسافة بضعة أميال من بيروت شمالاً - حيث يغسل الجبل قدميه عند البحر خلف لنا الزمن على صفحة الصخر الكلسي تسعة عشر نقشاً كتابياً بلغات ثمان بدءاً بالمصرية القديمة ، فالاشورية ، فالبابلية ، فال يونانية ، فاللاتينية ، واخيراً بالفرنسية والانكليزية والعربية . هناك عند هذا الممر الضيق كان اهل لبنان بعددهم القليل يصمدون في وجه الاجنبي المحتاح ، وهناك كانت القلة العددية تجمد الكثرة ان لم تكن تفقدها كل قيمة عسكرية . وكان اول من خلد ذكر مآتيه العسكرية نحتاً او كتابة رعمسيس الثاني ، عدو الحثيين ، وذلك في اوائل القرن الثالث عشر قبل المسيح . ثم سار في اعقابه موكب من الغزاة : اسرحدون الاشوري قاهر مصر السفلى ، ونبوخذ نصر البابلي مخرب مملكة يهوذا ، والسلطان سليم الذي ضم سورية ومصر الى الامبراطورية العثمانية ، والقائد الانكليزي ألبي ، والقائد الافرنسي غورو . والى جانب هؤلاء نلتقي بالامبراطور « ماركوس اوريليوس انطونينوس الذي لا يقهر » وهو كركسلا احد الاباطرة السوريين الذين تسنموا عرش رومه ، وابن عم الامبراطور سبتيموس سيفروس الذي ولد ابوه في لبنان . ان هذا الامبراطور خلف لنا ايضاً نقشاً لاتينياً يأتي فيه على ذكر الاعمال المحيطة التي قامت بها الكتيبة الغالية الثالثة . ولكن ليس كل العظماء الذين اجتازوا المضيق عند هذه الصخرة سجلوا اسماءهم . فان الاسكندر المقدوني مرّ من هناك ، وصلاح الدين الايوبي مرّ بالصخرة ولكنهما لم يتركا لنا اثرأ كتابياً . وفي السنة الواقعة بين ٨٦٠ و ١٨٦١ جاءت الحملة الفرنسية التي بعث بها نابليون الثالث للمساهمة في احلال السلام بين الموارنة والدروز ، ولكن القائد ، عوضاً عن ان يكلف نفسه عناء نحت صخرة جديدة لكتابة نقش يخلد اعمال حملته ، فانه محاً نقشاً كتابياً مصرياً (بالحرف الهيروغلو في) وجعل نقشه مكانه . وفي سنة ١٩١٨ سجل الجيش البريطاني الزاحف من الجنوب نقشاً آخر

ذكر فيه اعماله الحربية . وفي عام ١٩٣٠ اجري بعض التعديل في النص بحيث اصبح يشمل الجيش الاسترالي والنيوزيلندي والخيالة الهنود والجيش الفرنسي المغربي المعروف بالصباهيين وقوات الجيش العربي التابعة للملك حسين . ولكي لا يقال بان الافرنسيين تخلفوا عن ركب القواد العظام الذين تركوا لنا نقوشهم على صخرة نهر الكلب، فانهم قاموا عام ١٩٢٠ بكتابة نقش نوهوا فيه بالاعمال الحربية التي قام بها الجيش الفرنسي - بما في ذلك الفرقتان الجزائرية والسنغالية - اشارة الى احتلاله دمشق . وينتهي عهد هذه النقوش بنقش عربي اقامه لبنان على صفحة صخر تحليداً لذكرى جلاء آخر جندي من جنود عهد الانتداب ، وذلك في ٣١ كانون الاول سنة ١٩٤٦ . فهل ثمة في الدنيا متحف كهذا المتحف المقام على صخرة في العراق يشتمل على كتابات وتماثيل للآلهة والملوك - كتابات وتماثيل تفتح امام ناظري الزائر المتفرج كوة صغيرة يطل منها فيستعرض مواكب هذا التاريخ المتقطع المتنوع الألوان ؟

لقد ازدحمت حوادث التاريخ الخطيرة في لبنان ، لبنان الغني بالزمن الصغير بمساحته ، كما لم تزدحم في اية بقعة اخرى من بقاع الدنيا مساحتها مساحة لبنان . فقد صاحب التاريخ لبنان منذ اقدم العصور ولا يزال التاريخ يصاحبه ويلزمه . فانه قبل ان تُعرف هذه البقعة باسمها الحالي - لبنان - ومنذ الوف السنين قبل ان عرف الانسان كيف يضبط الزمن ويقيده باشهر وسنين ، كان سكان الكهوف يسكنون على شطآنها وفي سهولها الداخلية . فقد وجد المنقبون عن آثار الانسان الى جانب نقوش صخرة نهر الكلب عند طرف الرأس الداخل في البحر بقايا بشرية تدل على ان هذه المغاور في الصخر كانت في العصر الحجري الاول - الذي كان يتميز بغزارة الامطار وشدة البرد - ملجأ للانسان ، قبل ان اصبح انساناً بالمعنى الصحيح لهذه اللفظة ، يعينه على مصارعة الحياة .

ان تاريخ لبنان المدون تاريخ مديد يشمل فترة من الزمن مدتها خمسة آلاف سنة - اي اطول من تاريخ الولايات المتحدة بثلاثين ضعف - فاي شعب يحق له ان يدعي انه وريث العصور كلها كما يحق للشعب اللبناني ان يدعي ؟

ان رئيس الجمهورية اللبنانية الحالي ، الذي انتخب في شهر ايلول عام ١٩٧٠

ليتولى شؤون قطعة من الارض مساحتها قرابة ٣٩٧٧ ميلاً مربعاً ، يستطيع ان يدعي بأن اسلافه في الحكم كانوا مفوضين ساميين افرنسيين ، ومتصرفين عثمانيين ، وولاة عرباً ، وملوكاً صليبيين ، وسفراء بيزنطيين ورومانيين يمثلون البابا ، وحكاماً اشوريين وبابليين ، ونواباً عن فراعنة مصر . والتلميذ اللبناني الصغير الذي يود ان يجتاز امتحان الدراسة الابتدائية عليه ان يتعرف الى الملك فيصل الاول بن الحسين والسلطان عبد الحميد الثاني ونابليون بونابرت والامير فخر الدين المعني وتيمورلنك وبلدوين الاول ومعاوية وهرقل وخالد بن الوليد وبومباي وداريوس وسرجون الثاني وتحوطمس الثالث ! لا جدال في ان لبنان يستطيع ان يفخر على اية قطعة جغرافية مساحتها مساحته ليس بعدد الحوادث الجسام التي مثلت على ارضه وحسب بل يستطيع ان يباهي بمعنى هذه الحوادث وقيمتها واهميتها العالمية . قد يصح ان نعت لبنان بانه ، من حيث الجغرافية ، بلد ميكروسكوبي ولكنه من حيث التأثير ، بلد كوني ، لان تاريخه في الواقع جزء كبير من تاريخ عالمنا المتحضر .

طبيعة ارضه الجبلية ، وقربه من البحر ، وموقعه في مركز متوسط في البلدان التي كانت مهد الحضارة ، وموقعه عند مفترق الطرق العالمية ، وكونه جزءاً من الطريق الدولية التي كانت تربط بين قارات ثلاث ، هذه وغيرها كانت عوامل ذات اثر بعيد المدى في تكوين دوره التاريخي . فقد كان بحر لبنان ، البحر الابيض المتوسط ، اول طريق بحري مرت عليه بضائع الشعوب المتحضرة لتتوزع على بلدان شواطئه ، بضائع مادية وبضائع ثقافية . وكانت الشعوب التي انشأت الحضارة الاولى تستوطن وادي الرافدين ووادي النيل وكان لبنان يتوسطهما . هذه البقعة الجغرافية التي يُكوّن لبنان فقارها تتجه نحو البحر الابيض المتوسط الذي اعطاه لبنان اكثر مما اخذ عنه . ووراءه تقع سهول سورية التي تمتد الى الصحراء فالى اواسط آسية . والى شماليه كانت تقع مواطن الحثيين حيث نشأ اقدم مركز حضاري للشعوب الهندو جرمانية . والى جنوبيه تقوم فلسطين حيث ولدت الديانة اليهودية ثم المسيحية . ولتفهم تاريخ هذه المنطقة تفهما واعياً تجدر الاشارة الى حقيقتين تاريخيتين : اولاً ان ساحل هذه المنطقة وسهلها الداخلي - البقاع - كانا ابداً مركزاً للاتصال بالعالم الخارجي ولتبادل الحضارات وللتفاعل الفكري وللتغير الدائم . والحقيقة الثانية هي ان اعالي هذه المنطقة ، التي يصعب الوصول

اليها احياناً ، كانت منطقة منعزلة نائية عما يجري في العالم . فحافظ اهلوهـا على عزلتهم وعلى اكتفائهم الذاتي وعلى حريتهم واستقلالهم وعلى مناعتهم ضد كل شيء يأتيهم من العالم الخارجي .

ان اقدم شعب استوطن لبنان ، نعني اقدم شعب يعرفه التاريخ ، كان الشعب الكنعاني السامي الذي انتشر ايضاً في الاطراف السورية المجاورة وفي كثير من بقاع فلسطين . والحضارة الكنعانية اساس ومرتكز قامت عليهما الحضارة العبرية في فلسطين والحضارة الآرامية في سورية . فان كلا الشعبين ، العبران والآراميين ، جاءا البلاد الفلسطينية والسورية في عصور تالية ، وكلاهما اخذا عن حضارة الكنعانيين واقتبسا الكثير قبل ان تمكنا بدورهما ان يعطيا العالم شيئاً . ولقد اعترف الناس منذ اقدم الاجيال بفضل ما قدمه العبران للحضارة العالمية ، ولكن ظلّ الناس حتى الفترة الاخيرة يجهلون حقيقة ما قدمه الكنعانيون للحضارة العبرية . فان العبران الذين استقروا بين الكنعانيين – الذين سمّاهم الاغريق فيما بعد الفينيقيين – اقتبسوا الكثير عنهم في الدين واللغة والفنون وفن العمارة والادب والزراعة والصناعة . فقد كانت كنعان في الالف الثالث والثاني قبل المسيح جسراً حراً تمر عليه البضائع المصرية في طريقها الى بابل ، والبضائع البابلية في طريقها الى مصر . ولم يقتصر الامر على البضائع المادية بل تعدّاهـا الى انتقال الافكار والتيارات الحضارية .

ولم يقتصر اثر الحضارة الكنعانية على الشعبين العبراني والآرامي اللذين بدورهما اثرا في حضارة الشرق كله بل تعدّاهـما الى الشعب اليوناني الذي بدوره اثر في حضارة الغرب كلها، وبذا اصبحت هذه الشعوب الثلاثة وريثة الحضارة الكنعانية . وحسبنا ان نشير الى تلك الرموز السحرية – حروف الهجاء الفينيقية – التي تعد بحق اعظم اختراع حققه الانسان . بواسطة هذه الرموز يستطيع الانسان ان يسجل افكاره وعواطفه ويبقيها بعده اراثاً للخلف . وبواسطة هذه الحروف شاد الاغريق من كنوز عبقريتهم الادبية والفلسفية صرحاً لا يقدر بشئ . وقد اخذ الرومان هذه الحروف الهجائية عن الاغريق ، فدوّنوا بها قوانينهم المشهورة التي اتخفوا بها العالم المتمدن . وفي الوقت ذاته كان الشعب الآرامي – سكان سورية القدماء –

ينشرون هذا الحرف الفينيقي بين الفرس والهنود والارمن . واهم من هذا — بالنسبة الينا — انتشار هذا الحرف وشيوعه بين العبران الذين سجلوا به ادبهم الديني الخالد — اسفار التوراة — وبين العرب اصحاب لغة القرآن الكريم . وحسب اللبنانيين القدماء فخراً واعتزازاً انهم خلقوا هذا الحرف ، ولو انهم لم يقدموا للتراث الانساني غير هذا الاختراع العظيم لظلوا بحق وجدارة يتبوأون مركزاً مرموقاً في تاريخ الفكر البشري .

انشأ الفينيقيون على جانبي البحر الابيض المتوسط الشمالي والجنوبي مستعمرات كانت لهم مراكز اشعاع حضاري . وكان مرتكزهم على الشاطئ الجنوبي مدينة قرطاجة ربيبة صور ومنافسة رومة في السيطرة على اواسط البحر المتوسط . وكان القرطاجيون يحسبون انفسهم كنعانيين . وفي الواقع انهم كانوا يعرفون بالكنعانيين حتى القرن الخامس بعد المسيح . وقد صنع الفينيقيون مراكب من خشب الارز ، واجتازوا بها اعمدة هرقل واقاموا لانفسهم مستعمرات غريبها وبذلك شقوا الحجب التي كانت تفصل بين العالم القديم المعروف ، وبين العالم المجهول وراء البحار . ولا مرأ بأن اكتشاف المحيط الأطلسي يعد انتصاراً من اعظم الانتصارات وابعدها اثراً في تطور الحضارة .

لم يكن لبنان جزءاً من العالم الذي بدأ فيه سير التاريخ وحسب ، وانما يمكن اعتباره ، تجزأً ، جزءاً من تلك البقعة التي يطلقون عليها اسم الارض المقدسة ، التي تغني انبياء وشعراء بمجدها وبجمال ارضها وجودة نتاجها . قممها العالية المغطاة بالثلوج كانت ولم تزل مصدر وحي روحي للكتاب ، ومعاقلها معتكفاً روحياً للنسك والعباد . جماعات من صيدا وصور امتوا الجليل ليسمعوا عظات السيد المسيح ولينتفعوا بعجائبه ^(١) ، وقد زار المسيح ذاته شاطئ لبنان الجنوبي ^(٢) . وقضى بولس الرسول اسبوعاً في صور وعرج على ميناء صيدا حيث زار اصدقاء له ^(٣) .

(١) انجيل مرقس ٣ : ٨ وانجيل لوقا ٦ : ١٧ .

(٢) انجيل متى ١٥ : ٢١ ، ومرقس ٧ : ٢٤ ، ٣١ .

(٣) اعمال ٢١ : ٣ - ٤ ، ٢٧ : ٣ .

واسم التوراة في الاغريقية Ta Biblia وهذا الاسم يُرد في اصله الى كلمة بيلوس اي جبيل^(١).

وكما ان شبه الجزيرة العربية تتميز بصحرائها ، ومصر بنيلها ، وبلاد ما بين النهرين (اي العراق القديم) بفرايتها ودجلتها ، فان لبنان يتميز بجباله . جبال لبنان ميزته الجغرافية الخاصة ، وجبال لبنان عامل حيوي في حياته . فان موقعها يؤثر تأثيراً بعيد المدى في مناخه وفي معدل سقوط المطر . كما ان ارتفاعها يعد عاملاً في تنوع نباته وحيوانه ومناظره . والى جانب هذا فان تكوين الجبال الطبيعي كان عائقاً يحول دون اتصال لبنان بالبلدان الشرقية الداخلية وعاملاً جغرافياً يجعل اتجاهه نحو بلدان الغرب . فلا غرو ان وجدنا مستوطنيه في الغالب يتجهون بأنظارهم غرباً أكثر مما يتجهون شرقاً . ولبنان ، من مجموعة البلدان الواقعة بين مراکش غرباً والعراق شرقاً، هو البلد الوحيد الذي ليس فيه صحراء ولا بين مستوطنيه قبائل رحل او متبدية . وفضلاً عن هذا فان طبيعته الجبلية قد تركت اثرها الشديد في عزم سكانه ونشاطهم . وكما ان النيل عامل توحيد بين جزئي مصر السفلى والعليا ، وكما ان الفرات ودجلة يجمعان العراق في وحدة جغرافية نجد ان الامر على نقيض هذا في لبنان حيث الجبل والوادي يفصلان بين مختلف سكانه ويجعلان منهم وحدات منعزلة: فقد كانت فينيقية فيما مضى كناية عن مدن مستقلة في الحكم والادارة مما جعل البلاد مجزأة الى مجموعات قومية او شبه قومية تشعر بالاستقلال وبالاكتفاء الذاتي حتى يومنا هذا . ومنذ اقدم العصور التاريخية نجد ان هذه البقعة - لبنان - كانت تستهوي وتجذب اليها سبلاً من المهاجرين - من الشعوب المتوسطية والسامية والهند وجرمانية - . وقد كانت هذه البقعة بمثابة جسر او ممر ضيق يربط بين اجزاء عظيمة من الارض ذات اهمية كبيرة ، وفي الوقت ذاته كانت ملجأ يحمي الجماعات ويعزلها . اما هذا الجسر ، او الممر الضيق ، فقد كان الشاطئ والسهل المرتفع (البقاع) الواقع بين سلسلتي لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، واما الملجأ فقد كان شواطئ ولبنان وقمه . وسكان الممر ، اي سكان الساحل والبقاع ، فقد كانوا بقايا طبقات بشرية : طبقة تعيش وتبني على انقاض طبقة سبقتها . اما سكان الجبال فقد كانوا اشبه بالفسيفساء المتنوعة الالوان حيث تعيش الجماعة

(١) راجع فريجة، انيس: اسماء القرى والمدن اللبنانية (جوني، لبنان، ١٩٥٦) ص ٨٩ (المترجم).

الواحدة الى جانب الاخرى . وهو تكوين اجتماعي طبيعي يشبه التكوين الاجتماعي العام في الشرق الادنى . غير ان داخلية لبنان تعكس هذا التركيب الاجتماعي بالوان زاهية واضحة المعالم . وفي هذه اللوحة التي تشبه الفسيفساء نجد جماعة تعيش الى جانب جماعة اخرى وفي الوقت ذاته تحافظ على خصائصها الاجتماعية والحضارية والعرقية .

اما الجبل ، بارضه الوعرة الصعبة وبمناخه المنشط ، فانه يتحدى ساكنيه ، وهم الذين جاءوه زراعات متعاقبة تحدوهم روح المغامرة . لذا تجدهم اهل عزم وثبات واقدماء يغالون بالاستقلال ويستमितون في سبيل الحرية . هنا في الجبل تنشأ في نفوس الناس نظرة استقلالية نحو الحياة ، وهنا تنشأ الفردية والصلابة وخصائص اخرى متميزة يتصف بها الجبليون في كل بقعة من بقاع الارض . وعندما يتكلم اللبناني عن نفسه يقول « نحن اهل الجبل » وهو قول يعتز به ونسب يفخر به . فقد كان لبنان ، بفضل اوديته وقمه ، ملجأً عبر الاجيال لكل اصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة التي يعاشونها ، وحمى لجماعات من الاقليات المضطهدة . فقد كان النساك من النصاري والمتصوفة من المسلمين والزهاد المتعبدون من الدروز يؤثرون مغاوره وكهوفه على ملاذ الدنيا . فهناك عدد كبير من المغاور التي كرسست للعدراء ولقديسين آخرين . والوارنة ، الذين فروا من اضطهاد البعاقبة لهم في القرن السابع للميلاد ، وجدوا في شمالي لبنان ملجأً آمناً . وكذلك الدروز ، الذين حسبهم المسلمون السنيون على شيء من الهرطقة ، أتوا لبنان من الجنوب في القرن الحادي عشر للميلاد . وكذلك تسربت جموع الشيعة الى لبنان في ازمة مختلفة ومن اما كن مختلفة هرباً من ضغط السنة عليهم . وآخر هجرة في الحقبة الاخيرة كانت هجرة الارمن وجماعات مسيحية من شمالي العراق ، يسمون الاشوريين (او الاثوريين) وذلك هرباً من اضطهاد العثمانيين لهم . هنا في لبنان يجدون مجالا رحباً ليعيشوا حياتهم كما يشاؤون ان يعيشوها . وهكذا تصبح الاقلية الهاربة من السهول في الموطن الجبلي الجديد اكثرية ، وتصبح العقائد المخالفة الخارجة على الارثوذكسية عقائد صحيحة متبعة معترفاً بها كما حدث للوارنة والدروز والشيعة (المتساولة) . فانهم قد اكتسبوا في موطنهم الجديد طابعاً خاصاً مميزاً لهم حتى انه يصح لنا ان نقول انهم اصبحوا ما يشبه القوميات المستقلة ولا يزالون كذلك الى عهدنا هذا .

ولبنان جبل بكل ما في الكلمة من معنى . وكجبل فانه قد تمتع خلال الاجيال بنعمة الاستقلال الجزئي والاستقلال الكامل . فانه كان ابدأ يمثل الخط الفاصل الذي كان الفاتح يستطيع الوصول اليه ، واذا صدف ان استطاع الفاتح ان يغزو ارضه فانه كان يجد من الحكمة ان يبقي على كيانه المستقل . ويشهد التاريخ مرة بعد مرة ان الاستيلاء على لبنان كان يبدو للغازي قريب المنال كالسراب ولكن لبنان في الواقع لا يُنال . فان الفاتحين العرب في اواسط القرن السابع للميلاد استطاعوا ان يدرجوا لبنان في الامبراطورية العربية ، ولكنه كان ادراجاً صورياً . اذ انه لم تكد تمر بضع عشرات من السنين حتى رفض سكانه من الموارنة دفع الجزية الى خلفاء بني امية في دمشق . وليس هذا وحسب وانما فرضوا فعلاً على بني امية نوعاً من الجزية يدفعها الامويون اليهم ضماناً لتصرفهم تصرفاً مرضياً . وبينما نجد ان وادي النيل والعراق ، حيث كانت اكثرية السكان مسيحية زمن الفتح العربي ، قد استسلموا واصبحوا فعلاً قطرين اسلاميين ، فان لبنان الجبل احتفظ باكثرية مسيحية حتى يومنا هذا . وفي مستهل القرن السادس عشر ادرك العثمانيون الذين اخضعوا غربي آسية انه من الخير لهم ان يحتفظ الجبليون اللبنانيون باستقلالهم الذي كانوا ينعمون به زمن المماليك . ولكن اللبنانيين لم يقنعوا بهذا بل ان امراءهم ، اشباه فخر الدين المعني (تو ١٦٣٥) وبشير الشهابي (تو ١٨٥٠) تحدوا سلطة الباب العالي وشقوا عصا الطاعة . وبعد حوادث عام ١٨٦٠ ، تلك السنة المشؤومة بحروبها الاهلية ، اعترف دولياً باستقلال لبنان وظل ينعم بذلك الاستقلال حتى الحرب العالمية الاولى .

ان ما قدمه اللبنانيون من خدمات للحضارة العالمية والتي بدأ بها الكنعانيون — الفينيقيون لم ينته امرها في العالم القديم بل استمرت الى الفترة الهلينية . فاننا نجد في قائمة الفلاسفة الهلنيين ، ولا سيما في قائمة الفلاسفة الرواقيين واصحاب الفلسفة الافلاطونية المستحدثة (الاسكندرانية) ، كما سيبدو للقارئ فيما بعد ، فلاسفة من اصل لبناني يعدون من اشهر الفلاسفة ومن ابعدهم اثراً . ونحن نعلم ان الارث الحضاري البارز الذي خلفه الاغريق للحضارة العالمية كان فلسفتهم . وقد اتم الاباطرة الرومانيون الذين تحدروا من اصل سوري لبناني بناء اعظم هيكل في العالم على ارض لبنانية : هيكل بعلبك ، مدينة الشمس كما كان يعرفها الغرب

(Heliopolis) . فان آثار هذا الهيكل تفوق بعظمتها وروعها اية آثار اخرى خلفها الرومان بما في ذلك آثار رومة ذاتها . وقد كانت بيروت ، عاصمة لبنان اليوم ، مركزاً لمعهد الحقوق . وقد ظل هذا المعهد المشهور ، الى ان دمرت المدينة في الزلزال الذي وقع في اواسط القرن السادس الميلادي ، يحتفظ بالمقام الاول بين جميع المعاهد الشبيهة به في الولايات الرومانية باجمعها . وقد كان من بين الحقوقيين الذين اسهموا احسن اسهام في وضع التشريع المشهور المعروف بتشريع يوستنيانوس استاذان من اساتذة معهد بيروت وهما بابنيان واوليان . ونحن نعلم ان القانون كان المفخرة العظيمة التي خلفها الرومان للحضارة العالمية . وها ان يوستنيانوس يخلع على بيروت (Berytus) لقب « ام الشرائع ومرضعتها » .

وقد ازدهرت في العصور المتوسطة جاليات سورية لبنانية من تجار وصناعيين في كثير من المدن الاوروبية : في اوستيا (Ostia) ومرسيليا وبوردو ، وذلك للمقايضة بين بضائع الشرق والغرب على غرار ما كان يفعله الفينيقيون اسلافهم . ولبنان اليوم كلبنان امس : جمهورية تتألف في الدرجة الاولى من تجار ورجال اعمال . فان الواحد منا عندما تطأ قدمه سواحل لبنان لا يتمالك عن الشعور بأن ذلك الجو التجاري الفينيقي هو جو ذاك الساحل الذي كان يزخر بالنشاط والحركة والحيوية . تلك الصفات التي كانت تتصف بها الحياة الفينيقية من حب الاستطلاع واعجاب بالرائع ، وتشوف الى المجهول ، لم تحب على ممر الاجيال ، وذلك الدفق من الحيوية لم يهدم . فان جاليات من احفاد الفينيقيين تعيش في القاهرة وفي باريس وفي مانشستر ونيويورك وسان باولو وبونس ايرس وسدني وفي كثير من المدن غيرها . وفي القرن التاسع عشر كان اللبنانيون اول شعب من الشعوب العربية التي استجابت بكل قواها ومشاعرها الى الحوافز المتدفقة عليهم من الغرب .

وقد كان تجاوب لبنان مع الغرب سريعاً وشديداً . فقد تناول زخم الغرب العنيف جميع حقول الحياة : في اساليب التجارة والصناعة ، في العلم والافكار الجديدة ، في اساليب الحكم والتربية ، وفي المؤسسات الاجتماعية والسياسية الحديثة . وقد كان لبنان اشبه بحجر انتقلت عليه هذه الاساليب الغربية العصرية وهذه الافكار الجديدة والمؤسسات الاجتماعية وتجاوزته الى سائر اقطار العالم العربي

الذي كان آن ذاك في حالة سبات . وقد تجسدت من تلك الافكار الجديدة الوافدة على لبنان من الغرب فكرتان حيويتان بارزتان : القومية والديمقراطية . فقد كان لبنان السباق في اعلان ذاته جمهورية . واول نظرة القتها سورية وفلسطين والعراق على العالم الغربي كانت من خلال النافذة اللبنانية .

جميع هذه الصفات — الجغرافية والتاريخية والثقافية — تدل على ان لبنان يتميز بذاتية تبرر دراسته دراسة مستقلة رغم ان مساحته لا تتناسب وعظم مقامه . وقد بدأ اشارة « ابو التاريخ » هيرودوتس الى اهمية البلدان الصغيرة بقوله :

« انني سأهتم بالبلدان الصغيرة اهتمامي بالكبيرة منها ذلك لان اكثر الامم التي كانت في سالف الزمان عظيمة اصبحت صغيرة ، والامم العظيمة في يومنا هذا كانت في سالف الزمان صغيرة . ولاني موقن بأن اقدار البشر عرضة للتغير الدائم فلن افرق في دراستي هذه بين امة كبيرة وامة صغيرة . » ^(١)

١ — Herodotus, *History*, Bk. I, ch. 5, in Arnold J. Toynbee, *Greek Historical Thought* (London, 1924), pp. 5-6.

الفصل الثاني

الجبل والسهل

ان الطابع المميز لطوبوغرافية لبنان هو انه ارض منخفضة تتلوها ارض عالية تمتد على خط يسير من الشمال الى الجنوب. فانك تستطيع ان تميز بين سورية والبحر الابيض المتوسط اربع مناطق مستطيلة من هذا التناوب الطوبوغرافي : انخفاض فعلاً . هذه المناطق هي الشاطئ ، ثم سلسلة جبال لبنان الغربية ، فالسهل الداخلي (البقاع) ، وآخرها سلسلة جبال لبنان التي تعرف بلبنان الشرقي (Anti-Lebanon) . وجمهورية لبنان الحالية تتكون من هذه المناطق الاربعة : من البحر الى مقسم المياه في اعالي السلسلة الشرقية (تحديد ١٩٢٠) وهذه البقعة هي في الدرجة الاولى مدار هذا البحث التاريخي .

السهل الساحلي اللبناني

اما المنطقة الساحلية فهي التي تمتد على موازاة البحر الابيض المتوسط الشرقي . وهذه المنطقة الساحلية تقع عند منتصف ساحل اطول ، ساحل يمتد شمالاً من خليج الاسكندرونة (واسمها القديم ايسوس) وينتهي جنوباً عند صحراء سيناء . هذه المنطقة الساحلية اللبنانية المحصورة بين البحر والجبل منطقة ضيقة اوسعها المنطقة الساحلية الشمالية بالقرب من طرابلس حيث يبلغ عرضها اربعة اميال . وعلى بعد بضعة اميال جنوبي بلدة جونيه يبلغ عرض الساحل ميلاً واحداً ثم ترتفع فجأة قمم جبال يبلغ علوها ٢٥٠٠ قدم وهي لا تبعد عن شاطئ البحر اكثر من اربعة اميال . على احدى هذه القمم (حريصا) يقوم تمثال رائع لسيدة لبنان (مريم العذراء) يشرف على خليج صغير جميل قل ان يجد له المرء مثيلاً في العالم . واذا سار المرء جنوباً يصل الى مصب نهر الكلب المشهور بنقوشه حيث يغسل الجبل اقدامه عند البحر . هذا الرأس الداخل في البحر موقع استراتيجي مكن اهل البلاد من الوقوف في وجه الغزاة . وبوجه عام نستطيع ان نقول بأن الساحل

اللبناني ساحل صخري يضيق فجأة هنا ويختفي تارة هناك . وهو على الخريطة خط مستقيم تكساد لا تجد لاستقامته مثيلاً على خريطة العالم ، فلا خلجان ولا مصاب انهر عميقة تصلح ان تكون موانئ طبيعية . ولذا لا تجد ميناء على الساحل اللبناني اوجدته الطبيعة ليكون ميناء . وهذا ما يدعو الى العجب الشديد لان سكان لبنان القديم ، الفينيقيين ، كانوا من ابرع الملاحين في اسفارهم البحرية .

ان تكوين الساحل اللبناني الطبيعي يرجع الى ارتفاع قاع البحر في العصر الجيولوجي المعروف بالعصر الثالث (Tertiary) . وفي عصور جيولوجية تالية غطى الطمي الذي ينحرف من سفوح الجبال طبقات الطباشير (chalk) في الساحل . وكتبان الرمل الاحمر بالقرب من شاطئ بيروت التي تغطي المنطقة الساحلية هي من موج بحر الابيض المتوسط ومصدرها من مصب النيل الذي يحرف معه الرمال من مصر العليا والسودان . هذا الساحل اللبناني الذي يتألف من شواطئ ضيقة ومن مناطق كانت يوماً قاع البحر ، ساحل خصب ، ويزيد في خصبه ان ارضه تتجدد بسبب ما يصيبه من الطمي المنحرف من اعالي الجبال والينابيع التي تظهر عند سفوح الجبال . وهي منطقة زراعية تصلح لزراعة الفاكهة والخضار . وتكثر فيه زراعة الموز والبرتقال والنخيل وقصب السكر .

لبنان الحقيقي

لبنان الحقيقي ، او لبنان الاصيل ، هو سلسلة الجبال الغربية . فقد عرفت هذه البقعة باسم لبنان منذ العهد الروماني ، بينما كان يطلق على السلسلة الشرقية اسم « انتيليبانوس » (Antilibanos) اي « لبنان المقابل »^(١) وهاتان السلسلتان كانتا فيما مضى من العصور الجيولوجية سلسلة جبال واحدة . وفي الواقع ان لبنان جزء متوسط من سلسلة جبال ونجاد مرتفعة تبدأ في جبل اللكام في شمالي سورية وتنتهي بجبال سيناء المرتفعة جنوباً . وهذا الجزء المتوسط - لبنان - اعلى جزء في هذه السلسلة ، واكثرها تنوعاً ووعورة ، واروعها منظراً واطرفها بلداً . واسم لبنان مشتق من لفظ سامي مشترك « لبن » ومعناه البياض ، بياض اللبن ، وذلك

Strabo , *Geography*, Bk. XVI, ch. 2, parag. 16; Pliny, - ١
Natural History, Bk. V, ch. 17, parag. 20. Ptolemy, *Geographu*.
 Bk. V, ch. 14 .

لان الثاج يغطي قمه العاليه حوالي ستة اشهر في السنة وليس لان الصخور الكلسية البيضاء تغطي اعاليه .^(١) وفي الواقع ان بقعاً من الثلج تبقى في اعالي القمم على مدار السنة . هذه السلسلة الغربية التي هي لبنان الاصيل اشبه بهيكل عظمي تكسوه سهول هنا ومنخفضات هناك . وهو اول حاجز يقف في سبيل المواصلات بين البحر الابيض المتوسط والبلدان الشرقية الواقعة الى الراء ، حاجز قل ان تجد فيه ثغرة او معبراً يسهل اجتيازه .

هذا الجبل وحدة طبيعية ذات حدود طبيعية من جوانبه الاربعة . فان حده الشمالي الذي يفصله عن جبال النصيرية في سورية النهر الكبير (ويعرف في التاريخ الكلاسيكي باسم البوثرس Eleutherus ومعناه^(٢) الحر) . وحده الجنوبي نهر القاسمية ، فيكون طوله شمالاً في جنوب ١٠٥ اميال . اما عرضه فيختلف كثيراً . فبينما هو بالقرب من طرابلس ٣٥ ميلاً نجد ان عرضه في الجزء الجنوبي لا يتجاوز الستة اميال . واعلى نقطة فيه تبلغ ١١٠٢٤ قدماً ، وذلك جنوبي شرقي طرابلس في قمة تسمى القرنة السوداء . ويبلغ علو القمة القريبة منها ، ظهر القضيبي ، التي تحتضن اكبر واشهر غابة من بقايا ارز لبنان ، ١٠٠١٨ قدماً بالقياس البارومتري^(٣) . وفي اثناء الحرب العالمية الثانية شقت طريق تخترق الجبل عند هذه القمة وتربط بعلبك بطرابلس . وبالقرب من هاتين القمتين ترتفع قمة ثالثة ، فم الميزاب ، التي يبلغ علوها ٩٨٤٠ قدماً . وقد انشئ عام ١٩٥٠ مصعد كهربائي من غابة الارز الى قمة فم الميزاب لهواة التزلج والرياضة الشتوية . وفي وسط هذه السلسلة الغربية يرتفع صنين (٨٨٤٢ قدماً) وجاره جبل الكنيسة (٦٨٠٠ قدماً) بجلال وروعة فكأنهما منارتان تريان من كل جهة على بعد اميال واميال . ويستطيع المرء ان يشاهد جلالهما من مدينة بيروت . وعندما يذكر الناس اهل الجبل او الجبلين فانما يشيرون الى سكان هذه السلسلة الغربية .

١ - فريخة : اسماء القرى والمدن ص ٣٠٤ (المترجم)

٢ - Strabo , Bk .XVI, ch . 2 ,parag . 12 , 15 ; Pliny , Bk . V , ch.

17 , Parag . 20 .

٣ - Cf. Robert H. West in *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1861) . pp . 147 - 9 .

المضايق والادوية

ان المضائق ومجاري المياه في القسم الشمالي من هذه السلسلة اودية كبيرة ذات جوانب شاهقة تسيل فيها سواق تحيط بها من على جوانبها سفوح ذات طبقات ارضية ظاهرة الالوان يجللها نبت مختلف الانواع مما يخلق لوحة تترك في نفس الراي اثرأ جميلاً. وأحد هذه الاودية وادي قاديشا (وملغناه المقدس) الذي احتفظ باسمه السرياني الى يومنا هذا . هذا الوادي اروع اودية لبنان واشدها وعراً وجلالاً . يبدأ هذا الوادي عند سفح غابة الارز - وراءه ترتفع اعلى القمم في لبنان - ثم يأخذ بالانحدار السريع فوق طبقة من الارض تعلوها صخور صغيرة ، ويستمر في الانحدار فوق منعطفات ومنعطفات حتى يصل الساحل فالبحر قرب طرابلس . وقد يبلغ عمق الوادي في بعض اجزائه ١٧٠٠ قدم . وترجع تسميته بالوادي المقدس الى الاجيال الوسطى عندما وجد نساك الموارنة ورهبانهم في كهوفه ومغاوره ملاجئ امينة . ودير قنوبين ، ^(١) مقر البطيركية المارونية سابقاً ، ليس سوى واحد من تلك الاديرة العديدة التي انشئت على جنبات الوادي المقدس . اما اليوم فالمقر الصيني للبطيركية المارونية هو بناء فخم في الديمان يشرف على الوادي من جهته العليا . ويجري في هذا الوادي نهر قاديشا الذي ينبع من مغارة تحت غابة الارز الشهيرة - وتنضم اليه مياه نبع مار سركيس (سرجيوس) في اهدن - ويتابع جريانه بشكل شلالات متتالية الى ان يصل الى بعد خمسة اميال من البحر حيث يتغير اسمه الى « نهر ابو علي » . اما المغارة التي تنبع منها مياه نهر قاديشا فهي من الأماكن السياحية التي يقصدها الناس لمشاهدتها كما يؤمون مغارة جعيتا التي ينبع منها نهر الكلب . ومياه هذا النهر تستخدم تجارياً لتوليد الكهرباء فضلاً عن انها تروي اراضي القرى المجاورة لمجراه بما في ذلك ساحل طرابلس عند مصبه . وعلى قمم الجبال من على جانبي النهر تنتشر قرى جميلة تطل على شواطئ صعبة المرتقى يخالها الراي من بعيد وكأنها تنسب بالصخر كي لا تنزلق الى الوادي السحيق . ومما يزيد في جمال هذا الوادي المقدس وروعته مرأى الاديرة والكنائس الرابضة على اعالي

١ - قنوبين اسم يوناني ويعني دير او مسكن للرهبان . وهو من اسماء الامكنة الارمنية غيبه التي لا تزال معروفة في لبنان . ويقال ان الامبراطور ثيودوسيوس بناء (٣٧٩-٣٩٥) . (راجع فريجة : اسماء القرى والمدن ص ٢٧٤ - المترجم)

القمم المختبئة في قلب الغابات بإبراجها وقباب اجراسها العالية . وهناك واد آخر رائع يجري على بضعة أميال جنوبي وادي قاديشا : وادي نهر ابراهيم^(١) (المعروف في التاريخ الكلاسيكي بوادي ادونيس) ينبع النهر الذي يسيل في هذا الوادي الجميل عند سفح جبل عال يشبه ملعياً مدرجاً كان فيما مضى موقعاً لمزار مقدس شهير Aphaca اي افقا كما تعرف في يومنا هذا . ويجري هذا النهر لا ينطبق عليه وصف الشاعر ملتون حيث يقول « ونهر ادونيس الأرجواني اللون يجري هادئاً منساباً من ينبوعه في اعالي الصخر الى البحر »^(٢) لانه ينحدر بصخب واندفاع . هذا الوصف (للشاعر ملتون) جعل اسم هذا النهر الصغير من اشهر اسماء الانهر اللبنانية . ويستطيع المرء ان يرى بقايا قناة انشأها الرومان لجر مياه الشرب الى بلدة جبيل (بيلوس) . وعلى بعد ٦ اميال من مصبه جنوبي جبيل انشئت مولدات للكهرباء لانهارة بيروت وضواحيها . ونستطيع ان نجزم بانه في هذين الوادين ، وادي نهر ابراهيم وقاديشا ، تقع عين الانسان على اجمل المناظر الطبيعية في لبنان .

البقاع

ان السهل المرتفع الذي يقع بين سلسلتي لبنان يشبه اسفيناً يشق السلسلتين الجبليتين الى جزئين : غربي وشرقي . طول هذا السهل من شماليه الى جنوبيه قرابة ١١٠ اميال ، وعرضه باتجاه غربي شرقي يتراوح بين ٦ اميال وعشرة ، ومعدل ارتفاعه عن سطح البحر ٢٥٠٠ قدم . وهو في اواسطه اعرض مما هو عليه عند طرفيه . واذا قبض لك ان تلقي نظرة عليه من الجو زمن الربيع ، خلت نفسك ترى سجادة شرقية جميلة التقطيع رائعة الالوان يخترقها خط رفيع متعرج هو نهر الليطاني . وهذا هو المكان الذي يشير اليه كاتب سفر يشوع (١١ : ١٧) عندما يذكر « بقعة لبنان » ، وهذه هي البقعة الجغرافية التي كان مؤرخو الاغريق والرومان يعرفونها باسم « سورية المجوفة »^(٣) وهو الاسم الذي اطلق عليها بعد

١ - وقد تكون هذه التسمية ، نهر ابراهيم ، نسبة الى امير ماروني من العصور المتوسطة بنى هناك جسراً عرف باسمه فيما بعد .

٢ - *Paradise Lost*, Bk . I , I , 450

٣ - Strabo, Bk XVI, ch. 2, Sec. 21; Pliny, Bk. V, ch. 17, Sec. 12,20; Ptolemy, Bk. V, ch. 14.

فتوحات الاسكندر المقدوني . وفي الحروب التالية التي نشبت بين السلوقيين في سورية والبطالسة في مصر أصبح الاسم يشمل القسم الجنوبي من سورية بأكمله . ولكنه في العهد الروماني أصبح يشمل البقاع (سورية المحوفة) وهوران وجزءا من شرقي الاردن . أما سهل البقاع ، جيولوجيا ، فهو الجزء الاوسط من شق او وهدة كبيرة تبدأ شمالا عند منعطف نهر العاصي (Orontes) في سورية وتمتد جنوباً الى وادي نهر الاردن فوادي العرب الى خليج العقبة في البحر الاحمر . اما المؤرخون والجغرافيون العرب فكانوا يقسمون البقاع الى بقاعين : البقاع البعلبكي والبقاع العزيزي . وليست تسمية جزء منه بالبقاع العزيزي نسبة الى العزيز بن صلاح الدين (تو ١١٨٨) او نسبة الى الخليفة الفاطمي العزيز ، بل نسبة الى اسم إله سامي قديم « عزيزو » اي العزيز (ومعناه القوي الجبار الشديد) الذي كانت عبادته شائعة في حوران وتدمر وأما كن اخرى مجاورة لهذين القطرين . أما لفظة « بقاع » فهي جمع « بقعة » ومعناها مكان فيه ماء آسن^(١) .

وأرض هذا السهل ، سهل البقاع ، مسطحة منبسطة في اكثرها ومنتوجة في أقلها . وهي ارض زراعية خصبة يروها نهران ينبعان بالقرب من بعلبك يفصل بين نبعيهما مسافة لا تزيد عن الميل . هذان النهران هما نهر العاصي الذي يتجه في سيله شمالا الى سهول سورية ويصبح من اعظم انهارها ، ونهر الليطاني (Leontes)^(٢) الذي يسيل جنوباً ثم ينحرف فجأة الى الغرب عند سفح قلعة شقيف الصليبية (Belfort) ؛ ويسمى هناك نهر القاسمية^(٣) . ثم يندفع نحو البحر بين صيدا وصور . ويجري الليطاني في سهل البقاع في مسيل يزداد عمقاً كلما اتجه جنوباً ، ثم ينحرف مجراه غرباً الى المتوسط . وقد عقدت اتفاقية عام ١٩٥١ بين الحكومة اللبنانية والحكومة الاميركية على ان ينشأ خزانات واقنية للري ولتوليد

١ — غير اننا نرى في الاسم لفظاً سريانياً معناه الشق والتصدع كما يدل عليه تكوينه الطبيعي الجيولوجي الذي اشار اليه المؤلف . راجع فريحة : اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها (المترجم)

٢ — Cf. René Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (Paris, 1927), p. 47.

وهنري لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ، الطبعة الثانية (بيروت ١٩١٤) مجلد ٢ ، ص ٢٠ — ٢٣ .

٣ — نسبة الى الولي قاسم ، وهو مزار اسلامي يقع قرب مصب النهر .

الكهرباء كجزء من المساعدات الاميركية المعروفة بالنقطة الرابعة . ويعرف هذا المشروع الضخم باسم « مشروع الليطاني » . وسهل البقاع هو المنطقة الزراعية الرئيسية في لبنان ، وحاصلاته الرئيسية الحبوب . وقد كان في العهد الروماني بمثابة اهرء للحنطة والحبوب في الولاية السورية الرومانية . والى جانب كونه ارضاً زراعية ممتازة تكسو قشرتها طبقات من الرواسب والطمي فانه ارض طيبة ممتازة تصلح ايضاً ان تكون مراعي للماشية . ومما يدل على انه كان بقعة مكتظة بالسكان التلال العديدة التي كانت مواقع قرى يستطيع الذهاب من بيروت الى دمشق ان يتبينها بوضوح .

لبنان الشرقي

يقابل لبنان الغربي سلسلة جبال تعادلها ارتفاعا وطولا . وقد كانت هذه السلسلة تعرف في الفترة الكلاسيكية بانتيليبانوس (اي لبنان المقابل) والتي نعرفها اليوم باسم لبنان الشرقي . تبدأ هذه السلسلة جنوبي حمص وتمتد الى جبل الشيخ (حرمون) ومن هناك تأخذ بالانحدار السريع الى ان تندمج بنجد حوران وتمتد شرق الاردن الى ان تنتهي عند الطريق الجنوبي للبحر الميت . وتنتهي هذه السلسلة الشرقية جنوبا عند جبل الشيخ (حرمون) الذي تغطى سفوحه السفلى طبقة من



الحجارة البركانية . والى الجهة الشرقية من سلسلة جبال لبنان الشرقي تمتد فروع جبلية عديدة وتدخل في الصحراء السورية . فان القلمون ومعلولا ليستا سوى فرعين شرقيين من هذه السلسلة . وقد عرف جغرافيو العرب في العصور المتوسطة هذه البقعة باسم سنير^(١) وهذه اللفظة هي التسمية السامية القديمة التي كانت تطلق بوجه خاص على حرمون .

يشطر وادي بردى (واسمه الكلاسيكي القديم ابانا) سلسلة لبنان الشرقي الى شطرين ، شطر شمالي تكاد لا نجد على سفوحه الغربية قرية واحدة ، وشرط جنوبي ابرز قممه حرمون (وعلوه ٩٣٨٣ قدما) . وتقوم على السفوح الغربية لهذا الشطر الجنوبي قرى عامرة عديدة ، منها قرى درزية . ولا يقاس لبنان الشرقي بلبنان الغربي من جهة معدل سقوط المطر وجفاف الهواء . فان المطر في السلسلة الشرقية اقل معدلا ، والهواء اشد جفافاً ، ولا سيما في الجزء الشمالي من هذه السلسلة . ولذا كان لبنان الشرقي اقل سكاناً وانتاجاً من لبنان الغربي . والسواقي والانهر التي تنبع من هذه السلسلة قليلة . وحد الجمهورية اللبنانية الشرقي خط يمر من فوق حرمون ثم يدور حول التلال ذات الانحدار الشديد في منطقتي الزبداني وبلودان^(٢) ويتابع سيره الى اعالي قمم سلسلة لبنان الشرقي . اما نهر بردى فانه يسيل في اتجاه جنوبي شرقي فيحيط من الاراضي السورية مساحات كبيرة لولا مياهه لكانت صحراء قاحلة . وفضلا عن هذا فان مدينة دمشق ، احد مراكز الحضارة على حدود الصحراء ، وغوطتها الشهيرة مدينتان بحياتهما وكيانتهما لبردى .

ان جبل الشيخ (حرمون) ، بفضل تكوينه الطبيعي وموقعه الجغرافي ، اجمل قمة في هذه السلسلة واشدها روعة وجلالا وبرزها الى عين الرائي من مسافات بعيدة . واسمه - حرمون - عبراني الاصل ومعناه مقدس . اما الاموريون فقد سموه شنير والفينيقيون سيريون^(٣) .

١ - ياقوت : معجم البلدان طبعة ف . ويستفد المجلد الثالث (ليبسك ١٨٦٨) ص ١٧٠ .
وراجع ابو الفداء : تقويم البلدان طبعة م . رينو ودي سلين (باريس ١٨٤٠) ص ٦٨ . يمكن القول اجمالا بان معرفة العرب بالجغرافيا اللبنانية لم تكن شاملة ولا دقيقة .

٢ - وهي بلودان ، راجع العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ، طبعة احمد زكي ، المجلد الاول (القاهرة ١٩٢٤) ص ٣٥٨ .

٣ - سفر التثنية ٣ : ٩ . قابل نشيد الانشاد ٤ : ٨ .

وقد كان هذا الجبل جبلاً مقدساً للاله بعل حرمون الذي ظلت عبادته معروفة الى زمن طويل بعد كتابة اسفار العهد القديم .^(١) واسمه الحالي في العربية الجبل الشيخ لا جبل الشيخ .^(٢) وقد عرفه جغرافيو العرب بجبل الثلج . وقد تكون هذه التسمية ترجمة لاسمه في الآرامية : طور تلجا . واقدام ذكر لهذا الجبل في الادب العربي يرد في قصيدة لحسان بن ثابت شاعر النبي .^(٣) وقمته التي تشرف على سلسلة من التلال المتداخلة والودية المتشعبة مجللة بالثلج على مدار السنة . بينما ترى بقع من الثلج بشكل خطوط متعرجة تغطي الودية المنتشرة على جوانبه^(٤) ويستطيع المرء ان يرى قمة حرمون من فلسطين . ونهر الاردن ، الذي يلقيه الشعراء العرب « بان لبنان البكر » ينبع عند سفوحه . ويستطيع الواقف على قمته ، اذا كان الجو صافياً ، ان يرى دمشق وجناتها وصور وجبل الكرمل وتلال الجليل وسهوله وبحيرة الحولة وبحيرة طبرية . وليس هنالك ما يؤيد الرأي القائل بان « الجبل العالي » الذي صعد اليه المسيح يوم التجلي هو حرمون .

تركيب الطبقات الصخرية

ان الطبقات الصخرية في لبنان الغربي والشرقي تشمل طبقة عليا كلسية وطبقة اخرى سفلية كلسية تتوسطها طبقات صخر رملية . اما الطبقات الكلسية العليا فان سماكتها تتراوح بين بضعة مئات من الاقدام الى بضعة الآف منها . ولكن كثافة الطبقات الكلسية السفلى غير معروفة لانها داخلة في الارض ولا يرى منها شيء على وجه الارض . هذه الطبقة الكلسية بينا نراها في قاع اعماق الوديان فانها بسبب التقلص الجيولوجي رُفعت في كسروان الى علو ٤٠٠٠ قدم والى ٧٠٠٠ قدم قرب تومات نبحا (بالقرب من جزين) والى علو ٩٠٠٠ قدم في جبل حرمون . في

١ - راجع سفر القضاة ٣ : ٣ ، وسفر الاخبار الاول ٢٣ : ٥

٢ - جبل الشيخ هي التسمية العامة، وهذا ما ادى الى الخطأ الذي يقع فيه المترجمون اذ يحسبونه جبل رجل شيخ طاعن في السن بينما المعنى هو الجبل المكمل رأسه بالثلج كما يكمل الشيب رأس الشيخ . راجع F. M. Abel, *Geographie de la Palestine* (Paris, 1933), p. 347 .

٣ - ملكاً من جبل الثلج الى جاني ايلة من عبد وحر راجع الديوان ، نشر هارتوغ هرشفلد (ليدن ١٩١٠) ص ٧٨ والسطر العاشر

٤ - راجع سفر ارميا ١٨ : ١٤

هذه الطبقة الكلسية السفلى التي تغطي مساحات كثيرة هنا وهناك في السلسلتين الغربية والشرقية نجد اما كن يكثر فيها الحديد الخام . وصهر هذا المعدن الخام في اتونات بدائية لا يزال شائعاً معروفاً الى يومنا هذا . وعملية الصهر هذه كانت احد الاسباب التي قضت على احراش لبنان وخلفته جبلا اجرد^(١) . وهناك صخور قائمة بركانية تتداخل في الطبقة الكلسية السفلى . اما تركيب وديانه ومضايقه الجبلية فتبدو فيها جميع التكوينات الطبيعية الممكنة : من الصخر الناري والصخر المتحول والصخر الرسوبي .

اما سطح الارض في لبنان فقد كان على ممر العصور التاريخية ذلك السطح الذي يتألف من الطبقة الكلسية العليا التي تكسبه لوناً رمادياً يضفي على مناظره الطبيعية مسحة من جمال . وتربة لبنان الزراعية هي من تفتت صخور هذه الطبقة الكلسية . واذا مرت عجلة في ايام الصيف فوق طريق غير مزفت تتصاعد سحب من غبار رمادية . هذا الغبار هو من تفتت هذه الطبقة الكلسية . ومن صخره يقتلع السكان حجارة لبناء بيوتهم . وينابيع لبنان، تلك الينابيع المتلألئة المتدفقة من سفوح التلال هي من تجمع مياه المطر التي تخترق الطبقات الكلسية العليا وتتجمع في الطبقات الرملية والدلغانية التي تغطي الطبقات الكلسية السفلى . هذه الينابيع هي ينابيع حياة لسكان السفوح والسهول والودية .

اما طبقات الصخر الرملية - وهي طبقات تتوسط الطبقتين الكلسية العليا، وهي طباشيرية ، والطبقة الكلسية السفلى ، وهي جورية^(٢) - فهي من نوع الصخر الطباشيري ايضاً . ويبدو انها تنتمي للطبقة الرملية النوبية التي تتجه شمالاً مارة بصحر فسيناء فالعربية السعودية فشرقي الاردن . اما كثافة الطبقة الرملية في لبنان فيتراوح علوها بين بضعة مئات من الاقدام الى الف قدم . وهذه الطبقة الرملية خلوة من المتحجرات ولكن يتخللها طبقات رقيقة من الفحم الحجري (ولكنه فحم حجري من النوع الذي يعرف باللكنيت (lignite) اي الذي لم يتحجر فيه الخشب او الحطب تحجراً تاماً) الذي عدته اللبنانيون في الازمنة الحديثة ليستعملوه

١ - Alfred E. Day, *Geology of Lebanon* (Beirut, 1930), pp. 29 - 30

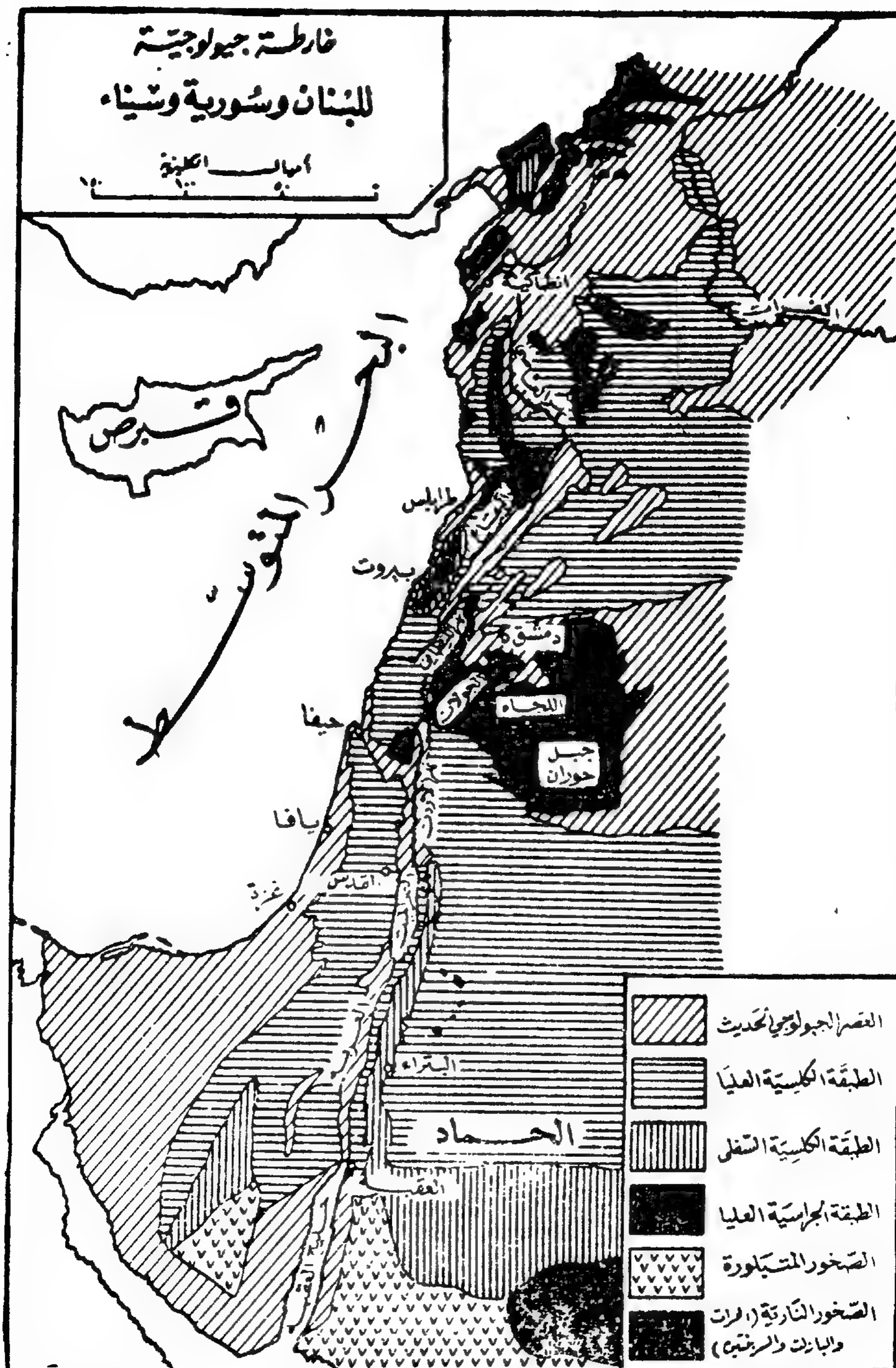
٢ - تعريب لفظ Jurassic اي نسبة الى جبال جورا في سويسرا .

وقوداً في معامل الحرير ولتيسير القطار زمن الحرب العالمية الاولى . ونجد في مقاطعتي كسروان والمتن، حيث جرف التفتت الطبقة الكلسية العليا جرفاً تاماً، ان الطبقة الرملية هذه والطبقة الكلسية السفلى باديتان للعيان على سطح الارض. وهذه الطبقة الاخيرة — الكلسية السفلى — ولونها احمر غامق، تظهر فيها الوان متنوعة جميلة في بعض المقاطعات، واحسن ما تظهر فيه من الوان في لبنان والبتراء . إن التربة في جميع انحاء لبنان الغربي وفي بعض انحاء لبنان الشرقي، تلك التربة التي هي نتيجة تفتت الطبقة الكلسية الغنية بالمتحجرات، والتي هي نتيجة انحلال الصخر الناري والصخر المتنوع التركيب، نقول ان هذه التربة في تجدد مستمر مما يغني الفلاح اللبناني عن تسميد الارض وتجديد حيويتها آناً بعد آخر . هذه التربة التي يتخللها الدلغان والتي تسقيها ينابيع لبنان هي تربة خصبة لزراعة الفسাকে واشجار التوت، الزراعتين اللتين يتوقف عليهما، الى حد بعيد، ازدهار العيش في المنطقة القريبة من البحر .

ان مناظر لبنان الطبيعية المتعددة الالوان — وهي من اروع المناظر الطبيعية في العالم واكثرها سحراً وفتنة — تبدو وكأنها تمثال رصين هاديء قد من كتلة صخرية هائلة قائمة على مشارف البحر المشع ذي اللون الازرق النيلي . وما يزيد في جمال هذه المناظر سحراً صفاء الجو، وامتداد الافق، ونقاوة الهواء . في مثل هذا الصفاء، وفي مثل هذه النقاوة تبدو خطوط هذه المناظر الطبيعية والوانها الساحرة واضحة ظاهرة المعالم : البحر فالساحل فالجبل فالوادي مما يؤلف سلسلة من المناظر الرائعة التي تأنس لها العين وتطيب لها النفس . هذه المناظر الطبيعية الخلابة كانت ابداً مصدر وحي للشعراء والمغنين منذ العهد العبراني الى العهد العربي . هذا الجمال الطبيعي هو الجمال الذي يستولي على قلوب المهاجرين اللبنانيين ويشدهم الى وطنهم الام .

العصور الجيولوجية

ان المدرج الواقع عند سفح القمم الشمالية في لبنان، حيث لا تزال هناك غابة الارز التاريخية، هو في نظر علماء الجيولوجيا، نهاية مسير جبل ثلجي في العصور



السابقة للتاريخ^(١). فقد زحف الجليد في الاعصر الجليدية جنوباً الى نيويورك في اميركة الشمالية. وغطى شمالي اوروبا ، ولكنه لم يصل الى اي بقعة من بقاع لبنان. ولكن شدة البرد ازدادت حتى انه تكونت ، في تلك العصور السحيقة ، ثلاجات محلية . ان اهمية انتشار الطبقة الجليدية على سطح الارض من وجهة تاريخية لا تقاس باهمية الترسبات التي خلفها الجليد والتي تحتوي على اولى الدلائل على وجود الانسان في تلك الحقبة الجيولوجية . وآخر عهد للجليد ، وربما اعظم عصر له ، كان منذ مليون سنة . ويبدو ان الانسان الاول قد ظهر في اوروبا اثناء الفترة الاخيرة الدافئة الواقعة بين عصرين جليديين . وربما في الوقت ذاته، ان لم يكن قبله بقليل ، رفع الستار ليظهر الانسان في لبنان وفي اقسام اخرى من الشرق الادنى .

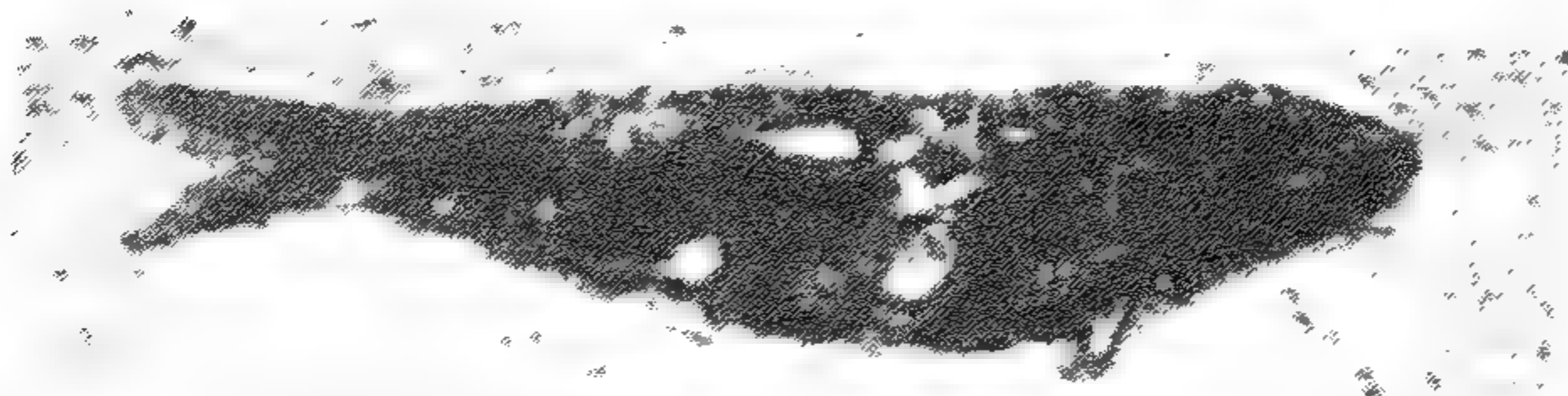
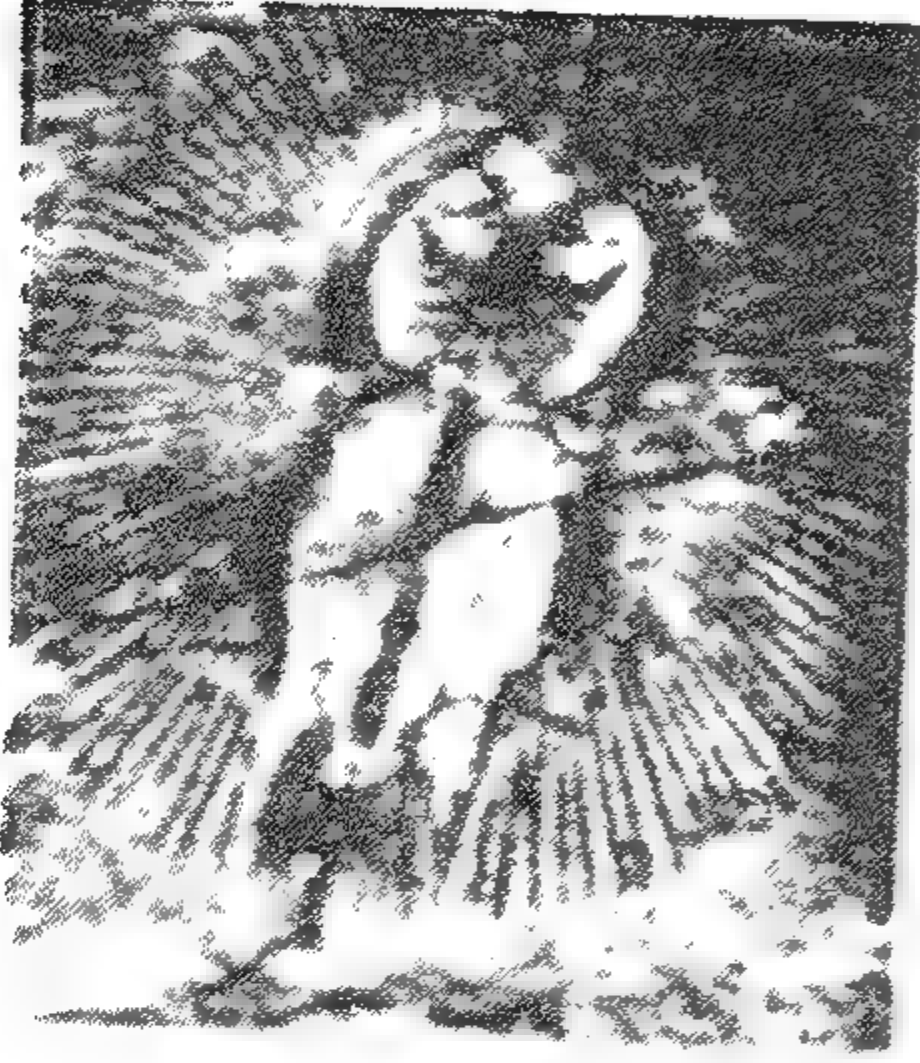
قبل هذه الاعصر السحيقة التي تكلمنا عنها كانت المياه التي تكون البحر الابيض المتوسط تغمر الجزء الشرقي من حوضه ، بما في ذلك لبنان ، حتى مداخل الهند الشمالية . وقد كان هذا الحدث في الاعصر الجيورية^(٢) والكلسية القديمة . في قاع هذا البحر العظيم الذي يعرف ببحر تيس Tethys والذي كان يغمر الارض الممتدة من شرقي حوض المتوسط الى شمالي الهند تراكت على مدى الاعصر الجيولوجية طبقات ترسيبية من كلا الكتلتين القاريتين القائمتين شماله وجنوبيه (قارة Gondwara و Angara) . هذه الترسبات هي الطبقات الكلسية التي يتألف معظم لبنان منها . وقد وقع في العصر الجيولوجي الثالث الذي عقب الحقبة الكلسية تحركات ارض عنيفة كان من جرائها تقلص مساحة هذا البحر العظيم ، تيس Tethys ، وظهور اليابسة بفعل ارتفاع طبقات القاع وتجمعها التي نعرفها اليوم ببحال النصيرية ولبنان الغربي والشرقي ومرتفعات اليهودية ونجد البلاد العربية . وعليه فان لبنان الغربي والشرقي من جهة ظهوره من تحت اليم حديث العهد اذا ما قيس بمناطق اخرى . وهو شأن جميع الجبال الحديثة العهد ، شديد الارتفاع كثير الاخاديد . ولم يتميز هذا العصر الجيولوجي الثالث بتغيرات واسعة النطاق وحسب

١ - G. Zumoffen, *Géologie du Liban* (Paris, 1926) , pp . 152 - 153 ;

Day, p . 21 .

٢ - نسبة الى اسم الجبال الفرنسية Jura الواقعة بين فرنسا وسويسرا التي يعود زمن تكونها الى هذه الحقبة .

بل انه يتميز بسيادة الحيوانات الثديية وسيطرتها على اليابسة . وبقايا هذه الحيوانات التي دفنت في الطبقات الترسبية وتحجرت تعيننا في تعيين الزمن الذي حصلت فيه هذه الترسبات . من هذه المتحجرات ، وربما من ابرزها ، تلك المجموعة من السمك المتحجر التي وجدت في ساحل علما (قرب جونيه) وفي حاقـل (فوق جبيل^(١)) . ومن أقدم الاشارات في الأدب الى متحجرات السمك ، والتي لا تقبل الشك ، اشارة وردت في سيرة احد الجنود الصليبيين التي كتبها عن نفسه (١٢٤٨^(٢)) والتي يقول فيها انه وجد هذا السمك المتحجر في صيدا .



- اسماك متحجرة من لبنان، وقد وجدت في الطبقة الكلسية العليا، ويعود عهدها الى ٧٥ مليون سنة .
- ١ - نوع من السمك العليار ، وهو نوع منقرض ، وجد في ساحل علما .
- ٢ - نوع من السمك يسميه صيادو الاسماك في لبنان «المر» . ولم يوجد له نظير في أي بلد آخر .
- ٣ - سمكة متحجرة وجدت في حاقـل .

Zumoffen , pp . 134 - 41

Joinville, *Histoire de Saint Louis*, de. Natalis de Wailly - ٢
(Paris, 1874), sec. 602 .

لبنان ملجأ أمين

ان الطبقات الارضية التي تتكون منها قشرة لبنان بوجه عام منحنية وملوئية ومفتولة ، وفي أكثر الأحيان ترتفع عمودياً . وقل ان تكون افقية . وقد اسفر هذا التركيب الطبيعي المختلط عن مزيج من تلال وشواهد واخاديد تجعل الاتصال بين بقعة واخرى امراً عسيراً شاقاً . ومما يزيد في تعقيد سطح الارض ان هذه البقعة الجغرافية بكاملها يتخللها خسوفات ارضية أو تصدعات من على جوانبها بقاع من الارض تضغط البقعة الواحدة على الاخرى وتفتتها . كان ذلك في العصر الجيولوجية القديمة عندما كانت قشرة الارض المتلوية عرضة للضغط والطي . هذه الارض الخشنة الوعرة - وجه الارض في لبنان - كانت دوماً عبر الاجيال ملجأ أميناً لاقليات ولافراد يخالفون المجموع في معتقداتهم وولائهم . هذا السطح الغني باوديته الكبيرة المرتفعة وبقاعه الزراعية الخصبة ، كان دوماً يستهوي الجماعات المغامرة الطامحة المحبة للاستقلال من البلدان المجاورة . فان الفيرقي المسيحية المختلفة والشيع الاسلامية المخالفة للمعتقد السني والمطرودين من بلدانهم ، هؤلاء وآخرون كثيرون من السهول الداخلية كانوا ابدأ يجدون في لبنان ملجأ آمناً يعيشون فيه كالموارنة والدروز والشيع (المتأولة) . ولم يقتصر الامر على نساك النصارى ، بل ان اولياء وعباداً مسلمين^(١) وجدوا في مغاور لبنان وكهوفه ملجأ حتى اصبح لبنان يعد من سادات الجبال الاربعة المحترمة وهي لبنان وجبل سيناء وجبلان آخرا في الحجاز . وهناك رواية تقول ان الحجارة التي بنوا بها الكعبة اقتلعت من خمسة جبال احدها لبنان^(٢) .

١ - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة دي غويه (ليدن ١٨٧٧) ص ٤٤ .

٢ - ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، طبعة دي غويه (ليدن ١٨٨٥) ص ١٩ - ٢٠ .

الفصل الثالث

المناخ والنبات والجبال

الرياح والأمطار

ان الطابع المميز للمناخ اللبناني وجود فصل ماطر يبدأ في منتصف تشرين الثاني وينتهي في اواخر آذار يعقبه فصل جفاف فيما تبقى من السنة . ويفصل هذين الفصلين الطويلين واحدهما عن الاخر فصلان آخران قصيران هما بمثابة فترة انتقال بين فصل وآخر : الربيع والخريف . وبتزايد سقوط الامطار في شهر كانون الاول والثاني وشباط ويبدأ ان يخف في شهر آذار . اما اثناء فصل الجفاف فقل ان يسقط مطر انما يتكاثر الغيم في هذا الفصل عند بدء فيضان النيل . وانقسام السنة مناخياً الى فصلين متميزين يصدق على كامل منطقة البحر المتوسط . ومرد هذا الى ان هذه المنطقة تقع بين منطقتين مختلفتين تمام الاختلاف من جهة سقوط المطر : الاولى منطقة الرياح التجارية او منطقة افريقية الصحراوية في الجنوب ، ومنطقة الرياح الغربية في الشمال . اما الرياح الغربية فهي رياح بحرية تهب من المحيط الاطلسي وتجري فوق مناطق بحرية الى مسافات بعيدة . وهي الرياح الباردة او الشديدة البرودة المشبعة بالماء التي تصل عادة شواطئ المتوسط الشرقية في الخريف وتصبح اثناء فصل الشتاء الرياح السائدة . وعندما تصل هذه الرياح لبنان ترتفع ، وبارتفاعها يتمدد الهواء ، وهذا التمدد يؤدي الى انخفاض في درجة الحرارة يجعل الرطوبة تتساقط مطراً . ولذا تقل فيها الرطوبة كلما اتجهت شرقاً . وهكذا ينال لبنان حصة الاسد من سقوط الامطار ، وما يتبقى من ماء في الرياح تحمله شرقاً الى جبال زغروس (Zagros) والبرز في ايران والجبل الاخضر في عُمان . وفي لبنان ذاته نجد ان السفوح الغربية التي تجابه مهب هذه الرياح من جهة البحر تسقط فيها امطار اشد غزارة من الامطار التي تسقط على السفوح الشرقية التي تجابه الجهة القارية . ويهتم البنسائون في لبنان عند بناء البيت بالجدران المقابلة للجهة الجنوبية

الغربية لانهم يعلمون ان هذا الحائط هو الذي سيتعرض لهذه الرياح الممطرة .

ان معدل سقوط المطر السنوي في المنطقة الساحلية ٣٣ قيراطاً ، اي اعلى مما هو عليه في بعض اجزاء الجزر البريطانية^(١) ، وضعفاً ما هو عليه في المنطقة الساحلية المائلة في جنوبي كاليفورنية . ولكن بفارق اساسي ، وهو ان سقوط المطر في لبنان يقع في فترة قصيرة مدتها ستة اشهر بينما يسقط المطر في جنوبي كاليفورنية على مدار السنة . اما معدل سقوط المطر المتوسط السنوي في بيروت فهو ٣٥,٦٥ قيراطاً ومعظمه ٥١,٤ وأقله ٢٣,٣ . أما في ظهور الشوير ، على علو ٤٠٠٠ قدم ، فقد بلغ معدل سقوط المطر السنوي في فترة مدتها ٢٥ سنة ٥٩,٧ قيراطياً . وفي كسارة في سهل البقاع حيث انشأت الجامعة اليسوعية في بيروت مركزاً للرصد الجوي ، كان معدل سقوط المطر السنوي ٢٨,٤ قيراطاً . وأما دمشق التي تقع وراء حاجزين جبليين يمنعان عنها المطر ، فان معدل سقوط المطر فيها ١٠ قيراطاً^(٢) . وأكثر الاشهر امطاراً كانون الثاني . واحياناً كثيرة يكتنف الاودية ضباب يتولد من الرياح البحرية عند مجرياتها برأ . والمتطالع على الاودية المغطاة بالضباب من أماكن عالية مشرفة . يخيل اليه انها بحيرات مترامية الاطراف . وتهب على لبنان في الشتاء رياح قارسة تجري جنوباً من اواسط آسية هذه الرياح الشمالية ، لا سيما تلك التي تهب من اواسط أوروبا وشرقيها تجلب معها العواصف الثلجية التي تهب على لبنان والمناطق المجاورة له . وقد تثلج في المناطق الجبلية بمعدل ٦ — ٨ مرات في السنة . وفي كسارة سجل مركز الرصد سقوط الثلج (عام ١٩٢٨ — ٢٩) ١٨ مرة ، ولكنها كانت سنة نادرة . وكثيراً ما يتمثل الناس ببيت للمتنبي الذي مرّ شتاء في لبنان فأنشد :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء^(٣)

١ — W . B . Fisher, *The Middle East* (London , 1950), p . 50 .

٢ — Cf Ashbel , Rainfall Map : Palestine, Transjordan , Southern Syria , Southern Lebanon , 3rd ed . (Jerusalem , 1943) ; Lubnan (Beirut , 1334 (1916) , pp . 101 - 2 ; Richard Thoumin, *Géographie humaine de la Syrie centrale* (Paris , 1936), p . 13 .

٣ — المتنبي ، النديوان ، العرف النطب ، نشر ناصيف اليازجي (بيروت ١٨٥٢) ص ١٢٤ .

ويسقط الثلج في لبنان كل سنة على الاماكن التي تعلو ٥٠٠ قدم ، ولكن هذا الثلج لا يدوم طويلاً ، وقل ان يصل الثلج الى ساحل البحر . غير انه في شتاء سنة ١٩٢٠ اكتست بيروت حلة بيضاء مدة يومين فكان منظراً عجيباً .^(١)

الحرارة

قلنا ان سبب تعاقب فصلين متميزين ، فصل شتاء ممطر ، وفصل صيف جاف ، مرده الى رياح بحرية تهب على لبنان من الغرب فتمطره ، ورياح قارية جافة تهب عليه من الجنوب ، او من الجنوب الشرقي ، فتلفحه . وفي فصل الصيف تهب على المنطقة موجات حر مصدرها المنطقة الاستوائية ، وهي رياح جنوبية جافة جداً . وفي سيرها شمالاً نحو افريقية الشمالية الغربية ونحو الجزيرة العربية تحتفظ بمميزاتها الاستوائية . وجو حوض المتوسط الشرقي الذي يتميز بصفائه وانعدام الغيوم فيه يزيد في شدة الحرارة . وعندما تكون موجة الحر هذه شديدة خانقة يسميها اللبنانيون شلوق . واما في مصر فتحمل هذه الرياح معها رمالاً ، ويسميها المصريون الخمسين (وهي اختصار ربح الخمسين يوماً) .

والرياح الشرقية التي تهب على لبنان ، ومصدرها المحيط الهندي ، ربح حارة جافة كالرياح التي تهب من الجنوب . ولكن هذه الرياح الشرقية عند وصولها الى لبنان يكون قد طرأ عليها تغيرات . فانها تكون قد فقدت في سيرها غرباً كثيراً من الرطوبة مما يجعلها اشد الرياح جفافاً وحرراً . ويسميها العرب ربح السموم ، ويعرفها اللبنانيون باسم الشرقية . ولكن هذه الشرقية في لبنان لا تدوم اكثر من ٣ ايام . ولفظة « شرقية » دخلت اللغات الاوروبية (sirocco) بواسطة الايطالية وفي بعض الاحيان تهب هذه الرياح الشرقية بعنف وتجلب معها غباراً ورمالاً دقيقة . وهذا ما يعرف بالعواصف الرملية التي يرد ذكرها في الحملات العسكرية التي كانت تعمل داخل هذه المنطقة ، وهذه العواصف الرملية هي التي لا تزال الى الان عند الطيارين وشركات الطيران مصدر رعب وخوف في المناطق الصحراوية في الشرق الادنى .

(١) Charles Combier , *Aperçu sur les climats de la Syrie , et du Liban* (Beirut , 1945), pp . 18 - 19 .

ان هذه الرياح الجافة الحارة التي يتميز بها مناخ حوض المتوسط الشرقي ليست الرياح الوحيدة التي تستولي عليه . فانه من حسن طالع هذه المنطقة ان الرياح الصيفية السائدة هي الرياح التي تهب من الشمال الغربي . وفضلا عن هذا فان البحر يلطف من حدة مناخ المنطقة الساحلية . ذلك بان البحر في الصيف اقل حرارة من سطح الارض ، وفي الشتاء اكثر حرارة من وجه الارض . والصخر الكلسي الذي يتألف منه سطح لبنان بوجه عام اسرع امتصاصاً للحرارة من وجه الماء في البحر الابيض المتوسط ، واسرع اشعاعاً للحرارة بعد غروب الشمس . فينتج عن هذا ان الهواء الملاصق لسطح الارض يسخن فيتمدد ويرتفع الى الطبقات العليا ليحل محله الهواء الملاصق للبحر . وعليه فان هبوب الريح على لبنان يتعاقب ، ففي النهار يهب عليه نسيم البحر ، وفي الليل يهب نسيم البر . وللسبب ذاته نجد ان بيروت تنعم ايام الصيف بنسيم يهب عليها من جهة البحر بعد الساعة التاسعة من النهار وتشكو من ركود في الهواء عند مغيب الشمس . ولكن اثناء الليل يأخذ الهواء الذي يهب عليها من جهة البر بتلطيف حرارة الجو . ويذري فلاحو لبنان بيادرهم في اوائل الصيف عند هبوب الهواء الشمالي الغربي . وتنعم سفوح لبنان وجباله التي تعلو ١٥٠٠ قدماً عن سطح البحر بصيف معتدل الهواء قليل الحر مما يجعل هذه الجبال بلداً مصيفاً للشرق الادنى شبيهاً بسويسرا . فانه يستهوي المصطافين من سورية وفلسطين ومصر ، وفي السنوات الاخيرة من العراق والكويت والبحرين والعربية السعودية وقد وصفه احد الشعراء العرب بما معناه :

يحمل الشتاء على رأسه ، والربيع على كتفيه ، والخريف في احضانه ، والصيف الناعس عند قدميه .

أن معدل الحرارة في بيروت لشهر تموز (يوليو) ، وهو اشد الاشهر حرّاً ، ٨٢ درجة فارنهایت يقابله ٨٥ درجة في القاهرة و ٩٧ في البصرة . غير أن الفرق بين حرارة النهار وحرارة الليل قلّ ان يزيد على ١١ درجة ف . لكن الذي يجعل جو بيروت ثقيلًا هو كثرة الرطوبة التي تبلغ درجاتها القصوى اثناء اشهر الصيف رغم انعدام المطر الكلي . ولذا كانت دمشق بحرارتها القصوى التي تبلغ ٩٧ درجة ف ورطوبتها التي هي ٤٠ ٪ في فصل الصيف تفضل ، من جهة المناخ ، بيروت

بمحرارتها القصوى لاشهر الصيف البالغة ٨٩ درجة ورطوبتها ٧٠ ٪ . اما معدل الحرارة لشهر كانون الثاني - وهو ابرد الاشهر - في بيروت فهو ٥٦ درجة فارنهایت يقابله ٥٤ درجة في القاهرة و ٤٧ درجة في القدس^(١).

التأكل والسواقي

ان كثيراً من مياه المطر في لبنان تذهب هدرًا، وذلك انها تنساب في مساحات شاسعة من طبقات الصخر الكلسية . على ان بعض هذا الماء يغور ويتجمع في خزانات وكهوف كبيرة تحت الارض - وهي وسيلة طبيعية لتخزين الماء - يتفجر منها عيون وينابيع كثيرة . وكثيراً ما تكون هذه الينابيع العامل في تحديد المناطق التي تصلح للسكن . فانتا نجد مثلاً في منطقة نصف قطرها ٣ اميال على التلال المشرفة على بيروت خمس قرى اسمائها تبدأ بلفظة « عين » : وهي عين الرمانة وعيناب وعين عنوب وعين كسور وعين درافيل . وهنالك جنائن وبساتين تروىها مياه غزيرة مصدرها هذه الخزانات الطبيعية في جوف الجبل والتي تتدفق بشكل ينابيع وعيون في وسط القرى أو عند السفوح القريبة من هذه القرى . هذه الينابيع التي لا عد لها والتي تتفجر عند سفوح التلال الغربية من لبنان مصدر خصب وغنى . اما السفوح الشرقية فان الينابيع فيها قليلة ولذا كان عدد القرى المنتشرة هناك أقل مما هو على السفوح الغربية . وتقل هذه الينابيع كثيراً عند سفحي لبنان الشرقي ، ولذا نجد ان هذه السفوح لا تصلح لتعمير القرى .

ان ماء المطر الذي لا تمتصه الطبقات الكلسية يسحّ من على جوانب التلال ويتجمع في أخاديد تنصب في سواق ترتفع مياهها ارتفاعاً ملموساً بعد ان يهطل المطر الشديد ، ولكنها تنقلص في الصيف الى مجار فيها أثر من ماء ، وبعضها يجف تماماً . وسحّ ماء المطر الشديد من على السفوح الى جانب عوامل التفتت أو التأكل في الصخر عبر العصور ادت الى جرف التربة من مناطق كانت يوماً خصبة فجعلتها أرضاً جرداء لا تصلح للزراعة . وبعد المطر الشديد يرى المرء عند مصب الانهر والسواقي على بعد اميال في البحر بقعاً تبدو واحة ، وألوانها تختلف

(١) راجع : لبنان ص ٩٩ - ١٠٠

باختلاف نوع التربة في التلال المجاورة . وقد تظل هذه البقع بادية للعيان ساعات واحياناً أياماً . ومن العوامل التي تعمل على انجراف التربة قطع الغابات ، وقطع الغابات جريئة لا تغتفر . وكذلك عدم تحديد المناطق التي يُسمح فيها للرعاة ، ولا سيما لرعاة قطعان الماعز ، برعي قطعانهم . من المعلوم ان جذور الاشجار والشجيرات تساعد وجه الارض على الاحتفاظ بالتربة عند سقوط الامطار الشديدة . ويضاف الى هذه العوامل عامل آخر هو الاساليب الزراعية العتيقة في أرض توطنها ، ولا يزال يتوطنها ، الانسان منذ أقدم العصور . فلا يجوز ان نعزو انخفاض نتاج الارض في منطقة الشرق الادنى الى نظرية الجفاف الذي مرده الى تغير جذري في الحالة الجوية للمنطقة - اذ ليس هنالك ما يعزز صحة هذه النظرية في العصر التاريخي - بل الافضل ان نعزوه الى التآكل في جوانب السفوح والى سحب الماء الجارف والرياح الذارية وانعدام الاحراش وبالتالي قلة موارد الماء .

الى جانب هذه السواقي التي جئنا على وصفها في الفصل الثاني يجدر بنا ان نأتي على ذكر نهر الكلب الذي يجهز بيروت بمياه الشرب . فانه ، بعد الليطاني ، أكبر نهر على الشاطئ اللبناني . وفي العصر الروماني كانت مدينة بيروت تشرب من نهر بيروت (واسمه الكلاسيكي ماغوراس) . ولا تزال آثار القناة القديمة لجر مياه النهر قائمة عند مكان يعرف بقناطر زبيدة^(١) . وقد سمي هذا النهر بنهر الكلب نسبة الى ما ظنه الناس خطأ انه تمثال كلب نحت في الصخر . وكان هذا الكلب يخرس المضيق ، فكان ، عند اقتراب العدو ، ينبع فيسمع صوت نباحه - كما تقول الاسطورة - في كل أرجاء المحلة ، فيتنبه السكان للخطر المداهم . ويرجع ان العرب عندما افتتحو البلاد حطموا التمثال ورموه في البحر كرها للتمثيل والصور . وقد بقي التمثال مغموراً في الماء حتى عام ١٩٤٢ عندما عثرت عليه الفرقة الاسترالية التي كانت تقوم ببعض الاعمال العسكرية في هذه المنطقة . وقد وجد ان التمثال ليس تمثال كلب بل ذئب ، وهو محفوظ الآن في المتحف اللبناني الوطني في بيروت . وقد سماه مؤرخو اليونان والرومان نهر الذئب لا نهر الكلب (Lycus ومعناه الذئب) . وقد ذكر الجغرافي سترابو^(٢) ، ان بحارة ارواد (Aradus) كانوا

(١) وهي زنوبيا ملكة ندمر . وقد اختلط اسمها عند العامة باسم زبيدة زرجة هارون الرشيد .

Bk. XVI, ch. 2, sec. 17 .

(٢)

يبحرون بمرأى أعينهم في النهر صعوداً الى منابعه ، وهو قول يصعب تصديقه لان طبيعة الشق في الصخر من مصبه الى منبعه لا تسمح للمراكب ان تسير فيه ، هذا إلا اذا كانت دلتاه فيما مضى من الزمن أطول مسافة . لان المسيل الحالي من مصب النهر الى نبعه في مغارة جعيتا لا تزيد على ٥ أميال . ومغارة جعيتا — وهي أكبر مغارة في لبنان — مغارة عجيبة ذات مناظر من الداخل رائعة لما فيها من الترسبات الكلسية المتدلية بشكل مقرنصات واخرى مرتفعة من ارض المغارة وقاعات فسيحة واعمدية يبلغ ارتفاعها أكثر من ١٠٠ قدم . وهي من الاماكن التي يقصدها السياح ، وقد استطاع روادها في المدة الاخيرة ان يدخلوها بقوارب الى مسافة تزيد على ٣ أميال . وقد ذكر قسيس انكليزي^(١) مر من هناك سنة ١٦٩٦^(٢) ، ان تسميته بنهر الكلب سببها قيام صنم هناك شكله شكل كلب كان يعبد سكان المحلة . ونرجح انه زمن السيطرة المصرية اقيم هناك عند مصب النهر تمثال آلهة مصرية يشبه حيواناً ، او انساناً رأسه رأس حيوان .

على بضعة اميال من نهر الكلب الى الجنوب يقع نهر الدامور الذي يسمى باسم بلدة قريبة من مصبه تدعى الدامور . وقد يكون اسم الدامور اسم اله فينيقي ، (Damuras) الذي كان ابا الاله الفينيقي ملقارت^(٣) . والنبع الاول الذي يغذيه نبع الصفا بالقرب من عين زحلنا ، وهو نهر يسقي المنطقة الساحلية الحصبة بالقرب من الدامور . وقد كان هذا الساحل الى زمن قريب مشهور بزراعة التوت وتربية دود الحرير . اما اليوم فهو حدائق برتقال وموز وخضار . وقد جر الامير الشهابي (توفي ١٨٥٠) بعض مياه نبع الصفا في قناة الى مقر امارته في بيت الدين والى دير القمر . ولا تزال البلدتان تنتفعان بمياه هذه القناة . والى جنوبي نهر الدامور يجري نهر الاول الذي يُغذّي مياهه في اعالي مجراه نبع الباروك ، ثم ، بعد جريانه الى البحر ، شلال جزين الذي يعد اعلى شلال في لبنان . وقد عرف هذا النهر

(١) Henry Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem*, 2nd. ed. (Oxford, 1707), p. 36 .

(٢) من عنوان الكتاب على الصفحة الاولى يظهر ان السنة ١٦٩٧ ، وسبب هذا الاختلاف يرجع الى التعديل الغريغوري لتقويم يوليوس قيصر .

(٣) راجع ما قيل عن هذا الاسم في كتاب « اسماء القرى والمدن اللبنانية (فريجة) ص ١٣٩ .

بالعربية في العصور المتوسطة بنهر الفراديس واسمه في المصادر الكلاسيكية بوسترانوس .^(١) وهذا النهر يسقي بساتين البرتقال في صيدا ، وبرتقال صيدا معروف في كل انحاء الشرق الادنى .

النبات

ان ارتفاع الأرض في لبنان وتنوع تربته وتعرضه لامطار الشتاء ونور الشمس، وجودة مناخه ، جميع هذه العوامل الطبيعية تجعل من لبنان ارضاً ذات نبت وشجر متنوع قل ان تجد له مثيلاً في بقعة من الأرض مساحتها مساحة لبنان . فان بعض اوديته يمتد في اتجاه شرقي غربي ، وبعضها الآخر في اتجاه شمالي جنوبي . وهذا الاختلاف في الاتجاه يتبعه اختلاف في مقدار التعرض للشمس وللرياح مما يجعلها اودية ممتازة لزراعة مختلف النبات . وقد استرعت جودة النبت في لبنان ، وتنوع شجره وفاكهته وخضاراه نظر السياح والعلماء على مر الاجيال . ومثلاً ما ذكره الدمشقي الذي كتب حوالي ١٣٠٠ حيث قال :^(٢)

« وفي جبل لبنان، ولا سيما عند سفوحه ، قرابة تسعين نوعاً من انواع النباتات والحشائش التي تنمو بصورة طبيعية دون عناية الانسان بها ، فهي في متناول جميع الناس مع العلم بأن منافعها عظيمة ... وتكثر الفاكهة فيه » .

ويقدر جورج بوست^(٣) - وهو اول عالم باحث تناول نبت لبنان بدراسة علمية مركزة - أن عدد انواع النبات في لبنان ، وفي البلدين المجاورين له ، فلسطين وسورية ، يبلغ ٣٥٠٠ نوع . ومما يزيد في جمال لبنان روعة ازاهيره : شقائق النعمان والاقحوان والبرواق ودويك الجبل والدفلة . حشائشه وشجيراته ذات

(١) من اسم قرية تعرف بقرية بسري لان النهر يمر فيها . اما لفظة الفراديس ففارسية الاصل ومعناها جنائن . واسمه الحالي الاولي نسبة الى انه - ر صيدا وهي المدينة الاولي التي اصبحت في القرن السادس عشر عاصمة لبنان الجنوبية . راجع ايضاً « فريجة » ص ١٤ .

(٢) نجمة الدهر في عجائب البر والبحر طبعة A . F . Mehren (بطرسيورج - ١٨٦٥ - ١٨٦٦) ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

George E. Post, *Flora of Syria, Palestine and Sinai*, 2 nd. ed.(٣) vol. I, (Beirut, 1932), p. iii.

الزهر العطر تضحخ جوه برائحة عبقة ، ووجه أرضه في الربيع سجادة خضراء .
ومزارعه على السفوح المدرجة صورة زيتية رائعة الالوان .

«رائحة ثيابك كرائحة لبنان» يقول الشاعر الغنائي القديم ناظم نسيدي الانشاد^(١)
« وله رائحة كرائحة لبنان » يقول نبي آخر من انبياء العهد القديم^(٢) . ومما يزيد
في جمال موسم الزهر في لبنان هو هذا التباين في المناظر الطبيعية زمن الربيع عندما
تورق الاشجار ، واثناء الصيف عندما يذبل الورق ويجف العشب تحت اشعة
الشمس المحرقة . وقد خلد الشاعر جمال الربيع في لبنان عندما غنى :

« هلمي معي من لبنان ، يا عروس معي من لبنان »^(٣) اسمعه يقول .
« لان الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال
الزهور ظهرت في الارض ، بلغ اوان القصب
وصوت اليمامة سمع في ارضنا . التينة
اخرجت فجها وقعال الكروم تفيح رائحتها
قومي يا حبيبي يا جميلتي وتعالى »^(٤)

موطن الزهر

هنالك مناطق نبات مختلفة الواحدة الى جانب الاخرى . فان نباتات المنطقة
الساحلية والسفوح الواطئة في السلسلة الغربية تشبه الى حد بعيد نباتات المنطقة
المتوسطة الساحلية . وبرز هذه الاشجار شجرة النخيل والصنوبر والازدرخت
والجوز والاكاسيا (وقد ادخلت هذه الشجرة الى البلاد في الآونة الاخيرة)
والتوت والدالية والتين والزيتون والموز والبرتقال وسواها من اشجار الفاكهة .
اما شجرة الصنوبر (الصنوبر البري) في لبنان فانها مصدر للاخشاب والوقود

(١) نسيدي الانشاد ٤ : ١١

(٢) هوشع ١٤ : ٦ .

(٣) نسيدي الانشاد ٤ : ٨ .

(٤) نسيدي الانشاد ٢ : ١١ - ١٣ .

وجذوعها تستخدم جسوراً يقوم عليها سقف البيت الترابي ، وهو السقف الذي كان ، حتى زمن قريب ، يعتمد على جذوع اشجار الصنوبر (اما الآن فانهم يستعيضون عنه بالاسمنت المسلح) . اما الموز ، وموطنه الاصيل الملايو ، فقد دخل البلاد عن طريق الهند فايران فالعالم العربي . ويظن بعضهم ان شجرة الجنة المذكورة في القرآن الكريم (سورة ٧ : ١٨ ، ١٩ ، ٢١ وسورة ٢٠ : ١١٨) هي شجرة الموز . واقدم ذكر لها في الادب العربي نجده في المسعودي (توفي ٩٥٦)^(١) اما اسمه العربي « موز » فتحريف للفظ السنسكريتي موكا (moca) . وقد نقل العرب زراعة هذه النبتة الى افريقية حتى شاطئها الغربي ومن هناك نقلها البرتغاليون الى العالم الجديد .

اما الاشجار المثمرة التي كان الانسان في العصر القديمة يزرعها ويعنى بها . نسبة لما يجنى منها فقد كانت شجرة التين والكرمة وشجرة الزيتون . وهذه الاشجار الثلاث تتحمل فصل الجفاف . وهي اشجار اصيلة في لبنان ، او في المناطق المجاورة له ، حيث انها تنمو طبيعياً دون اعتناء من قبل الانسان . ولا تزال هذه الاشجار الثلاث تغطي مساحات كبيرة في سفوح لبنان من الساحل الى علو ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ قدم (غير ان الزيتون يفضل المناطق المنخفضة والساحلية) . وقد كانت شجرة التوت ، الى زمن قريب جداً ، الشجرة الرابعة من حيث النفع الاقتصادي . اما الكرمة فقد نقلها اللبنانيون القدماء ، الفينيقيون ، الى ارض اليونان ومن هناك ادخلت الى ايطالية . وللكرمة زمن الزهر رائحة عبقة تغنى بها النبي العبري القديم^(٢) . وقد انتقلت شجرة الزيتون ، فيما مضى من الزمن ، مع الكرمة ، او على اعقاب الكرمة ، من الشرق الى الغرب وظلت شجرة التوت حتى الحرب العالمية الاولى مورد رزق عظيم عند اكثر الفلاحين . فان شجرته تعطي موسمين من الورق ، موسماً ربيعياً يربون عليه دود القز وموسماً خريفيّاً يسمنون به خرافهم وعجولهم .

(١) مروج الذهب طبعة وترجمة C . B . de Meynard الجزء الثامن (باريس ١٨٧٤) ص ٢٢٨ .

(٢) موشع ١٤ : ٧

اما المنطقة النباتية الثانية فتتمتد من علو ١٦٠٠ قدم الى ٦٥٠٠ قدم . وقد كانت هذه المنطقة منطقة غابات لم يتبق منها ، لسوء طالع لبنان ، سوى آثار غابات هنا وهناك . هذه المنطقة هي منطقة الصنوبر الحلبي (ويسميه اهل البلاد الصنوبر الجوي) وشجر السنديان بنوعيه الدائم الاخضرار ، واسمه سنديان ، والنوع الذي يتناثر ورقه في الخريف واسمه الملول ، والصفصاف والخور والجوز والاكاسيا - في المناطق الرطبة فقط - والخروب وغيرها من الاشجار . وتكسو غابات الصنوبر بعض منطقة المتن ، وهي منطقة من اجود المناطق اللبنانية صحة ومناخاً . وبعد الحرب العالمية الثانية اخذ السكان بزراعة الفاكهة على نطاق واسع وباساليب حديثة ، كزراعة انواع من التفاح الجيد والاجاص اللذين ادخلا حديثاً الى لبنان من الولايات المتحدة ، وبادخال انواع جديدة دخلت ايضاً اساليب زراعية جديدة . وقد حلت جنائن التفاح محل مغارس التوت . ويجد اللبنانيون لفاكهتهم اسواقاً في مصر والعربية السعودية والعراق حيث اخذ مستوى العيش بالارتفاع تبعاً لضخامة المداخل التي تعود على البلاد من ريع النفط . وبما أن الامطار لا تسقط في فصل الصيف فان على الفلاح اللبناني ان يسقي جنائنه من ينابيع المياه او من احواض يجمع فيها ماء الشتاء . وفاكهة لبنان لذيدة الطعم شهية المنظر . فان تفاح لبنان يفوق طعماً وجمالاً التفاح الاميركي الذي يعتبر امماً للتفاح اللبناني . ومرد ذلك الى اشعة الشمس التي تقع على شجرة الفاكهة وثمرها طيلة الصيف فينضج الثمر نضوجاً تاماً . وفي الالف القدم الاخيرة من هذه المنطقة النباتية تنمو اشجار السرو والارز كما هو الحال في وادي قاديشا الذي تكثر فيه اشجار السرو . وينمو في هذه المنطقة ايضاً شجر الشوح الذي يرد ذكره في اماكن مختلفة في العهد القديم عند ذكر لبنان .

اما المنطقة الالبية في لبنان ، وهي التي تبدأ على علو ٦٥٠٠ قدم فتقل فيها الاشجار خلا شجيرات هنا وهناك من نوع الشوح والسنديان والعرعر والبربريس وجميعها من نوع النبات الذي يظهر فيه عدم التكامل في النمو .

أما السهل النجدي الذي يقع بين سلسلي لبنان ، البقاع ، فانه يشكل منطقة قائمة بذاتها . فان في هذه المنطقة تنمو تلك الاشجار التي تنمو في المنطقة النباتية

الاولى التي تكلمنا عنها ، وبعض اشجار المنطقة الثانية . وفي هذه المنطقة تزرع النباتات التي تشكل غلاتها المصدر الاول لقوت الانسان : القمح والشعير والذرة الصيفية . ولا يزال سكان هذه المنطقة يخلطون حب هذه المواسم الثلاثة : (القمح والشعير والذرة) ويطحنونه ، ومن طحينه يصنعون خبزهم كما كان يفعل آباؤهم ايام حزقيال النبي (٤ : ٩) . وتنمو نبتة القمح البري والشعير البري على حالتها الطبيعية في البقاع وفي سورية وفلسطين . ويرجع ان الانسان القديم أنس هذه النبتة في هذه المنطقة . أما الذرة الصفراء فقد ادخلت زراعتها الى البلاد في المدة الاخيرة من أمير كا . وقد عني الانسان منذ القدم بزراعة العدس والقطاني وسائر البقول التي تنتمي الى الفصيلة القرنية لانها لا تزال الى يومنا هذا من الاطعمة الرئيسية في منطقة الشرق الادنى . وقد اضيف حديثاً الى قائمة الخضار المعروفة في المنطقة منذ أقدم العصور - كالبصل والثوم والخيار والقثاء - قائمة اخرى من البندورا والبطاطا والتبغ ، وجميعها دخلت البلاد من العالم الجديد . ومن جملة الحشائش ذات الرائحة أو ذات المنفعة الطبية ، نذكر الشمرة والختمية والنعناع والصعتر والحشخاش . أما علف الماشية الرئيسي ، فالباقية والكرسنة والبرسيم والقصيل . ويشكل لبنان الشرقي منطقة نباتية مختلفة . فان الحر الذي يصيب هذه المنطقة الى جانب قلة المطر ، لا سيما في الاماكن العليا منها ، يجعلان المنطقة نوعاً من الصحراء التي لا وجود فيها للاشجار ، انما تنمو فيها الشجيرات الشوكية القاسية . والعشب يظهر فيها في اوقات معينة لمدة قصيرة ثم يبس .

وقد مر على البلاد حين من الدهر كانت فيه السلسلتان اللتان يتألف منها لبنان، ولا سيما الغربية منهما ، مكسوتين بغابات كثيفة لم يبق منها شيء يذكر، لانها كانت تقطع على مدى العصور للوقود وللبناء . ولذا يسمي اهل البلاد المناطق العالية بالجرود لانها جرداء . ويظهر من النقوش الكتابية على صخور لبنان أن بعض اباطرة الرومان جربوا ان يحولوا دون القضاء على الغابات وأن يبقوا على بعض المناطق منها . ولكن عملية القطع ظلت على ما كانت عليه قبل الاحتلال الروماني وبعده . ومما يسر امر اجتثاث الغابات سهولة الوصول اليها وانعدام الاشجار التي

تصلح لصنع الخشب في الممالك القوية التي نشأت في العراق القديم وفي وادي النيل . فكان لبنان بلداً يستهوي الغزاة لغناه بالخشاب . وما حدث في العصور القديمة حدث ايضاً في الثلاثين سنة الاولى من القرن التاسع عشر . فقد استهوت غابات لبنان محمد علي كما استهوت اسلافه من الحكام الفراعنة منذ ٤٠٠٠ سنة أو ما يربو على ذلك . وقد بلغ قطع الاشجار الذروة في الجريمة اثناء الحرب العالمية الاولى عندما لجأ الاتراك ، دون شفقة أو رحمة ، الى قطع الغابات وقوداً لتسيير القطر الحديدية . ويقدر ان ٦٠ ٪ من اشجار لبنان اقتطعت اثناء السنوات الثلاث من الحرب (١) . وفي الحرب العالمية الثانية تابع الانكليز والافرنسيون عملية قطع الغابات . وقد ركزوا اعمال القطع في بلاد عكار لبناء خط السكة الحديدية التي انشأوها على الشاطئ اللبناني اثناء هذه الحرب .

شجرة الزيتون

هنالك شجرتان كانتا ابدأ تقرنان بلبنان في الادب والتاريخ : شجرة الزيتون والارز . وشجرة الزيتون في لبنان شجرة اصيلة . واقدام ذكر لشجرة الزيتون جاء في نقوش اوغاريت (رأس الشمرا) التي يعود عهدها الى القرن الخامس عشر ق.م . وجرار الزيت التي كانت تستخدم توايت يدفن فيها الاموات يرجع عهدها الى ذلك التاريخ . وحماسة نوح رجعت الى الفلك تحمل في منقارها غصن زيتون . ومنذ ذلك العهد السحيق وغصن الزيتون يرمز الى السلام . وفلسطين في نظركاتب من كتاب اسفار التوراة ليست سوى « بلاد زيت الزيتون » (٢) وشجرة الزيتون لا تحتاج الى كبير عناء من قبل الزارع ، ولكنها عظيمة الغلة . وقد كان ثمرها ولا يزال عند عامة الناس مصدر طعام اولي . ويقول المثل اللبناني « الزيت عماد البيت » والزيت في المطبخ اللبناني يأخذ محل الزبدة في المطبخ الاوروبي . وكان اللبناني الى عهد قريب يحرق الزيت في السراج لانهارة بيته (٣) . والزيت مرهم لجرحه ،

(١) لبنان ص ٣٨٣

(٢) تشية ٨ : ٨ .

(٣) راجع سفر الخروج ٢٥ : ٦ ، وانجيل متى ٢٥ : ٣ .

ويدخل في صناعة الدهون العطرية ^(١) والعلاجات الطبية ^(٢) . ولأن الزيت كانت تمسح به رؤوس الملوك عند تنصيبهم نيابة عن الالهة فقد أصبح مقدساً ^(٣) . ولا يزال مقدساً عند الناس في هذه المنطقة الى يومنا هذا . فان الكاهن يمسح جبين المحتضر بالزيت . وقشرة حب الزيتون بعد ان يعتصر منها الزيت تصلح علفاً ممتازاً للماشية ، ونواة الزيتون مادة وقود . وقد تغنى بجمال شجرة الزيتون احد انبياء العبران ^(٤) ، كما تغنى كاتب المزامير بحنوها وكرم نتاجها ^(٥) . وهي اول شجرة عرض عليها ان تكون ملكة الاشجار . فقد جاء في سفر القضاة ٨: ٩ «... ذهبت الاشجار لتمسح عليها ملكاً فقالت للزيتونة املكي علينا . » وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم « من شجرة مباركة زيتونة » (سورة النور ٣٤) . ويقدر ان عدد اشجار الزيتون في لبنان يبلغ ٦٠٠ الف شجرة في ارض مساحتها ٣٤ الف فدان ^(٦) .

وهناك غابة زيتون كبيرة في منطقة الكورة واخرى على الساحل بالقرب من الشويفات . وهذه الاخيرة تعد ، بعد غابات اسبانية وكليفورنية الجنوبية ، من اكبر غابات الزيتون في العالم . وبين غابة الشويفات والبحر شاطئ أحمر الرمل فيقول سكان المنطقة على السفوح ان قراهم تشرف على ثلاثة ابحر ، بحر اخضر (من الزيتون) وبحر أحمر (من الرمل) وبحر ازرق .

الارض سيد الغابات في لبنان

وأشهر شجرة في لبنان وأجملها شجرة الارز ، واسمه النباتي العلمي : (Cedrus libani) أي الارز اللبناني . وبقاياها اجمات صغيرة تبدو كباقات زهر على صدر لبنان العاري . من هذه الغابات اثنتان - وهما لبيستا من ذوات الاشجار

(١) راجع سفر الخروج ٢٠ : ٢٥ ، صموئيل الثاني ١٤ : ٢ ، مزمور ٢٣ : ٥ .

(٢) صموئيل الاول ١٠ : ١ ، اشعيا ٦ : ٦ ، انجيل مرقس ٦ : ١٣ ، انجيل لوقا ١٠ : ٣٤ .

(٣) مزمور ٨٩ : ٢٠ .

(٤) هوشع ١٤ : ٦ .

(٥) مزمور ١٢٨ : ٣ .

(٦) علي ن . الطاهر : شجرة الزيتون (عمان ١٩٤٧) ص ١٣٢ . وراجع ايضاً روجي

جميل : بيروت والجمهورية اللبنانية (بيروت ١٩٤٨) ص ٦٠

القديمة العهد - تزيان قم جبل الباروك ، حيث يطلق عليهما الاهالي اسم «ابهل»^(١) ، احدهما فوق بلدة عين زحلتا والاخرى فوق معاصر الشوف . وهناك غابات اخرى تقع فوق حدث الجبة واهدن . ولكن شجرة الارز اليوم لا تحتل ذلك المكان المرموق الذي كانت تحتله زمن اشعيا النبي (عاش حوالي ٧٣٠ ق . م .) اذ يقول : « يزهر ازهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنم ، يدفع اليه مجد لبنان »^(٢) . وفي مكان آخر يقول : « مجد لبنان يأتي اليك : السرو والسنديان والشربين معاً لزينة مكان مقدسي »^(٣) .

أما أشهر مجموعة من اشجار الارز على الاطلاق فهي الاجمة القائمة فوق بشري المشرفة على وادي قاديشا ، حيث يوجد هنالك ما يقرب من ٤٥٠ شجرة ترتفع الى العلاء باباء^(٤) . وتفد كل سنة على هذه الاجمة الوف الحجاج والسياح من كل اطراف العالم . وأقدم سائح أتى على ذكرها رجل افرنسي في اواسط القرن السادس عشر . ويظهر ان « اشجار الارز الباسقة التي تشبه الارز الذي بنى به سليمان هيكله »^(٥) ، تركت في نفسه احسن الانطباع . وزار الارز ايضاً عالم في النبات الماني عام ١٥٧٣ ، ويقول انه لم يعثر على أكثر من ٢٤ شجرة^(٦) . أما دنديني^(٧) القاصد الرسولي اليسوعي لدى البطريرك الماروني من ١٥٩٥ - ١٥٩٦

(١) على وجه التدقيق هو نوع من العرعر (*Juniperus Sabina*) ولكن الناس هناك يخلطون بين هذه الكلمة وبين الارز .

(٢) اشعيا ٣٥ : ٢ .

(٣) اشعيا ٦٠ : ١٣ .

(٤) George E. Post, *The Botanical Geography of Syria and Palestine* (London, 1885), pp. 36 - 7; Albert E. Ruthy, *Die Pflanze und ihre Teile in biblisch - hebraischen Sprachgebrauch* (Bern, 1942), pp. 41 - 2 .

(٥) Pierre Belon du Mans, *Les observations de plusieurs singularitez et choses memorables, trouvées en Grece, Asie, Judée Arabie, et autres pays estranges* (Paris, 1555) p. 153.

(٦) Leonhard Rauwolf, *Itinerary into the Eastern countries*, (١) tr. N. Staphorst (London, 1698), p. 229.

(٧) Jerome Dandini, *A Voyage to Mont Libanus*, tr. from Italian (London, 1698), p. 41 .

لم يستطع ان يحصي اكثر من ٢٣ شجرة . وقد جاء على ذكر هذا العدد ايضاً (٢٣ شجرة) سائح افرنسي آخر ، وذلك عام ١٦٦٠^(١) . وهنالك سائح آخر زار الارز قبل هذا الاخير بوضع سنوات ولم ير سوى ٢٤ شجرة من شجرات الارز التي « هي تاج الغابات والاحراش » ، والتي رؤوسها « تعانق السحب وتختال بارتفاعها هائلة باطول الاشجار وأرفعها »^(٢) . وفي أوائل القرن الثامن عشر ذكر احدهم ان هنالك ما يقرب من احدى وعشرين شجرة ارز « من تلك الاشجار الهائلة »^(٣) . غير ان فولني^(٤) الذي زار غابة الارز عام ١٧٨٤ ، لم يبدأ اهتمام بها . فقد ذكر ان اربعاً أو خمساً منها تسترعي انتباه المرء . أما بوركهارت^(٥) العالم السويسري الذي زار الارز عام ١٨١٠ فقد احصى إحدى عشرة او اثني عشرة شجرة من الاشجار القديمة جداً ، وخمساً وعشرين شجرة كبيرة جداً ، وخمسين من ذوات الحجم المتوسط ، واكثر من ٣٠٠ شجرة أصغر حجماً وأقل عمراً . وهنالك عالم اوروبي آخر جاء عام ١٨٨٤ وأحصى ٣٩٧ شجرة^(٦) . وذكر مبشر اميركي زار الغابة قبل هذا الاخير بسنة ان هنالك « ثلاث مئة وتسعين شجرة أرز ، عشرة منها او اثني عشرة منها عظيمة الجذوع ، غير ان ارتفاع اطولها لا يزيد على ٨٠ قدماً »^(٧) . وفي أواخر سني ١٨٧٠ بنى رستم باشا حاكم

(١) Le Chevalier d'Arvienx, *Mémoires*, vol. II (Paris, 1735) p. 49 .

(٢) William Lithgovv, *The Totall Discourse of the Rare Adventures* (Lyon, 1632). pp. 190-1 .

(٣) De La Roque, *Voyage de Syrie et du Mont-Liban* (Amsterdam, 1723), vol. 1, p. 68 .

(٤) C. - F. Voleny, *Voyage en Syrie et en Egypte*, 2nd ed. (Paris 1787), vol. 1, p. 264, vol. II, p. 162 .

(٥) John L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London, 1822), p. 19 .

(٦) Les Anderlind in *Zeitschrift des deutschen Palestina Vereins*, vol. X (1887), p. 92 .

(٧) Henry W. Jeseup in Colonel (Charles W.) wilson, *Picturesque Palestine, Sinai and Egypt* (New York 1883) Vol. II, p. 24; Cf. George Ebers and Hermann Guthe, *Palestina, in Bild und Wort* (Stuttgart, 1884) vol. II p. 14 .

لبنان جداراً حول الغابة . وقد ساهمت الملكة فكتوريا بدفع بعض نفقات بنائه ، وعينت حراساً يحرسون الغابة من الاضرار التي تلحقها بها قطعان الماعز . والواقع ان اشجاراً قليلة جداً يبلغ عمر الواحدة منها ١٠٠٠ سنة . وأحسن هذه الاشجار نضارة وقوة هي تلك الارزة العظيمة القائمة الى جانب كنيسة مارونية صغيرة هناك . وأطول شجرة يبلغ ارتفاعها ٨٠ قدماً .

وفي عام ١٦٩٦ قاس مندرل الذي جثنا على ذكره آنفاً احدى الاشجار التي عدها اضخمها ووجد ان محيط جذعها يبلغ ١٢ يرداً ونصف اليرد، ومحيط الدائرة الذي يبلغه امتداد اغصانها ٣٧ يرداً . وقد اتخذت الجمهورية اللبنانية شعاراً لها ارزة من هذه الغابة . وليس تقديس اللبنانيين ارزهم الذي يسمونه « ارز الرب » سوى صدى لما ردّده قبلهم صاحب الزمير (مزمور ١٠٤ : ١٦) حيث يقول : « تشبع اشجار الرب ارز لبنان الذي نصبه » . وهذا الاحترام للارزة الذي يبلغ درجة التقديس ساعد كثيراً على المحافظة عليها من الفناء . ففي كل سنة يحتفل بقداس حاشد تحت ظلال الارز . ويعتقد اللبنانيون ان في جذوع الارزة قوة عظيمة تقاوم كل حشرة فتاكة ، وفي اغصانها صلابة سحرية تجعلها تنهزاً بالثلج وثقله . ويظهر ان « خشب الارز » المذكور في اسفار العهد القديم هو الخشب الذي كانوا يتخذونه في الفروض الدينية للتطهير^(١) . ولا يزال الناس الى يومنا هذا يتركون بصلبان صغيرة مصنوعة من خشب ارز الرب . وقد تنسك مرة احد النساء اللبنانيين في جوف جذع من جذوع هذه الاشجار ، وكان يعيش على الماء المتقطر من جوف الشجرة . ويرى الزائر الى يومنا هذا جوف هذا الجذع العظيم يتحلب منه الماء .

ومن خشب الارز الممتاز كان اللبنانيون القدماء يصنعون مراكبهم . وقد تغنى شعراء وانباء ومؤرخون بجودة هذا الخشب وطيب رائحته . وكثيرة هي الآيات في اسفار العهد القديم التي تشير الى صلابته (مزمور ٢٩ : ٥) ومقاومته (ارميا ٢٢ : ١٤) وجلال قدره بين الاشجار (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩ ، زكريا ١١ : ١ - ٢) وحسن ملائمته (اشعيا ١٤ : ١٤ - ١٥) وعظمة ارتفاعه (اشعيا ٢ : ١٤)

(١) سفر اللاويين ١٤ : ٤ ، وسفر العدد ١٩ : ٦

١٣ وحزقيال ١٧ : ٢٢) . وقد عثر في الحفريات التي اجريت في مدينة نينوى على جسر من الارز ، وعندما احرقوا منه شظية وجدوا انه « لا يزال يحتفظ بعبيره » ^(١) بعد ان مر على طمره في الارض ما يزيد على ٢٥٠٠ سنة . وهذه الاشارات في كتب التوراة الى طول شجره (كما في سفر الملوك الثاني ١٩ : ٢٣) والى علو ارتفاعه (كما في سفر حزقيال ١٧ : ٢٢) والى « ارز لبنان العالي المرتفع » (كما في اشعيا ٢ : ١٣) هذه وغيرها تشير الى ما كانت عليه ضخامة الارز اللبناني وعظم ارتفاعه ، وكما لا يزال للآن .

حيوانات لبنان

ان حيوانات الشرق الادنى التي يذكرها لنا التاريخ الكلاسيكي تتمثل اكثرها في حيوانات لبنان . ولا نستطيع ان نقول بان احده هذه الحيوانات يتمتع بميزات فائقة ممتازة . ولكن تجدر الاشارة الى بعض هذه الحيوانات الاليفة كالحمار والبغل والحصان والماعز والغنم والبقر . جميع هذه الحيوانات ، باستثناء الحصان ، حيوانات آسيوية ، كما ان الدجاج والكلاب والهررة حيوانات آسيوية ايضاً ، وجميعها دُجِّنَتْ في غربي آسية منذ أقدم العصور . ومن هناك (غربي آسية) انتقلت الى اورية ، ومن ثمَّ الى العالم الجديد . أما الحصان ، وموطنه الاصيل أميركا ، فقد دجن في البلاد الواقعة شرقي بحر قزوين ، ومن هناك انتقل الى الحثيين ومنهم الى الهكسوس (دولة الرعاة) الذين أدخلوه سورية ولبنان ومصر قبل الميلاد بسبعة عشر قرناً .

وقبل ان يعرف الانسان الماكينات التي تقوم اليوم باعمالنا ، كان الحمار الحيوان الرئيسي الذي يستخدم في النقل والمواصلات . وهو في الجبل الوعر كالجمال في الصحراء : ثابت الحافر ، جلود ، صبور ، يعتمد عليه . فانه يستطيع العيش على قليل من الماء وعلى علف هزيل من شوك وهشيم ، ناهيك عن انه حسن التكيف على الحياة الجبلية . ولا ننسى ان قافلة الجمال تعتمد دوماً على قيادة الحمار . أما من

Austin H. Layard, *Discoveries in the Ruins of Nineveh* (١) and *Babylon* (London, 1853) p. 357 .

جهة العدد ، فإن الماعز في لبنان أكثر الحيوانات الداجنة^(١) . والماعز من الحيوانات التي تجد في كل نوع من النبت واعقاب النبت - حتى والمر منها - طعاماً مريثاً . فهو ، ربما باستثناء الجمل ، حيوان فريد بين الحيوانات في قضمه كل ما يقع عليه في وعر لبنان . والماعز ، الى جانب كونه ثابت الظلف يمشي في أخطر المزالق ، يجمع بين الرشاقة والخفة في الحركة . فانه يستطيع ان يتسلق سفوحاً عظيمة الانحدار حيث لا يجزؤ حمار ان يخطو خطوة . وشعر الماعز وحليبه ولحمه مصدر عيش لقسم كبير من الجبليين . ومن ناحية ثانية فانه من ألد اعداء الثروة الطبيعية للبلاد ، لانه يلتهم صغير الشجر الذي لا غنى لاحد عنه اذا اراد استبقاء الاحراش . وفي سنة ١٩٤٩ كان عدد الماشية في لبنان ٤٨٠ ألفاً منها ٤٠٠ ألف من الماعز . اما الغنم في لبنان فمن النوع ذي الالية الكبيرة العريضة والصوف الكثيف الطويل وهو نوع من الغنم ادخل البلاد في الاعصر القديمة من آسية بطريق الجزيرة العربية . ويرد ذكر الغنم كثيراً في ادب التوراة وفي الادب الكلاسيكي^(٢) ، وهو من الحيوانات الاليفة الوادعة ، وصغيرها (القرقور) مشتبهى بعض العيال كحيوان يلهو به الاطفال وعادة تسمين الحروف بارغامه على المزيد من الاكل بتلقيمه ورق التوت والنخالة والكرسنة عادة لا تزال معروفة في لبنان ، وذلك لحفظ لحمه المملح (القورما) للشتاء . ولا تقتصر عادة تلقيم الحروف على لبنان وحده ، بل يظهر انها عادة قديمة العهد . ويبدو ان المصريين مارسوا عادة تسمين الخراف اذ وجدت تماثيل على قبور يرجع عهدها الى الاسرة السادسة تظهر فيها خراف تُلقَم .

أما من الحيوانات البرية ، فان الدب السوري لا يزال موجوداً باعداد قليلة في اعالي القمم ولا سيما في لبنان الشرقي . والدثب والضبع من الحيوانات النادرة ، بعكس الثعالب وبنات آوى فانها كثيرة . ومن الحيوانات الصالحة للقتل هنالك الارانب والقنافذ وقليل من الغزال . ومن الطيور التي يؤكل لحمها الحجل والحمام البري . ويكثر في لبنان البوم والغربان والقبرة والدوري . وقد يرى المرء حيناً

(١) ولكن الحكومة اللبنانية آخذة في التضييق على هذا الحيوان حفاظاً على الاحراش والاغراس .
وهناك مشروع ، لم يقر بعد ، للقضاء على الماعز قضاء تاماً . (المترجم)

(٢) خروج ٢٩ : ٢٢ ، لاويين ٣ : ٩ ، هيرودوتس ، التاريخ ، الكتاب الثالث

بعد آخر بعض النسور والعقبان . ويكثر الطير في لبنان في فصلي الخريف والربيع ، وأكثرها من الطيور الرحالة المتنقلة التي تهجر في الخريف موطنها الأصلي في شرق أوروبا . وتتجه جنوباً للاشتاء في منطقة دافئة ، ثم تعود في الربيع شمالاً الى أوروبا . ومن هذه الطيور الرحالة نذكر البجع والسلوى والهدهد والورور والسمرمر (آكل الجراد) . وبعض هذه الطيور الرحالة ، مثل السنونو والحدأة ، يبقى ضيفاً على لبنان طيلة الربيع والصيف ، وبعضها الآخر كالسّمَن والشحرور وابو الحن تبقى في لبنان ضيوفاً اثناء الخريف والشتاء ، ثم تعود الى موطنها الأصلي في شهر آذار . وأكبر هذه الطيور النسر واجملها منظرأ الورور . ومن أندر الطير طير يعرف بخازن البندق الذي يعيش بين الصخور . وهناك نوعان من الفراش طريفان يعيشان في قم لبنان لاحدهما نوع مماثل له يعيش في سيبيرية ، وللآخر نوع يماثله يعيش في أوروبا . ويصعب تعليل هذه الظاهرة الا اذا افترضنا بان هذين النوعين من الفراش اللبناي هما من جملة الانواع التي تزحت جنوباً منذ العصور الجليدية ، ولكن هذين النوعين لم يستطيعا الرجوع شمالاً عندما حلت فترة الدف ، للحاق ببقية الانواع^(١) .

ان دراسة اسماء المدن والقرى ، ودراسة الاشارات المتعددة في التوراة الى حيوانات هذه المنطقة تدعم القول القائل بان حيوانات هذه المنطقة كانت كثيرة ومتنوعة . فقد جاء ذكر « خدور الاسود وجبال النمر » في نشيد الانشاد (٤ : ٨) بمناسبة كلامه عن لبنان ورأس شنير وحرمون . وقد جاء ذكر حيوان بري كان في لبنان « في مَثَلٍ ذكره مؤرخ ملوك العبران المجهول الاسم عندها قال »^(٢) .

« العوسج الذي في لبنان ارسل الى الارز الذي في لبنان يقول اعط ابنتك لابني امرأة . فعبر حيوان بري كان في لبنان وداس العوسج » . ويبدو من مذكرات اسامة ابن منقذ^(٣) في عهد الصليبيين ان الاسد والنمر والنمس كانت من الحيوانات

(١) لبنان ص ٨٥ - ٨٨ .

(٢) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩ .

(٣) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار نشر الدكتور فيليب حتي (برنستون ١٩٣٠) ص ١٠٤ وثما بعده وص ١٤٤ .

المعروفة في حماة شمالي البقاع . وقد جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ان اسداً رؤي في ناحية قرية عرمون جنوبي شرقي بيروت وذلك في اواخر القرن الثالث عشر^(١) . وعندما مر موندول في بيروت عام ١٦٩٦ ذكر عرين أسد عند وصفه قصر فخر الدين في الحي الشمالي الشرقي من المدينة . ولكن عندما اخذ عدد السكان في لبنان بالازدياد ، فان قسماً كبيراً من طيره وحيوانه انقرض او تراجع الى ما وراء حدوده .

الموارد الطبيعية

اننا إذا استثنينا الماء والخشب وأشعة الشمس، فإنه ليس في لبنان من الموارد الطبيعية ما يجعله بلداً غنياً . صخوره الكلسية والرملية ، النوعان الرئيسيان اللذان تتألف منهما قشرة الارض ، تقتلع بشيء من اليسر وتقطع وتنحت حجارة ممتازة لبناء البيوت . وفضلاً عن هذا فان حجارته الكلسية تصلح لصنع الكلس الضروري للطين، وذلك بحرقه في أتونات تراها هنا وهناك الى جوانب الجبال الغنية بالحطب . وقد كان اللبناني منذ اقدم العصور يستغل هذين المصدرين : حجارة البناء وصنع الكلس . وأما اليوم فانه اخذ باستغلال مقالع الحجارة استغلالاً تجارياً على مستوى عال ، وذلك بادخال الآلة نسبة لازدياد البناء وتقدم فن العمارة . ومعلوم ان ليس في هذين النوعين من الصخور الكلسية والرملية ، من المعادن ما يستفاد منه . وذلك لان شمالي افريقية وغربي آسية ، كما ذكرنا آنفاً عند كلامنا عن تركيب لبنان الجيولوجي ، كانا مغمورين في العصر الجيولوجية البعيدة بماء البحر ، وعندها ظهرت اليابسة في لبنان كانت قشرته الخارجية مكسوة بطبقات ترسبية من الكلس والرمل . غير انهم كانوا في العهد الروماني يعدّون الحديد والنحاس . ولكن النحاس على مستوى اقل من الحديد . وفي التوراة اشارة الى تعدين الحديد في لبنان^(٢) . وقد ذكر جغرافيو العرب الحديد في « جبل بيروت »^(٣) . ويستخرج

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت نشر الأب لويس شيخو، الطبعة الثانية (بيروت ١٩٢٧) ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) سفر التثنية ٨ : ٩ .

(٣) المقدسي ص ١٨٤ ، الادريسي ، فزعة المشتاق : ذكر الشام طبعة ج . غيلدميستر (بون ١٨٨٥) ص ١٦ .

معدن الحديد في يومنا هذا من مقالع تقع في قرية مرجبا عند سفوح صنين الغربية. وقد ذكر المؤرخون الكلاسيكيون الزفت والحمّر في جوار صيدا^(١). وقد عثر ابضاً على معدن النحاس في ضواحي صيدا وفي بلدة اهيرج في كسروان. وكان صهر هذه المعادن يتم بحرق الفحم. واستهلاك الفحم بهذه المقادير أدّى، جزئياً، الى زوال الاحراش. وقد وجد في حاصبيا عند سفح جبل حرمون الجنوبي الغربي، معادن للحمّر والزفت. وفي طبقات الصخر الرملية التي يتراوح علوها بين بضعة مئات الى الف قدم، عروق فحم حجري من النوع الذي يعرف باللغنيث (lignite). وقد عُدنّ هذا الفحم لاستعماله وقوداً في معامل الحرير ولتسيير القطر الحديدية اثناء الحرب العالمية الاولى. وتعدّين هذا الفحم الحجري امر يسير في منطقتي المتن وكسروان، ذلك لان التآكل والتفتت قضيا في هاتين المنطقتين على كامل الطبقة الكلسية العليا، فأصبحت الطبقة الرملية التالية - التي فيها عروق الفحم الحجري - مكشوفة لا تحتاج الى كبير عناء الوصول الى هذا الفحم. وأحد المراكز الرئيسية لتعدين الفحم يقع في قرية حيطورا جنوبي جزين. وكان معدل ما يستخرج من هذا الفحم في لبنان لجنوبي اثناء الحرب العالمية الاولى من خمسين الى مئة طن في اليوم الواحد، ومن ٣٠ الى ٤٠ طن في شمال لبنان^(٢). وفي عام ١٨٧٧ حاول احدهم ان يحصل على امتياز لتعدين الفحم الحجري والحمّر في هذه المنطقة، ولكن بما ان نوعية الفحم والحمّر لم تكن من النوع الممتاز الذي يستفاد منه تجارياً، فقد اسقط المشروع وتخلّى عنه.

(١) Pliny, Bk. XXV, ch. 51; Strabo, Bk. XVI ch. 2, sec. 42.

(٢) British Admiralty, *A Handbook of Syria*, (London, 1920),

p. 94; cf. Lubnan, p. 385.

الفصل الرابع

قبل التاريخ المدونه

ان غرب آسية ، بفضل موقعه الجغرافي وجودة مناخه ووفرة غلاله ، كان منذ القدم ، وطناً ممتازاً لتقدم الانسانية ورقبها . ففي هذه المنطقة تنمو حشائش برية منها الحنطة والشعير ، وتعيش فيها حيوانات برية منها الغنم والماعز والبقر ، وجميعها من حيوان او نبات صالحة للتأنيس والتدجين . وفي هذه المنطقة يكثر حجر الصوان الصلب ومعدن الحديد وخلافهما من المواد الصلبة الميسورة التي يمكن الانتفاع بها في الصناعات الاولى . فاي محيط طبيعي افضل من هذا المحيط كان الانسان القديم يتمناه وهو يضطرع بعد مع الطبيعة في سبيل التقدم والرقى ؟ في هذه المنطقة الجغرافية ، حيث تلتقي القارات الثلاث التي صنعت التاريخ ، وضع الانسان القديم الاسس البدائية في حقل الزراعة والصناعة والحياة الفكرية ، وهنا بدأ سيره صعوداً نحو توكيد انسانيته وتحقيقها . وقد سمي احد علماء الاركيولوجيا هذه المنطقة «بمهد الانسان العاقل»^(١) . ويقع لبنان في قلب هذه المنطقة .

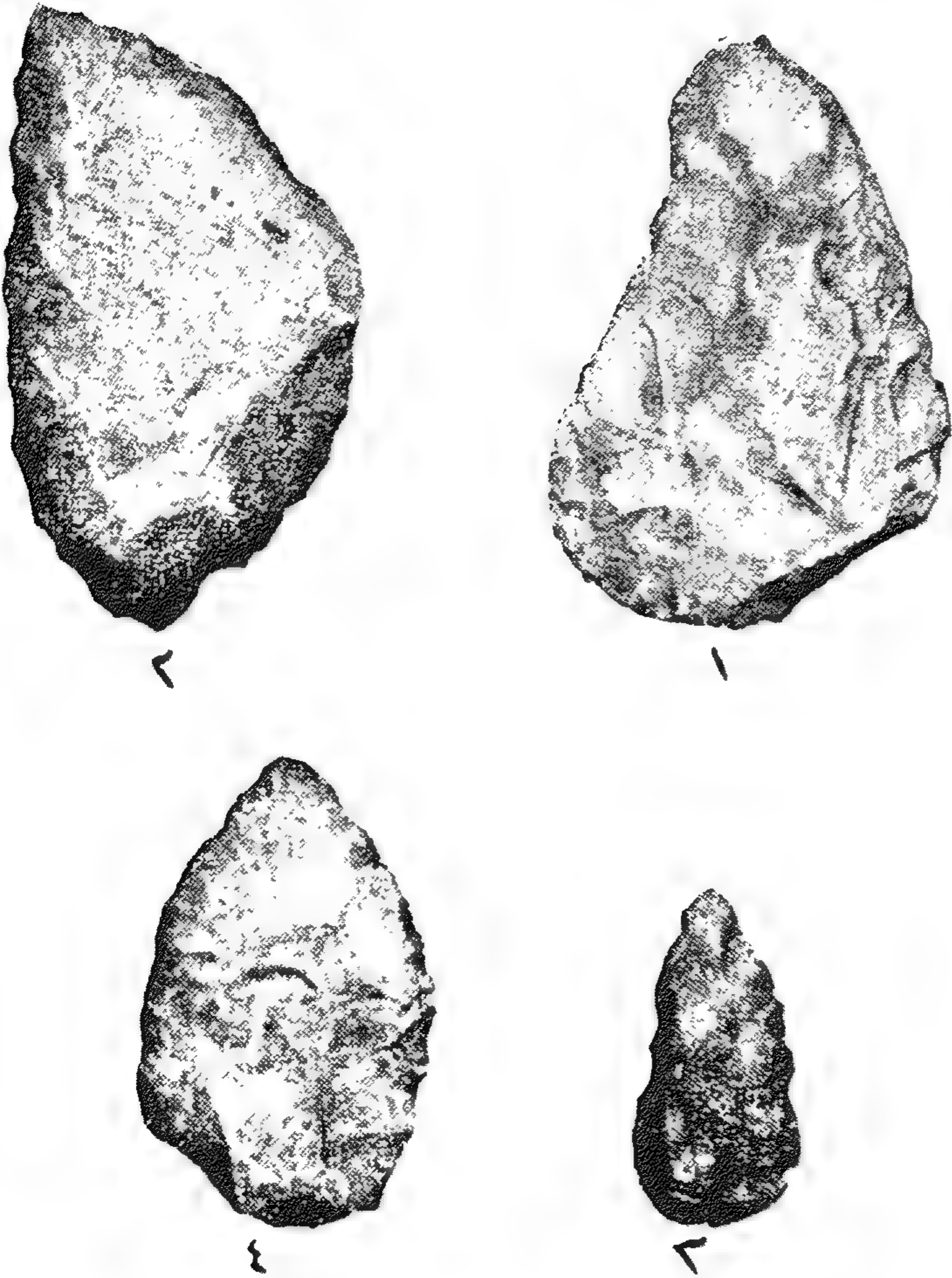
ان الآثار الاركيولوجية التي عثر عليها في هذه المنطقة لا تدع شكاً في انها كانت منطقة مأهولة باستمرار منذ ان وجد الانسان ليتوطن الارض . فان الادوات الحجرية المبعثرة بكثرة ، بما في ذلك من ادوات حجرية تمثل اقدم العصور الحجرية ، تشير اشارة واضحة الى وجود الانسان بشكل جماعات صغيرة في هذه المنطقة ومنها تفرق ، على مدى عصور لا يعرف لها عد ، الى مناطق اخرى من الارض .

العصر الحجري الاول

واننا لنجد مشقة في التعرف الى هذا الانسان السابق للعصر التاريخي ،

(١) Henry Field in *Studies Presented to David Moore Robinson*, ed. George E. Mylonas, vol. I (St. Louis, 1951), p. 236 .

لأننا نكاد لا نتبينه كأنسان بمعنى الإنسان ، وإنما بقاياها التي خلفها لنا في الكهوف وبعض ادواته الحجرية التي نعثر عليها على سطح الأرض تلقي شيئاً من الضوء على تاريخه البعيد . وهذه البقايا هي ادوات حجرية ، وأقدم هذه الادوات والاسلحة التي كان يستخدمها مصنوعة من حجارة صوانية خشنة ، شكلها يشبه الاجاصة ، ومشذبة تشذيباً بدائياً على طريقة التشظية ومرفقة من على الجانبين . ولذا يسميها علماء الآثار « ذات الوجهين » . وهذه الادوات الحجرية ذات الوجهين تنتهي



ادوات حجرية من العصر الحديدي القديم (الحجم الطبيعي)

- ١ - وجدت في العقبة . ٢ - شفرة ذات حدين وجدت في عدلون . ٣ - وجدت في رأس الكلب . ٤ - أداة للكشط وجدت أيضاً في رأس الكلب .

عند رأسها بطرف حاد . فهي من هذه الناحية تختلف عن تلك الادوات الحجرية التي كانوا يطلقون عليها سابقاً اسم الفؤوس اليدوية . وقد وجدت هذه الادوات في جميع اطراف البلاد الواقعة بين وادي الاردن في الجنوب ورأس الشمر (اوغاريت) في الشمال . ولأنها حادة الجوانب فان الانسان القديم كان يستخدمها آلة لمختلف انواع القطع والسحق : قطع اغصان الشجر أو سحق الجمجم ، فضلاً عن انها تصلح ايضاً للكشط . ولكونها حادة الرأس فانها كانت تستعمل ايضاً كمخل أو عتلة للرفع . ويرجع عهد هذه الادوات البدائية الى نهاية العصر الحجري القديم ، اي منذ ٢٠٠ ألف سنة . والى هذا العهد السحيق ، أو الى ما بعده بقليل ، يعود عهد الادوات الحجرية المعروفة بالرقاق (جمع رقيقة) وهذه الادوات كانت تصنع باقتطاع رقائط عريضة غير سمكية من كتلة الصخر . وقد وجدت آثار حجرية من العصر الحجري القديم في ثلاثة امكنة : في العقبية (وهي تقع على الشاطئ بين صيدا وصور) وفي كفريا وفي مدوخا من اعمال البقاع عند سفح لبنان الشرقي^(١) . اما الادوات الحجرية التي يعود عهدها الى عصور جيولوجية تالية فقد وجد منها الكثير في بقاع عديدة . وقد قام عالم الحفريات زوموفن Zumoffen في مستهل هذا القرن بحفريات في مغاور عدلون الواقعة في منتصف الطريق بين صيدا وصور وفي مغاور انطلياس ونهر الكلب ونهر ابراهيم^(٢) وقد وجد ان الادوات الحجرية التي كان يستعملها هؤلاء الناس الصيادون الذين عاشوا في العصور السابقة للتاريخ هي الادوات التي يتميز بها اواخر العصر الحجري المتوسط^(٣) وهو العصر الذي تعود اليه آثار المغاور المشهورة التي وجدت في جبل الكرمل^(٤)

(١) G. Zumoffen in *Anthropos*, vol. III (1908), pp. 432 - 5.

وتشبه بقايا هذه الحضارة المعروفة في اوروبة بحضارة اشوليان ، وهي قرية فرنسية وجدت فيها ادوات حجرية من هذا العصر .

(٢) راجع ما كتبه في *La Phénicie avant Les Phéniciens* (Beirut, 1900); do., in *Anthropos* vol. III pp. 431 - 55; *Lubnan*, pp. 104 - 6 .

(٣) وفي اوربا يسمون هذا العصر بالعصر الموستري نسبة الى كهف ، Le Moustier وجدت فيه ادوات حجرية من هذا العصر .

(٤) Dorothy A. E. Garrod and D. M. A. Bate, *the Stone Age of Mount Carmel*, vol. I, (Oxford 1937) chs. 4-8; see Hitti, *History of Syria*, pp. 9 seq .

والذي نعرفه من حفريات الكرمل (١٩٢٩ - ٣٤) . ان انسانا قديما يشبه انسان النيندرتال توطن شواطئ المتوسط الشرقية في هذه الحقبة ، ولكن لم يعثر على اي اثر لهذا الانسان في لبنان . اما بقايا الحيوانات التي كان يقتات بلحمها ، فقد عثر عليها في اماكن كثيرة . ومن جملة بقايا هذه الحيوانات اسنان وعظام متحجرة للخنزير البري والجاموس البري والغزال والماعز والدب والكركدن وحيوانات اخرى منقرضة . وقد عثر ايضا بين بقايا هذه الحيوانات على نماذج من البزاق المتحجر البري والبحري . وقد اسفرت التنقيبات التي اجريت في مغاور انطلياس ومغاور منبع نهر الكلب عن وجود ادوات حجرية تتميز بها الحقبة المتأخرة من العصر الحجري القديم^(١) . وقد اجريت حفريات متعددة في مغاور نهر الكلب التي تشبه في تكوينها خللايا قرص الشهد ووجد انها كانت مساكن للانسان القديم ، وللانسان الحديث نسبيا . وكذلك اجريت حفريات شمالي هذه المنطقة عند نهر الجوز قرب البترون وعند نهر ابو علي قرب طرابلس ، وقد وجد ان البقايا التي وجدت قرب طرابلس تعود الى العصر الحجري المتأخر . وقد وجد الى جانبها عظام الوعل المتحجرة والغزال والذئب .

بقايا اقدم الهياكل العظمية

من امتع البقايا الاركيولوجية هيكل عظمي بشري وجد في قلب صخر من الصخور التي تتألف من قطع من الحجارة المتلازمة في كهف في كسار عقيل فوق انطلياس على بعد ستة اميال من بيروت شمالا^(٢) . وقد وجد هذا الهيكل عند أسفل

(١) مجلة الكلية Alfred E. Day in *Al-Kulliyah*, vol. XII (1926), pp. 496-9 ويعرف هذا العصر في اوربا بالعصر الاوريني Aurignacian نسبة الى قرية في فرنسا .

(٢) J. Franklin Ewing in *Thought*, vol. XXIV (1949), pp. 255-88. do. in *American Journal of Physical Anthropology*, n. s. vol. IV (1946), pp. 252-3; do. in

المشرق ، المجلد ٤١ (سنة ١٩٤٧) ص ٢١٨ - ٤٨ . ونرجع ان لفظة انطلياس يونانية . أما اهل القرية فيشتقون الاسم من ايلياس شفيح القرية . راجع فريجة : اسماء المدن ، ص ١٢ .

الطبقة التي يسمونها ، حسب المصطلح القديم في علم الاركيولوجية ، طبقة الحضارة الاورينية السفلى . وهذه الحضارة التي تنتسب اليها ، هي تلك التي ظهرت على اعقاب فترة انتقال من دور الادوات الحجرية ، الرقائق التي تعزى الى طبقة الحضارة اللافلوازية - الموسترية العليا . وقد وجد ان هذا الهيكل العظمي الذي اكتشف عام ١٩٣٨ هو هيكل صبي عمره حوالي ٨ سنوات ، وقد عاش منذ ٢٥ الف الى ٣٠ الف سنة . وهذا اقدم هيكل عظمي بشري وجد على الارض اللبنانية . ولا يختلف هذا الصبي من حيث شكله وملامحه المتوسطة عن أي صبي آخر عاش في الازمنة الحديثة . وقد وجد ايضاً في مغاور انطلياس عظام حيوانات اخرى : الغزال والضبع والثعلب والبقرة والماعز . واقدام هذه البقايا الحيوانية عظام الكركدن وعظام حيوانات اخرى اكثر بدائية منها . وقد وجد في هذه المغاور اصداق حلزونية مختلطة بعظام اخرى يظهر انها سحقت سحقاً لاستخراج النخاع منها . وأكثر هذه الحلزونات التي كان الانسان القديم يقتات بلحمها من النوع الذي كان يعيش على اليابسة واسمه العلمي (Helix) . ولكن من بينها نوعان بحريان ايضاً (واسمهما العلمي Trochus و Patella) . أما الادوات التي استخدمها انسان انطلياس في صيده ، فقد كانت مصنوعة من صوان الصخور القريبة . ويعود بعض هذه الادوات الحجرية الى الحضارة الاورينية القديمة ، وبعضها الآخر يعود الى عصر اسبق في الزمن ، أي الى الحضارة الموسترية - اللافلوازية ، مع العلم ان الحضارة اللافلوازية (نسبة الى صاحبة من ضواحي باريس) سبقت الحضارة الموسترية . وهناك أدلة تشير الى ان وادي انطلياس ظل وادياً مأهولاً منذ ذلك الزمن البعيد حتى يومنا هذا

اسلوب عيش الانسان الحجري

يبدو جلياً ان انسان العصر الحجري القديم الذي كان يعيش على الشاطئ اللبناني - الفلسطيني كان من سكان الكهوف والمغاور . وكان النظام الاجتماعي بدائياً جافاً يقوم على تجمع وحدات صغيرة من الناس او جماعات منهم . وقد كان يعيش على الصيد او على جمع القوت من مصادر نباتية يأكلها كلها على حالتها الطبيعية . وليس ثمة ما يدعو الى القول بان هذا الانسان القديم الذي توطن هذه



المنطقة كان من اكلة لحوم البشر . واما صناعة الادوات الحجرية ، فبالرغم من انها لا تختلف اختلافاً جذرياً عن صناعة الحقبة التي سبقتها ، فانها كانت تميل الى صنع ادوات اصغر حجماً حتى اصبحت فيما بعد قطعاً من الحجارة الصغيرة الرشيقة وهذه الادوات الحجرية الصغيرة تمثل نهاية الصناعة في الحضارة الاورينية المتأخرة وبداية العصر الحجري المتوسط . في هذه الحقبة كان الانسان قد بدأ باستعمال قناة او عظمة ساعد او ساق ليضع في رأسها اداة من ادوات سلاحه . وبكلام آخر بدأ يصنع للأسلحة الحادة مقبضاً سهل عليه القتل والقنص . وقد دفعه الحفاظ على حياته من اخطار الحيوانات المفترسة ، ومن الناس الاعداء الى سكنى المغاور والكهوف . وفضلاً عن هذا ، فان الامطار الغزيرة والعواصف الشديدة في تلك الحقبة جعلته يفتش عن مكان آمن يلجأ اليه . وكانت الحضارتان الاورينيتان ، المتوسطة ومعظم المتأخرة ، في حقبة من الزمن تقع بين عصرين من أعصر الامطار الغزيرة ، إلا انه ليس هنالك ما يدل على تعرض الارض للجفاف الشديد . فان بقايا الغزال الكثيرة والادوات المستعملة لقطع الاخشاب تدل دلالة واضحة على ان البيئة التي كان يعيش فيها هذا الانسان القديم كانت بيئة غنية بالغابات . في هذه الحقبة اخذت جميع الحيوانات القديمة بالانقراض والتلاشي ، وبدأت حيوانات المنطقة تتخذ اشكالها الحالية كما نعهدها في يومنا هذا .

ان ادوات العصر الحجري القديم التي صنعها الانسان في تلك الحقبة البعيدة ، تعطينا الدليل الاول على ان صانع هذه الادوات اصبح انساناً حضارياً عاقلاً يعمل لغاية . وهذا ما ميز الانسان ، ولا يزال يميزه ، عن سائر الحيوان : صنع الآلة وادراك الغاية من صنعها . في هذا العصر الحجري القديم نعثر على أقدم الادوات المصنوعة حسب تقنيده صناعي معين بحيث اصبحت صنعها فناً أو صنعة ينقلها الجيل اللاحق عن الجيل السابق . وهذا امر ما كان ليتم لولا وجود وسيلة للتفاهم : اللغة . ولا بد ان الايمان قد اكتشف ، في هذه الحقبة ايضاً ، قابلية الاحتراق في الخشب الذي يستخدمه .

اكتشافان جليلا القدر ، النار واللغة

إن اكتشاف النار وتطور اللغة الصوتية يعدان من أجل المآتي الحضارية التي

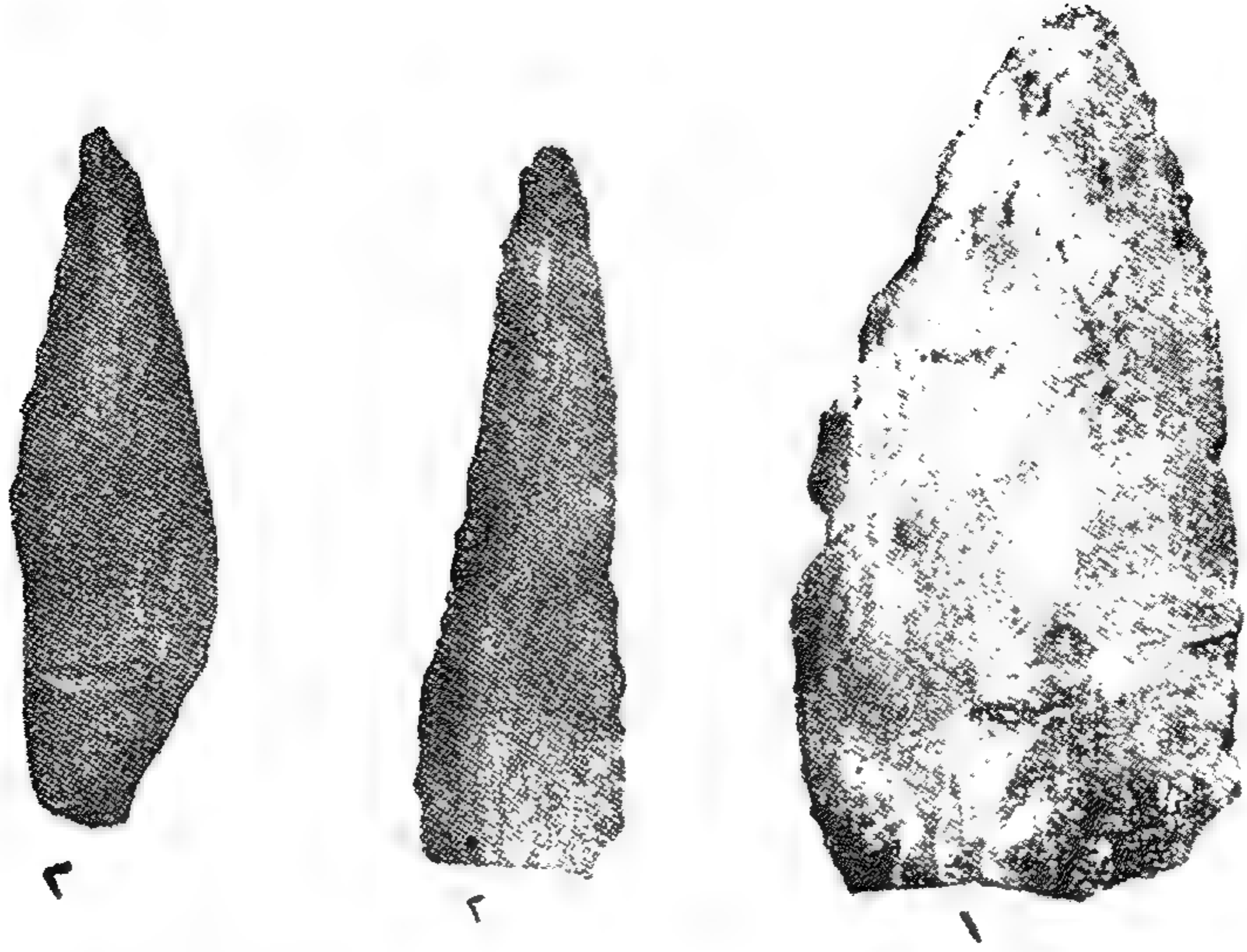
حدثت في العصر الحجري القديم. ولا ريب ان هذا الانسان القديم لاحظ اشتعال النار في غاباته الناتجة عن عوامل طبيعية كالتقراض صاعقة على شجرة جافة أو كسقوط نيزك شديد الحرارة على هشيم يابس. ولا نشك في انه استغل هذه النار الطبيعية في اعماله واغراضه مرة بعد اخرى، ولكن مرت آلاف من السنين قبل ان يدرك انه هو ذاته يستطيع ان يولد النار لاغراضه الخاصة، إما بواسطة حك مادة على مادة اخرى حكاً شديداً، أو بطرق قطعة من الصوان ضد قطعة اخرى أو جسم آخر صلب. ولم تقتصر فائدة النار العظمى وألسنة لهيبها الجميلة على طهي بعض طعامه، بل أدرك الانسان رويداً ان لها فوائد اخرى: الدفء ورد غائلة الحيوان المفترس. وقد وجد اقدم اثر للفحم (بقايا الحطب المحترق) في حوض المتوسط الشرقي في اسفل طبقة في مغارة جبل الكرمل^(١). ويعود عهدها الى العصر الحجري الاول، اي قبل ظهور انسان انطلياس.

وشبهه باكتشاف النار في اللغة وتطورها. ولا شك في ان تطور اللغة يعد من اعظم مآتي الانسان ومن ابعد العوامل اثراً في تطوره. ومن البين ان هذا التطور احتاج الى ازمة لا نعرف لها عدا. واللغة، كوسيلة للتفاهم والاتصال بين انسان وآخر، من اهم العوامل الحضارية التي جعلت من الانسان مخلوقاً اجتماعياً. واللغة تقتضي استخدام الرمز^(٢)، ولا قيمة للرمز بين انسان وآخر ما لم يكن قد وصل الانسان الى مرتبة الادراك، اي قبل ان يكون قد اصبح انساناً عاقلاً.

ولا يقتصر فضل اللغة كأداة عقلية تربط بين انسان وآخر على كونها تضم افراداً مستقلين وتجمعهم في وحدة لغوية وحسب، بل ان اللغة ذاتها عامل اساسي في نمو الانسان عقلياً وروحياً. وبما انه لم يكن في مقدور الانسان في تلك الحقبة ان يدون لنا نماذج من لغته، لانه لم يكن قد اهتمدى بعد الى الكتابة — الامر الذي لم يتم الا بعد مضي الوف من السنين — فاننا لا نعلم من امرها شيئاً.

(١) Garrod and Bate, vol. I, p. 126.

(٢) الكلمة « رمز صوتي » وكصوت طبيعي لا معنى له انما معناه مستقر في الاختبار، في اللامن.



ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري المتوسط (الحجم الطبيعي)

١ - وجدت في نهر ابراهيم ، ٢ و ٣ - من انطلياس .

العصر الحجري المتوسط والحديث

استمر انسان الشرق الادنى في تقدمه الحضاري اثناء العصر الحجري بخطوات سريعة سبق بها شبيهه انسان اوروبة بشوط بعيد . نعم ان رقيه في العصر الحجري القديم كان عظيماً ولكن رقيه وتقدمه في العصرين الحجريين التالين ، العصر الحجري المتوسط والحديث ، كانا اعظم وأكثر تنوعاً . وقد تقدم انسان الشرق الادنى من حيث الزمن . سائر الناس في اماكن اخرى ، ولا نستثني اوروبة التي لم يكن مناخها البارد اذ ذاك ملائماً لتطور الانسان بهذه السرعة . فكان عليه ان يعتمد فيها بعد على تراث الشرق الادنى .

أن العصر الحجري المتوسط يمثل فترة انتقال حضاري من العصر الحجري الاول الى العصر الحجري الحديث الذي بدأ الانسان فيه يصقل ادواته الحجرية . وهذا العصر ، العصر الحجري الحديث ، بدأ في الشرق الادنى قبل ان يبدأ في اوروبة. ويجب الا يغرب عن اذهاننا ان هذه الاعصر الحجرية التي نتكلم عنها -

القديم والمتوسط والحديث — لم تبدأ فجأة ولم تنته فجأة بل انها متداخلة، بمعنى انه لم تكن ثمة نقلة فجائية من حال الى حال .

وقد دام العصر الحجري المتوسط زمناً مدته قرابة ٦ آلاف سنة كان بدؤها حوالي ١٢,٠٠٠ ق . م . وقد اطلق على الفترة الاخيرة من العصر الحجري المتوسط في فلسطين اسم الحضارة « النطوفية » نسبة الى وادي النطوف الواقع شمالي غربي مدينة القدس حيث اجريت سنة ١٩٢٨ حفريات هناك في مغارة معروفة بمغارة الشقبة^(١). وقد اطلق الباحثون هذه التسمية — الحضارة النطوفية — على الحضارة المعاصرة لها في المنطقة بكاملها . فقد وجدت ادوات حجرية قرب طرابلس وفي كسار عقيل (فوق انطلياس) وظهر انها مثل الادوات ذاتها التي كان يستعملها سكان وادي النطوف ، مما يدل على الوحدة في طريقة صنعها . وهي من النوع المعروف بالشفرة الحجرية لانها في شكلها تشبه الشفرة أو المديسة المعدة للقطع . والشفرة الحجرية كناية عن قطعة صوانية ذات طرفين متوازيين حادين يشبهان حدّي سكين . ومنها انواع عديدة صغيرة الحجم متنوعة الاشكال الهندسية يسميها علماء الحفريات « ادوات حجرية » (microliths) وتشمل هذه الادوات الحجرية الصغيرة ، في جملة ما تشمل ، رؤوس سهام بدائية ورؤوس هئات اخرى قاطعة كان الانسان يستعملها في صناعة ادوات اخرى من العظام أو للحفر في العظام^(٢) . وهذه الادوات وجدت جنباً الى جنب مع عظام حيوانات تشبه الحيوانات التي نعرفها اليوم . وبقايا الغزال كثيرة في هذه الحقبة ، ولكن بقايا الوعل ذي القرون الكبيرة المتشابكة ، نادرة مما يدل على حصول فترة جفاف . وقد كان الضبع من النوع المرقط الذي لا وجود لشيئه الا في جنوبي الصحراء الكبرى في افريقية . وكان القنفذ يختلف اختلافاً كلياً عن نوع القنفذ الموجود حالياً في لبنان^(٣) . وكذلك تغير نوع انسان الشرق الادنى

(١) Dorothy A. E. Garrod in *Palestine Exploration Fund*

Quarterly Statement (1928) pp. 182 - 5; Garrod and Bate, p. 114.

(٢) Dorothy Mackay, *A Guide to the Archeological Museum in the University Museum* (Beirut, 1951), p. 3.

Garrod and Bate, p. 153.

(٣)

في هذه الحقبة . فان ذلك الانسان الذي كان يشبه انسان النيندرتال تقلص ظله وظهر مكانه نوع من الانسان جديد ، نوع اقصر قامته ، مستطيل الرأس ، نحيف البنية يشبه جثثايبا الانسان البرونزي الذي توطن فيما بعد بلدة جييل (بيلوس) والانسان الذي توطن وادي النيل قبل قيام الاسرة المالكة . وجميع هذه الانواع البشرية تنتمي ، على الأرجح ، الى الفرع المتوسطي من العرق الابيض الذي تحدرت منه فيما بعد الشعوب الحامية والسامية^(١) . ولا ريب في انه طرأت على الاحوال المناخية والطبيعية في تلك الفترة تغيرات اساسية جعلت المناخ ووجه الارض يشبهان الى حد كبير الاحوال الحاضرة التي نعيشها . ولم يقتصر نشاط انسان العصر الحجري في اواخر العصر المتوسط وفي العصر الحجري الجديد على صقل ادواته واسلحته التي كان يصنعها من الصوان والحجر البركاني - مما جعلها ادوات اكثر فعالية واسلحة اشد فتكا - بل نجد ان نشاطه في هاتين الحقتين اخذ يتناول موارد محيطه الطبيعي بالاستغلال في اغراضه المعاشية . فانه بدأ يعتني بالنباتات والحيوانات التي يستفيد منها في طعامه ولباسه واعماله ، وهنا يبدو قدر الاعمال الحضارية التي قام بها انسان العصر الحجري التي اورثها الاجيال المتعاقبة .

تأينس الحيوان والنبات

كان تأينس الحيوان والنبات الذي تم في العصر الحجري المتوسط من اجل المآتي التي قام بها انسان العصر الحجري . والزعم القائل ان تأينس الحيوان تم عندما كان الانسان لا يزال في طور الترحل والتنقل ، أي قبل ان يستقر واخذ بالزراعة ، فأمر غير ثابت . قد تكون فكرة استخدام الحيوان واستغلال النبات قد خطرت له في العصر الحجري المتوسط عن طريق المصادفة . ولا شك ان ابراز الفكرة الى الواقع يجب أن يكون قد تم خلال مدة طويلة من الزمن حتى يكون الحيوان قد ألف الانسان . فالانسان يحمي الحيوان الضعيف - كالشاة والماعز

W. F. Albright in *Haverford Symposium on Archeology and the Bible*, ed. Elihu Grant (New Haven, 1938). p. 7; do., *The Archeology of Palestine and the Bible*, 2 nd ed. (New York, 1933), pp. 61, 231.

وغيرها - ويعطيه طعاماً ، وهذا الحيوان بدوره يقوم بخدمات نافعة . انه عون له في الصيد ، وفي حمل الاثقال أو جرهما ، هذا الى جانب الانتفاع بلحمه وحليبه . وما لا شك فيه ان الكلب كان اول حيوان أنس الى الانسان ولازمه عندما كان الانسان القديم صياداً يعيش على القنص . والى جانب نفعه في الصيد وحراسة الكهف فإن الكلب كان يعيش على بقايا فريسة الانسان فيريحه من خبث رائحتها وضررها . واقدم دليل على تأنيس الحيوان اكتشاف جمجمة كلب كبير كاملة سليمة في احدى الطبقات الارضية التي نقب عنها في مغارة جبل الكرمل^(١). وتلا تأنيس الكلب تأنيس الماشية مما ادى الى اسلوب عيش يعتمد رعاية الماشية مصدراً ثابتاً للقوت عوضاً عن القنص الذي قد يكون ثابتاً وقد لا يكون .

عندما كان الانسان صياداً يعتمد القنص مصدراً لقوته كان تنقله على وجه الارض وقفاً على مواطن الحيوانات البرية التي كان يتبعها . ولكنه عندما أنس الحيوانات فانه انتقل ، بطبيعة الحياة الجديدة . الى الطور المعروف بالطور الرعائي الذي ظل فيه بدوياً ينتقل من مكان الى آخر ، ولكن بفارق أساسي وهو ان تنقله اصبح محددًا ومشروطاً بطبيعة وجه الارض حيث يوجد الماء والعشب الضروريان لقطعانه . وعند نهاية العصر الحجري المتوسط ، أو في أوائل العصر الحجري الحديث ، دخل في طور من العيش جديد ، طور اعتماد الزراعة مصدراً للقوت . والزراعة بطبيعتها تفرض عليه عيشاً مستقراً ثابتاً . ولا شك في ان اكتشاف الانسان امكان استغلال النبات جاء عن طريق المصادفة ايضاً . فان بعض انواع الحبوب البرية كان من جملة الاطعمة التي كان يعيش عليها وهو بعد في طور القنص والرعاية . وطبيعي ان يسقط بعض هذا الحب امام كهفه فينبت في الربيع . ويجب ان يكون قد لاحظ بعض اذكفاء سكان الكهف هذه الظاهرة التي تتكرر سنة بعد اخرى . وقد يكون ان هذا الذكي القوي اقنع جماعة الكهف ان يضعوا جانباً بعض الحبوب التي جمعوها وخزنوها للشتاء بذاراً للسنة المقبلة . وهكذا دخل الانسان القديم في طور الزراعة .

وقد وجد في حفريات وادي النطوف مناجل للحصاد مصنوعة من الصوان

أو من شفرات صوانية مركزة في قبضة خشبية منحنية شكلها شكل المنجل . ويظهر انها كانت تستعمل لحصاد القمح . اما اذا كان هذا القمح من النوع البري أو الجوي ، فأمر لا سبيل الى التأكد منه . وقد درب الثور ، الذي أنس في العصر الحجري الحديث ، على جرّ المحراث . وقد تبع زراعة القمح والشعير زراعة حبوب اخرى كالذرة ، ثم زراعة الاشجار المثمرة كالزيتونة والكرمة والتينة ثم سائر الخضار . وجميع هذه الاشجار والنباتات كانت من الانواع الاصلية في البلاد التي أنس فيها الانسان وزرعها لمنفعته قبل التاريخ المدون . وهكذا بعد ان كان الانسان يجمع الحب والفاكهة من الطبيعة ، اصبح يزرعها هو ذاته ويستغلها .

ويظهر ان هذا الانقلاب الجذري الخطير في اسلوب العيش بدأ اولاً في منطقة الشرق الادنى ، ومن الشرق الادنى انتقلت الزراعة الى المناطق الاوروبية^(١) .

الحياة المستقرة

ان الزراعة كعامل في تطور الانسان وتقدمه لأبعد أثراً وأعمق غوراً من أثر تربية الحيوان واعتماده مصدراً للقوت . وكلما تقدمت الزراعة تقدم الانسان في أساليب عيشه . فالكهف ، وهو مسكنه القديم ، استبدله الانسان بخيمة او بكوخ من طين . وللمسكن في حياة الانسان أثر كبير ، فهو حماه يقيه الضر ، ويسر له النفع . وكان ازدياد السكان حافزاً للانسان على ان ينشد مصادر للقوت جديدة ومساكن جديدة . فانه لم يعد يرضى عن السكن في المغاور والاكواخ ، بل اخذ يبني البيوت من الحجر ، وعندها بدأ فن البناء والعمارة . وقد تلا هذا التطور فكرة تملك الارض . فانه كصياد ينتقل من مكان الى آخر ، او كراع ينتجع الكلاً ، لم يكن يستطيع الاقامة في مكان معين محدود . وعليه لم تترك البيئة الطبيعية اي انطباع او اثر في نفسه بل ظل عقله مشتتاً واختباره موزعاً . غير ان الامر تبدل تبديلاً اساسياً لما استقر واصبح مسكنه ثابتاً . في هذه الحياة المستقرة الثابتة ينمو العقل ، ويزداد الاختبار ، ويسهل نقل هذه المعارف والاختبارات الى الاجيال الناشئة وهكذا يظهر على ممر الزمن التقليد الحضاري . وكما ان انسان

Robert J. Braidwood, *Prehistoric Men* (Chicago, 1948), pp. 80, 96 (١)

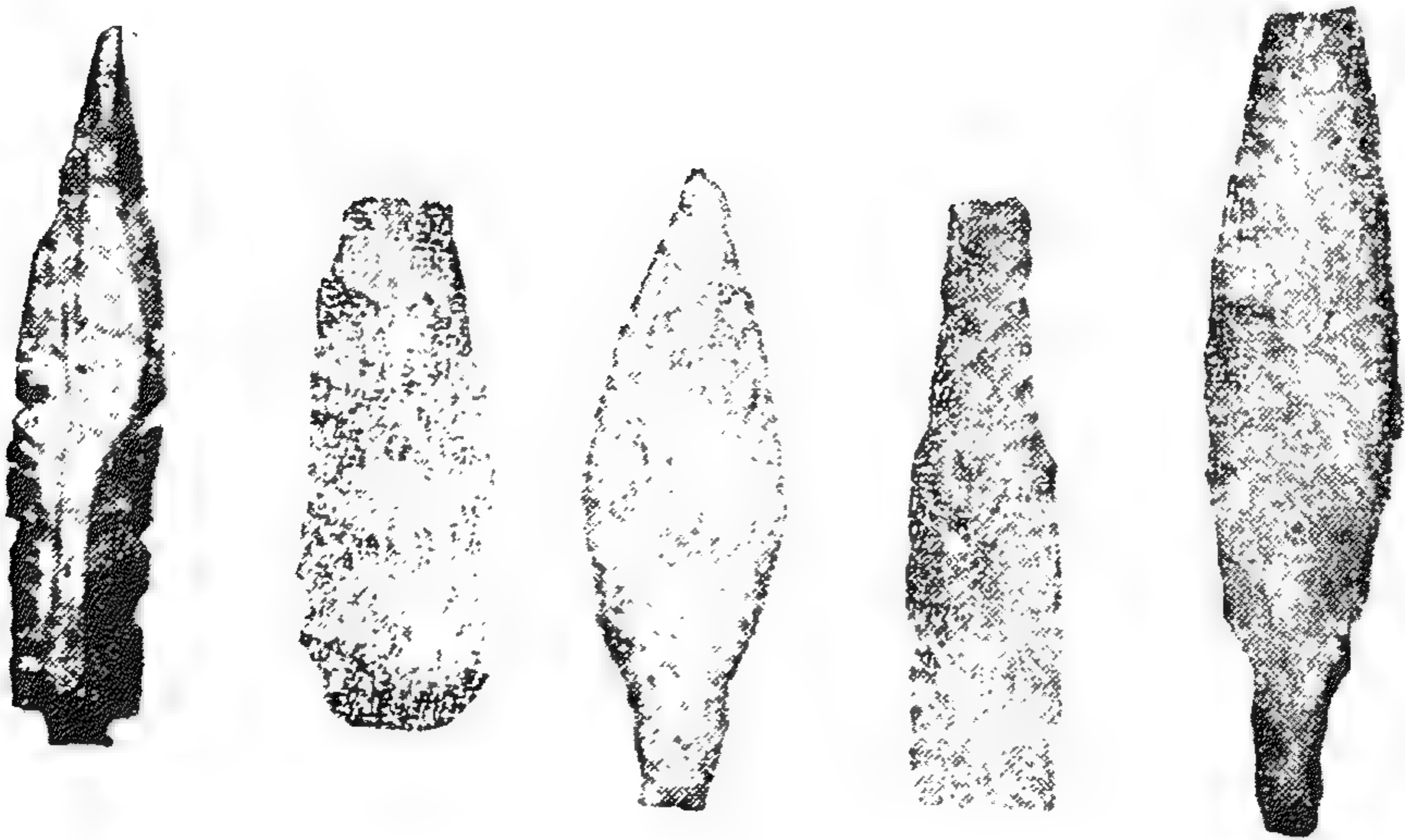
العصر الحجري استطاع تخزين الاطعمة تغلم ايضاً جمع الفكر والاختبارات ليعلمها ابناؤه . وكان من جراء تقدم الانتاج الزراعي ازدياد في عدد السكان ، وكثرة السكان تؤدي الى خلق فئة مترفة تنصرف الى التخصص المهني والصناعي . وهكذا نشأت القرى والدساكر . ويرجع ان اقدم قرية في لبنان هي جبيل وفي فلسطين اريحا ، وفي سورية الجديدة .

الحياة الراقية

وكان من نتائج التجمع ، اي عيش الانسان في مجتمع من الناس ، تطور التصورات الدينية . فقد تبلورت في هذه الحقبة السابقة للتاريخ المدون فكرتان دينيتان : فكرة وجود آلهة تقرن بالارض او بالقبيلة ، وفكرة مبهمة عن حياة ثانية بعد الموت . فقد وجدت بين الآثار التي اسفرت عنها حفريات النطوف آنية خزفية لحزن الطعام وقرابين اخرى تدل على اعتقاد الانسان بان هنالك نوعاً من الحياة بعد الموت . وفي الواقع ان آثار هذه المعتقدات قد تعود الى زمن ابعد من هذا الزمن . وقد كان الرعاة في منطقة الشرق الادنى من عباد الاله القمر ، ففي الليل البارد العليل تسرح القطعان وترعى وهي في مأمن من لهيب الشمس المحرقة . ولكن عندما تبدلت الحياة واصبح الانسان مزارعاً اخذ يلاحظ العلاقة الوثقى بين نمو النبت وحرارة الشمس ، فاصبحت الشمس في معتقده الاله تعبد . والى جانب عبادته الشمس نجد انه قدس الارض ، الارض التي تنبت النبت له ولحيوانه ، وعبدها على انها الالهة للخصب والتاج . وعبادة الالهة الخصب - الارض الام - وما نشأ حولها من أساطير ، بلغت الذروة في عبادة ادونيس وعشتروت كما مارسها الفينيقيون .

لم يتقدم انسان العصر الحجري المتوسط في معتقداته وتصوراته الدينية وحسب بل نجد انه ارتقى فنياً ايضاً . فانه بدأ في هذه الحقبة بصنع ادوات ليس للمنفعة فقط ، بل لقيمتها الجمالية وللمتعة الفنية فيها . فقد وجد علماء الحفريات نماذج من الخرز والعقود المصنوعة من قطع عظم مصقولة او من اصداق بحرية مثقوبة معها قطع من الصلصال المتأكسد الاحمر اللون مما يدل على ان الانسان بدأ يعنى ،

بصناعة ادوات للزينة يتجمل بها الذكور والاناث على حد سواء . وكانت الناحية الفنية عند الانسان في اولى مظاهرها ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باعمال السحر ، وكان الفن والسحر مرتبطين بالدين . ويظهر ان الانسان القديم كان يعتقد ان صورة الحيوان التي يحفرها في الخشب او العظم او ينقشها في الحجر تعطيه قوة سحرية ليتسلط بها على ذلك الحيوان . فقد وجدت في منارة جبل الكرمل ، التي اشرنا اليها سابقاً ، صورة رأس ثور محفورة في العظم لعلها من صنع رجل من العصر الحجري المتوسط . وفي هذه الحقبة اخذ القرويون والمزارعون يشعرون بالحاجة الى المزيد من الآلهة لتحرس قطعانهم وتحفظ مواسمهم من التلف . فان الاعتقاد بالارواح والاخذ بالسحر لم يعودا يجديان عنده نفعاً ، ولكن رغم اقتناعه انها ارواح لا تجدي فان بقايا الاعتقاد بالسحر وبالارواح استمرت في اليهودية والمسيحية والاسلام الى يومنا هذا .



ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري الاخير وقد وجدت في رأس بيروت (الحجم الطبيعي)

تفصل العصر الحجري الحديث عن سابقه، العصر الحجري القديم، الوفا من السنين . ويتميز بالتغيرات الجيولوجية التي طرأت على سطح الارض وبتقدم الانسان ورقبه اختباراً ومعرفة . فان انسان العصر الحجري الحديث اخذ بتركيز ادواته واسلحته في مقابض قوية زيادة في فعاليتها . وشرع بصقلها صقلاً شديداً ليكسبها سطحاً ناعماً،

واحيانا كان يتناول بعض مصنوعاتـه بكثير من العناية والحذب حتى يخرج منها ادوات فنية جملة . ولم تعد المنفعة الحافز الاول والاخير ، فانه اصبح انسانا يتذوق الجميل ويأنس الى الممتع ، فكان عليه ان يشبع هذه الرغائب فيه . وفي متحف الجامعة الاميركية في بيروت مجموعة ادوات من صنع انسان العصر الحجري الحديث وجدت في الحفريات التي اجريت في الرأس القريب من مصب نهر الكلب ، ومجموعة اخرى من العظام وجدت في صيدا يبدو على سطحها خطوط محفورة برؤوس شفرات حجرية حادة^(١) . وهاتان المجموعتان تدلان على تطور ذوق الانسان الفني . وقد وجد ايضا مخارز وسكاكين . هذا فضلا عن تقدم ظاهر يبدو في تحسين اساليب الزراعة وتربية الحيوانات التي كانت تقتضيها ظروف العيش المستقر . وقد تعلم في هذه الحقبة ان يخيط لنفسه ملابس من جلود الحيوانات التي كان يقتنصها . يدل على ذلك العثور على ابر ودبابيس مصنوعة من العظم . ولم يقتصر تقدم الانسان القديم على هذه النواحي فحسب ، بل انه شق لنفسه سبلا جديدة في نواح جديدة . فان الفضل في اكتشافين عظيمين : الخزف والمعادن يعود الى انسان الشرق الادنى الذي عاش في العصر الحجري الحديث الذي دام حوالي ٢٠٠٠ سنة بدءا من حوالي ٦٠٠٠ ق . م .

الخزف

ونرجح ان اكتشاف صنع الخزف يجب ان يكون قد حصل عن طريق المصادفة . قد تكون المصادفة احتراق كوخ مصنوع من الطين فتشوى قطع من طين الجدران وتصبح مادة صلبة قوية لا يرشح منها السائل . ويظن البعض ان هذا الاكتشاف حدث في العصر الحجري المتوسط . واهمية هذا الاكتشاف وغيره من الاكتشافات السابقة ليست في الاكتشاف ذاته ، وانما في ادراك فوائده والانتفاع به والاستمرار في صنعه واستخدامه . فقد اصبح في مقدور الانسان ان يستعير عن القرع والحجارة أو الاخشاب المجوفة التي كان يستعملها لحفظ سوائله وحبوبه بآنية جديدة مصنوعة من الخزف . وهذا يعني انه اصبح يستطيع ان يعيش على مسافة من نبع الماء الذي يشرب منه ، وان يطبخ

(١) Makay, p. 8; C.L. Woolley, *Guide to the Museum of Archaeology* (Beirut, 1921), p. 2.

طعامه عوضاً عن اكله نيئاً او مشوياً . واهم من هذا وذاك ان اصبح في مقدوره الآن ان يخزن ما شاء من الطعام الذي لا قدرة له على استهلاكه دفعة واحدة . فيكون الانسان القديم قد اضاف الى قدرته على انتاج طعامه قدرة على تخزينه والاحتفاظ به . وهذه مرحلة هامة من مراحل تقدمه . فبعد ان كان يجمع الطعام في طور القنص ، وبعد ان اصبح ينتجه في الطور الزراعي ، اصبح بفضل اكتشاف الخزف في مقدوره الان ان يخزن طعامه لوقت الحاجة . واختران الطعام اراح عقل الانسان من الاهتمام المضي الشاق بجمع قوته المستمر ، فاصبح لديه متسع من الوقت ليسمو بفكره ولينفرغ للامور الفكرية والفنية والروحية . وفي مجتمع بدائي جاهل حيث لا تشكو الشخصية من عقد نفسية ينفصح امام الفرد مجال للابتكار والابداع ضمن نطاق امكانيات ذلك المجتمع الحضارية .

ظهرت صناعة الخزف في فلسطين حوالي ٥٠٠٠ سنة كما يبدو من البقايا الخزفية التي عثر عليها في اسفل الطبقات الارضية في حفريات اريحا التي قام بها غارستنغ (Garstang) الذي يزعم ان صناعة الخزف اكتشفت هناك^(١) . ومعرفتنا عن خزفيات فلسطين حسنة ، وذلك بفضل الحفريات الكثيرة التي اجريت في اريحا وفي اماكن اخرى متعددة . واقدام انواع الخزفيات واكثرها بدائية انواع من الاجران المغروزة في الارض والمسيّعة بطبقة من الطين أو الكلس . ثم على اعقاب هذه تأخذ الجرار بالظهور ، الجرار ذات القاع المسطح وفي اعلاها حافة بسيطة ولها مقبضان بشكل حلقة . ونحن نعرف الكثير عن خزف شمالي سورية . واقدام نماذج عثر عليها في الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، وهي نماذج معاصرة لاقدام انواع الخزف الذي وجد في فلسطين اي حوالي ٥٠٠٠ قبل الميلاد . وقد عقب النماذج البدائية القديمة آنية خزفية مطلية ومدهونة وجدت في تل الجديدة^(٢) شمالي شرقي انطاكية ، وذلك حوالي ٤٥٠٠ سنة ق . م . وعلى هذه الآنية صور للزينة بدائية الشكل قبيحة المنظر . وقد كانت صناعة الخزف مجالا رحباً للتعبير الفني عند انسان العصر الحجري . وجميع هذه الآنية الخزفية كانت تصنع باليد اذ لم

١ - John Garstang and J.B.E. Garstang, *The Story of Jericho* (London, 1940), pp. 53-4 .

٢ - Robert J. Braidwood, *Mounds in the Plain of Antioch*, (Chicago, 1937), p. 7 .

يكن قد اكتشف بعد دولا ب الخزاف ، اذ يظن ان اكتشاف هذا الدولا ب حدث حوالي ٤٠٠٠ ق . م . ولكنه لم يحسن ولم يستعمل على نطاق واسع وبمقدرة فنية الا حوالي ٢٠٠٠ ق . م .

اما معرفتنا بالخزف اللبناني ، سواء اكان في منطقة البقاع ام في الشاطيء ، فضئيلة ناقصة . وذلك رغم ما اسفرت عنه الحفريات الاولى في جبيل وصيدا . وفي الواقع ان معرفتنا عن الحضارة اللبنانية القديمة مستمدة من الاكتشافات التي حصلت خارج حدود لبنان . وبناء على النماذج الخزفية القليلة التي تناولها الدرس نستطيع القول بان صنع الخزف في لبنان لم يتسم بصفة الابداع او الابتكار . ويبدو انه مقتبس عن جيرانه في الشمال والجنوب . فان نماذج من الخزف كانت شائعة في فلسطين ، ونماذج اخرى معروفة في شمالي سورية تعود فتظهر في فينيقية ، مما يدل على اقتباس في الصناعة^(١) . واقدام قطع خزفية وجدت في لبنان يعود عهدها الى العصر الحجري الحديث . وقد وجدت هذه القطع القديمة في جبيل^(٢) اقدم بلدة لبنانية ذات تاريخ مدون .

ان وجود الخزف بين آنية المنزل القديم له قيمة علمية بالنسبة الينا . فهو لا يفسد ولا يبلى رغم انه قد يحطم قطعاً صغيرة . لذلك فان صنعه وتزيينه وزخرفته تعكس لنا بجلاء ذوق الانسان القديم وتحسسه بالجمال ، تماماً كما تعكس لنا ازياء الثياب النسائية ذوق العصر الحاضر . وانتشار الخزف في بقاع الارض المتباعدة دليل على قيام العلاقات التجارية بين الناس في ذلك العهد السحيق . وعليه فان دراسة الخزف تفتح امام عين المؤرخ نافذة واسعة يطل منها على الابعاد التاريخية . وكذلك قل في الآثار المعدنية التي خلفها الانسان القديم ، فانها بمثابة وثائق للتاريخ البعيد . وباكتشاف صنع الخزف والتعدين نخلف وراءنا الفترة السابقة للتاريخ المدون ونطّل على عصر جديد اشبه ان يكون مقدمة للتاريخ كما يجب ان نفهم التاريخ . اما التاريخ الحقيقي المبني على وثائق كتابية فانه لا يبدأ قبل اكتشاف الكتابة اي تدوين الكلام برموز .

Wooley, p. 6.

- ١

Maurice Dunand, *Fouilles de Byblos*, vol. I text (Paris, 1939), p. 390; atlas (Paris, 1937), Pl. CXCH; do. in *Revue biblique*, vol. 57 (1950), pp. 582-603 .

- ٢

الفصل الخامس

عصر المعادن

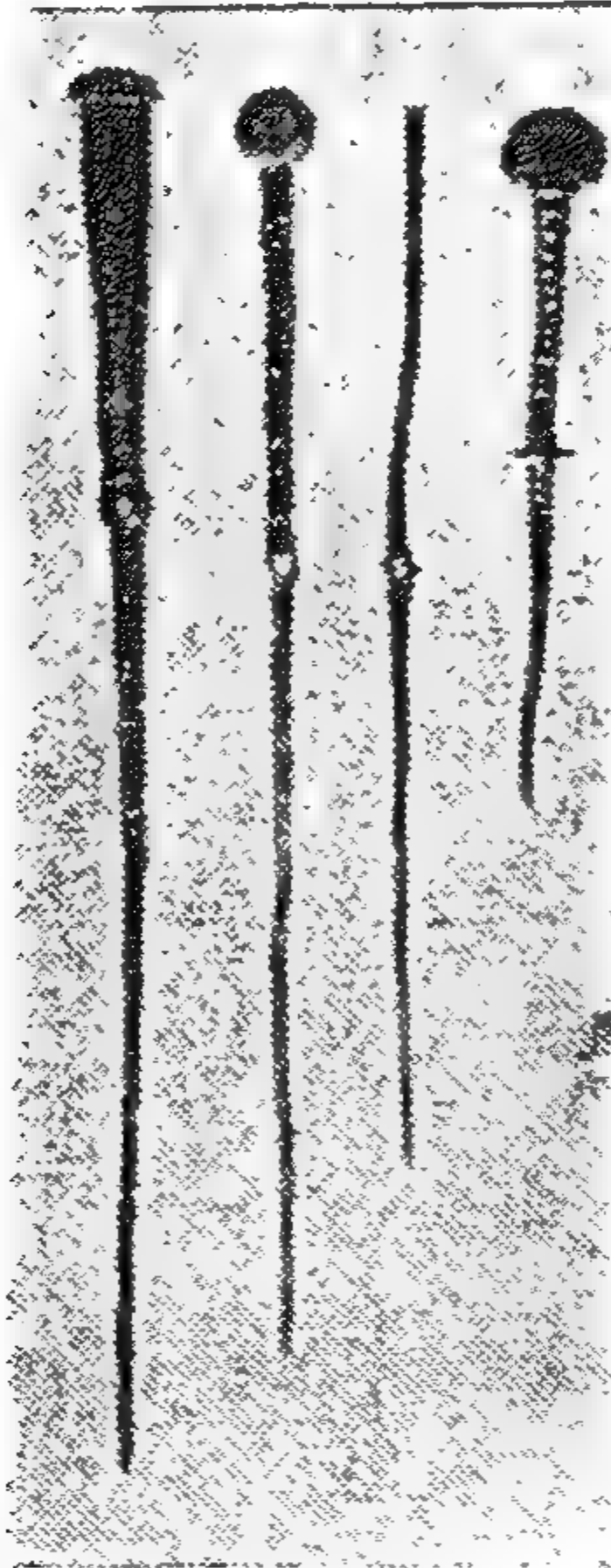
كان اكتشاف المعادن والانتفاع بها فاتحة عهد جديد في تقدم الانسان صعدا نحو الحضارة . ويعرف هذا العصر بالعصر المعدني . واول معدن انتفع به الانسان كان النحاس . وقد اخذ النحاس رويدا رويدا يحل محل الحجر في صنع الادوات ولكن بما ان النحاس معدن طري ينقصف أو يكسر عند تطريقه او ضربه ، فانه لم ينتصر انتصارا تاما على الحجر الا بعد ان اكتشف الانسان طريقة لتقسيته وتغييره الى معدن البرونز (البرونز مزيج من النحاس والتنك) .

العصر النحاسي الحجري

يرجح ان اكتشاف المعادن في الشرق الادنى أتى عقب اكتشاف صنع الخزف . ولكن يظهر ان انتشار استعماله تأخر عن هذا العهد قرابة الف سنة . فقد كان استخدام النحاس في صنع الادوات أمراً شائعاً في سورية وفلسطين حوالي ٤٠٠٠ ق. م. ولكنه (النحاس) لم يحل محل الحجر كمادة تصنع منه أدوات الانسان القديم ، إلا بعد ان كان قد مضى على اكتشافه ما يربو على الف سنة . هذه الالف سنة او الفترة الواقعة بين ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق. م. تعرف بالعصر النحاسي الحجري . فقد كان بعض المهرة في الصناعة والفن والعمران يستعملون النحاس أحياناً في هذه الفترة . ولكن سائر الناس ظلوا يستخدمون الصوان رغم ان النحاس يفضله قوة ومرونة وليونة عند تطريقه . وآثار هذا العصر النحاسي الحجري كثيرة في أوغاريت ، وفي أماكن غيرها في شمال سورية وفي جيبيل ، وفي أماكن أخرى في فلسطين ، منها تليلات الغسول .

وفي صحراء سيناء آثار معادن للنحاس . وكذلك يوجد النحاس في عمان وفي شمالي سورية ومنها الى مناطق ما بين النهرين . وقد كانت بلاد ما بين النهرين

(العراق القديم) احر بلاد عرفت النحاس واستخدمته في صنع الادوات . ولا يختلف اكتشاف النحاس عن سائر اكتشافات الانسان القديم : اكتشاف عن طريق المصادفة . اذ لعله حدث ان احد الناس بنى موقداً امام خيمته من كتل من الحجارة أو التراب المتجمد الذي يحتوي على مادة النحاس . وفي اليوم التالي ، وهو ينكت الرماد ، يشاهد قطع معدن لماعة براقه . ولعله استعملها اولاً كحلي للزينة ، كما كان يستعمل الخرز والاصداف . ولا بد انه مر بعض الوقت قبل ان ادرك منافع هذا المعدن وفضل استخدامه في صنع ادواته . ولكن ما ان ادرك عظم هذه المنافع حتى اخذ باحلال النحاس محل الصوان مادة لصناعته . ولكن هذا الانسان القديم لم يحلم قط بان اكتشافه هذا خطوة اولى نحو ثورة جذرية في اساليب العيش من شأنها ان تدفع بحضارته اشواطاً الى الامام .



دبابيس برونزية ذات ثقب في الوسط ، من لبنان وسورية

وقد اتى استخدام البرونز في الصناعة عقب استعمال النحاس . ثم تلا هذا اكتشاف الحديد والفولاذ . وقد بدأ عصر البرونز حوالي ٢٦٠٠ ق . م . ويقول بعضهم حوالي ٢٠٠٠ ق . م . واستمر الى حوالي ١٢٠٠ ق . م . عندما اخذ

الحديد يحتل محله في الصناعة . واستمر عهد الحديد الى ٣٠٠ ق . م . وفي النواقع فقد استمر العصر المعدني الى زمن اكتشاف الكهرباء ثم الطاقة الذرية . وقد كانت سورية الشمالية - ولا سيما المنطقة الواقعة بين خليج الاسكندرونة وبين منابع الفرات - اثناء العصر الحجري النحاسي مركزا حضاريا رئيسيا كما كانت في العصر الحجري الحديث . فان اكتشاف النحاس والتعرف الى منافعه انتقل شرقا الى ايران وجنوبا الى فلسطين ومصر . ويرجح ان هذه المنطقة ذاتها كانت في عصور سابقة البقعة التي انس الانسان فيها الحنطة واكتشف صنع الخزف المحلي .

ان آثار الانسان في شرقي حوض المتوسط تدل على انه استخدم النحاس اولا في صنع اسلحة الحرب قبل ان اخذ في استخدامه في صنع الادوات المنزلية . ومن الطبيعي ان يكون بدء استخدامه في صنع الاسلحة قد اقتصر على انواع صغيرة قليلة العدد لفئة قليلة من الناس . وبديهي ان يكون قد لحظ ان القبائل المسلحة باسلحة من معدن اوفر حظا في النصر من تلك التي تعتمد الادوات الحجرية سلاحا في الحرب . ولذا بدأ التنافس في استعماله واستخدامه في صناعة الاسلحة على مستوى ارفع . ونرجح ان استخدام النحاس في صنع ادوات منزلية نافعة بدأ اولا بصنع امور بسيطة اكثرها للزينة كالخرز والدبابيس . ولكن على مر الزمن اخذ الانسان بالانتفاع به في مختلف الامور : في الزراعة وفي استخدام دولاب الخزاف لصنع الخزف . وارتقى كذلك فن العمارة ، فاصبحت البيوت اكبر واحسن . واقدم نماذج للبناء هي تلك الابنية المستطيلة - اذا كانت الابنية للسكنى - والابنية المستديرة - اذا كانت اما كن للعبادة أو مزارات .

الحضارة الغسولية

تلييلات الغسول^(١) اسم موقع تاريخي يقع شمالي البحر الميت . ويعود زمن تأسيسه الى العصر الحجري النحاسي . ويطلق على تلك الحضارة التي كانت سائدة



هيكل عظمي بشري يعود الى عصر الانتقال من الحجري الى النحاسي
وقد وجد في جرة خزفية في جبيل . ويعود تاريخه الى ٣٥٠٠ ق.م.

آنذاك ، كما يبدو من الآثار التي وجدت في الحفريات ، اسم الحضارة الفسولية .
فقد وجد ان جدران البيوت كانت تصنع من الطين . وكانوا يبنون بيوتهم على
اساس من الحجارة الغير المقصبة . وكان اكبر جانب من جوانب البيت يقابل
فناء أو داراً امام البيت . وارض البيت مرصوف بالقصب وفوق القصب طبقة
من طين . وقد وجد في ارض البيت جرار خزفية مدفونة في الارض تحتوي على
هياكل عظمية لاولاد صغار . ويظهر ان بعض الموتى كانوا يحرقون . ومعلوم ان
حرق الجثث عادة غير معروفة عند الشعوب السامية . وقد وجد في جبيل ايضاً
جرار خزفية كانوا يضعون فيها الموتى مدفونة تحت ارض غرف البيوت التي يعود
عهدا الى العصر النحاسي أو العصر الحجري الحديث . وكانوا يضعون جثة الميت وكأنه

جالس على مؤخرته وركبته مطويتان ومرتفعتان^(١) .

وقد أجريت في اما كن اخرى من فلسطين وفي جبيل واوغساربت حفريات يعود عهدها الى العصر النحاسي وتشبه حضارتها الحضارة الغسولية . ويقدر العالم الذي قام بهذه الحفريات^(٢) في جبيل (بيلوس) ان الأبنية التي عثر عليها يعود تاريخها الى ٣٢٠٠ قبل الميلاد ويعتبرها أقدم نموذج لبناء بالحجر في الشرق كله ان لم يكن في العالم . فان المقبرة التي وجدت هناك يعود تاريخها الى حوالي منتصف الألف الرابع (٣٥٠٠ ق.م.)

ان حضارة هذا العصر ، أي الحضارة الغسولية كانت حافزاً قوياً في الزراعة وفي تربية الحيوانات . وفي هذا العصر استمر الانسان في صراعه ليكيف نفسه لبيئته الجغرافية وليخضع بيئته هذه لتلائم عيشه ولتشبع رغائبه . فقد ازداد اعتماده على البقر والغنم والماعز ، تلك الحيوانات التي دجنها في العصر الحجري الحديث . ويبدو هذا واضحاً من شيوع تماثيل هذه الحيوانات في هذه الفترة . ومن مآتي هذه الفترة التقدم في الزراعة التي تعتمد على الري . فانه أصبح يستطيع ان يزرع انواعاً مختلفة من الخضار كالخس والبصل والثوم والحمص والفول والحشائش التي يستخدمها توابل في طعامه . ويظهر أثر وفرة الطعام واختلاف انواعه في معدل طول قامة الانسان في العصر النحاسي الحجري . وبما ان اكثر الناس في العصر النحاسي الحجري كانوا يسكنون اودية الأنهر والسهول التي تكثر فيها التربة الغرينية الرسوبية فانهم كانوا يعتمدون الري في زراعتهم .

علاقات شعوب الشرق الأدنى العرقية

ان العرق البشري الذي تنتمي اليه الشعوب التي قطنت شمالي سورية وفلسطين ولبنان في العصر الحجري الحديث هو العرق الذي يعرف بعرق حوض البحر الابيض المتوسط . فقد وجدت آثار الانسان الذي ينتمي الى هذا العرق في

١ - Claude F. A. Schaeffer in *Syria*, vol. XV (1934) pp. 111-12, Pl. XI, No. 2, facing p. 110 .

٢ - Dunand, *Fouilles de Byblos*, vol. I, text, pp. 295-6.

حفريات الشقبة في وادي النطوف وفي مغارة الوادي (قبل ٥٠٠٠ ق.م.) وفي تل الجديدة (قبل ٤٠٠٠ ق.م.) وفي جبيل ٣٥٠٠-٣٢٥٠ ق.ب. مما يدل على انه الشعب الأصيل في البلاد ، ومما يدل ايضاً على انه اقدم الشعوب التي توطنت شرقي البحر الابيض المتوسط . وهذا العرق البشري هو في الواقع العرق الذي تنتمي اليه جميع الشعوب البيضاء القديمة التي كانت تتوطن شمالي افريقية (الشعب المصري الحامي القديم) وجنوب اوروبة (اي الشعوب التي كانت تقطن شبه جزيرة ايبيرية [اسبانية والبرتغال] وفرنسة وايطاليا وبلاد اليونان والجزر القريبة منها والتي تغلبت عليها فيما بعد الشعوب الهندو اوروبية . وهو عرق بشري يختلف اختلافاً كلياً عن العرق الذي ينتمي اليه انسان مغارة الكرميل وانسان انطلياس الذي كان يحتفظ بكثير من المزايا الجسدية البدائية . اما الانسان الذي ينتمي الى هذا العرق الذي نحن بصددده فهو انسان كما نعرف الانسان اليوم . هذا الانسان الذي توطن حوض المتوسط ينتمي الى العرق الابيض القوقاسي . فقد كان قصير القامة أو معتدلاً ، ذا بنية نحيفة - واحياناً قوية - وذا ساقين طويلين اذا قيستا بجذع جسمه . وقد كان رأسه طويلاً ذا شعر يميل لونه الى السواد ، وقل ان تجده اصلع . والى هذا العرق تنتمي الشعوب السامية ، ولكنها لم تكن قد ظهرت بعد في المنطقة التي نتكلم عنها . الا انه يظهر في هذه الطبقة العرقية الاصلية بعض مزايا ليست بمتوسطة ، بل اشبه بمزايا العرق الارمني الذي هو الجزء الشرقي من العرق الالي . وهو عرق جبلي يقطن الاراضي المرتفعة الممتدة من جبال الالب الى القوقاس . ويدخل في نطاق هذا العرق شعوب قديمة عديدة منها الحوريون والحيثيون والاشوريون وشعوب لها ممثلوها في عصرنا هذا وهم اليهود والاكراد والارمن . وهذا العرق الارمني ، كما قلنا آنفاً ، هو من العرق الابيض القوقاسي ، ولكن الانف اقنى عال مقوس منحني والجمجمة قصيرة مستطيلة . وقد اثبتت الآثار التي عثر عليها في تل جازر^(١) ومواقع اخرى في فلسطين ، والآثار التي عثر عليها في حفريات كركيش (جرابلس الحالية على الفرات) ومواقع اخرى في شمالي فلسطين ، نقول ان هذه الآثار اثبتت ان شكل الانسان الجسدي في هذه البقعة جميعها يتفق مع الاوصاف التي جئنا عليها . ويظهر ان بعض جماعات بشرية تنتمي

R. H. Macalister, *The Excavation of Geser*, vol. 'I

- ١

(London, 1912), pp. 58-9 .

وتعرف باسم خربة ابو شوشة (م)

الى العرق الارمني هبطت من مواطنها في الاراضي المرتفعة في اواسط اسية ، اثناء العصر النحاسي الحجري ، وفرضت نفسها على سكان منطقة حوض المتوسط واختلطت بهم على ممر الزمن . ولم تكن هذه الهجرة الوحيدة من اواسط آسية الى حوض المتوسط بل ان هجرات مماثلة استمرت في العصور التالية التاريخية . وتدل دراسة بعض اسماء المدن والقرى في هذه المنطقة على انها قد لا تكون سامية الاصل مثل دمشق وارواد التي لم يرد ذكرها في النقوش الا في القرن الخامس عشر ق . م . بل بالاحرى قد تكون تسمية سابقة لعهود الساميين في المنطقة .

ان المميزات الجسمية لهذا العرق الارمني تظهر بصورة بارزة في جبال لبنان . فان هجرات متتالية - كالهجرة الحثية مثلاً - استقرت في هذه البقعة . وقد اثبتت دراسة عدد كبير من الرؤوس من الموارد والدروز ان شكل الجمجمة ، بوجه عام ، قصير ومستدير وان معدل النسبة بين طول الجمجمة وعرضها يتراوح بين ٨٠ - ٨٧^١ وان مؤخرة الجمجمة مفلطح بصورة بارزة . وقد يكون هذا القفا المفلطح المنبسط نتيجة تقميط الطفل ووضعه في مهده على مؤخرة رأسه . وقد يكون بروز الانف ايضاً ناتجاً عن الضغط الذي يولده نوم الطفل على هذا الشكل . والام اللبنانية ، منذ اقدم العصور ، تلجأ الى تقميط الطفل وربطه الى مهده مستلقياً على ظهره كي تنصرف الى مهام البيت فترة من الزمن . واللبناني الذي يمثل الشكل العام في يومنا هذا يميل الى قصر في القامة وضخامة في الجسم ، جذع جسمه طويل وساقاه قصيرتان وبنيته قوية . واذا اتجهت من لبنان شرقاً الى مدن سورية القريبة من حدوده الشرقية وتابعت سيرك شرقاً الى الصحراء تجد فروقاً جسدية بارزة بين سكان لبنان وجيرانهم الى الشرق وخصصها استطالة في شكل الجمجمة والوجه ، واستقامة في شكل الانف وسمرة شديدة في لون الجلد . فان بدو الجزيرة العربية في نجد برؤوسهم الطويلة وملاحمهم النحيفة يمثلون الفرع السامي من العرق المتوسطي في انقى خصائصه . أما العرب الباقون ولا سيما اولئك الذين يجاورون اطراف الجزيرة العربية فقد كانوا عرضة للتمازج العرقي المختلط .

William M. Shanklin in *American Near East Society*,
Monograph, series No. 9 (New York, 1949), p. 3; Carleton S.
Coon, *Caravan: The Story of the Middle East* (New York,
1951), pp. 158, 163

ان هجرة الساميين في الحقبة الاخيرة من العصر النحاسي الحجري الى الهلال الخصيب - وهي البقعة التي تشبه قوساً او هلالاً يرتكز طرفه الشرقي على الخليج العربي وطرفه الغربي على شبه جزيرة سيناء - كانت بداية عصر حضاري في المنطقة. وقد كان تهجرة الساميين الى هذه المنطقة في الوقت الذي وضعت فيه حروف الهجاء وظهور الكتابة في حد ذاته نقطة انطلاق. فان ظهور الكتابة يعني بدء التاريخ المدون، وهو التاريخ الثابت. وهذه التقدّمات الحضارية التي نكلّمنا عنها آنفاً والتي أسدتها الشعوب التي سبقت الهجرة السامية ليست قيمتها الكبرى في كونها اراثاً حضارياً روحياً ورثة الساميون فحسب، بل في انه انتقل الى الشعوب الاوروبية المتقدمة. فاننا نعلم اليوم أحسن من ذي قبل، ان ما نسميه حضارة اوروبا القديمة لم يكن سوى انعكاس للحضارة الشرقية المتوسطة. فان اوروبا جغرافياً هي شبه جزيرة تأتي من القارة الآسيوية وممتد الى الغرب. يقول عالم في الآثار بريطاني: «لا اتردد في القول ان الغرب مدين للشرق بفضل تقدماته الاولى من أدوات وصنائع وفنون حررت الانسان ووضعت بين يديه سلاحاً يعتق به نفسه من كابوس محيطه الطبيعي. وهو مدين للشرق ايضاً بفضل الروابط الروحية التي وحدت الانسان في سعيه نحو الحضارة والتقدم»^(١). ويقول هذا العالم في مؤلف آخر له: «ان تاريخ اوروبا السابق للتاريخ المدون ليس سوى تقليد - أو اذا شئت تكيف - لما قام به الشرقيون من اعمال حضارية»^(٢). ويقول عالم في الآثار اميركي^(٣): «ليس في الارض بقعة قدمت للبشرية من المنافع والخدمات ما قدمته المنطقة التي نطلق عليها اسم جنوبي غربي آسية. فان المعارف الزراعية الاولى وتدجين الحيوانات واختراع الدولاب والكتابة ومبادئ علم الفلك والبحث العلمي، وجمع الشرائع وتدوينها وفن العمارة والري وغيرها من التقدّمات لخير البشرية وتوحيدها ظهرت اول ما ظهرت في هذه البقعة من الارض».

١ - V. Gordon Childe, *The Dawn of European Civilization*, 5th ed. (London, 1950), p. XIII; cf. D. A. E. Garrod in *Journal of world History*, vol. I (1953), pp. 13 seq.

٢ - V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East*, (London, 1952), p. 2.

٣ - Henry Field in *Studies Presented to David M. Robinson*, p. 237.

القِسم الثاني
العضو السابعة القديمة

الفصل السادس

الكنعانيون : اول شعب كبير نوطن لبنان

قبيل انبلاج السحر

قبيل مطلع الفجر ، فجر التاريخ المدون ، وحول سنة ٣٠٠٠ ق.م. نجد شعباً سامياً يعرف بالشعب الكنعاني ، يتوطن الشاطئ اللبناني والمناطق الغربية من البلاد السورية والمناطق الجنوبية اي فلسطين . وقد سبق ظهورهم في هذه المنطقة ببضعة قرون شيوع نظاميين للكتابة ، الواحد منها الكتابة المسارية السومرية في العراق القديم ، والثاني الخط الهيروغليفي في وادي النيل . وقد ورد ذكر لبنان باسمه صراحة او ضمنياً وباستمرار في النقوش الأكديّة والمصرية والاشورية والبابليّة الجديدة بدءاً من النصف الاول من الالف الثالث قبل المسيح . فقد ذكر الفرعون سنfro مؤسس الدولة الرابعة (حوالي ٢٦٥٠ ق.م. حسب التاريخ الذي يعرف بالتاريخ القصير) في نقش له يصف فيه سفرة بحرية الى لبنان انه جلب معه جمل ٤٠ مركباً من جذوع الارز . ويذكر هذا الفرعون ايضاً انه بنى مراكب من خشب الارز^(١) . وقد وجدت مؤخراً في الغرفة التي دفن فيها سنfro داخل هرم دهشور جسور من جذوع الارز لا تزال تحمل سقف الغرفة . وأدهش من هذا اكتشاف رائع عثر عليه أثري مصري شاب في ربيع عام ١٩٥٤ ، هو زورق لحوفو خليفة سنfro . وهذا الزورق كان يستخدم في مراسيم الدفن والموت وطوله ٦٠ قدماً . وقد كان هذا الزورق مدفوناً قرب هرم الحيزة دفناً محكماً في طبقة من الحجارة الكلسية . وقد وجد الزورق وما فيه من أدوات بحالة سليمة . وهو مصنوع من خشب الارز الذي قيل انه يحتفظ الى يومنا هذا برائحة الارز ، ويظهر ان القصد من صنع هذا المركب نقل نفس الفرعون في رحلتها الابدية مع الشمس . وهذا الزورق هو الثاني بين اقدم آثار خشب الارز اللبناني التي اكتشفت

James H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, Vol. I
(Chicago, 1906), sec. 146, 147 .

الى اليوم . وفي المتحف المصري في القاهرة نماذج من توايت مصنوعة من خشب الارز الذي لا يزال محفوظاً بجودته .

يدعي لوغال زغيسي مؤسس الامبراطورية الاولى في العراق القديم، ان البلدان التي اخضعها بقوة سلاحه كانت تمتد من « مشرق الشمس الى مغربها ، ومن البحر الاسفل عند مصب دجلة والفرات الى البحر الاعلى »^(١) . وسرجون الاكدي



اقدم بئر خشب في العالم . وقد وجدت داخل اهرام سنفر (حوالي ٢٦٥٠ ق.م) ودمشق

١ - Cf. George A. Barton, *The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad* (New Haven, 1929), p. 99 .

(حوالي ٣٢٥٠ ق.م) اول فاتح سامي في التاريخ ، وقاهر الامبراطورية السومرية الى فترة من الزمن قصيرة ، يسمي نفسه « ملك الكون » والكون اذ ذاك لم يكن سوى المنطقة الواقعة بين الخليج الفارسي والبحر الابيض المتوسط . ونرجح انه عندما يتكلم عن « غابة الارز وجبال الفضة »^(١) ، انما يعني جبل اللكام لا جبال لبنان وغاباته

ان الموجة التي اتت بالشعب الاموري من الصحراء العربية الى الهلال الخصيب هي الموجة ذاتها التي اتت بالشعب الكنعاني . ونرجح انه دخل لبنان قبائل بدوية مع ماشيتها وقطعانها عن طريق سهل البقاع وشمال سوريا . واسم البقاع في النقوش المصرية أمرو (Amurru)^(٢) . وهذه التسمية « اموريون » اطلقها عليهم جيرانهم الى الشرق ، اي السومريون . فهي تسمية غير سامية^(٣) . وعاصمة الاموريين ماري (واسمها الحالي تل الحريري) وموقعها على الفرات جنوبي مصب الخابور . واسمها مشتق من ذات اللفظ الذي يشتق منه لفظ A - mur - ru (أمرو) ومرتو mar - tu ومعناه البلاد الواقعة الى الغرب (الى الغرب من السومريين) . وفي شمالي لبنان قرية تعرف باسم عمريت (وفي النقوش المصرية « عمرط » وفي التاريخ الكلاسيكي مرثوس Marathus) . وقد يكون هذا الاسم استمرارا لاسم أمرو او مرتو . وقد انتشر الاموريون شرقا الى وادي دجلة والفرات واسسوا هناك ملكا عظيما كان من ملوكه حمورابي (توفي حوالي ١٧٠٠ ق . م .) اول شارع في التاريخ . وقد تكون اللاحقة^(٤) « ون » او « ان » التي تظهر في اسم لبنان وصيدون وعسقلان لاحقة امورية . وليس هنالك من فروق عرقية اساسية بين الشعب الكنعاني – الذي كان يسميه الاغريق الشعب الفينيقي – وبين الاموريين . غير انه على ممر الزمن وبحكم الجوار اكتسب الشعب الاموري مزايا جسدية من السومريين والحيوريين بينما اكتسب الشعب الفينيقي مزايا الشعوب المتوسطة التي كانت تتوطن لبنان قبل

Barton, p. 109.

- ١

G. Steindorff and Keith C. Seele, *When Egypt Ruled the East* (Chicago, 1942), pp. 35,47 .

- ٢

٣ - اما نحن فنرجح ان التسمية سامية وترد الى جذر سامي مشترك معناه العلو والارتفاع اي سكان المرتفعات ، او المقدمون الامراء . (المترجم)

٤ - ترجمة suffix

مجيئهم اليه . اما الفروق الحضارية بين الشعبين فردما الى الموقع الجغرافي . فقد كان مركز الاموريين شمالي سورية القريب من العالم السومري البابلي ، وكان طبعياً ان يتأثر هذا الشعب بحضارة العراق القديم ، بينما كان مركز الشعب الكنعاني الساحل اللبناني القريب من مصر فكان طبعياً ان تقع هذه البلاد تحت التأثير المصري . واما الفروق في المعتقدات الدينية فردتها في الدرجة الاولى الى اثر البيئة الطبيعية في كل من البلدين . اما الفروق اللغوية فليست بذى بال ، فانها فروق لهجية ، ذلك لأن اللغتين في جوهرهما واحد ، وتنتميان الى الفرع الغربي من اللغات السامية الذي تنتمي اليه ايضا اللغة العبرية .

بلاد كنعان

ان أقدم اسم اطلق على سورية - فلسطين هو كنعان . وكانت فلسطين ، حسب أسفار العهد القديم ، تعرف بكنعان . وكان يظن سابقاً ان اللفظة سامية الاصل تعني « الارض المنخفضة »^(١) ، مقابلة لها بالارض المرتفعة (اي لبنان) . وأما الآن فاننا نشك في ان تكون لفظة سامية . يرجح انها لفظة حورية : كنجي اي بلاد الارجوان . وهذه اللفظة ذاتها تصبح في اللغة الأكديّة كنجني (وفي رسائل تل العمرنة كنجي) وفي الفينيقية كنع وفي العبرية كنعان^(٢) . فاذا صح هذا التعليل الفيلولوجي للاسم تكون صناعة الأرجوان معروفة مزدهرة في القرن الثامن عشر أو السابع عشر ق.م. أي لما وطلد الحوريون علاقاتهم في شمالي العراق القديم مع سكان شاطئ البحر المتوسط . وكذلك لفظ فينيقية فانه لفظ اغريقي اصله Phoinix ومعناه الأرجوان . وهذا دليل آخر على انتشار هذه الصناعة في هذا

١ - من جذر « كنع » ومعناه الانخفاض والخنوع . راجع :

George A. Smith, *Historical Geography of the Holy land* 11th. ed. (New York, 1904); pp. 4-5; Claude R. Conder *Syrian Stone - Lore* (London , 1896), pp. 2-3; C. Autran, *Phéniciens* (Paris 1920), p. 4.

٢ - W. F. Albright, « The Role of the Cannanites in the History of Civilization », *Studies in the History of culture* (Menasha, 1942), p. 25, cf. Albrecht Alt in *Der Alte Orient*, Vol. XXXIV, no. 4, (1936), p. 25 .

القسم من حوض المتوسط الشرقي. وقد اطلق الاغريق أولاً هذه التسمية «فينيقي» على جماعة الكنعانيين الذين كانوا يتجرون معهم ، ثم اصبحت التسمية هذه في أوائل القرن الثاني عشر مرادفة للفظ كنعاني . وهناك رواية متأخرة في الزمن وردت في التاريخ الكلاسيكي ، مؤداها أن الفينيقيين قدموا لبنان من مناطق الخليج الفارسي . فقد ذكر هيرودوتس بأن الفينيقيين يعتبرون مناطق الخليج الفارسي موطنهم الاول . والخليج الفارسي عند هيرودوتس جزء من الاوقيانوس الهندي (Erythraean Sea) (١) . ويذكر الجغرافي سترابو (٢) اسماء جزيرتين في الخليج الفارسي اسم احدهما صور والأخرى ارواد فيهما هياكل تشبه الهياكل الفينيقية . ويضيف قائلاً ان اهل هاتين الجزيرتين يعتبرون المدينتين الفينيقيتين المسميتين صور وارواد مستعمرتين من مستعمراتهم . وفي إحدى جزر البحرين الكبيرة عدد كبير من القبور التي تشبه القبور الفينيقية ، ولها مداخل تواجه المغرب . ولكن هذه القبور لم تدرس بعد دراسة علمية . وقد زار نيارخوس ، امير البحر عند الاسكندر المقدوني ، مدينة تسمى صيدا تقع على شاطئ الجزيرة العربية الشرقي .

المُدُنُ الدُول

كان لبنان ، في تكوينه الطبيعي ، منذ أقدم الازمنة حتى العهد الروماني ، مجموعة مدن منتشرة على طول الساحل ووراءها الى الجهة الشرقية جبال كثيفة الغابات قليلة السكان . وكانت كل مدينة تستغل موارد البلاد الواقعة ورائها ، ولكنها لم تتحد قط لتخلق من وحدتها قوة كبيرة مركزة . وعليه وجب على طالب التاريخ ان يتفهم طبيعة المدينة الفينيقية أولاً ليتسنى له فهم حقيقة التاريخ الفينيقي . فقد كان المجتمع الفينيقي مجتمعاً مدنياً (مقابلة له بالمجتمع الريفي) ، وكان نظام هذا المجتمع المدني الاقتصادي والصناعي من النوع الذي يفتح امام الفرد فرصاً وآفاقاً من العمل الفردي المستقل الذي تظهر فيه فرديته ونشاطه . فكانت نتيجة هذا النظام المحتمة قيام مدن ذات سيادة ، فيها من عناصر الضعف العسكري وعدم الاستقرار السياسي ما يكون عادة في سيادة من هذا النوع .

Bk. VII, ch. 89.

- ١

Bk. XVI, ch. III, sec. 4 .

- ٢

ولكن هذه المدن ذات السيادة ، بالرغم من اعتمادها على التجارة والاتصال بغيرها من البلدان ، كانت مدناً متجاورة متنافسة على الرغم من انه لم يكن هنالك أي فاصل جغرافي طبيعي بين مدينة واخرى . واذا نحن قابلنا بين فينيقية ومصر ، حيث كان النيل يفرض الوحدة بين اجزاء البلاد ، وحيث كان مقام الملك ووظيفته كإله يربط بين افراد شعبه ، وبذلك كان النيل والملك الاله يوفران له الاستقرار والسلام الداخلي ؛ نقول : اذا نحن قابلنا بين البلدين وجدنا فرقاً عظيماً . فقد كان محور تاريخ فينيقية يدور حول اربع مدن لمعت اسمائها على صفحات الالياذة ، وخلدت ذكرها أسفار التوراة ، نعني جبيل وارواد في شمال البلاد وصيدا وصور في جنوبها . من هذه المدن الاربع واحدة فقط ، جبيل ، تعرضت لمعول المنقبين عن الآثار تعرضاً علمياً مركزاً^(١) . وفي الواقع ، فان اكثر معلوماتنا الاركيولوجية عن مواقع المدن الكنعانية حديثة العهد يرجع تاريخها الى السنين الواقعة بين ١٩٢٠ - ١٩٤٠ ميلادية . وما نعرفه لا يتناسب مع ما نجهله من هذا التاريخ . وسبب قلة الآثار الكنعانية في المناطق التي تقع شرقي الساحل اللبناني يعود الى ان تلك المنطقة كانت قليلة السكان ، وكان معظمهم من الرعاة وقطاعي خشب الاحراش . وقد وجدت اسلحة نحاسية بدائية وتماثيل صغيرة في القرى الجبلية في جنوبي لبنان مما يدل على ان شعباً صغيراً غير سامي كان يقطن تلك المنطقة ، ربما ينتمي الى الشعب الاناضولي الذي كان يتناع النحاس القبرصي من الكنعانيين الذين يسكنون على الساحل^(٢) .

علاقات لبنان مع مصر

كانت اول مدينة لبنانية القى عليها التاريخ اضواءه جبلة (جبال في التوراة)^(٣)

١ - By Pierre Montet, 1921-4. see his *Byblos et L'Egypte*, vol. I text (Paris, 1928) ; atlas (Paris, 1929) ; Subsequently by Maurice Dunand, see his *Fouilles de Byblos*; earliest Systematic study by Ernest Renan; *Mission de Phénicie* (Paris, 1864) pp. 152 seq., pls. XIX - XXX .

٢ - Henri Seyrig in *Syria*, vol. XXX (1953), pp. 24-50 .

٣ - يجب الا يخلط بينها وبين « جبلة » التي ورد ذكرها في نقوش اوغاريت التي هي بلدة جبلة في الشمال التي كانت في يوم من الايام بلدة كنعانية .

واسمها السامي القديم لا يزال حياً في اسمها الحديث : جبيل . اما المصريون فقد كانوا يسمونها « كبنة » (Kupna) والاغريق ببلوس . وقد يكون لفظ ببلوس تحريفاً لكلمة تعني البردى (Papyrus) ومن ثم الكتاب او السفر . ولا يزال هذا الاسم حياً في لفظة التوراة في الاغريقية (Ta Biblia) وقد ذكرها النبي حزقيال (٢٧ : ٩) وكذلك ذكر يشوع شعبها « الجبيلين » (يشوع ١٣ : ٥) . وقد ورد ذكرها ايضاً في سفر الملوك الاول (٥ : ١٨) . ويبدو ان اهل « جبلة » كانوا على اتصال تجاري بمصر السفلى قبل ان تتحد مصر العليا والسفلى في دولة واحدة تعرف بالاسرة الاولى^(١) . فقد وجدت جسور من جذوع الارز في مقابر هذه الاسرة وبعض قطع من خشب الارز يعود تاريخها الى ما قبل هذه الاسرة . وفي هذا دلالة على ان هذا الخشب كان يستحضر من لبنان في ذلك العهد السحيق . وقد وجد ايضاً في قبور ملوك هذه الاسرة آنية خزفية و سلع كنعانية اخرى . وقد دلت الحفريات التي اجريت في جبيل على ان هذا الموقع كان يستوطنه فلاخون او صيادو سمك منذ العصر الحجري الحديث . وقد مرت جبيل في ادوار عديدة متتالية كما يبدو من الطبقات الترايية التي تظمرها . فان جبيل الثانية (مقابلة لها بجبيل الاولى اي اعمق طبقة في الحفريات) كانت قرية صغيرة جدران بعض بيوتها الخارجية منحنية او مقوسة وبعضها الآخر ذات حيطان مستقيمة الاضلاع وشوارعها مرصوفة بالحجارة ومساحتها ما يقرب من ٨ دونمات^(٢) . ولا يظهر في ما وجد من اسلحة نحاسية ومن ادوات فضية للزينة في جبيل الثانية اي دليل على ان هذه الصناعة واقعة تحت تأثير بلاد ما بين النهرين ، بل تدل على انها صناعة معدنية مستقلة . . وليس هذا وحسب بل قد يكون ان صناعة المعادن في العالم الايجي قد اقتبست عن جبيل^(٣) . اما في جبيل الثالثة فان هندسة البيوت تتغير وصنع الخزف يدل على انهم بدأوا يستعملون دولاب الخزاف . وقد كانت جبيل الثالثة والرابعة معاصرة في الزمن للاسرة المصرية الاولى . وقد عثر في جبيل على هيكل وجد فيه

١ - S. R. K. Glanville, ed., *The Legacy of Egypt* (Oxford), p.6;

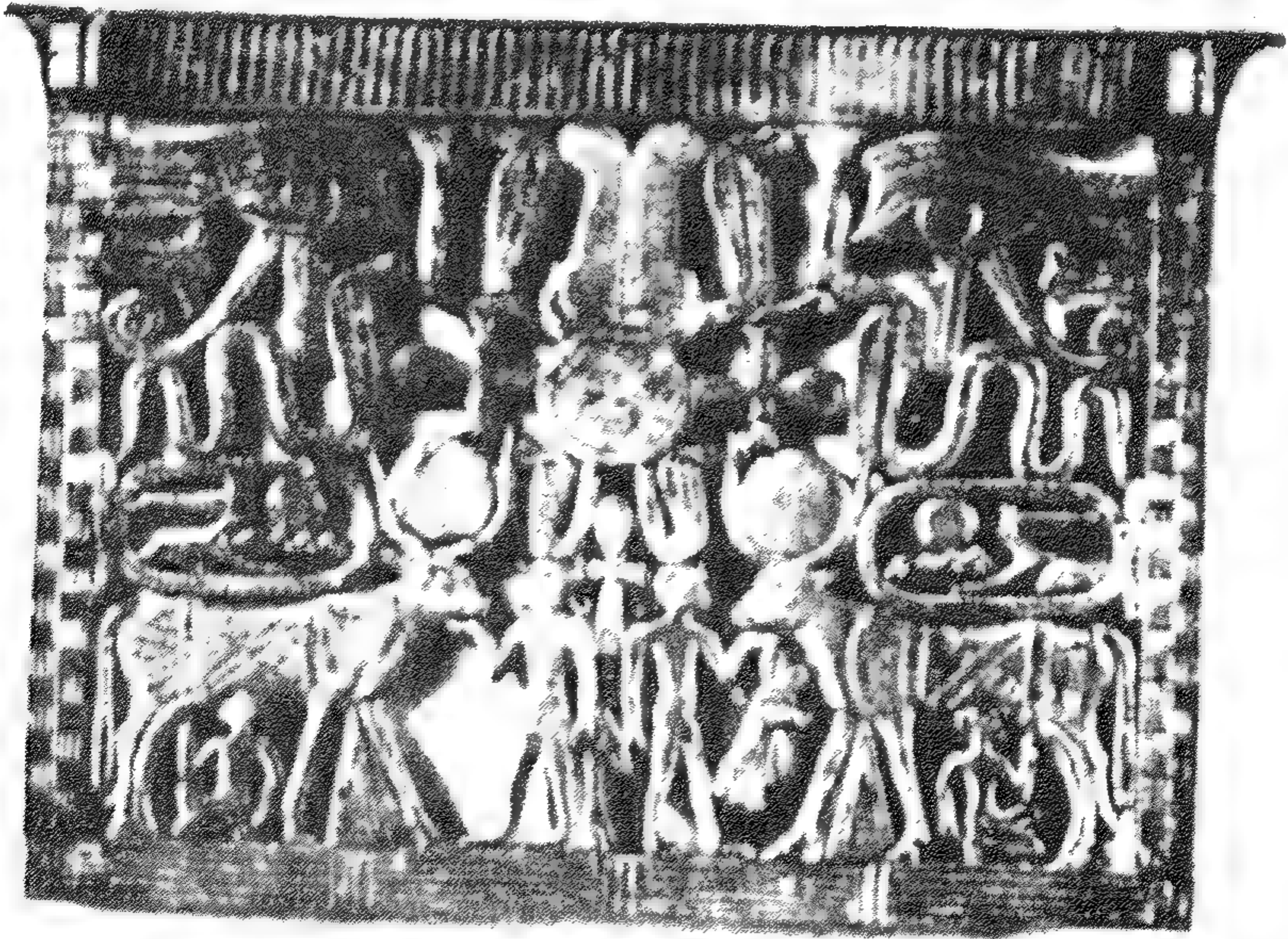
Steindorff and Seele, p. 21 .

٢ - Maurice Dunand, *Revue biblique*, vol. 57 (1950), pls. VIII 3, XIII, XIV .

٣ - Childe, *New Light*, p, 224 .

قرايين وتقدمات ملوك مصر بدءا بفراعنة الاسرة الثانية . ولم تقتصر تجارة هذا الميناء اللبناني، جبيل، على تجهيز مصر بالآخشاب الممتازة (ومصر فقيرة بالآخشاب) لصنع المراكب ولسقف القصور والهياكل ولصنع المواعين والتوايت والسواري والكراسي وغيرها من اثاث البيت، بل كانت تصدر الى مصر خمر لبنان المشتهة وزيت زيتونها الطيب ، ومختلف الصمغ التي تفرزها الشقوق في جذوع اشجار الصنوبر والارز والشرين والسرو والتي كانت تستعمل في عملية التحنيط^(١) . وقل ان تدخل جناحا خاصا بمصر في اي متحف من المتاحف الاثرية دون ان ترى فيه شيئا من خشب الارز . ومقابل هذا التصدير كان الجبيليون يستوردون الذهب والمعادن والبردي للكتابة في شؤونهم التجارية ومنتجات اخرى من وادي النيل . وقد ظلت هذه العلاقات التجارية برأ وبحراً مزدهرة نشيطة، لا بل ازدادت نشاطا ، طيلة ايام المملكة القديمة (حوالي ٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ حسب التاريخ القصير) فان المراكب الشراعية المصرية ، بدءاً بالاسرة السادسة ، كانت تعرف « بمراكب جبلة » . ولم يقتصر الاتصال تجاريا بمصر على طريق البحر وحسب بل كانت القوافل البرية تتبع الطريق الدولية التي كانت تبدأ في دلتا النيل وتسير على محاذاة الشاطئ الى سيناء حيث كانت تنشعب منها طريق تتجه جنوبا الى معادن النحاس ومقالع الفيروز . وعلى مسافة قصيرة شرقاً كانت تنشعب منها طريق اخرى الى بلاد البخور في جنوبي الجزيرة العربية . وتستمر الطريق شمالا على محاذاة الشاطئ الفلسطيني الى جنوب لبنان . وهنا في جنوب لبنان كانت الطريق تنشعب الى طريقين رئيسيتين الواحدة تستمر على محاذاة الشاطئ شمالا مارة في صور وصيدا وجبيل ومدن ساحلية اخرى ، والثانية تنحرف جنوبا في وادي مجرى الليطاني الى البقاع ، ومن البقاع الى دمشق . وكانت شعبتا هذه الطريق ، الطريق الساحلية وطريق سهل البقاع ، تلتقيان شمالا في قادش (قرب بحيرة حمص) بطريق وادي النهر الكبير وهو الوادي الذي يمر فيه اليوم القطار الحديدي . وفي شمال سورية تنشعب هذه الطريق الدولية الرئيسية مرة اخرى . فان فرعاً منها كان يمر في مضائق كيليكية الى آسية الصغرى ، وفرعاً اخر ينحرف شرقاً نحو الفرات ثم جنوبا الى رأس الخليج الفارسي . وهكذا نجد ان طريقاً دولية رئيسية واحدة

كانت تربط بين جميع المراكز الحضارية في العالم القديم ، وهي الطريق ذاتها التي كان يتبعها غزاة هذه المنطقة وفاتحوها : رعمسيس واسرحدون والاسكندر المقدوني والصليبيون ونابليون بونابرت . وقد انشأ التجار المصريون لأنفسهم مستعمرة او جالية مزدهرة في جبيل . يدلنا على ذلك ما وجد من آثار وبقايا مصرية في الحفريات التي اجريت في جبيل . ولا شك في أن هذا الاتصال المصري بفينيقية لم يقتصر على جبيل وحدها ، فقد انشئت ايضاً جالية تجارية مصرية في مدينة اوغاريت . ويظهر ان هذه العلاقات بين مصر وفينيقية كانت تجارية وحضارية تتميز بكثير من المودة والاخاء . فقد كان امراء جبيل يتبادلون الهدايا الثمينة مع فراعنة مصر . وها اننا نجد اسم الفرعون خوفو ، باني الهرم الكبير في الجيزة ، محفوراً على مزهرية من المرمر مرفوعة الى الالهة « بعله جبيل » التي كان لها هيكل ترسل اليه القرابين والتقدمات والندور من الفراعنة الذين سبقوا خوفو والذين خلفوه . وليس هذا فقط ، بل اسفرت الحفريات عن اكتشاف معبد للالهة المصرية ايسيس قائم الى جانب معبد « بعله جبيل » . وفي الواقع انه على ممر الزمن اصبحت الالهتان الالهة واحدة . وقد كان امراء جبيل



حجاب يعلق على الصدر عليه اسم امنمحت الثالث (حوالي ١٦٩٠ - ١٦٤٢ ق.م.) وقد وجد على ارض لبنانية

يزينون اسلحتهم وحلأهم برسوم ونقوش مصرية . وبعضهم كان يفخر ان يسمي نفسه من « ابناء رع » الاله الشمسي الاول في مصر .

السيادة المصرية

بدأت العلاقات بين لبنان القديم ومصر على اساس تجاري حضاري ، ولكنها ما عمت ان اصبحت صلات سياسية . فان فراعنة المملكة المتوسطة (حوالي ١٩٠٢ - ١٦٢٨) ، ولا سيما فراعنة الاسرة الثانية عشرة - وهي اعظم اسرة في تاريخ مصر المجيد - بدأوا بفرض السيادة المصرية ، ليس على الشاطئ اللبناني وحسب ، وانما على فلسطين وعلى جزء كبير من سورية . ولكنها لم تكن على الأرجح سيادة تامة تفرض على البلاد بحزم وشدة . واننا نبدأ ان نرى في الصور التي كانت ترسم على الجدران في القصور والهياكل رسوم وفود واسرى آسيوية . وأقدم هذه الرسوم نجدها في القبور الملكية المنحوتة في الصخر في بني حسن والتي يعود عهدها الى سنوسرت الثاني (حوالي ١٥٠٠) . وتشير اسماء المدن والامكنة التي تظهر في قوائم اسماء الامكنة في النقوش المصرية على ان الشاطئ بأكمله حتى النهر الكبير ، وهوران ودمشق ، وجزءاً كبيراً من سهل البقاع جميعها كانت عند نهاية حكم امنمحت الثالث (حوالي ١٦٩٠ - ١٦٤٢) تدور في القللك المصري السياسي . وقد وصلنا من عهد احد الفراعنة في هذه الاسرة أجمل قصة فيها اقدم وصف رائع للحياة الاجتماعية وانظمتها في المنطقة . تلك هي قصة سنوحي .

قصة سنوحي

كان مؤلف هذه القصة احد امراء القصر المصري واسمه سنوحي ، الذي وجد من الحكمة عندما تسنم سنوسرت الاول (حوالي ١٨٠٠) عرش مصر ان يهرب من البلاد الى مكان ما في بلاد رتنو^(١) حيث عاش بين البدو سنين عديدة قبل ان

١ - رتنو : لفظة مصرية لكلمة سامية غامضة الاشتقاق كانوا يطلقونها على سورية عامة . ان هذه اللفظة لا تزال حية في اسم نهر الليطاني (بتغير الراء الى اللام) . وقد يكون لفظة فنخو التي ترد ايضاً في هذه القصة اسماً يشير الى فينيقية .

استدعي للرجوع الى القصر الملكي . وعندما رجع الى وطنه كتب مذكراته بقالب شعري . لما غادر مصر هارباً أجاره شيخ بدوي بالقرب من الحدود المصرية وخلصه من الموت جوعاً . فكان يعطيه حليباً ساخناً ، وسمح له بالاقامة بين قبيلته . وأخيراً وصل سنوحي جبيل ومال منها شرقاً الى داخلية البلاد الى سهل البقاع كما يظهر من وصف الرحلة . وهنا استجار بشيخ قبيلة له اسم اموري واقام عنده واصبح كواحد من اهل البلاد . ويظهر انه كان بطلا مغواراً يحب الحرب والغزو فأخذ يقوم بالغارة تلو الغارة على القرى المجاورة فيطارده رعاها غانماً انعامها ويعود بعلومه من الاسرى . وكان في صيده يستخدم الكلاب ، وكان يضيف الضيوف على طريقة شيوخ البدو . وكان يسقي العطشان ، ويهدي ضال السبيل . وقد قام سنوحيضيف البلاد ، بدعاية واسعة النطاق لبلاده مصر . ولكن يظهر ان مضيفه الشيخ لم يكن على استعداد للتخلي عن حريره واستقلاله . وقد تزوج سنوحي من بنت الشيخ الكبرى فأقطعه حموه ارضاً طيبة تصلح للزراع والرعي . يقول عن أرضه : « فيها التين والعنب ، وخرها أكثر وفراً من الماء . فيها العسل الكثير والزيتون الوفير . فيها من جميع الثمار ، وفيها الحنطة ، وماشيتها لا يعرف لها عد^(١) » . ويصف لنا فارساً جباراً عنيداً من اهل رتنو دعاه الى البراز . ويقول ان الحنجر والرمح والفأس والقوس والنبال استعملت في القتال . وكان الرجال يهتفون لسنوحي ، وكانت النساء يزغردن له ، فخرج من المبارزة منتصراً .

واخيراً ، عندما تقدم سنوحي في السن شعر بحنين شديد الى موطنه الاول . كان يغم عندما تراوده الفكرة بانه سيدفن في ارض غريبة ويكفن بجلد شاة . فاقام ابنه الاكبر وصياً ووكيلاً على ممتلكاته وعاد « غير نادم على كتمان الرمل فهي لاصحابها ينعمون بها ، وغير آسف على اشجار الزيتون فهي لاصحابها وزيتها لهم يتمسحون به »^(٢) . اما هو فعائد الى موطنه حيث يمكنه ان يتمتع بحمام وينام على فراش وثير .

[James B. Pritchard, ed., *Ancient Near Eastern Texts*
Princeton, 1950), p. 19 .

في القرن السابع عشر عند نهاية عهد المملكة المتوسطة ، نشهد ظهور امراء اسمائهم كنعانية مثل « يب-شمو-اب » و « اتن » و « يوناثان »^(١) وتظهر كذلك بعض الالقاب المصرية مثل « هتيا » اي كونت . وفي المتحف الوطني في بيروت يرى الزائر صندوقاً من حجر بركاني توضع فيه الحلى والمجوهرات عليه اسم امنمحت الرابع الذي اهداها الى الأمير « يب - شمو - اب » الذي جثنا على ذكر اسمه آنفاً^(٢) . فقد كان للفراعنة في هذه الحقبة سفراء ، او ممثلون دبلوماسيون او مفوضون . ولا شك ان الصلات الفنية والفكرية كانت على ازدياد . فان الصناع الكنعانيين اخذوا يزينون المصنوعات المعدنية بحفر الرسوم الهيروغليفية (الرموز التي كان المصريون يستعملونها في كتابتهم) عليها .

سيادة دولة الرعاة على مصر (الهكسوس)

عند اواخر القرن السابع عشر انقطعت هذه الصلات بين مصر ولبنان وذلك بسبب ظهور شعب محارب قوي مجهول الاصل اجتاح اولا القسم الاكبر من سورية ثم انحدر جنوباً واحتل مصر وسادها بقوة السلاح . هؤلاء هم الهكسوس وهذا الاسم مصري الاصل معناه في لغتهم « اسيا د أو حكام البلدان الاجنبية » . ولكن اول من استعمل هذا اللفظ في كتابته مؤرخ مصري كتب باليونانية . وقد فسر الاسم على انه يعني « الملوك الرعاة »^(٣) .

كان الهكسوس شعباً مزيحاً في اكثره سامي العرق (يشمل الكنعانيين والاموريين والعرب) . غير ان هذا المزيج السامي من الشعوب داخلته عناصر غير سامية من الحوريين والحثيين والمتانيين . وقد تكامل هذا الخليط من الناس في شرقي حوض المتوسط ، الذي كان اشبه بيوتقة تنصهر فيها جميع العناصر فتفيض من على جوانبها فيضا يطغى على ما يجاورها من بلدان ، وعندها طغت احدى موجاته فاوصلت الهكسوس الى وادي النيل . وقد كان من جملتهم بعض

Pritchard , P . 229 .

George Haddad, *Beirut, Byblus and Mt. Lebanon*,
(Beirut, 1952), p. 44 .

Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 14 .

قبائل « الخبيرو »^(٢) ومما يعزز الرأي ان العنصر في هذا الخليط من الشعوب كان العنصر الكنعاني اسماء قوادهم وامرائهم التي ابقوها لنا محفورة على التعاويذ والتائم المصرية (بشكل الخنافس التي كانت عند المصريين رمز الخلود) . وقد وجدت آثار هكسوسية في اما كن متباعدة مثل جزيرة كريت حيث عثر هناك على مزهرية عليها اسم ملك من ملوكهم . وكانت آلهتهم آلهة كنعانية . وقد كانت هذه الموجة التي انتشرت في الشرق الادنى السبب في ادخال عناصر بشرية غير سامية الى كل من لبنان وفلسطين . فان الهياكل العظيمة البشرية القليلة التي عثر عليها في الحفريات تشير الى ان العرق المتوسطي في هذه الحقبة اخذ يختفي ليظهر مكانه العرق الارمني . ادخل الهكسوس الحصان الى هذه المنطقة ، ولم يكن استعماله للركوب بقدر ما كان يستخدم في جر المركبات الحربية . وقد دُجِّن الحصان في ازمة بعيدة في مناطق شرقي بحر قزوين على ايدي القبائل الهندو اوروبية البدوية ، ومن هناك انتقل الى بلاد ما بين النهرين فسورية ومن ثم دخل الجزيرة العربية قبل التاريخ الميلادي . ومما لا شك فيه ان الحصان كان عاملاً أساسياً في انتصار الهكسوس الحربي وسيطرتهم على شعوب سورية ولبنان وفلسطين . فقد كان ظهور المركبات الحربية التي تجرها الجياد مفاجأة للعدو لا تقل أثراً عن ظهور الدبابات أو الغازات السامة أو اية اسلحة سرية في الحرب العالمية الاولى^(١) . وقد أدخل الهكسوس ، فضلاً عن الحصان ، السيوف الحديدية المقوسة والقوس المزدوج الذي ظهر اول ما ظهر في بلاد بابل . ومما زاد في تفوقهم الحربي استخدامهم البرونز في صنع اسلحتهم . وقد تقدمت الصناعات المعدنية في هذه الفترة تقدماً كبيراً ، كما ان صناعة الخزف خطت خطوات كبيرة الى الامام . وقد كانت عاصمتهم في سورية قطنة (مشرفة) الواقعة شمالي شرقي حمص في اتجاه الجزء الشمالي من البقاع .

كان الهكسوس في جميع البلاد التي اخضعوها لسلطانهم أسياداً اقطاعيين . ولكنه كان نظاماً اقطاعياً غير محكم التنظيم . فقد كانت هنالك طبقة ارسقراطية تتألف في معظمها من فرسان اقوياء يملكون ادوات الحرب — المركبات والجياد —

١ — قد تكون قبائل الخبيرو هي جماعة العبرانيين عندما كانوا بدواً في شمالي الجزيرة العربية قبل توطنهم فلسطين .

٢ — اقدم وصف رائع للحصان تجده في سفر ايوب ٣٩ : ١٨ — ٢٥ .

استأثرت بالقوة والسيطرة . ان النظام كان عسكرياً بحتاً . ومعنى هذا ان نظاماً عسكرياً أجنبياً حل محل النظام الارستقراطي الكنعاني الذي كان يقوم على التجارة . وقد دامت السيطرة الهكسوسية السياسية والثقافية على هذه المنطقة قرابة قرن ونصف ، كانت نهايتها حوالي ١٥٧٠ ق.م . وفي مصر اعتبر الهكسوس المهم السامي البعل على انه واحد مع الاله المصري « ست » أي انهم دمجوا العبارتين في عبارة واحدة وأورثوها الفراعنة المصريين الذين خلفوهم بعد جلائهم عن مصر . وكذلك اعتبروا « البعل » الالهة المصرية « ايزيس » . ويرجع ان اقامة اليهود العبرانيين في مصر كانت اثناء هذا الاحتلال الهكسوسي لمصر . وفي هذه الاثناء تسم احداهم ، يوسف ، اسمى المراكز في الحكم .

بعد ان كان قد مر على السيادة الهكسوسية البغيضة في مصر قرابة ٣٠ سنة (١٦٠٠ - ١٥٧٠) بدأت الحرب لتحرير البلاد من نير حكمهم بقيادة احموس الاول (١٥٧٠ - ١٥٤٥) الذي كان اميراً من امراء الجنوب في مدينة طيبة . وقد كان هذا الامير مؤسس الاسرة الثامنة عشرة التي كانت بدء عهد جديد : المملكة الجديدة او الامبراطورية المصرية . وقد كان لطرد الهكسوس من وادي النيل ردة فعل عنيفة تجاوبت اصداؤها بين شعوب غربي آسية تفوق في اثرها ردة الفعل التي احدثتها سيطرة الهكسوس على هذه المنطقة . اذ أن طردهم من مصر كان فاتحة عهد جديد لها . فقد شرع المصريون المسلمون بعزم وجرأة في سيرهم التوسعي الاستعماري . ذلك بانهم لم يكتفوا بطرد الاجنبي من بلادهم الى خارج الحدود ، بل صمموا على متابعة الجيش المنهزم الى عقر دارهم . وهذا ما دفع بالمصريين الى دخول فلسطين متعدّينها الى لبنان . فان احد فراعنتهم ، طحوتمس الاول ، سار عبر المنطقة كلها ، حوالي ١٥٢٠ ، حتى جاء الفرات ، البلاد التي سماها « بلاد ما بين النهرين » . وهكذا كانت الحملات العسكرية التي قادها احموس الاول ومن بعده خلفاؤه في حوض البحر المتوسط الشرقي بداية سياسة مصرية خارجية جديدة في هذه المنطقة . أما الضربة القاصمة النهائية التي قضت على دولة الهكسوس في سورية ، فقد قام بها طحوتمس الثالث (حوالي ١٤٩٠ - ١٤٣٦) . وبذلك احل السيادة المصرية على هذه المنطقة محل الاقطاع الهكسوسي .

ضم لبنان الى الامبراطورية المصرية

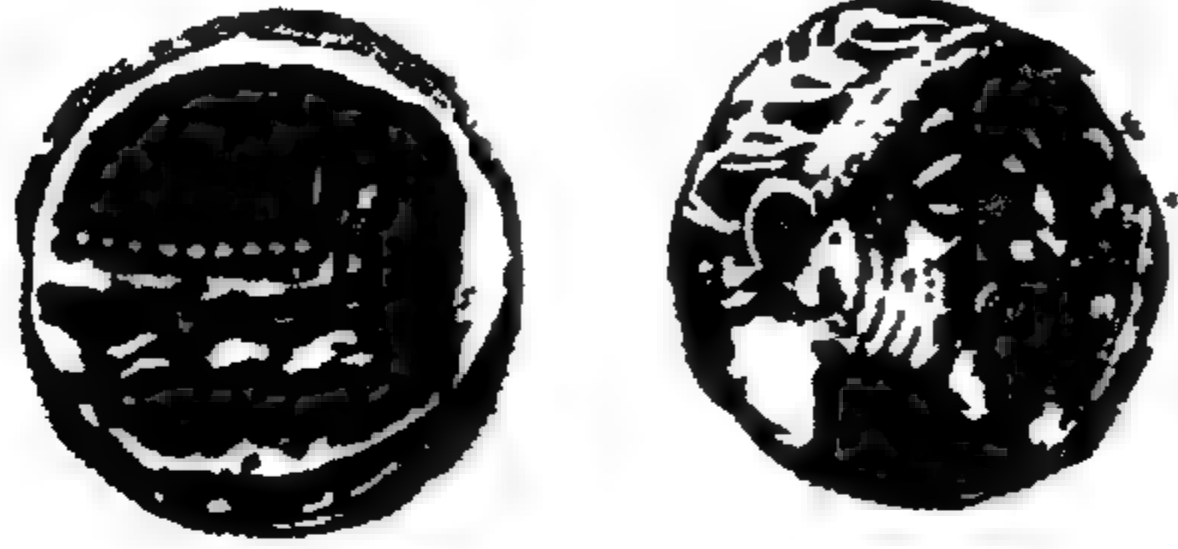
هذا الفاتح المصري العظيم طحوتمس الثالث ، الذي يحق لنا ان نلقبه باسكندر مصر ، ضم الى امبراطوريته الناشئة لبنان وسورية باكملها . ولكن لم يتم له ذلك الا بعد ان قام بأكثر من ست عشرة حملة عسكرية . وقد توطدت اركان السيادة المصرية على هذه البلاد طيلة قرن من الزمن . وكان سقوط مجدو ^(١) ، المدينة الكنعانية ، حوالي ١٤٦٨ نذيراً بسقوط فلسطين جميعها وضمها الى الامبراطورية المصرية . وقد كانت معركة مجدو فاصلة اذ فيها استطاع الجيش المصري ان يسحق تحالفاً عسكرياً بين ٣٣٠ امير سوري على رأسهم امير قادش ^(٢) على العاصي ، ومن جماتهم نخبة من ارستقراطيي الهكسوس . وتابع طحوتمس انتصاراته فلاحق بالجيش المنهزم شمالاً مسافة ٧٥ ميلاً الى ان وصل لبنان (وفي النقوش المصرية « رم ن ن ») الجنوبي ففتح عنوة ثلاث مدن وبنى هناك قلعة مصرية « في بلاد الامراء اللبنايين » ولا نعرف على وجه التدقيق اي المدن الثلاث هي هذه التي افتتحها طحوتمس في جنوبي لبنان . ولكن يبدو ان هذه المدن كانت تؤلف وحدة سياسية متحدة يرأسها امير واحد لم يذكر لنا المصريون اسمه بل كانوا يشيرون اليه بقولهم « ذلك العدو » . وفي قائمة الغنائم والاسلاب التي غنمها المصريون يذكر لنا كاتب النقوش المواعين والآنية والمدى والقذور المذهبة والاساور الذهبية والفضية والتماثيل الصغيرة التي تركها المقاتلون في ساحة الحرب . واليك نموذجاً من هذا التقرير الحربي :

« ... غنمنا من ذلك العدو ست كراسٍ من عاج وآبنوس وخشب الخروب المطلية بالذهب الى جانب ست كراسٍ صغيرة تصلح موطئاً للقدم تابعة لها ، وست

١ - وهي « هر مجدون » الوارد ذكرها في سفر الرؤيا ١٦ : ١٦ ولذا اكتسبت هذه الشهرة العظيمة لا ـ ستكون الموضع الذي سيقنتل فيه ملوك العالم في اليوم العظيم . واسمها الحالي لجون وهو تحريف كلمة لاتينية ومعناها كتيبة وذلك لان كتيبة رومانية اقامت فيها .

٢ - وهي قدس كسما يسميها جغرافيو العرب : واسمها الحالي تل النبي مند ، وهي الى جنوبي بحيرة حمص . راجع :

مناضد من العاج ومن خشب الخروب ، وصولجاناً من خشب الخروب مرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة كان يحمله ذلك العدو . وقد غنمنا تمثالاً لذلك العدو من الآبنوس المطلي بالذهب وفي رأس التمثال حجارة من اللازورد»^(١)



قطعة نقود فضية من ارواد . على وجه يظهر رأس رجل . ربما يمثل إلهاً وعلى رأسه اكليل غار ، وعلى الوجه الثاني مركب فينيقي وفوق نقش كتابي ربما معناه : « من ارواد » .

ان هذه القائمة ترينا مستوى العيش العالي الذي كان يتمتع به ارستقراطيو هذه المدن الثلاث . وكانت هذه الحملة حملة طحوتس الاولى . وفي الحملة الخامسة استولى على ارواد في اقصى شمالي فينيقية . وهذه اول مرة يلمع فيها ذكر هذه المدينة في التاريخ . وقد اصبحت هذه الجزيرة الصغيرة خليفة جبيل كميناء تجاري . وبفضل كونها جزيرة تبعد مسافة ميل ونصف عن الشاطئ اتخذت موقعاً استراتيجياً يصلح لمقاومة كل غازي . وفي الواقع انها قاومت المصريين بعناد ومن بعدهم الاشوريين والاسكندر المقدوني والصليبيين . وأهل ارواد كانوا كنعانيين ، وقد اصاب كاتب سفر التكوين ، عند ذكره انساب الشعوب (الفصل ١٠ : ١٨) عندما حسب الارواديين من جملة القبائل الكنعانية . واليك النص الرسمي لهذه الحملة ضد ارواد كما هي مسجلة على جدران معبد الكرنك :

« وقد هدم جلالته مدينة ارواد بما فيها من محازن للحبوب وقطع جميع اشجارها . وقد وجد جلالته الشاطيء اللبناني (دجاهي أو زاهي كما كان يسمى المصريون لبنان) الذي تكسوه الجنائن مليئاً بالثمر . خوره في خوابيها مبدولة كالماء ، وحبوبهم على بيادرهم اوفر من رمل البحر فقرت أعين الجيش بوفر الغنيمة»^(٢) . ثم يستمر كاتب « البلاغ الحربي » في ذكر الجزية التي فرضت على

Breasted, vol. II, Sec. 436 .

Pritchard, p. 239 .

المدينة : ٥١ عبداً بين ذكر وانثى ، و ٣٠ حصاناً و ١٠ صحنون مفلطحة من الفضة وبخور ، وزيت و ٤٧٠ جرة عسل و ٦٤٢٨ خابية من الحمر ، ونحاس ورصاص ولازورد وحجر المرو و ٦١٦ رأساً من الماشية الكبيرة ، و ٣٦٣٦ رأساً من الماشية الصغيرة ، وارغفة من الخبز وحبوب غير مقشورة او مطحونة وجميع انواع فاكهة الارض الطيبة . فكان جيش جلالته يسكر ويتدهن بالزيت كل يوم كأنه في عيد من اعياد مصر ^(١) . واي جيش ، باستثناء جيوش المسلمين ، لا يفعل ما فعله الجنود المصريون ؟

ويبدو ان الفاتح المصري انتفض على هذه المدينة في موسم الاثمار لأنه أعجب ايما اعجاب بخصب الارض . ويبدو ايضاً ان المدينة آنذاك كانت اكبر حجماً مما هي عليه الان ، اذ ان مساحة مدينة ارواد الحالية لا تربو على ١١٠٠ يردب ٧٠٠ يرد ، وعدد سكانها ٧٠٠٠ يعيشون على صيد السمك وصنع القوارب . وقد كرر المصريون حملاتهم على المدينة وعاملوا اهلها معاملة قاسية مما يدل على ان الاروايين ثاروا غير مرة ضد الحكم المصري . وقد استولى هذا الفاتح المصري على مراكب فينيقية عديدة حمل عليها جيشه بجرأ الى بلاده . وفي حملات عسكرية تالية استولى المصريون على مدينة سميرا Simyra ^(٢) جارة ارواد على الشاطئ الى الشمال قليلاً . وكانت هذه المدينة تابعة احياناً لارواد . وكذلك سقطت بعد حين مدينة ألازا ^(٣) ، وهي مدينة على الشاطئ بالقرب من سميرا ، وقادش مركز المقاومة الهكسوسية ومركز الاضطرابات . ولا يختلف التقرير الحربي المصري عن الحملة التي ارسلت ضد قادش عن بقية التقارير : « هدمناها وقطعنا اشجارها وخرّبنا زراعتها ومواسمها » ^(٤) . ولكن رغم هذا التقرير الذي يتكلم عن هدمها فاننا نرى طحوتهم بعد سنوات قليلة يُسيّر جيوشه ضدها مرة ثانية . وقد كانت هذه المدن ذات اسوار محصنة تحصينا قويا . ويرجح ان هذه التقارير الحربية مبالغ

١ - Breasted , vol . II , sec . 462 .

٢ - يرد اسم هذه المدينة في النقوش المصرية هكذا : Su - mur او Dmr وفي التاريخ الكلاسيكي Simyra التي ورد ذكرها في سفر التكوين ١٠ - ١٨ منسوباً اليها : « السماري » وقد اجريت هناك حفريات سنة ١٩٥٦ .

٣ - ربما مدينة طرطوس الحالية : راجع Dussaud : *Topographie*, pp. 78 - 9

Pritchard, p. 239.

فيها « للاستهلاك المحلي » وان الجزية التي يتكلمون عنها لم تكن سوى نوع من الهدايا يقدمونها للفاتح ليكف عنهم شره . وبعد موت طحوتمس الفاتح العظيم جرّد ابنه وخليفته امنحوتب الثاني حملات عسكرية ضد فلسطين وسورية . يقول فيه احد الذين مدحوه : « ينقض على لبنان كاسد تقدح عيناه شرراً^(١) » .

المتنيون في سورية

نعم ، ان النفوذ المصري لم يزد في منطقة حوض المتوسط الشرقية ، ولكن سكانها ظلوا يشعرون بالسيطرة المصرية وبالمركز الممتاز الذي كانت تتمتع به مصر الى ان بدأ ظل المملكة الجديدة يتقلص وذلك عند نهاية القرن الرابع عشر . ولم ينج من الوقوع تحت هذه السيطرة سوى مملكة متني في سورية التي كانت عاصمتها على الخابور عند منحنى الفرات الكبير . اما الحوريون الذين كانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من مجموعة الشعوب التي سميها الهكسوس فقد كانوا اكثرية سكان البلاد . غير ان امراءهم وارسقراطيينهم كانوا من الشعوب الهندو اوروبية كما يبدو واضحاً من دراسة اسمائهم واسماء آلهتهم . وقد ازداد انتشار الحوريين في البلاد في هذه الحقبة التاريخية حتى ان المصريين اخذوا يسمون كنعان « خورو » (اوحورو) . والحوريون الذين يرد اسمهم في اسفار العهد القديم . والذين كان يُنظر اليهم حتى امد قصير انهم قبيلة ليست بذى بال ، هم الآن في نظر علماء التاريخ الحوريون الذين يرد اسمهم كثيراً في هذه الحقبة . وقد ظهر ان التفسير القديم لاسمهم على انه يعني « سكان المغاور » هو تفسير خاطيء . ورغم الحملات العسكرية المتتالية ضد بلاد ما بين النهرين (نهرين) التي بدأ فيها احموس الاول وتكررت على يد طحوتمس الثالث وغيره من الفراعنة الذين خلفوه فقد ظلت مملكة متني مستقلة خارج الفلك المصري . وعندما كان طحوتمس الثالث يستعد لاحدى غزواته عبر الفرات بنى لنفسه مراكب من خشب غابات الارز في الجبال وراء جبيل ونقلها على مركبات تجرها الثيران الى الفرات ليعبره الى الشاطئ الثاني^(٢) . وقد تمكنت عرى الصداقة بين العائلتين المالكتين ، المصرية والمتنية ، بالمصاهرة . فان ام

Breasted, vol. II, sec. 492.

- ١

Pritchard, p. 239 .

- ٢

امنحوتب الثالث (حوالي ١٤١٣ - ١٣٧٧) كانت اميرة متنية ، وكذلك كانت احدى زوجاته . واتخذ ابنه امنحوتب الرابع (حوالي ١٣٧٧ - ١٣٥٨ زوجة لنفسه متنية هي ابنة الملك توشرتا . غير ان المتنيين الذين كانوا ينظرون الى الامام الى جيرانهم المصريين في سورية نظرة مودة و اخاء فان وراء ظهورهم كان يكمن عدو جديد من الشمال : الحثيون . فكأن جبال طوروس العالية لم تكن بحاجز يمنع هذا الشعب الناشئ من التطاع جنوباً الى شمالي العراق وسورية .

الحثيون : قوة عالمية جديدة

ان مجموعة الشعوب المختلطة التي نطلق عليها اسم الشعب الحثي ترجيع نسبها الى قبيلة مغمورة من قبائل الاناضول تعرف بقبيلة كختي . وكانت تقطن منطقة نهر هاليس (واسمه الحالي قزل ارمق) . وقد انشأت قبيلة في اوائل القرن التاسع عشر مملكة كانت تشمل الاناضول وجزءاً لا يستهان به من شمالي العراق وسورية . ولا يختلف الحثي عن الحوري شكلاً وملامح . فانه ، كما يبدو من التماثيل ، ذو رأس عريض وانف اقنى وجبهة متراجعة وملامح وجه تشبه ملامح الرجل الالبي ، وهو الشكل الذي لا يزال معروفاً في شرقي الاناضول وارمينية . وقد امتزج الحثيون في الازمنة القديمة بالشعب الهندو - اوروبي . وقد عرفهم العبران بالحثيين .

كان عصر الحثيين الذهبي ايام ملك الملك شبلوليوما (حوالي ١٣٨٠ - ١٣٥٥) الذي كان محارباً من الطراز الاول في الازمنة القديمة . فقد هاجم هذا الملك توشرتا المتني وتابع غزواته ضد ابنه (ابن توشرتا) . وبذلك استطاع ان يقوّض اركان المملكة المتنية ، وبتقويضه ملك المتنيين انشأ لنفسه مرتكزاً في شمالي سورية اتخذه فيما بعد نقطة انطلاق . وهكذا وجد نفسه وجهاً لوجه امام فراعنة مصر . ولم يعتّم ان ضمّ الى ملكه القسم الشمالي من فينيقية حتى جبيل جنوباً ، وبذلك استولى على مدينة اوغاريت التي كانت في تلك الحقبة المدينة المستقلة الاولى في المنطقة . فاسرع اميرها نقمّد وعرض عليه الجزية . وقد خلف الملك شبلوليوما الحثي بعد موته مملكة متسعة الارحاء عاصمتها كركيش (جرابلس الحالية) على الفرات جنوبي جبال طوروس ، واصبحت تعتبر أقوى دولة في غربي

آسية . وهكذا وجدت نفسها وجهاً لوجه امام دولة جديدة تتحدى سلطتها في المنطقة .

فوضى دولية

كانت الدولة الحثية لا تزال فتية نشيطة قوية ، وكانت سيطرة مصر وقوتها على وشك الافول . وقد زاد في ضعف مصر العسكري وجود رجل على رأس الدولة كان همه الاوحد الاهتمام بقضايا دينية بحتة ، لا حماية حدود المملكة . هذا الفرعون كان امنحوتب الرابع (١٣٧٧ - ١٣٥٨) الذي غير اسمه الى اخناتون تكريماً لاله الاعظم « أتون » اي قرص الشمس ولم يكتف بتغيير اسمه بل انه نقل عاصمته من طيبة مقر عبادة الاله الوطني « امون » شمالاً الى مكان سماه اخيتاتون وهي المعروفة حالياً بتل العمارنة . في خرائب قصور هذه المدينة القديمة عثرت امرأة مصرية فلاحية عام ١٨٨٧ على كنز تاريخي عظيم القيمة . كان هذا الكنز كناية عما يقرب من ٣٠٠ آجرة عليها كتابة بالخط المساري محفوظة في ارشيف اخناتون وابيه امنحوتب الثالث . وقد كانت هذه الآجرات رسائل وجهتها ملوك المدن الكنعانية وامراؤها الى الملكين وكانت تحتوي على معلومات هامة عن حالة هذه المنطقة في تلك الحقبة . وقد كان اللسان الاكادي (البابي) اللسان الشائع في جميع المنطقة ، غير ان الاثر اللغوي الكنعاني يبدو جلياً في هذه الرسائل . وان المرء ، عند قراءتها ، يستشعر ان الذين دبجوا هذه الرسائل انما كانوا يكتبون بلغة اجنبية . ويجب ان نذكر ان كنعان في هذه الفترة كانت مجزأة بين مصر والمملكة الحثية . ويبدو من هذه الرسائل ان امراء المدن الكنعانية المستقلة كانوا يحاولون بث اللسائس قصد الوقعة بين الدولتين المصرية والحثية . هذا على الصعيد الدولي ، اما على الصعيد الوطني فقد كان الامراء يحكيون المؤامرات ويدبرون المكائد بعضهم ضد البعض الاخر . ومما زاد في شدة الفوضى ظهور عصابات متجولة تعرف بقبائل الخيبرو (والتي يجب أن لا يخلط بينها وبين العبران) التي كانت تغير على المدن والقرى عاثثة في الارض فساداً^(١) . ويبدو ابضاً من هذه الرسائل ان جيل

١ - Cyrus H. Gordon , *Introduction to Old Testament time* (Ventnor , 1953) p . 76 .

وبيروت وصور وصيدا وعكا ألفت فيما بينها شبه رابطة اتحاد مستقل برئاسة جبيل .

الخداع الدبلوماسي

وأفضل مثال على الفوضى الدولية التي كانت سائدة في تلك الحقبة في هذه المنطقة وأبرز شاهد على الخداع السياسي تصرف أحد الأمراء الأموريين واسمه عبد اشيرتا . كان مقر هذا الأمير عند أعالي العاصي . وقد كان يظهر الولاء لجيرانه الحثيين إلى الشمال تارة وطوراً لجيرانه المصريين إلى الجنوب ، بينما أنه كان في الواقع يعمل دوماً على توسيع أمارته وعلى تحسين أمورها لمصلحته الخاصة . وهكذا بدأت مدن الساحل والمدن الداخلية تقع الواحدة تلو الأخرى غنيمة في يده أو يد ابنه عزير ، أو تتعرض للنهب والسلب على يد رجاله ورجال الأمراء الذين انضموا تحت لوائه . وقد استطاع هذا الأمير أن يتملص من العملاء المصريين أما بشراء البعض ورشوتهم أو بقتلهم وانتخلص منهم . وقد احتل هذا قطنة وحماة ، وفي آخر الأمر وقعت دمشق تحت قبضته ، وكذلك بعض مدن الساحل مثل ارواد وشيخاتا (ربما شكاً) وامي (انفا) وبترونا (البترون) . واليك نموذجاً على هذا الخداع السياسي رسالة مصدرها مدينة عرقا^(١) والرسالة هذه موجهة من أهالي عرقا إلى المنحوتب الثالث يؤكدون فيها ولاءهم الصادق الثابت للعرش المصري . تقول الرسالة : « ان أهالي عرقاتا [عرقة] وأشرافها يسجدون عند أقدام الملك سبع مرات وسبع مرات^(٢) » ومن هذه المدينة ذاتها ، عرقاتا ،

١ - وفي النقوش المصرية « ع ر ق ت » وفي التاريخ الكلاسيكي Arka ، وهي حالياً عرقة (وفي ياقوت مجلد ٢ ص ٦٣٥ عرقة) وتقع على بعد ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من طرابلس . وقد ورد ذكرها في سفر التكوين ١٠ : ١٧ وسفر الأخبار الأول ١ : ١٥ . أما Shi - ga - ta فيظن بعضهم أنها زغرنا التي يرد ذكرها في رسائل ماري (Sagaratim (Mari) . أما امي فهي Ampa التي يرد ذكرها في الآشورية وانفا الحالية . وأما الصليبيون فقد سموها Nephin وهي تقع بين شكاً وطرابلس . وأما Bat - ru - na فهي أغريقية Botrys راجع :

Abel, Géographie, Vol. II p. 4; Dussaud, Topographie, p. 117.

C. Bezold and E. A. W. Budge, The Tell el-Amarna Tablets - ٢ in the British Museum (London, 1892), No. 42 .

يرسل الملك عبد اشيرتا رسالة الى فرعون مصر فيها عبارات الخنوع والذل التي تأبأها النفوس الكريمة في عهدنا هذا . ولكن يظهر انها كانت في تلك الايام عبارات مألوفة يتطلبها العرف عند مخاطبة الملوك . وهاك بعضاً منها :

« الى الملك ، الى الاله الشمس ، مولاي : يقول عبد اشيرتا عبدك وغبار قدميك اني اسجد عند موطىء قدميك ، مولاي ، سبع مرات وسبع مرات . واؤكد اني خادم الملك وكلبه الذي يحرس له بيته وكل بلاد امورو^(١) » .

اما اهل ارواد فانهم كانوا منذ عهد طحوتس مناوئين للحكم المصري غير راضين عنه . وسبب ذلك ربما يرجع الى المنافسة الشديدة التي كانت بين ارواد وجبيل . ولم يبق من مدن موالية للحكم المصري غير سميرا التي كانت مقر العامل المصري ، وجبيل التي كانت مقر الحاكم الكنعاني الموالي لمصر ، رب آدي . وقد كانت ايلة رب آدي تمتد الى الداخل الى داخل البلاد ، وقد ادعى ان سميرا داخلة في سلطانه . واخيراً خضعت سميرا لعبد اشيرتا فوجدت مدينة جبيل نفسها محصورة اذ انقطعت صلاتها بداخلية البلاد ولم تعد تستطيع الاتجار بالخشب مع مصر . فكان عليها ان ترضخ للوضع الجديد . وقد بعث رب آدي ، صديق مصر ، الرسالة تلو الرسالة — ما يقرب من ٥٠ رسالة — ينعي فيها على عبد اشيرتا «الكلب» وابنه عزيز وخيانتها ويلتمس منه العون . ولكنه لم يلق من مصر جواباً . وقد ارسلت بيروت (Bi-ru-ta) وصيدا (Si-du-na) رسائل تطلب فيها الى فرعون مصر ان يسرع الى نجدة جارتهم الى الشمال ، جبيل ، التي اصبح الضغط على اميرها شديداً . ولدينا آجرة — ولكنها آجرة مشوهة تصعب قراءتها — فيها ذكر لعامل مصر الذي وعد بان يبعث مراكب وعساكر على جناح السرعة لصدد الاموري المغتصب ، ولكن هذا الوعد لم يتحقق .

وقد تحمس امنحوتب مرةً فارسل فرقة من جيشه — عوضاً عن ان يرسل جيشاً كبيراً ويسير في مقدمته كما كان يفعل سلفه طحوتس — تمكنت من استرداد

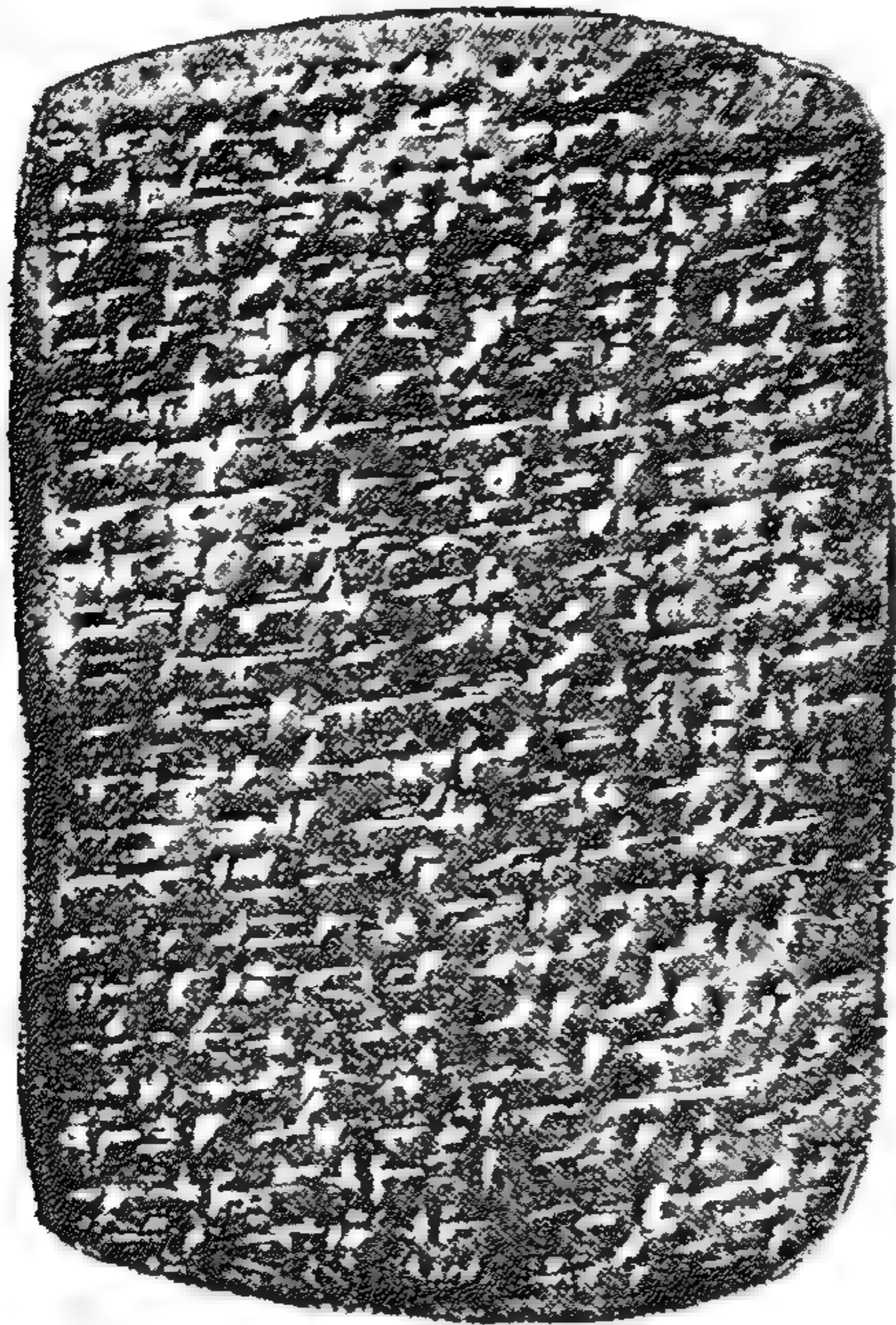
١ - J. A. Knudtzon, *Die el-Amarna Tafeln* (Leipzig, 1908), no. 60;

Cf. A. H. Sayce, *Records of the past*, New series, vol. V.

(London 1891), pp. 97-8 .

مدينة سميرا وقمعت الثورة ولو الى زمن قصير . ولكن كانت فرقة صغيرة لم تستطع ان تقف في وجه الخطر المداهم من الشمال : خطر الحثيين .

ان موت عبد اشيرتا قتلًا لم يغير من الوضع شيئاً . فان ابناؤه وعلى رأسهم عزيزو ، ساروا في خطوات ابيهم واتبعوا الاساليب المكيافيلية ذاتها . ولم يتغير



أجرة عليها رسالة من صيدا وبيروت من قبل رب ادي إلى فرعون مصر . وهي واحدة من آجرات تل المارئة الشهيرة .

الوضع السياسي في مصر . ففي هذه الاثناء تسنم اخناتون عرش مصر سنة ١٣٧٧ فازدادت الحالة سوءاً على سوء . فأخذ رب أدّي، امير جبيل يرسل الرسائل الى فرعون مصر ذاكرًا فيها خبر الكوارث والمصائب . يقول : « كان ملوك كنعان فيما مضى من الزمان اذا رأوا جندياً مصرياً ولوا الادبار . اما الآن فان ابناؤه عبد اشيرتا يهزأون بالشعب المصري ، ويهدّدوني باسلحة فتاكة مربعة^(١) » . وبعد فترة

قصيرة وقعت ألاّزا وإرداتا^(١) في قبضة عزيزو ، ونصف مدينة اوغاريت التهمتتها النيران ، واستردت سميرا وهدّمت تهديماً كاملاً « كي لا تقع في ايدي الحثيين » كما يدعي عزيزو . وعندما طلب فرعون مصر ان يعيد بناءها ، وعد عزيزو بانه سيفعل هذا خلال سنة ، ولكن ضغط العدو عليه كان شديداً ، وكان من واجبه ان يدافع اولاً عن مدن فرعون ضد التقدم الحثي . ولانه كان منهمكاً بالدفاع عن مصالح مصر – كما كان يدعي امام اسياده المصريين – فقد كان يتعذّر عليه ان يذهب الى مصر الى القصر الملوكي « ليرى وجه مولاه البهي » وليقدم حساباً عن اعماله^(٢) . وهكذا هذه الاعذار التي كان يتقدم بها مراراً وتكراراً كان عزيزو يتملص من ملاحقة فرعون له .

مأساة رب أدّي

في هذه الاثناء كان رب أدّي قد فقد رشده واعياه اليأس . فقد كان رسله الى مصر يعودون بنحفي حنين . حتى ان اخاه كان يدبر مؤامرة مع ابناء عبد اشيرتا لقلب الحكم في جبيل . وكان يشعر ، كما يقول هو ذاته ، « انه حبيس كعصفور في قفص » وها هي اخته واولادها يلجأون الى امير صور ، ابي ملكي ، الذي لم يكن قد انضم الى سائر الامراء الكنعانيين الناقين . وكان امير صور ، كأمر جبيل ، يبعث بالرسائل الى مصر نادباً فيها حظّه ومتوسلاً ملكها ليعث اليه بالعون ولكن بدون جدوى . واخيراً دب اليأس الى قلب هذا الامير الشجاع الامين فهجر بلده جبيل ولجأ الى بيروت^(٣) . وكان حاكم بيروت « عمونيرا » ذا قرابة له عن طريق المصاهرة . أما زوجته وابناؤه فقد سلموا جميعاً الى عزيزو وللمرة

١ – يرد اسم Ul-la-za في التاريخ الكلاسيكي Orthosia واسمها الحالي ازوس ارتوسي عند مصب النهر البارد شمالي طرابلس . اما Ar-da-ta فهي اردة الحالية بالقرب من زغرتا . راجع : Abel, *Geographie*, vol. II, p. 4, Dussaud, *Topographie*, p. 85.

٢ – Knudtzon, Nos. 164-7.

٣ – وفي الفينيقية *B'eroth* ومعناها آبار . وأول مرة يظهر اسم بيروت في التاريخ في قائمة اسماء ذكرها طحوتس الثالث . ولا ذكر لها في اسفار العهد القديم . (راجع يشوع ٩ : ١٧ ، ١٨ : ٢٥) .

الاولى يلح ذكر مدينة بيروت في خضم هذه الشؤون الدولية في ذلك العهد . ولكنها لم تكن قد وصلت بعد الى الذروة ، اذ ان عصرها الذهبي كان بعد في ذمة الزمن ، في العهد الروماني . وكان امير بيروت ، عمونيرا ، يبعث ايضاً برسائل الى مصر فيها عبارات الذل والخنوع . ففي رسالة له يقول : « الى الملك مولاي وشمسي والهي ونسمة حياتي » . وفي رسالة اخرى يقول : « ها اني قد هيات كل شيء ، خيلي ، ومركباتي ، وجميع ما ملكت يداي ياسيدي الملك ووضعتها تحت تصرف جيش الملك مولاي^(١) » . ولكنه عندما لم يتسلم جواباً مرضياً عن رسالته هذه بعث برسالة ثانية فيها شيء من الحدة :

« اذا كان مولاي الملك يقول : دافعوا عن انفسكم واحموا مدينة الملك التي في عهدتكم ، فاننا نجيب : بماذا ندافع عن انفسنا وكيف لنا ان نحمي المدينة ؟ فانه قديماً كان للملك عندنا قلعة فيها حامية ، وكان الملك يموئها من « اياريموتا^(٢) » . ولكن عزيزو الآن يهاجمنا المرة تلو الاخرى غير هياب . واني لم اضمن بالماشية ولم اضمن بالثؤن .. وقد اصبحت مدني في حوزة عزيزو وهو يظهر لي المودة والايناس للانضمام اليه . ولكن لماذا انضم اليه ؟ يالهم من كلاب ابناء عزيزو . انهم يبغون مصالحهم ويخلفون مدن مولاي الملك طعاماً للنيران^(٣) . »

وعندما اصبحت بيروت ذاتها مهددة غادرها امير جبيل الذي لجأ اليها هارباً وسار جنوباً نحو صيدا . ولكن امير صيدا ، زمريدا ، كان قد انضم الى الاموريين وبذلك وقع في قبضة عزيزو الذي كان هارباً من وجهه . وهكذا لقي رب ادي حتفه بسبب شهامته ووفائه لاسياده المصريين . وما لا شك فيه ان حياة هذا الامير اللبناني كانت مأساة تثير كل عطف . وهكذا اضطرت مصر ان تتخلى ليس فقط عن شمالي سورية بل عن فينيقية التي كانت مصدراً للكثير من المواد الخام التي تحتاج اليها مصر . وبتخلي مصر عن المنطقة اخذت كل من هذه البلدان سورية ولبنان

Steindorff and Seele, p. 106 .

- ١

٢ - لا نعرف هذه المدينة على التدقيق . قابل يرموت الوارد ذكرها في يشوع ١٠ : ٣ وهي خربة يرموك حالياً وتبعد ١٦ ميلا غربي جنوبي القدس .

Steindorff and seele, p. 107

- ٢

وفلسطين تتباعد عنها الواحدة تلو الاخرى . فقد كان الاموريون والحثيون قد رسخوا اقدامهم في شمالي سورية وفي اواسطها وعلى شاطئها . واخذت قبائل الخبيرو تندفق الى فلسطين ، واخذت هذه القوضى التي وصفناها آنفاً بعد مضي عشرة سنوات او اكثر ، تقارب نهايتها . اما الفراعنة الذين خلفوا اخناتون مباشرة لم يحاولوا تجريد حملات عسكرية لاسترداد ملكهم الضائع في غربي آسية .

الحل النهائي

لقد اذكى طحوتمس الثالث في بني قومه روحاً وطنية حملتهم خارج بلادهم واسفرت عن تأسيس ملك اسوي مترامي الاطراف . ان هذه الروح الوطنية خبت نارها ايام اخناتون وظلت هكذا الى ان قام ستي الاول (حوالي ١٣١٧ - ١٣٠١) الذي ينتمي الى الاسرة التاسعة عشرة . ان مومياء هذا الفرعون ومومياء رعمسيس الثاني الموجودتين في المتحف الوطني في القاهرة محفوظتان بشكل حسن تام حتى ان المواطن المصري الذي ينظر في وجهيهما ليشعر بانهما حيان . وقد ذكر لنا ستي الاول في سجل مغامراته الحربية في آسية انه اجتاح لبنان ، وان امراء المدن على الساحل اللبناني استسلموا له وخضعوا لسلطانه ، وانه حصل على خشب الارز الذي كان بحاجة اليه في بناء معابده في مصر^(١) ثم تابع زحفه شمالاً ماراً في سميرا والآزا . وبعد ان استولى على الشاطيء ، كما فعل سلفه طحوتمس الثالث اطمأن الى انه اصبح في حوزته الآن قواعد حربية على الشاطيء اللبناني يستطيع ان ينقل اليها جنوده بحراً ليعود الى متابعة اعماله العسكرية ضد الشمال . ويظهر ان هذه كانت الخطة الحربية السليمة بالنسبة لمصر . وكانت مدينة جبيل احياناً قاعدة لبناء المراكب وذلك لقربها من موارد خشب الارز . وقد كان حكام لبنان وامراؤه يقولون عنه في معرض المدح والتزلف : « انك تشبه أباك الاله رع ، ان مراكبك يبعث فينا الحياة^(٢) » . وقد كان نتيجة هذه الحملة عقد الصلح مع الحثيين .

ولكن هذه الهدنة بين مصر والحثيين تركت البلاد في حيرة سياسية ، فلم تكن

Breasted, vol. III, sec. 91 , 114 .

- ١

Breasted, vol. III, sec. 94

- ٢

مصرية ولا حثية مما جعل أمر سيادتها موضع بحث . وقد استغل الملك الحثي موت تالش الهدنة ، فجمع جيشاً من نحو ٣٠ ألف فارس من جميع أنحاء سورية والعراق القديم وآسية الصغرى . غير أن ابن ستي وخليفته رعمسيس الثاني (حوالي ١٣٠١ - ١٢٣٤) قابل هذا الحشد بجشد مصري مقابل قوامه مشاة ومركبات ومرترقة . ثم زحف بهذا الجيش الى لبنان جاعلاً طريقته الشاطيء اللبناني ، ومن ثم انحرف شرقاً - ربما في وادي الليطاني ، أي البقاع - الى منابع العاصي . وقبل ان يصل الجيش المصري الى قادش - وهي قلعة امامية للحثيين - فاجأهم الحثيون بكمين كاد ان يقضي على الجيش المصري قضاء تاماً (حوالي ١٢٩٦) لولا جرأة رعمسيس وشجاعته وحسن قيادته التي اعادت الى الجيش بعض عنوياته .

ينبئنا رعمسيس في سجله الحربي انه هزم العدو ودفع به الى العاصي : «وقذف بهم الى النهر وكأنهم تماسيح جزعة : لقد وقعوا على وجوههم الواحد فوق الآخر فقتل منهم ما شاءه القتل»^(١). ولكن الحقيقة رغم هذا التبجح هي ان رعمسيس لم ينج من الهلاك الا بالجهد . وكذلك اخفقت مصر في حملاتها التالية المتتابعة في الحصول على نصر حاسم . وظلت الحرب سجالات حتى سنة ١٢٨٠ عندما تمّ عقد معاهدة صداقة وحسن جوار بين مصر والحثيين . وقد وقع عليها كل من رعمسيس وحثوشلش اخي الملك موتالش وخليفته الثاني . وهذه المعاهدة التي كانت معاهدة عدم اعتداء تحدرت اليها سالمة بنصها الحثي المكتوب بالخط المسماري وبنصها المصري المكتوب بالحرف الهيروغليفي . وتعد من اقدم المعاهدات من نوعها في العالم . وتنص على «احلال السلام والتآخي بيننا الى الابد» . وتنص المعاهدة ايضاً على الاعتراف بشمال سورية بما في ذلك امورو ، بلاداً حثية بينما يظل جنوبي سورية ، بما في ذلك فلسطين والشاطيء الفينيقي ، جزءاً من الممتلكات المصرية .

كان رعمسيس اول من بدأ بكتابة النقوش على صخور مصب نهر الكلب تخليداً لذكرى انتصاراته العسكرية . جرى ذلك اثناء هذه الحملات المتكررة المتتالية ضد لبنان والمملكة الحثية في الشمال ، وقد يكون القصد من اقامة انصبه تذكارية كهذه وضع علامات للحدود . وفي هذه الحالة يكون رعمسيس قد اقام

من هذه الصخور التي كتب عليها سجل حملاته علامة حدود شمالية لمملكته . وفي احدى هذه الانصبه يظهر رعمسيس يقدم احد الاسرى ضحية لاله «فتاح» . وفي نصب آخر ، وهو الذي تحت آثاره الكتابية الجيوش الفرنسية سنة ١٨٦٠ ، يبدو رعمسيس ممسكا بشعر اسير امام الاله امون - رع . وهذه التماثيل الى جانب تلك الصور التي نراها على جدران القبور في مدينة طيبة ايام المملكة الجديدة تعطينا صورة عن شكل الناس في هذه المنطقة والبستهم في النصف الثاني من الالف الثاني ق . م . وفي احدى الكتابات تحت هذه الصور نجد عبارة «امير من لبنان» . وهنالك نوع من الالبسة يظهر في هذه الرسوم وهو كناية عن ثوب يشبه التنورة من الخصر الى الركبة . وثوب آخر طويل مزركش زاهي الالوان له اردان طويلة يلبس على الجسم من اعلاه الى عقب الرجل وله كشكش على اطرافه من القماش الازرق والاحمر . وشعر الرجال قصير جداً واحيانا يظهر حليقي الرؤوس . اما النساء فيلبسن ثوباً طويلاً مزركشاً زاهي اللون يتألف من قطعة قماش واحدة ، وهو ثوب يشبه قميص النوم في عهدنا هذا .

مصر تنقذ سيطرتها

لم يبد احد من فراعنة الاسرة العشرين اي عزم على الاحتفاظ بالملك الذي استرده لهم اسلافهم في سورية ولبنان . وهكذا اخذ ظل السيادة المصرية على لبنان بالتقلص . وقد حفظت لنا النقوش الكتابية تقريراً صارخاً بعث به رسول احد الفراعنة الذي قدم الى لبنان ليحصل على خشب الارز لباء مركبة فخمة للاله امون اسمه « ون - امون » ويبدو من الاستقبال البارد والمعاملة القظة التي اقيها المبعوث في قصر امير جبيل انه لم يعد باستطاعة مبعوث فرعون ان يفوز بالاجلال والاكرام عند امير لبناني . يقول هذا المبعوث ون - امون ، في معرض الشكوى عند تقديم تقريره : « قضيت ١٩ يوماً في ميناء هذا الامير . وكان يرسل الي كل يوم قائلاً انصرف عني ^(١) » . وهذا الأباء يختلف اختلافاً تاماً عن الخنوع الذي كان يبديه امراء مدن لبنان في رسائل تل العمارنة عند مخاطبتهم فراعنة مصر .

وهكذا وجد مبعوث مصر نفسه امام ذكر بعل ذليلاً يائساً من القيام بمهمته خائفاً على حياته من القتل . كان ينزل الى شاطئ البحر ويجلس هناك الساعات نادياً حظه . ويبدو ان « اوراق اعتماده » لم تكن صالحة للشول امام امير جبيل . ونعني باوراق اعتماده هنا انه لم يكن لديه المال الكافي لدفع اثمان الاخشاب التي قدم لاجلها . وقد حاول المبعوث استمالة امير جبيل بشتى الوسائل فارسل اليه مرة جارية مصرية مغنية لترفه عنه . ومرة اخرى بعث اليه بسلام من غلمانته كي يعرض المسألة امامه . واخيراً حن قلب الامير عليه . وعندما عاد مرة من صلاة الصباح في المعبد صعد الى عليته « وجلس هناك سائداً ظهره الى نافذة ، بينما كانت امواج البحر السوري العظيمة تتكسر على الصخور تحت النافذة » وسمح للمبعوث التاعس بالدخول عليه . وقد خاطبه الامير بلهجة فيها غطرسة واباء : « اما انا فلست لك ولست بخادم للذي بعث بك الي . فاني اذا ناديت لبنان تفتتح ابواب السماء وتندرج جذوع الارز من اعالي لبنان الى هذا الشاطئ »^(١) . فيجيب المبعوث ونـامون مدافعاً عن الهه : « البحر له ، ولبنان ، هذا البلد الذي تقول انه ملك لك هو له ايضاً »^(٢) . ولكن يظهر ان كلام المبعوث والدفاع عن الهه لم يجديا نفعاً . فان امير جبيل يعترف بتفوق مصر الثقافي ولكنه يرفض بشدة الاعتراف بسيطرة مصر على البلاد .

وقد رفض امير جبيل ان ينزل عند طلبه قبل ان يقبض ثمن الخشب من المال وخمس مئة طومار من الورق البردي . عندها أرسل امير جبيل ٣٠٠ رجل و ٣٠٠ ثور ليقطعوا جذوع الارز وينقلوها الى شاطئ البحر .

غير انه طرأ في هذه الاثناء تغيير جذري في الخريطة السياسية لهذه البقعة . فقد ظهر شعب سامي جديد : الآراميون . وهؤلاء كانوا شعباً من الشعوب السامية التي كانت تتوطن الصحراء ، ولكنهم اتخذوا في هذه الحقبة داخلية سورية موطناً جديداً لهم . وكانت دمشق عاصمتهم ومركز الثقل . كما ظهر شعب سامي جديد آخر ، وهم العبرانيون ، الذين اجتاحتهم سورية الذي عرف فيما بعد

Breasted, vol. IV, sec. 577 .

- ١

Breasted, vol. IV, sec. 580 .

- ٢

بفلسطين^(١) . أما من جهة البحر ، فقد ظهر شعب غريب ، لا ينتمي الى العرق السامي ، بل الى مجموعة الشعوب التي تعرف بالشعوب الهندوآوروبية . هؤلاء هم الفلسطينيون الوارد ذكرهم كثيراً في التاريخ العبري ، كما هو ممدون في اسفار العهد القديم . وقد كانوا « شعباً بحرياً » اجتاح الشاطئ الفلسطيني وخربه واحتل الجزء الجنوبي منه الى رفع . وبظهور هذه الشعوب الثلاثة الجديدة فقد المصريون في الجنوب والحثيون في الشمال الدور الذي قاموا به من قبل ، ولم يعد لهم تأثير في الشؤون اللبنانية .

١ - ان اول من اطلق اسم فلسطين على هذا الجزء من سورية كان هيرودوتس في الكتاب الاول الفصل ١٠٥ (يقول : ذلك الجزء من سورية المعروف بفلسطين) .

الفصل السابع

فترة الاستقلال : التجارة والقوة والمنعمرات

الآراميون

اجتاحت جموع الآراميين- وهم ساميون- خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد جزءاً كبيراً من بلاد ما بين النهرين وشمال سورية واواسطها . وقد طغت هذه الموجة على سكان البلاد من اموريين وحوريين وحثيين فامتزج فيهم من امتزج وطرد من البلاد من طرد . اما جبل لبنان فقد كان سداً او حاجزاً في وجه هذا التغلغل الآرامي غرباً . فلم تُصَبّ الجاليات الامورية والحثية في المناطق الجبلية بسوء بل ظلت محتفظة باستقلالها وازدهارها . واما اهل الساحل من الكنعانيين فلم يشعروا بهذه الموجة لا من قريب ولا من بعيد . اما في سورية فان دمشق العاصمة العتيقة للدولة الآرامية اصبحت حوالي ١٢٠٠ ق . م مدينة آرامية سكانها . وعلى ممر الزمن اخذ هذا الشعب الجديد بجميع اسباب الحضارة الامورية والكنعانية الراقية التي جاء ليقم في كنفها . ولكن القوم الجدد احتفظوا بشيء واحد هام : لغتهم . فهم من هذا القبيل يختلفون تماماً عن جيرانهم الجنوبيين ، العبرانيين والفلسطينيين ، الذين توطنوا البلاد في اواخر القرن الثالث عشر والثاني عشر . ذلك بان الآراميين احتفظوا بلهجتهم السامية الاصلية التي نسميها الآرامية وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح والتي شاعت واصبحت لغة الناس في منطقة غربي آسية بكاملها . والعجيب في انتشار هذه اللغة وفي صيرورتها لغة البلاد باجمعها انها لم تنتشر بفضل عوامل سياسية بل بفضل عوامل تجارية . فقد كان التوسع التجاري لا التوسع السياسي . سبباً في نشرها في البلاد . ففي القرن الثامن قبل المسيح حلت الآرامية محل الكنعانية التي كانت لغة سورية ، وظلت اللغة السائدة في البلاد الى الفتح العربي في القرن السابع للميلاد ، عندما اخذت العربية تحل محلها .

كانت دولة آرام دمشق التي تأسست في زمان معاصر لقيام الملكية عند العبران، اي في اواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، تشمل البلاد الواقعة شرقي جبسل لبنان الى داخلية سورية وشاليها وباشان . هذه الدولة الآرامية ، أو آرام دمشق – ومركزها دمشق – اصبحت فيما بعد مترادفة الاسم بما كان يدعو الاغريق سورية . واسم سورية في العهد القديم « بلاد آرام ، أو « آرام » ولا ذكر لسورية في اسفار العهد القديم .

الفلسطينيون

في اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد وفي اوائل القرن الثاني عشر حدث في آسية الصغرى وفي حوض البحر الايجي تحركات شعوب وهجرات بشرية اسبابها العميقة غامضة . وقد كانت نتيجة هذه التحركات والهجرات ان قبائل عديدة هجرت اوطانها القديمة وعبرت البحر ناشدة مواطن جديدة آمن واكثر استقراراً . هذه الشعوب التي انتقلت عبر البحار كانت تنتمي الى العرق الهندو – اوروبي . وهذه التحركات والهجرات لم تكن الاولى من نوعها بل سبقتها انفجارات مماثلة . وقد طغت على سورية جموع وجموع من هذه القبائل النازحة مما زعزع قوة الحثيين وهدد كيانهم . واجتاحت هذه القبائل المنطقة تلو المنطقة على الشاطيء السوري وخربتها . ومنها مدينة اوغاريت (راس الشمر) ، ابعد المدن الكنعانية شمالاً . فانها لم تكد تعيد بناءها ونشاطها بعد ان نكبت بزلزال وحريق حوالي ١٣٦٥ حتى جاءتها هذه القبائل الغازية وخربتها فلم تقم لها قائمة فيما بعد . وهكذا زالت اوغاريت من التاريخ . وحوالي ١١٩١ وصلت جموع هذه القبائل حدود مصر حيث استطاع رعمسيس الثالث صد هجومهم . ولكن فلولهم المتراجعة وفقت الى توطيد موطن لهم على الشاطيء الجنوبي من سورية اي من حدود يافا الى رفح . هؤلاء هم قبائل الفلسطينيين الذين عرفت بهم بلاد فلسطين (الجزء الجنوبي من سورية) فيما بعد^(١) . كانت المنطقة الساحلية التي احتلها الفلسطينيون تمتد من غزة ، حيث اقاموا لهم امارة هامة ، الى يافا . ومن هناك اخذوا بالتوسع شرقاً وذلك بانتزاع الارض من الكنعانيين عنوة . وقد كانت بلاد كنعان قبل هذا الغزو الفلسطيني قد

١ – كانت تعرف هذه القبائل بقبائل Peleste او Pulaste او Purasti واول ذكر لها

ورد في نقش خلفه لنا رعمسيس الثالث راجع : Breasted , vol. IV , sec. 403

اصيبت بالفقر والخراب ، وكان اهلها قد ذلت نفوسهم وفقدوا كل بأس ونشاط ، وذلك من جراء الحملات العسكرية التأديبية العديدة التي قام بها فراعنة مصر ضد بلاد كنعان ومن جراء فداحة الجزية والغرامات التي كان المصريون يفرضونها على السكان . فلم يستطع اهل كنعان ان يصمدوا في وجه الغازي من جهة الصحراء (اي جموع العبرانيين) ولا ان يقاوموا هذه الشعوب القادمة من وراء البحار (الفلسطينيين) . وكانت اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها جماعات من الاغريق ومن سكان آسية الصغرى تزداد عنفاً في منطقة البحر الابيض المتوسط الشرقية . ومما ساعد الفلسطينيين على انتزاع المبادرة العسكرية والتفوق الحربي اسلحتهم . فانهم كانوا على معرفة تامة بمعدن جديد - الحديد - وكانوا يتقنون صهره ويستخدمونه في صنع اسلحة هجومية ودفاعية . وفي اسفار العهد القديم صورة لجبار فلسطيني مجهز باسلحة كالت تلقي الرعب في نفوس العبرانيين . نشير الى قصة جليات الجبار وداود النبي ^(١) . وفي اللغة العبرية والعربية لفظة دخیلة : « قبة » وهي لفظة فلسطينية تعني خوذة الفارس ^(٢) . ولم يكن استعمال الحديد شائعاً في المنطقة قبل دخول هذا الشعب الغريب ، اي الفلسطينيين ، اليها . نعم ، ان الحثيين كانوا قد عرفوا هذا المعدن عند شواطئ البحر الاسود قبل القرن الثالث عشر قبل المسيح ، ولكن استعماله لم يكن عاماً شائعاً بل انهم استخدموه اولا كطرفة في صنع حلي للزينة . فقد ورد في رسائل تل العمارنة ذكر للحديد بانه معدن من المعادن الثمينة . ومن جملة الهدايا النفيسة التي بعث بها توشرتا ملك متشي الى ملك مصر امنحوتب الثالث (توفي ١٣٧١) خنجر مصنوع من الحديد وخواتم من حديد مطلية بالذهب ^(٣) . وقد احتفظ الشعبان الحثي والفلسطيني بسرية صنع الحديد ، ولكن سرعان ما اطلع الفينيقيون على سر المهنة فقصوا بذلك على الاحتكار الذي كان من نصيب هذين الشعبين وراحوا يصنعون الحديد ويستعملونه في بناء سفنهم ومركباتهم . وأخذ الحديد يحتل بالتدريج مركز البرونز في استخدامه في صنع

١ - راجع سفر صموئيل الاول ١٧ : ٥-٧

٢ - راجع سفر صموئيل الاول ١٧ : ٣٨، ٥ . في الترجمة العربية « خوذة » اما في الاصل العبري

« قبة » وهي فلسطينية . راجع : Gordon : *Introduction* p. 108.

Knudtzon, No. 22, col. 1, I. 38; Col. 2, II. 1, 3, 16.

الادوات والآلات التي يستعملها الانسان في حياته اليومية . وهكذا يكون هذا الشعب الهندو اوروبي الغريب قد اسدى الى حضارة المنطقة خدمة عظيمة ، وذلك انه عجل في انتقال الحضارة من عصرها البرونزي الى عهد ارقى وافضل : عصر الحديد .

العبرانيون

في الوقت الذي كان فيه الآراميون يوطدون اركان ملكهم في داخلية سورية، وفي الوقت ذاته عندما ثبتت الفلسطينيين اقدامهم على الشاطئ الجنوبي في سورية، ظهر على مسرح الشرق الادنى القديم شعب ثالث وهم العبرانيون الذين قدموا من مصر وأخذوا في هذه الفترة يتسللون ويتغلغلون في بلاد كنعان . وكان قد سبق هذه الهجرة من مصر هجرة اخرى من الشمال من أور الكلدانيين بقيادة ابراهيم ، وقد كان آرامياً (اي سوريا) يتكلم الآرامية^(٢) . وعند دخوله ارض كنعان عرفه كاهن كنعاني بعبادة الاله « ايل عليون » اي الاله العلي . وقد اصبح ابراهيم هذا ابا للعبرانيين ومؤسساً لقبيلتهم في فلسطين . كما قبلوا الهه (اله ابراهيم) على انه « يهوه » . وقد كان الشعب العبري القديم مزيجاً من شعبين ساميين الواحد منهما قدم من مصر والصحراء السورية ، والثاني من الشمال بقيادة ابراهيم . وقد دخل في هذا المزيج البشري عناصر اخرى غير سامية من حثيين وحوريين وسواهم . واما لغتهم، فقد كانت لغة كنعان التي تعلموها في موطنهم الجديد، وهي اللغة العبرية التي بها دوّنت اسفار كتبهم الدينية الخالدة : اسفار العهد القديم . وأما ما تبقى من سكان البلاد الاصليين من كنعانيين واموريين الذين لم يطردوا فقد امتزجوا بهذا الشعب الجديد وانصهروا فيه واصبحوا شعباً واحداً هم يهود التاريخ . وقد نجم عن صراعهم ضد الفلسطينيين انشاء مملكة يهودية مستقلة زمن داود النبي حوالي ١٠٠٤ ق.م. وهكذا تجزأت بلاد كنعان بين الشعوب الغريبة عنها والتي دخلتها غازية : وهم الآراميون والفلسطينيون واليهود ولم يبق سوى لبنان بلداً حراً مستقلاً .

٢ - راجع سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٨١ ، ٥ : ٣١ ، ٢٠ : ٢٤ ، وسفر التثنية ٢٦ : ٥ .

العصر الذهبي : الاستقلال التام الناجز

في هذه الاثناء كانت الممتلكات المصرية والحثية على تأخر مستمر ، ولم يكن قد اشرق بعد نجم الدولة الاشورية . فاتاحت الاحوال فرصة ذهبية للفينيقيين لتوطيد استقلالهم . ففي القرون الثلاثة الواقعة بين ١٢٠٠ - ٩٠٠ ق.م. - باستثناء فترات قصيرة جداً - شهدت فينيقية فترة سلام واستقرار وتمتعت بحكم مستقل ولم تعترف بسيادة دولة غريبة على ارضها . ولكن مما يؤسف له ان معلوماتنا التاريخية عن هذه الفترة يسيرة مقتضبة . ذلك لان الدول الكبرى المجاورة لفينيقية لم تخلف لنا شيئاً يذكر عنها ، ولان الفينيقيين انفسهم لم يخلفوا لنا آثاراً كتابية ، أو انهم تركوا لنا شيئاً اندثر وزال . والبلاد ذاتها لم تكن حدودها بعد قد وضحت ، انما كانت بوجه عام تمتد من أرواد الى جبل الكرمل . نعم ، انتشرت في بادىء الامر جاليات كنعانية على طول الشاطئ ، غير ان جبلي اللكام وكاسيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب لم تصل من المنعة بحيث تصد المهاجمين على نحو ما فعل لبنان . وعليه لم تثبت سوى الجاليات الكبيرة القوية التي توطنت سفوح لبنان عند الشاطيء والتي اصبحت فيما بعد المدن الفينيقية المستقلة . كانت حكومة المدن الفينيقية المستقلة تمارس الحكم حسب نظام ، او دستور لم يطرأ عليه تغيير اساسي من اول امره الى آخره . فقد كانت خطوطه الرئيسية كما يلي : كان القاضي الاول يعتبر على العموم ملكاً ، ويحكم بحق الهي الامر الذي كان يضمن استقرار الملك وابقائه ارثاً لبنيه من بعده . وقد ادعت بعض الاسر انها متحدرة من نسل الالهة . ولكن حكمه لم يكن مطلقاً ، اذ كان هنالك غير عامل يحد من سلطته . فقد كانت ثمة جماعة الارستقراطيين من التجار وأصحاب المال ، وفئة الملاحين الكبار ، وقباطنة المراكب الذين كانوا يؤلفون جماعة لها نفوذها واحترامها . وكان هنالك ايضاً مجلس شيوخ . وقد عرفت جبيل مثل هذا المجلس منذ اقدم العهود .^(١) وكان للملك او غاريت ٧٠ مشيراً من الاشراف . واثناء الحكم الفارسي كان مجلس الشيوخ في صيدا يتألف من ١٠٠ رجل^(٢) وكان لصور مجلس مماثل . ولكن عندما وقعت فينيقية تحت الحكم البابلي الجديد

(١) راجع سفر حزقيال ٢٧ : ٩ « شيوخ جبيل » .

(٢) Diodorus Siculus , *History*, Bk . XVI, ch . 45, sec. I .

أصبح الحكم في صور جمهورياً ، وعلى رأس الحكومة موظفون كانوا يعرفون بالقضاة ، على نحو ما عرفه العبران . ولكن لم يُبدِ سكان المدن الفينيقية المستقلة في أية فترة من التاريخ ميلاً نحو الوحدة السياسية . فقد كان همهم الأول التجارة والمنافسة التجارية الحرة التي من شأنها أن تستنهض الهمم وتثير الروح الوطنية ولكن على مستوى اقليمي ضيق .

العزلة السياسية

لم يكن من اليسير على الفينيقيين أن يتغلبوا على هذه العزلة السياسية التي كانت تتميز بها مدنهم المستقلة - وهي عزلة سياسية تعكس إلى حد بعيد طبيعة المحيط الجغرافي . ولم يكن من السهل عليهم أن يتخطوا العزلة الدينية إذ كانت كل مدينة تنفرد بعبادة إله مستقل عن بقية الالهة ، ولم يكن هنالك من سبيل إلى القضاء على المنافسة التجارية الضيقة بين مدينة وأخرى . وإذا كانت قد جرت محاولات تهدف إلى الوحدة فإنها كانت وقتية . كانت المصلحة العامة إخيالاً تفرض الاتحاد الفدرالي الذي يوحد السياسة تحت قيادة مدينة واحدة . فقد كانت مدينة أوغاريت في أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد المدينة التي كانت ترأس اتحاداً فدرالياً للمدن المستقلة . وكذلك كانت جبيل وارواد في القرن الرابع عشر ، ومدينة صيدا في القرن الثاني عشر ، وصور من القرن الحادي عشر إلى التاسع ، ومدينة طرابلس في القرن الخامس . وكانت هذه المدن الدويلات في جميع أطوار تاريخها مدناً محبة للسلام ، فلا تبدو عليها دلائل تتم عن روح عسكرية ، بل كان همها الأول توسيع التجارة وازدهار الفنون وتعزيز الدين .

أن تقسيم بلاد كنعان إلى أجزاء شبيهة بمنزلة مستقلة ، وتمتع البلاد بنعمة الاستقلال بعث في نفوس اللبنانيين نشاطاً حديداً واثار في نفوسهم مطامح جديدة . وقد اظهروا من العزم على تحقيق هذه المطامح ما يثير فينا الإعجاب . فانهم في هذه الفترة انشأوا لهم تجارة واسعة مزدهرة ، وتقدموا في الفنون والصناعات تقدماً كبيراً ، واسسوا لهم مستعمرات على جانبي حوض المتوسط ، واعطوا البشرية اعظم تقدم حضارية : حروف الهجاء . وتقدمت ملاحظتهم فركبوا البحار لارتباد مجاهل جديدة ولتوثيق علاقات تجارية جديدة واسواق يبيعون فيها

بضائعهم وبضائع جيرانهم . لم يجبنوا امام اليم ، ولم يكن المجهول ليشي عزمهم بل كان المجهول يستهويهم . وفي عصور سابقة للفترة التي نتكلم عنها شرع اهل الشاطئ الفينيقي يجذفون بقواربهم الصغيرة في محاذاة الشاطئ ليبيعوا ما فيها من سمك وزجاج وخزف ومصنوعات اخرى محلية . ولكنهم سرعان ما اصبحوا ملاحين ماهرين ، فانشأوا لهم طريقاً بحرية تجارية عبر المتوسط من شرقه الى غربه . وظلت هذه الطريق البحرية مدة طويلة ملكاً لهم يحتكرون تجارتها لا ينازعهم فيها منازع . اولئك الباعة المتجولون بقواربهم الصغيرة اصبح احفادهم من بعدهم من كبار التجار ومن امراء البحر . وما عثم التجار ان اصبحوا مستعمرين ينشئون المستعمرات التي لم تكن سوقاً تجارياً ينقلون اليه البضائع والسلع المادية فحسب ، وانما كانت مراكز تنقل اليها النواحي الفكرية والروحية في حضارتهم السامية . فكان اشراعتهم كانت تؤلف جزءاً عاثماً متنقلاً من تربة فينيقية . هذا النشاط التجاري الذي ابداه الشعب الفينيقي بعد القرن الثاني عشر جعل منهم ملاحين وتجاراً من امهر الملاحين ومن اعظم التجار في تلك الحقبة من التاريخ . يقول عنهم مؤرخ حديث من اعظم المؤرخين : « ان الفينيقيين ، في اعتقادي ، لجديرون بالخلود جنباً الى جنب مع الشعب الاغريقي واللاتيني ^(١) » .

الطرق البحرية والبرية

ولم يكن الفينيقيون ملاحين يجوبون البحار على غير هدى، وانما كانوا يسلكون طرقاً بحرية معينة محددة ، طرقاً اكتشفوها لانفسهم ثم استخدموها استخداماً تجارياً واسعاً ، ان لم نقل انهم تفردوا باحتكارها والانتفاع بها . واقدام هذه الطرق البحرية الدولية كانت بين جبيل، مينائهم الاول ، والمدن المصرية البحرية . وعندما نبأت صيدا وصور رئاسة المدن الفينيقية شرعت المراكب تخرج منها الى مصر ، أو شمالاً الى قبرص ، ومن هناك كانت تتجه غرباً محتمية بحال طورس الى ليقيا (Lycia) فالى جنوبي جزيرة رودس ومن ثم الى جزيرة كريت وكورسيرا فصقلية . ومن صقلية كانوا يتابعون اسفارهم مارين بجزيرة كوسيرا (واسمها

١ - Theodor Mommsen , *The History of Rome* , tr . William R .

Dickson, new ed . (New York , 1895), vol . II , p. 132.

اليوم بنتلاريا وعرفها جغرافيو العرب بجزيرة قوصرة) الى مستعمراتهم الجديدة التي انشأوها في شمالي افريقية، ومن شمالي افريقية غرباً في محاذاة الشاطئ الى مستعمراتهم الجديدة في اسبانية . والى جانب هذه الطريق كان هنالك طرق بحرية اخرى من الجنوب الى الشمال مباشرة . واما هذه التجارة البحرية فقد كان قوامها اربع مواد تنقص بلدانا كثيرة من بلدان حوض المتوسط : الخشب والحنطة والزيت والحرير . ولم تكن هذه البضائع جميعها من نتاج ارضهم بل كانوا يشترون الحنطة والزيت من فلسطين ويدفعون اثمانها بضائع اخرى من الكماليات ومن أدوات التبرج والزينة . أما الافاويه والعطور فكانت تأتيهم من جنوب بلاد العرب ومن الهند . فقد كانت القوافل البرية تسلك طرقاً عبر الجزيرة العربية فالصحراء السورية الى ان تنتهي الى المناطق الشرقية من شاطئ المتوسط . وبعد زمن اضاف الفينيقيون الى قائمة بضائعهم سلعتين رئيسيتين من صنعهم : أدوات معدنية واقمشة . وقد كانت شعوب حوض المتوسط تترقب بلهفة وصول البضائع الفينيقية الثمينة الى موانئها : آنية ومواعين معدنية واقمشة صوفية وقطنية بعضها مصبوغ باللون الارجواني وأدوات منزلية واثاث من الآبنوس والعاج المزخرف ذي النقوش والرسوم التي يظهر فيها اللون المحلي والاثار الفني المصري . وكان الاغريق يسمون خشب الارز ارزاً فينيقياً^(١) . ولم تكن غابات لبنان مصدراً غنياً للاخشاب فحسب ، بل كانت الاشجار المخروطية مثل الشربين والصنوبر والارز والبطم مصدراً لمادة الطلاء والصمغ الثمينين، بهما تطلّى المراكب لحفظها من التأكل^(٢) . وكان هؤلاء التجار كلما اتسعت نطاق اسواقهم التجارية ازدادت موارد الانتاج عندهم حتى اصبحوا على ممر الايام صلة وصل بين الشرق والغرب ينقلون الى الغرب بضائع الشرق ويرجعون الى الشرق ببعض متاجر الغرب التي كان جلها من المعادن والخزف . وهكذا اصبح المتوسط بحيرة فينيقية قبل ان يصبح فيما بعد بحراً اغريقياً أو رومانياً .

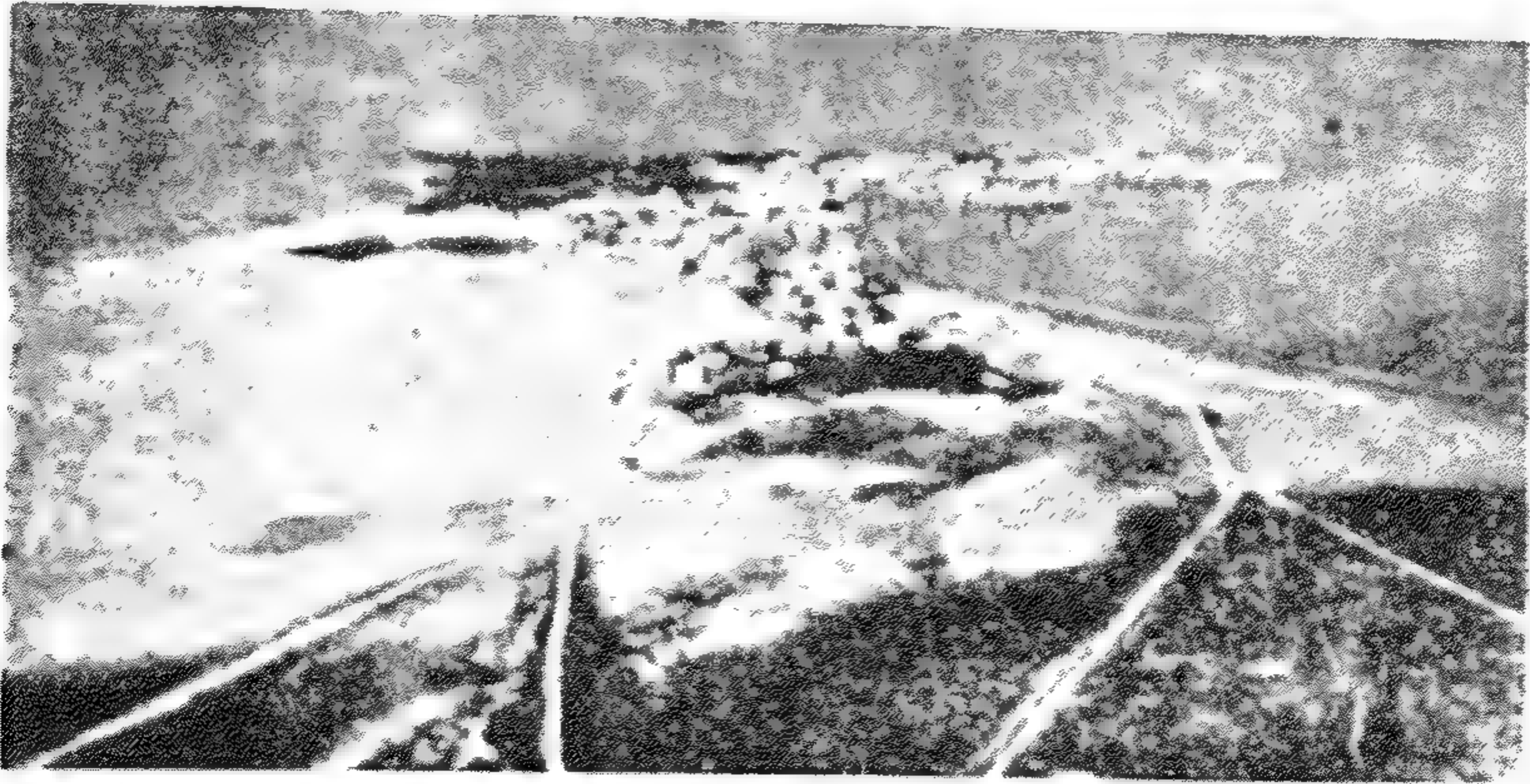
صيدا وصور

ان المدينتين اللتين اصبحتا في الفترة التي نحن بصددهما سيدتي البحار هما

١ — Theophrastus, *Die Historia Plantarum*, Bk. III, ch. 12, sec. 3; Bk. IX, ch. 2, sec. 3.

١ — وقابل حزقيال ٢ : ٢ Theophrastus, Bk. IV, ch. 2, secs. 2,3;

صيدا وصور . وتعتبر صيدا اقدم عهدا من جارتها صور ، لا بل تعتبر اماً لها^(١) فقد جاء في سفر اشعيا النبي (٢٣ : ١٢) ان صور ابنة صيدا . وكذلك تدعي صيدا، كما هو مثبت^٢ كتابة على نقودها، انها ام لمدينة هبّو في شمالي افريقية ومدينة كيتيوم (Citium) في قبرص وقد كانت رئاسة المدينة الفينيقية والسيادة البحرية من نصيب صيدا اولا ، فارست هذه الرئاسة على جنوب لبنان، بما في ذلك صور، واحتفظت بسيادتها البحرية كما فعلت من قبل جبيل وارواد في شمال لبنان . وقد وجد من بين نقوش رأس الشمرا (اوغاريت) قصيدة فيها قصة ملك من ملوك صيدا اسمه « كرت » (Keret) كان يحارب غزاة يقودهم امير اسمه تارح (Terah) . والى جانب هذا الاسم النوار ذكره في اسفار التوراة نجد اسماء اخرى مثل زبلون وادوم . وقد كان كُتّاب اسفار العهد القديم كما كان هوميروس الشاعر اليوناني يسمون الفينيقيين صيدانيين ، مما يدل على ان صيدا كانت اقدم عهداً من صور . وسفر التكوين (١٠ : ١٥) يجعل صيدون بكر كنعان (وكنعان ولد صيدون بكره وحثا) . والمؤرخ العبري الذي كتب سفر يشوع بن نون (١٩ : ٢٨) ووصف فيه فتوحات العبران يشير الى صيدا انها « صيدون العظيمة » .



مدينة صور

يقول الشاعر الاغريقي هوميروس في اشعاره عن صيدا ان تجارة الالقشة

Cf. Fredrick C. Eiselen, *Sidon: A Study in Oriental History* — ١
(New York, 1907), pp. 16 seq.

والنحاس والرقيق هي من احتكار مدينة صيدا ، مما يدل على اهميتها كمدينة تجارية . وكذلك يمدح هوميروس الفنانين الصيدانيين ، وقل ان يذكر صور . والاشارة في الالياذة الى « الثياب المطرزة صنع الصيدانيات »^(١) انما هي اشارة صريحة الى النساء الفينقيات . ومما جعل مدينة صيدا ميناء بحرياً ممتازاً ومركزاً تجارياً مزدهراً موقعها الطبيعي على الشاطئ . فانها كانت تقوم وراء رأس داخل في البحر تحيط بجهته الشمالية بمجموعة جزر صغيرة طولها نصف ميل وكأنها حائط يصد امواج البحر فتقي المراكب شرها . وقد دلت الصور المأخوذة من الجو انه كان لصيدا ميناءان : داخلي وخارجي . فهي تختلف من هذه الناحية عن ارواد وصور^(٢) . وكان لصيدا ، كما كان لسائر المدن الفينيقية ، بعلمها الخاص واليه الحارس الشفيح ، اشمون اله الشفاء . وقد عثر على بقايا هيكله عام ١٩٠٠ خارج المدينة جنوبي نهر الاولي .

وقد كانت صور ، (ومعنى اسمها « صخر ») مثل صيدا ، قائمة على رأس داخل في البحر تحميه صخرة طولها قرابة ميل وعرضها ثلاثة ارباع الميل . وهذه الجزيرة كانت ميناء اميناً للمراكب في العاصفة وملجأ للسكان زمن الحرب . وكان للمدينة ميناءان مستقلاان الواحد مدخله الى الجهة الشمالية وكانوا يسمونه الميناء الصيداوي ، ومدخل الثاني في الجهة الجنوبية ، وكان يعرف بالميناء المصري .^(٣) يقول عنها حزقيال النبي « .. الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة . »^(٤) وكانت صور البرية قوية الحصون ، وكان يأتيها الماء من ينبع يعرف الآن برأس العين . وازدياد ثروتها واحتمال غزوها حمل اهلها على الاعتماد على صور البحرية لاكمخزن للبضائع او كملجأ امين فحسب ، بل على انها المدينة الاصلية . فصارت صور مثل ارواد مدينة على جزيرة . وعندما زارها

١ - Bk. VI, 290 .

٢ - A. Poidebard and J. J. Lauffray, *Sidon : Aménagements antiques du port de Saida*, (Beirut, 1951), pp. 83-4 .

٣ - Strabo , Bk . XVI ch . 23 ; A . Poidebard, *Un grand port disparu: Tyr* (Beirut , 1939), pp . 6 seq .

٤ - حزقيال ٢٧ : ٣

هيرودوتس^(١) في منتصف القرن الخامس قبل المسيح أكد له كهنة ملقارت اله المدينة انه كان مضى على تأسيس مدينتهم اذ ذاك ٢٣٠٠ سنة. غير ان يوسفوس^(٢) لا يرجع زمن تأسيسها هذا الى التاريخ البعيد بل يقول انها بنيت قبل بناء هيكل سليمان^(٣) ب ٢٤٠ سنة. وقد اعجب هيرودوتس بهيكل ملقارت الذي كان يسميه هرقل ايما اعجاب. فقد كان في هذا الهيكل، فضلاً عن الهدايا والتقدمات العديدة «عمودان، الواحد من الذهب الصافي، والثاني من الزمرد الذي كان يلعب في الظلام».



شاقل عبراني يعود تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد، وهو أقدم قطعة نقود معروفة.

وما ان استهل القرن العاشر حتى أصبحت صور دولة قوية كسفت عظميتها مدينة صيدا التي أصبحت مدينة ثانوية. ذلك ان صيدا كانت حوالي ١١٧٠ ق. م. قد أصيبت بكارثة ساحقة. فان الفلسطينيين دمروا اسطوطها واحرقوا المدينة. واشهر ملوك صور حيرام الاول (٩٦٩ - ٩٢٦) ابن ابي بعل صديق الملك سليمان العبراني وحليفه. فقد بلغت المدينة ايام ملكه شأواً عظيماً. ويرجع انه هو الذي بنى اسوارها العظيمة الحصينة جاعلاً منها احصن ميناء في شرقي المتوسط. وقد كان القسم الرئيسي من المدينة في ايامه في الجزيرة حيث كان يقوم هيكل ملقارت والقصر الملكي والاسواق التجارية. وقد امتدت سلطة صور ابعد من الشاطئ الفينيقي. فان يوتيكا التي ثارت اغياد اخضاعها. وكان الصوريون اشد مغامرة من الصيدانيين، يدل ذلك على ذلك ايغالهم باساطيلهم غرباً. وقد خلف حيرام ابنه

Bk. II, ch. 44 .

Jewish Antiquities, Bk. VIII, ch. 3, sec. I

Cf. Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 22 .

بعل انتصر ، ومن بعده عبد عشترت ٩١٨ - ٩٠٩ الذي خلع . وبعد مضي فترة اضطراب وقلقل عادت صور الى الاستقرار اذ تولى اتوبعل ^(١) (٨٨٧ - ٨٥٦) العرش . واتوبعل هذا هو الذي زوج ابنته ايزابل من ملك اسرائيل آخاب (٨٧٥ - ٨٥٣) . وقد امتد ملك اتوبعل شمالا الى بيروت ، وكان يشمل جزءاً من قبرص . وذكره وارد في سفر الملوك الاول (١٦ : ٣١) : « ملك الصيدانيين » ذلك لان الفينيقيين آنذاك كانوا يعرفون بالصيدانيين . والفينيقيون كانوا يسمون انفسهم احياناً صورانيين واحياناً اخرى صيدانيين . وقد تزوجت ابنة ايزابل ، واسمها اثليا ، يهورام ملك يهوذا ، ولكنها استولت على العرش وجلست عليه ملكة على يهوذا فترة مدتها ست سنوات ^(٢) . وقد كانت ايزابل هي التي ساعدت على ادخال عبادة ملقارت الى شمال مملكة اسرائيل . ولما اخضع الاشوريون الشاطئ الفينيقي في اواخر القرن الثامن ، كان ذلك ايذاناً بان نجم صور قد افل وعظمتها قد زالت .

الاقتصاد : الزراعة

كانت اقتصاديات فينيقية تعتمد بطبيعة الحال على طبيعة الارض ومواردها . ولا شك في أن الزراعة وصيد الاسماك والتجارة كانت من اقدم الاعمال الاقتصادية التي تعاطاها الفينيقي . وقد كان للزراعة ، على انها المهنة الرئيسية الدائمة ، ابعاد الاثر في العقائد الدينية عند الفينيقي . كان الفلاح اللبناني يعتمد قوة ساعده في زرع الحبوب الى ان ادخل المحراث من بلاد ما بين النهرين . وقد وجد في حفريات رأس الشمرامعول برونزي وكان الفلاح يحصد القمح والشعير بمنجل من صوان مسنن مركز في مقبض مصنوع من الخشب أو العظم . وقد ظل هذا المنجل الحجري موضع الاستعمال الى ان استبدل بمنجل حديدي ، وذلك حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م . وكان يذرتي دريسه بمذراة خشبية ، ويطحن حبوبه بالجاروش ،

١ - وهو في التوراة اثبعل ، ومعنى اسمه « الاله بعل معه » واذا اردت الاطلاع على قائمة ملوك صيدا وصور عليك ان تراجع : G. Conteneau, *La Civilization Phénicienne*, new ed. (Paris, 1949), pp. 316 seq .

٢ - سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٠ - ٣٣ ، سفر الملوك الثاني ٨ : ١٨ ، ٢٦ ، ١١ : ٣ .



أبريق يعود عهده إلى العصر البرونزي المتأخر ، وقد وجد في مقبرة في كفرجرة ، جزين
(متحف الجامعة الأميركية في بيروت)

ويخبز خبزه في الثور كما يفعل كثيرون من اللبنانيين في القرى إلى يومنا هذا .

ولم تكن غلال لبنان قديماً تختلف عما هي عليه الآن . وبما أن المنطقة كانت
أبداً مهددة بالانحباس الأمطار وقلتها أو بعدم توزيعها على مدار السنة توزيعاً يلائم
الورع فإن اللبناني كيف زراعته بحيث أصبحت زراعة بعليّة^(١) تعتمد على زراعة
الأرض سنة وتركها بوراً سنة أخرى . وكان المجتمع الكنعاني فيه فلاحون يملكون
الأرض وطبقة من اقنان الأرض .

وكذلك لم تكن الحيوانات الداجنة تختلف عن الحيوانات التي نعهدها اليوم .
أما طعام السكان فلم يكن يعتمد اللحم ، لأن اللحم (الذي كانوا يطبخونه في
قدور خزفية واسعة الفم) ما كان يؤكل إلا في الأعياد والمناسبات . كانوا يشربون
ماء الآبار أو العيون الجارية وينقلونها إلى بيوتهم إما في الجلود أو في جرار خزفية
كبيرة . وكانوا ينرون مساكنهم بحرق زيت الزيتون في سُرُج بسيطة الصنع ،
وهي كناية عن صحون خزفية لها في حافتها نتوء مقعر لتستقر فيه الفتيلة .

١ مجرد قول اللبناني ، حتى في يومنا هذا « زراعة بعليّة » يدل على أن البعل القديم ، إله الزراعة
والخشب ، لم يمت بعد (المترجم) .

الصنائع والفنون

كان الصناع والتجار يحتلون مركزاً وسطاً في المجتمع الكنعاني . ففي الطبقة الاجتماعية الاولى نجد جماعة الاشراف والنبلاء من الملاكين الاقطاعيين والمحاربين الذين كانوا يستطيعون اقتناء مركبات الحرب . اما في الطبقة الدنيا فنجد الاقنان (الذين لا يملكون الارض) والعبيد . وكانت العادة ان ينشأ أبناء الصناع على تعلم صناعة آبائهم . ويظهر ان اصحاب الصنائع والفنون كانوا ينظمون في نقابات حيث تجمعهم الصنعة أو المهنة الواحدة وتربط بينهم قرابة رحم احياناً . ويسكنون في احياء خاصة بهم .

قبل ان ينتصف الالف الثاني قبل المسيح كانت صناعة الخزف - وصناعة الخزف من اقدم الصناعات وادّرها ربحاً - قد بلغت ذروتها . وقد كان لاستخدام



إبريق من العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ - ٩٠٠ ق.م.) وقد وجد في الرشيديّة بالقرب من صور (متحف الجامعة الأميركية في بيروت)

دولاب الخزاف الذي ادخل الى هذه الصناعة عند مستهل الالف الثاني ق.م. اثر بعيد الغور في تحسين صناعة الخزف الكنعانية . فقد اصبح بإمكان الخزاف الكنعاني

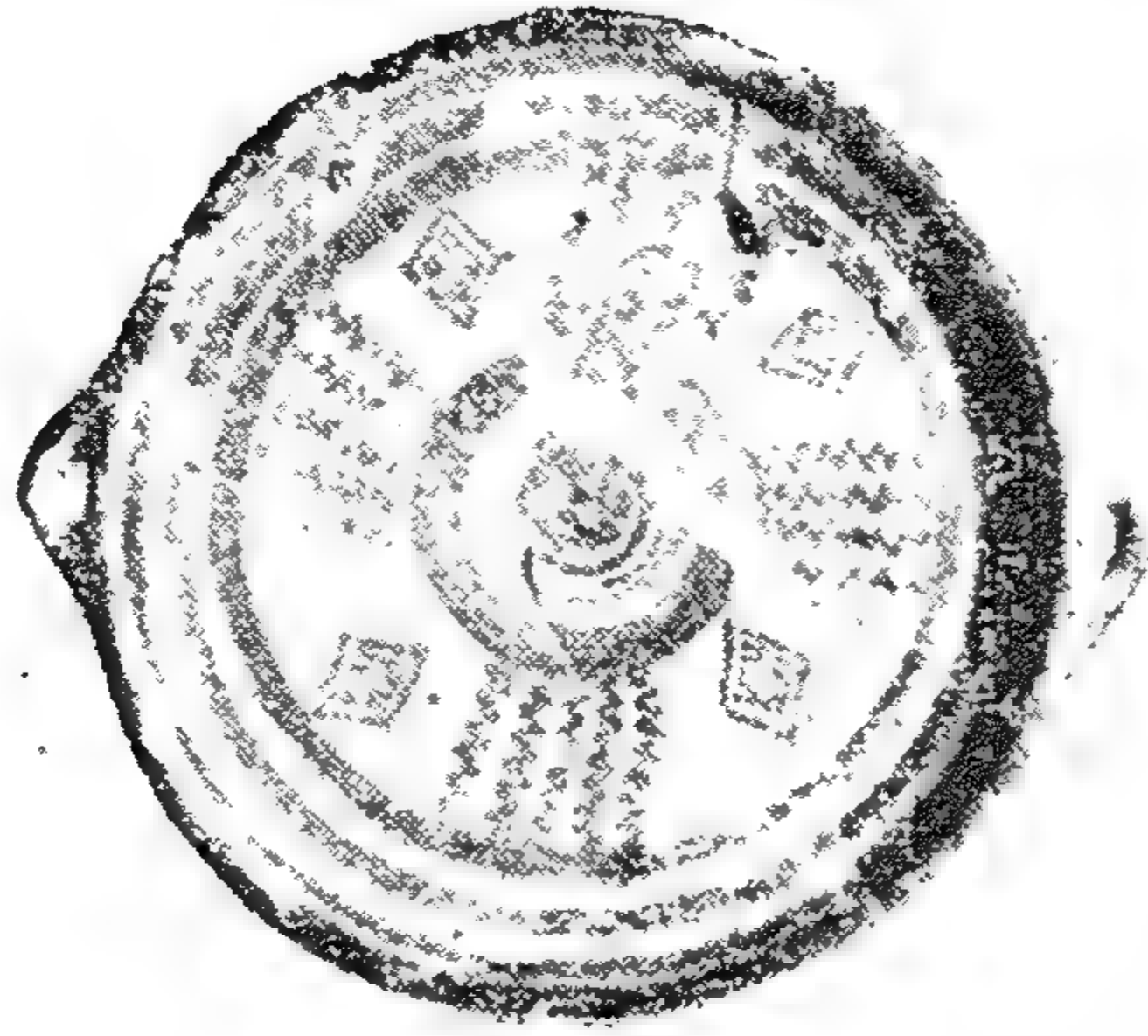
ان يُجوّد في صناعته وان يخلق اشكالا حسنة الهندسة بديعة التناسق. واخذ الخزاف الكنعاني بصنع خزفيات يقلد فيها الصناعة المصرية او الكريتية او الميسينية او القبرصية. وقد وجد في حفريات اوغاريت - وفي غيرها - نماذج عديدة مصدرها العالم الايجي مما يدعم الرأي القائل ان الكنعاني كان يتخذها مثالا يحتذيه في صناعته^(١). وبعد ١٥٠٠ ق.م. ظهر الاثر القبرصي والميسيني في صناعة الخزف الكنعاني ظهوراً بارزاً. وكان الصناع يستخدمون القصدير في طلي الخزف فيكون له وجه صقيل لمّاع. وكانوا يصنعون تماثيل واشكالا خزفية متنوعة يستعملونها في فروض عباداتهم وتقدماتهم للمعابد. وقد وجد في القبور الكنعانية نماذج منها ندل على رقي في الصنعة وارهاف في الذوق. وكذلك بلغ النحت ذروته في التقدم في القرن السادس عشر ق.م.

وفي هذه الحُتْبة التي نحن بصددّها - في اواخر الالف الثاني وعند مستهل الالف الاول ق.م. - بلغ الكنعانيون شأواً رفيعاً في عالم الصناعة والفن. فلم يشق لهم غبار في التعدين. وكانوا يستعملون النحاس والبرونز في صناعتهم بحذق ومهارة عظيمين. وقد اجري تحليل كيمياوي على شفرة فأس وجدت في رأس الشمراتبين منها ان الكنعاني لم يكن يعرف صهر المعادن فحسب، بل كان يعرف طريقة لمزج معادن اخرى مع الحديد لصنع الفولاذ^(٢). وقد رحل الفينيقيون الى اماكن بعيدة ليحصلوا على معادن كالفضة والذهب ولا سيما القصدير. ازرجه مع النحاس لصنع البرونز. حتى انهم بلغوا المحيط الاطلسي. وعندما كان فراعنة مصر يعددون غنائمهم من ارض كنعان كانوا دائماً يذكرّون آنية من فضة ومواعين من ذهب. وقد وجد في حفريات رأس الشمراتميزان صائغ وموازينه. وكانت الفضة تستعمل كنقود ولكن لم تكن نقوداً مصكوكة انما كانت توزن وزناً للبيع والشراء. هذا مع العلم ان اكثر التجارة كان يتم عن طريق المقايضة بالبضائع. وما ان شرع التجار الكنعانيون باستيراد التعاويد والتماثيل والاختام والخرز والآنية والمزهريات والاسلحة حتى بدأ صناع المعادن بتقليد اشكالها. وقد اعجب الاغريق بجمال صنع الادوات المعدنية، وقد عبّر عن هذا الاعجاب شاعرهم هوميروس. فقد قال في جام من

١ - Claude F. A. Schaeffer, *Ugaritica* (Paris, 1939), pp. 32 seq.

٢ - Schaeffer, *Ugaritica*, p. 110, No. 2.

الفضة « ان الصيغانيين اصحاب الحذق والمهارة في الاعمال اليدوية الدقيقة هم الذين قد صاغوا هذا الجلام الذي لا مثيل لجمال صنعه في الدنيا .^(١) » واكثر ما تبقى لنا من بقايا هذه الصناعة المعدنية آنية من الذهب والفضة وجواهر محفور عليها صور وتماثيل .



صحن من قبرص يعود الى العصر الحديدي الاول (١٢٠٠-٩٠٠ ق.م.) وقد عثر عليه سنة ١٩٣٦ في قبر حفر في الصخر في صرند (متحف الجامعة الاميركية في بيروت) .

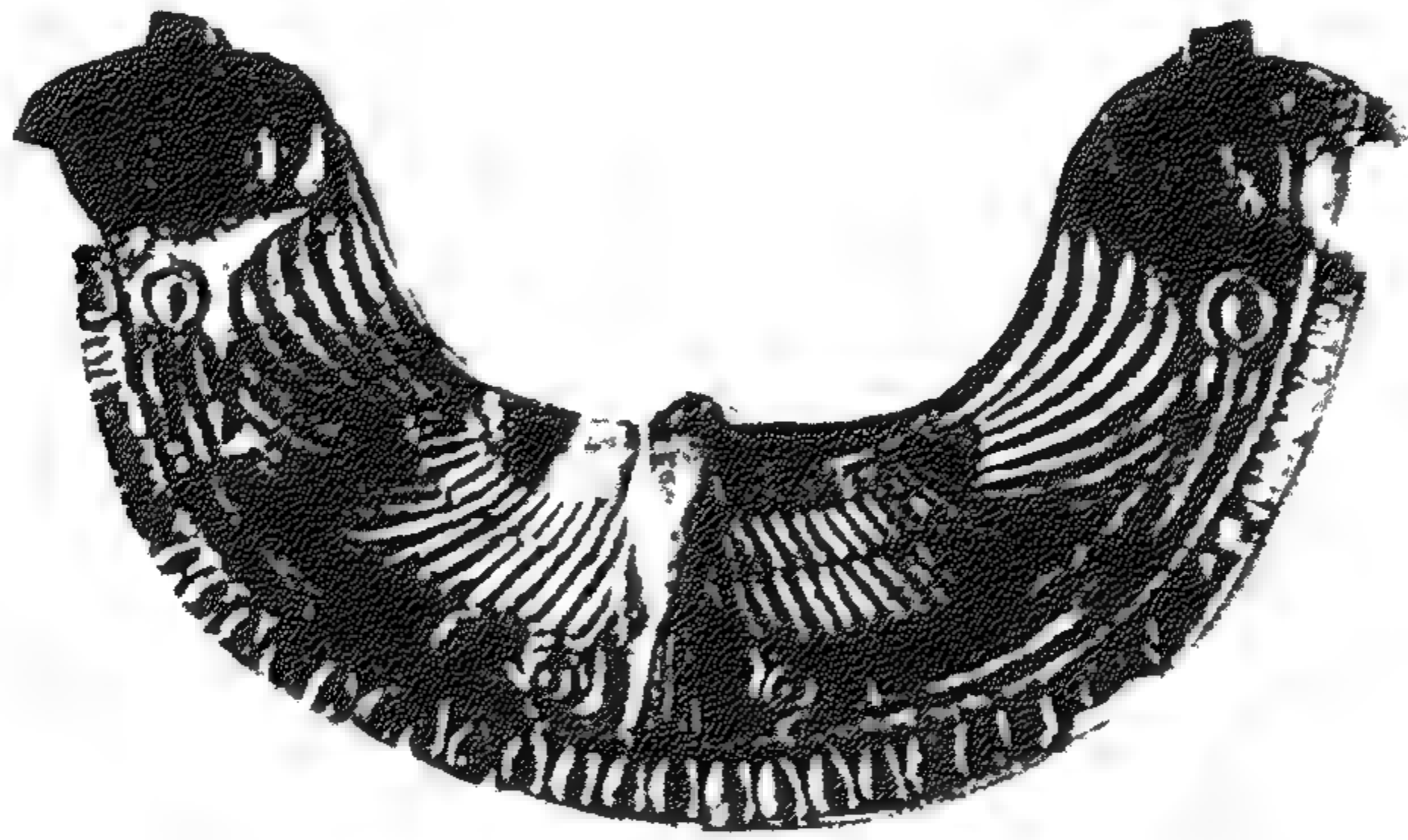
ومما يزيد في اهمية الفن الفينيقي شيوعه في جميع بقاع حوض المتوسط ، فكأنه كان يسير جنباً الى جنب مع سير التجارة . ففي مصر مثلاً في عهد الامبراطورية الجديدة نجد عادات كثيرة تشهد على وفر الانتاج اللبناني والسوري ورفي صنعه . وقد كان الصناع الكنعانيون يجيدون صنع الاسلحة المزخرفة والالبسة المطرزة والمهرريات الرشيقة الجميلة والاثاث والمركبات المطعمة بالذهب والفضة . وقد استعار المزخرفون والمزینون الكنعانيون اشكال رسوم زهرة عرائس النيل (اللوطس) والردى وزهرة الاكنثوس (acanthus) ولكنهم تفوقوا في رسم زهرة الكرستيم (dhrysentheam) والسوسن والحبازى وسمّوا برسم اشكالها الى اعلى درجات الفن . وقد كان الكنعانيون اول من خطرت على بالهم فكرة صنع زهور اصطناعية ووضعها في المهرريات^(٢) . وقد وجد في حفريات جبيل ومصر نماذج من جرار

^١ . Iliad, Bk. XXIII, 740-5 .

^٢ - Pierre Montet, *Les Reliques de l'art Syrien dans l'Égypte du nouvel empire* (Paris, 1937), p. 179.

لها قعر حاد كان الفينيقيون يصنعونها لنقل الصمغ والزفت والعسل والزيت. وبظهر ان في عصر الاحياء المعروف بعصر الحضارة السامية^(١) في القرن السابع ق.م كان المصريون يقلدون عناصر الفن الفينيقي ، ولكنه ما عثم ان فقد جدته في القرن التالي .

وقد كان للفن الفينيقي اثر عميق في تطوير الفن الاغريقي الذي بدأ يتفوق عليه فيما بعد - في القرن الخامس . واقدام العاديات الفنية عند الاغريق التي تعد تقليداً للفن الفينيقي تعود الى القرن الثامن . وقد كان الفينيقيون في حقل الفن ، كما كانوا في حقول حضارية وفكرية اخرى ، اساتذة للاغريق . وكذلك كان صناع العبران



« قبة » ملوكية من الذهب وجدت في قبر رقم ٣ في جيل

وفنانوهم من القرن التاسع الى السادس يقتبسون الفنون والصناعات عن جيرانهم الفينيقيين . فانهم كانوا ينقلون عنهم - وبكل امانة - صنع المجوهرات والحلى والاسلحة والجرار والقصور . يقول احد علماء التوراة^(٢) ان الفن الاسرائيلي القديم « يعكس طوراً من اطوار الفن الفينيقي » . نعم ، ان الفينيقيين تعلموا صناعة العاج من المصريين ولكنهم بلغوا بها شأواً بعيداً^(٣) . فانهم ، اي الفينيقيين ، هم الذين

١ - نسبة الى مدينة سايس في دلتا النيل .

٢ - William F. Albright, *Archeology and the Religion of Israel* (Baltimore, 1942), p. 13.

٣ - René Dussaud, *L'Art phénicien du II^e millénaire* (Paris - 1949), pp. 83 - 4 .

زخرفوا قصر آخاب الاسرائيلي في السامرة بنقوش رائعة من العاج، حتى ان القصر كان يعرف « بيت العاج »^(١). واثناء القيام بحفريات للتنقيب عن « البيت من العاج » ظهر اثاث وفرش مطعمم بالعاج ومغلف برقائق الذهب .^(٢) وكانت



فتاة كنعانية من القرن الثاني عشر او الثالث عشر كما تظهر على قطعة من العاج وجدت في مجدو

سيدة هذا القصر اميرة سورية ، فلا عجب ان كانت غرفه مغلفة بخشب الارز المطعم برسوم والواح من العاج . ونرجح ان زخرفة قصري الملكين داود وابنه سليمان وتزيينهما ببداائع الفن تم على يد صناع فينيقيين . وكذلك زين الصناع

١ - سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩ . عاموس ٣ : ١٥ ، ٦ : ٤ .

٢ - J. W. Crowfoot and Grace M. Crowfoot, *Early Ivories from Samaria* (London, 1938), pp. 1 - 6 .

الفينيقيون وفنانوهم بالعاج القصر الذي وجد في حفريات مجدو (تل المتسلم) والذي يعود تاريخه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وهناك نماذج فنية من العاج يعود تاريخها الى قبل هذا الزمن بقرنين . وصناعة العاج الفينيقية تدل على ذوق رفيع ودقة في الصنع تجعل منها عاديات تعد من اثنى العاديات الشرقية وانفسها .

فن العمارة

اما اذا اردنا ان نتعرف الى نماذج من فن العمارة الفينيقي فعلينا ان نفتش عنها خارج لبنان . واحسن نموذج هو هيكل سليمان (٩٦٣-٩٢٣) . ويظهر ان هذا الهيكل المشهور كان في الاصل معبداً ملوكياً تابعاً للقصر . وقد استغرق بناؤه سبع سنوات ، واصبح فيما بعد معبداً قومياً لمملكة يهوذا وللشعب اليهودي . غير ان اليهود في مملكة اسرائيل في الشمال لم يعتبروه معبدهم القومي . كان مهندسوه وبناؤه صوريين ، وقد استعملوا خشب الارز في بنائه ^(١) . وسخر الملك سليمان ٣٠ الف عامل في بناء هذا الهيكل يعملون بالتناوب بحيث يقضون شهراً في لبنان مع عمال حيرام في قطع اخشاب الارز، وشهرين في فلسطين يعودون فيها الى بيوتهم لمتابعة اشغالهم الخاصة . وكانوا ينزلون خشب الارز والشربين الى البحر ويجعلون منه ارماتاً تشحن الى يافا ومن ثم تنقل الى القدس . وكان حيرام يأخذ ثمنه حنطة وشعير أوزيتاً وخمراً . وكان الحجر الكلسي ينشر نشرأ ، فلا تستعمل المطارق ولا يسمع لها صوت . اما تماثيل البرونز فكانت تسكب سكباً . ويذكرنا عمودا النحاس القائمان عند مدخل الرواق بالعمودين اللذين جاء على ذكرهما هيرودتس عند زيارته معبد ملقارت في صور ^(٢) . وكان البناؤون والفنانون القائمون على تزيين الهيكل وزخرفته يسرون على هدي الفن الكنعاني المعاصر . ويبدو من الفروض الدينية والماراسيم التعبدية التي كانت تقام في الهيكل ان الاثر الكنعاني قائم . فقد كان عبيد الهيكل كنعانيين . ولفظة « هيكل » ذاتها دخلت العبرية عن طريق الكنعانيين ^(٣) .

وقصر سليمان هو ايضاً من صنع البنائين الفينيقيين الذين استعملوا خشب الارز

١ - سفر الملوك الاول ٥ : ٥ - ١١ سفر الاخبار الثاني ٢ : ١ - ١٦

٢ - سفر الملوك الاول ٧ : ١٥ ، ٢١ -

٣ - اصل اللفظة سوماري : e-gallu اي البيت العظيم ، وفي العبرية اصبحت « هيكل » .

في بنائه . وقد كان في هذا القصر من اعمدة خشب الارز ما جعله يعرف فيما بعد « بيت وعمر لبنان »^(١) وكذلك بنى سليمان مركبساته من خشب الارز^(٢) . ذلك لان فلسطين كانت - ولا تزال - تشكو فقراً في الخشب . وفي الحفريات الحديثة في مجدو و عثر على مجموعة من بنايات عديدة كانت اصطبيلات للخيول تعزى الى الملك سليمان ، ويدل بناؤها على انها كانت من صنع الفينيقيين ايضاً . وبسبب قلة الخشب في فلسطين بنى الملك حيرام ، ملك صور ، اسطولاً لسليمان ، وهو اول اسطول عبري في التاريخ كانت قاعدة هذا الاسطول ميناء عزيون جابر (واسمها الحالي العقبة) على رأس البحر الاحمر . وكان قواد هذا الاسطول وبحارته من الصوريين الذين قاموا بسفريات حول شاطئ الجزيرة العربية والشاطئ الافريقي الشرقي^(٣) بغية الحصول على البخور الهام في العبادات القديمة وعلى الصندل والعاج والذهب والحجارة الكريمة .

الموسيقى

لم يعن شعب سامي بالفن الموسيقي كما عني به الكنعانيون . فقد اكتسبوا كثيراً من عناصر موسيقاهم من شعوب مختلفة توطنت الشرق الادنى القديم وسموا بها الى اعلى ما عرف في الموسيقى عند معاصريهم . ذلك لان طقوس العبادة الكنعانية كانت تقتضي استخدام الغناء . وهكذا انتشرت الحانهم وادوات موسيقاهم في جميع بقاع المتوسط . وتكاثر الطلب على اقتناء مغنيهم ومغنياتهم من الجوارى في مصر زمن الامبراطورية الجديدة . يدل ذلك على ذلك ان اسماء ادوات الموسيقى في اللغة المصرية القديمة ترد في اصلها الى الفاظ سامية^(٤) . فان العود (lute) لم يكن له وجود في مصر قبل فتوحات طحوتس الثالث . ويظهر العود اول ما يظهر في تماثيلهم او انصبتهم زمن الاسرة الثانية عشرة وذلك بمناسبة رسم رجل سامي^(٥) .

١ - سفر الملوك الاول ٢: ٧ ، ١٠: ١٧

٢ - نشيد الانشاد ٩: ٣ .

٣ - سفر الملوك الاول ٩: ٢٧ - ٢٨ ، ١٠: ١١ ، سفر الاخبار الثاني ٩: ١٠

٤ - Albright, *Archeology and the Religion of Israel*, p. 14

٥ - Hitti, *History of Syria*, between pp. 76 and 77 fig.

« Semite with his Donkey

وكذلك فعل الاغريق ، فانهم اقتبسوا عن الفينيقيين كثيراً من الحانهم وادوات موسيقاهم باسمائها السامية . واكثر الناس اقتباساً عن الفينيقيين اطلاقاً هم العبران القدماء . فانه عندما ادخل النبي داود الغناء المقدس في العبادة اليهودية ، وعندما تعهده من بعده ابنه سليمان ، لم يكن لدى العبران من موسيقى ومبادئ موسيقية سوى موسيقى جيرانهم الى الشمال: الفينيقيين . والموسيقيون والمغنون الأوّل الذين الحقوا بالهياكل كانوا اما كنعانيين او جماعة اتقنوا الموسيقى والغناء على ايدي الكنعانيين . وبعد ان ادخلت الموسيقى وادواتها الى العبادة اليهودية اولا كان طبيعياً ان ينتشر الغناء فيما بعد بين الناس . فان داود عندما رقص امام تابوت العهد^(١) انما كان يقوم برقصة كان يمارسها الكنعانيون في طقوسهم الدينية التي تدور حول تأليه الخصب . وبقايا هذا الرقص المقدس - الرقص امام آلهة الخصب - لا يزال فاشياً بين الدراويش . وكان اعضاء نقابات الرقص في اسرائيل يفخرون انهم يرجعون بالنسب الى عائلات ذات اسماء كنعانية .

الصناعة في فينيقية : الزجاج

كان الزجاج احدى الصناعات الرئيسية التي فاق بها الفينيقيون معاصريهم . يذكر لنا المؤرخون الكلاسيكيون ان الفينيقيين هم الذين اكتشفوا صنع الزجاج ، انما تدل الدلائل على ان الفضل في هذا الاكتشاف يعود الى المصريين القدماء . يقول لنا بليني^(٢) ان جماعة من التجار نزلوا على الشاطئ قرب عكا واخذوا في تحضير طعامهم . وكانت مراكبهم محملة بالنظرون فاخذوا منه قطعاً وبنوا بها مواقد لقدورهم . ثم انهم لاحظوا بعد حين ان النظرون تحول الى مادة شفافة سالت واختلطت بالرمل . وسواء أكان الفينيقيون هم الذين اكتشفوا الزجاج أم المصريون ، فان الواقع ان التجار الفينيقيين كانوا يتجرون بالزجاج المصنوع في مصر وبالزجاج المصنوع في فينيقية الذي كانوا يلونونه ويتقنون صنعه اتقاناً يكاد يكون تاماً . وقد وجدت في أماكن مختلفة في لبنان وسورية كتل من الزجاج المذاب الذي لم يستعمله

١ - صموئيل الثاني ٦ : ١٤

Pliny, Bk. XXVI, ch. 65.

الزجاجيون في صنع الآنية ، مما يدل على ان صناعة الزجاج كانت منتشرة في هذه البقعة^(١) . والواقع ان الصناع الفينيقيين في صناعة الزجاج والقاشاني استطاعوا ان يلحقوا بمنافسيهم المصريين ان لم يكونوا قد بزوهم في بعض الاحيان .

النسيج

كان الغزل والحياكة في لبنان القديم صناعة بيتية . وقد عثر على فاكات مغازل من حجارة او عظام ، كما انه وجدت حجارة او كتل من الفخار كانت تستعمل كأثقال في النول اليدوي يعود تاريخها الى ٣٠٠٠ سنة ق.م . ولا شك في ان الصوف كان اول مادة استعملت في الغزل والحياكة . وقد ورد ذكر الصوف الكنعاني في كتابة بالخط المساري وجدت في حفريات نوزي^(٢) يعود عهدها الى ١٥٠٠ ق.م . فان البلاد الجبلية الواقعة وراء المدن الساحلية الكنعانية كانت مراعي ممتازة لتربية الغنم . فكان لباس المرء الشتوي في كنعان من الصوف الوطني المصدر وكان يغزل ويحاك في البيت . أما القطن ، وموطنه الاصيل بلاد الهند ، فلم يكن شائعاً في تلك الازمنة ، انما ادخل الى البلاد في وقت متأخر . وقد نقل الفينيقيون القطن ، واسمه السامي ، الى بلاد الاغريق في مستهل العصر الهليني^(٣) . أما الكتان الذي اشتهرت به مصر ، فظاهر ان نبتته ، القنب ، كانت تزرع في سورية الجنوبية في القرن العاشر قبل الميلاد . ففي التقويم الذي عثر عليه في حفريات تل الجزر الذي يعود تاريخه الى الفترة التي نحن بصدددها يذكر « شهر حصاد القنب » . وانك لتجد زهر نبت القنب في يومنا هذا ، بالوانه الانيقة ، يزين وجه الارض في الربيع في جميع مناطق حوض المتوسط الشرقي . ويظهر ان الحرير كان معروفاً في صور في القرن السادس ق.م . ، هذا اذا كانت ترجمتنا للفظـة وردت في سفر

١ - Mackay, Guide, p. 76.

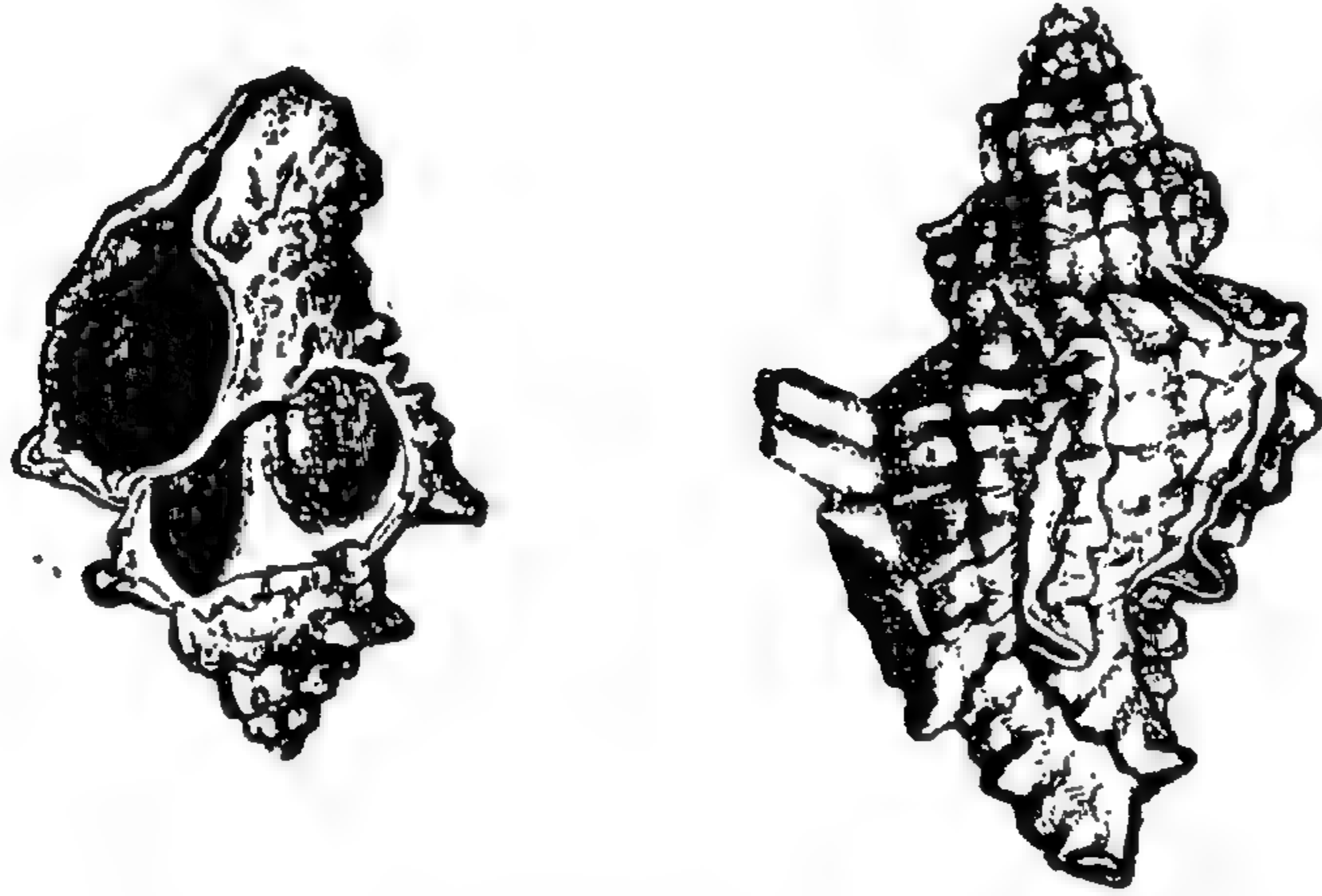
٢ - اسم مدينة عراقية قديمة موقعها على بعد ١٠ اميال شرقي كركوك . وهذه النقوش مكتوبة بالخط المساري .

٣ - كلمة cotton الانكليزية ترد الى العربية وهي لفظة مشتركة بين اللغات السامية .

حزقيال ١٦ : ١٠، ١٣ - البر في الترجمة العربية للتوراة - ترجمة صحيحة^(١) . وفي هذا الحال يكون مصدر خيط الحرير من شرائق ديدان الحرير البرية .

الأرجوان

ومن الصنائع التي راجت على الشاطئ الفينيقي ، صيد السمك ومشتقاته . واسم مدينة صيدا ذاتها يُرَدُّ إلى جذر سامي مشترك يفيد « الصيد » . فقد كانت المراعي لا يُعتمد عليها في تربية الحيوانات بسبب فقر في التربة أو قلة في الأمطار . ولكن الفينيقي كان يستعير بالبحر عن المراعي . والبحر كريم جواد بسمكه ،



أصداف المريق (murex) التي يستخرج منها صباغ الأرجوان .

لا سيما السمك الذي يعرف بالطن (Tunny) ذي اللون الأرجواني واللون الذي يشبه لون الملح . ومن الصناعات التي تفرق ابداً باسم الفينيقيين صناعة صبغ الأرجوان . وقد يكون ان الفينيقيين عرفوا بهذا الاسم نسبة الى لفظة اغريقية Phoinix ومعناها اللون الاحمر الأرجواني^(٢) . ولم يكن هذا النوع من الحيوان البحري الذي يعرف

١ - اول ذكر للحرير يرد في كتاب ارسطو *Historia Animalium* ترجمة :
D'Arcy W. Thompson , (Oxford, 1937), p. 551, ll. 12-15 .

٢ - في اللغات السامية جذر « فتق » ومعنا - تعم وترف . وقد يكون الاسم سامي النجار لانهم كانوا اصحاب غنى وترف بالنسبة الى جيرانهم . في هذه الحال تكون هذه التسمية قد اطلقها عليهم جيرانهم . (المترجم)

بالمريق (Murex) والذي منه يستخرج السائل الأرجواني، يعيش قرب الشاطئ الفينيقي فتحسب ، بل نجده قرب شواطئ المتوسط جميعها . وقد عرفت صباغ الأرجوان شعوب أخرى غير الفينيقيين . فان أهل كريت والاعريق عرفوا هذه الاصداف التي يمكن استخراج صباغ منها . تقول لنا الاسطورة الاغريقية ان هيلانة الطروادية عندما كانت تمشي مع كلبها على شاطئ البحر لتروح عن نفسها عناء الاسر لحظت ان فم كلبها الذي كان يعالج صدفة تغير لونه الى لون أرجواني غامق . فسرت بهذا اللون وأعجبت به اعجاباً حملها على ان تقرر انها لن تقبل بطلب زواج منها إلا إذا استطاع ان يهلبها ثوباً مصبوغاً بالأرجوان (porphyra) . غير أن أشهر الأرجوان وأنفسه في العالم القديم كان الأرجوان السوري . ذلك لأن أجود انواع هذا الحيوان كانت تعيش على شواطئ صور وصيدا . وحرصاً على حفظ هذا المورد الطبيعي من الاضمحلال والتلاشي ، فان الفينيقيين حاولوا اكتشاف مصادر أخرى يستطيعون ان يجلبوا منها صدف الأرجوان . وقد وُفقوا الى استيراده من أماكن بعيدة ، من ميناء سبارطة ومن ضواحي قرطجنة في شمالي افريقية ومن يوتيكا (Utica) . وقد وجدت كميات من هذه الاصداف المكسرة في ميناء اوغاريت ، الميناء البيضاء ، ويرجع عهداها الى ما بين القرن الخامس والثالث عشر ق.م. وأقدم ذكر لهذه اللفظة ، أرجوان، ورد في نص من نصوص اوغاريت حيث يقول ان كمية من الصوف قد وزعت بين جماعة من الحياكين الذين عهد اليهم صنع الـ « ارج م ن »^(١) . واذا رجعنا الى الاساطير نجد ان اول ذكر للأرجوان يرد في اسطورة تقول ان اول ثوب مصبوغ بالأرجوان السوري قدّمه هرقل الفينيقي الى الآلهة عشروت . ولم يبق من أثر لصنع هذا الصباغ سوى ذكريات تظهر عفوياً بين أولاد صور في عهدنا هذا . فانهم عندما ينقسمون الى فريقين ليلعبوا لعبة الحرب فانهم يرفعون اعلاماً من خرق مربوطة الى القصب مصبوغة بصباغ يستخرجونه من هذه الاصداف على شاطئ بحرهم . ويثبتون ألوانها اما بكربونات الصودا أو بعصير الليمون^(٢) . وأن المرء ليرى الى جنوبي صيدا في يومنا هذا حافة صغيرة مبنية في الاكثر من اصداف هذا الحيوان البحري .

١ - يقابلها في العربية أرجوان - وليست الكلمة سامية الأصل بل قد تكون هندوآوروبية.

٢ - Louis Lortet, *La Syrie d'Aujourd'hui* (Paris, 1884), p. 127. -

ولم تكن عملية استخراج هذا القليل من الصباغ وتقطيره وتنقيته بالامر اليسير، بل كان الامر على نقيض هذا . ولذا كانت اثمانه غالية جداً بالرغم من انه كان بضاعة حرة لا محتكرة . فان الثياب الارجوانية، كما يظهر في شعر هوميروس^(١)، وكما يظهر في العصر الهليني^(٢) كانت ثياباً للملوك والامراء . فان اباطرة الرومان كانوا يلبسون ثوباً فضفاضاً من الارجوان رمزاً للسلطة والحكم . ولم تكن كليوبترا المصرية باقل شغفاً بالارجوان من هيلانة الطروادية. وتقول لنا الروايات أن الاميرات البيزنطيات كن يلدن في غرف جدرانها مبطنة بالارجوان ، وعلى هذا نشأ القول المأثور في بعض لغات الغرب : « ولد في الارجوان » . وكان رئيس كهنة اليهود يلبس الارجوان رمزاً لسلطته الدينية . وكذلك كان كاهن منبج الآرامي في شمالي سورية وكاهن الاله المشتري (جوبيتر) في مغنيزيا في آسية الصغرى يلبسان الارجوان عنواناً للسلطة الدينية . وثوب الكردينال الكاثوليكي في يومنا هذا بقية باقية من ذلك التقليد القديم .

اما كيف كانوا يعالجون هذا الصباغ بعد استخراجه من الحيوان فلا يزال امراً خفياً . فان الرواية الفينيقية او التقليد الفينيقي ، بالنسبة الى هذا الامر ، لا يذكر لنا شيئاً . غير ان المؤرخ بليني^(٣) قد ترك لنا وصفاً لصنع هذه المادة . يقول ان العملية تبدأ باستخراج السائل الملون من عرق من عروق الحيوان وهو بعد حي — لانه اذا مات فان هذا السائل الثمين يفرز الى الخارج فيفسد — ثم انهم يضيفون اليه قليلاً من الملح ويترك اياماً لينتقع ، ثم يغلونه غلياناً خفيفاً على نار خفيفة . وفي اثناء الغليان يجمع الغشاء مرة بعد اخرى ويرمى به . وبعد عشرة ايام عندما يكون الصباغ في الخلقين لا يزال سائلاً يرمى بجزات الصوف المراد صبغها الى الخلقين وتترك هناك خمس ساعات لتنتقع في الصباغ . ثم ان الصوف يؤخذ ويحفف قليلاً ويُسَرَّح او يُنَشَّط ثم يرمى به ثانية الى قدر الصباغ لكي يمتصه جيداً . وعندما يصبح لون الصوف بلون الدم المتجمد فان الصباغ يعرف ان صبغه قد تم ، فينتزعه من السائل ويدفع به الى السوق على انه افضل انواع الارجوان .

Iliad, IV, 141 - 5.

٢ - سفر المكابيين الاول ٨ : ١٤ .

Bk. IX, ch.62.

٣ -

ان تدفق الثروات العظيمة الى رومه في القرن الاول قبل المسيح زاد في الطلب على الارجوان ، مما جعل الصنّاع في ايطاليا وفي غيرها من البلاد يقلدون صناعة الفينيقيين في صبغ الارجوان وحياته . وفي الشرق ظلت هذه الصناعة مزدهرة مستمرة الى زمن الفتح العربي . وقد ورد ذكر استيراد « الارجوان السوري » . من جملة ما كان يستورده من الكماليات تجار البندقية في اواخر القرن الثامن للميلاد . أما في العهد البيزنطي فان صناعة الارجوان كانت امتيازاً او احتكاراً تتمتع به جماعة قليلة من الصناع . وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية تلاشت هذه الصناعة وتُتوسى امرها في الشرق . واما في انكلترا - سواء أكانت صناعة مستوردة من الشرق ام لم تكن - فان هذه الصناعة ظلت شائعة في اماكن منعزلة حتى القرن السابع عشر ميلادي .

وكذلك يعزى الى اللبنانيين القدماء ، الى جانب صنعهم صباغ الارجوان ، صنع صباغ القرمز^(١) وادخاله في عالم الصناعة والتجارة . وهذا اللون ، القرمز ، تكثر الاشارة اليه في اسفار العهد القديم^(٢) . وقد كان اللبنانيون يصنعون هذا الصباغ من حشرات تعيش على انواع من شجر السندبان^(٣) التي تنمو على شواطئ المتوسط الشرقية . تؤخذ هذه الحشرات وتجفف ثم تدوّب بانواع من الحامض فتُكسب السائل الذي تنتقع فيه لون القرمز . وهذه الحشرة البرية اصبحت فيما بعد من الحشرات التي كان الفرس اولاً ، ومن بعدهم الارمن ، يعنون بها عناية خاصة ويربونها لهذه الغاية الاقتصادية .

الملاحه

ان تقدم التجارة البحرية واتساع النقل البحري على مستوى عال رهن بتقدم الملاحة وبوضعها على اسس قوية ثابتة . وهذا ما قام به الفينيقيون قبل ان تزدهر

١ - وفي الانكليزية crimson وقد دخلت الانكليزية عن طريق العربية . واللفظة اصلاً اما ارمنية او فارسية .

٢ - سفر اللاويين ١٤ : ٤ ، سفر العدد ١٩ : ٦ .

Theophrastus , Bk. III, ch . 16 , sec . I

تجارتهم البحرية وقبل ان يتسع نطاق النقل البحري . فانهم اكتشفوا نجمة القطب الشمالي - التي سماها الاغريق باسمهم - وادركوا اهميتها في تحديد الجهات . فانهم بواسطة هذا وبواسطة نجوم اخرى استطاعوا ان يحددوا الطرق البحرية والمسالك التي يجب ان تسلكها مراكبهم . وكان الفينيقيون يقطعون اشجار الارز من اعالي جبالهم ويلقون بها الى مجاري الانهار فاذا اتى السيل شتاء تعوم هذه الجذوع فيعالجونها الى ان تصل الى اقرب الموانئ لصنع مراكبهم من خشبها الصلب الذي يقاوم الزمن طويلا . اما صيدا وصور فان مصدر اخشابها كانت غابات الارز والشربين في سفوح جبل الشيخ (حرمون) . والمراكب الفينيقية تظهر على الرسوم والتماثيل المصرية منذ ١٤٠٠ ق.م. وشكل المركب العام هلامي اي ان مقدمته ومؤخرته مستديرتان معقوفتان كطرفي الهلال . وفي المقدمة مجذافان يستعملان كدفة للمركب ، وله صارية واحدة ذات شراع مربع في اعلاها . ولكي تتسع مراكبهم لنقل البضائع ولكي لا تكون طويلة فانهم كانوا يبنونها عريضة في اواسطها . غير ان شكل بناء السفن تغير فيما بعد . فان رسوم المراكب التي تظهر في الرسوم والتماثيل الاشورية تظهر المراكب التجارية والحربية بمقدمة عالية تنتهي بمدكة (ram) ، وهي آلة للحرب وللهدم والنطح) وتتألف من طبقتين . وفي بادىء عهدهم ببناء السفن كان الفينيقيون يضعون مجذافين او اكثر الواحد فوق الاخر . غير انهم اخذوا فيما بعد بانشاء صفين من المجاذيف على جانبي الطبقة الاولى في كل صف اربعة او خمسة مجذافين ، اي انه كان للمركب الواحد بين ١٦-٢٠ مجذافاً . وقد زادوا العدد فيما بعد الى خمسين مجذافاً . اما الشراع الذي كانوا يحكونه من الكتان القوي فكان يُطوَى اذا دخل المركب الميناء او اذا كانت الريح غير مؤاتية . هذا النوع من المراكب الشراعية اقتبسه عنهم الاغريق كما تدل على ذلك الرسوم المصورة على المزهريات الاغريقية . ونرجح ان هذا النوع من المراكب الفينيقية هو الذي ادخله بناءو السفن عندما طلب الملك سليمان الى صديقه الملك احيرام ملك صور ان يبعث اليه « بالنواتي العارفين بالبحر^(١) » وقد كانت ميناء سليمان تسمى « عزبون جابر » التي سميت فيما بعد ايلات وهي ايلة الرومانية والعربية ، وموقعها على رأس خليج العقبة . من هذا الميناء الذي يختصر الطريق بين حوض

المتوسط الشرقي وبلاد العرب الجنوبية والمحيط الهندي كانت المراكب تنقل الخشب والنحاس لتعود محملة بالذهب من بلاد اوفير (ربما اسم عُمان قديماً) وبالمواد والسلع الاستوائية التي تُنتج في البلاد العربية . هذه الطريق البحرية وفرت على التجار المرور في مضيق السويس . وقد وجد في خرائب مأرب عاصمة سبأ حديثاً تمثال بروتزي لاله يلبس جلد اسد : اقرب تمثال له صورة الاله ملقارت اله صور الذي وجد في خرائب عمريت . والى جانب البضائع الاستوائية كان التجار الفينيقيون يجلبون الى مصر العبيد والخيل للمقايسة بنتاج مصري . وقد كان للتجار الفينيقيين في مدن دلتا مصر في عهد الاسرة العشرين (١٢٠٠-١٠٩٠) مركز مرموق . وليس هذا وحسب بل كان لهم في مدينة ممفيس في القرن الثالث عشر امتيازات خاصة تذكرنا بعهد الامتيازات في العهد العثماني .

كانت التجارة الفينيقية في معظمها بحرية ، غير انهم كانوا الى جانب تجارتهم البحرية يمارسون التجارة البرية ايضاً ، فكانت تجارة برمائية . وقد انشأوا لهم طرقاً برية تربط بين موانئهم على المتوسط وبين قواعدهم البحرية على الخليج الفارسي . فقد كان هنالك على شواطئ الخليج مدن اسمائها اسماء مدنهم في فينيقية (وقد وردت الاشارة الى هذا الامر) . أما اهم قواعدهم البرية فقد كانت مدينة الرها (اورفا) واسمها الكلاسيكي ايدسا ، وربما مدينة نصيبين . وقد جاء على وصف هذه التجارة البرمائية وطرقها وصفاً دقيقاً رائعاً النبي حزقيال (سفر حزقيال ٢٧) حيث يقول ان من جملة البضائع التي كانوا يستوردونها الفضة والحديد والقصدير والرصاص من اسبانية ، والعبيد والآنية النحاسية من ايونية والكتان من مصر ، والخرفان والماعز من الجزيرة العربية . ويستنتج من وصفه هذا انه لم يكن لقوافلهم من حدود في ذلك الزمن البعيد .

السفر بحراً حول القارة الافريقية

كانت ذروة المآتي التي قام بها الفينيقيون في أسفارهم البحرية سفرهم بحراً حول القارة الافريقية اي انهم سبقوا الملاحين البرتغاليين ، الذين يفخرون بانهم كانوا اول من سافر حول القارة السوداء ، بمدة الف سنة . وقد كان نحو فرعون

مصر هو الذي أوعز الى الملاحين الفينيقيين القيام بهذه السفرة المحيطة . ذلك لانه كان قد اعاد فتح الترعة القديمة التي تصل الفرع الشرقي من النيل برأس البحر الاحمر . ولقد سلك الملاحون الفينيقيون هذه الطريق البحرية وجاؤوا الى المحيط الجنوبي ، وعند اقتراب فصل الخريف - وكانت مؤونة الطعام قد نفذت - نزلوا الى احد الشواطئ وأقاموا زمناً هناك لبذر القمح واستغلاله ثم تابعوا سفرهم . وفي السنة الثالثة لسفرتهم هذه وصلوا الى أعمدة هرقل (وهي الرؤوس البرية المرتفعة مقابل صخرة جبل طارق) ومنها شرقاً الى مصر . يقول هيرودوتس : « يقول الملاحون الفينيقيون ، ان في سفرهم حول ليبيا (أي افريقية) كانت الشمس الى يمينهم . وقد يصدق بعض الناس زعمهم هذا ، اما انا فأنكره »^(١) . وقول هيرودوتس ان قولهم « الشمس كانت الى يمينهم » هو الذي يجعله ان يشك في صحة الخبر كله ، ليثبت بالفعل صحة الزعم الفينيقي ، ذلك لان المراكب المتجهة غرباً من رأس الرجاء الصالح لا بد ان ترى شمس الجزء الجنوبي من الكرة الارضية الى يمين المسافر .

المستعمرات

كان الفينيقيون ، أنتى توجهوا ، ينون وينشئون . وبصفتهم جالية غير حربية ، فانهم لم يثروا الشك في نفوس الشعوب التي كانوا يتسربون اليها كتجار . ولم تكن تربط هؤلاء التجار الفينقيين عقيدة سياسية واحدة مما ساعدهم كثيراً ، وبدون اية تضحية عاطفية او عقائدية ، في تكييف حياتهم في اية بيئة اجتماعية جديدة . ولبنانيو اليوم يستطيعون ان يكييفوا حياتهم في بلدان الهجرة التي يقيمون فيها . وقد نجح الفينيقيون كستعمرين ومنظمين . نجاحاً لا يقل روعة عن نجاحهم كتجار وملاحين . فانهم كانوا يؤمّنون بلداناً عيش اهلها يتصف بالجمود ، وآفاق شعوبها آفاق ضيقة ، فكانوا يعيشون النشاط والحركة ، وكانوا يفتحون أمام أعين الناس آفاقاً جديدة بعيدة . كانت جماعة التجار الفينقيين الواحدة تلو الاخرى تشكل مع الايام جالية كبيرة ، والجالية الى جانب الجالية كانت تشكل مع الزمن

مستعمرة . وكانت مراكبهم تمخر عباب المتوسط فتربط بين المستعمرة والاخرى وبين المستعمرات وبين الوطن الام . ولم تمض برهة من الدهر حتى اصبحت مستعمراتهم منتشرة من دلتا مصر الى شواطئ كيليكية الى بلاد الاغريق والى بلدان اخرى حول المتوسط . وفي الواقع ان اسم البحر المتوسط يدل على انه كان بجزراً يتوسط المستعمرات الفينيقية .

كانت المستعمرات الفينيقية في قبرص ورودرس وكريت وفي اماكن اخرى من شرقي المتوسط اسبق عهداً من مستعمراتهم في مالطة وصقلية وسردينية واماكن اخرى من القسم الاوسط من المتوسط ، وهذه الاخيرة . بدورها كانت اسبق في الزمن من تأسيسهم مستعمراتهم في شمال غرب افريقية وفي شبه جزيرة ايبيرية (اسبانية والبرتغال) . ان الجاليات الفينيقية في الجزر الوسطى من البحر المتوسط (صقلية وسردينية وخلافهما) يعود تاريخ تأسيسها الى منتصف القرن الحادي عشر ق . م . ان لم يكن قبله . فان مدينة قادس في اسبانية ومدينة يوتيكا في تونس تأسستا حوالي ١٠٠٠ ق . م . ، ويجب اعتبارهما من أقدم المستعمرات الفينيقية في هذه المنطقة . واسم قادس مشتق من لفظ فينيقي (او سامي) ومعناه جدار ، حائط . فيكون معنى الاسم « المدينة المسورة أو ذات الجدران »^(١) . ولفظ يوتيكا تحريف للفظ سامي ايضاً معناه عتيق وقديم (من جذر عتق) . ولم يُعثر في سردينية او في قبرص على نقوش يعود تاريخها الى ما قبل القرن التاسع ق . م . أما بعل لبنان فقد وجد نقش تقدمه له في قبرص يعود تاريخه الى منتصف القرن الثامن^(٢) . أما زمن تأسيس قرطاجنة ، ابنة صور الذائعة الصيت واهم مستعمرة فينيقية على الاطلاق ، فيعود الى سنة ٨١٤ ق . م . واسمها يعني المدينة الحديثة مقابلة لها بمدينة يوتيكا التي تعني . كما ذكرنا آنفاً . المدينة العتيقة^(٣) فتكون مدينة قرطاجنة احدث عهداً من جاراتها هبوا الى الغرب التي

١ — احتفلت هذه المدينة ١٩٥٥ بذكرى تأسيسها كستعمرة لآلاف الثالث . وتزعم هذه المدينة انها اقدم مستوطن في الغرب .

٢ — G. A. Cooke, *A Text-Book of North Semitic Inscriptions*, — (Oxford, 1903). p. 52 .

٣ — اصل الاسم « قرت حدشت » اي القرية الحديثة .

كانت مقراً للملوك والامراء (ولذا كانت تُلقَّب بالمدينة الملوكية) . أما لفظ « هبو » فيجب ان يكون من اصل بربري لبي . تقول لنا الاسطورة ان اسم ليبيا ، الذي كان يطلقه الاغريق اولا على شمالي افريقية ثم على القارة باجمعها ، كان اسماً لزوجة الاله بوسيدون ، إله البحر وهي ام اجينور ملك فينيقية .

بلغ تأسيس المستعمرات الفينيقية الذروة في النشاط بين منتصف القرن العاشر واواسط الثامن قبل المسيح . ولم يكن تأسيس المستعمرات ليبلغ هذا المبلغ من النجاح لو لم يكن هنالك هجرات سامية الى شمالي افريقية سبقت التوسع التجاري الفينيقي مما مهد السبيل لآخوانهم فيما بعد . وقد تكون تلك الهجرات السامية القديمة السابقة جزءاً يسيراً من الهجرة السامية التي حدثت في الالف الرابع ق.م . وحملت جزءاً من المهاجرين الى مصر فالى شمالي افريقية . وقد حفظت لنا الاساطير الكلاسيكية والروايات العربية شيئاً من ذكريات غامضة عن توطن الساميين في تلك المنطقة (١) .

بعد ان اسس الفينيقيون مستعمرتهم قادس ما وراء اعمدة هرقل (جبل طارق) وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امام المحيط الاطلسي . ولا نستطيع الجزم في مدى توغلهم في بحر الظلمات ، وهو الاسم الذي اطلقه العرب فيما بعد على هذا المحيط . والزعم القائل انهم بلغوا كورنوال في انكلترا يحتاج الى اثبات تاريخي ، لان المصادر القديمة لا تذكر شيئاً من هذا القبيل . فان هيرودوتس (٢) ينفي الزعم القائل بانهم كانوا يعرفون جزر القصدير « من حيث يردنا القصدير » (٣) . ان هذه العبارة في هيرودوتس تشير الى جزر صغيرة لا تبعد كثيراً عن الشاطئ مقابل كورنوال في انكلترا واسمها جزر سلي (Scilly) . وحوالي سنة ٧ قبل الميلاد كتب الجغرافي

١ — Procopius of Caesarea, *History of the Wars* , Bk . IV, ch. 10 . secs. 13 - 20 .

الادريدي ، صفة المغرب (طبعة ليدن ١٨٦٤) ص ٥٧ . ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ١٢٨٤) الجزء السادس ص ٩٣-٩٤

٢ — Bk . III , ch . 115

٣ — اللفظة المستعملة في هيرودوتس هي Cassiterides من Kassiteros ومعناها قصدير ، ومنها اللفظ العربي « قصدير » ويظهر ان الكلمة شرقية الاصل ولكن ليس حتماً من اصل فينيقي .

سترابو يقول :^(١) بأنه في هذه الجزر ، « جزر القصدير » (Cassiterides) ، يوجد معدنا التنك والرصاص ، وان اهالي هذه الجزر كانوا يقايضون بها للحصول على الخزف والملح والآنية النحاسية . ويتابع قوله بان الفينيقيين وحدهم في الزمن القديم كانوا يقومون بهذه السفرات التجارية من قادس الى هذه الجزر . غير انهم (الفينيقيين) لم يطلعوا احداً على مسالك هذه الطريق البحرية . ويذكر لنا سترابو ايضاً رواية لمريفة عن مركب روماني حاول ان يتبع مركباً فينيقياً مقلعاً الى جزر القصدير حتى يكتشف مصادر هذا المعدن . غير ان ربان المركب الفينيقي شعر به ولكي يخفي امر الجزر هذه فانه ادار مركبه نحو شاطئ صخري مغمور بالمياه فتحطم مركبه . غير ان حكومته عوتضت عليه حسب رواية سترابو . وقد يكون في هذا اشارة الى ان الفينيقيين حرصوا على ان تظل هذه التجارة احتكاراً خاصاً بهم وعلى ان الدولة كانت تضمن الحفاظ على هذا الاحتكار . ويقول لنا مؤرخ آخر ، ديودورس سيقولس^(٢) ، الذي كتب كتاباته بعد سترابو بحمس وسبعين سنة ، بأن التنك كان ينقل من بريطانيا الى الشاطئ المقابل في فرنسه ، بلادالغال ، ومن هناك برأ الى مدينة مسيليا (هي مرسيليا الحالية) التي كانت مستعمرة اغريقية انشئت هناك في اعقاب مستعمرة فينيقية . وقد وجد في بريطانيا نقش واحد فقط فينيقي ، والاغلب انه قرطجني ، ويعود تاريخه الى القرن الاول لفتح الرومان جزر بريطانيا . ويبدو ان القرطجنيين أموا جزر الازور بمراكبهم ، بذلك على ذلك العثور هناك على كثرة من النقود الاغريقية والرومانية مع العلم انه لا مؤرخي الاغريق ولا الرومان ذكروا لنا شيئاً ينسب عن معرفتهم بهذه الجزر . ومهما قيل في هذا الامر فان الحقيقة البارزة هي ان اكتشاف الفينيقيين بحر الظلمات مفخرة وعمل مجيد يتوج مآتيهم في حقل الحضارة العالمية^(٣).

Bk. III ch. 5, sect. II .

— ١

Bk . V , ch . 38 , sec . 4

— ٢

Arnold J . Townbee . *A Study of History* , vol . II

— ٣

(Oxford . 1934) , pp. 50, 52, 386 .

في شبه جزيرة ايبيريا

أما في شبه جزيرة ايبيرية (اسبانية والبرتغال) فان الفينيقيين استقروا في ترشيش (Tartessus) ، وعلى الاخص في المنطقة الواقعة بين قرطجنة^(١) وقادس . وجميع اسماء هذه المستعمرات تُردُّ الى الفاظ سامية . فان ترشيش الوارد ذكرها في التوراة وفي النقوش الاشورية ، قد تعني « مكان للتعدين »^(٢) . ومدينة طرسوس الكيليكية التي تفخر بكونها مولد بولس الرسول ، كانت ايضاً مستعمرة فينيقية . والاسمان ، طرسوس وترشيش ، واحد في اشتقاقهما . وقرطجنة الاسبانية سميت باسم قرطجنة الام التي في شمالي افريقية في تونس ، واسم المدينة الاسبانية المعروفة بـ « ملغا » (Malaga) سامي الاصل ومعناه معمل ، مكان للشغل^(٣) . وقد يكون انها سميت « بمعمل » لانها كانت مكاناً لتمليح السمك وحفظه^(٤) . ولم ينس الفينيقيون قرطبة ولا هم الذين اسسوها ، بل انهم استولوا عليها عنوة . وقد وجد على النقود القديمة التي عثر عليها هناك كتابات بالحرف الفينيقي الذي استبدل فيما بعد بحرف قريب ومشابه له ، يعرف بالحرف القرطجني (Punic) . ومن هذه المدن التي كانت مستوطناً لجاليات فينيقية مثل قرطبة وغيرها من المدن في شبه جزيرة ايبيرية حشد هملقار برقة ، ابو هنيبل ، جيوشاً لمحاربة رومة . والجزء الثاني من اسم هملقار برقة ، من لفظ سامي مشترك معناه « البرق » ، ولا يستبعد ان يكون اسم « برشلونة » اصلاً برقلونا أي من الجذر ذاته : برق . وهكذا كانت هذه المستعمرات في شبه جزيرة ايبيرية موطناً ثانياً للحضارة اللبانية القديمة في الجزء الغربي من حوض المتوسط .

أما في جزر الباليار (Balearic) التي كان سكانها من العرق ذاته الذي ينتمي

١ - قرطجنة هذه اسم مدينة في اسبانية واسمها على اسم قرطجنة الفينيقية في شمالي تونس .

٢ - قابل جذر رش في العربية . قابل ايضاً :

Albert Dietrich, *Phönizische Ortsnamen in Spanien* (Leipzig, 1936), p. 32. راجع ايضاً فريجة ، اسماء المدن ، ص ٧٩ .

٣ - من كلمة فينيقية ، وعبرية ايضاً ، Melakha = مكان للعمل .

Strabo, Bk. III, ch. 4, sec. 4 .

اليه سكان شبه جزيرة اييرية ، فقد كان للفينيقيين نقاط ارتكاز تجارية ، ولكنهم لم يحتلوا البلاد ولم يستولوا عليها . وقد يكون اسم عاصمة الجزيرة مينورقة ، ماهون ، من اصل سامي ، لانه في شكله الاول يظهر انه كان ماجو (Mago) تحريف للفظ سامي معناه المحجن والترس^(١) . وقد كان هذا الاسم ماجواسم قائد عسكري من قرطجنة . وكذلك كان للفينيقيين مراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا . ومدينة بلرمو تقوم اليوم على موقع كان في السابق موقعاً فينيقياً .

واسم مالطة سامي من جذر « ملط » ومعناه حارب وتفسير هذا الاسم اصبح مقبولا عند جماعة المؤرخين . ولا عجب ان تسمى الجزيرة بالملجأ او بمكان للهرب لان في الجزيرة ميناء يعد من افضل موانئ المتوسط . وقد ذكر المؤرخ ذيودورس^(٢) ان سكان جزيرة مالطة كانوا من الفينيقيين ومما يؤيد هذا الزعم ان اللغة المالطية قد احتفظت الى يومنا هذا بكثير من المفردات الفينيقية التي طرأ عليها شيء من التحريف والتغير بدخول العربية الى الجزيرة من شمالي افريقية .

الفينيقيون في بلاد الاغريق

تدل اسماء المدن والقرى في بلاد الاغريق على مدى اتساع التجارة الفينيقية في تلك الربوع ، وعلى النشاط الذي ابدوه في تأسيس نقاط ارتكاز لهم . فان اسم مدينة كورنثوس ، حسب الاسطورة الاغريقية ، يقرن باسم اله فينيقي : ملقارت^(٣) ، الذي عرفه الاغريق فيما بعد بالاله هرقل . والاسطورة الاغريقية التي تدور حول المصائب والنوازل الاثني عشرة التي كانت تنزل بالبطل الاغريقي ليست سوى صدى للاسطورة الفينيقية التي تصور الاله الفينيقي ينازل اثني عشر حيواناً برياً هي حيوانات منطقة البروج في القلک . ومن اثر الفينيقيين في بلاد

١ - في الفينيقية magen اي محجن . وليس بمستبعد ان تكون لفظة مايونز mayonnaise تحريف للفظه mago وقد دخلت اللغات الاوروبية عن طريق الفرنسية .

٢ - Bk . V, ch. 12 ; secs . 2 - 4 .

٣ - معنى اسم ملقارت ملك القرية (اي المدينة) .

الاغريق اسطورة قدموس^(١) الصوري الذي يعزى اليه شرف ادخال حروف الهجاء الى بلاد الاغريق وبناء مدينة طيبة التي كانت قلعتها العالية المحصنة تعرف باسم « قديميا » . وكذلك تقول لنا الاسطورة انه كان في تراقية ، الجزء الشمالي من بلاد الاغريق ، معادن كان قدموس يعدها . وفي القرن السابع قبل الميلاد ، اي بعد هذه الاسطورة بزمان ، كان المغدون الفينيقيون يفتشون في هذه المنطقة عن مناجم للذهب . وتتابع الاسطورة الخبر فتقول لنا ان مقاطعة البريه ، اي البلاد المعروفة الآن بالبنانية ، انما سميت باسم ابن قدموس الصوري ، اليربوس . وقدموس هذا كان قد بعث به ابوه ليفتش عن اخت له خطفها اله اغريقي تسمى « عُرْبَا » . وهذا الاسم « عُرْبَا » الذي يعني الغرب — اطلق فيما بعد على القارة باجمعها : اوروبة . وهكذا نجد ان الاغريق يعزون كثيراً من الحوادث ومن تاريخهم الاسطوري الى الفينيقيين .

ومن جملة الجزر التي وقعت ضمن دائره النفوذ الفينيقي جزيرتا ساموس وكريت . فقد كان لهما مركز مرموق عند المستعمرين الفينيقيين . وقد فُسِّرَ اسما الجزيرتين على انهما من اصل سامي ، ولكن الامر موضع ريبه^(٢) . وقد سبقت جزيرة كريت القارة الاوروبية في كونها مركزاً حضارياً هاماً . تقول الاسطورة ان الاله زفس — الذي استحال الى ثور — اختطف « عربا » ابنة الملك الفينيقي اغنور Agenor^(٣) الجميلة من مرج قريب من الشاطئ وحملها — الى جزيرة كريت . وكان هذا الاله الاغريقي قد وقع في غرام هذه الفتاة اللبنانية . وعندما استقر به المقام في كريت عاد الى شكله الانساني مرة اخرى وتزوجها . وقد رزق منها ابناً هو الملك مينوس ، الملك الكريتي المنتشرع الشهير الذي وصلت الجزيرة في عهده ملكه الذروة في الرقي والعمران .

١ — من جذر سامي . في الفينيقية والعبرية « قدم » تعني الشرق فيكون معنى قدموس الشرقي او القادم من الشرق .

٢ — ساموس من « شمش » اي الشمس — راجع H . R . Hall , *The Ancient History of the Near East* , 8th ed . (New York , 1935) , p. 523 . اما كريت فن جذر « كرت » ومعناه قطع . راجع Autran , *Phéniciens* , p. 5 .

٣ — « Phoenix » in *Iliad* XIV , 321 .

كانت المراكب الفينيقية في عهد هوميروس - كما يظهر من شعره - تؤم الموانئ الاغريقية محملة بالاطياب اللبنانية : الورد والتمر والتين والرمسان والمر والخوخ واللوز. وقد نقل اللبنانيون هذه النباتات الى جميع بلدان حوض المتوسط^(١). فانهم ادخلوا زراعة الزيتون - وشجرة الزيتون شجرة اصيلة في الشرق الادنى - الى بلاد الاغريق وايطالية وشمال افريقية وشبه جزيرة ايبيرية . وبدخول هذه الشجرة الى هذه البلدان دخلت ايضاً صناعة استخراج الزيت وحفظ الزيتون - واسم الزيت والزيتون لا يزال على شكله السامي في كثير من اللغات الاوروبية . وهذه المراكب الفينيقية ذاتها التي كانت تنقل الى الغرب نتاج الشرق كانت تعود فتدخل الى الشرق الادنى بعض النباتات الغربية من بلاد الاغريق مثل الغار والدفلة والسوسن واللبلاب والنعنec والرجس التي لا يزال بعض اسمائها في اللغات السامية محتفظاً بالشكل الاغريقي . وقد كانت تجارة الافاويه الراجحة حكراً على الفينيقيين . وقد احاطوا المسالك البحرية التي كانت تسلكها مراكبهم بسياج من الكتان التام ، واسرفوا في نشر الاخبار عن المخاطر والمخاوف التي كانوا يلقونها في البلدان التي تنتج البهارات والافاويه والبحور ونقله الى سائر البلدان . فقد كان الناس في عهد الاغريق يعتقدون ان سورية كانت بلد المر والبلسم ولم يدرك الناس ان البلد الذي ينتج المر هو جنوب بلاد العرب ، وان القوافل التي كانت تنقله الى حوض المتوسط كانت القوافل السبائية الا بعد ان افتتح الاسكندر المقدوني سورية.

قرطجنة

كانت مدينة قرطجنة ، وهي احدث المستعمرات عهداً في شمالي افريقية ، انشط المدن الفينيقية واكثرها ازدهاراً وعمراناً. تقول لنا الاساطير ان زمن تأسيسها يعود الى سنة ٨١٤ ق.م ، وان مؤسسها كانت ديدو (او اليسا) اخت بيغمليون ملك صور والتي اصبحت فيما بعد إلهة المدينة الحارسة أو الشفيعه . وكانت

١ - Albert G. Keller, *Homeric Society*, (New York, 1902),

pp. 20,43 - 4 .

اما لفظة « مر » فاصلها سومري . وقد دخلت اللغات السامية ، وعنها اخذ الاوروبيون اللفظة ذاتها بواسطة اليونانية .

قرطجنة مركزاً فينيقياً تنبعث منه مختلف التيارات الحضارية في غربي حوض المتوسط . وقد نمت تجارتها واتسعت في القرن الثامن بحيث انها اصبحت المنافسة القوية لمدن البلاد الام التي كانت في هذه الحقبة من التاريخ قد شارفت على الافول . ان ازدهار صيدا وصور وغيرهما من فينيقية وعظمتها ووفرة غناها كانت تعتمد الى حد كبير على مستعمراتها المنتشرة حول البحر المتوسط . وقد ظلت هذه المستعمرات ، من حيث المبدأ تابعة للمدن الام ، فكانت ترسل اليها نوعاً من الجباية أو الجزية . ومن هنا كانت العلاقة بين المدن الفينيقية الام ومستعمراتها تختلف عن علاقة بلاد اليونان بمستعمراتها . ومما عجل في زوال سيادة صور وعظمتها في القرن الثامن واولئل القرن السابع ق . م . قيام المستعمرات اليونانية المنافسة لها . وفي الوقت ذاته ظهرت اشور في الشرق كدولة قوية اجتاحت سورية ولبنان واخضعتهما لسيادتها . فانتقل مركز الثقل الى قرطجنة التي كان عليها الآن ان تحافظ على المستعمرات وتحميها من الاعداء . فانها كانت بفضل موقعها الجغرافي في مركز ممتاز للقيام بدور القيادة الرشيدة والتنظيم الفعال . ولكن رغم هذا فان صور لم تتخل كلياً عن سيادتها ومركزها . فان النقود التي كانت تصكها صور ، حتى في القرن الثاني قبل الميلاد بعد ان كانت قد فقدت مركزها السياسي والتجاري ، تحمل عليها كتابة تقول « صور ام قرطجنة » ، اشارة الى الاسطورة التي ذكرناها آنفاً من ان صور اسست قرطجنة .

وقد برهن ابناء قرطجنة على انهم جديرون بان يفخروا بنسبهم الى الصوريانيين وبانهم كانوا خير سلف لخير خلف . يدل ذلك على ذكره هيرودوتس عن دهاثهم في التجارة وابتكارهم مختلف الوسائل للمقايضة . يقول هيرودوتس^(١) ان الملاحين الفينيقيين كانوا يبحرون الى شاطئ افريقية الغربي ، وعند الشاطئ كانوا ينزلون البضائع والسلع ويشعلون النار اشعاراً بوصولهم ثم ينسحبون الى مراكزهم . فكان العبيد الافريقيون عند رؤيتهم النار على الشاطئ يتقدمون وبايديهم الذهب فيتركونه على الشاطئ كثرمن ثم يتراجعون قليلاً ليروا اذا كان الثمن مرضياً عند التجار الفينيقيين . فينزل الملاحون الى الشاطئ ثانية ، واذا وجدوا ان كمية الذهب ترضيهم حملوها وقفلوا راجعين ، واذا كانت الكمية اقل مما كانوا ينتظرونه

فانهم يعودون ثانية الى مراكبهم ويترقبون عودة العبيد ليزيدوا من كمية الذهب .
بهذه الطريقة من المساومة الصامتة يقول لنا هيرودوتس ، كان الثريقان يتفقان
على البيع والشراء - كما اخبرني الرواة ، « دون ان يغش الواحد الآخر » .

وهكذا اتسعت تجارة قرطجنة وقويت سيادتها السياسية حتى انها اصبحت في
القرن السادس قبل الميلاد على رأس امبراطورية ضخمة متسعة الارحاء تمتد شرقاً
من حدود قيريني (ليبيا الآن) الى اعمدة هرقل (جبل طارق) وتشمل فيما تشمل
جزر الباليار ومالطة وسردينية ومستعمرات اخرى منتشرة على شواطئ اسبانية
وفرنسية . أما المدن الام مثل صيدا وصور ، فانها لم تستطع ان تأنس لـ نفسها
امبراطوريات مماثلة لامبراطورية قرطجنة . وأننى لها ذلك وسيوف مصر واشور
مُصلَّتة فوقها ، وشبح الاجتياح يهددها مرة بعد مرة ؟ ولكن اتساع الرقعة
الجغرافية التي كانت تسودها قرطجنة ، كان ولا بد ان يضعها وجهاً الى وجه
امام قوة جديدة ناشئة في اواسط حوض المتوسط : رومة . وكان لا بد لـ هاتين
القوتين من ان تصطدما حول قضية رئيسية ، هي السيادة البحرية . ذلك لان
اساطيل قرطجنة كانت تعتبر المتوسط بحيرة خاصة بها ، فكانت تقول للرومان
انه لا يحق لهم ان يغسلوا ايديهم بمياهه دون الحصول على اذن من قرطجنة !! وقد
بلغ الصراع بين هاتين القوتين للسيطرة على المتوسط ذروته عندما اقدم حنبعل^(١)
عام ٢١٨ ق . م . على مهاجمة الرومان في عقر دارهم . كان هذا حلماً يدغدغ خياله
ردحاً من الزمن ، وقد وقف حياته لتحقيقه . فسير جيشه نحو ايطالية بطريق
اسبانية فـجبال الالب ، لينقض على رومة من الشمال . وقد ظل على الارض
الايطالية مدة ١٥ سنة يشن على الرومان حرباً شعواء لم تسلم منها رومة ذاتها .
غير ان نهاية حنبعل كانت قد قربت . فان قرطجنة استدعته ليدود عنها غائلة
الحرب . فعاد لمقابلة جيوش الرومان . ولكنه غلب على امره في موقعة زاما
المشهورة ، جنوبي غربي قرطجنة . وفي عام ١٩٦ هرب الى صور . ومن هناك
التحق بانطيوخس السلوقي ملك سورية ليكون له عوناً في حربه ضد رومة عدوة
قرطجنة اللدودة . ولكن النجاح لم يكن حليفه . وعندما سدت في وجهه منافذ
الهرب فضل الانتحار . كان ذلك عام ١٨٣ في آسية الصغرى . وآخر كلمات

١ - ومعنى اسمه نعمة او بركة من البعل (من الحنان) .

نفوه بها هذا العسكري الشهيد كانت « ان موتي سيوفر على الرومان مؤونة انتظار مينة رجل طاعن في السن كانوا يكرهونه » .

ولم يكن نصيب مدينة قرطجنة بأوفر حظاً من نصيبه في الحياة . نعم ، انها استعادت فوراً قوتها بعد الهزيمة ونعمت بشيء من الوفرة والازدهار . ولكن هذه الحيوية ذاتها التي ابدتها قرطجنة تركت في نفس القائد الروماني كاتو ، وفي نفوس غيره من قادة الرومان ، انطباعاً شديداً ، جعل شعارهم : « يجب ان تزول قرطجنة من الوجود » . وقد أزالها الرومان من الوجود فعلاً . ففي سنة ١٤٦ ق م . احرقها الرومان وظلت النار مشتعلة فيها مدة ١٧ يوماً حتى ان معالم موقعها الجغرافي طمر بركام من الرماد والحرائب ، واعمل المحراث فيه كأنه حقل يملح ، ولعنوا الارض التي كانت تقوم عليها المدينة . ونحن اذا حاولنا اصدار حكم على الرومان ، حتى وان كان حكماً يقوم على عرف تلك العصور ومقاييسها ، فاننا لا ننالك عن القول بان قسوة الرومان تلك لم تكن لتشرف اسمهم .

الفصل الثامن

الادب والدين ونواح حضارية اخرى

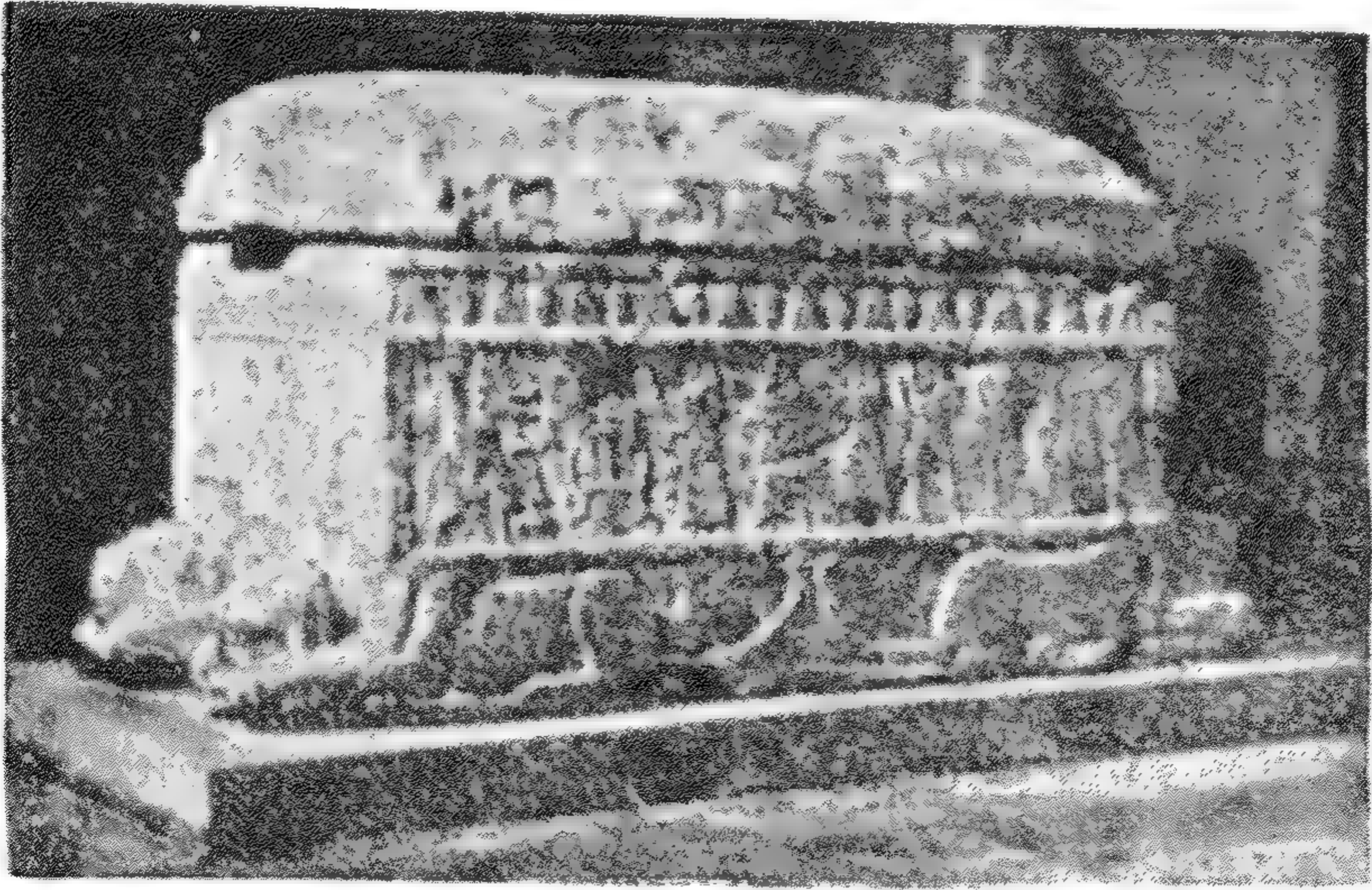
كان الفينيقي في حقل التجارة والصناعة وسيطا ، اي انه كان يقتبس ويتعلم ويتبنى ما حققه غيره ، ثم انه بفضل موقعه الجغرافي وبفضل اقدمه وجرأته كان يعنى بنقل هذه البضائع والسلع للمقايضة بها في بلدان حوض المتوسط . كما انه كان وسيطا في عالم التجارة والصناعة فانه كان ايضا وسيطا في حقل الفكر والفن والدين . فان مراكبه وقوافله البرية التي كانت تنقل البضائع والسلع كانت تنقل معها ايضا امورا غير مادية ، امورا غير ملموسة ، ولكنها كانت في جوهرها اهم بكثير من البضائع المادية لرقى الانسان وتقدمه . هذه الامور غير المادية التي كان الفينيقي ينقلها انتى توجه كانت عناصر حضارية متنوعة . فان الاغريق مثلا اصبحوا تلامذة للفينيقيين في الفلاحة والاستعمار ، واقتبسوا عنهم الكثير في حقل الادب والدين والفن . ولم يقتصر نشاط اللبناني على نشر الحضارة التي نشأت على الساحل اللبناني بل انه جعل من البحر الابيض المتوسط مركز اشعاع حضاري تنبعث منه تيارات فكرية وروحية من وادي النيل ووادي الرافدين .

حرف الهجاء

لا شك بان اعظم نعمة اسبغها الفينيقيون على الحضارة الانسانية كانت اكتشاف الحرف . كان الفينيقيون اول شعب استعمل حروفا هجائية صرفة في الكتابة^(١) . وكانوا الى جانب هذا ناقلي هذا الحرف وناشريه في العالم المتمدن آنذاك . قد يكون ان فكرة الكتابة الهجائية (مقابلة لها بالكتابة الصورية او المقطعية) انتهم من المصريين

١ - سبقت الفينيقيين شعوب اخرى في وضع نظام للكتابة كالخط المساري والهيريوغليفي ولكنهم كانوا اول من جرد الصور التي كانت تستعمل لكتابة الكلمة او المقطع واستعاضوا عن هذا النظام بوضع رموز ، كل رمز منها يمثل وحدة صوتية (فونيم) . المترجم

عن طريق سيناء. ذلك ان الكتابة المصرية كانت في اصلها كتابة صورية، ثم انهم على مر الزمن استعملوا اربعين صورة من صور الكتابة عندهم كرموز لقيم صوتية او كوحدات هجائية. ولكن المصري كان محافظاً. فانه لم يخط الخطوة التالية في جعل هذه الرموز حروف هجاء دون اللجوء الى صور اخرى في كتابة الكلمة، بل ان كتابته ظلت مزيجاً مزعجاً من صور ورموز وحروف هجاء، مما يجعل القراءة امراً صعباً. ويظهر انه في اواخر القرن السابع عشر او عند مستهل القرن السادس عشر لحظ بعض الاسرى الكنعانيين - او ربما بعض العمال في التعدين - في شبه جزيرة سيناء ان كتابة اسيادهم المصريين كتابة صعبة معقدة. لم يستطيعوا تعلمها او انتقان كتابتها فعمدوا الى اتخاذ الرموز التي تمثل حروفاً صحيحة كاساس في تهجئة الكلمة. وقد سموا هذه الرموز باسماء سامية واعطوها قيمة صوتية تلائم الاصوات اللغوية في لسانهم. فانهم، مثلاً، اتخذوا الرمز الذي يشير الى رأس الثور وسموه باسم في لسانهم: « الف » بقطع النظر عن اسمه في اللسان المصري، واصبحت كلمة « الف » (صورة رأس الثور) حسب مبدأ الاكروفونيا^(١) تمثل



ناووس احيرام، وهو الآن في المتحف الوطني في بيروت

١ - الاكروفونيا كلمة يونانية تعني الصوت اللغوي في اول الكلمة. ووضع حروف المعاء. تم على هذا المبدأ. فان صورة « كاب » مثلاً لا تمثل كلباً بل الصوت اللغوي او الفونيم الاول في الكلمة، وصورة هرة لا تمثل الهرة بل الوحدة الصوتية « ه ». (المترجم)

الوحدة الصوتية التي تبدأ بها الكلمة أي « همزة » محققة وملينة . ومبدأ الاكروفانيا هذا لا يزال شائعاً في كثير من المدارس والكتب لتعليم حروف الهجاء . فيقال للطفل ب : بطة ، د : دجاجة الخ . وعلى هذا الاساس وُضِعَ الهجاء الفينيقي . فانهم جعلوا صورة البيت ، وهو في الفينيقية (beth) رمزاً للوحدة الصوتية اللغوية « ب » وسموا الحرف « بث » . وصورة اليد اصبحت رمزاً يمثل حرف الباء ، وسموا الحرف « يود » وهو اليد في لغتنا . والرمز الذي كان يشير الى الماء وهو في لغتهم mem اصبحت رمزاً يشير للوحدة الصوتية اللغوية الممثلة بحرف الميم ، وسموا الحرف ايضاً mem ، والرأس ، وهو في لغتهم resh اصبحت رمزاً لحرف الراء .^(١) ويظهر ان الفينيقيين الذين كان لهم صلات تجارية مع شبه جزيرة سيناء تعلموا هذه الحروف وتبنوها و اضافوا اليها حروفاً أخرى ، وفي جملتها اصبحت حروف الهجاء الفينيقية المشهورة ، وعددها ٢٢ حرفاً ، وجميعها حروف صحيحة .

وهناك هجاء آخر ينسب الى جيبيل ، وهو خطي "مستقيم" ، يتألف من ٢٢ حرفاً صحيحاً ويكتب من اليمين الى الشمال . والظاهر ان الكتابة التي تسير من اليمين الى الشمال بدأت اولاً بالحفر في الصخر . فان القابض على ازميله بشماله والمطرقة في يمينه يستسهل امر الحفر من اليمين الى الشمال . اما الكتابة التي تسير من الشمال الى اليمين فانها تشير الى الكتابة التي يستعمل فيها الكاتب القلم والخبر والورق . وقد كان لاوغاريت نظام كتابة يختلف عن الحرف المينيقي والهجاء الجيبيلي . وهو نظام كتابة يقوم على الخط المساري الذي كان شائعاً عندهم . وكانوا يكتبونه بقلم يُغرز في الواح من الطين الطري ثم يشوى . كما كان يفعل اهل بابل واشور^(٢) . والنقوش التي وجدت في اوغاريت عام ١٩٢٩ وما بعده ، والمكتوبة على آجرات ، جميعها خُطَّت بهذا النوع من الكتابة . ويعود تاريخها الى

١ — Cf. David Diringer, *The Alphabet* (New York, 1948), p. 200 ;

Robert H. Pfeiffer, *Ancient Alphabets*, (Cambridge, Mass., 1947), pls. X, XI .

٢ — Johannes Friedrich in *Der alte Orient*, vol. XXXIII

(1933) Nos. 1 - 2, pp. 18 - 34; Zellig Harris, *A Grammar of the Phoenician Language* (New Haven, 1936), pp. 11 - 17 .

اوائل القرن الرابع عشر ، وبعضها الى عهود اقدم من هذا التاريخ . وقد عثر عام ١٩٤٩ في رأس الشمر على آجرة صغيرة كتب عليها الالفباء بكامل حروفها الاثنى والعشرين ، مرتبة على ترتيب حروف الهجاء كما هي عند الآراميين والعبران ، أي ترتيب ابجد هو ز حطي ... الخ . أما ترتيب حروف الهجاء العربية فقد طرأ عليه تعديل يجعله يختلف عن ترتيب حروف الهجاء التي اقتبس عنها . وفضلاً عن هذا ، فإن العرب اضافوا الروادف وهي ث خ ذ ض ظ غ . وقد كان للكنعانيين انواع اخرى من الكتابة المعقدة الى جانب النظامين اللذين وضعوهما . وأخيراً استقروا على واحد منها : الحروف الفينيقية المعروفة . نشير بذلك الى الكتابة المقطعية التي وضعت على مثال الكتابة الهيروغليفية المصرية اي المؤلفة من رموز او صور يشير الرمز فيها الى مقطع لا الى هجاء واحد . وقد وجدت نقوش في جبيل عام ١٩٣٠ مكتوبة بهذا النظام^(١) - وجميعها على حجارة أو على نحاس ، وهي من اقدم النماذج اللغوية للسان الكنعاني (حوالي ١٣٧٥) . وقد استعير عن هذا النظام المقطعي بالكتابة البابلية المسمارية فيما بعد ، وهي الكتابة التي خطت بها رسائل تل العمارنة المشهورة . وفي اثناء الالف الثاني ق . م . ظهرت في فلسطين محاولات عدة للكتابة هجائياً . ولكن في الالف الاخيرة قبل المسيح اختلفت جميع هذه الانظمة الكتابية وتوسى امرها . وبقيت الحروف الهجائية الفينيقية وحدها في الميدان لا ينازعها في مكانتها منازع . ان اقدم نقش فينيقي تام سهل الفهم مكتوب بالهجاء الكنعاني نقش " يتألف من خمسة اسطر محفورة على حجر . كلسي عثر عليه المستشرق الافرنسي دينان في قلعة جبيل القديمة . وفي هذا النقش اشارة الى بناء سور اقامه شافاط - بعل بن ايلي - بعل ابن يهي - ملك^(٢) . وهؤلاء جميعاً كانوا من ملوك جبيل . وارجاع تاريخ هذا النقش الى القرن السابع عشر في نظرنا تقدير عال ، اي اننا نعتقد انه يعود الى زمن اقرب الينا من الزمن الذي حدده دينان . ولا شك في ان الحروف الهجائية التي كتب بها هذا النقش القديم تبدو باشكال تدل على انها اقدم عهداً من الحروف التي خط بها نقش الملك احيرام

١ - Maurice Dunand , *Byblia Grammata* (Beirut ; 1945), pp .

135 seq .

٢ - هنالك ملك جبيل آخر يعرف بهذا الاسم . وقد ترك لنا نقشاً بالحروف الفينيقية على نصب للفرعون اوزيركون ، حوالي ٩٠٠ ق . م . راجع Conteneau , p . 255

المشهور الذي عثر عليه المستشرق الافرنسي مونتة عام ١٩٢٣ في جبيل ، والذي يعود عهده الى القرن الحادي عشر قبل المسيح .

الادب

ان انواع الهجاء المختلفة التي اشرنا اليها آنفاً ، والتي كانت شائعة بين الناس في هذه المنطقة تدل دلالة واضحة على تعدد التيارات الحضارية من وادي الرافدين ومصر وفينيقية وتلاقحها وتشير الى ان تبادل الافكار العلمية والدينية بين هذه البلدان اصبح امراً ميسوراً . ولكن مما يؤسف له انه لم تصلنا نماذج كثيرة من هذا الادب . فان الفينيقيين كانوا يكتبون على مواد قابلة للتفتت والاضمحلال : على البردي . وفضلا عن هذا فان اكثر ما كان يكتبه المينيقيون كان من نوع المعاملات التجارية . ومن مهازل القدر ان يكون الشعب الذي وضع الحرف قد خلف لنا قليلا من الحرف . واكثر النقوش الفينيقية الطويلة تعود الى زمن متأخر : ما بين القرن الخامس والثاني ق.م . وفي فينيقية ذاتها لا نعث على اي نقش كتابي فينيقي بعد ظهور المسيحية . اما في المغرب فقد ظلت اللغة الفينيقية بشكلها القرطاجني حية حتى ظهور الاسلام . وقد كان العثور على نقوش مزدوجة اللغة في قبرص ومالطة ، اي نقوش مكتوبة باللغة الاغريقية والفينيقية جنبا الى جنب ، حافزاً قوياً جعل المستشرقين الافرنسيين في منتصف القرن الثامن عشر يبذلون قصارى جهدهم لحل رموز الحرف الفينيقي وقراءة النصوص . وقد كللت جهود المستشرقين بنشر مؤلف قام به المستشرق الالماني المعروف جاسينيوس (Gesenius) عام ١٨٣٧ ، وفيه قراءة وتفسير لجميع النقوش الفينيقية التي كانت معروفة في زمنه .

اوغاريت

ولكن من حظ التاريخ ان الكتعانيين ، رغم انهم لم يخلفوا ارثاً ادبياً عرف باسمهم ، فان جيرانهم ، ولا سيما العبرانيون ، اقتبسوا عنهم الكثير في حقل الادب وحفظوه لنا بشكل كتابات مقدسة . وهذا يصدق على بعض القطع الشعرية الغنائية في اسفار العهد القديم والاقوال الحكيمية كما نجدتها في سفر امثال سليمان والمزامير التي تعزى الى داود ، وفي نشيد الانشاد ، وفي الاساطير المقدسة المضمنة في سفر

التكوين والانبياء وهذه حقيقة لم يعرف عنها العالم شيئاً أكيداً الا بعد ان اكتشفت مدينة كنعانية اغفلها الزمن حقبة ، نعتي مدينة اوغاريت .

في عام ١٩٢٩ عثر فلاح سوري مصادفة على بلاطة اقتلعتها سكة محراثه بينما كان يحرق حقله في مكان يسمى رأس الشمرأ شمالي مدينة اللاذقية . هذه اللقمة كانت السبب في بدء حفريات في تل مشرف على البحر قامت بها دائرة الآثار في المفوضية الفرنسية تحت اشراف مستشرق افرنسي^(١). وقد اسفرت الحفريات في هذا التل عن وجود طبقات لمدن بنيت الواحدة على اركان الاخرى . كانت هذه مدينة اوغاريت^(٢) التي باكتشافها استعاد التاريخ جزءاً لا يستهان به من الادب الكنعاني الذي اغفله الزمن طويلاً . ويبدو من الآثار التي وجدت هناك ان اقدم مستوطن للانسان فيها يعود الى اواخر العصر الحجري الجديد . وفي اواخر الالف الثالث وجد الكنعانيون الى المدينة سيلاً فوطدوا اركانهم واقاموا لانفسهم مرتكزاً في ميناء المدينة الذي يعرف الآن بالميناء البيضاء . وقد وجد في المدينة هيكلان الواحد للاله بعل والثاني للاله داجون - الوارد ذكره في التوراة - وكلاهما يعودان في الزمن الى اوائل الالف الثاني قبل المسيح . وحوالي ١٤٠٠ ق . م . بلغت مدينة اوغاريت الذروة في الازدهار التجاري ، وذلك بسبب سيل من التجارة التي كانت تمر فيها ، وتنتقل من مينائها البحري الى مختلف الموانئ في البحر المتوسط . وكانت صلاتها الثقافية مع كريت وثيقة . وقد دامت هذه الصلات زمناً طويلاً . وكان ملكها في هذه الفترة *نقمد* (*نقمدآ* ومعناه *نقمة الاله هدد*) الذي جعل قواعد اعمدة قصره مطلية بالفضة الخالصة .

ولا جدال في ان اثنى ما اسفرت عنه الحفريات الواح خزفية او آجرات مكتوب عليها كتابة هجائية بالخط المسماري . وقد وجدت هذه الآجرات في منطقة الهيكل . ويظهر ان هذه الكتابات كانت قد نقلت في اوائل القرن الرابع عشر ق . م عن اصل اقدم من هذا العهد بكثير . واما اللغة التي كتبت بها فهي لهجة كنعانية .

١ — F. A, Schaeffer in *Syria*, vol. X (1929), pp. 285-97, Schaeffer, *Ugaritica*, pp. 3, seq .

٢ — اوغاريت لفظ دخيل من اللغة السومرية ومعناه « حقل » ورأس الشمرأ هو الاسم الحديث للتل وقد سمي بهذا الاسم ربما لكثرة نبتة الشمرأ التي تنبت هناك على انقاض المدينة القديمة .

وأما المحتويات فإن أكثرها يدور حول الأدب الديني والطقوس والفروض التعبدية .
 وأهم هذه الكتابات ملحمة شعرية تدور حول الصراع القائم بين إله الخصب
 والحضار ، عليان - بعل ، وخصمه اللدود « موت » أي إله الموت . في هذه
 الملحمة ينتصر إله الموت أولاً على خصمه عليان - بعل . وإن المرء ليدرك بيسر
 سر انتصار الموت على الحياة في بقعة من الأرض صيفها طويل محرق يقضي على
 النبت والحضار . ولكن النصر لا يحالف إله الموت طويلاً . إذ أنه عندما يحل
 فصل الأمطار في الخريف وينعش الأرض العطشى يعود البعل فينتصر على الموت .
 هذه في جوهرها قصة ادونيس وعشروت الفينيقية وقصة اوسيرس المصرية :
 قصة الصراع بين الموت والحياة .

في هذا الأدب الاوغاريتي صور متشابهات في اللغة والفكر تذكرنا إلى حد
 بعيد بسفر ايوب في العهد القديم . وكذلك نجد شبيهاً قوياً في المفردات وفي وزن
 الشعر والتأليف الأدبي بينها وبين المزامير . فإن الشعر الاوغاريتي يشبه الشعر
 العبري في كونه نوعاً من الشعر الذي يقوم على الازدواج التقابلي .

نعم ، إن اوغاريت لم تكن واقعة ضمن حدود فينيقية . إنما كانت ، هذه
 المدينة التجارية العظيمة واقعة ضمن منطقة الحضارة الفينيقية . فقد كانت يوماً من
 الأيام تابعة لمدينة بيروت كما يستدل من رسالة بعث بها ملك بيروت إلى ابنه
 حاكم اوغاريت^(١) . وقد خربت المدينة أولاً بالزلازل والحريق . كان ذلك حوالي
 ١٣٦٥ ق . م . وما إن أعيد بناؤها حتى هاجمتها شعوب من وراء البحر - وقد
 اشرنا إلى هذه الشعوب سابقاً - وخربتها حوالي ١٢٠٠ ق . م . وقد بقيت خراباً
 إلى يومنا هذا

تأليه الخصب وعبادته

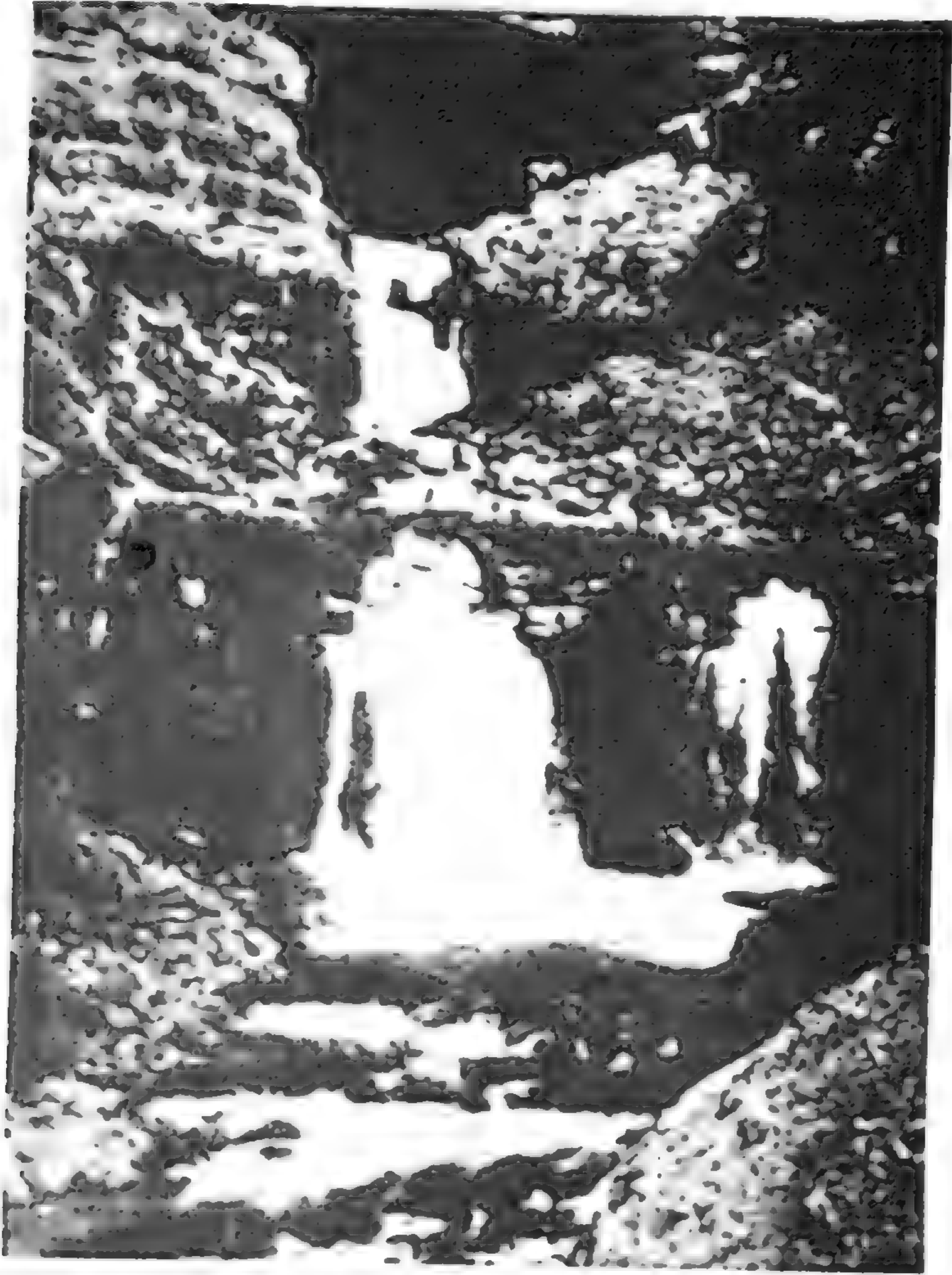
إذا استثنينا الأدب الاوغاريتي الذي اشرنا إليه آنفاً فإن معلوماتنا الأولية عن
 الدين الكنعاني ضئيلة جداً . فالروايات الاغريقية ، بما في ذلك اخبار فيلو الجبيلي

ولوسيان السموساطي (وهي بلدة قديمة اسمها الحالي سميساط) من شمالي سورية
اولاً متأخرة في الزمن ، وثانياً على كثير من الغموض والابهام . وكذلك قل في
المعلومات المستقاة من اسفار العهد القديم . فانها اخبار لعبت بها اقلام المؤرخين
العبران الذين كانوا يناوئون الفينيقيين العداء الشديد . واما المعلومات التي تحدرت
اليان عن طريق آباء الكنيسة المسيحية فانها معلومات ثانوية ، اي انها مستقاة من
مصادر قديمة ، او انها تعتمد رويات قديمة لا نعلم عنها شيء الكثير . ولكن هذه
المصادر ، على قاتنها وغموضها ، اذا ضمت الى ما توصلت اليه الحفريات الحديثة فانها
تشير بوضوح الى ان العنصر الاساسي في الدين الكنعاني القديم كان تأليه
قوى الخصب والانتاج وعبادتها . وهذا طبيعي عند شعب يعتمد في كيانه على
الزراعة وتربية الماشية في بئنة من الارض سقوط الامطار فيها ليس بالامر الاكيد
الثابت . وهذا يصدق الى حد كبير على جميع ديازات الشعوب السامية . وليس
من المستبعد ان يكون الكنعانيون قد اقتبسوا الكثير من الامور الدينية عن جيرانهم
البابليين الى الشمال وبن المصريين الى الجنوب . ولكن يظهر ايضاً انهم اعطوا
بقدر ما اخذوا عن غيرهم من الشعوب .

من ابرز مظاهر هذه العبادة السامية التي تدور حول تأليه الخصب وعبادته
البكاء والنواح على موت الالهة الخضر والقيام بطقوس من شأنها ان تعين الالهة
على الانتصار على خصمها إله الموت وإله العالم السفلي ، وان تؤمن المطر للهواسم
الجديدة . ومن مظاهر هذه العبادة الابتهاج بقيام الاله من الموت . هذا الاله
المنتصر على الموت ، البعل ، يتزوج الالهة الخصب ، عشتروت ، فيخضر وجهه
الارض في الربيع . وقد تسامت هذه العبادة وصعدت عند العبران فاصبحت
ترمز الى الرابطة التي تربط الاله يهوه بشعبه . وهذه الفكرة الاساسية ، إله يموت
ليقوم منتصراً على الموت ، تصبح في التقليد المسيحي فكرة حية رائعة .

قوز وعشتروت

ان فكرة موت الاله الخضر في الصيف وقيامه في الربيع ، كانت تفرن
بقوة الشمس وحرارتها وانتصارها على الشتاء وعواصفه الباردة . هذه الفكرة ،



نبع نهر ابراهيم في انطا وكان من الينابيع المقدسة عند الفينيقيين

فكرة انتصار الشمس على الشتاء . تتابعتها اسطورة تموز^(١) . كان الكنعانيون يسمون هذا الاله (تموز) «ادون» ، ومعناه السيد والمولى . وعندهم اخذ الاغريق الاسم وتغير ، باضافة السين في آخره ، الى ادونيس أي سيدي ومولاي . أما في

١ - ان لفظ «تموز» يعود الى اللغة السومرية في اصله ، ومعناه «الابن الامين» وقد سمي الشهر الرابع في السنة السامية باسم هذا الاله : تموز ، وهو الشهر السابع في التقويم الغربي الحديث . كان هذا الشهر يكرس لعبادته . راجع كتاب فريجة ، الاشهر العربية وتفسير معانيها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٢ .

مصر فان تموز يصبح اوسيرس . وبهذا الاسم ، ادونيس ، أصبح اشهر إله بين آلهة السوريين . وقد دخلت عبادته بلاد الاغريق . وفي القرن الخامس قبل الميلاد كانت عبادته راسخة الاركان . أما في فينيقية فان قصة ادونيس وعشروت ، سيدة جبيل ، تركزت في افقا عند منبع نهر ابراهيم . هنا ، في اعالي لبنان ، تقول القصة ان خنزيراً برياً هاجم تموز وأنشبتابه في جسمه ، فحُمِلَ وهو ينزاع سكرات الموت الى زوجته عشروت^(١) . ومنذ ذلك الحين اصبحت مياه النهر تصطبغ بدمه عاماً بعد عام^(٢) . (ويأتينا علماء الآثار فيفسدون علينا جمال الاسطورة بقولهم ان لون ماء النهر في الربيع احمر لأن امطار الربيع تجرف التربة الحمراء من على سفوح التلال بعد فلاحتها ، وعندما تصل البحر تُعكّر لون ماء البحر) . وعندما يكون تموز في العالم السفلي بذبل النبات على وجه الارض ثم يموت . ويظل تموز بين الاموات الى ان تنزل عشروت الى العالم السفلي ، عالم الموتى ، فتخلصه وتعود به الى وجه الارض . وقد نشأت في جبيل على بعد خمسة اميال من مصب نهر ادونيس الى الشمال شعائر وطقوس لاهياء ذكرى موته وقيامه . ومن جملتها ان النساء كن يذهبن الى الحقول ليفتشن عن ادونيس الميت . وكانت هذه الشعائر الدينية تدوم اسبوعاً كاملاً . وعند قيام ادونيس من الموت كانت تستولي موجة من الفرح تشبه الجنون على عبياده وعبادته . النساء يقدمن عفافهن قرابين والرجال يضحون برجوليتهم ، ويقدمون انفسهم خداماً خصياناً في هيكله . وقد اشار الشاعر ملتون في ملحمة الرائعة « الفردوس المفقود »^(٣) الى عبادة ادونيس عند وصفه الآلهة الكنعانية تمر في استعراض امام الشيطان :

« ثم جاء بعدهم تموز
تموز الذي جرح في اعالي لبنان

١ — على صخرة في قرية الغينة التي تبعد ١٢ ميلاً عن شاطئ البحر جنوبي نهر ابراهيم شمال سموز يصوره وهو يصارع الخنزير البري .

٢ — وهناك شكل آخر للاسطورة يجعل ادونيس يتغير الى زهر شقائق النعمان . ولفظة «نعمان» كانت تطلق وصفاً على ادونيس . و « شقائق النعمان » معناها جروح ادونيس . وفي الانكليزية شقائق النعمان تسمى « anemone » ، واللفظة دخلت الانكليزية عن طريق الاغريقية ، واصل اللفظ الاغريقي سامي : نعمان ، دخل اللغة الاغريقية عن طريق السريانية .

Paradise Lost ; Bk . I , 11 . 446 - 52 .

فراحت الفتيات السوريات ينظمن فيه اشعار الحب
ويغنينها في يوم قائط الحاناً شجوة . وتلطخت مياه النهر بدم ادونيس
فراحت مياه النهر الارجوانية تتدحرج من اعالي الصخرة مسرعة الى البحر .
ظلت عبادة ادونيس وعشثروت عبادة شائعة في لبنان حتى العهد الروماني .
فقد زار لوشيان، مؤرخ ورحالة سوري شهير ، هيكليهما في جبيل . ويقول لنا في
« الآلهة السورية » (الفقرة السادسة) :

« ... كل سنة عند احياء ذكرى هذه المأساة يقرعون صدورهم وينوحون
ويقومون بطقوس سرية ورموز تعبدية في جميع القرى والديساكر . واذا
ما فرغوا من البكاء والنواح قدموا الذبائح لادونيس على انه اله قد مات .
ثم لا يلبثون طويلا ان يعيدوا ذكرى قيامه من الموت ، كما يدعون ، رافعين
شبهاً له مطوفين به . ثم انهم يخلقون شعور رؤوسهم ، تماما كما يفعل
المصريون عند موت إلههم آيبس . واذا رفضت النساء ان يخلقن شعور
رؤوسهن عليهن ان يخضعن لقصاص وهو الوقوف النهار بكامله الى
جوانب الطرقات عارضات اجسادهن لمن يدفع ثمنها »^(١) .

ان ظاهرة الحياة والموت لا تقتصر على الحيوان والنبات انما تشمل الانسان ايضا .
فالابقاء على الحياة وديمومة النسل جعلت الانسان ينظر الى العلاقة الجنسية في الحياة
نظرة خاصة كان من نتائجها ظهور البغاء المقدس الذي كان يقرن بتأليه الخصب
وعبادته . فقد كانت الاباحة الجنسية ، وهي عادة سامية قديمة ، عنصراً رئيسياً في
الاعباد الزراعية عند اقوام آخرين سواء اكان ذلك في العالم القديم ام في العالم
الجديد . فقد مارسه بابل ، وعرفته كل من قبرص وبلاد الاغريق وصقلية وقرطجنة
وسواها .^(٢) وفي العهد القديم اشارات الى « بغايا الهيكل »^(٣) وكان في هياكل
عرب الجنوب قبل الاسلام عدد من الجوارى يخدمن في الهيكل . ويذكر لنا مؤرخ

١ — Herbert A. Strong, *The Syrian Goddess*, ed. John Garstang (London, 1913) , p. 46.

٢ — Herodotus , Bk . I , ch . 199; Strabo , Bk. XVI ch . I , sec . 20; Bk. VI ch . 2 , sec . 6; Baruch 6: 43.

٣ — حزقيال ٨ : ١٤ . ميخا ١ : ٧ . تثنية ٢٣ : ١٨

عربي^(١) انه كان في حضرموت بغايا « خضبن ايديهن بالحناء وقرعن طبولهن » عندما بلغهن موت النبي محمد . وكان في مدينة كورنثوس هيكلا لافروديت (الزهرة) وهي مثيلة عشتروت ، فيه الف جارية مما الصق بالمدينة عاراً اشار اليه بولس الرسول عند كتابته رسالة الى الجالية المسيحية هناك .^(٢) وقد ظهرت عبادة الخصب في بلاد الاغريق عند مستهل القرن الخامس ق م . وليس بمستبعد ان تكون قد دخلت من الشرق . ونرجح ان غياب عدد كبير من الذكور في فينيقية بسبب اسفارهم البحرية الطويلة كان من الاسباب التي ادت الى ترسيخ هذه العبادة . ولعلّ السماح للضيوف في الاعراس بتقبيل العروس بقية باقية من ذلك العهد . وقد يكون ايضاً ان حلق شعر رأس الراهبة المسيحية عند تكريسها للرب بقية عادة قديمة عندما كان يحلق شعر المرأة قبل تكريسها بغيّة . وكذلك الختان فانه ايضاً عادة سامية قديمة . وقد يكون ان هذه العادة بدأت كتنظيم الغرلة جزءاً من جسد الانسان قرباناً لالهة الخصب . وكان الختان ايضاً علامة من العلامات التي كانت تفرق قبيلة عن قبيلة . وعندما اعتنق اللبنانيون وبعض الشعوب السامية الاخرى الدين المسيحي تخلوا عن هذه العادة . انما بقيت معروفة في الاسلام واليهودية .

وعند المصريين اسطورة مقدسة تشبه قصة تموز وعشتروت شبهاً تاماً . تلك كانت قصة اوسيروس وايسس التي يبدو ان اصولها سامية . يقول لنا لوشيان المؤرخ السوري الذي اشرنا اليه سابقاً (في الفقرة السابعة من مؤلفه) ان اهل جبيل كانوا يزعمون بان الاله المصري اوسيرس كان قد دفن في مدينتهم . وقد ورد في رواية متأخرة في الزمن عن آلام اوسيرس - وآلام اوسيرس اقدس قصة دينية مصرية - ان جسده قُطع ارباً ودفن تحت اثلة في مدينة جبلة^(٣) . وقد كان في مدينة نوكراتس - ومن المرجح انها كانت مستعمرة فينيقية في مصر - هيكلا

١ - ابن حبيب : كتاب الخبر طبعة ILse Lichtenstadter (حيدر اباد ١٩٤٢) ص . ١٨٤-١٨٩ . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دي غويه ، الجزء الاول (لیدن ١٨٩٠) ص ٢٠١٤ - ٢٠١٥ . Joseph Chelhod; *Le Sacrifice chez les Arabes* . (paris, 1955), pp. 155 seq .

٢ - رسالة بولس الاولى الى كورنثوس ٦ : ٩ - ٢٠ والرسالة الثانية ١٢ : ٢١

٣ - Plutarch , *De Iside et Osiride* , sec . 15 وشجر الانل (والمفظة مصرية الاصل) يقرن باله الموت ، فان شاوول وابناه دفنوا تحت اثلة (صموئيل الاول ٣١ : ١٣)

لافروديت عشروت يعود تاريخه الى ٦٨٨ ق . م . وكذلك كان في مدينة كنوبس - ويرجح ان هذه ايضاً كانت مستعمرة فينيقية في مصر - هيكل مكرس لهرقل^(١) الذي لا يُشكُّ في انه كان الاله الصوري ملقارت .

آلهة كنعان

كانت الديانة الكنعانية ديانة سامية . وقد كانت تقوم في جوهرها على تأليه قوى الطبيعة وعبادتها . وكان للساميين إلهان رئيسيان وان اختلفا في الاسم عند مختلف الشعوب السامية . هذان الالهان هما إله السماء وهو الاله الاب ، وإلهة الارض ، وهي الالهة الام . وقد كانت آلهتهم تجسداً لقوى الطبيعة لا سيما الماء والخضار ، قوام كل حياة . ففي مدينة اوغاريت كان إله السماء الاب يعرف باسم ايل (El) - وقد كان مقامه على الأرجح في افقا - وكانت الالهة الام ، أي الارض ، تعرف باسم عشروت . وقد كان ايل ، الاله الاول في الديانة الكنعانية العبرية ، الاله الخالق ، الاله الاب لكل آلهة أخرى . وقد كانوا يتصورونه الهاً طاعناً في السن يرأس الآلهة جميعاً . أما عند الآراميين فقد كان رئيس الآلهة وأروعها جلالاً وحسناً هدد ، إله العاصفة والخصب . وكان الاله عليان^(٢) الفتي النشط يلي الاله ايل في الرفعة والمقام والقيادة . وعليان هذا كان يعرف بالبعل (اي السيد او المالك) . ولذا فانهم ينظرون اليه على انه حارس او مالك ، ولعله كان الهاً خاصاً بمدينة أو اقليم . وكان المطر والغلال ضمن نطاق نفوذه ، وكانت الينابيع والانهار في يده . وكان الهاً يُسرُّ بالاعياد التي كانت تقام له ، ويرضى عن الذبائح التي تقدم اليه قرابين . وقد كانت الذبيحة في معناها الجوهري وليمة مقدسة يشترك فيها المعبود والعابدون ، اي انها كانت نوعاً من الشراكة او الاتحاد المقدس . وبما انه لم يكن عند الفينيقيين نحت او تصوير فان الاله الكنعاني كان يمثل بعمود بسيط من الحجارة .

Herodotus , BK . II ch . 113 .

— ١

٢ - لا علاقة لهذا الاله ، عليان ، بالاله العبري عليون الوارد ذكره في سفر التكوين ١٤ : ١٨ . ويظن بعض العلماء ان عليان هو ابن البعل . Conteneau, p. 80; Millar Burrows, *What Mean These Stones*, (New Haven, 1941), p. 225 .

كانت زوجة ايل إلهة تدعى اشيرا (واسمها في النقوش أثيرة) . وكانت اشيرا الالهة اوغاريت . ويجب ألا يلتبس اسمها - اشيرا - على القاريء ، ذلك بان يجمع بينها وبين عشترت (او عشترت) . فان عشترت التي يرد اسمها في نقوش اوغازيت وفي رسائل تل العمارنة هي اشتار (او عشتار) الاشورية البابلية الاصل . وقد كانت عندهم الالهة الام . وكانت تختلف عن سائر الالهات بانها كانت مستقلة ، أي انه لم يكن لها زوج او اب او ام ، ولم تربطها بغيرها من الآلهة رابطة ما . كانت هذه الالهة الاشورية البابلية تعرف عند العبرانيين بعشتورة (Ashtoret وجمعها عشتاروت^(١)) ، وعند الاغريق كانت تعرف بـ (Astarte) . وعندما انتقلت عبادتها الى الاغريق قرنوا اسمها باسم إلهتهم افروديت ، واصبحت فسيا بعد اشهر إلهة للخصب . اما عند الفينيقيين فقد أصبحت « بعل » واقاموها الالهة حارسة شفيعة لاما كن معينة ، وقد تكون الالهة مدينة او محلة . فقد كان لمدينة بيروت « بعل » ولكن اسمها لا يزال مجهولاً . والعادة الشائعة بين الساميين الا يذكر اسم الاله احتراماً ووقاراً^(٢) . وعلى هذا المبدأ كانوا لا ينطقون باسم الالهة الانثى . وكثيراً ما يكون اسم الالهة قد تنوسي على ممر الزمن . غير ان بعل جيبيل احتفظت باسمها ، فانها كانت تعرف بـ « عشترت » اي عشتروت زوجة ادونيس (ادون) اله المدينة وسيدها غير المنازع ، الذي يعود الى اصل بابلي . وقد يكون ان اسم عشتروت كان يطلق بصورة عامة على كل الالهة تكون زوجة لبعل اينما كانت بين الكنعانيين . وكان الكنعانيون يقيمون معابدهم واما كن صلواتهم على « المرتفعات » الوارد ذكرها كثيراً في التوراة (اي على رؤوس الجبال والتلال) . ويظهر ان هذه المرتفعات وآلهتها تركت في نفوس العبرانيين احسن الاثر واعظم التقدير ، حتى ان انبياءهم كانوا ابدأ يحذرونهم من رجس عشتاروت « والبعليم » التي كان الكنعانيون يمارسون

١ - راجع سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ، ٣٣ . سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ . ويرد اسم هذه الالهة في النقوش العربية الجنوبية هكذا : « ع ث ت ر » من جذر يفيد الماء والري . وكان هذا الاسم يطلق على إله ذكر وهو اسم إله سامي مشترك .

٢ - ان اسم الاله العبري « يهوه » يكتب ولكن لا يلفظ ، بل انهم عندما يأتون الى هذه الكلمة يلفظون « ادوني » اي مولاي وسيدي . (المترجم)

عبادتها^(١) . وكان شهر ايلول ، الشهر السادس الذي يبلغ فيه القبيظ ذروته ، شهراً مقدساً مكرّساً لهذه الإلهة فان النبت في هذا الشهر يعطي اكله وثمره ، وذلك بفضل قوة الخصب والتاج اللذين كانت عشتروت تتصف بهما . وكان تموز رمزاً لهذه الغلال . وقد كانت عشتروت الى جانب كونها البعلة ، تعرف ايضاً بالملكة . وقد اشار اليها ارميا النبي بقوله « ملكة السموات^(٢) » وقد كان هنالك الالهة اخرى تشبه عشتروت بصفاتها تلك هي عناة اخت البعل عليان التي كانت تعرف ايضاً « بسيدة السموات » كما ورد في بعض النقوش . وكانت عناة تلقب بالعدراء ، وكانوا ينظرون اليها انها فارس محارب . اي انهم كانوا يرون في هاتين الالهتين ، عناة - عشتروت ، مصدر حياة ومصدر موت وهلاك . اذ ان الحب والحرب كانا من صفاتها البارزة . وقد اخذ المصريون هذه الالهة عن الفينيقيين وعبدوها تحت اسم عنتا (Anta) .

ويبرز اسم الاله ملقارت (ملكارت) اله صور بين اسماء الآلهة . ومعنى اسمه « ملك القرية » . واطلاق لفظ الملك والملكة على الاله الذكر والالهة الانثى ورثته المسيحية فيما ورثت من التعابير . وكانت صور تحتفل بعيد الهها وشفيعها مرة كل سنة . وقد بنى له اخيرام الاول ، اشهر ملوك صور ، هيكلًا . وبفضل مركز صور انتشرت عبادة ملقارت في انحاء فينيقية وفي المستعمرات الفينيقية . فقد كانت عبادته شائعة في مستعمرة قبرص . واخذ الاغريق عبادته عن الفينيقيين وقرنوا اسمه باسم الههم هرقل . وقد زعم بعضهم ان ملقارت هو الاله ذاته الوارد ذكره في التوراة والمعروف باسم ملوك (Moloch أو Molech = ملك) الذي كانت تقدم له ذبائح بشرية من الاطفال . ولكن هذا الامر هو موضع ريب . فان تقديم البكر ذبيحة للآلهة كان عادة سامية قديمة عرفت لها سائر الشعوب السامية . فقد مارس الاموريون مثل هذه الطقوس . والجرار الخزفية التي وجدت في اساسات البيوت في فلسطين وفي اساسات المعابد والهياكل المختلفة كان مدفوناً فيها اولاد صغار قدّموا قرابين للآلهة . ونخبونا التوراة ان الكبش الذي قدمه ابراهيم ذبيحة

١ - سفر القضاة ٢ : ١٢ - ١٣ . ارميا ٣٢ : ٣٥ . سفر الملوك الاول ١٩ : ١٨ .

سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ . صموئيل الاول ٧ : ٣ - ٤ .

٢ - ارميا ٧ : ١٨ ، ٤٤ : ١٧ - ١٩ ، ٢٥ .

للالة كان عن ابنه اسحق . وعندنا ان استبدال الذبائح البشرية بذبائح من الحيوان تمثل تغييراً حضارياً عند الشعوب السامية . فقد اصبح الساميون يدركون بان الله لا يرضى عن الذبيحة البشرية . ولكن بالرغم من سخط رجال الدين على هذه العادة وبالرغم من التشريع الصارم الذي وضعوه ومنعوا بموجبه تقديم الذبيحة البشرية فان صدى هذه العادة القديمة ظل يتردد في العهد القديم^(١) حيث يشير الى تقديم الابن البكر للاله ملوك^(٢) (Moloch) وهو اله غريب . اما الفينيقيون فقد كان لهم عذرهم في ممارستهم هذه العادة : بتقديم البكر ذبيحة لارضاء الالهة واستمالتها . فقد كانت اعمالهم التجارية تعرضهم الى مخاوف الطرق البرية واهوال المسالك البحرية ، فلم يكن عجباً ان يقدموا اعز ما لديهم قرايين للالهة . غير انهم تخلوا في القرن السادس ق.م عن هذه الذبيحة تخلياً تاماً . ولكنها ظلت طقساً متبعاً بين الوثنيين في غرب اوروبة حتى في القرون الاولى للميلاد :

وتجدر الإشارة ، ونحن نتكلم عن آلهة الفينيقيين ، الى الاله اشمون ، الذي تركزت عبادته في صيدا^(٣) . ورشف وداجون : وقد كان للاله اشمون معبد في بيروت . اما موقع معبده في صيدا فالمرجح انه كان جنوبي شرقي المدينة في البقعة التي تقوم عليها حالياً كنيسة مار الياس . وكان هذا الاله في التاريخ الكلاسيكي يقرن بالاله الاغريقي اسكلابيوس اله الشفاء . ورمزه حيتان ملتفتان حول عصا قائمة ولا يزال الى يومنا هذا شعار مهنة الطب والغريب انه كان للسومريين اله شفاء رمزه حيتان ايضاً . ومن آثار هذه العبادة الحية النحاسية التي اقامها موسى في بركة سيناء لكي ينظر اليها كل من لسعته حية فيشفى^(٤) . وعندما تنبأ السيد المسيح بموته على الصليب اشار اليها بقوله « وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي ان يرفع ابن الانسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية »^(٥) . وقد تسمى بعض الملوك الفينيقيين باسم الاله اشمون فيما تلا ذلك من ازمنة . فاننا نعرف اشمون عزر (ومعنى اسمه اشمون يعين او يساعد) . وقد عثمت عبادته قبرص

١ - تكوين ٢٢ : ٦ وما يليه . سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٤ . سفر الملوك الثاني ٣ : ٢٧ ،

٢١ : ٦ . المزمور ١٠٦ : ٣٨ . ارميا ٧ : ٣١ . حزقيال ١٦ : ٢١ .

٢ - سفر اللاويين ١٨ : ٢١ ، ٢٠ : ١ - ٥ .

٣ - وقد يكون اسمه الاصلي « اسم + ون » ومعناه اسمنا الذي نتضرع اليه ونستصرخه .

٤ - سفر العدد ٢١ : ٨ ، ٩ .

٥ - يوحنا ٣ : ١٤ - ١٥ .

وقرطجنة حيث كان له المقام الرفيع بين الآلهة . يدلنا على هذا ورود الاسم مركباً تركيباً مزجياً في أسماء الاعلام . وقد ورد ذكره ايضاً في نقش وجد في سردينية . اما الاله رشف (ومعنى اسمه النار او النور) فقد كان له علاقة بالشمس او بالنار . وكان عندهم اله الموت والخصب في آن واحد ، ذلك لان الشمس تبت والشمس تمحي . وكان الاموريون الذين اجتاحتوا بلاد بابل يعبدون الاله رشف . وكذلك فعل اهل اوغاريت . وقد انتقلت عبادة رشف الى المصريين في عهد المملكة الجديدة ، وكان يعرف عندهم باسم ارشوب . وكان الاغريق يقرنونه بالاله ابولو . وقد عثر على نقوش في فلسطين وقبرص ورد فيها ذكر الاله رشف . وقد غيرت حكومة اسرائيل مؤخراً اسم البلدة المعروفة بارسوف الى رشف اعتقاداً منهم ان هذا الاسم « ارسوف » هو بقية الاسم القديم « رشف » الوارد ذكره في التوراة .

اما الاله داجون فقد عبده الاموريون في الالف الثالث قبل الميلاد . وكذلك عبده اهل اوغاريت حيث عثر في الحفريات هناك على معبد له . واذا كان لنا ان نتعرف الى صفاته وطبيعته بناء على تعليل اسمه فيلولوجيا فاننا نعتقد انه كان اله الحبوب وشفيع المزروعات . وقد عبده الفلسطينيون بشكل سمكة وجعلوه الههم القومي .^(١)

هياكل الفينيقيين

ان الغاية الاساسية التي تقوم عليها فكرة بناء هيكل او معبد ان يكون مقاماً يسكنه الاله ، تماماً كما يسكن الانسان في بيته . وقد كان الهيكل نقطة اتصال تصل الانسان بالاله . فكان الهيكل رابطة تربط الانسان والاله برباط شخصي وثيق . واقدام الهياكل الكنعانية التي كشفت عنها اعمال الحفر هي الهياكل التي وجدت في اريحا ومجدو . فانها تعود الى الالف الثالث ق . م . واقدام شكل للهياكل كان بناء مؤلفاً من غرفة واحدة لها باب واحد في الجهة الاطول . ولكن في النصف الثاني من الالف الثاني ق . م . اصبح بناء الهيكل اكثر تعقيداً . وقد اتضح من

٢ — سفر القضاة ١٦: ٢٣ . صموئيل الأول ٥: ٢-٧ . سفر الأخبار الأول ١٠: ١٠ .

سفر المكابيين ١٠: ٨٤ ، ٤: ١١ .

هياكل اوغاريت وغيرها ان الاجزاء الاساسية في اي هيكل كانت مذبجاً من حجارة ، وعموداً مقدساً ، ونصباً عمودياً مقدساً ، وغرفاً تحت الارض . واهم هذه كلها هو المذبح الذي كانت تقدم عليه الذبائح . اما العمود المقدس فقد كان يرمز الى الاله الذكور^(١) . وقد يكون انه كان في الاصل رمزاً لعبادة الاعضاء التناسلية . وفي عام ١٩٣٦ عثر في هيكل في جيبيل على مجموعة من الاعمدة يبلغ عددها العشرين ، وشكل الواحد منها شكل المسلة ، ويبلغ اعلاها حوالي ١٠ اقدام . والى جانب العمود كان يقوم نصب حجري عمودي او شجرة مقدسة^(٢) . وتقديس الاشجار بقية باقية من عهد كانت تعبد فيه الشجرة على انها رمز الحياة الخالدة . ولا يزال اهل لبنان وسورية وفلسطين الى يومنا هذا ، سواء اكانوا مسلمين ام نصارى ام دروزا ينظرون بكثير من الاحترام والتقديس الى شجرة السندبان العظيمة او الصنوبرة العتيقة التي تظلل نبع ماء او مزارا او ديراً او كنيسة . وعند نبع أفقا شجرة مقدسة يعلق عليها زائرو المكان خرقا . وليس بمستغرب ان ترى في لبنان اشجاراً في اما كن اخرى يعتبرها الناس اشجاراً مقدسة .

اما الغرف السفلية التي كانت تحت ارض الهيكل فمن المرجح انها كانت غرفا للعرافة والتنبوء عن الغيب ، حيث كان المرء يدخل فيستشير عرافا او كاهنا . وقد عثر في الهياكل الكنعانية على كؤوس واجران مزخرفة برسوم افاع كانت تستعمل للخمر او للزيت المقدس الذي كان يقدم للهيكل . وكذلك عثر على مباخر ومناضد للبخور مما يشير الى استعماله في طقوس عبادتهم . وقد عثر ايضاً في بعض حفريات الهياكل على مصاطب كان المصلون يغسلون عليها اقدامهم قبل صلاتهم مما يدل على ان فريضة الغسل المقدس ، او الوضوء - الذي هو فريضة على المسلم

١ - في العبرية massebah وجمعها masseboth من جذر نصب بمعنى قام وارتفع وقد ترجموها الى صورة او تمثال ، وعمود او نصب ، هوشع ٤ : ٣ . سفر الملوك الثاني ١٠ : ٢٧ . تكوين ١٤ : ٣٥ . صموئيل الثاني ١٨ : ١٨ .

٢ - في العبرية asherah وجمعها asherim وقد ترجموها بلفظة غابة او اجمة . سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٣ . سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٦ - ٧ : اشعيا ٢٧ : ٩ . وقدم حرم في ثنية ١٢ : ٣ ، ١٦ : ٢١ .

واليهودي قبل الاقدام على الصلاة — كانت معروفة ومتبعة عند الكنعانيين . وقد اخذ الاغريق واجداد الرومانيين (اي القبائل الاترسكية) المباخر عن الكنعانيين .

الاصنام

كان الكنعاني يستعيز عن نحت الاصنام باقامة عمود بسيط من الحجارة او نصب عمود خشبي كرمز للمعبود . غير انهم كانوا يصنعون تماثيل صغيرة من البرونز تمثل البعل واقفاً ويده اليمنى قابضة على الصاعقة كما لو انه يستل سيفاً . اما الإلهة فقد كانت تظهر في تماثيلهم عارية ويدها مسبلتان على جانبيها او على ثدييها رمزاً لمنحها القوت والغذاء . وقد عثر على عدد كبير من هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من المعدن او من الخزف . ولكن يظهر انها كانت تماثيل او اصنام توضع في البيوت لا في الهياكل . ويظهر انهم كانوا يرون فيها قوى سحرية خفية فكانوا يقيمون بها . وكان العابد المثقف العاقل يرى فيها مقاماً للآلهة ، واما الرجل العادي البسيط فقد كان يحسبها الآلهة ذاتها .

المرتفعات

وكان للكنعانيين ، الى جانب هياكلهم الكبيرة في المدن مزارات اكثرها معابد مكشوفة للشمس والهواء على رؤوس التلال . وكثيراً ما يكون المزار على كثير من البساطة : مذبح وما اليه من حجارة مقدسة . وهذه هي « المرتفعات » التي يكثر ذكرها في العهد القديم والتي هاجمها انبياء اليهود بكثير من العنف والقسوة^(١) . ومن المعروف الآن ان اليهود اخذوا الكثير من اعيادهم وطقوسهم الدينية عن سكان البلاد القدماء ، الكنعانيين ، الذين كانوا يفوقونهم حضارة ورقياً^(٢) . غير ان بعض الطقوس الدينية ، كالذبيحة مثلاً ، تعود في الاصل الى عادات سامية مشتركة .^(٣)

١ — سفر الملوك الاول ١٣ : ٢ . ارميا ٣٢ : ٣٥ . هوشع ١٠ : ٨ .

Burrows, p. 234

— ٢

Cf. René Dussaud, *Le Sacrifice en Israël et chez les phéniciens*, (Paris, 1914), pp. 1 seq .

— ٣

الحياة بعد الموت

اما فيما يتعلق بالخلود ، الحياة بعد الموت ، فان الفينيقيين لم يبدووا اي اهتمام بهذه القضية الغيبية . فكانوا يشبهون اخوانهم الساميين الذين لم يكن عندهم فلسفة خلود خاصة او معتقدات مقررة واضحة . لم يكن الثواب والعقاب عندهم امراً يتعلق بالسلوك الاجتماعي او التصرف الخلقي بقدر ما كان يتعلق باقامة الفروض والطقوس الدينية . وكان الثواب والعقاب عندهم غنماً او غرماً مادياً يناله العابد على هذه الارض . فكانوا ينظرون الى الصحة والثروة والفلاح المادي والبنين وما شابهها انها ثواب على القيام بفروضهم الدينية ، واذا حرموا هذه اللذات فانهم كانوا ينظرون الى الامر على انه عقاب لتركهم فروض دينهم . غير انه وجد في قبور الفينيقيين سُرج وجرار وصحون وآنية اخرى للأكل والشرب مما يدل على انه كان عندهم شبه معتقد غامض ، بان الميت يظل يتمتع بعد موته بنوع من العيش يشبه عيشه على الارض . فقد كان يدفن مع النساء الخرز والمجوهرات وادوات اخرى للزينة . وكانت الاسلحة تدفن مع الرجال . وقد كان للمقابر في جبيل وصيدا منزلة رفيعة واحترام عظيم . فان القبر كما يظهر من النقوش التي كانت تحفر على النواويس ، يسمى «مكان الراحة»^(١) ، والنواوس الحجري العظيم الذي دفن فيه الملك احiram مزخرف بالنقوش والتماثيل التي تصور لنا جنازة كبيرة تظهر فيها النساء النادبات الحاملات القرابين . ومن الواضح ، ان هذا النواوس يدل على ان الفينيقيين كانوا يحرصون على حفظ الجسد من الفناء . ولم يكن التحنيط عند الكنعانيين امراً شائعاً ، غير ان الأثر المصري في كنعان يظهر في تحنيط بعض ملوكهم .

اثر الكنعانيين في الحضارة العبرية القديمة

دخل العبرانيون ارض كنعان قبائل بدوية فاتخذوا من حضارة البلاد نموذجاً ينسجون على منواله . فأخذوا عنهم لغتهم وحروف هجائهم . ولم يكن لهم ان

ينتجوا ادباً خاصاً بهم قبل ان يتعلموا فن الكتابة من جيرانهم ، وفي حقل التشريع نجد ان اقدم الشرائع العلمانية كانت شرائع كنعانية الاصل . وعن الكنعانيين اخذ العبرانيون الفلاحة وغيرها من الصنائع التي تتطلبها الحياة الحضرية . وعن طريق الزراعة والتزواج ، انتقل الى العبران كثير من الطقوس والعبادات الكنعانية التي كانوا يحسبونها ضرورية لتوفير الخصب والانتاج . واقتبس العبرانيون عن جيرانهم طقوساً وفرائض دينية قديمة بما في ذلك الانصبه الخشبية (الاعمدة الخشبية) وعادة بناء المذابح على التلال والمرتفعات كما ذكرنا سابقاً . وقد كان الصراع بين البعل ويهوه صراعاً عنيفاً دام زمناً طويلاً . حتى ان العبرانيين الذين اتخذوا يهوه الها لهم ظلوا يعتبرون الآلهة المحلية آلهة بيدها خصب الارض ووفر الانتاج . واننا لنجد ان العبران كانوا يعززون الى إلههم يهوه الصفات التي كان يتصف بها البعل . فهو رب السموات ومُنزل الامطار ومخضع العواصف لقدرته . وكان الوالدان العبريان يسميان مولودهما البكر باسم يهوه ، وأما المولود الثاني فكانا يسميانه باسم البعل . ولكن التفكير الديني عند العبران لم يظل طويلاً على هذا المستوى البدائي ، اذ ان انبياءهم سموا بتفكيرهم الديني الى آفاق لا عهد للناس بها في تلك العصور . فان نظرتهم الى طبيعة الله وصفاته وعلاقة المخلوق به اتسعت واهتدت الى آفاق بعيدة . والحقيقة انهم كانوا اول شعب في تاريخ الفكر البشري نظر الى الله انه واحد (التوحيد) وانه إله برّ وعدل . وكانوا اول شعب في التاريخ وضع الالهية العظمى على التصرف والسلوك لا على طقوس العبادة .

كان الساميون سكان منطقة الهلال الخصيب يعتقدون ان العبادة الحقيقية انما تقوم على الذبائح وتقديم العطايا من نتاج الارض ومن الاغنام قرابين الى الهيكل . ولم يختلف العبران في هذا الامر عن سائر اخوانهم . ولم يكن هيكل سليمان من تصميم الفينيقيين وبنائهم وحسب ، بل كان جزء كبير من طقوس العبادة التي كانت تمارس فيه من اصل فينيقي . فالغناء والتراتيم كانت فينيقية في نماذجها . ومن المرجح ان ورود النواهي الدينية في كتب موسى الخمسة تدل على ان هذه الامور كان قد اقتبسها العبرانيون عن جيرانهم قبل ان يرى فيها زعماءهم الدينيون ما يتناقض دين العبران . فقد حرّم ، مثلاً ، على العبران ان يطبخوا جدياً بلبن امه . وهو تحريم غريب ، واغرب منه التعليل الذي حاول ان يعلل به المؤرخون اصل

هذه العادة . اما اليوم فنعلم انه امر كان يمارسه اهل اوغاريت كما يظهر في النقوش التي عثر عليها هناك .

قلنا انه كان للدين الكنعاني واللغة الكنعانية اثر ظاهر في دين العبران القدماء ولغتهم . وطبيعي ان يتناول هذا الاثر الادب العبري ايضاً . فاننا نعلم مثلاً ان العبران اخذوا عن الكنعانيين كثيراً من فروض عبادتهم وطقوسهم الدينية . فكان من الطبيعي ان يأخذوا عنهم ايضاً ترانيم واشعاراً دينية . وطبيعي ان يتأثر الاسلوب العبراني بالاسلوب الكنعاني . فان في الادب العبري كثيراً من التشابه والمصطلحات الكنعانية ، حتى اننا لنجد احياناً اقتباسات من الادب الكنعاني مباشرة . واكثر ما يظهر هذا الاثر الادبي في سفر نشيد الانشاد وفي المزامير وفي سفر الامثال .^(١) فاننا نقرأ في الادب الاوغاريتي مثلاً : « ركب السحاب » وهو وصف للبعل . وهذا الوصف يشبه وصف يهوه كما ورد في سفر المزامير ٦٨ : ٤ . كذلك ورد في نقش اوغاريتي ان الرعد صوت البعل . ان هذا المزمور (٦٨) مع المزمور ١٨ و ٨٨ و ٨٩ يكثر فيها ورود المصطلح الكنعاني واسلوبه الادبي . وهذان المزموران الاخيران (٨٨ و ٨٩) يعزيان الى مؤلفين يظهر من اسميهما انهما من اصل كنعاني . وفي سفر ايوب ٣٧ : ٢ - ٥ ، وفي المزمورين ٢٩ : ٣ - ٥ ، و ١٠٤ : ٧ يشبه الشاعر صوت يهوه بقصف الرعد . وليس من شك في ان المزمور ٢٩ بكامله كنعاني ، فانه اغنية للبعل . يظهر لك ذلك من كثرة ورود اسم لبنان وجباله وارضه . وفي الادبين العبري والكنعاني عندما يذكر لويathan (Leviathan) فانه يسمى « الحية التحوية » كما جاء في سفر اشعيا ٢٧ : ١^(٢) . هذا الحيوان البحري له سبعة رؤوس ويعود فيظهر بعد اعصر عديدة في اسطورة هيدرا هرقل . ويظهر في الادب الاوغاريتي بطل اسمه دانيال (ومعنى اسمه ايل قاضي) ويشبه في صفاته دانيال الوارد ذكره في سفر من اسفار التوراة : سفر دانيال النبي . دانيال هذا « ابو اليتامى وقاضي الارامل » كما يقول صاحب المزامير (٦٨ : ٥) « اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة » كما يقول اشعيا النبي (١ : ١٧) .

Albright, *Archaeology & Religion*, pp., 15, 128-9

- ١

Cyrus H. Gordon, *The Loves & Wars of Baal and Anat* (Princeton, 1943), p. XII .

- ٢

ولا يقف التفاعل الحضاري بين الكنعانيين والعبرانيين عند هذا الحد بل نجد ان نماذج من الادب المصري ونماذج من الادب التعليمي الوعظي وجدت طريقها الى الادب العبراني عن طريق كنعان . فالتنا نستشعر ان الامثال الواردة في كتاب سفر الامثال ١٥: ١٦-١٧ ، و ١٧: ١ هي من مصدر مصري . ومن هذا القبيل تجدر الاشارة الى سفر الجامعة ٤: ٦ و ٢٢: ١٧-٢٣ فالتنا ترجع ايضاً ان الاثر المصري ظاهر فيها ،^(١) والادب المصري ذاته ظل يتميز طيلة خمسة قرون بدءاً من ١٣٠٠ ق.م . بكثير من المفردات الدخيلة التي معظمها من اصل فينيقي .^(٢)

ولما تأخرت التجارة الفينيقية نتيجة للمنافسة الاغريقية، وفقدت المدن الفينيقية استقلالها السياسي نتيجة للفتح الاشوري ، اخذ اثر الحضارة الفينيقية بالتقلص في حوض المتوسط كافة .

١ - E. A. Wallis Budge, *The Teaching of Amen-em-apt* (London, 1924) p. 103; W. O. E. Oesterly, *The Wisdom of Egypt and the Old Testament* (London, 1927) pp. 46, 61 seq.

٢ - Adolph Erman, *Die Literature der Aegypter* (Leipzig 1923) p. 5.

الفصل التاسع

لبنانه في العهد الاشوري البابلي

كانت الحضارة السائدة النشيطة الخلاقة في الالف الثالث ق.م. في غربي آسية الحضارة السومرية . والسومريون الذين انشأوا هذه الحضارة ، ليسوا من الشعوب السامية . وماآي حضارتهم ، مثل الكتابة المسمارية التي أوجدوها ، وجزء كبير من الادب الذي انتجوه ، وكثير من الفكر الدينية والروحية التي نشأت عندهم ، انتقلت الى الشعبين البابلي والاشوري ، ورثتهم في الحضارة . وهذا الارث الحضاري انتقل فيما بعد الى اهل سورية وفينيقية وفلسطين عن طريق بابل واشور . فان اللغة الأكادية (اي البابلية) التي كانت تكتب بالخط المسماري اصبحت اللغة الدولية في السياسة والتجارة والفكر في جميع انحاء غربي آسية . فقد استخدم هذا النوع من الكتابة (الخط المسماري) ملوك فينيقية في رسائلهم الى فراعنة مصر كما يظهر في رسائل تل العمارنة المشهورة ، على ما مر بنا آنفاً . واسم تموز ، الاله الفينيقي الذي كان يحتل المقام الاول في ديانة الفينيقيين ، اسم سومري . واساطير الآلهة بما في ذلك قصة الخليقة والطوفان وجنة عدن جميعها ترد الى اساطير بابلية . هذه القصص الدينية وجدت سبيلها فيما بعد الى الأدب العبراني الديني ثم المسيحي فالاسلامي . وفي اللغة العربية في عهدنا هذا كلمات دخيلة ترد الى اصل سومري أو بابلي مثل « هيكل » (e-gallu ومعناها البيت العظيم) و « كرسي » و « نجار » و « صندوق » و « لوح » . وقد كان اللبنانيون القدماء اقرب الى البابليين منهم الى المصريين عرقاً ولغة ، لكنهم اقرب الى مصر موقعا .

علاقات لبنان مع بابل في العصور القديمة

يدعي سرجون الأكادي^(١) (البابلي) الاول (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.) وهو

١ — وهي Agade اسم مدينة عراقية قديمة تقع الى الشمال من بابل . وقد ورد ذكرها في تكوين ١٠: ١٠ .

اول فاتح سامي كبير في التاريخ - انه مَلَكٌ، كما يقول لنا في النقوش التي خلفها « من البحر الاعلى الى البحر الادنى ». وتشمل هذه المنطقة « غابات الارز وجبال الفضة^(١) » وقد تكون اشارته الاخيرة : « جبال الفضة » الى جبال الامانوس لا الى جبال لبنان . وكذلك يدعي خليفته نارام سن (حوالي ٢١٧٠ ق . م) بانه ملك الارض كلها بما في ذلك « غابات الارز^(٢) » . غير ان الضغط السياسي والعسكري الحقيقي على فينيقية لم يبد خطيراً الا بعد ان اخذ ظل مصر السياسي وقوة الحثيين تتقلصان رويدا رويدا ، وبعد ان اخذت تظهر اخيراً في الافق الشرقي قوة عسكرية جديدة : الاشوريون . فان مخطط سياستهم الرامية الى الوصول الى البحر المتوسط والهادفة الى السيطرة على طرق التجارة المؤدية الى هذا البحر لم يوضع موضع التنفيذ الا بعد ان بلغت الامبراطورية الاشورية مبلغاً من القوة العسكرية تستطيع معه تنفيذ هذه السياسة .

الاشوريون

كان زحف تغث فلاصر الاول بجيشه من اعالي دجلة سنة ١٠٩٤ ق . م محاولة اشور الاولى للوصول الى شواطئ المتوسط . وقد احتل ارواد مدة قصيرة من الزمن اكن المحاولة كانت سابقة لاوانها . يقول هذا الملك الاشوري في كتاباته التي خلفها انه « سرّ بسفرة بحرية من ارواد الى سميرا ، وفي طريقه قتل « حصانا بحرياً » اي دلفينا . وقد بعثت اليه مدينتا جبيل وصيدا بالجزية . وقطع اخشاباً من الارز لبني هيكل لا الهته^(٣) » .

ان هذا الملك الذي اسسه تغث فلاصر من اعالي دجلة عبر الفرات الى فينيقية لم يدم طويلاً . ولا يذكر لنا التاريخ انه جرت محاولة لاسترداده الا بعد قيام اشور

١ - Anno Poebel, *Historical Texts* (Philadelphia, 1914), 175, 178 .

٢ - Ignace Gelb, *Hurrians and Subarians* (Chicago, 1944) pp. 35-7 .

٣ - Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. I (Chicago, 1926), sec. 302 .

ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩) الذي يُعتبر ملكه فاتحة عهد يتميز باحياء الروح العسكرية السياسية في اشور. وقد سلك هذا الفاتح في زحفه غرباً الى شالي سورية (٨٧٩) الطريق ذاتها التي سلكها سلفه ، وهي الطريق الطبيعية بين اعالي وادي الرافدين وسورية . ثم تابع زحفه من شمال سورية فدخل لبنان وسار بجيشه جنوباً على محاذاة الشاطئ اللبناني دون ان يلقي مقاومة تذكر . وقد كانت هذه الغزوة الاشورية الاولى الناجحة ضد سورية . وهي تشبه الى حد بعيد الغزوة التي قام بها قبلاً تحوطمس المصري الثالث بحوالي ستة قرون . وقد دفعت المدن الفينيقية المزدهرة الجزية الى هذا الفاتح الاشوري مما يدل على انها قبلت بالامر الواقع لا على انها اظهرت الخضوع التام للسيطرة الاشورية . وقد خلف لنا اشور ناصر بال نقشاً على هيكل عاصمته فيه كثير من المباهاة . يقول :

« لقد استوليت على معظم جبال لبنان وبلغت بحر امورو ، البحر العظيم . وقد غسلت الدماء عن اسلحتي في الغمر العظيم ، وقدمت ذبائح من الغنم لجميع الآلهة . وقد دفع الجزية اهل الساحل اللبناني : اهالي صور وصيدا وجبيل ومهالاتا (؟) (او محالاتا ؟) وميزا (؟) ^(١) وكيزا (؟) وامورو وارواد الجزيرة - دفعوا جزية ذهباً وفضة وقصديراً ونحاساً وآنية نحاس وثياباً كتانية مزركشة زاهية الالوان وقروداً كبيرة وصغيرة وآبنوس وخشب الصندل وعاجاً وانياب بقر البحر . تقبلت منهم الجزية وارتموا على قدمي ^(٢) يقبلونهما ^(٣) .

بلغت اشور في ملك اشور ناصر بال وابنه شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ، ذروتها في الازدهار واصبحت امبراطورية عالمية . وقد كان الاشوريون شعباً عسكرياً موهوباً ، فاخترع قوادهم اسلحة وآلات للحصار كالسلاالم لتسلق الاسوار والمدكات لدكها . كذلك اتقنوا فن تقويض الجدران بحفر ثقوب في اساساتها . ولم يكن فتح سورية الشمالية واخضاعها امراً عسيراً عليهم وهم اهل الجوار . غير ان لبنان يجباله ظل ، الى حين ، الحد النهائي الذي وقف عنده الفتح الاشوري

٨ .

١ - علامة السؤال تعني ان هذه المدن او القرى غير معروفة الان .

في عام ٨٥٥ ق.م. خاض شلمناصر الثالث معركة قرقر الشهيرة في وادي العاصي . وقد واجه الجيش الاشوري حلفاً عسكرياً قوامه اثنا عشر ملكاً من ملوك سورية. وكان على رأس هذا الحلف العسكري بن هدد الآرامي ملك دمشق. وكان من جملة المتحالفين الملك الاسرائيلي آخاب وامراء يمثّلون صور وسائر المدن الفينيقية التي بعثت بفرق عسكرية الى هذه المعركة . وقد بلغ عدد جيش هذا الحلف ٦٠ ألفاً وقفوا في وجه الزحف الاشوري في مدينة قرقر . ورغم ادعاء شلمناصر انه احرز نصراً حاسماً كما يقول في النقش الذي خلفه ، فالمعركة لم تكن حاسمة على ما يظهر . ومما يعزز هذا الرأي اصرار شلمناصر على العودة مرة اخرى لاختضاع المنطقة اخضاعاً تاماً . ففي سنة ٨٤٢ استسلمت المدن الفينيقية للسيطرة الاشورية اسماً . وهذا ما يقوله شلمناصر نفسه :

« في السنة الثامنة من ملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة . وكان الملك حزائيل الآرامي ، الوثائق من قوته ، قد حشد جيشاً عظيماً وتمركز عند جبل سنير وعند مداخل لبنان ، حصنه القوي ... ولكنني قطعت اشجار بساينه [غوطة دمشق] وزحفت نحو جبل حوران ، وقد هدمت وخربت مدناً لا عد لها واحرقتها بالنار . وعدت محملاً بالغنائم والاسلاب . ثم تقدمت نحو رأس البعل (بعلي راسي) الرأس الداخل في البحر^(١) . هناك اقلت نصباً تمثالا لشخصي . وقد تقبلت الجزية من اهالي صور وصيدا . وقد دفع الجزية ملك العبران جيحو ابن عمري^(٢) . »

مقاومة صور الرائعة

وكما ان الفينيقيين ذلوا واستسلموا للفتح المصري قبلاً ، هكذا وجدوا انفسهم مرة ثانية امام العاصفة التي هبت عليهم من الشرق . وقد ظنوا انهم اذا دفعوا الجزية فانهم يأمنون شر تدخل الفاتح بامورهم الداخلية . وكانوا يأملون ان يعوضوا عن فقد بعض سيادتهم السياسية بتوسيع اسواقهم التجارية . ولكن كان

١ - ربما يقصد جبل الكرمل . وقد خلف لنا شلمناصر نقشاً عند مصب نهر الكلب .

٢ - Luckenbill, vol. 1, sec. 672 .

الضعف. قد دب في هذه الامبراطورية الاشورية التي انشأها اشور ناصر بال وشلمناصر على حساب سورية ولبنان ، وظلت قرناً من الزمن في حالة تأخر وتقلص الى ان اعاد بناءها تغلث فلاصر الثالث^(١) وخليفته شلمناصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢) وقد كان مُلْكُ هذين الملكين فاتحة عهد جديد في تاريخ الامبراطورية الاشورية . فتمد اعيد فتح سورية . وصار متن - بعل ، ملك ارواد ، يدفع جزية للملك الاشوري تغلث ، وكذلك فعل شتي - بعل ملك جبيل واحيرام الثاني ملك صور الذي كان في الوقت ذاته ملكاً على صيدا ايضاً وعلى المستعمرات الفينيقية في قبرص . ويخبرنا المؤرخ يوسيفوس^(٢) بناء على ما استقاه من معلومات عن التاريخ السوري بان شلمناصر ابن تغلث غزا فينيقية . غير ان بعض مدنها ، ولا سيما صور ، اخذت تثور على الحكم الاشوري . اما مصر التي ظلت الى زمن ، في حالة ركود سياسي وعسكري ، فقد برزت في هذه الحقبة مرة اخرى على مسرح السياسة الفينيقية محاولة وقف التوسع الاشوري . وقد كانت الحالة الداخلية في فينيقية بسبب المنازعات والمنافسات بين مدينة واخرى في وضع يسهل معه على الفاتح امر الغلبة . فان صيدا ، مثلاً : وصور البرية وعكا رغبة منها في التملص من السيطرة المالية والتجارية التي كانت تفرضهما صور البحرية عليها ، اعترفت بالسيطرة الاشورية وقبلت بالحكم الاشوري . ولم يقتصر الامر عند الاعتراف بالسيطرة الاشورية انما تعدى ذلك الى المعونة العسكرية . فان هذه المدن (صور البرية وصيدا وعكا) وضعت تحت تصرف الاشوريين اسطولاً قوامه ٨٠٠ نوتي مجدف لفرض الحصار على صور البحرية . غير ان هذا الاسطول تشتت شمله عند اول معركة وقعت بينه وبين اسطول صور البحرية . الا ان جزءاً مما تبقى من بحارة الاسطول ضرب الحصار على صور البحرية من جهة الشاطئ . وقد كانت مياه الشرب المخزونة في ابار الجزيرة تكفي احتياجات السكان الضرورية مدة خمس سنوات . وقد انتهى امر ذلك الحصار الطويل بموت شلمناصر (٧٢٢) وذلك بعقد معاهدة شريفة .

١ - جو « فول » ملك آشور الوارد ذكره في سفر الملوك الثاني ١٥ : ١٩ . وراجع ايضاً

١٦ : ٩ - ١٠ .

٢ - *Antiquities*, Loeb Classical Library, Bk. IX, ch, 14, sec. 2.

في هذا الصراع يبرز اسم الملك الصوري ايلو-ايلى (ومعنى اسمه الهى هو الله) وهو « لولي » الذي يظهر اسمه في النقوش الاشورية (٧٢٥-٦٩٠) والذي اشتهر اسمه كحامي مدينة صور البحرية . فانه عاد وفرض هيئته على البلاد الفينيقية المجاورة وحاول استعادة قبرص التي كان قد استولى عليها سرجون الثاني الاشوري (٧٢٢-٧٠٥) بمساندة المراكب الفينيقية . وكان سرجون قد جعل من سائر المناطق الفينيقية الباقية ايالة اشورية . اما سنحاريب (٨٠٥-٦٨٠) خليفة سرجون الثاني فقد جوبه في بداية ملكه باحدى الثورات التي كانت تتوالى ضد الاشوريين، والتي كان قد دبرها الملك الصوري العنيد بتشجيع من مصر. وعمت الثورة عسقلان وعقرون من المدن الكنعانية على الساحل الفلسطيني. فسير الاشوريون حملة عسكرية لقمع الثورة هذه . وفي عام ٧٠١ هزم الجيش الاشوري الجيش المصري في معركة وقعت بالقرب من عقرون . ثم تابع الجيش الاشوري زحفه فخرب مملكة يهوذا - بالرغم من ان ملكها حزقيا لم يكن طرفاً في الحلف الثائر ضد اشور - واخذ بمطاردة الملك ايلو ايلي المنهزم عبر البحر الى قبرص. وقد نصب الاشوريون الملك اتو - بعل الصيداوي ، الذي كان موالياً للاشوريين^(١) ، ملكاً على فينيقية عوضاً عن ايلو - ايلى . اما قصر الملك ايلو - ايلى الصيفي في جبال لبنان فقد احرق وخربت كرومه وديست بالقدم . وتسلفت بعض الجيوش الاشورية اعالي الجبال ثم احتلوا قلعة في القمة التي تغطيها الأشجار وقيدوا ايدي حماتها واتوا بهم اسرى الى سنحاريب . ومن المرجح ان يكون سنحاريب احد الملوك الاشوريين الذي اقام نصباً تذكاريّاً عند مصب نهر الكلب. وقد استعان بصناع السفن من الفينيقيين في اعماله الحربية في الخليج الفارسي .

صيدا وصور تستسلمان

استسلمت صيدا عام ٧٠١ ق . م . ولكنها عندما استعادت قوتها ونشاطها عاد اليها اسرحدون ، ابن شلناصر ، غازياً وخربها عام ٦٧٥ . وقد هدم بيوتها الى اساساتها . وكذلك فعل بسورها الذي رمى بججارتها الى البحر . اما ملكها عبد ملقارت ، فانه هرب في مركب الى عرض البحر ولكن اسرحدون تبعه

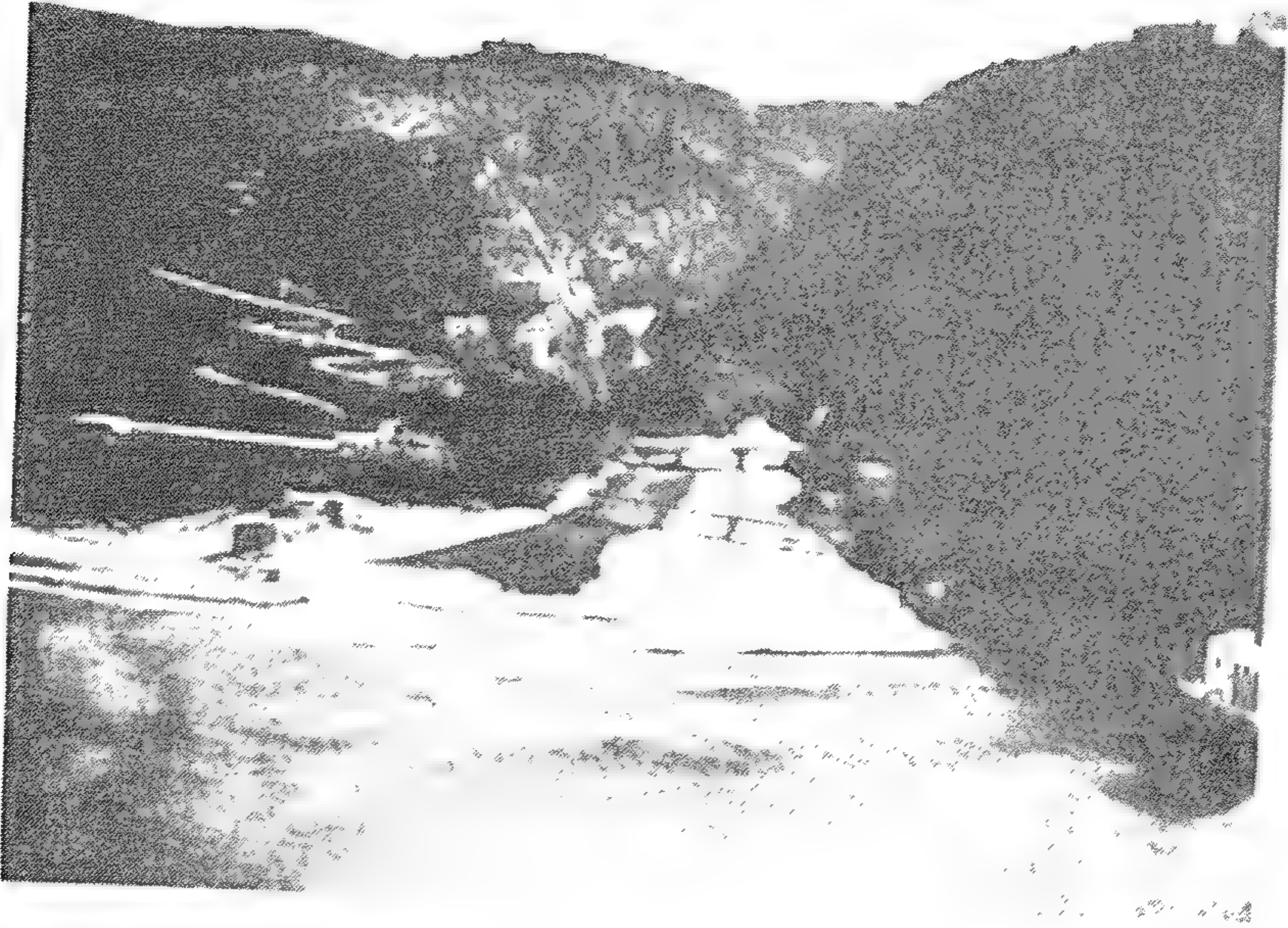
واصطاده كما يصطاد سمكة وقطع رأسه . ثم انه بنى قلعة سماها كار - اسرحدون واسكن فيها اناساً غرباء عن البلاد واقام عليها حاكماً آشورياً وذلك لالقاء الرعب في قلوب الناس في تلك المنطقة^(١) . وهكذا خربت مدينة صيدا تخريباً شاملاً كاملاً . اما اهالي صيدا الذين نجوا من حد السيف ، او افلتوا من قبضة الجند فقد هربوا الى المدن والقرى المجاورة . اما يا كين - ايل ملك ارواد ، بعد ان رأى ما حل بصيدا ، سلم المدينة الى اسرحدون وليس هذا فحسب ، بل انه اعطاه ابتسه مقدمة . وكذلك استسلمت بقية المدن الفينيقية الخاضعة للملك بعل الصوري الى اسرحدون . وانتهت هذه الغزوة القاسية بعقد معاهدة تجارة وخضوع واستسلام تام . ولكن ما ان استشعر ملك صور ، بان الاحوال موآتية له لخلع نير الاستعباد حتى ثار في وجه اشور بعد ان كان قد عقد تحالفاً مع ترهاقا^(٢) الحبشي الاصل الذي كان ملكاً آنذاك على مصر . ولكن الاشوريين عادوا وقمعوا الفتنة واعادوا البلاد الى حظيرتهم . وتخليداً لذكرى هذا الانتصار الاخير اقاموا في شمالي سورية نصباً تذكاريّاً في سنجري (شمال القديمة) يظهر فيه اسرحدون واقفاً ممسكاً بسير يقود به الملك بعل الصوري وترهاقا الحبشي كما لو انه كان يسوق فرسين . لكن الحقيقة هي ان فرعون مصر ، ترهاقا ، لم يلق القبض عليه ، ويرجح كذلك ان صور في هذه الردة الاشورية سلمت من غضبهم . يدل على ذلك ان اشور بانيبال خليفة اسرحدون ، عاد الى فينيقية عام ٦٦٤ ق . م . « وانقض على البلاد كما ينقض ذئب على حظيرة الخراف » . وكان هذا الهجوم على صور نهاية المطاف ، فقد نزلت بها الضربة القاصمة . وهكذا استسلمت صور سيدة البحر المتوسط ، بعد ان ظلت زمناً تتراوح فيه بين الاستسلام للاشوريين حيناً والثورة في وجههم حيناً آخر . والحقيقة هي ان مصير صور السيء كان قد تقرر قبل هذه الفترة ، عندما سقطت مدينة دمشق ، عاصمة الاراميين ، عام ٧٣٢ ، وعندما سقطت السامرة ، عاصمة المملكة الاسرائيلية عام ٧٢٢ اي بعد سقوط دمشق بعشرة اعوام . ويذكر القاريء ان المملكة اليهودية كانت قد انشطرت الى شطرين ، الى مملكة شمالية عاصمتها السامرة ، وجنوبية وعاصمتها اورشليم . وقد كانت هاتان المملكتان

Pritchard , pp . 290—1

- ١

A. T. Olmstead, *History of Assyria* (New York, 1932), - ٢
p. 384; cf. Hall, *Ancient History*, p. 499 .

تتحدان احياناً قليلة لصد خطر مداهم، ولكنها كانتا في اكثر الاحيان عدوتين. هذا الانقسام السياسي وهذا العداء بين المملكتين ادى الى خرابهما على ايدي الاشوريين اولاً ثم على ايدي الكلدانيين ثانياً . وبالقضاء نهائياً على استقلال سورية وفلسطين فقد لبنان كل امل في استعادة مركزه وسيادته . فان هدف السياسة الاشورية الاساسي كان الاستحواذ على طريق التجارة بين الشرق والغرب . وقد بلغ الاشوريون هدفهم هذا واصبحوا الآن في مركز عسكري وجغرافي يستطيعون معه



نهر الكلب عند مصبه

ان يشنوا هجوماً على منافستهم مصر للفصل في امر السيادة على غرب آسية . وقد استطاع اسرحدون ان يخضع مصر السفلى . واحياء لذكرى انتصاره اقام نصباً عند مصب نهر الكلب ، بالقرب من النصب الذي اقامه رعمسيس ، يظهر فيه واقفاً بخيلاء وتحت تمثاله نقش يذكر فيه الاستيلاء على ممفيس وصور^(١) . اما اشور

١ - وهذا النصب هو الوحيد من بين ستة انصبه اشورية عليها كتابة تقرأ . راجع :

Luckenbill, vol. II, secs. 582-5; Franz H. Weissbach, *Die Denkmäler und Inschriften an der Mundung des Nahr - el - Kalb* (Berlin, 1922) pp. 27 - 30, Pls. XI, XII; René Mouterde, *Le Nahr-el-Kalb* (Beirut 1932), p. 81, Pl. VI.

بانيبال (٦٦٨-٦٢٦) فقد اجتاح بعساكره مصر العليا وكان هذا نهاية التوسع العسكري الذي بلغته الجحافل الاشورية في فتوحاتها، واصبحت نينوى التي وصفها النبي اليهودي ناحوم (٣ : ١) بقوله « مدينة الدماء » سيدة غرب آسية وجزء من افريقية .

الكلدانيون وورثاء اشور

انتهى عهد السيادة الاشورية على غربي آسية لما ظهرت في العراق القديم قوة عسكرية جديدة : البابليون المحدثون او الكلدانيون بقيادة نابو فلاصر (٦٢٥ - ٦٠٥) الذي خرب عاصمتهم العظيمة نينوى عام ٦١٢ . وقد اعتبر هؤلاء انفسهم ورثاء اشور فادعوا السيادة على سورية وفينيقية ، على ما كان عليه الاشوريون من قبل . وفي هذه الفترة التي تم فيها انتقال السيادة العسكرية من ايدي الاشوريين الى الكلدانيين استطاعت مصر ان تنفض عن كاهلها النير الاشوري وتتحدى الكلدانيين في امر السيادة والسيطرة في هذه المنطقة . ونستطيع ان نقول ان المدن اللبنانية ، بوجه عام ، كانت تتأرجح وسط هذا الصراع الجديد ، غير ان اتجاهها نحو جارتها الجنوبية مصر كان ظاهراً .

وقد وجهت مصر الضربة الاولى . اذ قاد نخو فرعون مصر جيشاً كبيراً وسار على رأسه منتقلاً من نصر الى نصر حتى بلغ مدينة كركيش على الفرات (جرابلس الحالية) ، حيث وجد نفسه وجهاً لوجه امام الجيش الكلداني بقيادة نبوخذ نصر^(١) ابن نابو فلاصر وورث عرشه العتيد . واسفرت المعركة عام ٦٠٥ عن انكسار الجيش المصري وانهزامه . فتابعت جيوش نبوخذ نصر المنتصرة زحفها جنوباً متعقبة آثار الجيش المصري واحتلت مدينة اورشليم عام ٥٩٧ . اما المدن الفينيقية فقد عادت الى اتباع سياستها التقليدية : الاعتراف بالامر الواقع . ولكنها احتفظت باستقلالها الداخلي فكانت شبه مستقلة على ان تدفع الجزية الى الاسياد الكلدانيين الجدد . كان اللبنانيون القدماء كسنا بل الحقل تنحني عند مرور العاصفة ولكنها لا تتكسر . وهكذا اخلدوا الى السكينة في ظل الحاكم الجديد كما اخلدوا

الى الحاكم القديم . غير ان بعض المدن الفينيقية مثل صور وصيدا وبعض البلدان المجاورة مثل ادوم وموآب وعمون (وهذه تقع شرقي نهر الاردن) واليهودية عقدوا تحالفاً عسكرياً ضد الكلدانيين معتمدين في تحالفهم هذا على عون عسكري تقدمه لهم مصر . ولكن بعضهم كان يوجس خيفة من هذا التحالف العسكري . وها هو ارميا النبي يتنبأ بسقوط هذه الدول المتحالفة وينصح شعبه ويحذره من مغبة مقاومة الكلدانيين (تجد كل هذا في الفصل ٢٧ من سفر ارميا) . يقول ارميا . عن لسان يهوه « والان قد دفعت كل هذه الاراضي ليد نبوخذ نصر عبدي ... » ولكن تحذيره كان صيحة في واد . اما نبوخذ نصر فقد قبل التحدي واقام لنفسه مركزاً في ربة وهي مدينة في سورية جنوبي حمص على نهر العاصي ، ومن هناك ارسل جيشاً لاختضاع المدن الفينيقية ولانعام الاستيلاء على اليهودية . اما الجيش المصري بقيادة خضرع^(١) ، خليفة نحو ، فقد حاول ان يقاوم الزحف الكلداني غير انه اضطر الى التراجع سريعاً^(٢) . وبذلك تمت نبوءة اشعيا الذي وصف مصر في تلك الحقبة بقوله « انك قد اتكلت على عكاز هذه القصبه المرضوخة على مصر^(٣) ... » واما اورشليم ، التي كانت ترأس هذا التحالف ، فقد سقطت في يد الكلدانيين سنة ٥٨٦ ، وبذلك زالت مملكة يهوذا من الوجود . ثم ان نبوخذ نصر وجه جيشه بعد ذلك نحو صور زعيمة التحالف الفينيقي . وكان ملك صور ، اتو - بعل الثاني ، عازماً على المقاومة ، فأخذ يقيم الحصون وينشئ القلاع لمجابهة الجيش الكلداني . وقد صدق بعض نبوءة حزقيال النبي في صور البرية لا في صور البحرية . اسمعه يقول (حزقيال ٢٦ : ٧ - ١١) : « هأنذا اجلب على صور نبوخذ نصر ملك بابل من الشمال ، ملك الملوك بنحيل وبمركبات وبفرسان وجمع وشعب كثير . فيقتل بناتك في الحقل بالسيف ويبني عليك معاقل ويبني عليك برجاً ويقيم عليك مترسة ويرفع عليك ترساً . ويجعل مجانق على اسوارك ويهدم ابراجك بادوات حربه . ولكثرة خيله يغطي بك غبارها . من صوت الفرسان

١ - وفي هيرودوتس يظهر اسم هذا الملك « Apries » راجع :

Herodotus, Bk. II, ch. 161; Diodorus, Bk. I, ch. 68.

٢ - ارميا ٣٧ : ٧ .

٣ - اشعيا ٣٦ : ٦ ، سفر الملوك الثاني ١٨ : ٢١ .

والعجلات والمركبات تنزل اسوارك عند دخوله ابوابك كما تُدخل مدينة
مشفورة .

اما صور البحرية ، فقد نجت من الوقوع في قبضة الكلدانيين . فقد لجأ
اليها اهالي صور البرية وانشأوا فيها وسائل للدفاع ، إلا ان وسائل الدفاع
الناجعة على البر ، لا تنجدي نفعا في البحر . ولكن بالرغم من ضعف وسائل
الدفاع ، فانهم قاوموا الحصار مدة ١٣ سنة (٥٨٥ - ٥٧٢ ق.م .) مما لا
مثيل له في تاريخ الحروب ^(١) . ومع هذا الحصار الطويل الامد ، فان
الكلدانيين لم يهاجموا المدينة لانها عرضت عليهم استسلاماً جزئياً قبل به
الكلدانيون ؛ فرفعوا عنهم الحصار واخذوا من اهالي المدينة عدداً قليلاً من
وجهاتها واعيانها وحملوهم الى بلادهم كرهائن . وقد ترك لنا الكلدانيون سجلاً
بهذه الاعمال العسكرية بشكل نقشين كتباً على صخرتين عند مصب نهر الكلب
اما النقش فنسخة طبق الاصل لنقش خلفه لنا نبوخذ نصر على صخرة في وادي
بريسا قرب ربله حيث يظهر الفاتح في النصب الاول واقفا امام الارز ، وفي
الثاني يصدُّ اسداً يهاجمه ^(٢) . يقول : [ثقة] مني بقوة الالهين نابو ومردوخ
نظمت حملت عسكرية ضد لبنان . وقد جلبت المسرة والبهجة الى تلك البلاد
بطردي كل عدو والقضاء عليه في طول البلاد وعرضها . وقد اجتزت وديانا
عميقة ، وفتحت لجيشي مسالك في الصخر ، وحيث اعترضني الصخر كنت افنته .
وهكذا انشأت طريقاً مستقيماً ممهداً لنقل خشب الارز . وقد وفرت لاهل لبنان
الطمأنينة والسلام وازلت عنهم كل ما من شأنه ان يعكر عليهم صفو الحياة .
ولكي يعتبر كل طامع طامع في ارضهم فلا تحدته نفسه بالاعتداء عليهم فاني قد
اقت نصبا عليه تمثالي شاهداً اني الملك على هذه المنطقة الذي لازوال للملك ^(٣) !

ولكن هذه السيطرة الكلدانية التي يقول عنها النقش ان « لازوال » لها لم

١ — Herodotus, Bk. II, ch. 161; Josephus, *Antiquities*, Bk. X
ch. 11, sec. 1.

٢ — Dussaud, *Topographie*, p. 95.

٣ — Pritchard, p. 307.

تدم أكثر من ٥٨ سنة. فان احد الاعيان من الرهائن الذين احتجزهم الكلدانيون - ولعله كان ابن اتو - بعل - عاد وتسّم العرش الصوري تحت اسم بعل الثاني . ثم خلفه على العرش اثنان آخران من هؤلاء الاعيان الذين لا نعرف شيئاً ثابتاً عن نسبهم . وآخر ملوك صور احيرام الثاني . كان في عامه الرابع عشر عندما استولى كورش الفارسي، مؤسس الامبراطورية الفارسية، على بابل عام ٥٣٩-٥٣٨ وقبض على ملكها نابونيدس^(١) . وبسقوط بابل في ايدي الفرس انتقلت فينيقية وجارتها من البلاد الاخرى الى ايدي الفرس وكان انتقالا سهلا لم يصحبه شيء من العنف او الخراب . ويخبرنا نابونيدس في سجلاته انه كان يعدن الحديد في لبنان^(٢)، وكان يقطع اخشاب الارز لصنع الاثاث الفاخر كما فعل فراعنة مصر وملوك كنعان من قبل .

الاشعاع الحضاري

لا نبالغ اذا قلنا ان الحضارة الفينيقية فقدت، بسقوط صور، تلك الحيوية وذلك النشاط الخلاق اللذين كانت تتميز بهما هذه الحضارة . فان التجارة البحرية الدولية التي كانت تلعب فينيقية فيها الدور الرئيسي انتقلت الى ايدي الاغريق والقرطاجنيين، وتجارهم البرية انتقلت كذلك الى ايدي التجار الآراميين . وقد انشأ الاغريق ، بدءاً من القرن الثامن ، مستعمرات على شواطئ المتوسط في ايطالية وجزر البحر الايجي وآسية الصغرى حتى انهم انشأوا بعض المستعمرات في دلتا مصر . ونستطيع القول ان العالم الفينيقي بحضارته الزاهرة ونشاطه الخلاق وعلومه الراقية اصبح في طريق الزوال . فان حب المغامرة ، والسعي الى جمع الثروة ، أتى كانت الثروة ، عن طريق التجارة الراجحة، والفضول العقلي الذي كان يدفع بالمرء الى آفاق جديدة،

١ - Josephus , *Apion* , Bk. I, ch . 21; Wallace B. Fleming, *The History of Tyre* (New York, 1915), pp . 45-7.

وابن نابونيدس ووريث عرشه بلشاصر هو الذي رأى الكتابة على الحائط كما ورد في سفر دانيال ٥ : ٥ وما يليه .

٢ - Raymond p. Dougherty, *Records from Erech* (New Haven, 1920), No. 168, ١.17.

جميع هذه الحوافز التي كانت مصدر النشاط الفينيقي قُتِرت وفقدت حيويتها مؤقتاً. غير ان الشعب الفينيقي حافظ على شخصيته المستقلة طيلة الحكم الفارسي حتى فتوحات الاسكندر المقدوني . ولكن هذه الحضارة قبل زوالها كانت قد اقتبست عن البابليين والاشوريين عناصر حضارية متعددة - مادية ودينية ولغوية - ونشرتها في جميع اطراف حوض المتوسط . فالفينيقيون مع الاغريق اغنوا الحضارة الاوروبية عن طريق ادخال النباتات النافعة والمعادن التي تدخل في مختلف الصناعات كما تدل اسماؤها :

الاسم العربي	الاسم الاوروبي	الاسم العربي	الاسم الاوروبي
كاسية	cassia	المندرالك	mandrak
الخروب ، الخرنوب	carob	الناردين	nard
الشيكوريا	chicory	الزعفران	saffron
الكرم	crocus	السبسم	sesame
الكمون	cumin	الجبس	gypsum
الزوفاء	hyssop	النفط	naphtha
البشب (البشم)	jasper		

وجميع الشعوب ، شرقية كانت ام غربية لا تزال حتى اليوم تستعمل النظام الاثني عشري (الذي قوامه ١٢) او الستيني (الذي قوامه ٦٠) لقياس الزمن وهو النظام الذي يعود في اصله الى الحساب البابلي . وتقسيم السنة الى ١٢ شهراً والاسبوع الى ٧ ايام لا يزال التقسيم الزمني المتبع في عهدنا هذا، وهو بابلي الاصل . والعلامات التي نستعملها لمنطقة البروج تكاد تكون واحدة بيننا وبين الاشوريين . وكثير من الموازين والمقاييس التي تعود في اصلها ايضاً الى البابليين انتشرت هنا وهناك على ايدي الفينيقيين .

الفصل العاشر

بنائه ابله فارسية

كان اندفاع الفرس غرباً - وهم شعب هندو - اوروبي - نحو شواطئ المتوسط نذيراً بزوال سيادة الشعوب السامية ، تلك السيادة التي لم يستطيعوا استردادها الى ان قام العرب المسلمون ، بعد مرور الف عام ، بفرض سيادتهم على المنطقة . كانت الامبراطورية الفارسية التي أسسها كورش (٥٥٠ - ٥٣٠ ق. م.) ، والتي وسع حدودها ابنه قمبيز وداريوس ، مترامية الاطراف شاسعة المساحة . كانت تمتد شرقاً من نهر كوش الهندي ونهر الاندس وما وراءه الى البحر الايجي غرباً ، ومن القوقاس شمالاً الى المحيط الهندي جنوباً . وقد كانت هذه المرة الاولى التي ضمت بلدان هذه المناطق تحت حكم قوي مركزي واحد . وكانت اطراف هذه المملكة المترامية متصلة بعضها ببعض بنظام من الطرق الحسنة المجهزة بالمحطات التي كان يستريح فيها رسل الملك ومرازبته^(١) . وقد صك الفرس النقود المعدنية الموحدة وادخلوها كعامل جديد في عالم التجارة ، وانتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً جعل منها لغة عالمية في كل المنطقة . وقد افسح التاريخ المجال لأول مرة للحضارتين السامية والهندو - ايرانية ان تتفاعلا وان تندجبا .

صيدا عاصمة الايالة السورية

قسم داريوس الاول (٥٢١ - ٤٨٥) مملكته الى ٢٠ ايالة كانت الايالة الخامسة منها تشمل لبنان وسورية وفلسطين بالاضافة الى جزيرة قبرص . وقد اختيرت مدينة صيدا لتكون عاصمة الايالة . وقد جهزها الفرس بقصر فخم ليكون مقراً لحاكم الايالة وقصراً لاستضافة الملك في حال قيامه بزيارة للايالة . كما انشاؤا فيها حديقة ملوكية للنزهة والترفيه . وقد قسم الفرس فينيقية الى اربعة اقسام تابعة لاربعة مدن

شبه مستقلة : صيدا وصور وارواد وجبيل . وقد حافظت هذه الاقسام الاربعة التي تتمثل بالمدن الاربعة المستقلة على نظام الملكية فيها . فقد كان لكل مدينة ملك يصك النقود باسمه . وكان ملك صيدا عند زيارة لامراتور الفارسي يحتل المركز الاول بين مملوك المدن الفينيقية ، ثم يتلوه في المقام الثاني ملك صور ثم امراء الدول الاخرى^(١) . وهكذا استعادت صيدا مقامها السياسي بين المدن الفينيقية^(٢) .



قطعة نقود فينيقية من العهد الفارسي (حوالي ٣٤٠ ق.م.) . على وجه من القطعة يرى رسم سفينة فينيقية وتحتها فرس بحري . وعلى الوجه الثاني اسد يهاجم ثوراً . اما ترجمة النقش فهي : ادرا ملك جبال (أي جبيل)

كانت حالة السلم التي وطد الفرس اركانها ، ذلك السلم الذي يعرف بالسلم الفارسي ، احد العوامل التي عادت على المدن الفينيقية بكثير من الرخاء الاقتصادي . وكذلك كان لطرق المواصلات الحسنة بين اطراف الامبراطورية ، التي حرص الفرس على انشائها ، اثر بعيد الغور في استعادة الازدهار الى المدن الفينيقية . وبالرغم من الخسارة التي كانوا قد منوا بها من جراء فقدتهم اسواقهم التجارية القديمة ، وبالرغم من انهم وجدوا في التجار الآراميين منافسين خطرين ، فقد فتحت امامهم الآن اسواق جديدة وآفاق جديدة ومتسع للتعبير عن نشاطهم . فقد توطنت في فلسطين جاليات فينيقية ، وكان في ممفيس حي يعرف بالحي

Herodotus, Bk. VIII, ch.67 .

Eiselen, pp. 61-3 .

الصوري^(١) نسبة الى الفينيقيين الذين هاجروا اليها من صور ، تماماً كما نرى في عهدنا هذا احياء لبنانية في نيويورك وسان بولو وبونس ايرس . وظل اللبنانيون ينعمون باحد مواردهم الاقتصادية التي لا تنضب : خشب الارز . فقد اعطى كورش الفارسي اليهود امتيازاً بقطع غابات الارز ، فكان اهل صيدا وصور ينقلونه بمراكبهم^(٢) . ويظهر ان هذه الغابات كانت تعتبر ملكاً للدولة ، ويذكر داريوس في نقش وجد في قصره الملوكي العظيم في مدينة سوسه والذي يتحدث فيه عن تشييد القصر بان « الخشب الذي يدعى نورينا (اي الارز) مصدره جبل يدعى لبنان . من هناك جلبت الخشب^(٣) » .

وقد كان الفينيقيون باساطيلهم العظيمة الحسنة التنظيم والتجهيز عوناً كبيراً للفرس في حروبهم . فقد كانت المراكب الفينيقية بمثابة العامود الفقري في الاسطول الفارسي ، وكان ملك صيدا بمثابة امير البحر الاول . والارجح ان قمباز لم يكن باستطاعته غزو مصر (٥٢٥) لولا المعونة التي كان يلقاها من الاساطيل الفينيقية . وقد كان هذا العون العسكري البحري تطوعاً لا اجبارياً . والظاهر ان اهل المدن الفينيقية المستقلة كانوا يشعرون انهم حلفاء الفرس لا اتباعهم . ولا نشك في ان الفينيقيين في الوقت ذاته كانوا يربحون الاموال الطائلة من « مقاولات الحرب » ومن وجود الاساطيل الفارسية في موانئهم . ولكن عندما طلب اليهم قمباز امداده بالمراكب لمهاجمة قرطجنة ابنة صور المجيدة ، رفضوا باباء لانه كان بينهم وبين قرطجنة معاهدة صداقة ، ولا يمكنهم بالرغم من هذا ، « مهاجمة ابناء جلدتهم^(٤) » . غير ان الفينيقيين لم يترددوا لحظة في الاشتراك بكل قواهم في الحروب الفارسية الاغريقية التي هزت العالم آنذاك . ولعلمهم وجدوها فرصة سانحة لتسديد ضربة قاصمة الى عدوهم البحري اللدود : الاغريق . وقد زودوا الاساطيل الفارسية ب ٢٠٧ من المراكب ، وخاضوا معهم غمار معارك بحرية عديدة منها المعركة البحرية الشهيرة بالقرب من ميلاتس (٤٩٤) ، والمعركة البحرية في مياه سلاميس (٤٨٠) .

Herodotus, Bk, II, ch. 112 .

— ١

٢ — سفر عزرا ٣ : ٧ .

V. Scheil, *Mémoires de la mission archéologique de Perse*, vol. XXI (Paris 1929), p. 19.

— ٣

Herodotus, Bk. III, ch. 19 .

— ٤

وكان من نتائج هذه المعارك ان استولى الفرس على بعض الجزر في البحر الايحي وعلى بعض المدن على الشاطئ الاوروي . وقد كانت هذه الحرب بين الفرس والاغريق تتصف بانها حرب بين الاغريق والفينيقيين لتقرير امر سيادة البحر . ولكن لما خسر الفرس معركة سلاميس امر ملكهم احشويرش بقطع رؤوس بعض القواد الفينيقيين ، فأبى القواد الباكون استئناف الحرب الى جانب الفرس ، وانسحبوا في ظلام الليل من المعركة متجهين بمراكبهم الى بلادهم^(١) . ولمدة خمس عشرة سنة لم يرد بعد هذا الحادث ذكر لاشتراك مراكب فينيقية مع الاساطيل الفارسية . يقول مؤرخ اغريقي^(٢) ان اكليل الغار في هذه الحرب استحقه « الاثينيون في المعسكر الاغريقي » و « الصيدانيون في معسكر البرابرة » . وقد ذكرنا سابقاً ان لفظة « صيدانيون » كانت تطلق على جميع الفينيقيين احياناً كما كانت تطلق لفظة « صورانيون » احياناً اخرى .

ولم يلمع اسم الفينيقيين في هذه الحرب كمحاربين فحسب ، وانما برز اسمهم كمهندسين وبنائين بارزين . فانهم اشتركوا في بناء الجسر الخشبي القائم على مراكب والذي عبرت عليه جيوش احشويرش فوق الدردنيل الى الشاطئ الاوروي^(٣) . ولما اشتركوا في حفر القناة في المضيق الذي يقع بين جبل اثوس والبر اصرروا على ان يكون عرض سطح القناة مساوياً لعرض قعرها مما يدل على « حذق وبراعة في جميع الاعمال التي يقومون بها »^(٤) .

اتحاد المدن الفينيقية ومحاولتهم التحرر ونيل الاستقلال

ومن الأدلة الاخرى التي تؤيد زعمنا بان المدن الفينيقية كانت تتمتع بالاستقلال في العهد الفارسي ان هذه المدن حاولت انشاء اتحاد بينها ترأسه مدينة طرابلس . كانت تتألف هذه المدينة في الاصل من ٣ جاليات صيداوية وصورية واروادية . وقد اتحدت فيما بينها في السنة الاولى للملك ارتخششتا الثالث اوخس

Herodotus, Bk. VIII, chs. 89-90.

Diodorus, Bk., XI, ch. 13.

Herodotus, Bk., VII, ch. 34 .

Herodotus, Bk., VII, ch, 23 .

- ١

- ٢

- ٣

- ٤

(٣٣٨ - ٣٥٩) واطلقوا عليها اسماً سامياً « اثر » او ما يشابهه ، كما يبدو على بعض النقود التي يعود عهدها الى ١٨٩ - ١٨٨ ق. م . اما الاغريق فقد اطلقوا عليها اسم طرابلس (ومعناه ثلاث مدن^(١)) . وكانت المدن الفينيقية الاربع المستقلة تعقد مؤتمراً سنوياً في هذه المدينة الجديدة ، طرابلس يحضره حوالي ٣٠٠ معتمد يبحثون^(٢) فيه المشاكل والشؤون التي لها علاقة بمصالح البلاد عامة . وفي سنة ٣٥١ ق. م . انعقد احد هذه المؤتمرات في شكل مؤتمر عام اعلن فيه المؤتمرون عن عزمهم على اعلان الاستقلال التام .

استطاع الفرس والفينيقيون ان يتعايشوا وان يتعاونوا طيلة قرن وثلاثة ارباع القرن . ولكن ما ان اطل عام ٣٦٠ حتى بسدا الولاء الفينيقي بتأرجح . فان سترانون (وهو تحريف للاسم الفينيقي عبد عشروت) ملك صيدا المعروف بميله للاغريق ، حاول الدخول بمواثيق صداقة واخاء بينه وبين الاثينيين . وقد قابل هؤلاء هذه المبادرة باعفاء الصيّدانيين في اتيكة من الضريبة التي كانوا يفرضونها على الغرباء النزلاء في بلادهم . ويبدو ان العلاقات التجارية بين الاغريق والفينيقيين في هذه الفترة اخذت تتحسن ، ودخلت في طور من التبادل الودي . واخذت جاليات فينيقية كثيرة تستقر في بلاد الاغريق ، لا سيما في ميناء بيريه . حيث كان لهم معابد ومقابر . فقد عثر في اثينة على نقوش كتبت على قبور فينيقية^(٣) . ولكن محاولة سترانون (عبد عشروت) ملك صيدا للخروج على طاعة الفرس لم تنته الى اي نجاح . وقد ظلت المدن الفينيقية المستقلة تبدي ضروبا من النعمة والتملل طيلة عشرات السنوات التالية . فان ولاية الملك ارتختشتا ابدوا من الغطرسة والمظاظة في معاملتهم الفينيقيين ، ما نفرهم منهم . وقد زاد في حدة هذه النفرة زيادة الضرائب التي كانوا يفرضونها على الاهالي . ولا شك في ان الفينيقيين بدأوا يشعرون بان شمس الفرس آخذة بالافول .

١ - George F. Hill *Catalogue of the Greek Coins of Phoenicia* (London, 1910) sec. 48 .

٢ - Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 15; Diodorus, Bk. XVI, ch 41. —

٣ - *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, part I, Vol. I —
(Paris 1881), Nos. 114-21 .

بدأت الثورة الفينيقية ضد ارتحتشتا الفارسي في الحي الصيداوي في طرابلس، ومن هناك انتشرت بسرعة حتى عمت جميع الشاطئ اللبناني . وكان طبعيا ان تمدهم مصر بالعون والتشجيع . ثم ان مركز الثورة انتقل من طرابلس الى صيدا بقيادة ملكها تنس . وقد قطع اهل صيدا اشجار الحديقة الملكية فيها - وهي عادة لا تزال شائعة في لبنان اذا اراد احدهم ان ينتقم من عدوه - واشعلوا النار في التبن والحشيش اليابس المخزون للخيلة الفرس^(١) . ثم انهم اسرعوا في جمع جيش من المرتزقة ، واستحصلوا على مراكب حربية من ذوات المجاذيف المتعددة الطبقات ، واسلحة وذخائر وواد غذائية واستعدوا للمعركة المقبلة . وكذلك فعل ارتحتشتا . فانه لم يضيع دقيقة واحدة بل انه ترك بابل على رأس جيش قوامه ٢٠٠ الف راجل و ٣٠ الف فارس وجهاز في البحر ٣٠٠ مركب حربي و ٥٠٠ مركب تجاري^(٢) . وبينما هو في طريقه من العراق التقى ببعض ولائه على سورية وكيليكية الذين حاولوا قمع الثورة في لبنان ، ولكن اللبنانيين كانوا قد هزموهم وطاردوهم . اذ ان تسعا من المدن الفينيقية الكبيرة كانت قد طردت فلول الفرس واعلنت استقلالها التام ولكن عندما سمع تنس ملك صيدا بان ارتحتشتا قادم على رأس جيش عرمرم ، اوجس خيفة وقام بمحاولة فاشلة ، فسلم المدينة للفرس رشوة لكي ينجو من موت اكيد . ولكن اهالي صيدا صمموا على الموت ابادة احراراً . لا سيما بعد ان سمعوا ان ارتحتشتا قتل ٥٠٠ وجيه من وجهاء مدينتهم الذين كانوا قد خرجوا لملاقاته وبايديهم اغصان الزيتون . وفي ساعة قنوط وبأس احرق الصيداويون جميع مراكبهم في الميناء لئلا تحدث احد المواطنين نفسه بالهرب بحرأ ، ودخلوا بيوتهم واقفلوا ابوابهم واستسلموا للموت حرقاً^(٣) . ويقال ان اكثر من ٤٠ الف نسمة هلكوا في هذا الحريق الهائل . وكان في رماد الموتى من ذهب الحلي وفضتها الكثير بحيث ان الملك الفارسي ارتحتشتا باعها بالمزاد . ومن نجا من اهل صيدا قبض عليه وسبي الى بابل . وهكذا اصبحت المدينة الزاهرة ، سيدة المتوسط ، كومة من رماد سنة ٣٥٠ ق . م) وحرم علماء الاجيال التالية من الوقوف على

Diodorus, Bk. XVI, ch.41.

— ١

Diodorus, Bk. XVI, ch. 40.

— ٢

Diodorus , BK . XVI , chs . 43 - 5 : Eiselen , pp . 75 - 7

— ٣

شيء من سجلاتها ووثائقها . وكانت هذه هي المرة الثانية التي تزول فيها المدينة من الوجود زوالاً يكاد يكون تاماً وبزوال صيدا الفينيقية ثم زوال صور من الوجود بعد فترة قصيرة ، لفظت الحياة القومية المستقلة النفس الاخير . وقد كان خراب المدينة وحرقتها صدمة عنيفة بعثت في نفوس اهل المدن الفينيقية الباقية الخوف والهلع فاستسلموا . ولكن استيلاء الفرس على الشاطئ اللبناني الذي اشتروه بالدم والنار لم يدم طويلاً . فانه بعد مرور ١٨ عاماً سقطت الامبراطورية الفارسية الى الخضيض تحت الضربات التي سددتها اليها قوة جديدة غير منتظرة برزت في الغرب : الاغريق .

النواحي الثقافية

انه يصعب على المؤرخ ان يُقَيِّمَ الاثر الحضاري الذي تركه الاحتلال الفارسي للبنان طيلة قرنين من الزمن . فان المصادر التي لدينا ضئيلة ، وهي في اكثرها تنحصر في بقايا نقود ، وبضعة نقوش هنا وهناك ، وبعض اشارات وردت في اسفار التوراة ، وفي كتابات المؤرخين الكلاسيكيين (الاغريق والرومان) . انما هنالك حقيقة بارزة وهي ان حضارة لبنان ظلت حضارة سامية . وكذلك ظلت حضارة سورية حضارة سامية آرامية يغلب فيها العنصر الحضاري الغربي - الاغريقي - اكثر مما يظهر فيها العنصر الشرقي . نعم لقد عثر مؤخراً على تماثيل صغيرة في خرائب قصر في صيدا يعود الى احد ولاة الفرس تشبه الى حد بعيد التماثيل التي عثر عليها في مدينة اصطخر ؛ ولكن النواويس الحجرية العديدة التي



قطعة نقود قيمتها شاقلاق وجدت في صيدا حوالي ٣٨٤ - ٣٧٠ ق . م . على وجه منها تظهر سفينة فينيقية ، وعلى الوجه الثاني ملك فارسي في عربته تجرها الجياد

كشفت عنها في صيدا ، تدل بوضوح على ان فن النحت الاغريقي الاتيكي كان الفن السائد في لبنان في القرن الرابع قبل الميلاد . واصبح الدرهم الاتيكي (قطعة نقود اغريقية) العملة الرسمية السائدة ، وهي عملة راجت قبل هذه الفترة في القرن الخامس . في هذين القرنين (الخامس والرابع) انتشرت صناعة الخزف الاغريقية في جميع اقطار حوض المتوسط الشرقي . فان الانتصار البحري الحاسم الذي احرزه الاغريق على الفرس ، وتضييق الرقعة الجغرافية على التجارة الفينيقية في غربي المتوسط . كانا من الحوافز التي دفعت بالتجارة الاغريقية الى التوسع والازدهار في شرقي المتوسط . كانت تلك الحروب بداية عهد احتكاك عسكري بين الشرق والغرب . وليست فتوحات الاسكندر المقدوني وحروبه في الشرق ، ومن بعده حروب القائد الروماني بومبي ، ثم معاوية الاموي ، وصلاح الدين ، وريكاردوس قلب الاسد ايام الصليبيين ، حتى الازمنة الحديثة عندما ظهر نابليون في جيوشه في مصر ، والقائد الانكليزي اللبني في الحرب العالمية الاولى ، نقول ، لم تكن هذه الحروب سوى تنمة ، لهذا الاحتكاك العسكري السياسي بين الشرق والغرب . ولكنه لم يكن احتكاكاً يقتصر على الحروب وحسب ، بل كان اتصالاً مادياً حضارياً ايضاً . فان بلاد الاغريق التي كانت في القرن السابع قبل الميلاد تقتبس عن الحضارة اللبانية وتتعلم منهم الصنائع والفنون اصبحت الآن (في الخامس والرابع) بلد الحضارة الراقية التي يقتبس الغرب عنها ، واصبح الاغريق ينشرون الحضارة بعد ان كانوا يقتبسونها عن الغير . حتى انه في القرن السادس قبل الميلاد بدأت جاليات اغريقية تجد لنفسها مستوطناً على طول الشاطئ السوري - اللباني . وقبل فتوحات الاسكندر بقرن من الزمن كانت جماعات وجاليات اغريقية من تجار وصناع قد استقرت في المدن الساحلية .

القِسْمُ الثَّالِثُ
العصر الإغريقي - الروماني

الفصل الحادي عشر

الاسكندر المقدوني وغلناؤه : السلوقيون

كان فيليب المقدوني ، الذي بوأ بلاده مركز الزعامة بين الدول الاغريقية ، قد اعد العدة لتحرير المدن الاغريقية في آسية الصغرى وهي المدن التي كانت قد وقعت في قبضة الفرس . وكان يحلم بأن يرد يوماً الزيارة الملوكية التي قام بها داريوس واحشويرش الى اليونان . ولكن القدر لم يمهله اذ انه وقع قتيلاً بطعنة خنجر . فكان على ابنه الاسكندر ، الذي كان يفوق اياه همة وطموحاً ، ان يحقق هذه الامل .



قطعة نقود من سك الاسكندر المقدوني وجدت في عكا . على وجهه يظهر راس هرقل وعلى الوجه الآخر الاله زفرس جالساً على عرشه ممسكاً بيد الصولجان وباليدين الاخرى المدودة نمراً

هزيمة الفرس في معركة ايسوس

كان الاسكندر فتى ابن عشرين سنة لما زحف ربيع ٣٣٤ ق. م. على رأس جيش يقرب عدده من ٣٥ الف رجل ، فعب الدردنيل واجتاح آسية الصغرى التي كانت آن ذاك ايلة فارسية . ثم تابع سيره جنوباً الى المضائق الكيليكية في جبال طورس ، وما كاد يسير قليلاً في السهول المنخفضة في شمالي سورية حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٦ - ٣٣٠) على رأس جيش خليط من مختلف الشعوب والطوائف ، يفوق جيش الاسكندر بثلاث مرات عدداً . يقول المؤرخ

اليهودي يوسفوس^(١) الذي وضع تاريخه حوالي ٧٠ ميلادية ، ان جميع سكان آسية « كانوا موقنين ان الجيش المقدوني لن يجرؤ على مقابلة الجيش الفارسي بسبب تفوق الفرس في العدد » . وقد ابدى هذا الرأي المؤرخ اليوناني ديودورس الصقلي الذي سبق يوسفوس بقرن واحد^(٢) . ولكن تقديرات هذين المؤرخين لم تكن لتتطبق على الاسكندر . فقد هزمت جيوشه (في عام ٣٣٣) الجيوش الفارسية المتفوقة في العدد شر هزيمة في مضيق ضيق بالقرب من ايسوس . فقد ثبت في هذه المعركة ان النصر كان حليف المتفوق في الدهاء والفن الحربي . وعندما رأى ملك الفرس ، الذي كان يراقب سير المعركة من على عربة فخمة تجرها اربعة رؤوس من الخيل الواحد الى جانب الاخر ، ان جيشه خسر المعركة لاذ بالفرار شرقاً مع من تبقى حوله من جنود ، مخلفاً حريمه في المؤخرة . واحياء لذكرى هذا الانتصار بنى الاسكندر على ساحة الحرب هذه مدينة سماها باسمه : الاسكندرونة . وكان من نتائج هذا الانتصار الباهر الحاسم - الذي لم يكن سوى مقدمة لانتصارات لاحقة - ان ارتفع اسم الاغريق عاليا في البلدان المجاورة والقي الرعب واليأس في قلوب الفرس .

المدن الفينيقية تفتح ابوابها

وقد رأى الاسكندر من الحكمة ان يؤمن المواصلات البحرية والبرية . فعدل عن متابعة الجيش المنهزم شرقاً وتابع زحفه جنوباً . غير انه ارسل كتيبة من الفرسان شقت طريقها في وادي العاصي باتجاه دمشق لتحتلها ، اذ كانت دمشق آن ذاك مقر اركان الفرس في سورية . اما هو فقد سار في محاذاة الشاطئ ، فانخذت المدن الفينيقية تفتح ابوابها في وجه الفاتح الجديد الواحدة تلو الاخرى . مثال ذلك ان ملك ارواد ، الذي كان يملك ايضاً على مارثوس وعلى بعض مدن اخرى في المنطقة ، بعث بابنه على رأس وفد للملاقاة الفاتح العظيم . وعندما مثل بين يديه وضع على هامة الاسكندر تاجاً من ذهب^(٣) . وقد استسلمت جبيل

Antiquities, Bk. XI ch. 8, sec. 3 .

- ١

Diodorus, Bk. XVII, ch. 32, sec. 4.

- ٢

Arrian, Anabasis Alexandri, Bk. XIII, ch. 2; *Quintus Curtius, De Rebus Gestis Alexandri Magni*, Bk. IV, secs. 5 - 6.

- ٣

وبيروت الى الفاتح المقدوني دون اية مقاومة . اما صيدا التي كانت قد استحوالت الى ركام من رماد اثر الثورة التي قامت بها ضد الفرس ، والتي اشرنا اليها آنفاً ، فلم تكن في وضع تستطيع فيه ابداء اية مقاومة . فحوصونها لم تُنَّ ثانية حتى زمن الصليبيين . وقد عرض الاسكندر على اثنين من وجهاء المدينة الذين استضافوا قائد الاسكندر وكرموا ان يتوج احدهما ملكاً على صيدا ، ولكن الرجلين أيا هذا العرض الكريم قائلين ان هذا يخالف عرف المدينة ، اذ لا يحق لاحد من الشعب ان يحمل التاج اذا لم يكن ينتسب الى العائلة المالكة . وقد قبل الاسكندر اعتذارهما وقدم التاج وثوب الارجوان وشارات الملك الى احد ابناء العائلة المالكة الذي كان رجلاً فقيراً يتعهد بستان احد الملاكين اسمه في الاغريقية عبد الاومنس^(١) (Abdalominus) .

خراب صور

كانت مدينة صور ، سيدة الشاطئ اللبناني التي تجرأت من قبل فتحدت جحافل شلمنصر ونبوخذ نصر ، الوحيدة بين المدن اللبنانية التي سدت ابوابها في وجه الفاتح . فقد كان تاريخ مدينتهم المجيد ، وكانت انتصاراتهم في الحروب مبعث يقين ان هذا العدو المقدوني الجديد الذي لا يعرفون عن امره شيئاً لن يقهر مدينتهم الفخورة ، هذه المدينة الجزيرة الرابضة في البحر . كانت صور البحرية مبنية على جزيرة طولها ميلان وتبعد عن الشاطئ مسافة نصف ميل . وكان يحيط بها سور علوه ١٥٠ قدماً الى جهة البر . وكان التيار في المضيق البحري شديداً خطراً لا سيما عندما كانت تهب ريح الجنوب . وكان الى جانب سورها المنيع خط حصون آخر : المراكب البحرية الصورية ، فخر الاساطيل في المتوسط الشرقي ، ونواة الاسطول الفارسي . كانت صور تعتمد على هذه المراكب في دفاعها . وفضلاً عن هذا فانها كانت تأمل العون العسكري من جاراتها الى الشمال . وقد تعهدت قرطجنة بالمزيد من مساعداتها ، وذلك بارسال افواج الحاجين الى هيكل

١ - اما اسمه الفينيقي فيظهر هكذا : عبد - الت ومعناه ربما عبد الآلهة . اما ديودورس (Bk. XVII, ch. 47) فيجمله خطأ ملك صور .

ملقارت في المدينة الأم^(١) . ولكن هذه الوعود التي تلقاها اهل صور وهذه المساعدات التي علقوا عليها آمالهم تلاشت رويداً ولم تسفر عن شيء ملموس . وهكذا تعرضت المدينة الى اطول واقسى حصار عرفته في تاريخها المديد . ويظهر ان الاسكندر صمم ان يجعل من هذه المدينة التي جرؤت على مقاومته امثلة لغيرها . فشرع يردم البحر لانشاء طريق عرضها ٢٠٠ قدم تربط بين المدينة البرية والبحرية غير آبه للخسارة الجسيمة في الارواح البشرية . ولا نعرف في التاريخ سابقة لعمل جريء كهذا . اما الحجارة لردم البحر فكانت من ركام البيوت التي هدمها في صور البرية ، واما الاخشاب فكان يقطعها من غابات لبنان . وكان بناء هذا السد بطيئاً يتقدم نحو الجزيرة قيراطاً بقيراط . كان يقيم فوق رؤوس العمال ستائر من جلود ليقبهم شر النبال والحجارة التي كان يقذفهم بها حراس الاسوار في صور البحرية . ولم تقتصر مقاومة الصوريين البحريين على استعمال القوس والمقلع ، ولم يكتفوا بارسال الغواصين لعرقلة اعمال البناء في السد ، وانما انشاؤا مواكب نار صغيرة محملة بالزفت والكبريت ومواد اخرى شديدة الاشتعال لقفزها على العمال وادوات البناء الخشبية . واخيراً عندما علم الصوريون ان الاسكندر نجح في الاستعانة بثمانين مركباً حريباً جاء بها من صيدا وجيبل وارواد ثم عززها بقطع بحرية من قبرص ورودس ادركوا ان النهاية تقترب . فجمعوا النساء والاولاد والعجزة الذين لا يرجى منهم خيراً في الاعمال الحربية وارسلوهم الى قرطجنة . اما الاسكندر فترك الحصار يأخذ مجراه وقاد بنفسه حملة كثيرة المخاطر لتأديب القبائل العربية في لبنان الشرقي .

ظلت المدينة الناعسة ترد هجمات المهاجمين العنيفة طيلة سبعة اشهر طوال . واخيراً في منتصف شهر تموز عام ٣٣٢ استسلمت . وقد قتل من السكان نحو ٨ الاف رجل سقطوا في المعركة . وصلب المقدونيون الفتي رجل على الشاطئ المقابل ، وباعوا في سوق النخاسة ٣٠ الف نسمة كما تباع العبيد . وقد هرب البحارة الصيدانيون خلصة جماعة من اهالي المدينة وبعثوا بهم الى صيدا « متذكرين

١ - يبدو من وعد قرطجنة بارسال العون الى صور في محنتها ان المستعمرات كانت ترسل نوعاً من الخراج الى البلد الام . ويظهر ان اهل قرطجنة كانوا يرسلون هذا الخراج الى هيكل الاله ملقارت في صور . وقد استمرت هذه العلاقة بين المستعمرة والبلد الام الى زمن حصار صور على ايدي المقدونيين .

رابطة النسب بينهم وبين اهل صور^(١). اما الذين لجأوا الى حرم هيكل ملقارت فقد نجوا من حد السيف . وكان من جملتهم حامي المدينة البطل الشجاع وملكها عز الملك (Azimelcus) . أما الفاتح المنتصر ، الاسكندر ، فقد سار على رأس جنوده ، مرتدين كامل اسلحتهم ، فدخل هيكل ملقارت - وكانوا يقرنونه بالههم هرقل الذي كان الاسكندر يدعي بأنه من احفاده - وقدم ذبائح الشكر . واقام المقدونيون بعدها حفلة العاب رياضية وسباق بالمشاعل^(٢) . كانت هذه نهاية الدور العظيم الذي لعبته صور في التاريخ . وكان هذا الحصار آخر حصار عانته المدن الفينيقية على ايدي الغزاة والذي قاومته بضراوة شديدة . وقد سجل التاريخ للبنانيين غير مرة موافقهم المحيطة للدفاع عن بلدهم .

نهاية الامبراطورية الفارسية

خلف الاسكندر صور وراءه مدينة خراباً اكلتها النيران ، مدينة تكاد تكون خاوية من السكان ، وتابع زحفه نحو غزة . كانت غزة فيما مضى احدى المدن المشهورة التي احتلها الفلسطينيون . وكانت ، لما هاجمها الاسكندر ، مركزاً تجارياً مرموقاً ، لانها كانت شبه مستودع للبضائع الثمينة المستوردة من شبه الجزيرة العربية (البخور والتوابل) . ولم تكن المقاومة التي ابدتها المدينة باقل ضراوة او شجاعة من تلك التي ابدتها صور . ولكن حصارها لم يطل ، فقد استسلمت المدينة وبيع اهلها ببيع العبيد^(٣) بعد شهرين من الحصار - وفي اثناء الحصار جرح الاسكندر جرحاً بسيطاً . وبسقوط غزة مهد السبيل للفاتح للتقدم نحو مصر . اما مصر فلم تقاوم بل كانت الحرب عندها استبدال غاز جديد بغاز قديم (اي الفرس) . وكان احتلال مصر مساراً آخر دق في تابوت الامبراطورية الفارسية في شرقي المتوسط . واثناء اقامته في مصر وضع الاسكندر اسس الاسكندرية ،

١ - (حيث يعمل العدد ١٥ الف نسمة بما Cf. Curtius, Bk. IV, sec. 16.
 Diodorus, Bk. XVII, ch. 46; Arrian, Bk. 11 ch. 24;
 Josephus, *Antiquities* Bk. XI ch. 8, sec. 3 .
 Arrian, Bk. II, ch. 24.
 ٢ -
 ٣ - Curtius, Bk. IV, sec, 17; Arrian, Bk. II, ch. 27 .

المدينة التي لا تزال تحمل اسمه . وهي التي قُبِضَ لها ، فيما تلا ذلك من عصور ، ان تحتل مكانة عالية في التجارة الدولية ، ومركزاً حضارياً أغريقياً مرموقاً ، لانها اصبحت الوريثة الشرقية لحضارة اثينة ^(١) . ثم ان الاسكندر انكفأ شرقاً ماراً في سهل البقاع ووادي العاصي متجهاً نحو الفرات . ومرّ في بلاد ما بين النهرين باتجاه شمالي شرقي عابراً نهر دجلة في نقطة تقع شمالي موقع نينوى القديمة . وفي السهل الواقع بين نينوى واربيل وقعت معركة بين جيش الاسكندر والجيش الفارسي ، وهو آخر جيش حشده ملك اخميني (Achaemenian) ينتمي الى الاسرة التي منها كورش وداريوس العظيم . وكان النصر فيها لجيش الاسكندر (٣٣١) . اما داريوس فقد نجا من المعركة بنفسه . فتبعه الاسكندر الى اكبثانا (عاصمة ميديا القديمة ، وهمدان الحديثة) ولكنه لم ينج من الموت ، فقد اغتاله هناك متأمران (٣٣٠) ^(٢) . فاقام الاسكندر نفسه وريثاً شرعياً لآخر ملوك فارس .

لم يقف طموح الاسكندر عند هذا الحد بل انه تابع زحفه شرقاً فعبّر نهر سيحون ^(٣) وانكفأ جنوباً ، ماراً بمدينة كابل ، الى شمال شرقي الهند . لكنه بدأ يسمع تدمراً خافتاً كان يديه جيشه المنهوك وقواده المتعبون . فقفّل راجعاً الى مدينة بابل حيث شرب وشرب حتى الثمالة . واخذ يفكر بفتوحات جديدة . غير ان حمى خبيثة هاجمته وهو في قصر نبوخذ نصر ، ومات في شهر حزيران سنة ٣٢٣ قبل ان يكمل عامه الثالث والثلاثين ، مخلفاً وراءه سجلاً حافلاً بالبطولة والشجاعة والصبر العجيب . دخل الاسكندر عالم الاسطورة فاصبح شخصية تدور حولها اقايصيص الابطال . وقد اضفى عليه القرآن الكريم مسحة من القداسة : « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً . انا مكنّا له في الارض وآتيناه من كل شي سبباً ... » (سورة الكهف آية ٨٢ وما يليها) ^(٤) .

١ - Arrian, Bk. III, chs. 1 - 2.

٢ - Arrian, Bk. III, chs. 13 seq.

٣ - اسم النهر في التاريخ الكلاسيكي Jaxartes ، وهو النهر المعروف حالياً بنهر سير داريا واسمه في العربية سيحون وهو تحريف لاسم النهر الوارد ذكره في سفر التكوين ٢ : ١١ فيشون .

٤ - [لم يتفق المفسرون فيما بينهم على شخصية ذي القرنين وليس من المقطوع به انه هو الاسكندر المقدوني] .

الشرق والغرب يلتقيان

ان التبادل التجاري بين فينيقية وبلاد الاغريق الذي توطدت أسسه في العهد الفارسي ازداد ازدياداً كبيراً بسبب فتوحات الاسكندر . فقد رافق التجار الفينيقيون حملته العسكرية ضد بلوخستان، تلك الحملة التي واجهتها شدائد واهوال . وكذلك فعل البحارة الفينيقيون ، فانهم لم يتوانوا عن تقديم كل مساعدة للجيش الاغريقي . وهكذا اجتاحت البضائع الاغريقية والسلع الاغريقية اسواق الشرق الادنى ، وتسربت اليها تيارات فكرية حضارية . وقد شجع الاسكندر الذي كان قد تزوج ابنة داريوس قواده ان يحدوا حذوه فيتزوجوا نساء اسبويات . وحاول الاسكندر ان يربط بين القارتين بروابط المحبة والزواج الشرعي وبخلق جيل جديد يتخذ الاخوة له شعاراً لا كما حاول ان يفعل زركسيس الفارسي (احشويرش) بربط اوروبة وآسية بجسر من خشب او بروابط تافهة عرضة للزوال^(١) . ورغبة منه في تحقيق حلمه بتأسيس دولة عالمية واحدة لها شرائع موحدة ولغة واحدة فانه انشأ أكثر من سبعين مركزاً لتستوطنها جاليات مقدونية . وقد زاد السلوقيون والبطالسة ورثته عدد هذه المدن فيما بعد . وعلى ممر الايام زاد عدد سكان الاغريق في هذه المدن وذلك عن طريق التجار والصناع وارباب الاعمال ، فاصبحت هذه المدن مراكز اشعاع اغريقي للدين والحياة السياسية والفنية والافكار العلمية من سورية الى شواطئ الهند . ولم يقو مر الزمن على محو الاثر الفكري الذي خلفته هذه المراكز الاغريقية . ولم يكن مجرى التفاعل الفكري ذا اتجاه واحد بل ان اهل هذه المدن الاغريقية نفسها تأثرت بالافكار الشرقية الجديدة ، وتبنت طقوساً دينية غريبة عنها ، وتعلمت فنونا تجارية دولية جديدة ، وتعرفت الى سلع وبضائع جديدة وحجارة كريمة لم يعهدها الناس من قبل . واصبحت اللغة الاغريقية تدريجياً لغة الفكر الراقي في جميع انحاء العالم المتمدن . ولما ظهر السيد المسيح على الارض بعد انقضاء ثلاثة قرون على هذا ، بلغ رسالته بالآرامية ، فعكف الآباء الاول على نقلها الى اللغة الاغريقية الشائعة في الطبقات المفكرة كي يفهموا الرسالة .

ولا ريب في ان اعظم تقدم ثقافية فكرية قدمها الاسكندر للعالم كانت افساح المجال الحضاري لتندمج فيه المدينة الاغريقية ، بافكارها الجديدة ومؤسساتها ، بالمدينة الشرقية لينشأ عن هذا الاندماج مدينة جديدة نشيطة تعرف بالمدينة الهلينية .

بين حجري الرحي

ولكن بموت الاسكندر الفجائي سقطت امبراطوريته الشاسعة الاربعاء التي انشأها في فترة قصيرة من الزمن . فقد دب الخلاف بين قواده واحتربوا فيما بينهم عند اقتسام اجزائها . واخيراً بعد فوضى مريرة ظهرت اربع ممالك على رأس كل واحدة منها قائد من قواده الاربعة : بطليموس في مصر ، وسلوقس في بابل ، وانطيغونس في آسيا الصغرى ، وانطياتر في مقدونية ولما اعتر انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه اربعة قرون معتبرة نحو رياح السماء الرابع^(١) . في هذه الفترة من التطاحن كانت المدن الفينيقية مثل كورة تتقاذفها الايدي فتنتقل من قائد اغريقي الى آخر . وكان اول قائد ولي سورية^(٢) باجمعها لاومدون . غير ان حكمه عليها لم يطل اذ انه في عام ٣٢٠ انتقل لبنان وسهل البقاع (سورية المجوفة) حرباً الى بطليموس الاول مؤسس حكم البطالسة في مصر . وبعد ٥ سنوات انتقلت فينيقية من يد بطليموس الى يد انطيغونس حاكم آسيا الصغرى . وفي عام ٢٩٦ انتقلت من يد انطيغونس الى سلوقس الاول مؤسس المملكة السلوقية في سورية ؛ وكانت انطاكية عاصمة السلوقيين ومركز الحكم فيها . وبعد عشر سنوات انتقلت فينيقية مرة اخرى من يد السلوقيين الى بطالسة مصر . وظلت فينيقية احياناً بكاملها واحياناً اخرى ببعض اقسامها - خاضعة لمصر حتى سنة ١٨٩ . وكذلك ظلت الحدود بين لبنان وسورية مائة عرصة للتغير زمناً ليس بالقصير . ففي عهد بطليموس الاول (توفي ٢٨٣) كانت حدود لبنان الشمالية على محاذاة ارواد وجنوبي حمص ، وحوالي ٢٥٠ تقلصت الحدود الى جنوبي بيروت ، وبعد مضي ٢٥ سنة

١ - دانيال ٨: ٨

٢ - Curtius , Bk. X , sec. 2 ; Diodorus, Bk. XVIII , ch. I sec. 3; —

Appian, *Romaika*, Bk. XI (*Syrius*), sec. 52 .



الالاهة عشروت ، وجد هذا التمثال في صيدا ويعود زمنه الى القرن الثالث قبل المسيح

عادت فامتدت شمالا الى ارواد. فكأن التاريخ كان يعيد نفسه، اذ اصبحت فينيقية بين قوتين متحاربتين الواحدة الى شماليها والاخرى الى جنوبيها تتنازعان السيطرة عليها. غير ان الفارق الوحيد في هذه الفترة هو ان النزاع كان بين البطالسة الى الجنوب والسلوقيين الى الشمال.

تَزَعُمُ صيدا مرة اخرى

في العهد البطليموسي، الذي دام ثمان وثمانين سنة (٢٨٦-١٩٨) عادت صيدا الى احتلال مركز اولي في هذه المنطقة وهي المرة الثالثة في تاريخ المدينة التي تعود فتلعب الدور الرئيسي على مسرح الحياة السياسية. فانها كانت تصك نقوداً باسمها وتملك عليها من تشاء من ابنائها وقد ملك عليها بعض رؤساء كهنة الاله اشمون والآلهة عشروت^(١). ومما يدل على استقلال الصيدانيين الذاتي وحريتهم في التصرف انهم كانوا يطلقون على حكامهم لقب «ملوك». وقد كان نظام الحكم الذي اتبعه السلوقيون في ادارة البلاد تنمة لنظام الايالات الفارسية التي كانت تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي، الذي لم يكن ليتعارض مع الحكم المركزي مما عزز استقلال صيدا. وقد عرف من ملوك صيدا جملة كانوا يسمون ب «تبنيت» او «اشمون - عزر»^(٢) وقد كان تبنيت الاول يلقب نفسه، بكاهن عشروت، وهو اللقب الذي استعمله لاييه اشمون - عزر الاول. ولعل اسم الملك تبنيت هو الذي خلد في اسم قرية من قرى جنوب لبنان تقع جنوبي شرقي صيدا تعرف بكفر تبنيت. اما اشمون - عزر الثاني (حوالي ٢٨٠) فقد وسع ارجاء ملكه حتى ضم اليه صور ويفا اللتين كانتا في مضي تابعتين لعاصمة ملكه صيدا^(٣). وقد عثر عام ١٨٥٥ على ناووسه المنحوت على صورة انسان (راجع الرسم) في المقبرة بالقرب من مغارة

١ - غير ان تاريخ هذه الاسرة مجهول. قابل

Raymond Weill, tr. Ernest E. Row *Phoenicia and Western Asia* (London, 1940), pp. 190-1, Conteneau pp. 65, 68.

٢ - قابل «تبنيت» الوارد ذكرها في سفر الملوك الاول ١٦: ٢١-٢٢

٣ - Cook, p. 32; *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, part I, Vol. 1, p. 15, 11. 19 - 20.

اما «دور» الوارد ذكرها في يشوع ١١: ٢ فهي البرج بالقرب من طنطورا شمالي يافا.

ابلون (ابولو) جنوبي شرقي صيدا . وقد عثر هناك ايضاً على ناووس للاسكندر وعلى نواويس غيره ^(١) . وبعد مضي ٥ سنوات على العثور على هذه المقبرة قام العالم الافرنسي ارنست رينان بحفريات واسعة النطاق في هذا الموقع ^(٢) فعثر على عدة نواويس عند رأسها تمثال رأس بشري او عليها تمثال انسان كامل مستلق على ظهره . ويعود تاريخ بعضها الى القرن السادس ق . م . اما ناووس اشمون - عزر فقد وجد على غطاءه - وهو من الحجر البركاني - اطول نقش فينيقي كتب على قبر . ومحتويات هذا النقش لا تختلف عن محتويات الكتابات العادية التي وجدت على القبور - ازال اللعنات على من يمس القبر بسوء والتأكيد على ان القبر فارغ لا كنوز فيه تستحق السرقة ^(٣) .

تحت الحكم السلوقي

ظلت فينيقية اكثر من ١٠٠ سنة (١٩٨ - ٨٢ ق . م) جزءاً من المملكة السلوقية التي كان مركزها انطاكية في سورية . وقد كانت اولى المحاولات الجدية للاستيلاء على فينيقية تلك التي جاءت عام ٢١٨ على يد انطيوخس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) الذي كان يعتبر ، بعد موت مؤسس المملكة السلوقية ، اعظم فاتح سلوقي . وكان يلقب عن جدارة بانطيوخس العظيم . فقد اجتاح انطيوخس فينيقية بجيشه السلوقيه الظافرة وتابع زحفه جنوباً الى حدود مصر حيث اوقف البطالسة زحفه في معركة رفع ، وارغموه على التراجع الى ما وراء حدود لبنان الشمالية . ولكن انطيوخس لم ييأس ، فانه في حملاته العسكرية التالية التي توجهها بانتصاره في معركة بانياس ^(٤) عام ١٩٨ ، وفق الى تثبيت اقدامه في فينيقية وقد اعتمد الاساطيل الفينيقية في حروبه ضد رومه كما فعل الاسكندر وزركسيس من قبله ، وكما فعل سنحاريب قبل ذلك بنقله بنائى السفن الى بلاده لبناء اسطول ساربه في دجلة الى الخليج الفارسي لمهاجمة بلاد عيلام كما ذكرنا سابقاً .

١ - راجع الرسم . هنالك ٢٦ ناووساً من هذا النوع في المتحف الوطني في بيروت .

٢ - Mission, pp. 439 seq. Pls. XLI, XLII, XLIII .

٣ - Cooke, pp. 30 - 40.

٤ - وهي التي ذكرت في الاناجيل باسم قيصرية فيلبس .

كان خليفته انطيوخس الثالث الكبير ابنه ابيفانوس الملقب انطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤). وقد ترامى الى انطيوخس الرابع ان مصر تعد العدة لحملة تسترد بها الشاطئ اللبناني وسورية المجوفة (البقاع) - وهما عصبا المواصلات بين مصر وسورية - فقرر ان يكون هو البادىء في الهجوم. وكان هجومه من البر والبحر. وكان انتصاره ساحقاً عام ١٦٩ في معركة عند الحصن المعروف بحصن بلوزيوم^(١). وقد وقع فيها ملك مصر اسيراً، وبذا احتل السلوقيون مصر السفلى بكاملها.

كانت امنية انطيوخس الرابع ان يخلق من شعوب مملكته المختلفة وحدة حضارية ثقافية. وقد كانت هذه امنية الاسرة السلوقية. وفي سعيه لتحقيق هذه الامنية كان انطيوخس الرابع، انما يسير على خطى اسلافه.



قطعة نقود سلوقية وجدت في صور وصكت في صور ١٩٦ - ١٨٨ ق م على وجه منها يظهر وجه انطيوخس الثالث، وعلى وجه الاخر ابولو.

كان ملوك هذه الاسرة يأملون ان تلتقي اهداف شعوبهم عند هذه الغاية المشتركة: نشر الحضارة الهلينية. ولم يكن بعسير على الفينيقيين ان يتقبلوا الفكرة. والواقع انهم لم يترددوا في قبولها. مثال ذلك ان صور بدأت تقيم المهرجانات والاحتفالات الموسمية على النمط الاغريقي. ذلك انهم وحدوا بين طقوسهم الفينيقية التي كانوا يمارسونها عند تقديم القرابين وبين الطقوس التي كان يمارسها الاغريق عند اقامة الحفلات والمهرجانات والالعب التي كانت تتميز بها الحياة الاغريقية. وقد حضر انطيوخس نفسه عام ١٧٥ ق م. احد هذه الاعياد. واثناء العيد اعدم انطيوخس اولئك الذين اتهموا منيولس، احد رؤساء الكهنة

١ - وفي العربية الفرما راجع :

Edwyn R. Bevan, *The House of Selucus*, (London, 1902), vol. II, p. 137; Polybius, *Histories*, Bk. XXVIII, ch. 18.

بسرقه الآنية المقدسة من هيكل سليمان وبيعها الى تجار صورانيين وبرشوة قضاته لينجومن القصاص. وقد اقام الصوريون مأتماً مهيباً احتجاجاً على اعدام الضحايا البريئة^(١). غير ان علاقته باليهود ومعاملته لهم كانت تختلف تمام الاختلاف. ذلك ان انطيوخس الرابع بسبب رغبته في نشر الحضارة الاغريقية، واعلانه ربوبيته (ثيوس ايفانوس، ابي الاله ايفانوس الاله المتجسد) اثار حفيظة اليهود لمخالفة هذا لعقيدتهم الدينية. وكان من جراء حقدهم نشوب الثورة المعروفة بثورة المكابيين. ولم يستطع السلوقيون اخماد هذه الثورة العنيفة الا في ايام سيدتس الملقب بانطيوخس السابع (١٣٧-١٢٨) الذي كان آخر ملك من الملوك الاقوياء الشكيمة الذين ينتمون الى هذه الاسرة^(٢).

فترة الاستقلال الذاتي

عندما اخذ ظل السلوقيين بالافول بدأت المدن الفينيقية التجارية تتأهب لنيل الاستقلال وتؤكد ذاتيتها. وقد كانت الخطوة الاولى نحو نيل الاستقلال الذاتي ان تحصل المدينة على اعتراف بحصانتها (asylos). ومن المرجح ان حصانة المدينة كانت تشتري شراء. وقد حصلت صور اولا على استقلالها بهذه الطريقة وكانت امتيازات المدن التي كانت تحصل على مثل هذه الحصانة تشمل الحماية ضد عدو خارجي - وكان اكبر عدو خارجي للمدن الفينيقية آنذاك القرصنة - والاعفاء الكلي او الجزئي من الضرائب الفادحة التي كانت تفرضها السلطة، وممارسة التحكيم القضائي، واعتبار المدينة مأمناً للاجئين السياسيين الذين يأتون هذه المدن هرباً من ظلم سياسي او حيف يلحق بهم من الملك أو من عماله. وكان هؤلاء اللاجئين السياسيون يزيدون في عدد سكان المدن ويعملون على انماء اقتصادها^(٣).

١ - Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, sec I.

وسفر المكابيين الثاني ٤ : ١٨ ، ٣٢ : ٤٩

٢ - للاطلاع على قائمة كاملة بالملوك السلوقيين راجع :

Hitti, *History of Syria*, p. 241, n. i; p. 250, n. i; cf. A. Bouché Leclerque, *Historie des Séleucides* (Paris, 1914) pp. 640 - 1

٣ - M. Rostovtseff *The Social and Economic History of the Hellenistic World* (Oxford, 1941), pp. 844 - 6.



قطعة نقود من بيروت (بريتوس) من القرن الثاني ق.م. على وجه منها يظهر رأس تيشه
إلهة الحظ وعلى الوجه الاخر بعل - بروث على عربة

ان اول مدينة نالت الامتياز بان تكون ملجأ سياسياً كانت مدينة ارواد المنافسة
الاولى لمدينة اللاذقية ومدينة سلوقية^(١)، اذ منحها هذا الامتياز كلينيكوس سلوقس
الثاني (٢٤٦-٢٢٦). وقد صكت باسمها كمية كبيرة من النقود الفضية ثم تلتها في
الحصول على هذا الامتياز مدينة صور التي كان الاسكندر قد خربها. وقد منحها
هذا الامتياز انطيوخس ابيفانوس، ومنذ عام ١٢٥ ق.م. استقلت صور استقلالاً
تاماً، واخذت بصك سلسلة من قطع للنقود مختلفة القيم، بعضها من ذهب. على
الوجه الواحد من هذه النقود نجد صورة او تمثالا لشيء اغريقي (رسم شخص او
رمز لاسطورة اغريقية) مما يدل على شيء من الاعتراف بالحكم المقدوني، وعلى
الوجه الثاني نجد رسماً او صورة لشيء فينيقي (صورة ملقارت مثلاً) مما يدل
ايضاً على شيء من الاستقلال الذاتي. ثم تلتها في نيل الاستقلال بقية المدن
الفينيقية: طرابلس وجبيل وصيدا وعكا. وجميع هذه المدن، بما في ذلك
مرثوس وبيروت، صكت نقوداً باسمها^(٢). ونجد على وجهي قطعة النقود رموزاً
لاسطورتين اغريقية وفينيقية وصور رؤوس ملوك سلوقيين وباعتبارها مدناً
مستقلة كان لها ملء الحق والصلاحيات ان تحسم خلافاتها فيما بينها دون اللجوء الى
الحكومة المقدونية المركزية. فمن ذلك ان مدينة ارواد عازمت على القضاء على منافستها
مرثوس^(٣) فخربتها ووزعت املاكها واراضيتها على سكان ارواد. ولكن لم تلبث
مرثوس طويلاً حتى اعيد بناؤها.

ولكن هذا الاستقلال الذي اصبحت فينيقية تتمتع به الآن هو غير الاستقلال

Strabo, Vol. XVI, ch. 2, sec. 14.

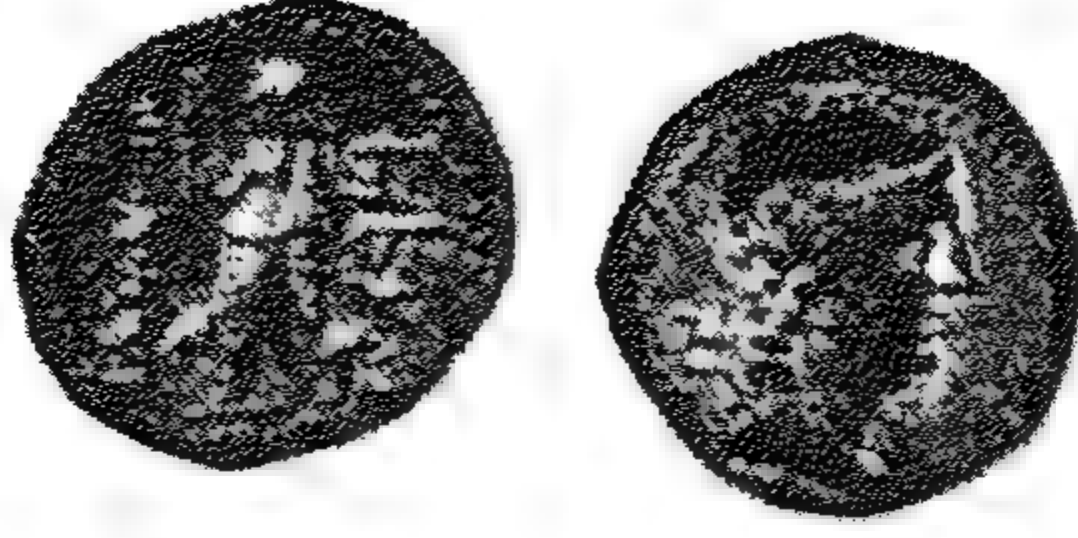
- ١

Bevan, Vol. I, p. 229.

- ٢

Strabo, Bk, XVI, ch. 2, sec. 12; Rostovtzeff, p. 847.

- ٣



قطعة نقود من مارثوس (عمرت) ١٧١-١٧٠ ق.م.

الذي نعمت به من قبل عندما لم تكن هنالك قوى خارجية . لقد كان هذا الاستقلال الجديد اشبه ببناء مزخرف من الخارج فارغ من الداخل . فان الروح المتوتبة - سمها ما شئت روحاً قومية ، او شعوراً وطنياً - فارقت قلوب الناس وانقطعت الاسباب بين التقليد القومي القديم والجديد ، فانطفأت تلك الشعلة التي كان يتميز بها الخلق الفينيقي القومي وخبا ذلك النشاط العجيب الذي عرف به الشعب الفينيقي منذ اقدم الازمنة .

انتفاضة الاسرة السلوقية الاخيرة

تاريخ الاسرة السلوقية اثناء المئة سنة الاخيرة هو قصة فوضى وحروب اهلية وصراع بين عدد من المتنافسين للاستيلاء على الحكم . وقد اصاب لبنان من هذه الفوضى الضاربة نصيب وافر . اما القسم الجبلي من لبنان ، فان السلوقيين لم يعنوا بامرهم بل تركوه وشأنه كما فعل غيرهم من الفاتحين السابقين . غير ان المتاعب السياسية كانت تحيط بهم من كل صوب ، فقد كان اليهود الى جنوبهم يتحينون الفرص للانقضاض على السلوقيين عند اول بادرة ضعف يديها الحكام . وكان الاقباط سكان شرقي الاردن . والفرثيون الى الشمال الشرقي ، والقبائل البدوية الى الجنوب الشرقي من حدودهم يترقبون ايضاً للثورة على السلوقيين . ففي سنة ٧٠ ق.م استطاعت قبيلة عربية ان تؤسس لها ملكاً مستقلاً لم يعترف بسلطة السلوقيين . وكان مركزه حمص . واستطاعت قبائل اخرى كانت تعرف بالقبائل الايطورية ان تؤسس لنفسها ملكاً مستقلاً في سورية المجوفة (= البقاع) كانت عاصمته عنجر (واسمها القديم Chalcis)^(١) . كان الايطوريون قبائل عربية انما كانت لغتها

١ - وهذا اللفظ اغريقي معناه النحاس . اما موقع المدينة فيرجح انه موقع صوبا عاصمة مملكة آرامية قديمة كانت تعرف ايضاً بمملكة صوبا الآرامية .

الآرامية . وكانت بلاد الايطوريين تتسع احياناً فتشمل اقساماً من لبنان الشرقي وهوران وفلسطين^(١) . في هذه الفترة بدأ الايطوريون ان يتسللوا غرباً الى الشاطئ اللبناني فاحتلوا منه القسم الذي يقع بين صيدا وثيوبروسوبون (Theouprosopon وهو ترجمة اغريقية للاسم الفينيقي فنوايل ، اي وجه الله ، اي الرأس المعروف برأس الشقعة شمالي البترون^(٢) ، وخربوا بساتين بيروت وجبيل ، ولذا كان اهل البلاد يطلقون عليهم لقب « لصوص محترفون » . وكان هنالك مدن فينيقية اخرى تعمل على نيل استقلالها المحلي بقيادة زعماء اطلق عليهم المؤرخون الكلاسيكيون لقب طغاة (tyrants) . وهكذا تجزأت سورية الى اجزاء عديدة .

بومي يخلف تيغرانس ملك ارمينية

بينما كانت هذه الامور السياسية تجري في فينيقية ظهر عدو جديد غير منتظر من وراء الحدود الشمالية : تيغرانس ملك ارمينية . فقد ادرك هذا الملك ان الفرصة امامه سانحة لتوسيع حدود ملكه . كان الرومانيون مشتبكين بحرب ضروس مع الفرثيين ، فعقد تيغرانس حلفاً مع حميه ميثراديتس ملك بنطس الواقعة على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر الاسود مكنه من اجتياح جزء كبير من بلاد ما بين النهرين (العراق القديم) وميديا . وفي عام ٨٣ ق . م كان تيغرانس يحارب السلوقيين المستضعفين للاستيلاء على الجزء الشمالي من سورية وكيليكية^(٤) التي كان سكانها يمتون عريقاً الى الشعب الارمني بصلة وثيقة . ولم يكن اهل سورية في وضع يمكنهم من المقاومة لما حل بهم من الضعف اثر الحروب والفتن الداخلية للاستيلاء على الحكم . حتى ان المدن اليونانية ذاتها كانت ترحب بمخلص من الخارج يخلصها مما هي فيه من فوضى وتشويش ويرد اليها الحياة المستقرة . وهكذا خضع جميع من في سورية الى الحكم الجديد . وفي عام ٦٩ تقدم تيغرانس بجنوده جنوباً مهاجماً مدن الشاطئ الى ان وصل الى عكا - وكان اسمها اذ ذاك

١ - انجيل لوقا ٣ : ١

٢ - Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 18 .

٣ - Appian, Bk. XI, ch. 48 .

- ٢

- ٣

بطوليموس ، اي نسبة الى بطليموس الاول . في عهد هذا الملك الذي يلقب نفسه « ملك الملوك » بلغت ارمينية الذروة في التوسع والمنعة . وكان حليفه ، ميثراديتس في هذه الاونة يضم الى مملكته المقاطعات الرومانية في آسية الصغرى^(١)



قطعة نقود من عهد انطيوخوس التاسع . وقد ضربت في صيدا حوالي ١١٢ ق.م. ويظهر على وجه منها رأسه ، وعلى الوجه الآخر اثينة .

مما جعل الجيوش الرومانية تقبل التحدي . ف وقعت الحرب بينهما ، وانهزم ميثراديتس ، فتعقبه الجيش الروماني ، ولكنه لجأ الى صهره طالبا منه الحماية . وقد حماه صهره وابى تسليمه الى الرومانيين . عندها اعلنت رومة الحرب رسميا على تفرانس واضطر هذا الى التخلي عن الاقسام التي احتلها والى الجلاء عنها (٦٨ - ٦٩ ق . م) . واغتم انطيوخس الثالث عشر الملقب بالاسيوي (٦٩ - ٦٥) فرصة هذه الاضطرابات السياسية واسترد مدينة انطاكية والمقاطعة المجاورة لها . ولكن امير اسلوقيا آخر يدعى فيليب الثاني (٦٨ - ٦٤) قام بناوثة شرعية الحكم على انطاكية . وكان هذان الاميران آخر ملوك الاسرة السلوقية في سورية اذ انه في عام ٦٤ ق.م جاء القائد الروماني المشهور بومبي واحتل بنطس ، وهزم ميثراديتس وارغم تيغرانس الارمني على طلب الصلح ، وذلك لقاء تخليه عن جميع الاراضي المحتلة بما في ذلك سورية . وفي هذا العام ذاته (٦٤) احتل الجيش الروماني فينيقية^(٢) وبذلك بدأ عهد جديد : العهد الروماني .

Strabo, Bk. XII, ch. 3, sec. 1.

Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV ch. 4; Appian, Bk. XI, chs, 49 - 50 .

- ١

- ٢

الفصل الثاني عشر

الحضارة الهلينية : النوامي الاقتصادية والثقافية

كان العالم الهليني ، الذي لم تكن المملكة السلوقية سوى جزء واحد منه ، الى حد بعيد ، وحدة حضارية تقوم على رقعة جغرافية متصلة وعلى لغة واحدة للفكر هي الاغريقية . وكان هذا العالم الهليني ينعم ايضاً بانظمة موحدة في النقود والموازين والمقاييس . ولم يقنع السلوقيون بما قام به الساسانيون من قبلهم بشق الطرق وربط الايالات بنظام من المواصلات ، بل انهم حسنوا هذه الطرقات و اضافوا اليها طرقات اخرى مما زاد في نشاط التجارة والصناعة . وقد اتبع السلوقيون في التجارة سياسة تدل على بعد نظر وتعقل . ذلك انهم حاولوا جعل سورية ولبنان مركزاً تنصب فيه السلع التجارية من اواسط آسية للاستهلاك المحلي اولا ولتصديره الى العالم الاغريقي الروماني ثانياً .

التجارة

كان الحرير من الشرق الاقصى ، والحجارة الثمينة من اواسط آسية ، والفلفل والقرفة من الهند ، واللبان والبخور من الجزيرة العربية ، جميع هذه السلع والبضائع التي كانت تعتبر فيما مضى من الكماليات في الحياة ، اصبحت ، بسبب الارتفاع المطرد في مستوى العيش ، من ضروريات الحياة المتمدنة . وقد دخل التجارة عامل جديد : تجارة الرقيق التي راجت سوقها واتسعت كثيراً بين الدول الهلينية وبين العالم الخارجي . فقد كانت الحروب المتتالية تغذي اسواق الرقيق بما تدفع اليها من اسرى الحرب ، وكان القرصان يزودون الاسواق بمن يقنصون . ولنا ان نقول ان اتساع التجارة وازدياد الثروة في العالم الهليني كانا من العوامل التي اثارت مطمع الرومان ورغبتهم الملحة في الاستيلاء على الشرق .

كانت طرق التجارة تتبع خطوطاً من المواصلات قديمة العهد . فقد كان

باستطاعة القوافل القادمة من الجنوب - من مصر والبتراء والساحل الفلسطيني - والمتجهة شمالاً الى انطاكية او سلوقية ان تسير في محاذاة الشاطئء مارة في فينيقية. واما اذا كانت تقصد الشام فانها كانت تميل شرقاً الى سهل مرج ابن عامر بطريق مجدو القديمة او تنحرف شرقاً بعد وصولها الى صور . وقد كانت هذه الطريق طريق قوافل قديمة العهد. والقوافل التي كانت تغادر المدن الفينيقية كان باستطاعتها ان تسير شمالاً في محاذاة الشاطئء الى اللاذقية، او ان تنحرف شرقاً شمالي طرابلس الى حمص . اما اذا كانت وجهة القوافل جنوباً فانها كانت تنحرف شرقاً الى المدن الداخلية عند مشارف صور . والطريق التجارية الدولية في شمالي سورية كانت تتشعب الى طريقين : الاولى تسير باتجاه غربي الى آسية الصغرى والاخرى شرقاً مارة في شمال العراق القديم وايران الى الطريق الكبير المؤدي الى مصادر الحرير ، الى الهند والصين . ثم الى الشرق الاقصى .

الزراعة والصناعة

كانت مصر ، ولا سيما مدينة الاسكندرية ، تنافس سورية ولبنان في تجارة الترانزيت . والى جانب هذا فان الطريق البحرية الجديدة التي كانت تصل فرعاً من النيل بشمالي البحر الاحمر - وهي الطريق البحرية التي كانت تصل البحر الاحمر بالمتوسط والتي سبقت ترعة السويس ومهدت لها - جعلت التجارة تنحرف عن طرق القوافل البرية التي كانت تمر في سورية السلوقية. ويعزو المؤرخون الكلاسيكيون الفضل في بناء المنارة المشهورة على الجزيرة الصغيرة في ميناء الاسكندرية المعروفة باسم فاروس (Pharos) الى فيلادلفوس بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦). وكذلك يعزون اليه الفضل في بناء سد على التربة التي تصل النيل بالسويس مما يؤمن سيادة مصر البحرية في الجزء الشرقي من البحر المتوسط .

ان النتاج الزراعي والصناعي في كل من سورية ولبنان وفلسطين ازداد ازدياداً ملموساً في العصر الهليني . فقد ادخلت الى هذه المنطقة نباتات اقتصادية جديدة ، بعضها عن طريق المقايضة او التبادل بين الشرق والغرب . فان الفستق الحلبي مثلاً ، واسمه يدل على اصله ، جاء من ايران الى سورية حيث لا تزال زراعته



زراعة رابحة مزدهرة . ومن سورية انتقلت زراعته الى اليونان وايطاليا . وقد نشطت زراعة الكرمة والزيتون . وتجارة الاخشاب لم تنخفض عن المستوى الذي كانت تنعم به ايام القراعنة . فان بطالسة مصر ، بسبب قلة الاحراج في بلادهم ، اعتمدوا لبنان مصدراً للاخشاب التي تلزمهم في بناء اساطيلهم . ويظهر ان استغلال احراج لبنان كان احتكاريّاً للسلطة الحاكمة وامتيازاً تتمتع به . وقد شمل هذا الاحتكار ايضاً شجر السرو والشرين والعرعر . أما في حقل النسيج فقد احتفظت فينيقية بالسيادة والاولية . فقد كان الطلب شديداً على الانسجة المصبوغة بالارجوان وظل الصناع الفينيقيون محافظين على مستوى عال من الحذق والمهارة اللذين اشتهروا بهما . وقد تقدموا شوطاً بعيداً في الابتكار والتفنن لسد رغبات اسواق جديدة وزبائن مختلفي الاذواق والميول . كما ان الصناع اللبنانيين ظلوا في الطليعة في صناعة الزجاج . واحتفظوا بما نالوا من شهرة وصيت في هذه الصناعة . وقد كان الاقبال شديداً على الزجاج الذي كانت تصنعه كل من صيدا وصور بصورة خاصة .

هاتان المدينتان كانتا ، حتى في عهد متأخر كالعهد الروماني ، نموذجان الاسواق العالمية آنذاك باحسن انواع الزجاج . وذلك بفضل جودة الرمل على ساحليهما^(١) . أما الزجاج الذي كانت تصنعه هاتان المدينتان مع سائر المدن الفينيقية ، فقد كان من الزجاج المصبوب صباً . ان طريقة صنع الزجاج بالنفخ لم تكن معروفة عندهم . اذ ان اكتشاف هذه الطريقة لم تتم إلا في اواخر القرن الاول قبل الميلاد^(٢) . وقد شاع استعمال الزجاج المصنوع بطريقة النفخ شيوعاً كبيراً في جميع ارجاء فينيقية مما قد يدل على ان هذا الاختراع لم يكن مصرياً كما يزعم البعض . اذ انه لم يكن شائعاً في مصر شيوعه في فينيقية . ولا نريد ان نقول ان الاختراع الجديد في صنع الزجاج قضى على الطريقة القديمة ، طريقة الصب في قوالب ، بل ظلت الطريقتان متبعين جنباً الى جنب .

اما الصناعة المعدنية فقد تقدمت تقدماً كبيراً . كانت ضواحي بيروت غنية

Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 25; Pliny, Bk. V, ch. 17.

— ١

Rostovtzeff, *Social and Economic History of The Hellenistic World*, p. 698.

— ٢

بمعادن الحديد ، والحديد كما هو معلوم ، مادة ثمينة اقتصاديا . ويظهر ان البطالسة استغلوا معادن النحاس في لبنان الى جانب استغلالهم معادن الحديد . وقد ازدهرت صناعة اخرى في هذه الفترة : صناعة ادراج البردي ، واخذ البردي مع الرق (الجلد المدبوغ) يحلان محل الآجرآت للكتابة . كانت مصر - ويأتي بعدها في الدرجة الثانية فلسطين - تمون الاسواق العالمية بالبردي . واسم التوراة في الانكليزية Bible يُرَدّ في اصله الى الاسم الاغريقي لمدينة جبيل وهو Byblos ، من حيث كان الاغريق يستوردون البردي ^(١) . وقد ادخل البردي بلاد الاغريق عن طريق فينيقية حيث كان استعماله معروفاً مألوفاً حتى في القرن السادس قبل الميلاد .

النشاط الاستعماري

ان نشاط التجارة والصناعة في عهد الاسرة البطليموسية والسلوقية أثار في نفوس الفينيقيين الرغبة القديمة في التوسع الاستعماري . ففي عام ١٥٠ قبل المسيح انشأت صيدا مستعمرة في جنوبي فلسطين تعرف بمريسة ^(٢) التي كانت مدينة تجارية هامة زمن البطالسة ، ولكنها تأخرت كثيراً زمن المكابيين كانت مريسة مدينة ايدومية . ويخبرنا يوسيفوس المؤرخ اليهودي ان الذكور فيها آثروا (حوالي ١٢٦ ق. م) ان يختنوا وان يعتنقوا اليهودية على ان ينفوا عن وطنهم ^(٣) . ومما يدل على وجود جاليات صيداوية في فلسطين هو انه اثناء الثورة المكابية طلب الصيدانيون المقيمون في شكيم (نابلس) اذنا بالسماح لهم ان يغيروا الهيكل السامري على جبل جرزيم الى معبد للاله جوبيتر (المشتري) . هؤلاء يجب ان يكونوا جماعة من الفينيقيين الذين اصبحوا هلينيين في تفكيرهم وثقافتهم ^(٤) . وكان لبيروت ، التي كانت تربطها بجزر البحر الايجي روابط تجارية ، مستعمرة في جزيرة رودس . وكانت جزيرة رودس رديحاً من الزمن مركز تجارة عظيمة على

١ - راجع فريجة : « اسماء المدن والقرى اللبنانية » ، مادة جبيل ص ٨٩

٢ - وهي مريشة الوارد ذكرها في التوراة ، يشوع ١٥ : ٤٤ . وفي سفر المكابيين الثاني (٣٥ : ١٢) مريسة ، وموقعها الآن تل السدحنة على بعد ميل تقريبا جنوبي بيت جبرين .

٣ - Josephus; *Antiquities*, Bk. XIII, 9, sec. 1.

٤ - Josephus, Bk. XII, ch. 5, sec 5.

الطريق البحرية من الشرق الى الغرب وقد كان شفيع المستعمرة الفينيقية الاله بوسيدون (Poseïden) . وكان في المدينة هيكل ذو غرف خارجية ملحقة به وأروقة مسقوفة تعرض فيها البضائع الفينيقية . وكان البيروتيون يحتلون في جزيرة اخرى ، جزيرة ديلوس ، المقام الثاني بعد الجالية الايطالية سواء اكان في التجارة ام الاجتماع ام الحياة الدينية . وقد كانت هذه الجزيرة آنذاك مركزاً مشهوراً اقيم فيه مزار للاله ابولو .

انتشار الحضارة

كان لبنان اقدم بلاد في غربي آسية - باستثناء آسية الصغرى - وطّد علاقته التجارية والثقافية مع بلاد الاغريق على اسس ثابتة . نعم ، كان اللبنانيون في هذه الفترة التي نحن بصدددها قد فقدوا الروح الوطنية ، ولكن فقدان الروح الوطنية كان من اشد العوامل فعالية في صهر الحضارتين الاغريقية والسامية في بوتقة واحدة . ولم تقف النعرات الوطنية حائلا دون التمازج الحضاري . وعليه تأصلت جذور الحضارة الهلينية في التربة الفينيقية قبل ان تتأصل في اي من البلدان الآرامية المجاورة . كانت الهلينية في فينيقية نشيطة خلاقة ، رغم ان عدد الجاليات الاغريقية في سورية كان اكبر مما هو في فينيقية كما كانت عليه الحال في انطاكية وفي مينائها سلوقية واللاذقية وافامية على العاصي (واسمها الحالي قلعة المضيق) ولا نعتقد ان عدد الاغريق كان يشكل جزءاً كبيراً من سكان لبنان ، فان الاغريق في هذه البلاد كانوا جماعة صغيرة من المحاربين القدماء والتجار والصناع والعلماء المنتشرين في المدن الساحلية . وكذلك كان عدد الجاليات التي انشأها السلوقيون في لبنان قليلا . ولقد كانت لاذقية لبنان - وعلى النقود « اللاذقية التي في كنعان » - مدينة على العاصي بناها سلوقس الاول على الموقع ذاته الذي بنيت عليه قادش القديمة^(١) (واسم الموقع الآن تل النبي مند) . وقد سميت بلاذقية لبنان ، او كنعان ، تفرقة لها عن اللاذقية الحالية الواقعة على ساحل البحر . وقد اضاف تريفون السلوقي اسم اللاذقية (ولاذقية اصلا اسم يوناني ، اسم ام سلوقس الاول الذي اصبح فيما بعد

١ - Abel, vol. I, p. 128; Cf. Bouché - Leclercque, p. 34; Cooke, pp. 350 - 1.

عند الاسرة السلوقية اسماً محبباً جداً) الى اسم بيروت^(١) التي كان قد خربها الى اساساتها في عام ١٤٠ ق. م. ايام حروبه مع انطيوخس السابع. واخذ الفينيقيون يقلدون الاغريق في تخطيط مدنتهم وبنائهما. فصاروا يبنون المسارح للتمثيل والحمامات العامة والملاعب الرياضية وخلافها من المؤسسات التي كان الفرد يعبر فيها عن مواطنته. وكذلك قلدت المدن الفينيقية المدن الاغريقية في انها بدأت تتخذ حادثة تاريخية هامة معينة وتعتبرها نقطة في الزمن تصلح للتأريخ. فقد اتخذت ارواد عام ٢٥٩ ق. م. نقطة تؤرخ بها الحوادث (اي ان ٢٥٩ ق. م. في تاريخ ارواد اصبح السنة الاولى) واتخذت صور عام ١٢٦ ق. م. وبيروت عام ١٩٧ ق. م. وصيدا ١١١ ق. م. واذا استثنينا صور نجد ان مدنا فينيقية عديدة اخذت تحتفل بالاعياد الاغريقية وكان من الطبيعي ان تنظر الشعوب المغلوبة الى لغة الغالب وحضارته نظرة احترام وتكبير فيقبلون على تعلم تلك اللغة وعلى اقتباس تلك الحضارة. وقد اعترف الفريقان، بما لا يقبل الجدل، بان الحضارة الاغريقية على سمو ورفعة لا يجاريان. ولم يكن الاعتناء بالفلسفة والعلوم والآداب الاغريقية ولا الرغبة في اقتباسها في صور وصيدا باقل منه في انطاكية واللاذقية. ولا نشك في ان المثقف الفينيقي في العهد السلوقي لم يكن يشعر انه غريب في المدينة الاغريقية، بل كان يشعر انه في محيطه وبين اهله. ولم يختلف شعور الاغريقي وهو في ميناء من موانئ فينيقية عن شعور الفينيقي وهو في بلاد الاغريق.

ولكن قولنا هذا يجب الا يفسر بان فينيقيي لبنان وآرامي سورية فقدوا طابعهم السامي. فان اللهجة الآرامية ظلت لغة العامة في سورية، كما ان اللهجة الكنعانية ظلت لغة العامة في لبنان، لا سيما في الارياف. حتى انه في المدن - باستثناء الاحياء الاغريقية الصرفة - كان المثقف من سكان المدينة الساميين مزدوج اللغة، اي انه كان يتكلم لهجة سامية في بيته وفي مختلف شؤونه، وكان يتكلم الاغريقية في الاوساط الفكرية والعلمية، مما له مثيل في عصرنا الحاضر عندما نجد اللبناني يتقن احيانا اكثر من لغة غربية لتحصيل الثقافة وللاتصال بالغرب.

ولكن في عهدي البطالسة والسلوقيين اخذت الآرامية في لبنان محل محلهجة الكنعانية . كانت هذه اللهجة الآرامية التي لا تختلف كثيراً عن الكنعانية (وكلاهما لهجتان ساميتان متقاربتان) قد انتشرت انتشاراً واسعاً بفضل التجارة . ولا سيما شرقاً حيث أصبحت في الامبراطورية الايرانية ، مثلاً ، إحدى اللغتين الرسميتين المعترف بهما . غير ان اللغة الفينيقية (اي الكنعانية) ظلت لغة فينيقية رسمية في كتابة الوثائق والمعاملات الرسمية حتى القرن الاول قبل المسيح . ومن المرجح ان الفينيقيين ظلوا يتعلمونها ويتدارسونها في هياكلهم ومعابدهم حتى بعد انتشار المسيحية في اوائل القرن الرابع للميلاد . والواقع ان الحياة الفينيقية والحضارة الفينيقية لم ينقرضا انقراضاً تاماً . فان فريقاً من اهل لبنان في عهدنا هذا يفخرون بانهم ينتسبون الى الفينيقيين ، ويباهون بالارث الحضاري الذي تحدّر اليهم من اجدادهم ، ويفخرون بالمآتي الحضارية التي قدمها اسلافهم للعالم . حتى ان مهاجري لبنان في زوايا الارض الاربع اذا انشأوا نادياً سموه باسم يذكرهم بفينيقية ، واذا اسسوا جمعية اطلقوا عليها اسماً يذكرهم بالماضي البعيد .

ويجب ان نتذكر بان هذا التغلغل الحضاري لم يكن ذا مجرى واحد، اي من الغرب الى الشرق . فكما ان الشرقيين تمغربوا كذلك تمشرق الاغريق ايضاً . فقد دمج الاغريق آلهة سامية في عداد آلهتهم ، فاصبح الاله بعل زوس واصبح ملقارت هرقل . واصبحت الطقوس الرمزية التي كانوا يقيمونها لتموز وعشتروت طقوساً رمزية اغريقية يقيمونها لادونيس وافروديت . وكان بعض الملوك السلوقيين يضيفون اسماً سامياً الى اسمائهم^(١) . والحقيقة ان العالم الاغريقي اخذ عن الحضارة الشرقية ما لا يقل عما اخذه الشرقيون عنهم .

فلاسفة وشعراء

لم يتحدر الينا من الآداب السورية واللبنانية في العهد السلوقي شيء يذكر . فكأن الآداب الوطنية تقلص ظلها امام آلهة الفنون الجميلة عند الاغريق ، وشعرت بكثير من مركب النقص . ولكن لنا ان نزعّم بان كثيرين من الادباء الذين خلفوا

لنا اثاراً ادبية مكتوبة بالاغريقية في ذلك العهد كانوا من اصل لبناني او سوري ،
انما كانت اسماؤهم اغريقية . ففي يومنا هذا نعرف لبنانيين اصلين يسمون باسماء
عربية (او شرقية) انتجوا ادباً وشعراً رفيعاً باللغة الافرنسية .

زينون مؤسس المدرسة الرواقية

لم يظهر في لبنان الهليني^(١) في العهد السلوقي عالم بارز . وفي حقل الشعر لم ينشأ
شاعر من الطراز الاول . اما في حقل الفلسفة فقد كان جلهم من المدرسة الفلسفية
المعروفة بالرواقية . وقد كانت الفلسفة الرواقية بروحها مما يتلاءم مع العقلية السامية
ومع نظرتها الى الحياة . والواقع ان مؤسس هذه المدرسة الفلسفية كان رجلاً
قبرصياً - فينيقياً اسمه زينون^(٢) (حوالي ٣٣٣-٢٦٢ ق.م.) . ولد زينون في مدينة
كيتيوم وهي مستعمرة فينيقية في جزيرة قبرص . وكان يعرف عند معاصريه بانه
كان فينيقياً . ولما كان في طريقه بحراً الى ميناء اثينة ، بيريه ، غرق المركب الذي
كان مسافراً عليه ، وكان محملاً بالارجوان ، فنجا زينون بنفسه واتى اثينة مركز
الفلسفة آنذاك . كان في الثلاثين من سنه . فاخذ يعلم (٣٠٢) في احد النوادي العامة
المسمى بـ Stoa Poikile اي الرواق المدهون ، ولذا سميت مدرسته الفلسفية
بالرواقية . كان زينون يتقشف في لباسه ومأكله . كان نحيف البنية ، اسمر البشرة ،
متجعد الوجه ، متقلص الحيا ، يمشي ورأسه منحرف . « وكان مغرمًا بأكل التين
الطازج ، ويجب ان يجلس في الشمس^(٣) » . وكان من بين تلاميذه المخلصين
المعجبين به انطيوخوس ملك مقدونية وحفيد قائد الاسكندر . ولعل الملك انطيوخوس
من اوائل من احب الفلسفة واغرم بها . فكان يغدق العطاء لزينون في كل مرة
يأتي الى اثينة . ولكن زينون لم يأبه لهذه العطايا وبذلك كان موقفه منسجماً مع تعاليمه .
وطالما دعي لزيارة بلا ، عاصمة مقدونية ، والح عليه في ذلك ، لكنه ابى ان

١ - اي الواقع تحت التأثير الهليني اي الحضارة الاغريقية التي انتشرت في حوض المتوسط بعد
فتوح الاسكندر

٢ - وقد درس على استاذ من اتباع سقراط من مدينة صيدا واسمه ايضاً زينون .

٣ - Diogenes Laërtius, *Lives of Eminent Philosophers*, Loeb Classical Library (London, 1925), Bk. VII, sec. 1.

يقبل الدعوة ، وقد كتب زينون في شبابه مؤلفاً عنوانه « الجمهورية » يصف فيه الدولة المثالية التي لا تعرف حدوداً قومية يشعر كل من فيها انه مواطن حر . وكانت النساء والاملاك في هذه الدولة ملكاً مشاعاً . هذه المثالية في الدولة والحكم كانت بمثابة رجاء وامل لاحلال السلام بين الامم . ورغم ان هذه المثالية يشوبها شيء من الغموض وعدم الوضوح فقد ظلت هدفاً يسعى اليه الانسان الفاضل . وواضح ان هذا الفيلسوف الفينيقي كان يمثل انسان العالم الجديد، العالم الذي خلقتة حروب الاسكندر المقدوني وفتوحاته .

كان الخلق في نظر زينون نظاماً شاملاً يقوم على المعرفة . كان الخلق عنده فلسفة اساسها الطبيعيات ووسيلتها المنطق وغايتها الاخلاق فانه في فلسفته الأخلاقية ، يعتبر الفضيلة الخير الاوحد ، ويرى الشر ضعفاً او فساداً في الخلق ، وليس سوى هذا - كالالم والفقر والموت - مما يعتد به . وعليه فان الانسان الحكيم هو الانسان الوحيد الذي يحوز الخير الحقيقي . وبما انه ليس في استطاعة انسان آخر ان يجرد الرجل الحكيم من فضائله فان الحكيم هو الانسان السعيد دوماً . وهكذا تصبح صورة هذا الرجل الحكيم في فلسفة زينون مثالا للانسانية الكريمة التي يتوجب على الانسان ان يسعى لتحقيقها . ويسهل علينا ادراك نزوع الناس الى فلسفة كهذه والاقبال عليها في عصور كان يسود فيها الشر ويعظم فيها الضيق والبلاء ، كما كانت عليه الحال ايام زينون . وتعتبر فلسفة زينون اقدم نظام فلسفي اغريقي ينظر الى الفكرة الاخلاقية في اطار اممي شامل . ويعد افضل نظام اخلاقي سام عرفه العالم القديم قبل المسيحية . وقد كان لهذه الفلسفة اثر عظيم في بولس الرسول ، رسول المسيحية الاكبر . وبواسطة بولس اصبحت هذه الفلسفة قوة عظيمة ثابتة في المسيحية . وقد كرم الاثينيون زينون صاحب هذه الفلسفة بمنحه تاجاً ذهبياً في حياته ، وعند مماته اقاموا له مأتماً حافلاً ، ثم نصبوا له تمثالا تذكاريّاً من البرونز^(١) . وقد قال عنه احد ثقاة المؤرخين المحدثين انه كان « افضل انسان في عصره^(٢) » . وقد جاء فيما كتب على ضريحه العبارة التالية :

١ — William W. Tarn, *Antigonos Gonatas* (Oxford, 1913), p. 309

n. 106; cf. Diogenes, Bk. VII, secs. 6, 11

٢ — William W. Tarn, *Hellenistic Civilization*, 3rd ed. (London, 1952), p. 330 .

« اما كفاك فخراً ان فينيقية موطنك . ألم تنجب فينيقية قدموس الذي جاء بلاد الاغريق ليعلم الناس الحرف »^(١) .

وهناك فيلسوفان فينيقيان آخران اشتركا في تقديم الفلسفة الرواقية ، وهما بيوثس الصيداوي^(٢) (من رجال القرن الثاني ق.م .) ، وانتيباتر الصوري (٩٥ - ٤٦ ق.م .) . وقد دحض بيوثس الصيداوي نظرية الحلول القائلة ان الله يحل في كل اجزاء الوجود ، او ان الكون هو الله ، ورفض الاخذ بها . غير انه قسم الكون قسمين ، احدهما الهي ويشمل دائرة النجوم الثابتة . ومن ثم فقد عكف بيوثس على دراسة علم الفلك الذي اصبح عند الرواقيين جزءاً من فلسفتهم . اما انتيباتر فقد حمل الفيلسوف الروماني كاتو اليوتيكي^(٣) من شمالي افريقية على اعتناق الفلسفة الرواقية . وهناك فيلسوف صوري آخر اسمه ديودوروس (١١٠ ق.م .) كان على رأس المدرسة الفلسفية التي تعرف بالمشائية في اثينة . واسم هذه المدرسة الفلسفية مشتق من لفظ اغريقي : Peripatos وهو رواق مسقوف في الأكاديمية التي كان يعلم فيها ارسطو . وقد اشار شيشرون الى ديودوروس^(٤) . كان ديودوروس يقول بان الخير الاعظم هو الجمع بين الفضيلة وعدم الألم . وهذه النظرة توحي لنا انه كان يحاول ان يجمع بين فلسفة الرواقيين والابيقوريين . ومع ان فلسفته كانت اقرب في روحها الى النظرة الاغريقية مما هي الى النظرة السامية فان الفلسفة الابيقورية كانت تجد لها انصاراً واتباعاً من بين السوريين واللبنانيين . وقد كان زينون^(٥) الصيداوي الذي ولد حوالي ١٥٠ ق . م على رأس المدرسة الابيقورية في اثينة حيث كان شيشرون يحضر مجالس تعليمه ومحاضراته . والى جانب عنايته بالفلسفة فانه كان يبدي نشاطاً فكرياً في مبادئ علم الهندسة . وظاهر ان المفكرين والكتاب اللبنانيين في تلك الاعصر كانوا ينشدون آفاقاً ارحب للتعبير

Diogenes, Bk. VII, sec. 30 .

— ١

٢ — هناك رجل آخر من صيدا يعرف بهذا الاسم ، بيوثس الصيداوي ، وقد درس عليه سترابو الفيلسوف الارسطوطاليسية . وهو من رجال القرن الاول ق. م .

٣ — وهو الحفيد الاكبر للقائد كاتو الذي اصر بشدة على ان تدم قرطجنة ويزول اسمها من الوجود .

De Oratore, Bk. I, ch. 11.

— ٤

٥ — لا يزال اسم « زينون » من الاسماء الحية في لبنان وبه يسمى الاطفال . وهناك عائلة تعرف بآل زينون .

عن نشاطهم العقلي ، ومجالاً ارحب مما كان بوسع بلدهم الصغير ان يفتح امامهم ، تماماً كما نشهد في لبنان في يومنا هذا حيث نجد النشاط الفكري يتعدى حدودهم الطبيعية الضيقة .

لا نستطيع القول ان الادباء الفينيقيين والشعراء الفينيقيين الذين تبنوا كانوا في نتاجهم الادبي والشعري على جانب كبير من الابداع والخلق . كان نتاجهم الادبي يتميز بالتنوع والتصوير المزخرف - ولكنه لم يكن على عمق في التفكير - والتقدير لكل جمال طبيعي واحساس مرهف يتجاوب مع الفكر والمتناقض . كثيرون من هؤلاء الادباء والشعراء كانوا يبرزون في الارتجال ، شأن الرجال اللبناني اليوم . وكانوا يفوقون معاصريهم بنظم المقطوعة الصغيرة التي تحوي فكرة واحدة معينة او نكتة ساخرة ، او هزءاً لاذعاً . واحسن مثال على هذا النوع من النتاج الادبي ما نظمته وكتبه الشاعر انتيباتر الصيداوي الذي ولد في صور وعاش في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد . فقد اعتبره شيشرون^(١) شاعراً . ويقص علينا بليني^(٢) ان انتيباتر كان يصاب بدور حمى كل سنة في يوم عيد ميلاده الى ان مات . كان هذا الشاعر ينظم المقطوعة الصغيرة الصالحة للاهداء او للتكريس او للتأريخ او للانصبه على القبور . وقد بقي لنا من هذه المقطوعات ٧٥ مقطوعة حفظت في « ديوان الشعر الاغريقي »^(٣) (The Greek Anthology) ولشدة ولعه بالبلاغة والفصاحة فان اسلوبه كان يظهر عليه مسحة من التصنع والتكلف والزخرف تماماً كما كان عليه الاسلوب العربي في عصور الانحطاط . وقد كان انتيباتر يعرف كثيرين من الشعراء الرومانيين الذين عاشوا زمن الجمهورية الرومانية^(٤) . وكان له اثر في حياتهم ونتاجهم . واليك على سبيل المثال مقطوعة من النوع الصالح للثناء او للكتابة على ضريح :

« هل تستطيع الآلهة ان تنجي ابناءها من الموت ؟ »

Bk. VII, ch. 51 .

- ١

Bk. VII, ch. 51 .

- ٢

Bk. VII, secs. 423 - 7 etc.

- ٣

Cicero, Bk. III, ch. 194 .

- ٤

فما بالناسكي على ابنائنا وننوح ؟^(١) ،
وفي المقطوعة التالية ذكرى مستحبة لاقامته في ميناء فينيقي :
« آن وقت رفع الشراع ، فلا الموج بلاطم الموج
ولا العاصفة القائمة تشوه جمال الافق البعيد
السنونوييني عشه في السقف والاوراق الندية تضحك
مرحاً في المروج . ارفعوا السلاسل ايها الملاحون
فقد سئمت السلاسلُ الماء . ارفعوا المرساة
المطمورة في الرمال . انشروا الشراع . هكذا يقول رب
المرفأ ، ابن باخوس^(٢) »

وقد كان هذا الشاعر اقدم من عدد لنا عجائب الدنيا السبع : اهرام مصر ،
وجنائن بابل المعلقة ، وتمثال زفس في اولبيا ، ومعبد ارطيميس في افسس ، ومقابر
هليكارنسوس : وتمثال رودوش ، ومنارة الاسكندرية .

كان انتيباتر في فلسفته ابيقورياً اسمعه يقول : « دعنا نشرب ، فالحق ان الحر
مطية الدرب ، واولئك الذين يسرون على الاقدام ينتهون الى جهنم^(٣) » .

وهناك شاعر آخر طريف ظهر في عصر ندر فيه الشعراء ، نغني ميليفر
Meleager (حوالي ١٤٠ - ٧٠ ق . م) ولد ميليفر في غادارا (وفي الاناجيل
كورة الجدرين)^(٤) وقضى حياته كلها في صور . كان يعرف الآرامية والفينيقية
انما كتب شعراً بالاغريقية . وكان يشبه الشاعر انتيباتر في حذقه نظم المقطوعة
الصغيرة . وكان لا يختلف عن ادباء بلاده في حبه الاسفار والتنقل . واخيراً القى
عصا اترحال في جزيرة قوص . هناك جمع اكبر مجموعة من المقطوعات الشعرية النقدية
واقدمها وساماً « الاكليل » . وقد كانت بمثابة ديوان من الشعر المختار لشعراء
قدما . وقد نظم في كل منهم مقطوعة من الشعر شبه فيها كل واحد منهم بزهرة

١ — E. L. Bouchier, *Syria as a Roman Province* (Oxford, 1916), p. 193; cf. *Greek Anthology*, Bk. VII, sec. 8.

٢ — Bouchier, pp. 193-4; cf. *Greek Anthology*, Bk. X, Sec. 2.

٣ — *Greek Anthology*, Bk. XI, sec. 23.

٤ — واسمها الحالي ام قيس جنوبي ترفي بحيرة طبرية . راجع مرقس ٥ : ١ ، لوقا ٨ : ٢٦ .

او شجرة^(١). اما ما حفظ لنا في ديوان الشعر الاغريقي^(٢) (The Greek Anthology) من نظمه فيشمل ١٣٠ مقطوعة جميعها قيلت في الغزل ، وبلغة يكثر فيها البديع والزخرف ، واتي فيها على كل وصف او تشبيه تقليدي في الحب . وفي قصيدة قصيرة اخرى يصف لنا ميليجر سبعة اطفال صوريين يعرفهم . هؤلاء الاطفال جميلو الحلقة شبههم ميليجر باكليل من الزهر : زنبقة حلوة ، وبنفسجة بيضاء فواحة ، ووردة ، وعنقود كرم في زهره ، وعثكول ذهبي من الزعفران ، وضمة من صعتر ، وغصن زيتون دائم الاخضرار . وقد اهدى الحب هذا الاكليل من الزهر الى افروديت . ان كتابات ميليجر وكتابات غيره من الشعراء والادباء تعكس لنا الحياة الاجتماعية كما كانت في صور وفي غيرها من المدن الفينيقية . ويبدو ان الطبقة الغنية كانت تعيش عيشة الترف والبذخ . كانت تسرف في الشراب ، وكان يطربها الغناء الذي كان عمل المغنين المحترفين . كانت النساء يعشن في اجزاء من البيت تفرز لهن خصيصاً ، ولكنهن كن يظهرن في المجتمع . وبما ان الرجال من الفينيقيين كانوا يقضون قسطاً كبيراً من ايام السنة على البحار فقد كان المجتمع الفينيقي يتميز بشيء من الاباحية . واليك مقطوعتين لهذا الشاعر نظمنا للنقش على الضريح :

« صور القابعة على صخرة في البحر مهد طفولتي ، غدارا السورية في موقعها ، الاغريقية في حضارتها ، مولدي . وهل من عجب انني سوري ؟ ايها الغريب ، اننا نعيش في بلد واحد : العالم . ألسنا نحن البشر جميعاً ابناء الفوضى ؟ في شيخوختي كتبت هذه الاسطر قبل ان اوارى التراب ، لان الشيخوخة والموت جاران قريبان^(٣) .

سر ايها الغريب ، سر بصمت وسكون . لا تزعج الشيخ الراقد مع الاموات الاتقياء المكفن بالسبات العميق ، ذلك السبات الذي سيكفن جميع الاحياء ... هنا يرقد ميليجر ابن يقراطس الذي كان يجمع بين دموع الحب الجميل وبين ربة الشعر وطيب العيش . صور ، ربيبة السماء حضنتني يافعاً ، وتربة

Greek Anthology, Bk. IV, sec. 1 .

Bk. V, secs. 147 - 9, 154 - 7, 171 - 80, 190 - 2, 195 - 8 etc.

Greek Anthology, Bk. VII, sec. 417 .

غدارا المقدسة غدتني شاباً ، وجزيرة قوص الحبيبة رعتني شيخاً . ان كنت سورياً فعليك مني السلام ، وان كنت فينيقياً فلك مني التحيات (Naidius) ، وان كنت اغريقياً فرحى بالله عليك اذا مررت بهذا القبر فردد ما قلته (١) .

ومن الواضح ان هذا الشاعر يعكس لنا ، كما يعكس لنا زينون الفيلسوف ، روح العصر الجديد الذي اطل على الشرق بقدم الاسكندر ، تلك الروح الرحبة الآفاق التي تتعدى الحدود السياسية الى الحدود العالمية .

الفصل الثالث عشر

في ظل الحكم الروماني

لبنان مقاطعة في ولاية

لما ضم القائد الروماني بومبي عام ٦٤ ق . م سورية الى الامبراطورية الرومانية ، جعلها اقليماً عرف فيما بعد بالاقليم السوري . وجعل لبنان وفلسطين جزءاً من هذا الاقليم . وبهذا لم يعد لفينيقية كيان مستقل . فقد وضح لاولي الامر من الرومان انه منعا لوقوع هذه المنطقة في الفوضى السياسية التي كانت تتردى فيها ايام السلوقيين المستضعفين عليهم ان يحكموها حكماً رومانياً مباشراً . وفضلاً عن هذا فان البلاد السورية كانت تفصل بين ممتلكات رومة وبين منافستها الى الشرق : ايران . كانت سورية حداً فاصلاً بينهما ، وهذا جعل الرومان ينظرون الى هذه الممتلكات الاسيوية بكثير من الاهتمام . وعليه كان الرومان ينصبون على سورية حاكماً رومانياً كبيراً من درجة قنصل سابق ، ذا صلاحيات واسعة النطاق تخوله فرض التجنيد العسكري وشهر الحرب^(١) . وكان مركز الحاكم الروماني مدينة انطاكية التي كانت عاصمة السلوقيين الزائلة . وكان تحت امرته اربعة جيوش . وكان اول قنصل حاكم على سورية اولس غابينيوس (٥٧ - ٥٥ ق . م .) اقدر قواد بومبي . ثم خلفه كراسوس احد الشركاء الثلاثة الذين حكموا رومة^(٢) . ثم ان الرومان بعد ٨٦ ب . م . استعاضوا عن القنصل بمقوض امبراطوري^(٣) . وقد ابقى الرومان على الحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن اللبنانية الرئيسية

١ - Appian, sec. 51.

٢ - اذا اراد القارئ الاطلاع على قائمة بالحكام عليه ان يراجع :

Gustave A. Harrer, *Studies in the History of the Roman Province of Syria* (Princeton, 1915), pp. 11 seq .

٣ - Joachim Marquardt , *Römische Staatsverwaltung*, 2nd ed., - (Leipzig, 1881), vol. I, pp. 419—20 .

صور وصيدا وطرابلس وارواد . وكذلك ابقى الرومان على الوضع فيما يتعلق بالبلاد التابعة لكل من هذه المدن . ولم يتح لاي من هذه المدن ان تقوم باي دور سياسي هام ، الى ان جاء الصليبيون .

بقيت الامبراطورية الرومانية اعواماً في حالة فوضى سياسية . كان المتنافسون على العرش كثيرين . وكان حوض المتوسط الشرقي مركز دسائسهم واعمالهم الحربية للوصول الى العرش . فجاء يوليوس قيصر (٤٧ ق . م .) الى سورية واغدى على بعض المدن الفينيقية امتيازات خاصة . فاصدر امراً وجهه الى احدى المدن الفينيقية بدأه هكذا : « من يوليوس قيصر الامبراطور والحبر الاعظم والدكتاتور للمرة الثانية الى حكام صيدا ومجلسها واهاليها تحية . »^(١) فلم يعد ملك صيدا او غيرها من المدن ملكاً بل اصبح والياً حاكماً (magistrate) او قاضياً . وعندما انشطرت الامبراطورية الرومانية الى شطرين كان نصيب مارك انطوني الشرقي - بما في ذلك سورية ومصر . وقد حافظ هو ايضاً على احترام الامتيازات التي كانت قد منحت الى المدينتين الفينيقيتين الرئيسيتين صيدا وصور . وفي عام ٣٦ ق . م . عندما وهب مارك انطوني الملكة كليوباترا آخر البطالسة التي « جعلته اسير غرامها »^(٢) البقاع وجميع مدن الساحل من النهر الكبير (Eleutherus) الى حدود مصر استثنى من هذا الاقطاع صيدا وصور « لانه كان يعلم انهما مدينتان حرتان منذ تأسيسهما »^(٣) . ويقال ان كليوباترا كانت قد عزمت على بناء قصر لتلهو فيه مع حبيبها الروماني على هضبة من هضاب لبنان المشرفة على البحر . ولكن اثناء هذا التنافس السياسي ، وفي غمرة تلك الحرب الاهلية ، اغتحم الفرثيون (٤٠ - ٣٨ ق . م .) الفرصة السانحة فانقضوا على المنطقة بكاملها وسلخواها عن الملك الروماني باستثناء مدينة صور . غير ان قواد انطوني استعادت المنطقة بعد فترة قصيرة ، وفي عام ٣٧ ق . م . استعاد انطوني مدينة القدس ونصب هيرودس الادومي (ادوم هي الجزء الجنوبي من شرقي الاردن) ملكاً على اليهودية . وقد كان هيرودس الملك الوحيد التابع للرومان في المنطقة كلها . وبعد انقضاء ستة اعوام انتصر

Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 10, secs. 2,3. — ١

Ibid., Bk. XIV, ch. 13, sec. 1. — ٢

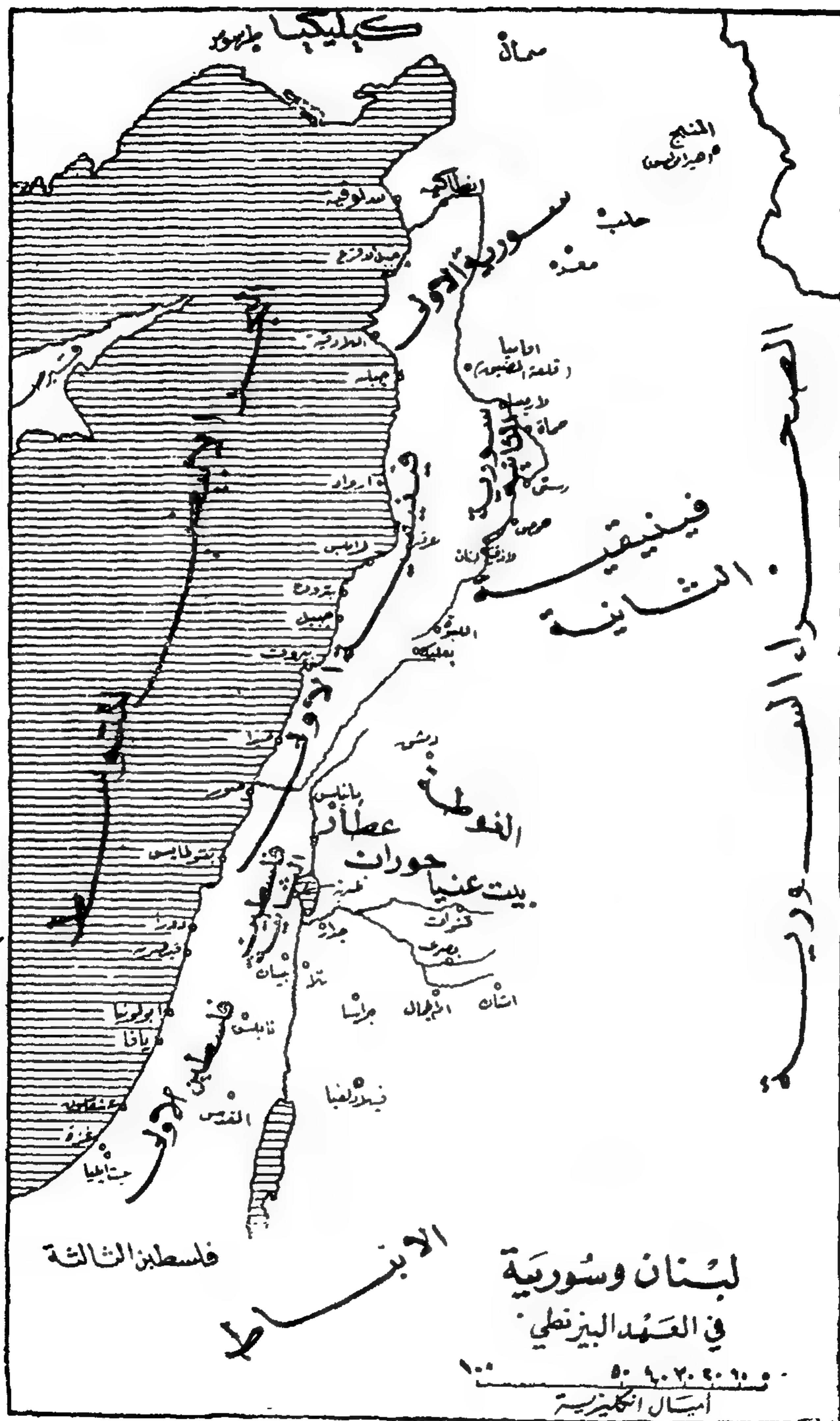
Ibid., Bk. XV, ch. 4, sec. 1. — ٣

اوكتافوس ، احد القناصل في الاتحاد الثلاثي الثاني والامبراطور العتيد انتصاراً حاسماً في المعركة البحرية التي وقعت بالقرب من اكتيوم الواقعة في الجزء الشمالي الغربي لبلاد الاغريق . هذا الانتصار الحاسم جعل منه الحاكم الوحيد غير المنازع وهو بعد في سن الثانية والثلاثين . وقد تابع اوكتافوس زحفه متتبعا جيوش انطوني وكليوباطرا الى مصر حيث انتحر العشيقان . ثم انه قفل راجعاً من مصر واتجه شمالاً ماراً في فلسطين ، ثم في لبنان وسورية . وحيثما كانت تمر جيوشه كان حكام الولايات يرحبون بهم ترحيباً حاراً ينم عن توق الى الهدوء والاستقرار . وفي عام ٢٧ ق.م. اغدق مجلس الشيوخ الروماني لقب « اوغسطس » على اوكتافوس . كان عهد اوغسطس قيصر (الذي مات عام ١٤ ب.م.) فاتحة عهد استقرار وازدهار طويلين للامبراطورية الرومانية .

لبنان على عتبة عصر جديد

وقد وقعت حادثتان تاريخيتان في حقبة واحدة من الزمن كان لهما الاثر البعيد في تغيير مجرى الحضارة العالمية : ظهور الامبراطورية الرومانية وظهور المسيحية . هذان الحادثان غيرا مجرى التاريخ في لبنان تغييراً جذرياً . كانت الامبراطورية الرومانية في اتساع رقعتها اعظم امبراطورية ظهرت حتى ذلك الحين : من الاطلسي والبحر الشمالي الى الفرات ، ومن نهر الرين والدانوب الى الصحراء الكبرى في افريقية . في هذه الرقعة المترامية الاطراف فرض الرومان سلباً واستقراراً سياسياً عرف باسمهم : « السلم الروماني » (Pax Romana) وبعد سنة ١٧٠ م. أصبحت الامبراطورية الرومانية بكاملها في مأمن من الحروب الاهلية الداخلية الخطرة . وقد قيض لهذه الامبراطورية ان تنعم خلال قرن من الزمن كانت نهايته ملك ماركوس اوريليوس (١٦١ - ١٨٠ ب.م) بسلسلة من الابطرة العظام . فقد انشأ هؤلاء شبكة من الطرقات الجيدة التي كانت تربط بين اجزاء الامبراطورية الواسعة والتي جعلت منها وحدة . وقد كان انشاء هذه الطرق شاهداً على كفاءة الادارة في الحكم وعلى حذق في الاعمال

١ - اي بعد ثورة اليهود التي انتصر فيها القائد الروماني طينس وخرب هيكلهم وشتهم في جميع انحاء العالم .



الهندسية . فقد جعلوا من طرق القوافل القديمة غير المعبدة في منطقة حوض المتوسط الشرقي طرقاً واسعة معبدة . وقد اقاموا انصباً عواميد على هذه الطرقات لا يزال بعضها قائماً الى يومنا هذا في لبنان وسورية . وقد كتب عليها اسماء الطرق والمسافات كما نشهد اليوم في بناء الطرق العصرية . واعتنوا اعتناء خاصاً بالمرافق البحرية والجسور واحواض الماء واقنية الري . وآثار هذه باقية الى يومنا هذا في جميع انحاء المنطقة . وفي عهد اوغسطس قيصر انشأ الرومان نظاماً للبريد يربط بين الحكومة المركزية وبين موظفيها في المقاطعات . كانت اعمال القرصنة وقطع الطرق من الامور التي افها الناس غير ان الرومان استأصلوا شأفتها واحلوا النظام بها . وقد بدأ تنظيف المتوسط من اعمال القرصنة في عهد بومبي الذي اقتطع من غابات الارز اخشاباً لبناء سفن لمطاردة القرصان . وقد نجح في عماله هذا نجاحاً تاماً . وقد كان زعماء اللصوص، وجلهم من الايطوريين والعرب، من القوة بحيث اهتم كانوا يبتنون لانفسهم قلاعاً وحصوناً في اعالي لبنان^(١) يلجأون اليها عند الحاجة . وقد استمرت عاصمة الايطوريين، خلقيس ، (Chalsis) عنجر في البقاع) في مقاومة الرومان حتى ايام تراجان (٩٨ - ١١٧ ب . م .) .

لما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى ، فان الادارة الرومانية اهتمت بتأسيس مراكز عسكرية على اطراف الصحراء لحماية الاهلين المتحضرين من هجمات البدو . فأنشأ الرومان على الحدود الشمالية والشرقية سلسلة من الحصون والقلاع للمراقبة والواحات المحصنة لحماية سورية من الفرثيين الى الشمال ومن البدو الى الشرق . ووضعوا مفارز عسكرية عند العيون والآبار لحمايتها، لانها نقاط حيوية في هذه المنطقة الجافة ومواصلاتها . وكذلك وضعوا كتائب رومانية - وجلها من اهل البلاد المجندين - في نقاط استراتيجية . وقد كان عدد سكان سورية في العهد الروماني ، على وجه التقدير ، من ٦ - ٧ ملايين نسمة ، وهو رقم قياسي بالنسبة لهذه البلاد . ففي عهدنا الحاضر نشهد بقاعاً كثيرة في سورية مهملة مقفرة لا تصلح الا لرعي الماشية او بعض الزراعة البدائية التي تعتمد المطر . ولكننا نشهد فيها آثار مدن وقرى كانت في يوم من الايام مزدهرة بال عمران . يدل ذلك على ذلك ما فيها من آثار الآبار واقنية الري . وقد ذكر لنا سترابو



قطعة نقود من صيدا ٢١٩ - ٢٢٠ بعد الميلاد . يعود تاريخها الى جوليا بولا زوجة
الاغبلوس الاولى . وقد ضربت في صيدا . ويظهر على وجه منها رأس جوليا وعلى
الوجه الآخر عربة عشتروت

وبطليموس وبليني اسماء مدن وجزر صغيرة في محاذاة الشاطئ اللبناني كانت
موجودة في ايامهم ولكنها لا وجود لها اليوم ، او اننا لم نتمكن بعد من تعيين
هويتها^(١) .

اما في لبنان فان عدد السكان - وفي هذه الفترة كان جلهم يسكن المناطق
الساحلية - كان قدامداد ، فاخذ بعضهم يتوطن الجبال المتوسطة العلو وسفوحها التي
كانت حتى هذه الحقبة من الزمن كثيفة الغابات . اما في صور وارواد اللتين كانتا
جزيرتين صغيرتين محدودتي المساحة فان الناس اخذوا ببناء الدور ذوات الطبقات
المتعددة ، اي انهم اخذوا بالتوسع علواً عوضاً عن التوسع افقياً كما هي عليه الحال
الآن في المدن الكبيرة^(٢) . فقد كان سكان ارواد يسكنون في ما يشبه ناطحات
السحاب . اما مؤونتهم من المياه فقد كانت من ماء المطر الذي يخزنونه في آبار .
وكانوا ايضاً ينتفعون بنبع عذب تظهر مياهه في المضيق الذي يفصل جزيرتهم عن
البر . اما طريقة الاستقاء من هذا النبع البحري فقد كانت على غاية من البراعة
والابتكار . كانوا ينزلون من قارب قعاً من الرصاص واسع الفم وفي وسطه
انبوب من الجلد . كان الماء العذب يصعد في الانبوب الجلدي فيملأون جرارهم .
وهي طريقة لا عهد للناس بها اذ ذاك . ولا يزال في ارواد الى يومنا هذا احواض

١ - مثال ذلك Pliny, Bk. V, ch. 17, sec. 74 عندما يذكر لنا مكانين يقعان بين
البترون والقلمون : cf. Dussaud, *Topographie «Gigarata and Trieris»* .
pp. 81-2 .

Strabo, Bk. XVI, ch. 2, Secs. 13, 23 .

منحوتة في الصخر لحفظ المياه^(١). اما فيما يتعلق بالبيوت ذات الطبقات المتعددة التي كان يبنوها الصوريون والارواديون فاننا لا نرى لها شبيهاً الا في جنوب غرب آسية (اليمن) حيث كان بناؤها ضرورة لصدهجمات البدو على المدن^(٢).

ان البقايا الاثرية التي يعود عهدها الى زمن الامبراطورية الرومانية منتشرة في جميع انحاء الجبل . فقد بدأ اغنياء الفينيقيين واثرياء الرومان في هذا العهد يبنون لانفسهم بيوتاً للاصطياف في الاماكن المرتفعة التي ظلت الى تلك الفترة من الزمن بلاداً يقطنها الصيادون والرعاة والخطابون والمتنسون . وكان اتقياء الفينيقيين ومتعبدوهم ينتقون الهضاب المشرفة لبناء هياكل لآلهتهم . وقد عثر على تماثيل محفورة في الصخر ، وعلى نقوش كتابية اغريقية ورومانية ، وعلى نواويس وقبور وآثار هياكل واعمدة مطمورة في التراب وغيرها من البقايا القديمة في قرى متباعدة متفرقة مثل شمالان وقرطبا والعاقورة وتنورين واهذن . وقد وجد نقش في نبحا الواقعة شمالي شرق زحلة على الطريق العام الى بعلبك يظهر منه ان موظفاً رومانياً من بيروت مات ودفن هناك . ولعله كان يملك مزرعة حيث تقوم قرية نبحا حالياً^(٣) . ولكن ليس هنالك ما يدل على ان جبال لبنان عمرت بالسكان على مستوى كثيف الا في زمن الدولة الرومانية الشرقية ، اي البيزنطية ، عند اواخر القرون الرابع الميلادي . فانه في زمن المؤرخ الروماني تسيوس^(٤) (حوالي ١٠٠ ب . م .) كانت قم لبنان لا تزال مغطاة بالغابات . ولم يصبح لهذا القسم من الجبل ، القسم الذي يضم الجبال المتوسطة والعالية ، اي اهمية سياسية ، بالنسبة الى الشاطيء ، الا بعد القرن السابع للميلاد حينما هاجرت الى القسم الشمالي منه فرق مسيحية كانت على شيء من الخلاف المذهبي مع الكنيسة الام . هذه الفرق ، بعد ان اندمجت مع غيرها من الفرق التي كانت في لبنان ، اصبحت تعرف بالكنيسة

Renan, *Mission*, p. 40 .

Hitti, *History of the Arabs*, 9th ed. (London, 1957), p. 57

Ch. Clermont - Ganneau, *Recueil d'archeologie orientale*,

vol. IV (Paris, 1901), pp. 288 - 9; *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, vol. III supplement, No. 14384; cf. 14384; M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of The Roman Empire* (Oxford, 1926), p. 567 .

Historiae, Bk. V, ch. 6.

المارونية وكذلك القسم الجنوبي من الجبل لم يكن له اهمية سياسية تذكر الا بعد القرن الحادي عشر ميلادي عندما ظهر فيه الدروز .

طراً على لبنان في عهد الامبراطورية الرومانية تغييران : توسع في الرقعة الجغرافية ، ونظام سياسي جديد . فان مقاطعة فينيقية في القرن الثاني توسعت وامتدت بحيث شملت ليس الجبال فحسب بل البقعة الواقعة شرقيها ايضاً . اما النظام السياسي الجديد فقد حصل عندما تسنم سبتيموس سيفيروس^(١) العرش (١٩٣-٢١١) . فقد كان زواجه من جوليا دومنا ، ابنة كاهن « اله الجبل » سبباً لتوطيد اركان الاسرة السورية - اللبنانية التي حكمت الامبراطورية الرومانية من رومة ، وامر بتقسيم البلاد ، بين عام ١٩٤ ب.م و ١٩٨ الى قسمين : شرقي ويشمل سورية المجوفة وغربي ويشمل فينيقية السورية^(٢) . وفي الفترة البيزنطية اعيد النظر في تقسيم المقاطعات . فقد كانت المقاطعات في عهد قسطنطين الكبير في عام ٣٢٥ ب.م . مقسمة على هذا النمط : المقاطعة العربية (شرقي الاردن) ، وفلسطين ، وفينيقية ، وسورية المجوفة . اما ثيودوسيوس الثاني (٤٠١-٤٠٥ ب.م) . فقد فصل فينيقية اللبنانية (اي الشرقية) عن فينيقية البحرية وجعلها مقاطعة مستقلة ، ومنح مدينة حمص الامتيازات والحقوق التي كانت تمنح للعواصم والمدن الام (الام بالنسبة الى المستعمرات التي كانت قد انشأتها الام في الخارج) . ثم انه كان هنالك ثلاث ولايات كل واحدة منها تسمى سورية - وكانت سورية المجوفة احدها - وفينيقيتان الاولى تسمى فينيقية الاولى (Prima) او البحرية (Maritima) وعاصمتها صور ، ومن مدنها الرئيسية عكا (Ptolemais) وصيدا وبيروت وجبيل والبترون (Botrys) وطرابلس وعرة وارواد . وكان هنالك فينيقية الثانية (Secunda) واحياناً اللبنانية (ad Libanum أو Libanesia) وعاصمتها حمص ، ومن مدنها بعلبك (Helipolis) ودمشق وتدمر^(٣) . وقد ظل

١ - ولد هذا الامبراطور في مدينة لبتس (Leptis) (وهي بلدة الحالية من اعمال طرابلس الغرب) وقد كانت قديماً مستعمرة فينيقية .

٢ - Harrer, pp. 87—90 .

٣ - Marquardt, vol. I, p. 425; Ernest Stein, *Histoire du Bas-Empire*, vol. II, (Paris, 1949). p. 289; cf. Malalas, *Chronographia*, ed. L. Dindorf (Bonn, 1831), pp. 296, 345 .

تقسيم البلاد على هذا النمط الى الفتح العربي .

هذا التغير الذي طرأ على البلاد في العهد الروماني تناول ايضاً اللغة . ففي القرن الثاني الميلادي بدأت الرسوم الميثولوجية الفينيقية التي كانت تطبع على النقود تختفي لتحل محلها الكتابات الاغريقية . وماتت اللغة الفينيقية كلغة التخاطب ، وكذلك الحياة الاجتماعية الفينيقية والمؤسسات الوطنية اصبحت في حكم المات . ذلك ان اللغة الآرامية ، وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح ، جلت محل الفينيقية . وكانت القرانين والشرائع الرومانية تهدف الى القضاء على القومية الفينيقية والى نحو الطابع الوطني والحياة الوطنية . ولكننا لا نستطيع القول بان استعمال اللغة اللاتينية شاع بين الناس جميعاً . فان معرفتها كانت تطلب من الذين ينضمون الى الخدمة العسكرية ومن موظفي الحكومة . بينما ظل سائر الناس يتكلمون اللغة الوطنية . اما في حقل الادب والتجارة فقد ظلت اللغة الاغريقية اللغة السائدة . وفي هذه الفترة كان الانسجام والتوافق التام بين الحضارتين الرومانية والاغريقية - وكلاهما من الشعوب الهندوجرمانية - قد بلغا مبلغهما من الكمال ، مع العلم ان الحضارة الرومانية مدينة بالكثير الى الحضارة الاغريقية فضلاً عن انها كانت وريثتها . كانت الواحدة منهما تكمل الاخرى . فقد كان الاغريق مثلاً على كثير من الضعف السياسي وعلى كثير من النقص والعجز في التنظيم والادارة ، ولكن الرومان برزوا في هذين الحقلين بالذات . وكذلك كان الرومان يفتقرون الى الروح الفلسفية والفنية الجمالية ، بينما كانت الحضارة الاغريقية تتميز بالزراعة الفلسفية وبالغنى الفني الجمالي . وهكذا استمرت الحضارة الهلينية ، بثوبها اللاتيني ، في نشاط وازدهار في لبنان وسائر سورية .

ومن المستغرب ان تظل لهجة فينيقية حية بين سكان شمالي افريقية حتى القرن الخامس الميلادي . هذه اللهجة كانت تعرف عند المؤرخين الكلاسيكيين باللهجة الفينيقية (Punic) . فقد ظل الناس القاطنون حول مدينة هيبو يسمون انفسهم كنعانيين حتى اواخر القرن الرابع للميلاد . وكان مطران هيبو المشهور ، القديس اوغسطين (تو ٤٣٠) يستعمل في مواعظه بعض المفردات الفينيقية . وفي الواقع ان سكان بلدة منعزلة على خليج سرته في ليبيا ظلوا يستعملون اللسان الفينيقي حتى القرن الحادي عشر للميلاد^(١) .

الانتاج الاقتصادي

كان من نتائج التغيرات الجذرية في اللغة والسياسة التي رافقت تأسيس الحكم الروماني في هذه المنطقة ان الشعب اللبناني هب مرة اخرى ليؤكد ذاتيته كقوة فعالة في المنطقة وليحتل مركزه التجاري المرموق تحدوه العزيمة الصادقة والارادة الثابتة. وقد سجلت مدنه البحرية نجاحاً وازدهاراً في التجارة لم تبلغه من قبل ولا من بعد. ولم يقتصر هذا الازدهار على لبنان ، الذي لم يكن سوى جزء من هذه البقعة الكبيرة ، بل تعداه الى جميع انحاء المنطقة . فقد عم السلام جميع ارجائها ، وارتبطت اجزاؤها المختلفة بشبكة من طرق المواصلات لم تعهد لها البلاد من قبل ، واتسعت الاسواق التجارية اتساعاً كبيراً مما كان باعثاً على ازدياد معدل الانتاج الاقتصادي في حقول الزراعة والتجارة .

وقد ادرك اللبنانيون في العهد الروماني اهمية السوق الارروبية وتعاضم الطلب على التاج اللبناني الذي يمكن تصديره الى الخارج . كانت زراعة القنب (الذي تصنع من اليافه الانسجة الكتانية) معروفة في لبنان وفي جميع انحاء غرب آسية . اما القطن ، الذي يظهر ان زراعته كانت قديماً تقتصر على الهند فقد دخل البلاد بدخول العرب . وكانت المدن الفينيقية تصدر الخمر وزيت الزيتون والتمر والجلود والفراء « واجود انواع الطحين »^(١) وقد اشتهرت بيروت بزبيبها « الذي لا يفوقه في حلاوته زبيب آخر »^(٢) وكان الرومان يقدرون جودة خمرها كما كانوا ايضاً يقدرون خمر صور . وقد اشتهر الكتان البيروتي في كل العالم . وفي شرائع ديوكليشان التي تتعلق بالضرائب والمكوس نجد انه راعى بصورة خاصة الضريبة على الكتان اللاذقاني والجبيلي والصوري^(٣) .

وفي اوائل القرن الاول للميلاد كثر الطلب على الخمر اللاذقاني لا سيما من الهند

Athenaeus, Bk. I, ch. 28, sec. a.

Pliny, Bk. XV, ch. 66 .

Theodor Mommsen, *The Provinces of the Roman Empire*, Tr. William p. Dickson, vol. II (London, 1909), p. 137 .

وافريقية^(١). وكانت الغابات الكثيفة التي تجلل قم لبنان مصدراً غنياً للوقود وللأخشاب الصالحة لبناء السفن والبيوت وصنع العجلات وآلات الحرب. فكثرت الطلب على هذه الأخشاب بصورة كبيرة لم تعهدها البلاد من قبل، فشر الناس بضرورة إيجاد القوانين لحماية هذه الغابات وإيجاد طرق فعالة لقطع الغابات وتحضيرها خشباً. لذلك اقيمت حجارة عليها نقوش كعلامات حدود للمناطق الحرجية التي اعتبرت من أملاك الدولة. وقد وجد مثل هذه الحجارة في المناطق العالية من هذه الجبال. وفي أرض الجامعة الأميركية يرى الزائر عموداً حجرياً بركانياً كان قد وضع على قمة تقع بين ظهور الشوير وزحله لتحديد منطقة حرجية وعليه كتابة هذه ترجمتها: «الامبراطور هدريانوس المعظم - مدود العابة». وقد كان هدريانوس، (١١٧ - ١٣٨) قبل ان أصبح امبراطوراً، حاكماً لسورية ولبنان. ولا شك انه ادرك الاهمية الاقتصادية للاخراج فسعى الى حمايتها.

وقد كان هنالك اقبال على المعادن الخام اللبنانية. فانه نسبة لازدياد السكان العام وارتفاع مستوى المعيشة فقد ازداد اقبال العامة من الناس على اقتناء الحلى والمجوهرات. وبالنسبة لازدياد الأعمال الزراعية وبالنسبة لتوسع الصناعة والمواصلات البرية والبحرية فان الطلب على المعادن ازداد أكثر من ضعفين. وفي اثناء الاضطهادات التي قام بها ديوكليشان ومكسيميان بين ٣٠٣ - ٣١٣ ميلادية ضد المسيحيين كان يحكم على الاسرى الذين كانوا يعترفون بمسيحيتهم ويجهرون بها بالأعمال الشاقة في مناجم لبنان، وربما للعمل في مناجم النحاس في منطقة صيدا ومناجم الحديد في ضواحي بيروت^(٢). وقد برهن الصناع اللبنانيون الذين يشتغلون بالمعادن على انهم من ذوي المهارة والحدق وانهم كفء لتلبية طلب الاسواق المتزايد. وقد بلغ نتائجهم، سواء أكان من حيث الجودة ام الكمية، درجة عالية

١ - Wilfred H. Schoff, *The Periplus of the Erythraean Sea* (New York, 1912), p. 77.

٢ - Eusebius, *The Ecclesiastical History and the Martyrs of Palestine*, tr. Hugh J. Lawler and John E.L. Oulton, vol. I (London, 1927) p. 396; F. M. Heichelheim, «Roman Syria», *an Economic Survey of Ancient Rome*, ed. Tenny Frank, vol. IV (Baltimore 1938), pp. 156-7.

من التقدم والرقى . وظلت صيدا في هذه الآونة تمتد اسواق العالم بزجاجها الممتاز كما انها حافظت الى حد بعيد على تفوقها في صناعة النسيج والاتجار به . وكانت هي وصور تصدران الرخام الابيض . وبالقرب من مدينة بعلبك مقالع يستخرج منها الطباشير^(١) .

كانت صناعة النسيج في لبنان تقتصر في الدرجة الاولى على الصوف والكتان . وكانت المواد الخام لهذين النوعين من النسيج متوفرة في لبنان . ومما جعل النسيج اللبناني يتمتع بميزة خاصة هو ان الفينيقيين كانوا يصبغونه بصباغ الارجوان الذي لم تستطع امة ان تجاريهم في صنعه . فقد ذكر الجغرافي سترابو^(٢) (تو ٢٤ ب.م) ان رائحة المصابغ الكثيرة في صور جعلت منها « مقاماً مستكرهاً » .

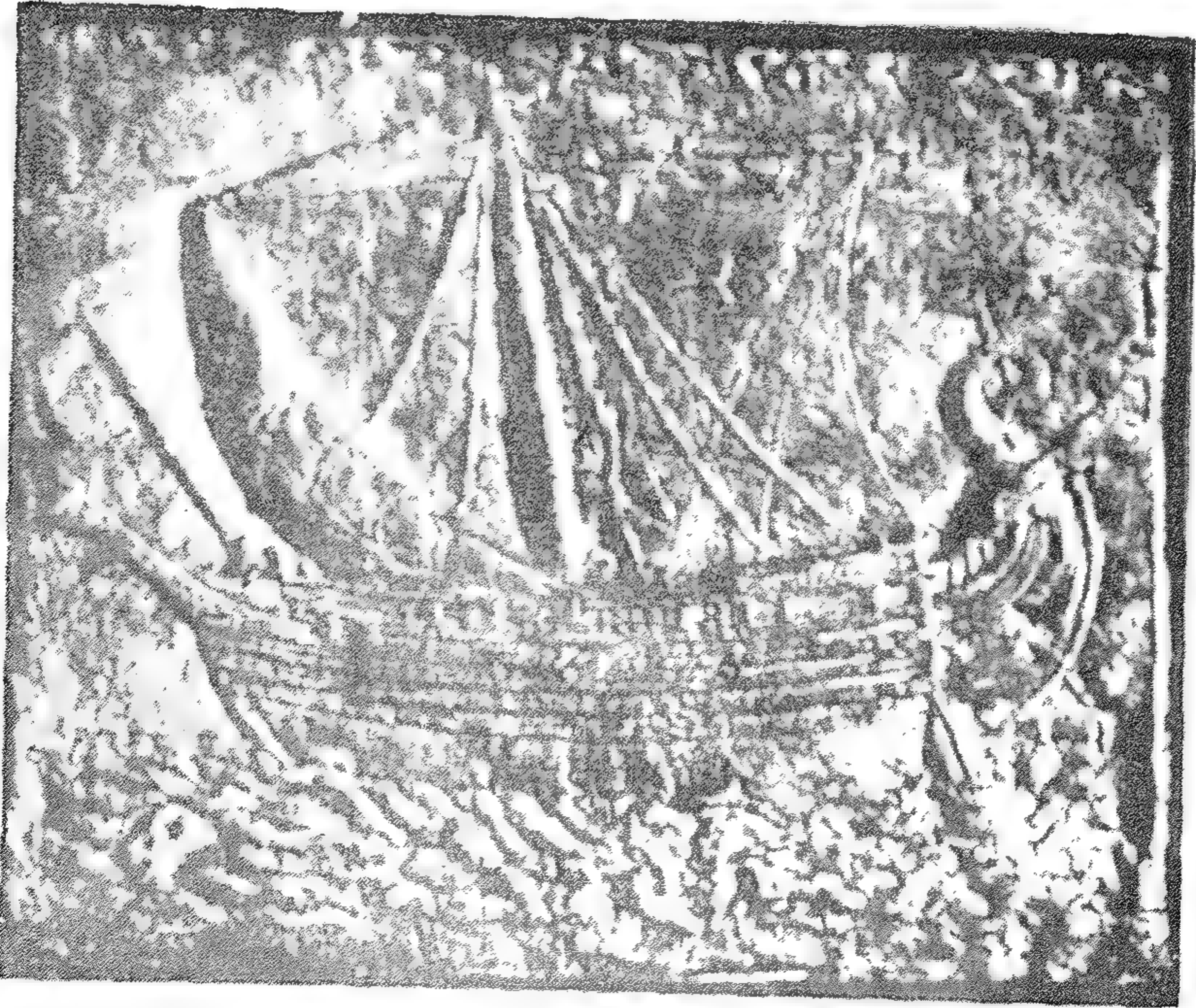
العلاقات التجارية والمستعمرات

وفضلاً عن النتاج المحلي كالحجر والزيت والخشب والثمار المجففة والنسيج ، فقد عني اللبنانيون القدماء ايضاً بدباغة الجلود وصنع الفراء . وكانوا يعنون ايضاً بانتاج الادوية والروائح العطرية والعقاقير وانواع مختلفة من المرهم للتصدير . وقد ظلت صور وصيدا وارواد وغيرها موانئ تستقبل البضائع والسلع الواردة بحراً من جنوب الجزيرة العربية ومن الهند والصين . وقد كانت تجارة الترانزيت قديماً - كما هي حالياً في بيروت - تجارة واسعة مزدهرة . وكانت الطرق البحرية والبرية تستخدم في تجارة الترانزيت ، غير ان الطرق البرية - رغم ان نفقات النقل عليها تربو على نفقات النقل البحري - كانت في نظرهم طرقة سليمة لا تتعرض لخاطر البحار . كانوا يستوردون السكر والارز والحجارة الثمينة من الهند ، والبنهارات والعقاقير وخشب الصندل واللؤلؤ من البلاد العربية وما جاورها من البلدان . اما الحرير فكانوا يستوردونه من الصين . وفي هذه الفترة اقبل اثرياء الرومان على لبس الثياب الحريرية اقبالا عظيماً . وقد كان الحرير حتى ذلك الحين احتكاراً صينياً ، وكان يعد من اثنى الكماليات . ومن المرجح انهم كانوا ينتجون

Heichelheim, p. 157 .

Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 23 .

الحرير انتاجاً محلياً وعلى مستوى ضيق ، وذلك بتربية دودة القز البرية التي نجدها في غربي آسية . غير ان الحرير الصيني الاصيل لم يستورد الى لبنان الا بعد ١١٥ ق. م. كان الحرير الصيني والاقمشة الحريرية الصينية تصل البلاد براً بعد عبور القوافل بلاد الفرثيين ومنها الى تدمير المدينة السورية التي كانت محطة للقوافل التجارية البرية . وقد بلغت مدينة تدمير في الغنى والثروة والعظمة مبلغاً جعل الرومان ينقمون عليها . لذلك خربها الامبراطور اورليان (٢٧٢ - ٢٧٣) . وفي القرن الثالث للميلاد كانت هذه البضائع الشرقية ترد البلاد بحراً من الهند فالى الاسكندرية على رأس الخليج الفارسي وقد عرفت فيما بعد بـ Antochia Chara (وهي غير اسكندرية مصر) . ومن هناك كانت البضائع ترسل الى تدمير او الى دورا اوريه (الصالحية) او البتراء . ومن البتراء وتدمير كان الحرير الخام يصل الى احد الموانئ اللبنانية حيث كان يصبغ ويحاك ثم يرسل اقمشة تروق في عيني الروماني . وقد كان في بيروت وصور انوال يهيا بتراسطتها الحرير الخام لصبغه بالارجوان . وكان الحرير الارجواني اغلى انواع الحرير .



صورة مركب شراعي تحت على ماروس ، حدي صيدا . وهو الآن في المتحف الوطني في بيروت

كانت تجارة الرقيق تسير من الشرق الى الغرب فتمر في الموانئ الفينيقية ثم الى الغرب . فكان التجار يشترون الرقيق من بلدان مختلفة . فقد كان تجار الرقيق يأسرون البالغين من النساء والرجال او يخطفون الصغار او يشترونهم من والديهم ويأتون بهم الى سوق النخاسة للبيع . ومما زاد في عدد الرقيق المدينون الذين لم يستطيعوا وفاء ديونهم . فقد كان العرف القديم ان يستعبد الدائن المدين اذا عجز عن وفاء دينه .

ان علاقات تجارية دولية نشيطة كهذه العلاقات التي انشأها التجار اللبنانيون في هذا العهد تقتضي انشاء وكالات للتجار والعملاء في المدن الاوروبية . وقد كان اولئك الوكلاء والعملاء من سوريين ولبنانيين يعرفون في الغرب باسم عام يشمل الاثنين : « الوكلاء السوريون » (Syri Negotiatores) او المفاوضون السوريون . وفي اوائل حكم اوغسطس قيصر اخذت جماعات كثيرة من اللبنانيين والسوريين تنزح الى الولايات اللاتينية الغربية : تجار سوريون ولبنانيون ، وجنود نظاميون او المرتزقة ، وعبيد وكهنة وممثلون هزليون وموسيقيون ومهرجون وراقصون ولاعبون بالسيف وبائعون متجولون واصحاب الخانات والفنادق . وقد ازداد عدد هؤلاء المهاجرين السوريين واللبنانيين الى الغرب في القرن الثاني . غير ان الهجرة بلغت ذروتها ايام حكم الاباطرة الذين كانوا ينتمون الى الاسرة السورية اللبنانية (١٩٣-٢٣٥) . وكثيرون من هؤلاء المهاجرين الذين ذهبوا كتجار استوطنوا الغرب . يقول الكاتب الروماني الساخر جوفنال (تو ١٤٠ ب.م) : « ان نهر العاصي السوري يصب مياهه في نهر التيبر منذ امد بعيد ، جالباً اليها معه لغته وعاداته وآلات موسيقاه : الناي والقيثارة ذات الاوتار المرتخية »^(١) .

لقد كانت هجرة احفاد الفينيقيين ، اجداد مهاجري السوريين واللبنانيين الى القارتين الاميركيتين ، كبيرة بحيث انها ، كما يقول احد المؤرخين ، « طغت فعلاً على العالم الروماني »^(٢) وكان من نتائجها ، كما يقول المؤرخ ، انهم « استعمروا

١ - Juvenal and Persins, ed. and tr. G. G. Ramsay (London, 1920),p. 37.

٢ - Franz Cumont, *The Mysteries of Mithra*, tr. Thomas J. McCormack (Chicago, 1903),p. 62.

المقاطعات اللاتينية^(١) « كان هؤلاء المهاجرون الفينيقيون موجودين في كل مكان، كما كانوا سابقاً في عهد هوميرس الشاعر الذي يشير اليهم في الاماكن التي جاء على ذكرها في اشعاره^(٢) .

وقد كانت مواطن الهجرة الاولى التي تلقت الموجات الاولى من المهاجرين الفينيقيين الموانئ الابيطائية . فقد كان في مدينة بوتولي (واسمها الآن بوزولي Pozzuoli) ، التي كانت مستودعاً عظيماً للبضائع المستوردة من الشرق الى رومة جالية صورية كبيرة وغنية جداً لا تزال بقايا ابنتها ماثلة للعيان في فيا كامبانا^(٣) (Via Campana) . وقد عثر على رسالة يرجع تاريخها الى ١٧٢ ب . م . بعثت بها الجالية الصورية الى المدينة ، صور ، يشكو فيها كاتبها من قلة عدد المهاجرين الصوريين مما سبب نقصاً في دخل الجالية ، فأصبح متعذراً عليها دفع ايجار قاعة الاجتماعات ودفع النفقات لاقامة الشعائر الدينية^(٤) . وهناك اشارات تدل بوضوح على وجود جاليات صورية كانت تتوطن رومة واوستيا على مصب نهر التبر والتي اصبحت في القرن الثاني وريثة بوتولي في التجارة والغنى . وقد وجدت في مدينة بوتولي ايضاً كتابات تكريسية للاله هدد (المشتري) إله هيليو بوليس (بعلبك) يعود تاريخ احداها الى عهد تراجان (١١٦ ب . م .)^(٥) . وقد كان رئيس مجلس الاعيان المحلي في مدينة بوتولي كاهناً للاله هدد واصله من دمشق^(٦) . وقد عثر بين خرائب قصر سكيارا في رومة على بلاطة رخامية عليها كتابة تكريسية للاله هدد اللبناني . اما لغة هذه الكتابات التكريسية الدينية فاللاتينية ، وبعضها بالاغريقية ، وقلَّ ان نعثر على كتابة من هذا النوع باللغة السريانية (اي الآرامية) وهكذا يصنع احفاد اللبنانيين من المهاجرين الى القارتين الاميركيتين في يومنا هذا ، فانهم ينشئون كنائس يكرسونها لسيدة لبنان (مريم العذراء) .

١ - Franz Cumont, *Les religions orientales dans le paganisme romain*, 4 th ed. (Paris, 1929) p. 98 .

٢ - Mommsen, *Provinces*, vol. II, p. 138.

٣ - Bouchier, p. 175 .

٤ - *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. X (Berlin, 1883), No.1601 .

٥ - *Ibid.* No. 1634.

٦ - *Ibid.* No. 1576.

وعند مستهل حكم اوغسطس قيصر اخذت عبادة تموز وما يرافقها من شعائر وطقوس معقدة تنتشر في رومة . (وتموز هو الذي اصبحت اسمه ادونيس ، وهي لفظة فينيقية : « ادوني » ومعناها سيدي ومولاي ، وفي اخرها لاحقة لاتينية) . وشاعت عبادته بين عامة الناس هناك زمن حكم اباطرة الاسرة السورية اللبنانية . وقد كان ثمة عدد كبير من « حدائق ادونيس » في طول البلاد وعرضها حتى تناولت اماكن نائية عن رومة مثل مدينة اشبيلية في اسبانيا . ولم يقتصر امر هذه الكتابات على رومة ومينائها بل اثار هذه الجاليات الفينيقية ، وكتابات تكريسية متنوعة ، في اماكن اخرى مثل نابولي وميزنوم وفي مدن مقدونية في بلاد الاغريق (كما في ميناء اثينة مثلا : بيريه) وفي جزر الارخبيل في البحر الايجي . وفي الواقع ان السوريين اللبنانيين « انشأوا علاقات تجارية مع جميع المدن الموانئ في الغرب »^(١) .

ولم يقنع هؤلاء التجار السوريون الفينيقيون بالبقاء في مدن الموانئ بل كانوا يوسعون تجارتهم مع داخلية البلدان التي كانوا ينزلون على شواطئها متتبعين الطرق النهرية والبرية الرئيسية . وحيثما كانت تبدو بارقة رزق او ربح كانوا يذهبون حاملين الى جانب بضائعهم وسلعهم عناصر حضارية ثقافية . ففي ايطاليا نجدهم في زفنا وتريستا واكيليا (عند رأس البحر الادرياتيكي) وفي صقلية نجدهم في مدينة سيراكوسة ومستينا ، وفي دلماشية (على شواطئ الادرياتيكي الغربي) نجدهم في سالونة ، وفي اسبانيا نجدهم في اماكن بعيدة في داخلية البلاد مثل قرطبة . وقد عثر على نقش في مدينة ملقا ، يعود تاريخه الى القرن الثاني الميلادي ، يذكر فيه كاتبه شركة تجارية سورية . اما في وادي الدانيوب فنجدهم مثلا قد اوغلوا الى اماكن بعيدة مثل ابولوم في داكية وسرميوم عاصمة بانونية (وهي القسم الشرقي من بلاد النمسا وهنغاريا) . وقد استهوتهم بشكل خاص بلاد الغال (فرنسا) . فاننا نجدهم في وادي نهر الجيرون في مدينة بوردو . وفي وادي نهر الرون نجدهم في مدينة ليون . وكان هنالك عدد كبير منهم في مدينة توف بالقرب من

لكسمبورغ . وقد عثر على لوح برونزي وجد في بلدة دير القمر^(١) ، لبنان ، عليه نص قرار اصدره الحاكم الروماني في بلاد الغال (١٧٢ ب.م.) موجه الى الملاحين في مدينة ارل الواقعة شمالي مرسيلية يحدد فيه لهم قوانين نقل الحنطة . كذلك عثر على مزهريات زجاجية عليها توقيع رجل صيداوي اسمه انيون (*Ennion*) - وقد كان اشهر رجل يصنع الزجاج في القرن الاول للميلاد - في اماكن متباعدة مثل مصر وقبرص وشمالي ايطالية وجنوبي روسية^(٢) . ويظهر انه كان لمصانع هذا الرجل مكتب في رومة . ويبدو ان صانع زجاج اخر انشأ له مكاتب تجارية في مدينة كولون على نهر الرين . وقد وجد في مدينة البندقية بقايا زجاجية من صور . وقد اصبحت الآنية الزجاجية والمعدنية التي كان يحملها الفينيقيون الى بلاد الغرب فيما بعد نماذج كان الصناع الغربيون يقلدونها . ولم يقتصر عمل هؤلاء التجار الفينيقيين على عماليات الاستيراد ، بل كانوا ايضا يقومون باعمال التصدير من البلدان الغربية التي كانوا يقيمون فيها . فانهم مثلاً كانوا يصدرون الفخار من ايطالية وبلاد الاغريق ، والسلك الملح من اسبانيا ، والبضائع الصوفية من غرب اوروبا الى بلاد الشرق . ولم يستطع الغزو التوتوني الذي وقع في القرن الخامس للميلاد وفي القرون التي تلتها ان يقضي على نشاط الفينيقيين التجاري وعلى روح المغامرة والاقدام . كانت الجالية الفينيقية في مدينة اورليان تشعر كأنها جزء من المدينة ، او كأنها في وطنها . فانه في عام ٥٨٥ ب.م. لما دخل الملك جوتتراند Gontrand هذه المدينة استقبلته الجالية الفينيقية « باهازيج بلغتهم السورية » ، كما استقبله اللاتين واليهود ايضاً^(٣) . وقد كانت جالية باريس الفينيقية من الاثر في المجتمع بحيث انها ، في عهد الميروفنجيين ، حوالي ٥٩١ ب.م استطاعت ان تنتخب احدهم ، واسمه يوسبيوس ، مطراناً على المدينة . وقد عزل هذا المطران

١ - J. P. Waltzing, *Étude historique sur les corporations professionnelles chez les Romains*, vol. III, (Louvain, 1899), pp. 526 - 7; *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. III, suppl. No. 14165⁸ .

٢ - Heichelheim, p. 189; Dussaud, in *Syria*, vol. I (1920) pp. 230-4 (في هذا المقال يذكر ديسو اسماء صناع الزجاج)

٣ - Gregory of Tours, *Historiae Francorum*, Bk. VIII, ch. 1 .

جميع افراد سلفه في الكهنوت وعين خلفاً له واحداً من اقاربه ^(١) . وعند مستهل القرن الرابع للميلاد نجد اولئك السوريين اللبنانيين من تجار وجنود وعبيد ومستعمرين ينقلون الدين المسيحي الى اوروبة ولم يكونوا باقل حماسه في نشره عن آبائهم واجدادهم الذين نقلوا الى الغرب ديانة الفينيقيين وطقوسهم وشعائهم الوثنية . وقد ظهر اثرهم المسيحي في الغرب بصورة خاصة في التقشف والتزهد والرهبة والنواحي العاطفية التي كانت ترافق شعائر العبادة . كان تعلقهم بالصليب واتخاذ شعاراً دينياً من بين العناصر التي ادخلها الفينيقيون الى اوروبة في القرن السادس . وقد كانت جاليتهم في رومة اثناء القرن السابع والثامن من القوة بحيث انهم قدموا الى السدة البابوية عدداً من الباباوات . وقد طوب اثنان منهما قديسين ^(٢) . هؤلاء الباباوات السوريون هم الذين اقاموا جميع الاعياد الكاثوليكية التي تدور حول تعظيم مريم العذراء .

Ibid. Bk. X, ch. 26.

— ١

Louis Bréhier, *Les origines du crucifix dans l'art religieux* — ٢

3rd ed. (Paris, 1908), pp. 39 - 43, 54 - 5, 59 - 62; Hitti, *History of Syria*, p. 484 .

الفصل الرابع عشر

نواع فكرية

لقد قامت في المدن الفينيقية ، عند مستهل العهد الروماني ، حركة نشاط علمي وادبي لم تعهدها هذه المدن في عصورها الاولى . فان سترابو^(١) (تو ٢٤ ب.م) يصف الصيدداويين بانهم « فلاسفة في علمي الفلك والحساب » . ويضيف الى ذلك قوله بان المدن الفينيقية في عصره كانت تعد اعظم موطن للمعرفة . ويمثل على ذلك بذكره بوثس (Boethus) الصيدداوي الذي درس معه فلسفة ارسطو ، واخيه ديودوتس (Diiodutus) الذي كان حسب قوله « فيلسوفاً مشهوراً » . ولكننا لا نعرف عنه الآن شيئاً . وفضلاً عن سترابو فان هنالك كتاباً كلاسيكيين آخرين جاءوا على ذكر « شعراء فينيقيين ذاتي الصيت » ممن لم نصلنا حتى اسمائهم . وبالإضافة الى صيدا كان ثمة مدن فينيقية اخرى اسهمت في التاج الفكري في ذلك العصر مثل مدينة جبيل وصور وبيروت .

من اولئك الذين نبغوا في حقول العلم والادب فيلو الجبيلي (Philo of Byblos) (٦٤ - ١٦١ ب.م) الذي ألف باللغة الاغريقية مؤلفاً قيماً عن القصص الميثولوجي الذي يدور حول خلق العالم ، وفيه يعالج تاريخ الدين الفينيقي معتمداً في ذلك مصادر مصرية وبابلية قديمة . ويعترف بانه اعتمد مؤلفاً فينيقياً من اهل بيروت اسمه سنكونياتون (Sanchuniaton)^(٢) . هذا المؤلف الفينيقي القديم ، سنكونياتون ، - الذي نتعرف اليه بواسطة يوسيبوس^(٣) - شخصية غامضة عاشت في القرن السادس ق. م ، وكان يظن قبلاً انه رجل ميثولوجي حتى جاءت اكتشافات اوغاريت الاثرية فاثبتت للملأ بانه لم يكن شخصية ميثولوجية ، بل

Strabo, Bk. XVI, ch. 2, sec. 24 .

— ١

— ٢ وهو في الفينيقية *Sakkon - Yaton* ومعناه الاله سكون قد اعطى

In Karl Müller. *Fragmenta Historicorum Graecorum*,
vol. III (Paris), pp. 563 seq .

— ٣

رجلا وجد حقاً في التاريخ . فانا اذا قابلنا ما يعزونه الى سنكونياتون بما ورد من اساطير في الادب الاوغاريتي نجد ان التوافق والتشابه بينهما ظاهر للعيان . وكذلك اذا نحن قابلنا ما ذكره فيلو الجبيلي بما جاء في النقوش الاوغاريته المكتوبة على آجرآت ، نجد ان ما ذكره فيلو فيه كثير من الصحة . وفي فقرة نغزى الى سنكونياتون يذكر لنا هذا المؤلف الفينيقي القديم بطلا ميثولوجياً اسس مدينة صور وهو الذي شهر حرباً عواناً على اخيه اوسوس الذي كان « صياداً يلبس الجلود » . وهذه الاسطورة تشبه قصة الصراع بين يعقوب واخيه عيسو الذي ذكرتها لنا التوراة . وهي قصة ترمز الى الصراع المديد الذي وقع بين الزراع والفلاحين المتحضرين وبين الصيادين الرحل الذين كانوا يعيشون في المناطق الصحراوية المناخمة لاطراف الاراضي الزراعية .

ومن اولئك الذين اشتهروا في حقل العلم في النصف الاول من القرن الثاني مارينوس الصوري مؤسس الجغرافية الرياضية التي كان يعتمد عليها العالم القديم ، والذي سبق بطليموس الجغرافي المشهور بزمان قصير . وقد كان بطليموس^(١) في مؤلفاته يشير اليه ويقول انه كان يعتمد مارينوس الصوري مصدراً لمعلوماته . وقد رسم مارينوس خرائط ذات فائدة عظيمة ، ذلك بانه وضع خطوطاً للعرض وخطوطاً للطول لكل موقع جغرافي وبذلك قضى على الخدس والتخمين الذي كان يلجأ اليه المسافرون عند تعيينهم الموقع الجغرافي الاكيد .

البلاغة والبغاء

كانت المنافسة في الحياة الفكرية على أشدها بين مدينة صور وصيدا . وكان من علماء صور رجل اسمه مكسيموس (حوالي ١٢٥ - ١٨٥ ب . م .) وقد كان سفسطائياً قضى شطراً كبيراً من حياته محاضراً متجولاً يلقي محاضراته في اثينة ورومة ايام كومودس (Commodus) (١٨٠ - ١٩٢ ب . م .) . وقد كان مكسيموس رجلاً عالماً بالبلاغة والفصاحة اكثر منه مفكراً مبدعاً . اما البليغ في ذلك العصر ، فقد كان الرجل الذي يحسن الدفاع في المحاكم ويتقن فن تعليم الدفاع

والمرافعة . وفي الواقع كان اكثر هؤلاء البلغاء جماعة من الخطباء المحاضرين الذين يسافرون من مكان الى آخر لالقاء الخطب البليغة الرنانة^(١) . اي ان البلاغة كانت في ذلك العصر فناً مستحباً من فنون التعبير الخطابي . وكان أشهر البلغاء السوريين رجل اسمه ليبانوس (حوالي ٣١٤ - ٣٩٢) من مدينة انطاكية ، واسمه يدل على انه من اصل لبناني . وقد كان ايبانوس من اشد المتحمسين للثقافة الهلينية . وشد ما كان استياؤه عندما علم ان احد تلامذته اللامعين في انطاكية - والذي اصبح فيما بعد كريصوصطم (Chrysostom) احد آباء الكنيسة المشهورين - نبذ الدين الاغريقي واعتنق المسيحية . وظهر في مدينة صور سفسطائي آخر عالم بالبلاغة اسمه ادريانوس (١١٣ - ١٩٣) وكان يعلم البلاغة في المركزين الثقافيين العالميين : اثينة ورومة .

ما قدمه الفينيقيون الى الافلاطونية المستحدثة :

واهم من جميع هؤلاء الفلاسفة الفينيقيين واشهرهم فرفوروريوس الصوري (ومعنى اسمه المتجلبب بالارجوان) واسمه السامي الاصيل « ملك » . ولد فرفوروريوس في مدينة صور عام ٢٣٣ ميلادي . ويقول بعضهم انه ولد في بثنية من اعمال جنوب حوران . وقد تلقى العلم في صور ولكنه اقام في رومة التي شوقته اليها شهرة افلوطين المصري مؤسس تلك الفلسفة التي تجمع بين خصائص الفلسفة الاغريقية وعناصر الفلسفة الشرقية والتي عرفت فيما بعد بالافلاطونية الحديثة . وقد ظل فرفوروريوس يعلم في رومة حتى مماته في عام ٣٠٥ . وكان فضله ان جمع مقالات استاذة افلوطين الفلسفية وصنفها حسب مواضيعها ورتبها بشكل مجموعات اطلق عليها عنوان « التاسوعيات » (Enneads) ونشرها . ولولاه لظل افلوطين اسماً مجهولاً . وقد كان فرفوروريوس مؤلفاً كثير الانتاج فقد ذكر له ٧٧ مؤلفاً^(٢) في الفلسفة والنحو والبلاغة والحساب والهندسة والموسيقى . ومن جملة كتبه مؤلف هاجم فيه المسيحية ، وقد احرق علانية ايام ثيودوسيوس الثاني^(٣) (٤٤٨) واذا كانت

١ - اذا اراد القارئ الاطلاع على دراسة نقدية لمكسيموس عليه ان يراجع :

Karl Meiser, *Studien zu Maximos Tyrios* (Munich, 1909) .

J. Bidez , *Vie de Porphyre* (Gand , 1913), appendix IV. — ٢

Bidez , pp. 65—79 . — ٣

المسيحية ، تلك الديانة الشرقية ، غيرت مجرى حياة الغرب فان الافلاطونية المستحدثة بروحها ومعناها غيرت مجرى الفلسفة في الغرب .

وقد كان من بين تلامذة فرفوروريوس فيلسوف اسمه يميليوخوس (Iamblichus) (حوالي ٢٥٠-٣٢٥) . ولد هذا الفيلسوف في خلقيس (واسم موقعها الآن عنجر) في سورية المجوفة (البقاع) وقد خرج يميليوخوس على العرف الذي كان يجري عليه فلاسفة فينيقية القدماء وعلمائها من رحلتهم الى الغرب والاقامة فيه ، بل اختار ان يظل في موطنه حيث اسس مدرسة ربما كان مركزها اقامية على نهر العاصي . وقد تحدر الينا من مؤلفاته مخطوط طريف يدل على ان يميليوخوس سبق علماء التوراة الى اتباع طريقة النقد التاريخي العلمي في تعيين الزمن المتأخر الذي كتب فيه سفر دانيال . فقد كان اهل عصره يظنون ان هذا السفر قديم العهد ولكنه خطأً ظنهم بدراسة السفر دراسة علمية نقدية . وقد اعتمد احد كتبه في المنطق ككتاب مدرسي في العصور المتوسطة . وقد كان في فلسفته يجمع بين التفكير اللاهوتي وبين الفلسفة العددية التي كان يعزو اليها - متتبعا في ذلك طريق الفلسفة الفيثاغورية المستحدثة - قيماً ومعاني اسمى من القيمة الحسابية او القيمة العلمية^(١) . وقد كان على خلاف مع فرفوروريوس في قضية العقل عند الحيوان . فقد كان يميليوخوس ينكر ان الحيوان يعقل . وقد الهه تلاميذه واتباعه من جماعة الافلاطونية المستحدثة الذين جاؤا بعده واقبوه بالاله (Theios) . غير ان علماء التاريخ المحدثين يعتقدون بان هذا اللقب انما اعطي له لانه كان يقوم باعمال السحر ، ولانه كانت تظهر على يديه بعض الكرامات .

الآداب اللاتينية

ظلت اللغة الاغريقية ، كما اشرنا الى ذلك آنفاً ، اللغة السائدة الشائعة في الشرق الادنى حتى بعد ان تمت لرومة السيطرة عليها . ذلك لان الاغريقية كانت اللغة الادبية ، وكانت جذورها قد تأصلت بحيث لم يكن من السهل التخلي عنها لمجرد انتقال الحكم من امة الى اخرى . وهنالك سبب آخر وهو الرومان انفسهم ، فانهم كانوا

Edward Zeller , *Die Philosophie der Griechen* , 3 rd ed.

(Leipzig , 1881) , vol. III , pt. 2 , p. 700.

يحتلون الاغريقية محلاً رفيعاً في حياتهم الفكرية . غير ان بيروت صارت، كما يقول عنها مؤرخ مشهور، « جزيرة لاتينية في بحر الهلنستية الشرقية »^(١) وكانت تباهي بانها اخرجت كاتباً ومؤلفاً لاتينياً : ماركوس فلاريوس بروبس . وقد يكون هنالك مؤلفون لاتينيون كتبوا باللاتينية غير ان التاريخ لا يذكر لنا عنهم شيئاً . بدأ بروبس، الذي عاش في النصف الثاني من القرن الاول للميلاد، حياته جندياً . ولكنه ما عتّم ان كرس باقي حياته لدراسة الادب الروماني الكلاسيكي في رومة التي جعل منها موطناً له . وفي رومة عني بدراسة شعر فرجيل وهوراس وغيرهما من الشعراء البارزين ونشر دواوينهم بعد دراستها دراسة نقدية . فكان بروبس قد وضع اسس الدراسات الكلاسيكية النقدية في العهد الروماني الامبراطوري المتأخر ، واحتل مقامه الرفيع بين اللغويين والنحويين والنقاد اللاتين .

اللغة السريانية

ان ما تحدر اليّنا من الادب الذي كتب باللغة الآرامية ، لغة عامة الناس في ذلك العهد ، لا يترك في نفوسنا ذلك الاثر الذي يتركه الادب الذي كتب باللاتينية . كان السيد المسيح يضرب امثاله للناس ويلقي عظاته على الجماهير باللغة الآرامية . وعندما دوّن تلاميذه سيرة حياته دونوها بالآرامية ، ولكنها لم تصلنا، بل انها ترجمت في اوائل العهد الامبراطوري الروماني الى لغة اغريقية ركيكة . ولكن بالرغم من هذا ، فان اثرها الروحي كان ابعده غوراً في مجرى الحضارة من كل ما خلفه لنا الادب الاغريقي - اللاتيني . وعندما تنصرت هذه المنطقة اصبحت السريانية - وهي لهجة آرامية - لغة الكنائس في كل من سورية ولبنان والعراق ، مع العلم بانه كانت هنالك فوارق طفيفة في هذه اللهجات . وقد اتسع انتشار السريانية كلغة ادبية اتساعاً كبيراً بعد القرن الثالث للميلاد . ولم يكن السبب في انتشارها ظهور روح وطنية بقدر ما كان رغبة صادقة في نشر العقيدة المسيحية . وقد كان لترجمة الاناجيل الى اللغة السريانية (بلهجة ايدسا اي الرها كما عرفها العرب واورفا كما هو اسمها حالياً) اثر بعيد في احلال هذه اللغة محلاً ادبياً مرموقاً ، فاصبحت بذلك اللغة الادبية . وعندما تنصر الآراميون (سكان

سورية ولبنان) تبنا لهجة ايدسا الآرامية وجعلوها لغة الكنيسة والادب ولغة الطبقة الراقية ، واصبحوا يعرفون باسم جديد سريان (اي سكان سورية) . اما اسمهم القديم « آراميون » فقد كان يذكرهم بوثنيتهم . ولذلك تخلوا عنه واصبح هذا اللفظ « آرامي » في عقولهم ، حتى وفي معاجمهم ، اسماً مرادفاً للوثنية . وهكذا اختفى الاسم السامي القديم « آراميون » وحل محله الاسم الاغريقي الجديد « سريان » ، اي اهل سورية ، واصبحت اللغة تسمى السريانية عوضاً عن الاسم القديم : الآرامية . ولم تحتل السريانية في لبنان مركزاً هاماً إلا بعد ان توطنه الموارنة .

الفصل الخامس عشر

تنصر لبنان

حوالي العام السادس قبل الميلاد ولد في مدينة بيت لحم الصغيرة طفل صغير .
لم يكن ظهور السيد المسيح حداً فاصلاً بين عهدين : قبل الميلاد وبعده الميلاد
فحسب ، وإنما كان له ابعده الاثر في تغيير مجرى التاريخ . كانت فلسطين تشكل
مع لبنان في تلك الحقبة مقاطعة من سورية يحكمها وال^(١) روماني مقره انطاكية
وكانت مدينة رومة اذ ذاك سيدة العالم وقبلة انظاره . وكانت الابصار تنطلق الى
الامبراطور العظيم اوغسطس قيصر الذي كان جالساً على عرشها . فهل يعقل ان
يأبه مؤرخ معاصر لحدث بسيط كهذا : ابن نجار في بقعة نائية من ديار الامبراطورية
يعلم ويعظ ويشفي المرضى ويصلب لصلابة عقيدته^٢ كلا ، كان الامر ايسر من
هذا في نظرهم . ولكن الواقع ان انساناً عاقلاً او صاحب رؤى ما كان ليحلم بان
تلامذة هذا المعلم الناصري واتباعه سينشرون تعاليم المسيحية في زوايا الارض
الاربعة في خلال سنوات معدودات . وما كان احد من الناس ليصدق بان هذه
التعاليم سيكتب لها البقاء والاستمرار . ولكن هذه الرسالة البسيطة ، رسالة
المسيحية ، عمزت وخلدت ، بينما تلاشى كل معتقد اغريقي روماني آخر . انقرضت
كل فلسفة وتنوسي امرها ، اما الكنيسة التي اسسها بعض رجال من اليهود والاراميين
استمرت وبقيت ثابتة الاركان . تلك الامبراطورية الرومانية العظيمة القوية
الراسخة ضعفت ووهنت ، اما المسيحية فقد قويت وثبتت على مدى الايام .

كانت الفكرة الرئيسية في البشارة الجديدة تدور حول المحبة — محبة الله ومحبة

١ — واسمه ، كما ورد في لوقا ٢ : ٢ ، كيرينيوس راجع : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 5, sec. 2; Bk. XVIII, ch. 1, sec. 1; Tacitus, Bk. V, ch. 9.

حيث يذكر ان كيرينيوس عين والياً على سورية سنة ٦ بعد المسيح . اما هيرودس الذي ولد المسيح عند نهاية ولايته فقد مات سنة ٤ ق. م .

القريب . والله نفسه استحال في هذه العقيدة الجديدة الى محبة . الله محبة . وهذه المحبة التي كرز بها تلاميذ المسيح واتباعه جعلت البشرية عائلة تحت ابوة واحدة : الله . هذه الفكرة العالمية الشاملة ، فكرة العائلة الواحدة تحت ابوة واحدة ، جاءت بلسماً في زمن تسوده النزعات والافكار الاقليمية الضيقة . اصبح التوكيد الآن على واجب تكريس الذات لمحبة الله وخدمة الانسان . واصبح المهم في حياة الانسان غنى الحياة الروحية الداخلية لا الطقوس والفروض ، والسلوك لا شعائر العبادة .

اننا لا نعرف عقيدة من عشرات العقائد الهلينية تقوم على فلسفة اساسية بسيطة كالفلسفة المسيحية . ربما كانت الفلسفة الرواقية تشبهها في بعض نواحيها . ولكننا لا نعرف عقيدة تشبه المسيحية ، فيها عزاء للفقراء والحزاني والمنبوذين والمطرودين . ولا نعرف عقيدة شددت على الايمان بالحياة الخالدة بعد الموت . كان الخلود عند العبران يعني خلود الامة لا الفرد ، وكان الخلود عند الاغريق والرومان من نصيب القلة المختارة : اولئك الذين خدموا الانسانية . او اولئك الذين قيض لهم الدخول الى موطن الاسرار في الديارات القديمة . لقد كان في هذه الديانة الجديدة بمثلها واخلالها واصرارها على معرفة الازمنة العتيدة والتأكد من صحة عقيدتها ما يستهوي الجماهير المستنيرة المثقفة . فان هذه الجماهير كانت تأمل ان ترى في ديانتها ما يشبع رغائبهم الروحية والفكرية ويحقق لهم العدالة الاجتماعية . لم تكن طريق المسيحية — وهي ديانة سامية — الى العالم لاغريقي الروماني المثقف ذي التقاليد العريقة طريقاً سهلاً ممهداً ، بل وعراً صعباً ولكي يستسيغها الغربي كان عليها ان تتعمد في الهلينية اولا . وأول من بدأ هذا العمل — صيغ المسيحية بالروح الهلينية — كان رجلاً يهودياً من كيليكية ، ومواطناً رومانياً : بولس الرسول . كان بولس يتقن اللغة الاغريقية وكان عالماً بالفلسفة الاغريقية . اما في لبنان الذي كان عند ظهور المسيحية لا يزال بلداً سامياً تعلوه مسحة من هلينية ، فان دخول المسيحية اليه لم يلق معارضة شديدة . ولا شك ان الطبقة المستنيرة كانت قد تعرفت الى هذه العقيدة في عصر مبكر جداً غير انه كان هنالك عبادتان قويتان شائعتان بين طبقات الناس ومتأصلتان في نفوسهم . الاولى عبادة هدد — رمون ، الاله السامي الذي تقمص الى اله اغريقي روماني

المشتري (جوبيتر اوزفس) ومركز عبادته في بعلبك (هليوبوليس) ، والثانية عبادة عشتروت - تموز ومركز عبادتها جليل .

صور المركز المسيحي الاول

ما ان بدأ المسيح كرازته في الجليل حتى ذاع صيته الى ان بلغ صيدا وصور^(١) فاقبل اليه جمع منهم ليسمعوا تعليمه وليشفوا من امراضهم^(٢) . والمسيح ذاته اتى « . . . الى نواحي صور وصيدا »^(٣) وبينما كان يتجول هناك اتته امرأة كنعانية تضرع اليه ان يشفي ابنها المصابة بالجنون فشفاه . وهذا اهم حادث تذكره لنا الاناجيل وقع اثناء زيارته هذه البلاد . وقد بني على الموقع الذي جرت فيه هذه العجيبة كنيسة تذكارية كانت لا تزال قائمة عند منتصف القرن الرابع عشر^(٤) . وهنالك على بعد ميلين أو أكثر جنوبي صيدا كهف قديم ، ربما كان منعبد العشتروت ، تقوم على انقاضه كنيسة شيدت على اسم سيدة المنطرة للروم الكاثوليك . ويصر التقليد على ان مريم ام يسوع اقامت هناك تنتظر قدوم ابنها الى صيدا . وعلى هذا التقليد سميت الكنيسة بسيدة المنطرة (المنطرة كلمة سريانية تعني الترقب والانتظار) . وعلى اثر استشهاد استفانوس ، اول شهيد مسيحي ، تشتت تلاميذ المسيح للكراسة بانجيل المسيح . ويقول صاحب اعمال الرسل ان بعضهم « اجتازوا الى فينيقية »^(٥) جميع هذه الاشارات الواردة في الاناجيل وفي التقليد التي جئنا على ذكرها تدل على ان المسيحية دخلت لبنان في عهد الرسل ووجدت تربة صالحة .

كانت صور اول مدينة فينيقية قامت فيها جالية مسيحية . يقول لنا بولس الرسول انه عندما رجع من بلاد اليونان لزيارة اورشليم - وكانت اخر زيارة له

١ - ان ورود هذين الاسمين معاً « صور وصيدا » اللذين يردان بهذا الشكل عشر مرات في العهد الجديد (متى ٢٢: ١١ ، ٢٢: ١٥ ، مرقس ٧: ٣١ ، ٢٤: ٣١ ، لوقا ١٧: ١٠ ، ١٣: ١٤ ، اعمال الرسل ١٢: ٢٠) يدل على ان كتاب هذه الاسفار يقصدون بها بلاد فينيقية .

٢ - مرقس ٨: ٣ لوقا ١٧: ١٧ .

٣ - متى ٢١: ١٥ - ٢٨ مرقس ٧: ٢٤ - ٣١ .

٤ - Ludolph von Suchem . *Description of the Holy Land* , Tr. — Aubrey Stewart (London , 1895), p. 50 .

٥ - سفر الاعمال ١١: ١٩ .

— عرج على صور فوجد فيها كنيسة تضم اعضاء من رجال ونساء واولاد . وقد اقام بينهم سبعة ايام . وقد حذره مسيحيو صور من الذهاب الى اورشليم لانهم كانوا يوجسون خيفة عليه . فتضرعوا اليه ان يظل عندهم . وعندما شيعوه الى الشاطئ ليستقل السفينة ركعوا على الرمال وصلوا من اجله^(١) . ثم ان بولس الرسول عرج ، وهو في طريقه جنوبا ، على مدينة عكا حيث استقبلته الجالية المسيحية^(٢) . وعندما قفل راجعاً الى رومة عرج على صيدا حيث كان هنالك كنيسة وجالية مسيحية « ليحصل على عناية منهم^(٣) » كان ذلك عند منتصف القرن الاول الميلادي وعند منصرم القرن الثاني الميلادي اصبحت الجالية المسيحية في صور من الكثرة والقوة بحيث انه انشئ في المدينة كرسي لمطران ، واصبح لهذه المطرانية بعد قليل من الزمن اربع عشرة اسقفية . وفي كنيستها (كنيسة صور) دفن احد آباء الكنيسة المشهورين ، اوريغون^(٤) ، الذي كان يرأس مدرسة الاسكندرية التي كانت تعنى بتعليم العقيدة المسيحية قبل ان تنتقل هذه المدرسة الى قيسارية . وحوالي ٣٠٣ هدمت كنيسة صور اثناء الاضطهاد المسيحي الكبير الذي امر به ديوكلشان ، ولكن المطران بولينوس (حوالي ٣١٤ ، وفي عهد قسطنطين الكبير) اعاد بناءها وجعلها على مستوى اكبر واضخم . والواقع ان كنيسة صور كانت اكبر واجمل كنيسة في جميع انحاء فينيقية . وعندما دشت القي مؤرخ الكنيسة الكبير ، يوسبيوس مطران قيسارية ، خطبة اثبت لنا نصها في مؤلفه عن تاريخ الكنيسة . وقد قدم لخطبته بقوله « انه عاجز وليس اهلا لهذا الاكرام » . وقد عقد في مدينة صور مجمع كنسي عام ٣٣٥ حكم بالهرطقة على اثناسيوس مطران الاسكندرية .

ويعرى فضل ادخال المسيحية الحبشة الى احد اتباع مطران صور ، راهب يدعى فرومنتيوس ، وكان ذلك عام ٣٣٠ . تقول القصة ان المركب الذي سافر عليه فرومنتيوس غرق في البحر الاحمر ، ولكنه نجا الى البر واخذ اسيراً في بلاد

٢ — سفر الاعمال ٢١ : ٤ — ٦ .

٣ — سفر الاعمال ٢١ : ٧ .

٤ — سفر الاعمال ٢٧ : ٣ .

١ — ويدلونك اليوم على قبر الساحر العظيم اوريانوس ويقولون انه قبر اوريغون .

الحبشة وبيع الى الملك . غير ان الملك اعجب بدمائة خلقه وفضائله وذكائه فاعتمه . وبعد حين عينه اثناسيوس مطراناً على الحبشة . ومن ذلك الحين توثقت العلاقات الكنسية الودية بين مصر والحبشة .

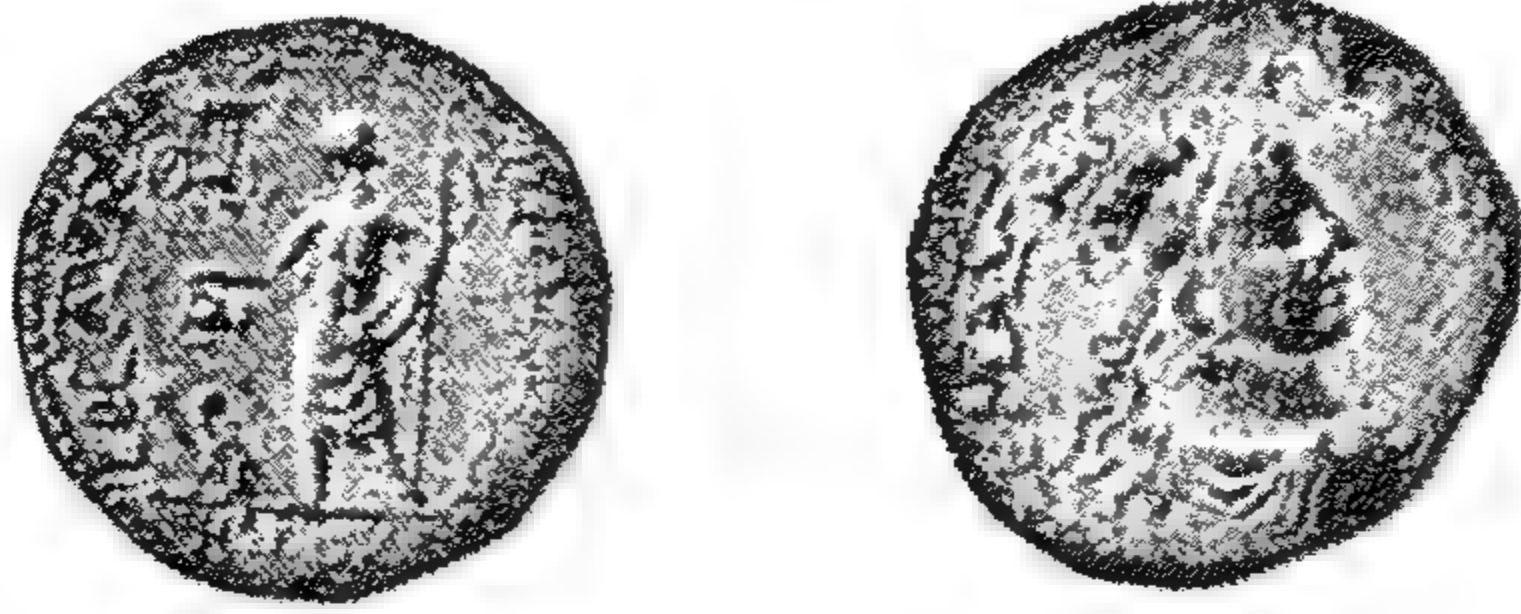
وفي اوائل القرن الرابع أصبحت صيدا ، جارة صور الى الشمال ، مقراً اسقفياً . وعندما نقرأ في قائمة المطارنة الذين حضروا عام ٣٢٥ المجمع الكنسي المسكوني المشهور الذي عقد في نيقيا نجد اسم مطران صيدا : ثيودورس . في هذا المجمع الكنسي المسكوني وضع المؤتمر قانون الايمان المعروف بالايمان النيقاوي الذي لا يزال قائماً للآن .

انتشار المسيحية شمالاً واضطهادها

تابعت المسيحية انتشارها شمالاً رغم مقاومة الاباطرة الرومان ورغم الاوامر التي كانوا يصدرونها ضد هذه العقيدة ففي القرن الرابع أصبحت بيروت - التي لا نشك في ان الرسل والمبشرين الاول كانوا يملكون فيها عند مجيئهم الى انطاكية او عند رجوعهم منها الى اورشليم - مقراً اسقفياً .

ويخبرنا التاريخ عن عدد من الطلاب الوثنيين الذين كانوا يحضرون مدارس بيروت ، لا سيما مدرسة القانون المشهورة عند منصرم القرن الثالث . غير انهم تنصروا في بيروت واستشهدوا مع من استشهد من المسيحيين اثناء الاضطهاد الكبير الذي قام به ديوكلشان ومكسيميان في عام ٣٠٣ . وها هو يوسيبوس المؤرخ الكنسي المشهور يذكر لنا احد اعوانه المسمى بامفيلوس (Pamphilus) الذي ينعت به بأنه « كان رجلاً فاضلاً مباركاً عزيزاً في عيني الرب » . ولد بامفيلوس في بيروت او في ضاحية من ضواحيها . وكان يعاون يوسيبوس في تصحيح ونشر مخطوطات الكتاب المقدس لا سيما الترجمة السبعينية ، كما وردت في الكتاب المقدس الذي وضعه اوريجون والمسمى الكتاب المسدس . وقد ذكر يوسيبوس بفخر ان بامفيلوس كان استاذة ، وبعد حين صار هذا اسقفاً في قيسارية . وكان بامفيلوس وابفيانوس (Apphianus) وهو شهيد آخر يذكره لنا يوسيبوس ، يتحدران من عائلتين وثنتين تنتميان الى العائلات الغنية الراقية . وكان يوسيبوس يعرفهما

معرفة شخصية . وقد اعتنق ابفيانوس المسيحية لما كان تلميذاً يدرس في بيروت .
وهذان الشهيدان ، باهفيلوس وابفيانوس ، عذباً وسجناً قبل ان قُتلا^(١) .



قطعة نقود من عهد اسكندر سفريوس (٢٢٢-٢٣٥ م.م.) وقد ضربت في صيدا . وعلى وجه منها يظهر رأسه وعلى الوجه الآخر ديونيسيوس .

وهناك شهيد مسيحي آخر ، أبعد شهرة ممن ذكرنا سابقاً هو القديس جورجوس او كما تعرفه العامة مار جرجس (او جريس). تقول الاسطورة المحلية - وهي اسطورة لا تركز على اساس تاريخي ثابت ، اذ ان هنالك اما كن اخرى تدعي بان مار جرجس هو قديسها ووليها وانه عاش فيها - ان مار جرجس قتل التنين في خليج بيروت المعروف بخليج مار جرجس، وانه انقذ الاميرة هنا في هذه المدينة . ان هيكل هذه القصة يعود الى ما قبل المسيحية . فاننا نجد في الاسطورة عناصر اغريقية ومصرية وبابلية . تقول القصة ان حاكم بيروت ، اظهراً لتقديره وشكره ، اقام لهذا البطل كنيسة فخمة شيدها عند مصب نهر بيروت وسماها باسمه - كنيسة مار جرجس - وكرسها له ، واصبح مار جرجس المنافس الاكبر لمار سرجيوس (او مار سرقيس) في الكنائس السورية اللبنانية . وقد ادخل الصليبيون مار جرجس الى اوربة حيث اصبح في انكلترا قديسها وشفيعها . ولا تزال صورته راكباً حصاناً يطعن التنين تطبع على قطع نقودها . ويقول لنا سائح الماني اتى البلاد المقدسة حاجاً عام ١٣٤٠ ان مار جرجس لم يغير دين اهل بيروت من الوثنية الى المسيحية وحسب ، بل ان فضل تنصر البلاد باجمعها يعود اليه^(٢) .

كان الاضطهاد الكبير الذي اصاب المسيحيين بين ٣٠٣-٣١٣ على اشده في مصر وفلسطين وسورية ولبنان . وقد انصب جام غضب الامبراطورين اللذين

Eusebius, tr. vol. 1, pp. 344, seq. ; vol. II, p. 33 .

- ١

Von Suchem , tr., pp. 48-9, 135 .

- ٢

قاما بهذا الاضطهاد : ديوكليشان وزميله مكسيميان على جميع هذه البلدان . فقد امر ديوكليشان بهدم الكنائس الى اساساتها ، وبحرق الكتب المسيحية وبصرف جميع المسيحيين من الخدمة المدنية والعسكرية . اما زميله مكسيميان فقد ذهب الى ما هو اشد فظاعة وهولا ، فقد كان يأمر كل مسيحي ان يختار بين تقديم الذبائح الى الآلهة المعترف بها في الامبراطورية أو الموت المحتم . وانه ليصعب على المؤرخ ان يحصي عدد الذين بترت اعضاءهم او صلبوا أو اغرقوا أو احرقوا أو رمي بهم الى الوحوش الجارحة في هذه المنطقة . وقد حصل اضطهاد قبل هذه الفترة . فان تراجان امر عام ١١٢ ان كل مسيحي لا يخضع للآلهة او لا يسجد للامبراطور يعد خائناً ويعاقب على خيانه . كذلك اضطهد دقيوس (داقيانوس) ^(١) المسيحيين . فانه بين ٢٥٠ - ٢٥١ عاد فثبتت اوامر اسلافه التي كانت تقضي بمعاقبة المسيحيين الذين كانوا يرفضون ان يقدموا الذبائح علانية للآلهة الوثنية التي كانت تعترف بها الدولة . ولم يكتف الامبراطور فلريان (عام ٢٥٧ - ٢٥٨) بارغام المسيحيين على تقديم الذبائح علانية للآلهة الوثنية بل حظر عليهم ان يجتمعوا . وجميع هذه الاضطهادات كانت اضطهادات بسيطة اذا قيست بالاضطهادات التي تلتها . اما الاباطرة الذين كانوا ينتمون الى الاسرة السورية اللبنانية فانهم ، بالرغم من رذائلهم ونقائصهم ، كانوا على شيء من التسامح ازاء العقيدة المسيحية . فان جوليا ماميا ، ام اسكندر سفيروس (٢٢٢ - ٢٣٥) ، آخر امبراطور من هذه الاسرة ، وهي فينيقية من مدينة عرقة ، كانت تحضر محاضرات اللاهوتي الشهير يوجين ، وكانت تعطف على المسيحية ان لم تكن قد اعتنقتها بالفعل . وقد نهى ابنها الامبراطور : الذي ولد في هيكل الاسكندر في مدينة عرقة ، الناس عن عبادته ، كما كان شائعاً في الامبراطورية ، واقام في معبده الخاص تماثيل لازدرشت (زادا) و ابراهيم والمسيح .

ولكن عند مستهل القرن الرابع اتضح لاتباع الديانات الوثنية ، ولاولئك الذين كانوا يرون في استمرارها نفعاً مادياً ، بان المسيحية آخذة في الانتشار ، ولن

١ - تقول الاسطورة ان ثمانية غلمان من مدينة افسس رفضوا تقديم الذبائح للامبراطور او للآلهة فأووا الى كهف في الجبل وتاموا فيه مدة من الزمن . راجع « فريجة » « قصة اهل الكهف في التاريخ » مجلة الابحاث ، السنة الاولى ، جزء ٢ ص ٦٢ - ٧١ (المترجم) .

تعتم حتى تحتل المقام الاول في الحقل الروحي . وكذلك اتضح للدولة وموظفيها انه كلما تدهورت الامور السياسية وكلما تردت احوال الامبراطورية تحسنت احوال المسيحية واتسع نطاقها .

المسيحية دين الدولة الرسمي

ولكن لم يمض وقت طويل على هذه الاضطهادات المفجعة حتى انقلب الامر فاصبحت الدولة تميل الى الاعتراف بالمسيحية بعد ان كانت قد جندت كل قواها للقضاء عليها . وقد كان الامبراطور قسطنطين الكبير اول من بدأ في تغيير هذا الاتجاه ، لا سيما بعد ان قضى على منافسه في الحكم واصبح الامبراطور الوحيد بين ٣٢٤ - ٣٣٧ . وفي عام ٣٣٠ بنى قسطنطين عاصمته الجديدة على الموقع الذي كانت تقوم عليه بيزنطة والتي لا تزال تحمل اسمه الان : القسطنطينية . ونقل العاصمة من الغرب الى الشرق دليل على اهمية الشطر الشرقي للامبراطورية الرومانية ورجحان كفتها . ذلك لان العدو الوحيد الذي ظل يناصب رومة العداوة كانت فارس التي كانت قد استعادت قوتها ونشاطها . واخذ موضع الثقل في الشؤون الدولية يتجه مرة اخرى نحو الشرق . وقبل ان يشرع في بناء عاصمته الجديدة اعترف قسطنطين بان دين الدولة الجديد هو المسيحية . وفي الرسائل الامبراطورية التي اصدرها عام ٣١٢ و ٣١٣ لم يكتف بان اظهر روح التسامح نحو المسيحيين في امبراطوريته بل كان يميل اليهم ويشجعهم^(١) . تقول الاسطورة انه اعتنق المسيحية وهو في مسيره على رأس جيشه لمحاربة خصمه ومنافسه في رومة لما ظهرت له في الجو علامة صليب يلمع كالنور وعليه كتابة يونانية تقول : « بهذه العلامة تنتصر » وهكذا حدث ، فقد ظفر الامبراطور بخصمه واتخذ فيما بعد علامة الصليب شعاراً امبراطورياً . وكانت امه ، هيلانة ، امرأة مسيحية صادقة التعتد ثابتة الايمان . وقد ذهبت حاجّة الى البلاد المقدسة حيث ، كما تقول الاسطورة ، عثرت على خشبة الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح على الجلجثة ، والتي هي الآن موقع كنيسة القبر المقدس . وعليه

Eusebius, Bk X, ch. 5; tr., vol. I, pp. 315 - 20 .

١ - لمراجعة هذه الرسائل راجع :

نستطيع ان نقول بان تقديس الاماكن المقدسة واحترامها على انها شعائر دينية بدأ في عهد قسطنطين وامه . ولا شك ايضاً ان اعتناقهما المسيحية عجل في تنصر المملكة كلها . فقد كان يصدر الامر تلو الآخر بهدم الهياكل الوثنية وتحطيم الصور والتماثيل وبمنع تقديم الذبائح للآلهة الوثنية^(١). كانت هذه الامبراطورية التي انشأها قسطنطين بغاصمتها الشرقية ، القسطنطينية ، مسيحية في دينها اغريقية في لغتها وشرقية في اتجاهاتها وميولها . وبالرغم مما انتابها من حوادث وما نزل بها من كوارث فانها استمرت الى ١٤٥٣ حينما استولى الاتراك على القسطنطينية واستبدلوا علامة الصليب بالهلال .

بعد وفاة ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) وقع الانقسام النهائي الذي به انشطرت الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية رومانية شرقية، والى امبراطورية رومانية غربية عام ٣٩٥ . وقد خلفه ابنه اللذان اقتسما المملكة : فاستولى احدهما على القسم الغربي والآخر على القسم الشرقي . وكان ابوهما ثيودوسيوس الكبير مسيحياً يمشي على خطوات سلفه الاسكندر في تعضيد المسيحية الارثوذكسية^(٢) وفي ايامه تابعت المسيحية زحفها الظافر الى داخل البلاد. والزعم القائل بان الفضل في بناء كنيسة مسيحية فخمة في صحن دار الهيكل العظيم في بعلبك ، التي قاسى اهلوها مر الاضطهاد يعود الى ثيودوسيوس او الى الاسكندر زعم يحتاج الى اثبات . وقد يكون ان كلام يوسبيوس^(٣) المؤرخ الكنسي حيث يقول ان قسطنطين « بنى في هذه المدينة (بعلبك) كنيسة ضخمة رائعة » يعني ان قسطنطين امر بان يحول الهيكل الوثني (هيكل بعلبك) الى كنيسة . ثم يتابع يوسبيوس قوله بان هذه المدينة منحت امتيازاً بان يكون لها كنيسة على رأسها مطران يعاونه شيوخ وشماسة . وما ان اطل القرن الخامس حتى اخذ اساقفة هيليوبوليس (بعلبك) يلعبون دوراً هاماً في حياة الكنيسة واخبارها . ويقول لنا يوسبيوس^(٤) ان سكان

١ - Eusebius , *Life of the Blessed Emperor Constantine*, (London , 1845), pp . 158-9 , 193-4.

٢ - كلمة ارثوذكسية تستعمل بمعنى الرأي المستقيم او القويم بالنسبة الى الفرق والشيع التي تخرج على الكنيسة الام وعلى عقائدها الاساسية (المترجم) .

٣ - *Life of the Blessed Emperor* , p . 164.

Ibid., p. 205 .

٤ -

انترادوس (اي ارواد البرية ، المدينة التي كانت على الساحل قبالة الجزيرة)
احرقوا اصنامهم واعتنقوا الدين الجديد وهذه المدينة كان قد اعيد بناؤها
وسميت قسطنطينية .

وقد امر قسطنطين بهدم هيكل افقا ، الذي كان معقلا حصينا للوثنية ، وذلك
لان المتعبدين في هذا الهيكل كانوا يمارسون طقوساً وشعائر تتنافى مع المسيحية^(١)
واليك ما يقوله يوسبيوس عن هذا الهيكل :

« لم يكن هذا الهيكل في وسط مدينة بل كان في غابة نائية عن العمران بعيدة
عن الطرق التي يسلكها الناس ، في مكان اسمه افقا على قمة من قمم لبنان . وكان
مكرسا لعبادة شيطان رجم يعرف بالزهرة (فينوس) . كان هذا الهيكل بؤرة
فساد وشر يقيم فيه اشراار نذروا نفوسهم للدعارة والبغاء . في هذا المعبد كان
الانسان ينفذ كل احترام لقدسيسة الانسان وقدسيسة طبيعته الجنسية ، فكان يقدم
جسده ذبيحة على مذبح الدعارة ليستميل رضا الشيطان . هنا كانوا يتجرون
بالنساء ويستبيحون كل رذيلة وفساد » .

غير ان الامبراطور يوليان (٣٦١ - ٣٦٤) خليفة قسطنطين الذي لم يكن قد
اعتنق الدين المسيحي بعد اعاد بناء هيكل افقا . ولكن الهيكل هجر بعد ان تسم
ثيودوسيوس العرش الامبراطوري .

اما بيروت فقد اصبحت مسيحية في منتصف القرن الرابع . وفي عام ٣٤٩
حدث فيها زلزال عظيم أنزل بها الخراب . فشر بعض السكان من الذين لم يكونوا
قد اعتنقوا المسيحية بعد انها غضبة من السماء حلت عليهم ، فرجعوا عن وثنتهم
واعتنقوا الدين المسيحي . وفي عهد ثيودوسيوس تم النصر النهائي للمسيحية . فانه
عند مستهل القرن الخامس لم يكن لبنان وحده قد تنصّر بل اصبحت سورية
وفلسطين بلدين تظهر عليهما الصبغة المسيحية . واخذت الآلهة الوثنية - ملقارت
صور ، وهدد بعلبك ، وعشروت جبيل وافقا ، تراجع امام يسوع الناصري الظافر .

الفصل السادس عشر

بعلبك مركز ديني وبيروت مركز ثقافي

مستعمرتان رومانيتان

كانت بعلبك وبيروت قبل العهد الروماني مدينتين مغمورتين . ولكنهم احتلنا مركزاً مرموقاً في هذه الفترة اذ اصبحتا في عهد اوغسطس قيصر مستعمرتين رومانيتين^(١) . وكلتا المستعمرتان اصبحتا مركزين ممتازين للحضارة الرومانية، فكانت احدهما مركز حياة دينية والاخرى مركز اشعاع حضاري .

اما لفظة « هيليوبوليس » فاغريقية معناها مدينة الشمس . وقد اطلقه السلوقيون على مدينة فينيقية قديمة عندما كان البعل السامي يقرن بالاله الشمس . ويرجع ان يكون اسم بعلبك في شكله السامي القديم « بعل بقاع » ، وانبقاع هو السهل الواقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربي والشرقي والواقع فيه مدينة بعلبك . وقد ابقى العرب الذين فتحوا البلاد على الاسم السامي القديم مع بعض التحريف : بعلبك (وفي العامية بعلبك) . وبعض الفرق العسكرية التي استخدمها اوغسطس قيصر في الاستيلاء على بيروت احتلت مدينة بعلبك . ويظهر اسم هذه المستعمرة على النقود التي صكها اوغسطس الذي دعاها مستعمرة « جوليا اوغسطا هيليوبوليس » . غير ان المدينة بوصفها مركزاً للعبادة الفينيقية القديمة لم تتأثر بالحضارة الرومانية بالقدر الذي تأثرت به زميلتها بيروت . وكذلك لم تتأثر بالاغريقية كما تأثرت انطاكية بل ظلت تحتفظ بالعناصر السامية احتفاظاً اشد من احتفاظ هاتين المدينتين . وقد اشتهر بعض الرجال من اهل بعلبك بالفصاحة — وهي نعمة هبطت عليهم من ربات الفنون الجميلة . واشتهرت النساء بجمالهن — وهي نعمة اغدقتها عليهن

١- راجع المقالين : « Heliopolis » و « Berytus » في *The Classical Dictionary* حيث يذكر المؤلف ان بعلبك ضمت الى بيروت حتى زمن ستموس سيفروس الذي اعادها مقاطعة مستقلة .



قطعة نتود من بريتوس (بيروت) ٢٢٢-٢١٨ ب. م. وعلى وجه منها يظهر رأس الاغبلوس وعلى الوجه الآخر عشتروت في هيكل .

الالاهة السورية اترغاتس^(١) التي كانت تحب التطواف على سفوح الجبال المحيطة ببعلبك . وكذلك اشتهرت جماعة من اهل بعلبك رجالا ونساء بضرب العود وتعدت شهرتهم الى اماكن بعيدة . وكان الاقبال على هؤلاء الموسيقيين من كل صوب ، وكان الطلب عليهم شديداً ليس فقط في الاعياد والمسرات ، بل عند القيام بالشعائر الدينية في المعابد . غير ان شهرة هياكل بعلبك العالمية فاقت شهرة اهلها .

هياكل بعلبك العظيمة :

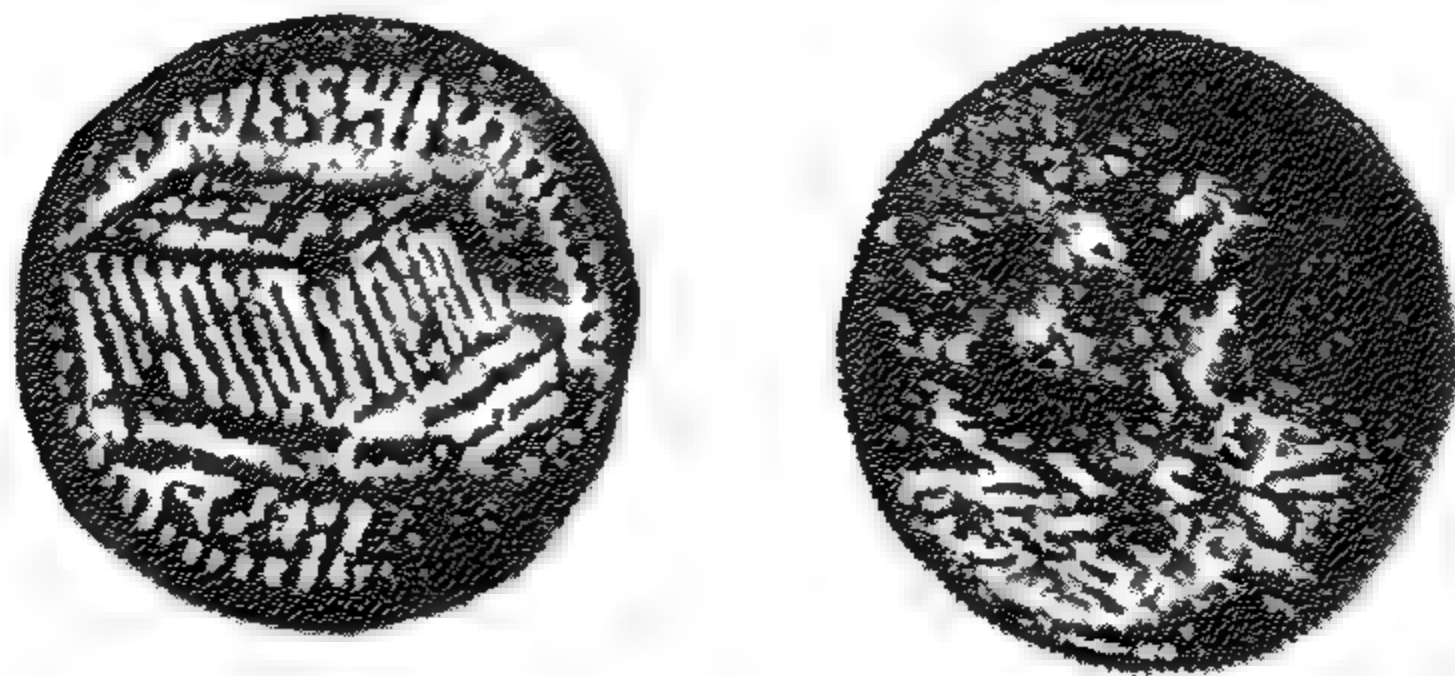
كان هذا المعبد في الاصل مكرساً لعبادة الاله الآرامي العظيم هدد ، اله البرق والرعد ، الاله الذي اذا اشفق ورضي امطرت السماء لتسقي الارض فتنتج غلالها ، واذا غضب واعتاج جاء السيل والفيضان فيهلكان الزرع والضرع . اله كهذا يروق في عيني الزراع ويفرض عليهم حبه واحترامه ، ولذا اقام له اهل سورية ولبنان معابد وهياكل في كل مكان وعلى ممر الزمن اختلط امر عبادته بعبادة الشمس واصبح رأسه في التماثيل محاطاً بهالة ينبثق عنه الشعاع كما نجد ذلك في بعلبك . وفي الحقبة الهلينية تقمص الاله هدد السامي الى اله اغريقي روماني : المشتري البعلبكي (Jupiter Heliopolitanus) وبعد ذلك الى المشتري الدمشقي (Jupiter Damascenus) .

«Description» in Karl Müller , *Geographi Graeci Minores*, - ١
vol . II (Paris , 1861) , p. 518 .



رسم ما يظهر على قطعة نقد من بريثوس (بيروت) . على وجه منها يظهر رأس تيشه (الحظ) وعلى الاخر صورة دلفين ونقوش .

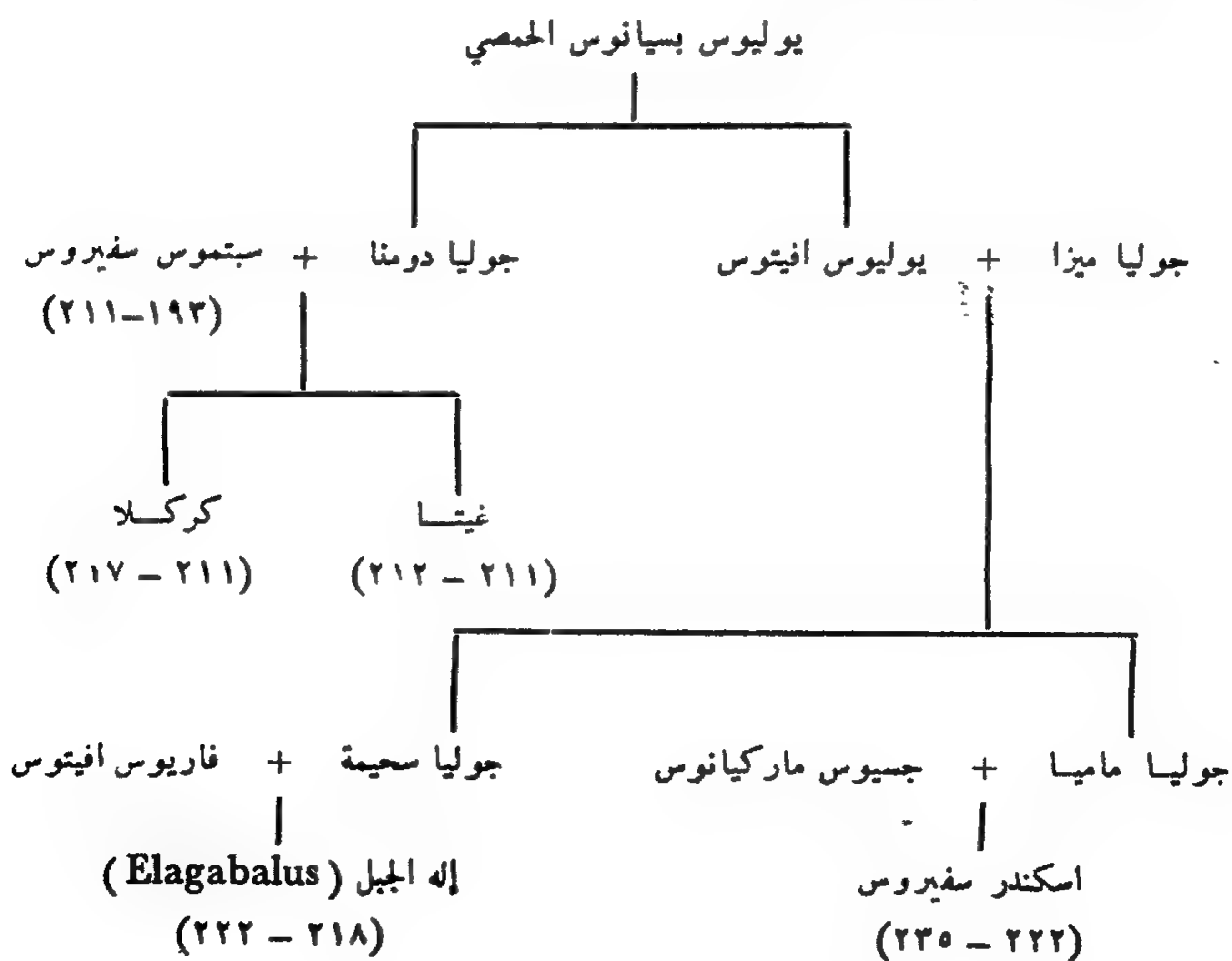
اما الهيكل الفينيقي الذي يعود عهده الى ما قبل الفترة السلوقية فلم يبق له اثر . نقول الهيكل الفينيقي لاننا نفترض ، نسبة الى اسم المدينة ، انه كان هنالك هيكل فينيقي سابق في الزمن لها كل بعلبك الرومانية . وقد كان لعراف هذا الهيكل ، من قبل ان اعاد اباطرة الرومان بناءه على مستوى فخيم ، شهرة بعيدة ومقام مرموق . فان الامبراطور تراجان قبل البدء بحماته العسكرية الثانية على القرثيين (١١٦ ب.م.) اراد امتحان عراف الهيكل فقدم اليه في ظرف مختوم صحيفة ورق بيضاء لا كتابة عليها . فكان جواب العراف اليه ان ارسل اليه صحيفة ورق بيضاء لا كتابة عليها . فعظم مقامه في عيني الامبراطور لانه ادرك ان العراف فهم مقصده . فتقدم الامبراطور اليه طالباً مشورته ولكن بطريقة جدية هذه المرة . فكان جواب العراف على استشاراته ان سلمه رمزاً : حزمة قضبان ملفوفة بقطعة من قماش^(١) . وفي السنة التالية قضى تراجان نحبه في كيليكية ففسر



قطعة نقد برونزية من عهد سبتيموس سيفيروس ضربت سنة ٢١١ ب.م. ويظهر على وجه منها هيكل جوبيتر في بعلبك .

الناس معنى الرمز ، ولكن جاء تفسيرهم متأخراً .
كان الامبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١) اول امبراطور شرع في بناء الهيكل على مستوى فخم هائل . وكان اطراد العمل في البناء في عهود خلفائه من الاباطرة بطيئاً ، ولكنه أسفر اخيراً عن بناء مجموعة من الهياكل ضمن بقعة واحدة حيث كانت تعبد اترغاتس (عشروت الزهرة) زوجة الاله هدد . وقد اتم بناءها كركلا (٢١١ - ٢١٧) وخلفاؤه من الاسرة السورية اللبنانية على مستوى لم تعهده من قبل . وتظهر صورة الهيكل لأول مرة على قفا القطع النقدية ايام سبتيموس سيفيروس (١٩٣ - ٢١١) ابي كركلا . كانت ام كركلا ، جوليا دومنا ، ابنة كاهن « اله الجبل » (Elagabal) من مدينة حمص . وقد كانت امرأة على جانب كبير من الجمال والذكاء . وقد لقبت باوغسطا (المعظمة) وكانت تشترك مع زوجها في تدبير امور المملكة . وكان لها اخت صغرى اسمها جوليا ميزا تفوقها ذكاء ومقدرة . وقد كانت حمصية المولد ايضاً ، وتزوجت قائداً رومانياً وانتقلت معه للسكن في العاصمة . وعندما اغتيل ابن اختها ، كركلا ، نجحت في تنصيب حفيدها الاغبلوس (Elagabalus اي اله الجبل) على العرش (١) .

١ - شجرة الاسرة السورية اللبنانية :



في هذه الفترة فُتِحت ابواب رومة على مصراعيها للهجرة السورية اللبنانية ، هذا بالإضافة الى ما كان هنالك من جنود سوريين ولبنانيين ، حسب قول احد المؤرخين « يحتلون الدرجة الثانية بين جنود رومة الممتازين »^(١) . وقد كان هؤلاء الجنود اثر بعيد الغور في توجيه السياسة الرومانية .

كان كركلا وامه يأمران بكتابة « هيليو بوليس » على النقود التي كانا يصكانهما . ويستطيع زائر بعلبك في عهدنا هذا ان يرى كتابة النذور المنقوشة على مصاطب



قطعة نقود نحاسية من صور من عهد جوليا دومنا (توفيت ٢١٧ ب . م .)

الاعمدة الضخمة المرفوعة اليهما تكريماً وتبركاً . ويقول نقش لاتيني ان الاعمدة المغطاة بالنحاس ورؤوس الاعمدة المذهبة هي مقدمة من جندي وقفها على شرفهما^(٢) . ويظهر اسم هيكل بعلبك ايضاً على النقود التي صكها فيليب العربي (٢٤٤-٢٤٩)

كان تمثال الاله قائماً في ابرز جزء من اجزاء الهيكل . كان التقليد الوطني يتصور هذا الاله على صورة شاب امرد لابساً لباس الفارس الذي يقود مركبة ويده اليمنى سوط رمز للصاعقة ، وفي يده اليسرى رمز البرق ، وضمة من سنابل القمح . وبعبارة اخرى كان هذا الشاب الامرد رمزاً لليلة (المطر) والمغلول (الغلال) في الكون^(٣) وكان اشراف البعلبكيين يحملون هذا التمثال على اكتافهم في بعض الاعياد الدينية ويطوفون به . كان حملة التمثال يستعدون لهذه الاعياد استعداداً دينياً ، فكانوا يخلقون رؤوسهم ويأخذون على انفسهم عهداً الا يشربوا مسكراً والا يقربوا امرأة . وكان في هذا الهيكل اعمدة من الحجارة السوداء (وقد ذكرنا

١ - Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, p. 617 .

٢ - *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. III, no. 138

٣ - Macrobius, Bk. I ch. 23, secs. 11-13 .

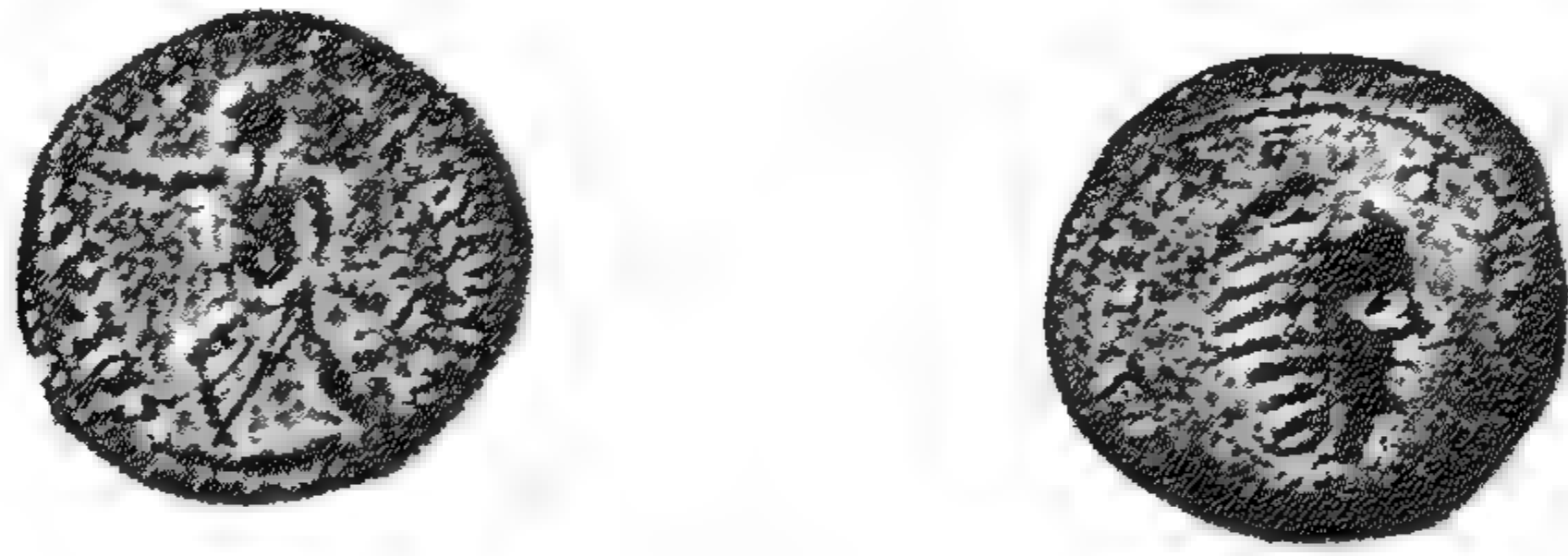
سابقاً ان الاعمدة الحجرية جزء من الهيكل وتكريمها جزء من العبادة . وقد نقل الاغبلوس احد هذه الاعمدة الى رومة . وقد جعلت هذه الهياكل من بعلبك مدينة من اشهر المدن اللبنانية واحلتها المرتبة الثانية بعد انطاكية في ولاية سورية . وكانت البقعة التي تقوم عليها الهياكل اشبه بحمي مقدس . وكانت الهياكل تنعم بالامتيازات التي كانت تمنح للحمى ، اي انها كانت تنعم بالحصانة . وكان يحق لها ان تملك الاراضي وان تجمع الضرائب وان تحتفل بالاعياد السنوية . وقد حمل التجار اللبنانيون والجنود المتقاعدون عبادة هذا الاله السامي اللبناني القديم الى الغرب . وكان يعرف باسمه الروماني Jupiter Heliopoeitanus اي المشتري البعلبكي او باسمه ولقبه الكاملين Jupiter Optimus Maximus Heliopolitanus اي المشتري البعلبكي صاحب المقام الاول والمعظم .

كانت آثار بعلبك على ممر العصور مثار دهشة واعجاب عند المؤرخين والسياح ، حتى انها اصبحت تعد من عجائب الدنيا السبع . والواقع انه لم يبق لنا من آثار الرومانيين ما يضاهيها روعة وعظمة حتى ولا الآثار التي خافوها في عاصمتهم رومة . وعندما افتتح المسلمون سورية جعلوا من هياكل بعلبك قلعة (ولا تزال تعرف بين العامة بقلعة بعلبك) ونسبوا بناءها لسليمان^(١) ، اذ من سوى مسخر الجن يستطيع ان يقوم بهذه المعجزة ؟ ولا تزال آثار الجامع وآثار حوض الماء للوضوء والمحراب بادية للعيان . وكقلعة حصينة فانها لعبت دوراً في الحروب السلجوقية والصليبية وفي عهد المماليك . وفي عام ١٢٦٠ خربها احد قواد هولاغو الذي قهر الدولة العباسية في بغداد . وبالرغم من التخريب الذي قام به المغول وبالرغم من الزلازل فقد ظل من آثار الهياكل ما يثير اعجاب كل سائح او زائر . وفي البقعة التي تقع جنوبي هيكل «هدد - المشتري» آثار هيكل انرغاتس الذي يعرف عادة بهيكل باخوس^(٢) . وهو هيكل اصغر حجماً من الهيكل الرئيسي ، ولكن آثاره لا تزال في حالة حسنة . ولا شك في انه احسن هيكل

١ - الادريسي (طبعة غلد ميستر) ص ١٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٦٧٤ ؛ المقدسي ص ١٦٠ ، ١٨٦ .

٢ - Herman Thiersch, « Zu den Tempeln und zur Basilika von Baalbek » Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, Philologisch-historische Klasse (Berlin, 1926), pp. I seq; do. « Le Temple de la déesse syrinne à Baalbek », Revue biblique, vol. XXXV (1926), p. 461 .

قديم بقي سليماً بشكله وزخرفته وروعته في هذه المنطقة من الدنيا . وباب الهيكل باب فخم هائل ، علوه ٤٥ قدماً وعرضه ٢٥ قدماً . وحجارة هذا المدخل غنية بالتماثيل والصور والزخارف ، وبعد اروع بناء خلفه لنا الرومان . اما هيكل المشتري فبناء مستطيل يحيط به صف من الاعمدة الضخمة الرائعة ، لونها اصفر ورؤوسها من النوع الكورنثي وفوقها صفان من الحجارة بشكل افريز . ولم يبق من هذه الاعمدة سوى ستة تقف بمهابة وجلال تتراعى من ورائها جبال لبنان . وقد كان عدد الاعمدة الباقية عام ١٧٥١ تسعة ، كما اخبرنا بذلك سائح انكليزي ، وفي عام ١٧٨٤ كان عددها ستة على ما رواه سائح افرنسي . والظاهر ان ٣ منها تداعت وسقطت في الزلزال الذي حدث عام ١٧٥٩^(١) . والواقع ان هذه الاعمدة

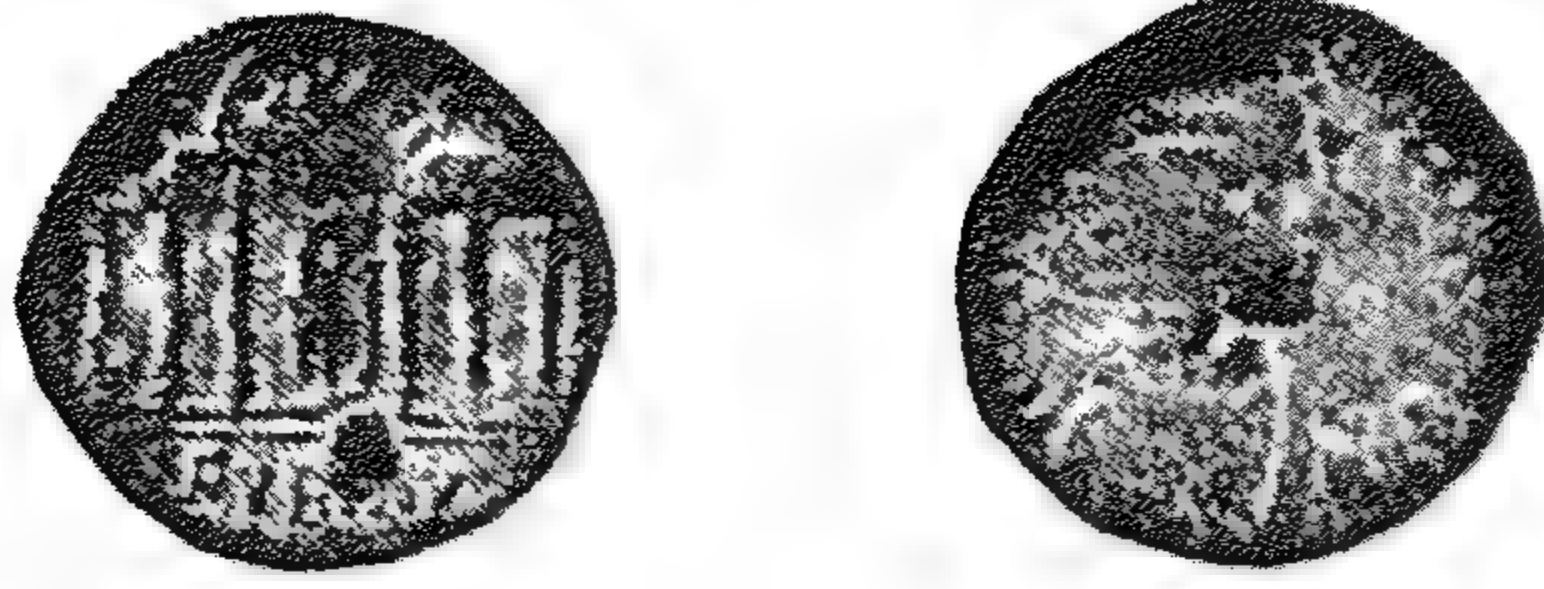


قطعة نقود نحاسية من عهد جوليا ميزا (توفيت ٢٢٣ ب.م.)

السة هي كل ما تبقى من هيكل الاله « هدد - المشتري » . وكل عمود يتألف من ثلاث قطع اسطوانية يبلغ علوها معاً ٦٢ قدماً وقطرها ٧ اقدام ونصف القدم . ويقول كاتب افرنسي عن هذه الاعمدة : « انه اذا تداعت هذه الاعمدة وسقطت يوماً ما فان العالم يشعر بان شيئاً من الجمال قد فارقه ، ويشعر لبنان انه لم يعد هنالك شعر تحت سمائه » . وقد نقل يوستينانوس بعض اعمدة الممر ذات اللون الارجواني التي مصدرها مصر من بعلبك الى القسطنطينية لبني كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا) وقد انكسر احدها على الطريق وفيه تظهر الاساور الحلقات التي كانت تربط اجزاء العمود .

اما صحن الدار الكبير الذي يقوم فيه المذبح فمساحته تقرب من ٣٤٠ قدماً مربعاً ، وحوله صف من اعمدة عددها ٤٨ عموداً . والى الجهة الغربية من المذبح

١ - Robert Wood, *The Ruins of Baalbec* (London, 1757), pp. 2, 22, 24; Volney, vol. II, p. 218 .



قطعة نقود من جبيل من عهد جوليا سحيمة (توفيت ٢٢٢ ب.م.)

تقوم كنيسة مستطيلة الشكل لها ثلاث غرف ناتئة محدبة خارجة عن البناء شيدت في القرن السادس . غير ان بعضهم يزعم ان قسطنطين (وبعضهم يزعم انه ثيودوسيوس) بناها في القرن الرابع^(١) . والهيكل بجميع اقسامه يقوم على مصطبة مرتفعة تقوم بدورها على سلسلة من العقود . والجدار الشمالي الغربي الذي هو حائط سور الهيكل يتألف من ثلاث قطع من الحجارة الهائلة التي ربما كان القصد من ضخامتها مقاومة الزلازل . وهناك ثلاث قطع من هذه الحجارة الضخمة في الجدار الذي تقوم عليه مصطبة هيكل المشتري يبلغ طول الواحدة منها تقريباً ٦٢ قدماً و ١٤ قدماً عرضاً و ١١ قدماً علواً ، ووزن الواحدة يقرب من ٧٥٠ طناً . ومجموع هذه الحجارة مشهور عرف في كتب الكلاسيكيين « بالحجارة الثلاثة » (trilithon) . وفي كل حجرة من المادة ما يكفي لبناء بيت مربع سماكة جدرانه قدم واحد وطول ضلعه ٦٠ قدماً وعلوه ٤٠ قدماً . وهناك حجر شبيه بها^(٢) او ربما اكبر منها لا يزال ملقى في مقلع الحجارة في ضواحي المدينة ، مما يدل على ان البنائين تركوه هنالك لياسهم من اتمام البناء على هذا المستوى الهائل من الضخامة . ويقدر انه بالامكان قطع اربع مسلات بحجم مسلة كليوباترة من هذا الحجر . والى جانب ضخامة الاعمدة وعظمتها وحجم الحجارة الهائلة ناحية اخرى تجعل من هذه الهياكل تحفة بناء رائعة ، نغني فن الحفر الجميل وروعة التماثيل والزخارف التي تزين الافاريز . ويظهر في التصاوير المنحوتة سنابل القمح وشقائق النعمان الحمراء (رمز الموت والحياة) وجنّيات مجنحة ترفع بايديها قطعاً من القماش الشفاف وولدان

Thiersch in *Nachrichten*, pp. 20, seq.

- ١

٢ - وتعرفه العامة بجبر الحلى ، لان اسطورة تقول ان العاقر اذا لامسته تحبل . (ونحن نعرف اسطورة اخرى وهي ان امرأة حبلى حملته (المترجم) .

مجنحون بأيديهم القسي والنبال . وهم يرمزون الى الالهة الحب - او راكبون على التنانين أو الدلافين . وعتبات الابواب مزينة بالعرائش والاكاليل ، والسقف مزدان برسوم هندسية تتخللها اوراق الاشجار، وبتمائيل نصفية للباطرة او للالهة . ومما يدهش له الزائر بنوع خاص روعة المداخل الى هيكل اترغاتس الغنية بمختلف التماثيل وانواع الزهر .

وعلى بعد ٣٠٠ يرد من حرم الهيكل يقوم هيكل صغير مستدير ولكن على كثير من جمال الصنع . وقد حرصت البعثة الأثرية الألمانية ان تزيل من حوله بيوت الاهالي . ويبدو من نوع هندسة البناء انه يعود الى العهود الامبراطورية المتأخرة .



تمثال برونزي للاله هدد البعلبكي ، حوالي ١٥٠ ق.م.

وقد كان هذا الهيكل مكرساً لعبادة الزهرة او إلهة الحظ (Fortuna) . ومن حسن الحظ ان هذا الهيكل الوثني حوّل في العصور المتوسطة الى كنيسة مسيحية كرسّت على اسم القديسة بربارة فكان هذا التكريس عاملاً في حفظه من الخراب.

بيروت مستعمرة رومانية

كانت بيروت المدينة الوحيدة من المدن الساحلية التي كان لها مقام ثقافي اما صيدا فقد حصلت على الامتيازات والحقوق التي تنعم بها المستعمرة ، وذلك في عهد الأغبلوس . اما صور فقد حصلت على امتيازات المدينة الحرة في عهد هدريانوس . ثم رفع مقامها ايام سبتيموس سيفروس الى رتبة مستعمرة وذلك جزاء ولائها لهذا الامبراطور ايام حروبه مع منافسه نيغر (Niger) الذي كان اهالي بيروت يعترضونه ويظهرون له الولاء. غير ان بيروت كانت اقدم مستعمرة رومانية في هذه البقعة اطلاقاً . فقد اقام بها (حوالي ١٧ ق . م .) جنود متقاعدون كانوا ينتمون الى الجيش الخامس (وهو الجيش المقدوني) والى الجيش الثالث (وهو الجيش الغالي اي الافرنسي القديم) بقيادة احد قواد اوغسطس قيصر . فكانت اشبه بحصن يجهز حاكم الولاية بمزيد من الجنود عند الحاجة . فبيروت امكنها مثلاً ان تمد القائد فاروس ، حاكم سورية في عهد اوغسطس قيصر ، بالف وخمس مئة جندي لما مرّ في المدينة وهو في طريقه لمحاربة بلاد اليهودية^(١) . وقد اطلق على المستعمرة اسم « مستعمرة جوليا اوغسطا السعيدة ، بيروت » (Colonia Julia Augusta Felix Berytus)^(٢) وذلك على اسم جوليا ابنة اوغسطس تكريماً لها . وكانت بيروت قاعدة الاسطول الروماني في الجزء الجنوبي الشرقي من المتوسط . وبما انها كانت مستعمرة رومانية فان سكانها كانوا يتمتعون بامتيازات وحقوق بمنحها القانون الروماني ، كالحكم الذاتي ، والاعفاء من ضريبة الرؤوس وضريبة الخراج . وعندما اصدر كركلا (٢١١ - ٢١٧) قانونه الذي منح بموجبه المواطنة لجميع المواطنين الاحرار في امبراطوريته ، اصبحت هذه الامتيازات التي كانت تنعم بها بيروت في حكم الملغاة . الا ان بيروت اصبحت

Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 10, sec. 9.

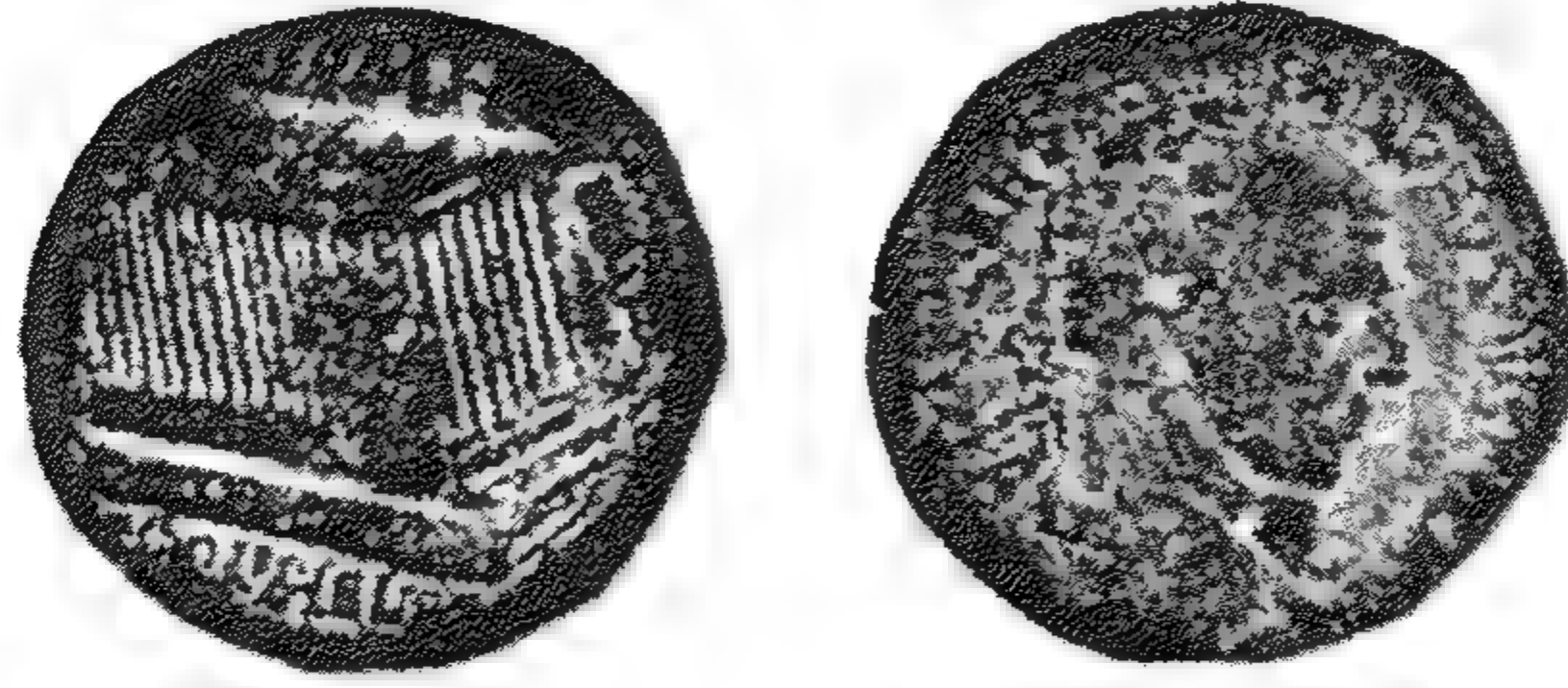
- ١

Pliny, Bk. V, ch. 17, Sec. 20 .

- ٢

كشقيقتها في الداخلية ، بعلبك ، مركزاً للحياة الرومانية في بلاد هلبنية الحضارة.

كان الولاة اليهود الذين كانوا يحكمون كملوك تحت امرة الامبراطور الروماني يغدقون العطاء على مدينة بيروت بشكل ابنية عامة فخمة وذلك ارضاء لاسيادهم الرومان كما فعل هيرودس الملك العظيم^(١) (٣٧ - ٣٤ ق. م.) . هنا في مدينة بيروت حاكم هيرودس ابنه وقضى عليها بالموت لخيانتهما العظمى ، وذلك بعد ان استأذن سيده الامبراطور اوغسطس قيصر وفي اثناء المحاكمة حجز على الابنين في قرية بالقرب من بيروت ذكرها الكلاسيكيون باسم بلاطانوس^(٢) (Platanos) التي يمكن ان تكون قرية عرمون الحالية. اما اغريبا الاول (٤٦ - ٤٤ ب. م.) حفيد هيرودس فقد كرم بيروت وجملها ببنائه مسرحاً فيها على غاية من الجمال والعظمة . وبنى كذلك ملعباً مستديراً للرياضة وحمامات عامة وابنية عامة ذات اروقة مسقوفة . وقد انفق على بنائها بسخاء واسراف^(٣) . والحفلة التي اقامها لتدشين هذه الابنية رافقها حفلات موسيقية والالعاب في المبارزة . ولكي يزيد في شدة الحماس عند الجماهير فانه اطلق في الملعب المستدير الفأ واربعماية مجرم زوجاً زوجاً لكي يتقاتلا حتى الموت. وفي اثناء الحروب التي شنها الامبراطور فسباسيان (Vespasian) ضد اليهود نصّب جنوده امبراطوراً واعلنوا خبر تسنمه العرش



قطعة نقود برونزية من عهد فيليب العربي ٢٤٤-٢٤٩ ب.م. من بعلبك ، وعلى وجهها يظهر هيكل جوبيتر البعلبكي

١ - Josephus, *Antiquities*, Bk. XVI, ch. 11, sec. 2.

٢ - راجع مقالا عنها في :

Pauly-Wissowa, *Real-Encyclopädie*; Dussaud, *Topographie*, pp. 45 - 7.

٣ - Josephus, *Antiquities*, Bk. XIX, ch. 7, sec. 5 .

في مدينة قيسارية عام ٦٩ ب. م . وعندما قفل عائداً الى رومة عرج على بيروت وظلّ فيها مدة يتقبل تهاني الوفود التي جاءت من سورية ومن غيرها من المقاطعات. وقد جاء بعض رؤوس الوفود لابسين تيجانهم مبالغة في التكريم والتعظيم . وجاء معهم موسيانوس (Mucianus) حاكم سورية ليؤكد للامبراطور الجديد ان جميع السكان اقسموا له يمين الطاعة والولاء^(١). ثم انه قبل ان يغادر هذه البلاد عين ابنه طيطس قائداً لاتباع الحرب ضد اليهود . وبعدما سقطت مدينة اورشليم في قبضته (عام ٧٠ ب. م) عرج على بيروت واقام فيها مدة ليحتفي بانتصاراته وبعيد مولد ابيه . وقد اقام بهذه المناسبة حفلات واعياداً لم تشهد لها بيروت مثيلاً. ومن جملة الحفلات التي اقامها طيطس في ملعب اغريبا المستدير حفلة قذف الاسرى اليهود الى الوحوش الجارحة ومشاهدة اقتتلهم حتى يفني بعضهم بعضاً^(٢). اما اغريبا الثاني (توفي سنة ١٠٠ ب. م.) فقد بنى له قصراً لاقامته في بيروت ومسرحاً فخماً تقام فيه الحفلات التمثيلية السنوية وتفرّق اثناءها العطايا والهبات من الزيت والحنطة على فقراء الناس. ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي « انه جعل المدينة كلها باقامة التماثيل التي انفق عليها من ماله الخاص ، ورفع الصور التي رسمتها ايدي الفنانين القدماء^(٣) » وقد ظلت الحفلات التمثيلية والالعاب الرياضية التي عرفت بها بيروت شائعة حتى القرن الرابع ميلادي . وعندما يحفر اهالي بيروت في يومنا هذا اساسات بناياتهم التي يشيدونها على انقاض المدينة الرومانية القديمة يعثرون دوماً على اعمدة من الغرانيت او على اجزاء منها محطمة مصدرها مصر العليا . وانك لتجد في بيروت بقايا هذه الحجارة او الاعمدة في بعض البنايات الجديدة ، كما انك تجد محادل كان الناس يستعملونها لحدل الشوارع . جميع هذه تدل على عظمة الابنية العامة التي كانت تزدان بها بيروت^(٤).

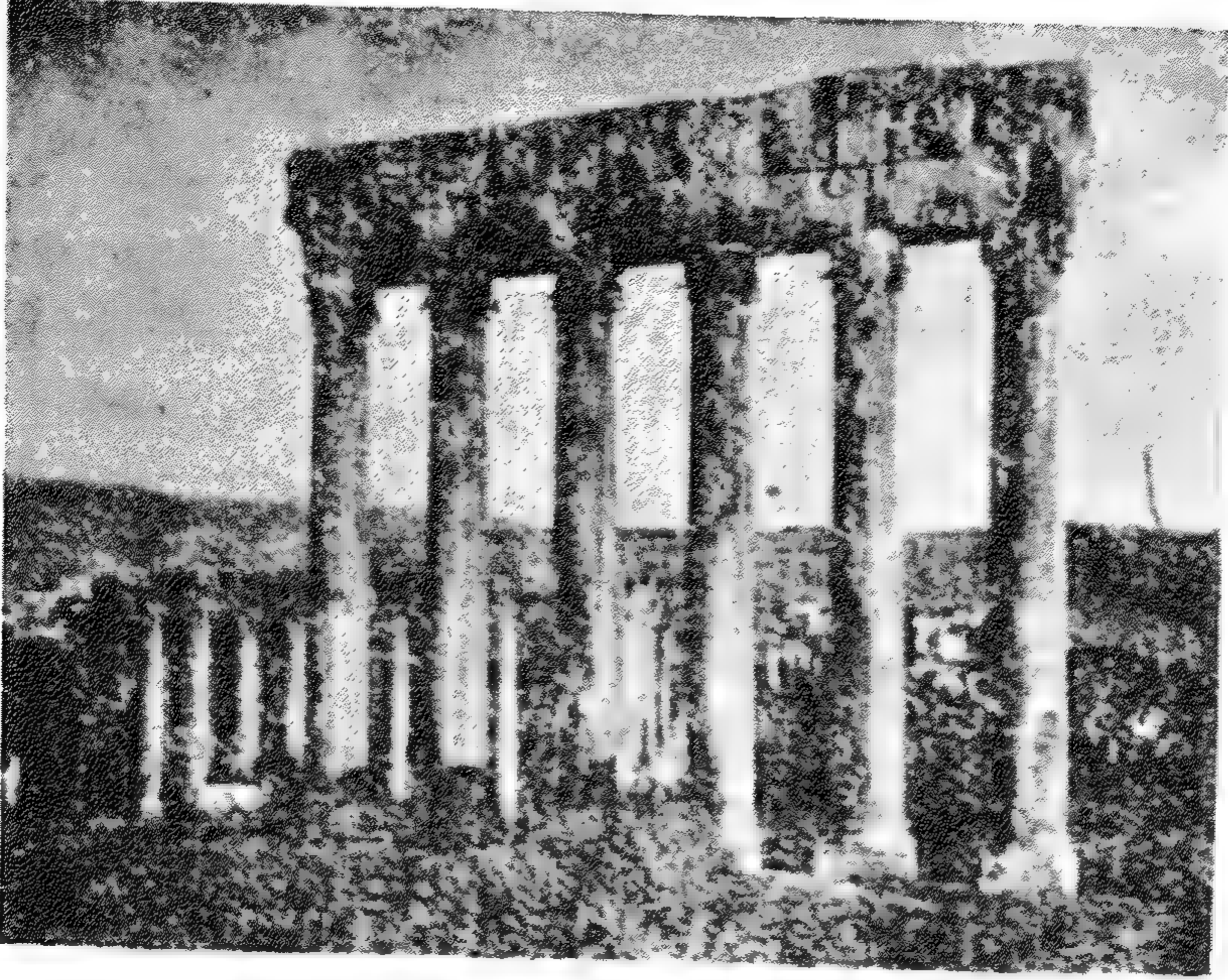
كان شفيع بيروت الرومانية والهيا المفضل بوسيدون (او نبتون) اله البحر . وتظهر صورته على النقود البيروتية حاملاً بيده رمحاً او حربة مثلثة الرأس ، او

١ - Josephus, *Jewish War*, Bk. IV, ch. 10, sec. 6 .

٢ - Ibid. Bk. VII, ch. 3, sec. 1.

٣ - Josephus, *Antiquities*, tr. William Whiston, Bk. XX, ch. 9, sec. 4 .

٤ - Harvey Porter, *History of Beirut*, (Beirut, 1912), pp. 26-7 .

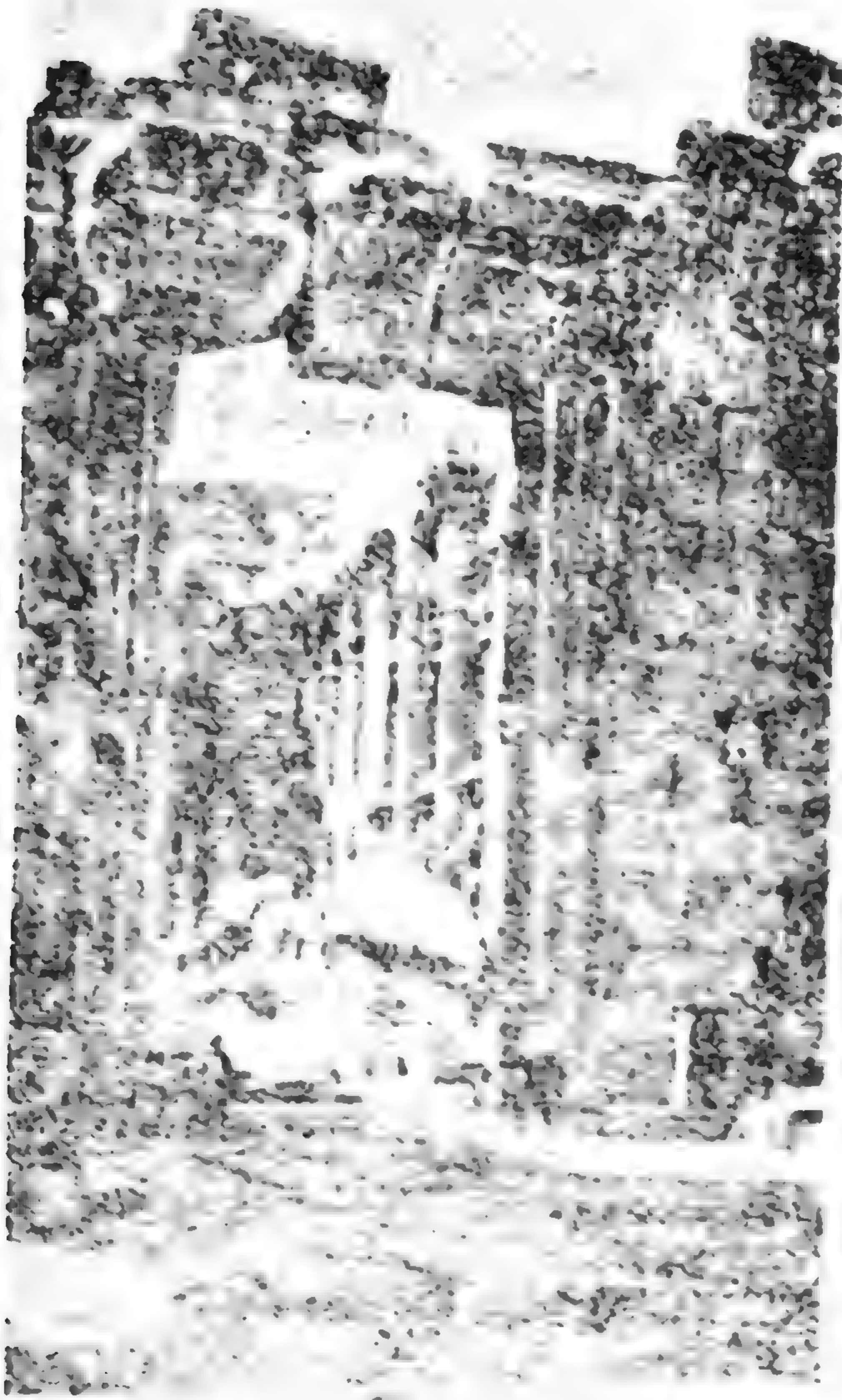


الاعمدة الستة في هيكل جوبيتر ، بعلبك

قد يظهر على بعض هذه النقود راكباً مركبة تجرها خيول البحر .
ومما يدل على توثيق الصلات بين بيروت وبعلبك عبادة البيروتين الاله
البعلبكي جوبيتر (المشتري) في دير القلعة في ضواحي بلدة بيت مري القائم على
هضبة جميلة تطل على بيروت . وعلى اطلال هذا الهيكل في يومنا هذا يقوم دير
للطائفة المارونية . وكنيسة الدير مبنية بحجارة الهيكل الروماني القديم . غير انه تجب
الاشارة الى ان الاله الذي كان يعبد هناك ويكرم قبل عبادة المشتري البعلبكي هو
بعل مرقود^(١) (واسمه اللاتيني Balmarcodes ومعناه اله الرقص) الذي ظل
اهل بيروت يقدون الى هيكله حاملين القرابين والتقدمات حتى بعد ان شاعت فيها
عبادة المشتري . كان الرقص ظاهرة خاصة بعبادته . وقد وجد في احد النقوش
اللاتينية هناك اسم امرأة (من بني تيم الله) . اما الدير الماروني الحالي فبني على
انقاض هيكل روماني ، والهيكل الروماني بدوره قائم على انقاض هيكل فينيقي

١ - واسمه مشتق من « رقد » وهو جذر سامي معناه رقص . راجع :

L. Jalabert in *Mélanges de la faculté orientale, Université Saint-Joseph*, Vol. I (Beirut, 1920), pp. 181, seq .



مدخل هيكل باخوس ، بعلبك

اسبق في الزمن . وحول الدير بقايا اعمدة ضخمة قطر الواحد منها ٧ اقدام تذكرنا باعمدة هياكل بعلبك . ويجسد الزائر ايضاً بقايا بطاريات للمدفعية التركية التي انشأوها هناك اثناء الحرب العالمية الاولى لحماية مرفأ بيروت . واسم القرية المجاورة للدير بيت مري (اي بيت آلهتي ، او اسيادي وموالي) . وهذا الاسم يذكرنا بالبلع الفينيقي . وبالقرب من بيت مري وعلى الهضبة نفسها قرية اخرى تسمى برمانا^(١) وقد يكون اسمها تحريفاً لاسم فينيقي قديم : « بيت رمون » اي هيكل الاله رمون ، اله البرق والرعد . ورمون لقب من القاب الاله هدد .

بيروت مركز معهد للحقوق

ولقد اشتهرت بيروت بكونها مركزاً ثقافياً . فقد كان فيها اشهر معهد روماني للقانون في الامبراطورية خارج ايطالية . وكانت قبلة انظار طلاب القسانون من جميع انحاء المشرق . وكانت دراسة القانون احدى المتطلبات الاساسية للتوظيف العالي في الحكومة . وقد خرج معهد بيروت للحقوق كثيرين من القضاة والحكام في المقاطعات الشرقية للامبراطورية .

من المرجح ان يكون الامبراطور سبتيموس سيفيروس^(٢) (١٩٣-٢١١) مؤسس هذا المعهد . فقد انشئ في المدينة هيكلاً على اسمه تخليداً لذكراه . وكذلك اقيم له تمثال تذكاري .

وهذا المعهد كان اقدم معهد من نوعه في المقاطعات الرومانية واشهرها . وقد عمر اكثر من اي معهد آخر . نعم ، كان هنالك معاهد للقانون في اماكن اخرى مثل اثينة والاسكندرية وبعض المدن في المقاطعات ، ولكن لا شك ان معهد بيروت كان يحتل الصدارة . وقد تحول المعهد الى مركز فكري خلاق، وجذب اليه

١ - راجع فريجة : اسماء المدن والقرى تحت مادة بيت مري وبرمانا (م)

٢ - Cf. Paul Collinet, *Histoire de L'École de Droit de Beyrouth*

(Paris , 1925) pp. 16—25; H. Lammens, *La Vie universitaire à Beyrouth sous Les Romains et le Bas-Empire* (cairo, 1921), p. 4 .

هالة من العقول الممتازة من طلاب واساتذة قدّموا في حقل التشريع تقدمات عظيمة للتراث الروماني العالمي : الشرائع الرومانية .

كان من ابرز المشترعين الرومانيين الذين درّسوا في معهد الحقوق البيروتي عالمان مشهوران : اميلوس بابنيانوس ودوميتيوس اولبيانوس . ويظهر ان بابنيانوس كان من اهالي حمص ومن اقرباء جوليا دومنا زوجة الامبراطور سيفروس . وقد استدعاه هذا الامبراطور عام ٢٠٣ ليكون مستشاره القانوني في رومة . وقد رافق الامبراطور ، بصفته مستشاراً قانونياً ، اثناء حملته العسكرية ضد بريطانيا . وهناك ، في بريطانيا ، وهو على فراش الموت ، اوصى الامبراطور ان يعهد بتربية ولديه كركلا وجيتا الى بابنيانوس . ولكن بعد ان تسنم كركلا العرش (٢١١ - ٢١٧) صرف بابنيانوس من الخدمة لان عاتيا مستبداً ككركلا لا يطيق ان يرى الى جانبه حارساً دقيقاً يحاسبه على كل هفوة . وبعد صرفه من الخدمة بمدة وجيزة امر بقطع رأسه (٢١٢) لانه انتقد الامبراطور بعنف عندما قتل اخاه جيتا . يقول لنا التاريخ ان رد الفعل عند كركلا بمناسبة قتله بابنيانوس كان ان قرّع السفاح الذي قتله ، لانه استعمل فأساً عوضاً عن ان يستعمل سيفاً في قطع رأسه (١) . وبالرغم من انه قتل وهو بعد في السابعة والثلاثين من عمره فانه ترك للعالم ارثاً تشريعياً اعظم واغنى من اي ارث آخر خلفه لنا المشترعون الرومان . فانه في عام ٥٣٣ ، عندما وضعت مجموعة الشرائع المعروفة بـ شرائع يوستنيان الكبير ، ادخل فيها لا اقل من ٥٩٥ مادة او بندا من المواد القانونية التي خلفها بابنيانوس في مؤلفاته . ومن المعلوم ان مجموعة شرائع يوستنيان هي الاساس الذي تقوم عليه اغلب الشرائع الاوروبية في عهدنا هذا . كان الناس يقدرون علم بابنيانوس الغزير ونضج عقله الوافر ، وعدله وانصافه وصلابة خلقه بحيث ان آراءه واجتهاداته القانونية اصبحت فيما بعد ، عندما وضع قانون الاستشهاد عام ٤٢٦ ، القول الفصل . اي انه عندما كان القضاة يختلفون في الاجتهاد والاستشهاد بحيث يتعذر ايجاد كثرة تعضد هذا الرأي او ذاك فانهم كانوا يميلون الى الاخذ برأي بابنيانوس على انه القول الفصل . وهذا منتهى ما يتمناه المرء من الاكرام والتقدير .

كان خليفة بابنيانوس رجلاً فاضلاً من مواطنيه : دوميتيوس اولبيانوس . ولد اولبيانوس في صور حوالي ١٧٠ ب.م. وكان استاذاً في معهد بيروت . ثم انه استدعي الى رومة ليكون معاوناً لبابنيانوس مستشار الامبراطور سيفروس كما ذكرنا آنفاً . وقد نفاه الاغبلوس خليفة كركلا . ثم اعيد الى وظيفته (٢٢٢ ب.م.) كاستشار قانوني للامبراطور عندما تسلم اسكندر سيفروس العرش . وقد كان اولبيانوس استاذاً ووليه . كان هذا الامبراطور اللبناني المولد يختلف خلقاً عن اسلافه . فانه كان يتصف بالبساطة والطهارة والعدل والحكمة والتسامح في حياته الخاصة والعامة . وبرعايته وحمايته شهر اولبيانوس حرباً شعواء ضد الرذائل والاستغلال ، وقام بتعديل القوانين واصلاح المجتمع . وحاول ان يسن قوانين يكبح بها جماح افراد الحرس الامبراطوري الذين كانوا يستغلون مركزهم لمصالحهم الشخصية . وفي عام ٢٢٨ هاجت جماعة من الثائرين الناقمين الذين ينتمون الى هذا الحرس ، ودخلوا القصر عنوة حيث كان قد لجأ اولبيانوس هرباً منهم وقتلوه على مشهد من الامبراطور وامه .

وقد عمر اولبيانوس اكثر من زميله بابنيانوس ، وكانت خدماته في حقل التشريع والقوانين اجلّ وأوسع من خدمات زميله . وقد اقتبس المشترعون الذين وضعوا مجموعة فوانين يوستنيان (Digest) اكثر من ٢٥٠٠ بنداً او فقرة من كتاباته ومؤلفاته ، مما يشكل ثلث المجموعة اليوستنيانية . وفي مقدمة « المجموعة » ذكر " لرجل كان استاذاً في معهد الحقوق البيروتي اسمه انطوليوس ، وكان عمله ان يجمع القوانين المعروفة من هنا ومن هناك . ويمدحه كاتب المقدمة على انه كان رجلاً ينتمي الى عائلة عريقة في علم القوانين . وقد مات انطوليوس في حادثة زلزال عام ٥٥٧ في القسطنطينية الى حيث كان قد رحل (١) . وقد كان المسؤول الاول الذي نيط به جمع القوانين لمجموعة يوستنيان استاذاً آخر من اساتذة الحقوق في بيروت ، واسمه دوروثيوس . وكان يوستنيان قد استدعاه الى القسطنطينية ، فلا عجب ان رأينا يوستنيان يفضل المدينة اللبنانية على غيرها ، ولا عجب في انه كان يلقبها « بام الشرائع ومرضعتها » . وقد كانت مجموعة قوانين يوستنيان آخر مجموعة للقانون وافضلها من جهة الشمول . وقد وضعت قبلها للجزء الشرقي من

الامبراطورية الرومانية مجموعة اخرى عام ٤٣٨ ب . م . وضُمت فيها جميع الشرائع والقوانين التي وضعها بابنيانوس واوليانوس ، وتنص على ان هذه القوانين هي للقضاة والحكام قوانين نهائية .

وكما ان بيروت كانت معهداً يتشقف فيه رجال الحكم ورجال الدولة كذلك كانت مركزاً للدراسات اللاهوتية لرجال الكنيسة . وا قدم ذكر لها في الكتب الكنسية جاء في خطبه لغريغوريوس الملقب بصاحب العجايب او الكرامات^(١) القاها عام ٢٤٠ ب . م . وغريغوريوس اصلاً من كبدوكيا . وقد جاء بيروت يافعاً حيث بقي ٨ سنوات يطلب العلم . وقد كانت لغة التدريس في بادئ الامر اللاتينية ، غير انه عند مستهل القرن الخامس اصبحت الاغريقية لغة الامبراطورية البيزنطية . وقد صحب غريغوريوس في سفرته الى بيروت طلباً للعلم اخ له اسمه اثنودورس الذي اصبغ فيما بعد مطراناً ، كما كان اخوه على بنطس^(٢) . وقد كان غريغوريوس يميل الى المسيحية وعقائدها . فذهب من بيروت الى قيسارية في فلسطين حيث اعتنق الدين المسيحي . على يدي استاذه اوريجون ، الاستاذ الذي كان غريغوريوس يحبه ويحترمه . ثم انه بعد ذلك سيم اسقفاً على مدينته حيث كانت رعيته تتألف اولاً من سبعة عشر مسيحياً فقط ، ولكن عند موته (حوالي ٢٦٥) كان عدد الذين لم يكونوا مسيحيين ١٧ فقط ، وذلك بالرغم من عنف الاضطهاد الذي كان يقوم به دقيوس في هذه الفترة . وفي اثناء الاضطهادات هرب غريغوريوس الى الصحراء ليس خوفاً من الموت انما رغبة منه في الابقاء على نفسه لخدمة رعيته . وفي الاضطهادات التي تلت اضطهادات دقيوس والتي كان بطلها الامبراطوران ديوكليشان ومكسيميان استشهد كثير من خريجي بيروت^(٣) . ومن رجال الكنيسة المشهورين الذين اثموا بيروت للدرس فيها من مناطق البحر الاسود كان الاسقف غريغوريوس النازينزي (من مدينة نازينزوس في كبدوكيا) الذي اصبـح فيما بعد اسقف القسطنطينية . وقد طوب قديساً .

١ — *The Works of Gregory Thaumaturgus, Dionysius of Alexandria, and Archelaus*, tr. S. D. F. Salmond (Edinburgh, 1871). pp. 49-50.

Eusebius, tr., vol. II pp. 221-2.

Collinet, pp. 84-98.

٢ —
٣ — للاطلاع على اسماء اخرى بارزة راجع :

وحوالي سنة ٣٥٦ هجر غريغوريوس النازينزي ائينة مفضلاً بيروت عليها . وجاءها ليتابع دروسه في القانون . ثم انه استدعي عام ٣٧٩ الى القسطنطينية ليدافع عن الايمان الارثوذكسي القويم ضد بدعة آريوس وغيره من الهرطقة . وبعد انعقاد مجمع القسطنطينية بعشر سنوات توفي . واشهر من هؤلاء جميعاً سفيروس اسقف انطاكية (من ٥١٢-٥١٨) الذي كان لاهوتي الجزء الغربي من الكنيسة الشرقية ، التي كانت تعرف باليعقوبية . وقد خلف لنا تلميذاً من تلامذة القانون في بيروت ، واسمه زكريا الغزاوي^(١) ، سيرة حياة الاسقف سفيروس . وقد كان زكريا معاصراً له في التلمذة ، فجاءت السيرة التي ألفها سيرة ممتعة طريفة صور لنا فيها الحياة الجامعية في مدينة جامعة كبروت تتمثل فيها شعوب وحضارات وتقع ، جسراً بين الشرق والغرب .

حياة الطلاب

التحق زكريا بمعهد الحقوق البيروتي خريف ٤٨٧ او ٤٨٨ ، اي بعد مقدم صديقه سفيروس بسنة واحدة . يقول انه لما دخل قاعة التدريس حيث كان الاستاذ الشهير ليونتيوس (Leontius) يحاضر شعر بشيء من التهيّب والوجل اللذين يستوليان على كل طالب جامعي في بادئ الامر . ويظهر ان الطلاب القدامى كانوا يستقبلون الجدد بشيء من السخرية وقلة الاحترام امتحاناً لضبط النفس وفضيلة التحمل والجلد^(٢) ، على نحو ما يفعله طلاب الجامعات الاميركية لعهدنا هذا ، ولكن ليس بالقسوة والعنف اللذين نسمع بهما في « اسبوع الطلاب الجدد » . انما يظهر ان سفيروس والطلاب القدامى استقبلوا زكريا بلطف وترحاب . وقد كان ليونتيوس من اهل بيروت ، وكان والده من قبله متشرباً مشهوراً^(٣) كما ان ابنه انتوليوس اصبح فيما بعد استاذاً في معهد بيروت . وهو احد الذين اشتغلوا في جمع

١ - وقد نشر النص السرياني ، اما الاصل الاغريقي فقد فقد . وقد ترجم الكتاب تحت عنوان *Vie de Sévère* ترجمة :

M. A. Kugener in *Patrologia Orientalis* , vol. II (Paris , 1907), pp. 1—115.

Zacharias , p. 47.

— ٢

Collinet, pp. 141 seq, 188 seq .

— ٣

القوانين التي تعرف بقوانين يوستينيان كما ذكرنا آنفاً . كانت الدروس الاجبارية المطلوبة من كل تلميذ يريد الالتحاق بعلم الحقوق في ذلك الزمان علم اللغة (الصرف والنحو) والبيان واللغة الاغريقية واللاتينية . اما لغة التدريس ، في الفترة التي نحن بصدددها ، فقد كانت الاغريقية . كان الطالب زكريا مسيحياً متدينياً . فانه بعد انتهاء الدروس كان يذهب الى كنيسة في بيروت تسمى كنيسة القيامة ليصلي . ثم انه كان يتمشى ناحية الميناء حيث كان يلتقي بسفيروس صديقه . وكان يحاول نصحه ورده الى محجة الصواب . كان يطلب بجملة ان يرافقه الى الكنيسة كل يوم بعد انتهاء الدروس ، وكان يطلب اليه ان يقلع عن عاداته في حضور سباق الخيل والذهاب الى المسارح التمثيلية والى حفلات الجلال حيث كان السجناء والاسرى يلقي بهم الى الوحوش المفترسة لتمزقهم ، وان يكف عن العاب الميسر والمقامرة ومعاقرة الحمرة مع بنات الهوى وغيرها من الرذائل التي يظهر من وصف زكريا انها كانت شائعة في اوساط الطلبة في بيروت^(١) . اما سفيروس الاسقف الغتيد وصديقه الحميم ، فقد كان طالباً غنيا يحف به الخدم اني ذهب . فكان يقول لصديقه النصوح ، الذي كان اصغر منه سناً ، انه طالب حقوق وليس راهباً متنسكاً ولكن كان يردده بلطف قائلاً انه سينظر في الامر وسيحاول جهده ان يكون الطالب الذي يريده ان يكونه .

كانت جميع الدروس تتوقف آخر الاسبوع — من السبت بعد الظهر الى الاثنين صباحاً . وكان الطلاب يعيدون دروس النهار مساء ، لانهم كانوا احراراً في المساء يقضون اوقاتهم كما يشاؤون . وكان الطلاب يؤسسون الجمعيات والمنظمات الطلابية كما هي الحال في يومنا هذا . ويقول لنا زكريا انه الف جمعية مسيحية كانت تجتمع مساء كل يوم في كنيسة القيامة ليتدارسوا مؤلفات باسيل كريسوستم وغيرها من مؤلفات آباء الكنيسة . وكان رئيس الجمعية رجلاً اسمه ايفركريوس من سميساط (Samosata) الذي كان قد درس في انطاكية حيث "جرح" اثناء اضطراب وقع في المدينة . وقد كان من اعضاء هذه الجمعية طلاب من ليسيا (Lycia في آسية الصغرى) وايدسا (الرها) وغزة والاسكندرية مما يدل على ان معهد الحقوق البيروتي القديم كان يضم طلبة من جميع انحاء المنطقة ، كما

تضم الجامعة الاميركية في بيروت في عهدنا هذا طلاباً من جميع انحاء الشرق الادنى . وما ان كاد القرن الخامس ينصرم حتى اصبح معهد القانون هذا جامعة كبيرة تضم كليات متعددة : واحدة للآداب واخرى للفلسفة واخرى للقانون . وقد كان رئيسها ايفرغريوس رجلاً حسن التدين صالحاً متقشفاً يصوم كل يوم ويرفع عن الشهوات . انما كان ينعم بحمام مرة واحدة في السنة وذلك مساء عيد الفصح^(١) . وقد كانت حياته قدوة صالحة اقتدى بها سفيروس فأخذ بالتقشف والزهد وانقطع عن اكل اللحم .

وكان هنالك منظمات وجمعيات للطلبة تعنى بأمور اخرى : فقد كان هنالك مثلاً جمعية تعنى بعلم الغيب . وقد كان من اعضاءها البارزين طالب ارمني وآخر من سلونيك ولبناني من بعلبك ومصري من طيبة . وقد وقع المصري ، واسمه يوحنا ، في حب امرأة لم تبادل له الحب . فدُبِّرَت مؤامرة لتقديم عبد المصري وخادمه ضحية للارواح السفلية املا في ان تقوى الارواح السفلية على تغيير رأي المرأة وجعلها تقع في غرام الطالب المصري^(٢) . فاخذوا العبد ليلاً ليقدّموه ذبيحة في ملعب البلد . ولكن صادف ان مر بعض الناس فحدث اضطراب فر العبد المسكين اثناءه وذهب الى السلطات يشكو معلمه . وقد جرى تفتيش دقيق شامل عن كتب السحر التي كان يستعملها اعضاء هذه الجمعية فوجدت مخبوءة في كرسي من كراسي الطالب المصري يوحنا ، فاخذت واحرقت جميعها . وقد كان في هذه الكتب صور للشياطين ، وفيها من الوان السحر ما يعزى الى منيثو المصري (Manetho) ومنها ما يعزى الى ازدرشت^(٣) . وقد دل التحقيق على ان الاستاذ القانوني ليونيتس كان يشترك في هذه الاعمال السحرية المحرمة . وقد شكّل المطران بالتعاون مع المجلس البلدي لجنة تحقيق . فاتهمت اللجنة هذا الاستاذ وغيره من الاساتذة بانهم كانوا يشتركون في رسم الزيجات لمعرفة الغيب والحظ من مراقبة النجوم . وهذا من شأنه تشجيع عبادة الاصنام . وقد هرب كثير من الناس خوفاً من العقاب . واما الذين صمدوا في المدينة فانهم حاولوا اثارة الشغب بين

Zacharias, pp. 55-7.

— ١

Zacharias, p. 58.

— ٢

Zacharias, pp. 58-62 .

— ٣

الناس، ولكن السلطات هددتهم بأنها سوف تسلم جموع الفلاحين في الضواحي^(١). ولم تقف قضية السحر وما اثارته من شجون في المدينة عند هذا الحد. فان جماعة من السحرة المشعوذين جاؤوا المدينة وأكثدوا لبعضهم بانا في المدينة كنوزاً خبأها داريوس الفارسي، وان امر الكشف عنها ميسور. وقد تعاون معهم طالب من آسية الصغرى، واقنعوا كاهنين بان يشتركا معهم في عمليات التنقيب في مقبرة الكنيسة. وكسان لا بد من حرق البخور في المباخر لاحضار الارواح، وكان لا بد من بعض الآنية الفضية الثمينة التي تستعمل في الكنائس. فاخرجها لهم الكاهنان، وفي اثناء هذه العملية حدثت هزة ارضية خفيفة فذعرت الجماعة وهرب المشعوذون بالادوات الفضية الثمينة. اما الكاهنان فقد اوقفا وعوقبا، وكان عقاب احدهما الحجر عليه في دير من الاديرة^(٢).

وقد اصبحت مدينة بيروت بهزات ارضية قبل هذه الحادثة وبعدها. فقد حدثت هزة سنة ٣٤٩ تهدم بسببها بعض اجزاء المدينة. ولكن لم تكن من العنف بحيث انها اثرت على مجرى التدريس في المعهد. وقد شعر الناس بهزات اخرى عام ٤٩٤ و ٥٠٢ تسبب عنهما بعض الاضرار، وانما حل من جرائمهما خراب في صيدا وصور. ولكن بين ٥٥١ و ٥٥٥ وقعت سلسلة من الزلازل العنيفة التي خربت المدن اللبنانية الساحلية تخريباً يكاد يكون كاملاً ولا سيما مدينة بيروت. وقد طغت موجة عارمة من البحر اثر احد الزلازل (٥٥١) سببت خسارة في الاواح والممتلكات اكثر مما سببه الزلزال ذاته. فقد قيل ان البحر ارتد الى الورااء مسافة تقرب من ميل واحد، ثم انه عاد بشكل موجة عالية غمرت المدينة كلها فاغرقت البنايات وهدمتها، وغرقت المراكب او تحطمت على الشواطىء وغمرت الاشجار. ونرجح ان بنايات المعهد تهدمت في هذا الزلزال. وقد عثر مؤخراً في الحفريات التي اجريت في قلب المدينة على كثير من الاعمدة الرومانية التي نصبت كآثار قديمة قبالة المتحف الوطني. ويرجح ان هذه الاعمدة من بنايات معهد الحقوق. وقد ذكر ان ما يقرب من ٣٠ الف نسمة من سكان بيروت لاقوا حتفهم في هذا الزلزال. وقد هرب الباقون يأساً وخوفاً تاركين المدينة قفراً. اما

Zacharias, pp. 66 - 8.

Zacharias, pp. 70 - 3.

الذين نجوا من الموت من اسانذة وتجار فانهم ارتحلوا الى صيدا . وهناك كان اسانذة القانون يعطون دروسا وقتية في انتظار اعادة بناء المدينة ومعهد القانون . وفي اثناء اعادة بناء بيروت ، الذي كان يجري ببطء ، وقع حريق هائل التهم اكثر البنايات الجديدة . فكانت هذه النازلة الضربة القاصمة التي قضت على المدينة وعلى معيها . وقد رثاها محام اغريقي من آسية الصغرى معاصر للحوادث بقوله : « بيروت ، اجمل المدن ، الدرة في تاج فينيقية ، فقدت لألها ورونقها . بناياتها التي تعد آيات في فن العمارة تداعت وسقطت ولم يبق فيها جدار واقفا . لم يثبت منها سوى الاساسات » . وقد كان لهذه الفاجعة صدى تردد في جميع انحاء الامبراطورية . وقد رثاها ايضا شاعر اغريقي^(١) معاصر من اسبانية بشعر تخيل فيه موقع المدينة ذاته بتفجع : « هانذا ، المدينة الناعسة ، كومة من خرائب ، ابنائي اموات . يا للحظ العاثر المشؤوم . الالهة النار احرقني بعد ان هزت الالهة الزلزال اركاني . يا لتعاسي ، بعد ان كنت مجسم الجمال اصبحت رماداً . هل نبكون علي ايها العابرون الماشون فوق اطلالي ، هل تسكبون علي دموع حزن ، هل تأسون لمجد بيروت ، بيروت التي لا وجود لها ، ايها الملاح لا تمل بشراعك نحو شاطئي ، لا تنزل شراع مركبك ، فان المرفأ الامين اصبحت ارضاً يابسة قفراء . اصبحت لحدا موحشا . ملّ عني ، سر الى المواني الفرحة التي لا تعرف البكاء ، الى موانئها سر على صوت قرع المجذاف ، هكذا شاء الاله بوسيدون ، اله البحر والزلال ، وهكذا شاءت الالهة السمحاء . وداعاً يا ملاّحي البحار . وداعاً ايها القوافل الآتية من وراء الجبال » .

وكان آخر زلزال حل ببيروت زلزال السادس عشر من شهر آذار سنة ١٩٥٦ . وقد نجت منه بيروت باعجوبة ولكنه احدث اضراراً جسيمة في قرى الجبال المجاورة جنوبها وشرقها .

Barbucallus in *Anthologia Graeca Palatina*, Bk. IX, secs. — ١

425 - 7; cf Porter, pp. 45 - 6.

القِسْمُ الرَّابِعُ
العَصْرُ الْعَشِيرِي

الفصل السابع عشر

في ظل الاسلام

ما ان مر بعض الزمن على الحوادث المؤلمة التي سببتها الزلازل التي اصابته بين عام ٥٥١ - ٥٥٥ الشاطيء اللبناني حتى اهتز العالم لحوادث اخرى عظيمة مثيرة حصلت في شبه الجزيرة العربية . ففي عام ٥٧٠ ولد في مكة طفل سمته امه محمداً . اما قبيلته ، قريش ، فقد اطلقت عليه الاسم الامين لما كان عليه من الامانة . واما القرآن الكريم فيشير الى اسمه مرة (٦١ : ٦) باسم احمد وفي اماكن اخرى (٣ : ١٣٨ ، ٣٣ : ٤٠ ، ٤٨ : ٢٩ ، ٤٧ : ٢) يشير اليه باسم محمد . هذا النبي العربي غير مجرى التاريخ في الشرق الادنى وكاد ان يغيره في العالم اجمع .

في مدى حياة ، ومدى حياة الانسان قصيرة ، استطاع النبي العربي (توفي ٦٣٢ ميلادية) ان يدعو امة ليس لها من مقومات الحياة المادية ما يبشر بمستقبل عظيم ، امة لم تكن يوماً امة موحدة ، امة كانت تعيش في بقعة من الارض لم تكن في نظر العالم سوى اسم جغرافي ، نقول ، في مدى حياة قصيرة استطاع النبي العربي ان يؤسس ديناً حل محل المسيحية واليهودية في المناطق الشاسعة المجاورة للجزيرة العربية ، ديناً يعتنقه في يومنا هذا قرابة ٤٥٠ مليون نسمة ، اي حوالي ثمن سكان العالم . والى جانب تأسيسه ديناً فانه انشأ امبراطورية قيّض لها في زمن قصير ان تضم اليها اجمل مناطق العالم المتمدن آنذاك . ولو ان امراً جرى في مستهل القرن السابع ميلادي ان يتنبأ ان جيوشاً لم يعلم بها من قبل احد ، ولم يشعر بقوتها من قبل احد ، ستخرج من الجزيرة العربية - التي لم تكن مركزاً من مراكز الحضارة والعمران - لتتحدى القوتين العالميتين ، فارس وبيزنطية ، فتقوض اركان الاولى وتسلخ عن الثانية اغنى مقاطعاتها ، نقول ، لو ان امراً تنبأ ان شيئاً من هذا سيحدث لانهم بالغفلة والخبال . ولكن هذا ما وقع فعلاً . فان الجزيرة العربية ، الجافة القاحلة ، تغيرت ، وكأنّ تغيرها كان بفعل عصا

سحرية ، الى منبت ابطسال وعظاء لم يعرف العالم لهم مثيلاً لا في نوعهم ولا في عدّهم . وكل ذلك تم بقيادة النبي .

قام النبي بحملة عسكرية خارج الجزيرة العربية مرة واحدة ، وكانت على مستوى بسيط ، نغني غزوة مؤتة . وهي بلدة صغيرة تقع شرقي الطرف الجنوبي من البحر الميت . وقد كان على رأس الجيش المؤلف من ٣٠٠٠ مقاتل ابنه بالتبني : زيد بن حارثة . ولكن زيدا استشهد في المعركة ، وما تبقى من الجيش عاد ادراجه الى المدينة بقيادة قرشي كان قد اعتنق الاسلام قبل الغزوة بقليل : خالد بن الوليد الذي اصبح يلقب فيما بعد بسيف الله . لم يكن لهذه الغزوة اي وقع يذكر على البلدان المتحضرة المجاورة للجزيرة العربية بل كانت في نظرهم واحدة من تلك الغزوات العديدة التي كانوا قد الفوها من سكان الجزيرة . فقد كان البدو من اقدم ازمئة التاريخ يغزون الحضرة جيرانهم . لكنها كانت في الواقع الطلقة الاولى في نزاع استمر حتى جثت بيرنطة ، عاصمة المسيحية ، على ركبتها (١٤٥٣) امام بطل آخر من ابطال المسلمين .

وفي السنة التالية قاد النبي حملة على تبوك^(١) في شمال الحجاز حيث اخذها سلباً ، واقام فيها حامية ، وعقد معاهدة صلح مع القبائل اليهودية في الواحة المجاورة لها ، كما عقد معاهدة صلح اخرى مع نصارى ايلة (العقبة) في جنوب فلسطين . وحسب نصوص هاتين المعاهدتين اعطى النبي النصارى واليهود عهداً بحفظ حياتهم والبقاء على ممتلكاتهم والحرية في ممارسة دينهم على ان يدفعوا الجزية كل سنة . وقد اصبحت بنود هذه المعاهدة سابقة كان لها ابعاد الاثر في فتوحات التالية . فان القواد العرب عند فتحهم بلدان جديدة وضمتها الى ديار المسلمين كانوا يتبعون سنة النبي في معاملتهم للنصارى واليهود .

وفي عام ٦٣٣ ميلادية ، اي بعد وفاة النبي بسنة واحدة ، اُتِمَّت جميع الاستعدادات لغزوة البلدان المجاورة على مستوى عسكري كبير . ذلك ان حروب الردة - وقد كانت حروباً تهدف الى ضم القبائل العربية الوثنية تحت لواء الاسلام اكثر مما

١ - السلاوي ، فتوح البلدان ، طبعة دي غويه (ليدن ١٨٦٦) ص . ٥٩ . وراجع ايضاً :

Hitti , *History of the Arabs*, pp, 119, 147 .

Hitti, *The Origins of the Islamic State* (New York, 1916), p. 92 .



كانت حروباً لرد المسلمين الذين رجعوا عن اسلامهم - كانت قد انتهت . وكانت القبائل العربية قد قبلت الاسلام وتوحدت في عهد الخليفة الاول ابي بكر (٦٣٢ - ٦٣٤) . وقد خلقت هذه الحروب المحلية في نفوس المحاربين اندفاعاً وحامساً للفتح والاستيلاء ، لا سيما وان الدين الجديد يعتبر المسلم أخاً للمسلم فلا يجوز اذن ان يغزو الواحد منهم الآخر - والغزو عادة متأصلة بين القبائل العربية . فلم يبق لديهم الا ان يتجهوا نحو بلدان اخرى . كان الى شمالهم قوتان تصطرعان للسيطرة على غربي آسية . وقد دام الصراع قرناً مما استنزف قوى الدولتين وخلفتهما دولتين منهوكتي القوى ضعيفتين . ففي عام ٦٠٨ هاجم كسرى سورية ، والعام التالي لبنان . اما خليفته فقد هاجم فلسطين وخرب بيت المقدس عام ٦١٥ . وقد جعل الفرس من المنطقة بكاملها - باستثناء المدن الساحلية - ايالة فارسية من ٦١١ - ٦٢٢ . وقد وقعت كذلك آسية الصغرى في قبضتهم حتي مشارف البوسفور . ولكن الروم استعادوا جميع المناطق الرومانية الاسيوية في ست حملات متتالية (٦٢٢ - ٦٢٩) بما في ذلك سورية ولبنان . ولكنهم (الروم) اهملوا امر الحصون المتاخمة للجزيرة العربية وسحبوا بعض حامياتها . وكان اهل البلاد يشكون فداحة الضرائب التي كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية تفرضهما على سكان المنطقة لتابعة حروب لم يكن لهم فيها اية مصلحة . فاستحالت الشكوى الى تمهل وتذمر . اضيف الى عوامل الضعف في هذه المنطقة الانقسام العقائدي بين مختلف الكنائس المسيحية . ففي سورية ومصر كان جل المسيحيين من المونوفيستيين اي القائلين بالطبيعة الواحدة ، وفي العراق وايران كانوا من اتباع نسطور ، وكلاهما على خلاف شديد مع المسيحية الارثوذكسية التي تمثلها بيزنطة . ولا شك في ان السكان الساميين في الهلال الخصيب كانوا يرون في العرب شعباً تربطهم بهم روابط القربى العرقية . فكانوا اقرب اليهم من اسيادهم الغرباء الذين ينتمون الى العرق الهندو - اوروبي . يضاف الى هذا نزول قبائل عربية على اطراف الهلال الخصيب . فقد كان الغساسنة على حدود سورية واللخميون على حدود العراق عاملاً سهلاً مهمة الفاتح . واخيراً تجدر الاشارة الى حقيقة اخرى كانت من العوامل التي يسرب الفتح ، وهي ان اولئك الغزاة من الصحراء كانوا قومياً اشداء ذوي بأس ونخوة ، يدفع بهم العوز الى التغلب والسيطرة . كانوا يهزأون بالموت ، لا بل يعدونه ثواباً . نعم كان نشر الاسلام شعارهم في الحرب ، وكان الاسلام قوة توحد قلوبهم ، ولكن يجب الا

ننسى انهم كانوا ايضاً بشراً يطلبون حياة مادية افضل . وهذا البلاذري افضل واعدل من أرتخ للفتوحات الاسلامية يخبرنا ان ابا بكر عندما دعا اهل الحجاز ونجد واليمن للجهاد كان « يرغبهم فيه (الجهاد) وفي غنائم الروم فسارع اليه الناس من بين محتسب وطامع »^(١).

الحملات العسكرية

ما ان مضى على وفاة النبي عام حتى كان هنالك ثلاث سرايا تتجه شمالاً من المدينة ، على رأس واحدة منها عمرو بن العاص ، وعلى رأس الثانية يزيد ابن ابي سفيان^(٢) وكان هذان القائدان قرشيين . وكان حامل راية يزيد اخاه معاوية مؤسس الدولة الاموية في دمشق . وقد سار عمرو على محاذاة الساحل الى ايلة (العقبة) ، وسار القائدان الآخران في طريق تبوك معان^(٣) . وكان عمرو ، فاتح مصر ، القائد الاعلى اذا اقتضت الحال توحيد الجيوش . ثم بعد ذلك التحق بهم ابو عبيدة ابن الجراح ، وهو صحابي مدني ، وقد اصبح فيما بعد القائد العام في سورية . وكان عدد هذه الجيوش مجتمعة حوالي ٢٣ الف رجل^(٤) .

لم يلق هذا الجيش مقاومة حتى اتى وادي العربة جنوبي البحر الميت حيث هزم يزيد جيش سرجيوس (Sergius) قائد جيش الروم الذي انكفأ بما تبقى من جيشه غرباً ، فادركته الجيوش العربية في دائن قرب غزة واجهزت عليه اجهازاً تاماً (في ٤ شباط عام ٦٣٤) . واذ لم تعد تلقى مقاومة اخذت تشن الغزوات في جنوب فلسطين . كان الامبراطور هرقل آنذاك في مدينة حمص . ويذكر القاريء ان هذا الامبراطور كان قد اعاد وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فصار الناس ينظرون اليه انه حامي المسيحية . فلما بلغه خبر الجيوش العربية ارسل نجدة

١ — البلاذري ، ص ١٠٧ .

٢ — M. J. de Goeje, *Mémoire sur la conquête de la Syrie* — ٢ (Leyden, 1900), pp 21-4.

٣ — وموقعها جنوبي شرقي البطراء في بلاد أدوم القديمة .

٤ — ينبغي لنا ان نذكر ان الارقام في التاريخ العربي ارقام تقريبية وليست ارقاماً تقوم على الاحصاء الدقيق . هذه الارقام تمثل حدس المؤرخين او ظنهم . وقد دونوا الوقائع والحوادث بعد ان كان قد مر عليها زمن طويل .

بقيادة اخيه ثيودورس ، فتغيرت الحال قليلا غير ان الخليفة في المدينة ارسل الى خالد بن الوليد الذي كان على رأس جيش زاحف من الجزيرة نحو العراق ان يسرع الى نجدة اخوانه على الحدود السورية فعب الصحرَاء السورية على رأس جيش قوامه حوالي ٨ مئة فارس في خلال ١٨ يوماً ، وهو عمل يعد بحق من اعمال البطولة الخالدة التي سجلها الانسان في قهره الصحرَاء . فانهم كانوا احياناً يتخللون عن ماء الشرب لاسقاء ابلهم وعند الحاجة القصوى كانوا يشربونها من اجربة الجمال^(١) . وعندما تم الاتصال بين خالد وبين الجيش العربي في سورية اصبح الجيش العربي قويا فضمن لنفسه الظفر . اما دمشق ، عاصمة سورية ، فانها سقطت في ايدي العرب بعد حصار دام ستة اشهر بسبب خيانة بعض الموظفين النصاري . وكان تسليمها في شهر ايلول عام ٦٣٥ . وقبل ان ينصرم العام كان ابو عبيدة قد فتح حمص ، وهي واحدة من المدن الرئيسية في سورية . وبينما كان ابو عبيدة في طريقه من دمشق الى حمص فتح اول مدينة لبنانية رئيسية ، بعلبك . وقد كتب الى اهلها عهداً نثبته كمشال على الطريقة التي بها افتتح العرب سائر المدن :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم . وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة ، فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاؤا ومن اسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من اقام منهم الحزية والخراج . وشهد الله وكفى بالله شهيداً^(٢)»

اما فتح حلب (٦٣٧) وانطاكية (٦٣٨) — بمساعدة اعوان من النصاري واليهود — وحماة وسائر المدن في شمالي سورية واواسطها فقد تم بسهولة . لا بل ان بعضها رحب بالفاتحين ترحيبهم بمخلص ومنقذ . وكانت معركة اليرموك — وهو رافد من روافد نهر الأردن — التي وقعت في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ — حاسمة . ذلك

Hitti, *History of Syria*, pp. 413 - 14 .

١ — راجع

٢ — البلاذري ص ١٣٠

انها فتحت البلاد بكاملها امام العرب . في هذه المعركة قضى خالد على جيش الروم قضاء مبرماً . فقد ابدى من الدهاء الحربي والشجاعة ما كفل لجيشه الصغير ان ينتصر على جيش كبير جله من المرتزقة . وفي سنة ٦٣٨ سقطت مدينة القدس وذلك بخيانة بعض اليهود . ولكن العرب لم يتعرضوا المدن الساحل لا في فلسطين ولا في لبنان ، لان هذه المدن كانت تلقى المدد من الروم بحراً . فان السيادة البحرية آنذاك كانت في يدهم . لذلك ظلت هذه المدن بعض الوقت خارج منطقة الفتوحات العربية . ولكن لم يمض زمن طويل حتى سقطت جميعها الواحدة تلو الاخرى ، وبدون اية مقاومة ، في يد معاوية ويزيد . فان بيروت سقطت عام ٦٣٥ ، وصور وصيدا عام ٦٣٦ ، وكذلك جبيل وعرة^(١) .

اما طرابلس التي كان يحيط بها سور حصين عال فقد حاصرها العرب سنة ٦٣٥ وفي سنة ٦٤٠ حاصروا جزيرة ارواد . وقد استردت اساطيل الروم بعض هذه المدن الساحلية ولكن معاوية عاد فاستردها . وهكذا خلال سبع سنوات وقعت المنطقة بكاملها من جبال طورس الى صحراء سيناء في ايدي المسلمين . ولكنه كان فتحاً يسيراً اذ لا نعرف مدينة واحدة افتتحها العرب بقوة السيف .

ان فتح سورية يتعدى المنافع المحلية والزمنية التي احرزها العرب . فقد كانت سورية قاعدة لاعداء حربية ضد جيرانها الى الشمال الشرقي مثل بلاد ما بين النهرين وفارس وما يليها ، وإلى الجنوب الغربي الى مصر وشمال افريقية . وفضلاً عن القيمة الحربية ، فان فتح سورية رفع من مقام الاسلام وجعل المسلمين اكثر ثقة واثمناً بمقدرتهم .

مؤتمر الجابية

قبل ان تستسلم مدينة القدس بفترة قصيرة (٦٣٨) قام عمر بن الخطاب خليفة ابي بكر ، بسفرة الى البلدان المفتوحة . وعقد مؤتمراً مع قواده في مكان يعرف بالجابية على مسيرة يوم جنوبي دمشق دام ٣ اسابيع^(٢) . كانت دمشق آنذاك

١ — البلاذري ص ١٢٦ .

٢ — البلاذري ص ١٢٩ ، ١٥١ .

لا تزال عاصمة الغساسنة . ولا نعرف على وجه التحقيق ما جرى في هذا المؤتمر الذي يعرف « بيوم الجابية » ؛ انما نعرف ان ابا عبيدة صديق الخليفة الحميم ثبت في مركز القيادة العليا عوضا عن خالد بن الوليد ، وعيّن كذلك عاملا على جميع هذه المناطق^(١) . ولا شك في أن المؤتمرين تدارسوا ايضاً مخططاً عاما للسياسة التي يجب اتخاذها نحو هذه البلدان المفتوحة . غير ان التفاصيل كما حدثنا عنها الرواة المؤرخون هي من صنع الاجيال التالية . وذلك لسبب بسيط ، وهو انه لا يمكن سن قوانين وشرائع لاحوال وظروف لم تكن بعد قد نشأت . ولكننا نرجح ان المؤتمرين اتفقوا في هذا المؤتمر على ان يكون المسلمون العرب في البلدان المفتوحة طبقة دينية عسكرية ارستقراطية تظل بمعزل عن اقتناء الارض وتعاطي اعمال التجارة والفلاحة ، وعلى ان تكون الشعوب المغلوبة لا سيما « اهل الكتاب » (وهم اليهود والنصارى والصابئة) من اهل الذمة . وكان على الذميين ان يدفعوا ضريبة على الاملاك ، وتعرف بالخراج ، وضريبة على الرؤوس تعرف بالجزية . ومقابل هذا فانهم يتمتعون بحماية المسلمين لهم ، وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية . ومن هنا كان مبدأ عدم التساوي بين الغالب والمغلوب — هذا اذا ظل المغلوب على دينه ، اي اذا لم يكن قد اعتنق الاسلام ، فانه اذا دخل في الاسلام ينتفي عنه الخراج والجزية — الذي اصبحت سنة للاجيال التالية .

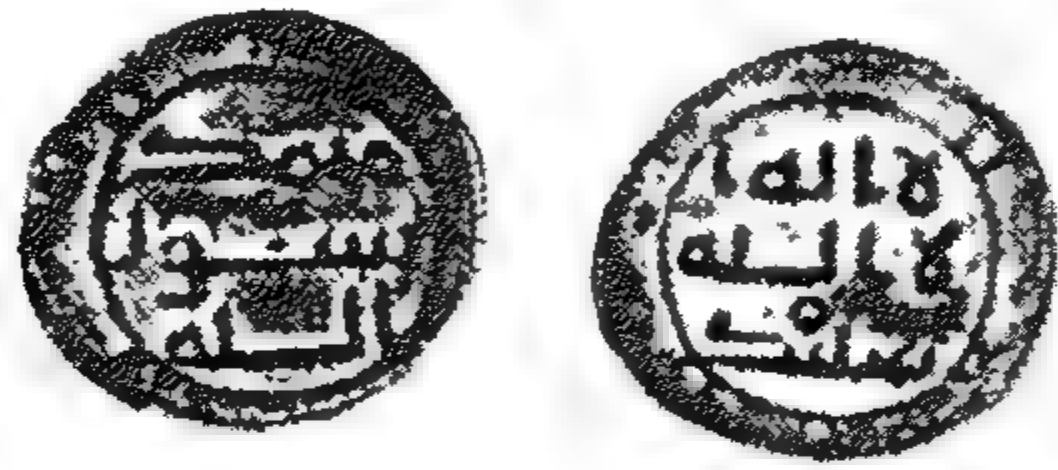
مراكز الاجناد والتقسيم العسكري

وفي مؤتمر الجابية قسمت سورية لاسباب ادارية الى اربع مناطق عسكرية (جند) وكان التقسيم استمراراً لتقسيم الروم للبلاد . اما هذه الاجناد الاربعة فقد كانت دمشق وحمص والاردن وفلسطين . وقد اضيف اليها زمن يزيد بن معاوية (٦٨٠ — ٦٨٣) قسم خامس : جند قنسرين الذي اقتطع من جند حمص ، وكان يشمل بلاد ما بين النهرين^(٢) . اما لبنان فقد اضيف الى جند الشام . اما دمشق فقد اصبحت بعد مؤتمر الجابية عاصمة سورية كلها ثم فيما بعد مقر الخلافة الاموية (٦٦١ — ٧٥٠) التي اسسها معاوية (٦٦١ — ٦٨٠) . وعندما كان معاوية

١ — ابو يوسف : كتاب الخراج (القاهرة ١٣٤٦) ص ١٧٦ — ١٧٧ .

٢ — راجع ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٤٧ .

عاملاً على سورية كان يصرف الامور تصرفاً مستقلاً عن مداخلات الحكومة المركزية في المدينة . وهذا يصدق بصورة خاصة على عهد خلافة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦) احد انساب معاوية^(١) . وكان عثمان ومعاوية ينتسبان الى بني امية ، وهي اسرة عربية ارستقراطية وفرع من قريش . وقد حارب بنو امية النبي في بادىء الامر وناووه العدا . ولكنهم عادوا ودخلوا في الاسلام قبيل وفاته . وقبل ان يصبح معاوية خليفة أدرك انه ينبغي له ان ينشئ اسطولا لحماية



قطعة نقود اموية من بعلبك ، ويعود تاريخها الى القرن الاول الهجري ، ويظهر على وجه منها « لا اله الا الله » وتحتها اسم بعلبك . وعلى الوجه الآخر « محمد رسول الله » .

الشواطىء من غزوات الروم المتكررة . وقد وجد في عكا احواضاً بيزنطية^(٣) لبناء السفن فرممتها . وكانت غابات لبنان ، كما كانت في الاجيال الغابرة ، مصدراً غنياً للاخشاب . وقد جهز معاوية مراكبه بالملاحين اللبنانيين الذين كانوا يتمتعون بشهرة بعيدة في ركوب البحر . ومن غابات لبنان اقتطعوا الاخشاب التي كانوا بحاجة اليها لبناء الاسطول العربي المصري . وهكذا تم بناء اول اسطول عربي . وكان باكورة عمله القيام بحملة ضد قبرص عام ٦٤٩ . وكانت نتائجها مرضية ومشجعة . وقد هاجم هذا الاسطول جزيرة رودس واقريطش (كريت) وعاد منها بالغنائم . وفي الوقت ذاته كان معاوية يجلي بعض الروم والموالين لهم عن السواحل ويسكن محلهم اقواماً من اهل بعلبك وحمص وانطاكية . واقام حاميات في نقاط

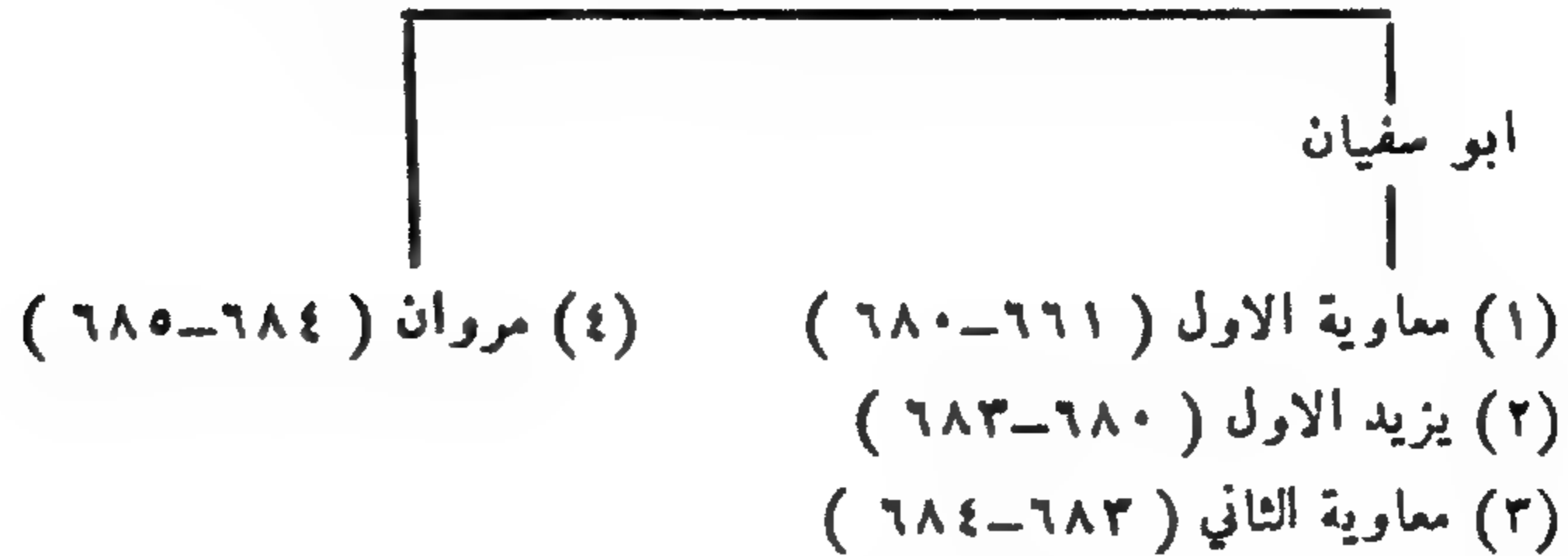
١ - وهو احد الخلفاء الراشدين : وهم ابو بكر (٦٣٢-٦٣٤) وعمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) وعثمان (٦٤٤-٦٥٦) وعلي ابن ابي طالب (٦٥٦-٦٦١) . وقد سمو بالخلفاء الراشدين لانهم كانوا « يتبعون الصراط المستقيم » وكانت عاصمة الخلفاء في هذه الفترة المدينة .

٢ - اطلقوا عليها « دار الصناعة » وقد دخلت هذه اللفظة العربية بعض اللغات الاوروبية وصارت arsenal . راجع البلاذري ص ١١٧ .

ستراتيجية . وجعل احد خلفائه ، هشام (٧٢٠ - ٧٢٤)^(١) ، مدينة صور قاعدة بحرية^(٢) . والواقع انه كان لصور ولعكا من الشأن في اوائل العهد العربي ما لم يكن لبيروت مثله . وقد اشار الى ذلك احد خلفاء بني امية الوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤) في بيت من الشعر^(٣) . وفي عام ٦٥٥ التقى الاسطول العربي باسطول الروم عند الشاطئ الجنوبي لآسية الصغرى قبالة فينكس (واسمها الحالي فينيك) وكاد ان يقضي عليه قضاء تاما . وهكذا انتقلت السيادة البحرية في شرقي المتوسط من ايدي الروم الى ايدي العرب ، واصبحت الشواطئ اللبنانية ، الى زمن ، في مأمن من الغزوات البحرية .

١ - الخلفاء من بني سفيان ، وهم فرع من بني امية :

امية (وهو ابن عم جد النبي)



٢ - اليعقوبي : كتاب البلدان ، طبعة De Goeje (ليدن ١٨٩٢) ص ٣٢٧ .

٣ - صالح بن يحيى ص ١٦ . ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الاول ص ٧٨٥ .

الفصل الثامن عشر

الموارد والدروز وطوائف اخرى

يحيط بتاريخ لبنان في القرون الاربعة والنصف الاولى التي تلت الفتح العربي حجب كثيفة . فاننا نجهل تاريخ الحقبة التي تقع بين الفتح العربي ومقدم الصليبيين جهلاً يكاد يكون تاماً لولا بعض احداث بارزة وخطوط عريضة نتلمسها بشيء من الجهد . فلا المصادر البيزنطية تقول شيئاً ، ولا المصادر العربية تُغني طالباً . غير اننا نقدر ان جزءاً يسيراً من الجموع العربية المتدفقة الى الهلال الخصيب اثر الفتوحات تابع تقدمه الى سواحل لبنان ، لا الى جباله ، واحتلوا المساكن المهجورة التي كان يقطنها البيزنطيون واعوانهم ، او مساكن الذين ارغموا على الفرار اثناء الفتح . وحوالي ٦٦٣ جاء معاوية بجاليات من الفرس لسكنها صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرة وذلك بغية رد الغزوات التي قد تقوم بها اساطيل الروم^(١) . غير ان لبنان الجبل لم يكن ليستهوي فرسان الحرب وموظفي الدولة والبدو الرحل او نصف الرحل القادمين من الجزيرة العربية . فانهم ارفع قدراً من ان يتعاطوا اعمال الزراعة والفلاحة . ولم يكن ثلج لبنان بالشيء المستحب لديهم . ناهيك عن ان الحرب في مسالك الجبل ووعره ليس بالامر الذي يميل اليه المحارب العربي الذي كان يألف السهل .

بقايا آرامية

ان عدداً كبيراً من اسماء النبات البري والجوي في هذه المنطقة التي افتتحها العرب يُرد الى اصل آرامي . وكذلك المصطلحات والمفردات التي لها علاقة بالفلاحة والزراعة فانها في جلّها كلمات سريانية وآرامية . وقل مثل هذا في المصطلحات والمفردات الدينية او التي لها علاقة بالفروض الكنسية (مثل العباد

والكرازة والقسيس والمزمور^(١). واكثر اسماء المدن والقرى آرامي او فينيقي الاصل. فانك تجد في المشرق^(٢) ثبناً بخمس مئة وثلاثين اسماً كلها اسماء سريانية من اصل ١٥٠٠ اسم قرية ومدينة في لبنان. فان الاسماء المركبة من «بيت» او جزء منها «ب» او «بت» تعني الدار او الهيكل او المقام كما في بتدين اي محل القضاء، وبصاليم ومعناها بيت الصنم او هيكل الصنم. وهنالك اسماء مركبة من «عين» واسم آخر، او من ماء «مي» واسم آخر، مثل عينطورا ومعناه عين او نبع الجبل، ورشما ومعناه راس النبع. وهنالك اسماء تعني قلعة او برج مراقبة. والقلعة او برج المراقبة في السريانية والآرامية «مجدل» كما في مجدل وعوش ومجدليا ومجدلون، وهذا الاسم الاخير تصغير ومعناه البرج الصغير. وهنالك اسماء عديدة تبدأ بلفظ «كفر» مثل كفر فاقد ومعناه قرية الأمر والحاكم وكفرشما قرية الفضة. حتى ان اسماء المدن والقرى الساحلية حيث نزل العرب، كما اسلفنا، لا يظهر فيها الاثر العربي بل انها اسماء فينيقية آرامية.

لم يكن خلفاء الرسول في المدينة يدركوا عن بعد اهمية الجبل الاستراتيجية فتركوه لشأنه. ولكن معاوية القريب من الجبل ادرك هذا، فكان اول خليفة حاول ان يخضع سكان الجبل النصاري. ولكنه لم يفلح واعاد الكرة ولم يفلح ايضاً. كما ان الخلفاء الذين اتوا بعده لم يوفقوا لاختضاع الجبل، ذلك لانه في هذه الاثناء قدم الجراجمة اليه من منطقة جبال طورس فكانوا عوناً ونجدة لاهل الجبل. وقد كان الجراجمة قوماً اشداء في الحرب.

المردة

كان الجراجمة من الجنود المرتزة عند الروم، فكانوا يشنون الغزوات على سورية، واصبحوا شوكة في خاصرة العرب الفاتحين. والتاريخ لا يعرف عن اصلهم

١ - راجع: Michel T. Feghali, *Étude sur les emprunts syriaques dans les parlers arabes du Liban*, (Paris, (1918), pp. 87-95.

٢ - المشرق: المجلد ٣٧ (١٩٣٩) ص ٣٨٧-٤١٢. والمجلد ٩ (١٩٠٦) ص ٧-١٥، ٨٧-٨١، ١٥٢-١٥٧. راجع ايضاً: انيس فريجة: اسماء المدن والقرى اللبنانية جونية، ١٩٥٦.

شيئاً ، انما نعلم انهم سموا جراجمة نسبة الى مدينة الجرجمة في جبل اللكام . وكانوا على شيء من الاستقلال الداخلي . ونعلم ايضاً ان العرب لما فتحوا انطاكية (٦٣٨) استخدموا بعض الجراجمة كأدلاء في معاير الجبال التي كانت تفصل الروم عن الحدود العربية^(١) . وبوصفهم من محترفي الحرب والغزو فقد كانوا دوماً على استعداد ان يكونوا في خدمة من يدفع لهم اكبر اجر . واما انهم كانوا نصارى فأمر محقق ، الا اننا لا نعلم علم اليقين اذا كانوا من القائلين بالمشيئة الواحدة (Monothelite) او من المونوفيسيت (اي القائلين بالطبيعة الواحدة) .

بدأ هؤلاء الجراجمة الاشداء بالتسلل الى سورية من مناطقهم الوعرة الحصية في جبل اللكام وجبال طورس . هذه الجبال تشكل الحدود الطبيعية بين سورية والاناضول . وقد كانت سفوحها الجنوبية حائزاً تحطمت على صخوره موجات الفتح العربي . وفي عام ٦٦٦ اتخذت الغزوات البسيطة التي كان الجراجمة يشنونها على سورية شبه حرب اجتياح . فقد كان قوادهم من الروم ، وكانت فرق عسكرية من الروم تشد أزهرهم ، كما كانت قطع من الاسطول تساندتهم من البحر . وقد اوصلهم زحفهم الى قلب لبنان فاحتلوا النقاط الاستراتيجية فيه حتى مشارف فلسطين .

وكان العالم الاسلامي يعاني ازمة داخلية خطيرة ، فلم يعبأ لما كان يجري في لبنان . في هذه الفترة كانت الحرب قائمة بين معاوية وعلي ابن ابي طالب حول الخلافة . وقد رأى معاوية انه من الحكمة ان يدفع جزية للروم مقابل ان يمتنع هؤلاء عن مساعدة المردة ، العدو الداخلي الجديد . وقد كان المردة يتلقون من الخليفة جزية ايضاً . وعليه انسحبت جموع الجراجمة من لبنان . ولكن في عام ٦٨٩ اثناء خلافة عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥) عاد الجراجمة فاجتاحوا لبنان ، كما فعلوا اثناء خلافة معاوية ، وتحصنوا في مرتفعاته الشمالية . وقد قبل عبد الملك ان يدفع ضريبة الى الامبراطور يوستنيان الثاني وان يدفع للجراجمة مبلغ الف دينار كل اسبوع . وكأنه في اذعانه هذا ، على حد قول البلاذري ، « اقتسدى في صلحه

بمعاوية^(١) . وقد اندمج الجراجمة بسكان الجبال - ولم يكن الجبل بعد مكتظاً بالسكان - من النصارى الذين كانت لغتهم لهجة آرامية ، واوجدوا بذلك ملجأ يلوذ به الملهوف والمضطهد من سكان سورية ومن سكان الساحل اللبناني . ويلوح لنا ان الجراجمة ، بعد اندماجهم بسكان الجبل الاصلين ، اصبحوا ، في هذه الحقبة ، يعرفون بالمردة^(٢) . ومنذ ذلك الحين اصبح لبنان معقلاً آمناً للاقلييات وللطوائف المذهبية ، ولكل داعية أو خارج كان يحس بان الفشل ينتظره . وقد اسفرت عملية الاندماج هذه بين الجراجمة ونصارى لبنان عن قيام الطائفة المارونية التي لا تزال الطائفة القوية السائدة في شمال لبنان ، والتي تؤلف اكبر وحدة مسيحية موحدة مترابطة . ومنذ هذا الوقت يبدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم .

اما الوليد (٧٠٥-٧١٥) ، بن عبد الملك وخليفته ، فقد عقد النية على ان يتخلص من الخطر الذي كان يهدده من الشمال وذلك بتهديم المتكأ الذي كان يجده الروم في لبنان . فبعث (٧٠٨) اخاه مسلمة - الذي اصبح فيما بعد القائد الذي سيطر حملة كبيرة ضد بزنطة - على رأس سرية للاستيلاء على مقرهم الجرجمة . وقد فر بعضهم الى بلاد الاناضول واذن لبعضهم الآخر في التوطن في سورية ولبنان حيث رخص لهم ايضاً ان يمارسوا طقوس دينهم النصراني دون ان يؤدوا الجزية كما كان يفرض على اهل الذمة^(٣) . وتجدر الاشارة الى ان الخلافة العربية بلغت اوجها في الربعة والمجد

١ - البلاذري ص ١٦٠ ، وكتاب انساب الاشراف ، نشر S. D. F. Goitein الجزء الخامس (القدس ١٩٣٦) ص ٢٩٩-٣٠٠ .

٢ - للاطلاع على مزيد من الجراجمة والمردة راجع :

٢٢-١٤ Lamnens in *Mélanges*, vol. I, pp. 14-22. تسريع الابصار الجزء الثاني ص ٤١-٤٨ .

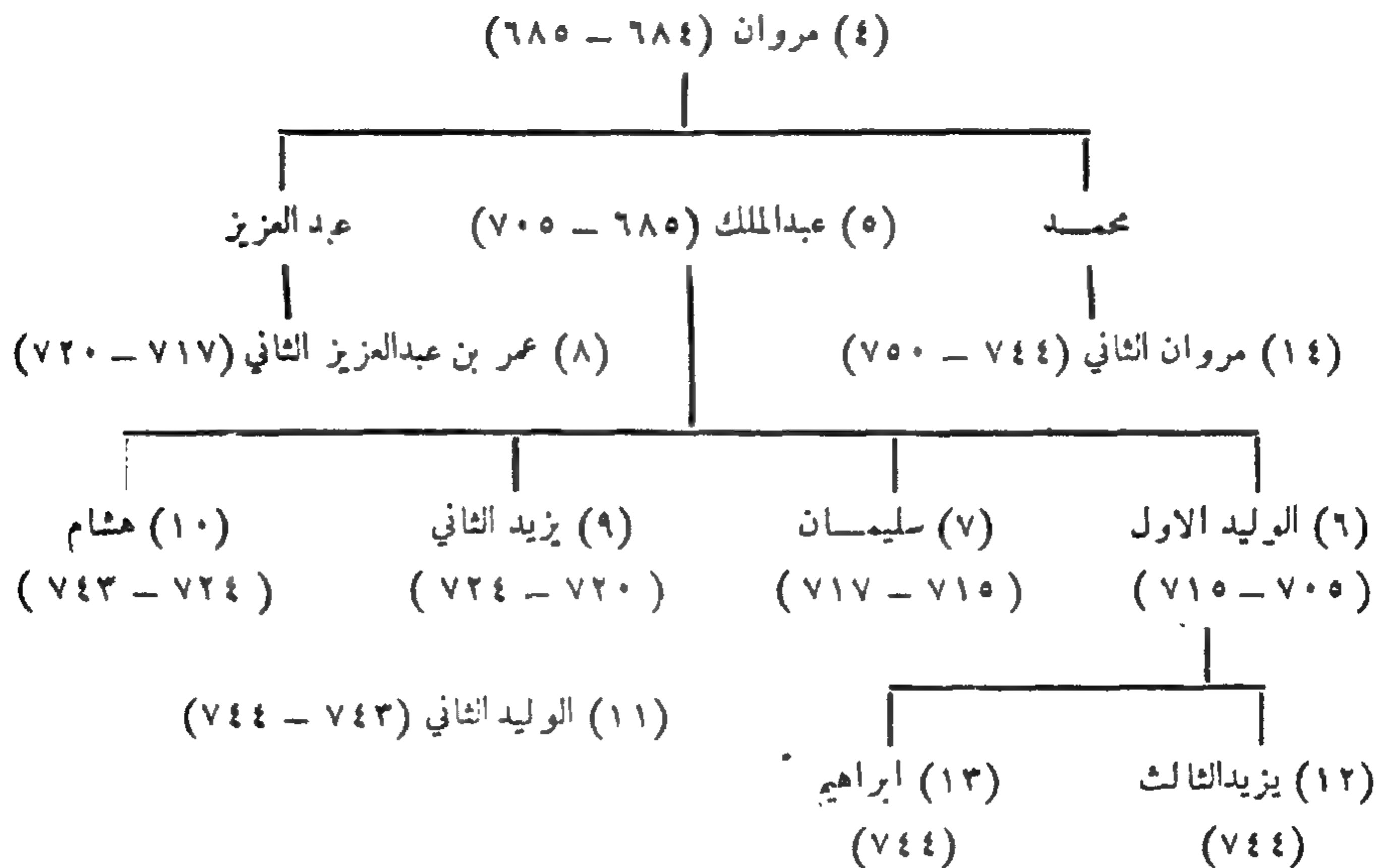
٣ - البلاذري ، ص ١٦١ .

زمن عبد الملك وأولاده^(١). فقد كانت رقعتها الجغرافية تمتد من شواطئ الأطلسي في إسبانية وفرنسة إلى شمال أفريقية فإلى غربي آسية فنهر السند وتخوم الصين، وهي رقعة لم تبلغها الإمبراطورية الرومانية في عهدها الذهبي.

القديس مارون

تنسب الطائفة المارونية التي كانت عند بدئها تتألف من عناصر لبنانية مسيحية مختلفة إلى القديس مارون^(٢) شفيعها. وقد عاش هذا القديس الراهب المتقشف في أواخر القرن الرابع ومات حوالي ٤١٠ في البرية التي تقع بين أنطاكية وقورش أو قورس (Cyrrhus) إلى الشمال. أما الحقائق الثابتة عن حياته فيمكن تلخيصها في عبارات قليلة. إن أقدم المصادر لدينا هي تلك التي خلفها لنا معاصره ثيودورث اسقف قورش الذي يقول عنه أنه هو الذي « غرس حديقة النسك » في المنطقة^(٣).

١ - الخلفاء من آل مروان، وهم فرع من بني أمية :



٢ - مارون لفظ سرياني وهو تصغير « مارو » ومعناه السيد والمولى والتصغير هنا للتحبيب.

٣ - J. P. Migne, *Patrologiae Graecae*, vol. LXXXII (Paris, 1864), pp. 1418-19.

وكذلك نعلم بعض الشيء عن حياة القديس مارون عن طريق معاصر انطاكي آخر ولكنه ابعده شهرة من اسقف قورش نغني يوحنا كريسوصطم . ذلك انه لما كان في طريق منفاه بعث (عام ٤٠٤) برسالة الى صديقه الحميم « مارون الراهب » يطلب فيها اليه ان يصلي لاجله وان يبعث اليه باخباره ^(١) . ولكننا لسنا على يقين ان هذا الراهب المسمى مارون هو مارون شفيح المارونية . وليس هنالك ما يؤكد ان القديس مارون كان يعرف اللغة اليونانية ، او انه درس في انطاكية حيث كان كريسوصطم يعلم . كان مارون عضوا في الكنيسة السورية وكان يستعمل اللغة السريانية في الخدمة الكنسية . ولا نعلم على وجه التدقيق السبب الذي كان من اجله نزع تلامذة مارون ومريدوه بعد موته بقليل الى مكان بالقرب من افاميه (Apamea وتعرف الآن بقلعة المضيق) على نهر العاصي . قد يكون سبب هذه الهجرة الى قلعة المضيق وقوع خلاف عقائدي بين كنيسة الروم الارثوذكسية التي كان مركزها انطاكية وبزنطة وبين القديس مارون . وفي هذا المكان شيد تلامذته واتباعه ديراً على اسم القديس مارون . وتقول الرواية انهم حملوا معهم رفات القديس مارون ، ومن هناك نقلت الى لبنان . وكان انه عندما ازداد عدد اتباع مارون حول منطقة افامية وقع خلاف شديد وعدااء مستحكم بينهم وبين اليعاقبة ^(٢) الذين كانوا ايضا يستعملون اللغة السريانية في الخدمة الكنسية . وفي عام ٤٥٢ وسع الامبراطور مرقيانوس (Marcianus) بناء الدير ^(٣) . وفي عام ٥١٧ قتل اليعاقبة الذين كانوا يتوطنون وادي العاصي حوالي ٣٥٠ راهبا من رهبان الدير . غير ان الامبراطور يوستنيان الكبير (٥٢٧-٥٦٥) اعاد بناءه . ومن بين اباطرة الروم الذين عطفوا على الدير وشمّلوه بالرعاية هرقل الذي زاره عام ٦٢٨ بعد انتصاره على الفرس ^(٤) . وقد كان هرقل المدافع عن اصحاب الطبيعة الواحدة وحامي معتنقيها . وهي عقيدة لم تكن تنظر اليها الكنيسة

١ - اسطفان الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية (بيروت ١٨٩٠) ص ١٩ - ٢٠

٢ - وهم فرع من اصحاب الطبيعة الواحدة .

٣ - ابو الفداء : التواريخ القديمة من المختصر في أخبار البشر ، نشر فليشر (ليبسغ ١٨٣١) ص ١١٢ . لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الثاني ص ٩٠ .

٤ - سعيد ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، نشر شيخو الجزء الثاني (بيروت ١٩٠٩) ص ٥ .

انها عقيدة ارثوذكسية . وفي رواية سريانية نجهل صاحبها ان الموارنة واليعاقبة احتكموا عام ٦٥٩ الى معاوية لفض النزاع العقائدي بينهم^(١). غير ان الخصاص لم يحسم ف وقعت حروب ثأرية بين الموارنة واليعاقبة في النصف الثاني من القرن السابع اسفرت عن هجرة اقوام من الموارنة الى شمال لبنان الذي اصبح فيما بعد موطناً دائماً للمارونية . والهندسة المعمارية البيزنطية التي لا تزال بقاياها بادية في الكنائس وقطع الفسيفساء التي تزين جدران الكنيستين القديمتين في اهدن وفي كفر شلحان^(٢) ، والكتابات الاغريقية ، تدلنا على ان البلاد التي استوطنتها الموارنة كانت بلاداً يقطنها نصارى . والواقع ان اقدم الكنائس في هذه المنطقة تعود الى عهد الامبراطور يوستنيان في اوائل القرن السادس . وفي المتحف البريطاني مخطوط مسيحي مكتوب باللغة السريانية يرجع تاريخه الى عام ٨٢٠ للتاريخ اليوناني (ويقاله ٥٠٩ ميلادي) يذكر لنا قرية في جبل لبنان : حدث الجبة^(٣) . اما الكنيستان في معاد وحدثون ففيهما بقايا من العهد الوثني^(٤) .

يوحنا مارون

اذا كان مارون قديس الطائفة المارونية فان يوحنا مارون (Joannes Maro المتوفى حوالي ٧٠٧ كان بطل القومية المارونية وباني موطنها على جوانب وادي قاديشا وفي ظلال الارز . كان يوحنا مارون اول بطريرك للطائفة . وفي عهده برزت اولي الخصائص القومية التي جعلت من هذا الشعب امة . ولد يوحنا في سروم بالقرب من انطاكية ، ودرس السريانية والاغريقية في انطاكية قبل ان التحق بدير مارون في وادي العاصي . وقد تابع دراسته في القسطنطينية . وسيم اسقفاً (حوالي ٦٧٦) على البترون على الساحل الشمالي من لبنان . وكان مقره اولاً في سمار جبيل ومن هناك انتقل الى كفرحي على مسافة عشرة اميال شرقي البترون . وتقوم اليوم مدرسة

١ - Th. Noldeke, Z. D. M. G. , vol. XXIX (1875), pp. 82-96 .

٢ - لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الاول ص ١٩ . ٨٥ - ٨٦ .

٣ - W. Wright Catalogue of Syriac Manuscripts in The British Museum, pt. ii - London, 1871 , p. 417 .

٤ - لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الاول ص ٨٥ - ٨٦ .

تعرف باسمه على البقعة من الارض التي اختارها لبناء دير ومقبرة له. وقد استطاع بقيادته الحكيمة ان يجعل من الموارنة شعباً ذا سيادة . فقد استطاع بدهائه ان يرد خليفة المسلمين باليد الواحدة وامبراطور الروم بالآخرى . ولما هدمت جيوش الامبراطور يوستنيان الثاني دير مارون في وادي العاصي وتابعت زحفها لمحاربة الموارنة في لبنان تصدى لها البطريك يوحنا بجيش ماروني وهزمه في اميون شر هزيمة^(١) . ومنذ ذلك الحين اخذت تظهر في الطائفة المارونية تلك الخصاص التي جعلت منهم امة جبلية مستقلة منعزلة عن سائر الطوائف التي كانت تقطن هذه المنطقة من الارض . يقول^(٢) (Gibbon) « عمرت هذه الامة الصغيرة المحتشمة اكثر مما عمرت امبراطورية القسطنطينية التي اضطهدتها » . ومنذ القرن الخامس عشر اصبح دير قنوبين الحصين المبني في صخر من صخور وادي قاديشا الوعر مقراً للبطريركية المارونية . غير ان بكركي هي المقر الشتوي في يومنا هذا . ولا يزال سيد بكركي يلقب ببطريك انطاكية وسائر المشرق » .

انتشار المارونية

لقد ظل في وادي العاصي جالية مارونية حتى بعد انتقال مقر البطريركية الى لبنان وكذلك ظلت جالية منهم في جهات قورش . وكان المنجم الاول في قصر الخليفة العباسي المهدي (٧٧٥-٧٨٥) والمترجم الذي نقل الياذة هوميروس الى السريانية رجلاً مارونياً اسمه توفيل (ثيوفيلوس) بن توما من شمال سورية^(٣) . ويذكر المسعودي^(٤) المؤرخ والرحالة العربي البغدادي، والذي كتب تاريخه حوالي ٩٥٠ ، ان معظم اتباع هذه الطائفة يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماه ومعرة النعمان . ويضيف انهم كانوا من اصحاب المشيئة الواحدة . هذه العقيدة

١ — واد اراد انقاريء الاطلاع على حياة هذا البطريك فان عليه مراجعة يوسف سميان السمعاني

Bibliotheca Orientalis, vol. I, (Rome, 1719), pp. 496—520

٢ — Edward Gibbon, *The History of The Decline and Fall of*

the Roman Empire, ed. J. B. Bury, vol. V (London, 1898), pp. 156-7

٣ — ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ، نشر انطون صالحاني (بيروت ١٨٩٠)

ص ٢٢٩—٢٣٠

٤ — لتنبية والاشراف (طبعة دي غوبه ، ليدز ١٨٩٣) ص ١٥٣—١٥٤ .

التي تقول انه كان للمسيح مشيئة واحدة قال بها بطريرك الامبراطور هرقل (٦٣٨) ليوفق بين عقيدة اصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيسيت) الذين كانوا يشكلون الاكثرية من رعاياه النصارى في سورية وبين اصحاب العقيدة الارثوذكسية الرسمية للكنيسة البيزنطية وقد كانت هذه المحاولة الاخيرة التي قام بها الامبراطور لیسد الثغرة التي اوشكت ان تفصل بين الكنيسة السورية والكنيسة البيزنطية . ولكن هذه المحاولة ، شأن كل محاولة للتوفيق ، لم تملح في ارضاء اي من الفريقين . وثمة معاصر للمسعودي هو بطريرك الاسكندرية سعيد بن البطريق (Eutychius يوتيوخوس المتوفى ٩٤٠) الذي يصف الموارنة بانهم من اصحاب المشيئة الواحدة ويجعل الامبراطور هرقل مارونياً^(١) . اما ولیم الصوري^(٢) الذي ارخ للصليبيين فانه يوافق ابن البطريق ، اذ يقول : « ان بدعة مارون واتباعه الآن وفيما مضى من الزمان تقوم على المعتقد القائل بان في سيدنا يسوع المسيح منذ البدء مشيئة واحدة وقوة واحدة » . ويقدر ولیم عددهم باربعين ألفاً ، ويضيف بانهم عام ١١٨٠ تحروا عن هرطقة تمهم هذه وعادوا الى حظيرة الكيسة الكاثوليكية . اما المؤرخون من الموارنة . بدءاً بالدويهي^(٣) (توفي ١٧٠٤) وابن نمرون^(٤) (توفي ١٧١١) . فانهم حاولوا دوماً دحض هذه التهم ، واصروا اصراراً شديداً على ان الموارنة كانوا ابداءً من المستقيمي الرأي^(٥) . وتدعيما لرأيهم يشيرون الى انه عندما عقد المجمع الكاسي الثالث في القسطنطينية عام ٦٨٠ - ٦٨١ وحرّم اصحاب المشيئة الواحدة لم يرد ذكر الموارنة ابداءً . ولعله ثمة بعض الصحة في القول بان ولیم الصوري وغيره من المؤرخين كانوا يخلطون بين موارنة

١ - سعيد بن البطريق ، الجزء الثاني ص ١٢٠ - ٣١

٢ - *A History of Deeds done Beyond the Sea*, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey (New York, 1943), vol. II, p. 459.

٣ - الدويهي ، ص ٢٩٢ وما يليها .

٤ - Fausto (Murhij) Naironi, *Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitarum* (Rome, 1679) .

٥ - ومن المحدثين الذين دافعوا عن عقيدة الموارنة افرام الديراني : المحاماة عن الموارنة وقديسهم (بيروت ١٨٩٩) يوسف الدبس : تاريخ سوريه ، الجزء الخامس (بيروت ١٩٠٠) ص ١٥٦ وما يليها .

Pierre Dib, *L' Église Maronite*, vol. I, (Paris, 1930), pp. 63 - 143.

لبنان وجماعة اخرى من اتباع رجل من الرهبان يدعى هو الآخر مارون (توفي حوالي ٥٨٠) وكان من اصحاب المشيئة الواحدة ، او لعل مثل هذا القول مما يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار^(١) . ويختلف الموارنة عن الطوائف المسيحية الاخرى التي اتحدت مع رومة - هذا اذا كان يحق لنا ان نحشرهم في عداد هذه الطوائف - في انهم يعترفون بسلطة البابا باعتبارهم طائفة وكنيسة تامة ، بينما نجد ان سائر الطوائف التي تعرف بالطوائف المتحدة قامت على دعوة اشخاص او جماعات صغيرة قطعت علاقاتها بكنيستها الاصلية .

يذكر بعض الرحالة انه كان في القرن الثاني والثالث عشر جاليات مارونية في تكريت وفي غيرها من المدن بين دجلة والفرات . وكان في قبرص (في فاماغوستا وضواحيها) جالية مارونية في اوائل القرن الثاني عشر بحيث انها كانت تملك كاتدرائية عام ١١٢٠ . وكان الموارنة منتشرين في قرى عديدة يبلغ عددها حوالي الثلاثين قرية^(٢) . ومن المحتمل ان اولئك الذين هاجروا الى قبرص كانوا لاجئين فروا الى هناك من اضطهاد العباسيين ، ولا سيما في عهد المتوكل^(٣) (٨٤٧-٨٦١) . وفي عهد الصليبيين هاجر عدد من الموارنة الى قبرص . وهذه الجالية المارونية - التي تعد أقدم جالية مارونية في المهجر - يبلغ عددها في عهدنا هذا حوالي اربعة آلاف نسمة ، ولهم كاتدرائية في كورمكيتي ، وقد احتفظوا بلهجة هي مزيج من السريانية والعربية ، على نحو ما كان شائعاً في لبنان في القرن الثاني عشر . ومما لا شك فيه ان الموارنة استرعوا انظار رومة اثناء الحروب الصليبية . فقد كانوا يتطلعون اليها ، بالرغم من ان اتحادهم بالكنيسة الكاثوليكية في رومة لم يتم الا في القرن الثامن عشر . وقد احتفظت الكنيسة المارونية ، التي يمكن اعتبارها الكنيسة اللبنانية الوطنية ، باللغة السريانية في القداس الى يومنا هذا . وخدمة القداس مأخوذة عن تلك التي تعزى الى القديس يعقوب . ورجال الاكليروس الماروني لا يتزوجون . ورئاسة الجمهورية اللبنانية للطائفة المارونية . وبحسب

١ - Bernard G. Al - Ghaziri, *Rome et L' Église Syrienne* -

Maronite (paris, 1906), pp. 31 - 33, 43 - 5, Robert W. Crawford in *Speculum* vol. XXX (1955), pp. 222 - 8٠.

٢ - لامنس : تسريح الابصار ، الجزء الثاني ص ٥٥ - ٥٦ .

٣ - Dib, pp. 175 - 6; Hitti, *History of the Arabs*, p. 353 .

الاحصاء التقديري لعام ١٩٥٢ كان عدد الموارنة ٣٧٧,٥٤٤ من مجموع السكان الذي يبلغ ١,٣٠٣,٩٤ . وقد احتفظت الجاليات المارونية في المهجر بطقوس كنيستها كما هي الحال في ايطالية وفرنسة والاميركتين الشمالية والجنوبية وفي اوسترالية وانحاء اخرى من العالم .

الكنيسة السريانية الشرقية

ان الموارنة فرع من الكنيسة التي كانت لغتها السريانية . اما الفرعان الآخران فهما الكنيسة السريانية الشرقية والكنيسة السريانية الغربية . وخدمة القداس في الكنيسة السريانية اقدم عهداً من خدمة القداس اليونانية او اللاتينية . وهذه الخدمة تعزى الى القديس يعقوب اخي يسوع (او ابن عمه ؟) ورئيس كنيسة القدس . ولا شك في انها اقدم خدمة في الكنيسة المسيحية . فانها في اصولها ترجع الى العشاء الرباني الاخير والى اجتماع الرسل في « العلوية » (اعمال الرسل ١ : ١٣) وقد احتفظت بطابعها السرياني حتى في الكنائس التي تعترف بسلطة البابا .

تأسس الفرع الشرقي للكنيسة السريانية ، او الكنيسة الشرقية كما يدعوها اتباعها تفاخراً ، عند منصرم القرن الثاني ولكنها تدعي انها بتعاليمها وطقوسها وتقاليدها تعود الى عهد اقدم من هذا بكثير ، الى عهد الملك ابجر ملك ايدسا (أو الرها) الذي كان معاصراً للسيد المسيح . تقول الرواية ان هذا الملك ، ابجر الأسود ، بعث برسالة الى السيد المسيح يدعو فيه الى زيارة ايدسا ، ليشفيه من داء النقرس الذي كان مصاباً به . غير ان السيد المسيح وعده بأنه سيرسل له رسولا بعد صعوده الى السماء^(١) . وفي رسالة السيد المسيح له يقول انك ستشفى لانك آمنت بي ولم ترني . وتعرف هذه الكنيسة بالنسبوية نسبة الى نسطور الكيليكى اسقف القسطنطينية من ٤٢٨-٤٣١ . وقد حُرّم نسطور بعد ان حكم عليه في المجمع الكنسي المسكوني الذي عقد في افسس . وذلك بسبب تعاليمه القائلة بأن الأقنوم الالهي (الكلمة) والانساني اتحداً تماماً كاملاً في المسيح ، ولكن لم يكن الاتحاد في طبيعة واحدة ، اي ان في المسيح اقنومين ، أو شخصين .

١ - يحيى ابن سعيد الانطاكي ، في ابن البطريق ، الجزء الثاني ص ٢٦٣-٢٦٤

وهذا يخالف المعتقد الارثوذكسي (المعتقد القديم الذي تقول به الكنيسة) الذي يقول انه بالرغم من ان في المسيح طبيعتين فان هاتين الطبيعتين اتحدتا في شخص واحد . والكنيسة الشرقية تعتبر الاسقف نسطور من آباء الكنيسة اليونانية لا من الآباء السريان . وقد كان لهذا المعتقد ، معتقد نسطور ، اتباع واشياح عديدون في سورية ، ومنها انتشروا شرقاً الى بلاد ما بين النهرين . وهذه التسمية ، الكنيسة النسطورية ، التي اطلقت اولاً على الكنيسة الشرقية لرفضها تحريم نسطور^(١) ولعنه ، اصبحت فيما بعد تسمية غير مستحبة بين اتباع هذه الكنيسة ، لاسيما بعد ان انضم فرع منها ، وهم الكلدانيون^(٢) ، الى الكنيسة الكاثوليكية في رومة واصبحت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تطلق هذا التعبير على انه سمة للهرطقة . وفي الاحصاء التقريبي لسنة ١٩٥٢ نجد ان لبنان فيه ١٣٩٠ نسمة من الكلدانيين . وفي القرن التاسع عشر اطلقت الارشالية الانكليكانية التي كانت تعمل في شمال العراق اسم « الكنيسة الاشورية » على السريان الشرقيين مما زاد في فوضى الاسماء .

وقد انتشرت الكنيسة الشرقية من ايدسا شرقاً الى ايران . وعند ظهور الاسلام كانت الكنيسة الشرقية لا تزال تحتفظ بنشاط وحيوية استطاعت معها ارسال بعثات تبشيرية الى الصين ، وقبل ذلك ارسلت مثل هذه البعثات الى الهند . وكان جل التراجم الذين ترجموا الكتب الفلسفية الرئيسية والكتب الطبية من اليونانية الى العربية عن طريق السريانية من اتباع هذه الكنيسة مثل حنين ابن اسحاق (واسمه اللاتيني Joannitius ٨٠٩ - ٨٧٣) وبذلك يعدون حلقة اتصال بين الفكر الاغريقي والفكر العربي .

الكنيسة السريانية الغربية

كانت العقيدة اللاهوتية التي قال بها الفرع الغربي للكنيسة السريانية هي عقيدة

١ — George P. Badger, *The Nestorians and Their Rituals* (London, 1852), vol. II, pp. 49-51, 128-9 .

٢ — يجب التفريق بين الكلدانيين القدماء الذين نشأوا في جنوبي العراق في التاريخ السابق للتاريخ الميلادي وبين الكنيسة الكلدانية واتباعها ، اذ قد لا يكون هنالك قرابة عرقية بين الاثنين .

اصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيسيت) التي كانت تقول بوحدة طبيعة المسيح والتقليل من اهمية الطبيعة البشرية . والحقيقة ان اصحاب الطبيعة الواحدة هم الذين رفضوا الاخذ بالرأي القائل ان في المسيح طبيعتين (لاهوتية وناسوتية) ، ذلك الرأي الذي اقره المجمع الكنسي الخلقدونى الذي عقد سنة ٤٥١ . وعند مستهل القرن السادس ازداد اتباع اصحاب الطبيعة الواحدة ازدياداً كبيراً في شمال سورية وذلك بفضل شخصية ونشاط سفيروس اسقف انطاكية (٥١٢ - ٥١٨) واحد خريجي اكاديمية بيروت . اما الفضل في حركة التنظيم في سورية فيعود الى يعقوب البردعي (او البردعاني) اسقف ايدسا (الرها ، حوالي ٥٤٣ - ٥٧٨) . وقد اصبحت الكنيسة السريانية المونوفيسيتية تسمى باسمه فيما بعد ، اي الكنيسة اليعقوبية ، واتباعها يسمون اليعاقبة . اما يعاقبة اليوم فانهم يؤثرون ان يسموا بالسريان الارثوذكس ، او السريان القدماء . وقد انتشرت المونوفيسيتية من سورية الى ارمينية حيث اخذت بها الكنيسة الغريغورية والى مصر حيث اخذت بها الكنيسة القبطية . ويبلغ عدد السريان الغربيون (او السريان الارثوذكس) في لبنان حوالي ٥٠٠٠ ، وعدد السريان الكاثوليك نحو ٦٥٠٠ . والسريان الكاثوليك مرجعهم رومة ، ويقوم بطريركهم في بيروت او في دير الشرفة .

الملكيون.

وقد كان الى جانب الكنيستين السريانيتين الشرقية والغربية وما تفرع عنهما جماعة اخرى مسيحية وقعت تحت تأثير اللاهوت الاغريقي الذي كان مصدره انطاكية والقسطنطينية . وقد قبلت هذه الجماعة ، مقررات المجمع الكنسي الخلقدونى (٤٥١) بدون تحفظ . وبسبب ذلك عرف هؤلاء بارثوذكسياتهم (اتباعهم الايمان الكنسي القويم) ونجوا من الحرم ونالوا حماية كنيسة الدولة وعطف العاصمة الامبراطورية . وقد اخذ خصومهم ، من المسيحيين السريان فيما بعد وخاصة في ايام يوستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥) يطلقون عليهم لقب « ملكيون » وكان جل اتباع هذه الطائفة من سكان المدن ومن ابناء الجاليات اليونانية . وقد استعصى تدريجياً عن السريانية بالاغريقية كلغة للفروض والطقوس ، وحلت خدمة القديس البيزنطية محل الخدمة السريانية . وبالرغم من ان هذه الطائفة كانت تحظى

بعطف الامبراطور وحمايته فقد ظلت طائفة مستضعفة ، وصارت تسمى بالروم الارثوذكس . ومناطق توطنهم في لبنان هي في الكورة وفي المتن . وخدمة القداس عندهم هي الخدمة المعروفة بخدمة القديس باسيل التي تعزى الى باسيليوس اسقف قيسارية كبدوكيا المدينة التي ولد فيها . وتوفي باسيليوس عام ٣٧٩ . وقد ادخل القديس يوحنا كريسوصطم اسقف القسطنطينية (٣٩٨ - ٤٠٤) بعض التعديل على خدمة القداس . ومن الغرابة انه في العصور المتأخرة اصبحت التسمية « ملكي » (او روم ملكي) تطلق على المسيحيين الذين تركوا الكنيسة الارثوذكسية بسبب الاعمال التبشيرية التي كان يقوم بها المبشرون الكاثوليك وانضموا الى رومة (١٧٢٤) ويمرّفون احياناً بالروم الكاثوليك . ذلك لان خدمة القداس عندهم لا تزال بالاغريقية . وخدمة القداس عندهم لا تختلف عن خدمة القداس في الكنيسة الارثوذكسية الا بذكر قداسة البابا . ولكنهم يدعون بان صلتهم بكنيسة رومة ترجع الى اقدم العصور ، وان هذه الصلة لم تنقطع يوماً . اما بطريركهم فيقيم في لبنان تارة وفي مصر تارة اخرى . ومنطقتهم الرئيسية مدينة زحلة التي يبلغ عدد سكانها ٣١ الف نسمة . ومن الاحصاء التقريبي في لبنان لسنة ١٩٥٢ يظهر ان عدد الروم الارثوذكس هو ١٣٠,٨٥٨ وعدد الروم الكاثوليك هو ٨١,٧٦٤ .

جزيرة مسيحية في بحر اسلامي

لما طغت موجة الفتوحات العربية مجتاحة سورية الداخلية والشواطىء البحرية وحلّ الاسلام تدريجاً محل المسيحية ، ظهر لبنان وكأنه جزيرة مسيحية صغيرة في بحر من الاسلام . فتزحّت الى اقسامه الشمالية جماعات مسيحية من المناطق المجاورة ، فالبعض هرب من دفع الجزية ، أو تجنباً لأن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية ، والبعض هرب مما فرضه الخليفة الاموي عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠) من قيود وتمييز بين المواطنين . وهذا التمييز وهذه القيود التي فرضها عمر بن عبدالعزيز بشكل تشريع على اهل الذمة كانت الاولى من نوعها . وخلاصتها انه منع المسيحيين من الوظائف الحكومية البعامة . وحظر عليهم لبس العائم ، وطلب اليهم ان يلبسوا ثياباً ذات زناير من جلد تميزهم عن سائر الناس ، وان يركبوا

الدابة دون ان تخرج او ان يكون عليها بردعة ، وألا يبنوا كنائس ، وان تكون صلواتهم باصوات منخفضة لا تسمع في الخارج . هؤلاء النازحون الى شمال لبنان اندمجوا بالطائفة المارونية . ومن جملة العائلات اللبنانية العريقة التي ترجع بنسبها الى عائلات في حوران : آل الحازن الذين يدعون انهم من الغساسنة (اي من عرب الجنوب) ، وآل ملحمة الذين يدعون ايضاً انهم من عرب الجنوب وان جدودهم اتوا الى العاقورة بطريق دمشق . ونقول بعض الروايات ان اشهر العائلات المارونية قدمت من بلدة صدد^(١) التي لا تزال الى يومنا هذا بلدة سكانها مسيحيون من اليعاقبة . ومن هذه الاسر عائلة السمعاني وعواد ومسعد والشدياق وثابت والدبس . ويرجع آل التيان وآل سركيس نسبهم الى عائلات كانت تسكن القريتين^(٢) .

ان انتصار المسلمين في الحرب في منطقة حوض المتوسط الشرقية الذي تم خلال حوالي عشر سنوات كان حقاً انتصاراً للقومية العربية وانتصاراً للدولة الدينية الاسلامية . كان هذا الانتصار المرحلة الاولى من مراحل الفتوحات . فقد انتهت المعارك الحربية اما المعارك الاخرى فلم تكن قد بدأت بعد . كانت الفتوحات المادية لهذه المرحلة الثانية اي الفتح الديني . وهذه المرحلة الثانية من مراحل الفتوحات كانت أبطأ في سيرها ولم تكن متعمدة تماماً . فان انتشار الاسلام اقتضى قروناً لا عشرات السنين . فالخلفاء الامويون باستثناء عمر بن عبد العزيز لم يهتموا كثيراً بان يغير الناس دينهم فيعتنقوا الاسلام لا سيما الجماعات التي تملك الاراضي الزراعية . وذلك لاسباب اقتصادية معروفة . وفضلاً عن هذا فان الحكم الاموي بوجه عام ، كان حكماً يتصف بالتسامح الديني . وهذا التسامح اللذان ظهر في ذلك الوقت تعدياً القضايا الاقتصادية والمادية الى قضايا الدين والفكر . فقد كان حكم معاوية ، مؤسس الدولة الاموية ، وسلوكه في تصريف الحكم ، مثالا احتذاه خلفاؤه . فقد واجهته مقاومة عنيفة على ايدي الشيعة في العراق ، وتعصب شديد ورجعية على ايدي اهل الحجاز ، فاعتمد

١ - وهي صدد الوارد ذكرها في سفر العدد ٨: ٣٤ وتقع على بعد ٣٥ ميلاً جنوبي شرقي حمص .
٢ - الكونت فيليب دي طرازي : اصدق ما كان عن تاريخ لبنان (بيروت ١٩٤٨) الجزء الثاني ص ٢٤-٢٥ ، ٥١ وما يليها ، ٧٦ وما يليها .

رهاباه النصراني لتثبيت سلطانه في وجه هذا كله . فتزوج ميسون ، وهي نصرانية من طائفة اليعاقبة، التي احتفظت بدينها وولدت له وريثه يزيد . وقد كان شاعر بلاطه الاخطل نسيحيا . وكذلك كان طبيبه الخاص . وكان وزير ماله منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي . والحق ان الحكم العباسي لم يكن كالحكم الاموي في تسامحه وتحرره . ولنا ان نعتقد بان هجرة المسيحيين الى لبنان ازدادت ايام العباسيين لا سيما في خلافة هرون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) وفي خلافة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) الذي عاد يفرض على النصراني ما كان قد فرضه عمر بن عبد العزيز ، لا بل اضاف اليها امورا اخرى . فانه (المتوكل) امر ان يعلق النصراني على ابواب بيوتهم تماثيل خشبية تمثل الشيطان ، وامر الا ترتفع قبورهم عن مستوى وجه الارض ، والا يركبوا سوى البغال والحمر ، وان يعلقوا على اردان البستهم قطعاً من القماش الملون دلالة على انهم نصراني . ولنا ان نعتقد انه عند منصرم القرن العاشر اصبحت سورية ومصر والعراق بلدانا اسلامية في حياتها ومظاهرها العامة . اما في مصر فان القوانين التي سنّها الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (٩٩٦ - ١٠٢١) اجهزت على ما تبقى من معالم النصرانية وجعلت البلاد بلادا اسلامية محضة .

اما المرحلة الثالثة من مراحل الفتح العربي فقد كان انتشار العربية وسيادتها في المنطقة . وهذه المرحلة كانت ابطأ المراحل في سيرها وتقدمها . فان الامم المغلوبة على امرها ابدت من المقاومة اللغوية ما لم تبده في المقاومة الحربية او الدينية . ولا شك في ان انتصار القرآن على انه كتاب الاسلام سبق انتصار العربية كلغة محكية بين الناس . فقد كان على اللغة العربية ، التي كانت لغة قوم بدائيين وعلى شيء يسير من الحضارة ان تسمو اولا وان ترتقي علميا وفكرياً قبل ان تفرض نفسها على الاقوام المغلوبة . وقد كان لحركة الترجمة من الاغريقية الى العربية عن طريق السريانية أيام الرشيد والمأمون (٨١٣ - ٨٣٣) في بغداد اكبر اثر في تطوير العربية وفي جعلها اللغة الشائعة السائدة . فقد ظل الكتاب والعلماء يؤلفون برعاية الخليفة قرونا طويلة قبل ان اصبحت اللغة العربية لغة الفلاحين والعمال . ولم يتم انتصار العربية كلغة يتكلمها الناس المغلوبون على امرهم الا عند منصرم العهد العباسي ، اي في اوائل القرن الثالث عشر .

وما جئنا على ذكره من إنتشار الاسلام وسيطرة العربية لا يصدق على لبنان .
لانه ظلّ قروناً - بعد ان كانت سائر المناطق قد اسلمت في دينها وتعربت في لغتها
- مسيحياً في دينه وسريانياً في لغته . وقد كان ابو الفرج ابن العبري^(١) (المتوفى
١٢٨٦) الاسقف اليعقوبي في الموصل يعتبر السريانية لغة لبنان .

الدروز

بعد ان فتح المسلمون الموارنة في شمال لبنان ، واصبح له مركز في التاريخ ، بدأت
طوائف اسلامية تخالف الشيعة في عقائدهم وديني الشيعة والاسماعيلية ، وجماعات
عرقية مختلفة من فرس وعرب تنزح الى لبنان الجنوبي . هذه الاقوام اندمجت فيما
بعد ، ومن اندماجها نشأ الدروز في منتصف القرن الحادي عشر . هؤلاء
النازحون الجدد اندمجوا ، كما فعل قبلهم الموارنة بالسكان الاصليين من العرق
الآرامي . ان الشكل العام للسائد في جماجم اللبنانيين - دروزاً كانوا ام موارنة -
في يومنا هذا ، حسب نتائج الابحاث الانثروبولوجية التي اجريت في هذا الحقل^(٢) .
هو من نوع الجماجم القصيرة العريضة التي تعرف في علم الانثروبولوجية بالجماجم
العريضة . وهذا يخالف الشكل السائد لجماجم بدو الصحراء السورية المستطيلة
مخالفة بارزة . وكذلك يخالف شكل جماجم عرب الشمال . ان القياسات التي
احراها يُورنغ (Ewing) على جماجم الموارنة المولودين في لبنان وجماجم
الموارنة المولودين في الولايات المتحدة تدعم النظرية التي تقول بان عادة تنويم

١ - نشر الصالحاني ، ص ١٨ .

٢ - Carl C. Seltzer, *The Racial Characteristics of Syrians and Armenians* (Cambridge, Mass. 1936), pp. 10 seq.; do., *Contributions to the Racial Anthropology of the Near East* (Cambridge, Mass., 1940), pp. 20-1, 37-50; William M. Shanklin and Nejla Izzeddin in *American Journal of Physical Anthropology*, vol. XXII (1937), pp. 397 seq.; C. N. Ariëns Kappers, *The Anthropology of the Near East* (Beirut, 1932), pp. 8-10; J. Franklin Ewing, *Hyperbrachycephaly as Influenced by Cultural Conditions* (Cambridge, 1930), pp. 7-8, 26-7, 31-2, 35, 79 .

الطفل على ظهره وتقميطه في السرير بسبب فلتحة في قفا الجمجمة. وهذا ما يجعلها من نوع الجماجم القصيرة جداً. وبظهور الدروز كطائفة جديدة في لبنان، فإن تاريخه منذ ذلك الحين بدأ يتركز على هاتين الطائفتين وعلى علاقة الواحدة منهما بالأخرى، نغني الدروز والموارنة.



الصفحة الأولى من رسالة لبهاء الدين عن المسيحية.

ان اسم « الدروز » يُرَدُّ الى اسم «اع تركي» الاصل : محمد ابن اسماعيل الدرزي (وهي لفظة فارسية معناها خيَّاط) الذي كان احد اعوان الخليفة الفاطمي السادس في القاهرة، الحاكم بامر الله (٩٩٦ - ١٠٢١). وهي تسمية لا يرضى عنها الدروز انفسهم، لانهم انتقضوا عليه، وانكروا دعوته، وذلك

لتعاليمه الاباحية . أما الدرّوز فانهم يؤثرون بان يُسمّوا بالموحدين ، اي الذين يؤمنون بالله واحد . وقد كان الدرزي اول من قال بعبادة الحاكم . ان الاعتقاد بالحلول (اي ان الله يتجسد) قديم العهد بين غلاة الشيعة . وهو اعتقاد يحاول فيه اتباعه ان يسدوا الفجوة البعيدة التي تفصل الانسان المحدود عن الله غير المحدود ، كوسيلة لاقامة علاقات شخصية انسانية مع ذات الله . ويعتقد الدرّوز ان الله ذاته تجسد تسع او عشر مرات ، كان آخرها وافضلها تجسده بشخص الحاكم . وليس هذا المعتقد الدرزي الاساسي سوى استمرار للعقيدة الاسماعيلية اتباع الامام السابع اسماعيل (توفي ٧٦٠) الذين يعرفون ايضاً بالسبعية ^(١) .

ان الصورة التي تركها لنا المؤرخون — ويجب ان نتذكر ان جلهم لم يكونوا من الذين يعطفون على الفاطميين ولا سيما على قضية الحاكم — صورة مشوشة . فهو عندهم رجل غامض الاطوار لا يستقر على رأي ، ولكنه رجل يتميز بنزعة الاجتماعية . يقول لنا المؤرخون مثلاً انه كان محباً للعلم يشجع العلماء ، وانه بنى دار الحكمة وجعلها مركزاً للابحاث والترجمة ، وانه بنى الجوامع ووقف لها الاوقاف وانشأ معاهد للعلم ومؤسسات للفقراء . ولكن يقول لنا هؤلاء المؤلفون ايضاً انه هدم كنيسة القيامة في القدس (١٠٠٩) ونفى جميع المغنين والمهرجين ومنع الناس عن اكل الملوخية وحظر على النساء ان يتبرجن وان يذهبن الى الحمامات العامة ، وفرض على اليهود والنصارى فروعاً شديدة الوطأة . فكان عليهم ان يلبسوا الثياب السوداء وان يعتمدوا بالعمائم . وحظر عليهم ركوب الخيل — واذا اقتضى الامر فان لهم ان يركبوا الحمير — ومنع عنهم الوظائف العامة ^(٢) . وقد بويع الحاكم بالخلافة وهو بعد ابن احدى عشرة سنة ، وقتل في مؤامرة محكمة دبرتها اخته ست الملك التي كان قد ارتاب في مسلكها . ولكن اتباعه

١ — Hitti, *History of the Arabs*, pp. 441-3; do., *The Origins of the Druze People and Religion* (New York, 1928), pp. 27-8.

٢ — يحيى بن سعيد في ابن البطريق ، الجزء الثاني ص ١٩٥ وما يليها . ابن العبري ص ٣١٢ — ٣١٣ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الجزء الثالث (القاهرة ١٢٩٩) ص ٤ — ٧ . ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، نشر H. F. Amedroz (لندن ١٩٠٨) ص ٤٤ — ٤٩ ، ٥٥ — ٥٦ .



الصفحة الاولى من كتاب السيد عبدالله التنوخي ، وهو كتاب يشرح فيه العقيدة الدرزية .

انكروا انه قد مات بل قالوا انه في الغيبة ولن يلبث حتى يعود ظافراً عندما يحين الوقت^(١) .

اما في مصر فلم تلق الدعوة اذنا صاغية . واما اسماعيل الدرزي الذي كان قد اعلن الومية الحاكم فانه هرب ناجيا بنفسه من غضب الجماهير التي اهتمت عند سماعها اعلان ربوبية الحاكم . ولكن دعوته لقيت تربة صالحة في وادي التيم

١ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر William Popper الجزء الثاني (بركلي ١٩٠٩) ص ٧٠ وما يليها .

Hitti, *Origins of the Druze People*, p. 31.

عند سفح جبل الشيخ . ولكنه قتل هناك بعد سنتين قضاهما في الدعوة الى الحاكم^(١) . وقد قبح تعاليمه وشهر بها داع آخر فارسي اسمه حمزة اللباد الزوزني^(٢) الذي كان الزعيم الفكري للدعوة الجديدة . فانه هو واضع فلسفة العقيدة الدرزية . وكانت فلسفته اللاهوتية باطنية في طريقها ، اي انها (الباطنية) تقول بان للنصوص معنى باطنيا غير معناها الظاهري ، وهذا المعنى لا يفقهه الا الائمة والراسخون في العلم . والحقيقة في نظر الباطنية يجب ان يفتش عنها في المعنى الخفي الباطني لا في المعنى الحرفي الظاهري الذي ليس سوى حجاب يستر الحقيقة عن اعين الجاهل الذين لم يوقفوا بعد على الاسرار الداخلية . وقد قتل حمزة في القاهرة اثناء هياج الشعب بعد موت الحاكم بمدة قصيرة .

كان خليفة حمزة في نشر الدعوة تلميذ - ربما كان سوريا مسيحيا - اسمه المقتنى بهاء الدين (توفي حوالي ١٠٤٢) . وقد عاش المقتنى برهة من الزمن متخفيا ، ولكننا لا ندري على وجه التدقيق اين كان اختباؤه في مصر ام في سورية . وقد بعث بهاء الدين برسائل عديدة الى الاتباع او الى اشخاص يدعوهم فيها الى قبول الدعوة في اماكن مختلفة متباعدة مثل بزنطة والهند . ومجموع هذه الرسائل يشكل بعض كتب الدروز الدينية التي يقرأونها ويتدارسونها في خلواتهم . فقد بعث مثلا برسالة الى الامبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨) وهي الرسالة الموسومة بالقسطنطينية . وبعث برسالة اخرى يرد فيها على النصارى وهي الرسالة الموسومة بالرسالة المسيحية^(٣) . ويعزى اليه كتابة اربعة كتب من كتب الدروز الدينية مما يضعه في المقام الاول بين كتبهم اللاهوتيين . وآخر من شرح رسائل بهاء الدين كان عبد الله التنوخي^(٤) الذي يعرف بالسيد (توفي ١٤٨٠) ومزاره في بلدة عبيه وهو مزار مكرم يفده الوف الزوار فيقدمون له الهدايا ويوفون بالندور . وتنوخ كانت اصلا قبيلة عربية مسيحية .

١ - يحيى بن سعيد في ابن البطريق، الجزء الثاني، ص ٢٢٣ حيث يذكر ان الجنود اذراك قتلوه .

٢ - ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ، وهو تكملة للكندي : كتاب الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨) ص ٦١٢ .

Hitti, *Origins*, pp. 64—9 .

— ٣

Hitti, *Origins*, pp. 71—4 .

— ٤

وقبيل وفاته حدد بهاء الدين سياسة الطائفة الدينية الجديدة : اثناء غيبة الحاكم يجب الا تفشى اسرار الدين او ان تعلن للناس . ولا شك ان الاصرار على ابقاء الدين امراً سرّاً املته عليهم الظروف السياسية . فانهم كانوا فرقة صغيرة العدد تحاول البقاء في وسط عدائي قوامه السنة والشيعية والنصيرية . وقد اعلن بهاء الدين ان العالم لا يستحق ان ينال البركات والنعم التي وعده بها الدين الجديد لاتباعه . ومنذ ذلك الحين « اقلل باب الدعوة » . فلا يقبل جديد ولا يقبل مرثد . وهم يمنعون كتبهم الدينية - التي هي دائماً بشكل مخطوطات اذ لا يجوز طبعتها - حتى عن الدروز الجهال . اما العقال فيجوز لهم ان يقرأوا هذه الكتب . ولا يصل درجة العقال الا من كان منهم رجلاً حسن الاخلاق عالي الهمة يوثق بصلاحه وبقدرته على كتمان السر . وقبل ان يقبل الدرزي في عداد العقال يعرض الى امتحان قاس يختبرون فيه صبره وجلده وحسن سيرته . وبعد ان يبرهن الرجل على انه اهل لهذا المقام فان العقال منهم يدخلونه في عدادهم بنوع من التكريس . وعلى العاقل ان يتمسك باهداب الفضيلة والاخلاق وعليه ان يسلك سلوكاً حسناً يتميز بالرصانة والوقار . وعليه ان يمتنع عن الكسب ان لم يكن كسباً حلالاً . وعليه ألا ينسب بكلمة نابية أو بذينة وألاً يشرب خمرأ او يدخن تبغاً . والا جاويد منهم يمتنعون عن ان يتناولوا طعاماً أو ان يشربوا ماء عند موظف حكومة لئلا يكون مأكلاً او مشرباً حراماً . والمرأة الدرزية اذا كانت من اهل الصلاح والتقوى فانها تدخل في عداد العاقلات المتدينات . والدروز يختلفون عن المسلمين في انهم لا يسمحون بتعدد الزوجات . بل انهم يتزوجون امرأة واحدة . ويقيمون صلواتهم الجماعية ليلة الجمعة في ابنية على غاية من البساطة والتقشف تسمى خلوات ، وتبنى عادة على تلال او رواب تشرف على قراهم . واقدام هذه الخلوات وارفعها مقاماً عندهم خلوات البياضة قرب حاصبيا . والى الجنوب الشرقي من هذه الخلوات خلوة شبعاء التي نهب كتبها جيش ابراهيم باشا عام ١٨٣٤ ، فكانت المرة الاولى التي تعرّف فيها العالم الى كتبهم . واقدام دراسة اوروبية للطائفة الدرزية وتاريخها وعقائدها قام بها عالم افرنسي اسمه سلفستر دي ساسي^(١) . واول ذكر لهم في الادب الاوروبي يرد في رحلة يهودي

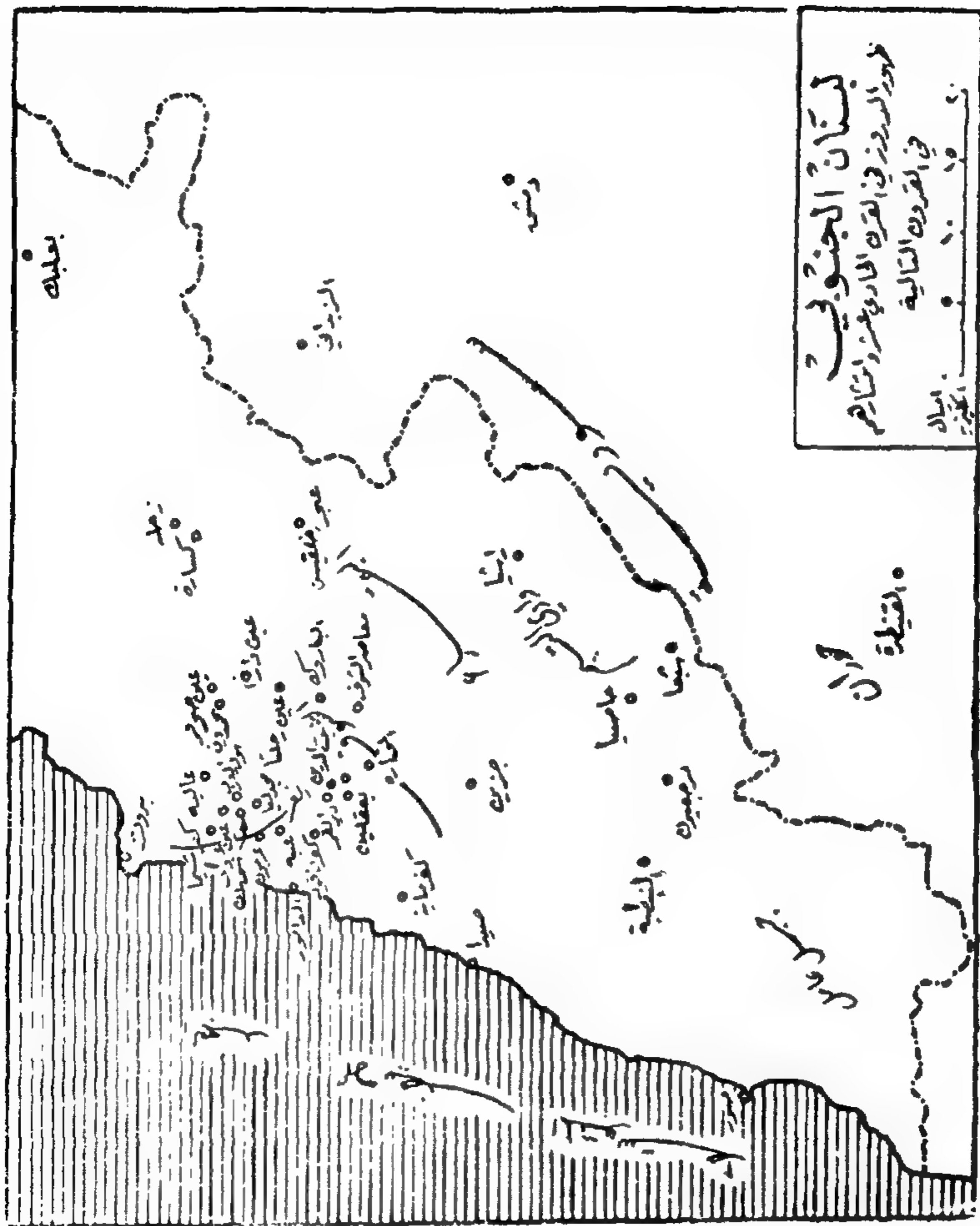
١ - Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druses*, 2 vols. (Paris, 1838).

اسباني الى الشرق اسمه بنيامين التودلي^(١) (حوالي ١١٦٩) .

انتشار الدرزية

من مهادها الاول في جنوبي لبنان اخذت الدرزية بالانتشار في الجبال شمالاً متحاشية الساحل والبقاع . في هذا الموطن الجبلي اكتسب الدروز على مر الاجيال تلك الصفات والمميزات التي عرفوا بها في جميع مراحل تاريخهم: ولاء صادق للجماعة وتضامن جماعي قوي ، وحب شديد للحرية والاستقلال، وصبر على تحمل المكاره والشدائد . وفي اثناء انتشار الدرزية شمالاً انضمت الى طائفتهم قبائل عربية او متعربة مثل التنوخيين والمعنيسين وآل ارسلان وآل جنبلاط الذين تزعموا ولا يزالون يتزعمون الدروز . وفي زمن الحروب الصليبية وصل الدروز في توسعهم الى منطقة الشوف جنوبي شرقي بيروت واستولوا عليها . وقد وجد الموارنة ، بعد ان كان المماليك قد قتلوا في كسروان عدداً كبيراً من الطوائف الاسلامية التي لا تنتمي الى الطائفة السنية ، ان الفرصة امامهم سانحة للتوسع جنوباً الى منطقة الدروز . وقد تابع الموارنة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر توغلهم جنوباً الى مناطق الدروز . وقد كان هذا التوسع اثناء القرن التاسع عشر سبباً من اسباب الحروب الاهلية المفجعة . وقد بلغ الدروز القمة في القوة والمنعة ايام فخر الدين المعني امير لبنان من ١٥٩٠ - ١٦٣٥ الذي كان ملكه يمتد من انطاكية شمالاً الى صفد في فلسطين جنوباً . وفي هذه الفترة توطن بعض الدروز في جبل الكرمل وفي منطقة الجليل . وفي عام ١٩٤٧ كان عدد الدروز في فلسطين ١١ ألفاً وفي اوائل القرن الثامن عشر حدثت هجرة درزية من الشوف الى حوران اثر حرب اهلية بين الحزب القيسي واليميني . هذان الحزبان قديمان يمثل الاول منهما عرب الشمال الذين نزحوا قديماً الى سورية ولبنان والثاني عرب الجنوب . وقد ازداد عدد الدروز في حوران اثر هجرة درزية ثانية حدثت في القرن التاسع عشر وقوامها لاجئون وناقمون من الدروز لجأوا الى حوران بعد حوادث ١٨٦٠ . وقد

^١ - *Itinerary*, ed., and tr. A. Asher (New York photographic reproduction of London 1840-1), vol. I, text, pp. 29-30; tr, pp. 61—2 .



توطن مهاجرو الدروز الى حوران القسم الجبلي وصار يعرف بجبل الدروز . وعددهم في حوران ٨٩ ألفاً مقابل ٨٥ ألفاً في لبنان . اما مواطن الدروز الرئيسية في لبنان فهي قرى الشوف والمتن . وبالرغم من ان عددهم قليل نسبياً فان الدور الاجتماعي والسياسي الذي يمثله الدروز في كلا البلدين ، سورية ولبنان ، عظيم الشأن .

النصيرية

ان الطائفة النصيرية التي كانت تتوطن جنوبي لبنان عند ظهور الدعوة الدرزية تقيم الآن في منطقة جبال العلويين في سورية الى الشمال من لبنان . وهم كالدروز فرع من الاسماعيلية . ويرجع انهم سموا بالنصيرية نسبة الى رجل اسمه محمد بن نصير الذي كان . احد اشباع الامام العلوي الحادي عشر الحسن العسكري (توفي ٨٧٤) . وكان محمد بن نصير من الكوفة وهو من رجال القرن التاسع . وا قدم ذكر للطائفة النصيرية يرد في كتابات حمزة بن علي وغيره من كتاب الرسائل والمواعظ الدرزية . وهي طائفة تحتفظ باسرار دينها وتمنع عن الناس . اما نظامهم الاجتماعي والديني فمن النوع الذي يتميز بالطبقية . وهم من الباطنية ، اي الجماعة التي تقول بأن للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر او المعنى الحرفي . ولا شك في ان هذه الطائفة التي خرجت كثيراً عن حظيرة السنة كانت وستظل لغزاً في التاريخ الاسلامي^(١) .

المتاولة

والمتاولة هم الشيعة في سورية ولبنان . بهذا الاسم تعرفهم عامه الناس . والمتوالي (وهي مفرد متاولة) هو من اتباع علي . والسنة والشيعة هما الفرقتان الكبيرتان التي انقسم المسلمون اليهما حول الخلاف الذي نشب بعد وفاة النبي ، الخلاف الذي يدور حول من سيخلفه في جميع الاعمال التي يقوم بها - باستثناء النبوة ، لانه كان خاتم النبيين . وكانت الشيعة تقول ان الخلافة من حق علي ، صهر النبي ، ومن حق ابنائه من بعده . وفي نظرهم ان الخلفاء الشرعيين هم علي

وابناؤه . ويؤثرون ان يسموهم ائمة . وجميع الخلفاء الراشدين . (طبعا باستثناء علي) والامويون والعباسيون هم في نظرهم خلفاء مغتصبون غير شرعيين . اما السنة فينظرون الى الخليفة على انه الرئيس العلماني الزمني للمسلمين ، بينما تنظر اليه الشيعة على انه ، بالاضافة الى كونه الرئيس العلماني ، القائد الديني والروحي ، وقيادته وسلطته مستمدتان من الله لا من اجماع الناس على انتخابه . وعليه فيكون ائمة الشيعة من ابناء علي وفاطمة (ابنة الرسول محمد) في نظر اتباعهم خلفاء يتمتعون بسلطة خفية سماوية يتوارثونها ابا عن جد . وقد غالى بعض الشيعة (ويعرفون بالغلاة) في اعتبار الامام الها متجسداً . وخلال التاريخ الاسلامي نجد ان الاهداف السياسية والمطامح السياسية والقضايا الاقتصادية كانت تزيد في حدة الاختلافات العقائدية بين السنة والشيعة . وشاهد على هذا تاريخ القرامطة الذين كانوا من ابناء العمومة للاسماعيليين .

عند مستهل القرن السادس عشر اصبحت بلاد فارس حصن الشيعة المنيع . ونحن اذا جمعنا الى الشيعة جميع الفرق والفروع التي نشأت عنها مثل الاسماعيلية والدروز والنصيرية نجد انهم يشكلون عدديا اقلية ضئيلة في العالم الاسلامي . اما في لبنان فان جلّ المتأولة يقطنون جبل عامل شرقي مدينة صيدا وفي سهل البقاع ، ولا سيما في بعلبك وضواحيها ، وعددهم حوالي ٢٢٠ الف نسمة .

الفصل التاسع عشر

بنيانه في عهد الخليفة العباسي والدويش الذي نشرها

العباسيون يخلفون الامويين

كان من الاسباب الداخلية لانحيار الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ضعف الخلفاء الآخرين وعدم كفاءتهم في الحكم وسوء تصرفهم . وكان من الاسباب الخارجية التي عملت على تقلص ظل الامويين تكتل الاحزاب المناوئة لهم : العلويين والعباسيين وجل اهل العراق والفرس وغيرهم من الفئات الناقمة . وقد استمرت عوامل الهدم طويلا لا يابه لها احد من الخلفاء الامويين . أما العباسيون ، وهم من ابناء العباس عم النبي ، فقد ادعوا بانهم احق بالخلافة من بني امية . واما الشيعة ، اتباع علي ، فقد كانوا يعتبرون الخلفاء الامويين في دمشق مغتصبين لا عهد لهم ولا ذمة . فانهم اقترفوا في حق اهل البيت افظع الجرائم واشدها هولا (تقتيل افراد من اهل البيت كالحسين مثلا) ، وقد كان اتباع علي على جانب عظيم من القوة والمنعة في العراق حيث اتخذ علي الكوفة مقراً لخلافته . وفضلاً عن هذا فان العراقيين نقموا على اخوانهم السوريين لانتقال مركز الخلافة من العراق الى دمشق .

اما المسلمون من غير العرب بوجه عام والفرس بوجه خاص - وقد كانوا شعباً حراً مستقلاً ينعم بقوميته - فقد كانوا يشعرون بامتعاض جديد من جراء المعاملة السيئة التي كان الخلفاء الامويون في دمشق يعاملونهم بها . والى جانب هؤلاء كان علماء الدين يذكرّون الناس بماضي بني امية فيقولون لهم انهم كانوا آخر من قبل الدعوة ، وكانوا يشيرون الى ان حكم بني امية كان حكماً علمانياً يخالف الشريعة . وهكذا كان الجو مهيأً للانقلاب ، انما كانت تنقص هذه الجماعات الناقمة القيادة الجريئة الى ان برز ابو العباس عبد الله حفيد العباس الاكبر عم النبي .

موقعة الزاب الحاسمة

في شهر كانون الثاني من عام ٧٥٠ وقف الجيشان وجهاً لوجه عند الضفة الشمالية من نهر الزاب الاعلى ، وهو احد الروافد التي تصب في دجلة . وكان مروان الثاني (٧٤٤ - ٧٥٠) يقود الجيش الاموي ، وعبد الله ابن علي ، عم العباس ، يقود الجيش الائتلافي الناصر ضد بني امية . وقد ظلت المعركة مستعرة مدة تسعة ايام كانت الغلبة فيها للعباسيين ، وكانت هزيمة الامويين نهائية . وبالرغم من الحرب الصورية التي قام بها الامويون حوالي دمشق فانها وقعت في ايدي النصارى (٢٦ نيسان ٧٥٠) . ثم اخذت المدن السورية بالاستسلام صلاحاً الواحدة تلو الاخرى للقائد عبدالله ولجيشه العراقي وكذلك فعلت المدن اللبنانية . وتابع



مدينة بعلبك الحالية ، وفي مؤخرة الصورة جبال لبنان المنغطاة قمها بالثلج

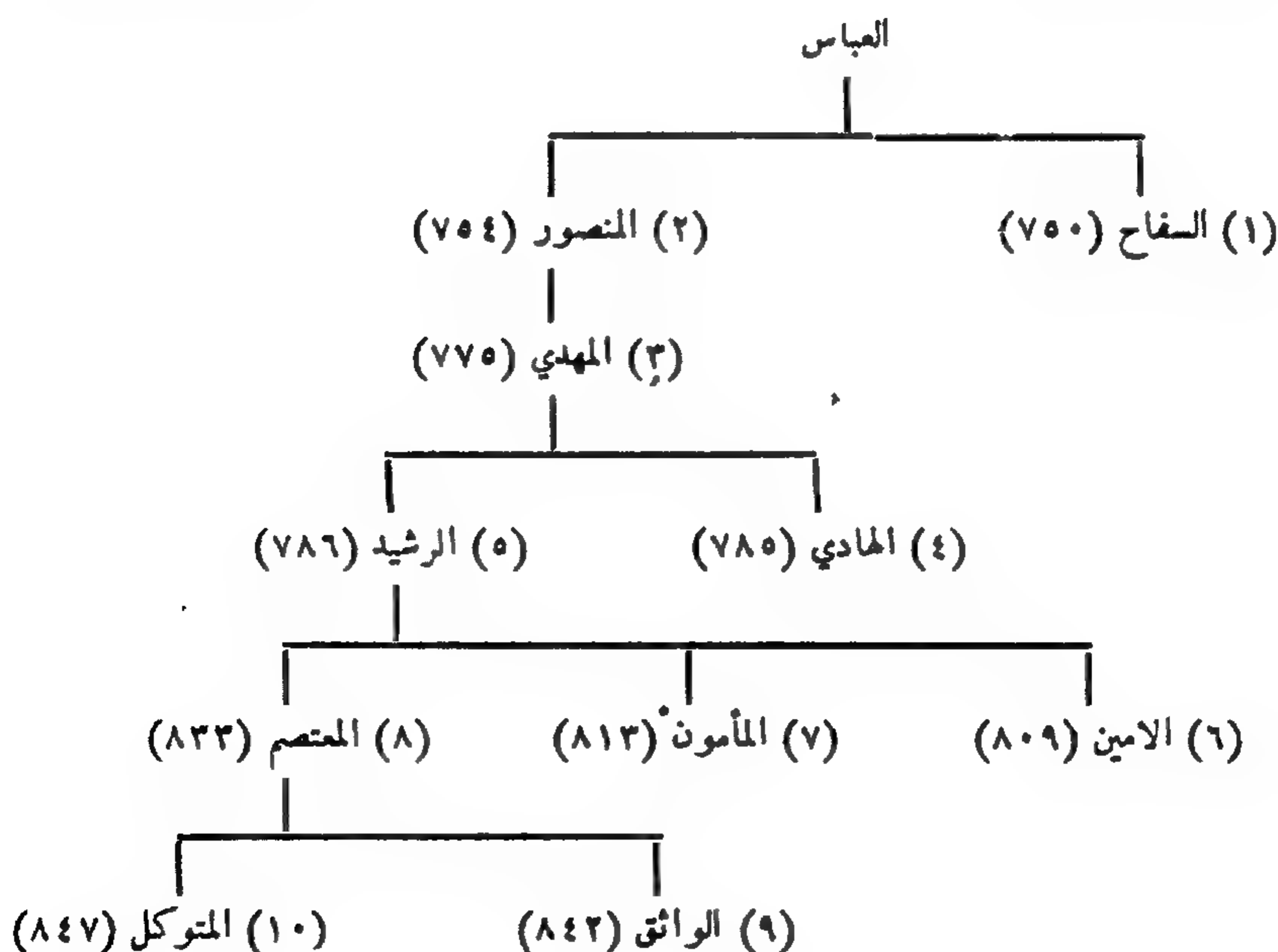
الجيش الظافر زحفه جنوباً الى فلسطين . اما الخليفة الأموي الهارب فقد بقي عليه القبض في مصر العليا وقطع رأسه وأرسل مع شارات الخلافة - وهي بقايا مقدسة خلفها الرسول - الى ابي العباس ولكي يقضوا قضاء مبرماً على الامويين وإبادة ذريتهم فان عبد الله دعا قرابة ثمانين رجلاً من امرائهم الى مأدبة اقامها لهم بالقرب من يافا . وبينما هم يأكلون اطلق عليهم رجاله فأعملوا فيهم السيوف وقتلوهم جميعاً .

ولم يكتفوا بقتل الاحياء شفاء لغيلهم ، بل انهم نبشوا قبورهم وذنسوها^(١) .
 كان سقوط الدولة الاموية ضربة قاصمة على زعامة سورية وسوددها ومجدها في العالم
 الاسلامي . وانتقل مركز النقل شرقاً الى بغداد . وكانت الدولة الجديدة دولة
 العباسيين ، فارسية باتجاهاتها وميولها . وقد فاقوا الدولة الاموية في اعتمادهم القوة
 والبطش أداة لتنفيذ خططهم وسياساتهم . فان مؤسس دولتهم ، أبا العباس
 المنصور مؤسس عاصمة ملكهم ، بغداد (٧٦٢) ، والجد الاعلى خمسة وثلاثين خليفة
 من العباسيين جميعهم من صلبه . وقد عمر هذا البيت الحاكم اكثر من اي بيت حاكم
 آخر . وكان من بينهم خلفاء يعدون من اشهر خلفاء المسلمين . وقد وصلت
 الدولة العباسية اوج مجدها وعزها في عهد الخليفة الخامس ، هارون الرشيد (٧٨٦ -
 ٨٠٩) الذي خلد اسمه في قصص الف ليلة وليلة ، وفي عهد ابنه المأمون (٨١٣ -
 ٨٣٣) الذي اشتهر برعايته ترجمة الفلسفة اليونانية الكلاسيكية والطب والفلك
 والرياضيات الى العربية^(٢) . وقد كان سقوط الخلافة العباسية على يد هولاءغو
 المغولي سنة ١٢٥٨ .

Hitti, *History of Syria*, pp. 527-33.

— ١

٢ — الخلفاء العباسيون :



الثورة في لبنان

لم يفلح العباسيون في استمالة اهل سورية الى جانبهم ولم يستطيعوا ان يظفروا بولائهم لهم . فقد ظلت هذه المنطقة بكاملها ، بما فيها فلسطين ، في حالة غليان واضطراب ، ان لم نقل في حالة ثورة . يُدَلِّك على عظمِ نقمة السوريين على العباسيين قول جعونة المنصور : « الله اعدل من ان يجمعك علينا والطاعون »^(١) فأمر المنصور أن يقتل الرجل فوراً . واما فيما يتعلق بالنصارى فان الحالة كانت أسوأ وذلك بالنسبة الى الظلم الذي كانوا يلقونه على ايدي الحكام وفداحة الضرائب التي كانت تفرض عليهم .

ثبت اولى الثورات في لبنان عام ٧٥٩-٧٦٠ في بلدة صغيرة في اعالي لبنان، المنيطرة^(٢) القريبة من افقا . فقد ثار نصارى هذه القرية ضد تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب عليهم ، واستولوا على عدة قرى في البقاع وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقراً لعامل العباسيين . وكان زعيم هذه الثورة شاباً جبلياً عملاقاً شديداً يلقب نفسه بالملك . وقد نصب له جنود العباسيين كميناً وهو في طريقه الى بعلبك فانقضت عليهم الفرسان ومزقوا شملهم . وكانت ردة الفعل عند العباسيين عنيفة ، فان العامل العباسي ، صالح بن علي - وهو اخو عبدالله القائد العام للجيش العباسي - هاجم القرى النائية في منطقة المنيطرة وشتت سكانها في طول البلاد وعرضها ، ولكنه لم يتعرض لدينهم بسوء . وقد كان لهذا العمل العنيف اثر سيء في نفس الامام الاوزاعي ، الفقيه المحدث المشهور فكتب للخليفة :

« وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن مماثلاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى ان لا تزر وازرة وزر اخرى . وهو احق ما وقف عنده واقتدى به ، واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله (ﷺ) فانه قال من ظلمُ معاهداً وكلفه فوق طاقته فانا حجيجُه »^(٣) .

١- ابن عساكر: التاريخ الكبير، طبعة عبد القادر بدران، المجلد الثالث (دمشق ١٣٣١) ص ٢٩٢.

٢- وقد ورد ذكر هذه البلدة عند كلامنا عن الصليبيين .

٣- البلاذري ص ١٦٢ .

الامام الاوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي الذي يرجع بنسبه الى عرب الجنوب^(١). ولد الامام الاوزاعي في بعلبك سنة ٧٠٧، ثم انتقل، وهو بعد يافع، مع امه الى بيروت حيث ذاع صيته في جميع انحاء العالم الاسلامي اذ ذاك. ولم تقتصر شهرته على معرفته بالفقه والحديث وانما اشتهر بسمو اخلاقه وفضل مناقبه وشدة نقشفه. وقد لقب بامام اهل الشام، «وكانت سلطته تفوق سلطة الخليفة»^(٢)، وعندما مر المنصور في بيروت سمع الاوزاعي ينخطب في المسجد فاعجب به كثيراً واحبه. وقد استشاره بعد ذلك في بعض الامور. وعندما سمع الاوزاعي مرة ان الخليفة تردد في افتداء بعض اسرى المسلمين الذين وقعوا في يد الروم بعث اليه برسالة عن لسانهم يطلب فيها اليه افتداءهم. وعندما تسلم الخليفة الرسالة استجاب



مئذنة جامع الاوزاعي في بيرحسن بالقرب من بيروت

- ١ - راجع ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الاول ص ٤٠٣-٤٠٤ . الطبري : المجلد الثالث ص ٢٥١٤ . وراجع ايضاً زين الدين الخطيب : محاسن المساعي في مناقب ابي عمرو الاوزاعي ، نشره الامير شكيب ارسلان (القاهرة) ص ٤٧-٤٨ .
- ٢ - ابن خلكان . الجزء الاول ص ٤٩٢ . ابو الفداء : تاريخ ، (القسطنطينية ١٢٨٦) الجزء الثاني ص ٧ . صالح بن يحيى ص ١٥ .

للنداء فوراً . ومما يدل على انقطاع الاوزاعي الى العلم وشدة شغفه ، ما رواه حفيده عن لسانه قال : « من تعلم باباً من العلم كان افضل من عبادة حولٍ يُصَامُ نهاره ويُقام ليله »^(١) .

ان النظرة اللبنانية الشاملة ، والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الاوزاعي وفي نبل اخلاقه . فانه كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الامر يتعلق بالرعايا من غير المسلمين . وكان يحب البلاد التي يعيش فيها ويعتر بمجدها الغابر . واننا لا نعرف فقيهاً من فقهاء المسلمين اظهر من نبل العاطفة ما اظهره الاوزاعي في دعوته الى الاخوة الانسانية . فان معاصره العراقي مثلاً ، ابا حنيفة (توفي ٧٦٩) . مؤسس المذهب الحنفي الذي يعتبر من افضل المذاهب الاسلامية سماحة وتحرراً . قد يتغاضى عن قطع النخيل وغيره من الاشجار عند مقابلة المشركين . ولكن الاوزاعي ، الفقيه اللبناني ، يمنع عملاً كهذا^(٢) . فقد كان ابو حنيفة يحرم اكل اللحم اذا كان من ذبح مرتد ، ولو كان مرتداً ذمياً ، ولكن الاوزاعي كان يحلله . وقد كان ابو حنيفة يعتبر ارض الرجل الذي دخل في الاسلام ، اذا كان هذا الرجل يقطن بلاداً وقعت فيها الحرب بين المسلمين والمشركون ، داخلة ضمن الغنائم ، اما الاوزاعي فكان لا يقر هذا الرأي ، ولا سيما اذا كان الداخل في الاسلام من النصارى او اليهود^(٣) . وفي رأي الاوزاعي انه اذا حارب ذمي في صفوف المسلمين فان حصته من المغام يجب ان تكون حصة المسلم .

وما كان الامام الاوزاعي ليقر قتل الرهائن وهو ممن يقولون بان نكث العهد يجب الا يقابل بنكث العهد بل بالمرؤة والشهامة . وقد شاع مذهب الاوزاعي في سورية ولبنان حيث ظل الفقهاء والقضاة يأخذون به مدة قرنين من الزمن الى ان

١ - ابن عساكر ، نشر احمد عبيد ، الجزء السابع (دمشق ١٣٥١) ص ٢٩٨ .

٢ - الطبري : اختلاف الفقهاء ، نشر جوزف شاخت (ليدن ١٩٣٣) ص ١٠٣ وما يليها .

٣ - ابو يوسف الرد على سير الاوزاعي ، نشر ابو الوفاء الافغاني (القاهرة ١٣٧٥) ص ٨٥ ، ١١٥ - ١١٦ ، ١٢٦ - ١٢٧ . قابل ايضاً الشافعي : كتاب الام (يولاق ١٣٢١) الجزء

السابع ص ٣٢٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥ .

حل محله المذهب الحنفي والشافعي^(١) ومن لبنان وسورية انتشر مذهب الاوزاعي الى المغرب والاندلس حيث ظل الفقهاء يأخذون به مدة اربعين سنة ، ثم حل محله المذهب المالكي . ولا شك ان روح التحرر والتساهل التي تظهر جليلة في مذهب الاوزاعي كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام في الاندلس المسيحية . وفي يوم قارس البرد من شتاء ٧٧٤ دخل الاوزاعي غرفة الحمام حيث وضعت له زوجته كانونا فيه جمر فحم لتدفئء الغرفة ولكن يظهر ان غاز المونوكسيد كان قويا في الغرفة فمات خنقا . وقد وجدته زوجته ملقى على الارض ووجهه نحو القبلة^(٢) . واما الثروة التي خلفها فقد كانت سبعة دنانير ! وقد دفن عند كثنان الرمل التي تقع على الشاطئء جنوبي بيروت . ومقامه احد المقامات القليلة التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا في مدينة بيروت حيث يقال ان جملة من مشاهير المسلمين ، بما فيهم بعض الصحابة ، قد دفنوا فيها^(٣) . ومنارة المقام نطل على مطار بيروت الدولي الذي انشىء بالقرب منه .

قسطا بن لوقا

وهناك عالم آخر من اصل بعلبكي ، ولكن نصراني المذهب ، هو قسطا بن لوقا الذي كان مفخرة بلاده وعصره (توفي حوالي ٩١٢) . كان قسطا يتقن الاغريقية والسريانية والعربية . وقد سافر الى بلاد الروم في طلب الكتب والمخطوطات ثم استقر به المقام في بغداد مركز الحياة الفكرية ومركز النقل والترجمة . كان قسطا بن لوقا طبيا وفيلسوبا وعالما بالفلك والرياضيات انما اشتهر اولا واخرا كترجم من اللغة الاغريقية . فانه نقل كتباً اغريقية في الفلسفة والرياضيات الى العربية . واليه يعزون ترجمة ما لا يقل عن ١٧ كتابا . وقد الف ٦٩ كتابا تجدر الاشارة الى اثنين منها : شرح وتعليق على اقليدس ، ومؤلف عن الاسطرلاب الكروي - وهو

١ - من اراد ان يطلع على هذه المذاهب الفقهية فليراجع كتابنا تاريخ العرب الطبعة الانكليزية ٣٩٧ - ٤٠٠ .

٢ - زين الدين الخطيب ، ص ٩٨ ، ١٥٩ - ١٦١ .

٣ - صالح ص ١٦ .

اقدم اسطرلاب من نوعه في العالم^(١) - وقد مات قسطنطين عام ٩١٢ في بلاد ارمينية الى حيث كان قد ذهب بدعوة من ملكها الذي اكرم وفادته ، والذي بنى له قبرا فخما يليق بمكانته العلمية .

انحلال الخلافة العباسية

في هذه الاثناء اخذت الخلافة العباسية تسير في طريق الانحلال . واذا نحن استثنينا فترات قصيرة قليلة ، نستطيع القول ان قوة الدولة كانت تسير بسرعة نحو الضعف والتفكك ، واخذت تظهر هنا وهناك في الشرق والغرب ، دويلات تركية وفارسية وعربية .

اتخذ الخلفاء الثلاثة^(٢) الذين سبقوا المتوكل والخلفاء الخمسة الذين تولوا الخلافة بعده^(٣) ساءراء عاصمة للخلافة . وهي مدينة على دجلة على ستين ميلا شمالي بغداد ، وذلك لانهم كانوا يوجسون خيفة من قيام الثورة ضد الموالي في بغداد . وجل هؤلاء كانوا من الاتراك الذين اتخذهم هؤلاء الخلفاء حرسا خاصا لهم . وكان سلوك هؤلاء الموالي الاتراك وتصرفهم مما يشير في نفوس اهل بغداد الاستياء الشديد . فقد ظلت بغداد ، بعد ان عادت الخلافة اليها ، مدة خمسين سنة مسرحا لتمثيل مأساة مفعجة . فقد كان خليفة بعد آخر يحمل على التنازل عن امتيازات الخلافة وصلاحياتها ويجبر على تسليمها الى رئيس الحرس الذي كان يلقب نفسه امير الامراء . كان امير الامراء يخلع خليفة وينصب آخر مكانه

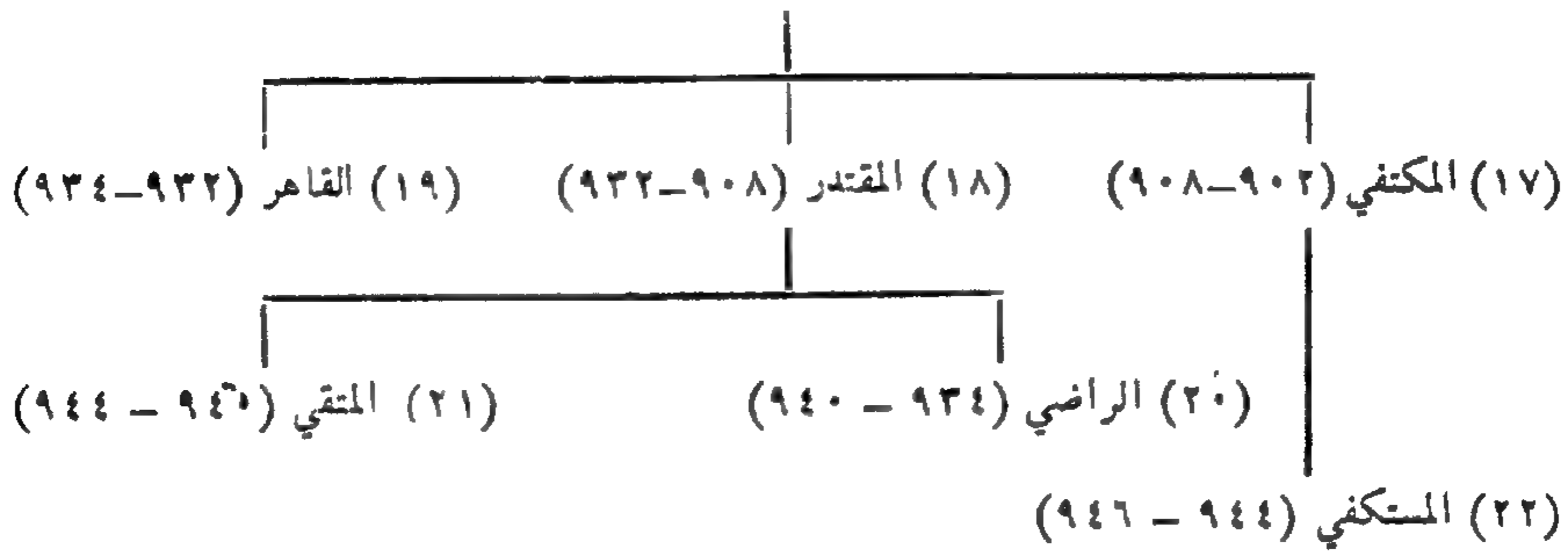
١ - راجع قائمة مؤلفاته في الفهرست لابن النديم نشر فلوجل (ليبسك ١٨٧٢) ص ٢٩٥ . وكذلك ابن القفطي: تاريخ الحكماء نشر Julius Lippert (ليبسك ١٩٠٣) ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

٢ - راجع شجرة الخلفاء العباسيين ص ٣٢٦

٣ - وهم المنتصر (٨٦١ - ٨٦٢) والمستعين (٨٦٢ - ٨٦٦) والمعتز (٨٦٦ - ٨٦٩) والمهتدي (٨٦٩ - ٨٧٠) والمعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢) .

كما يشاء^(١) . وقد تلا هذه الفترة قرن من الزمن (٩٤٥ - ١٠٥٥) قامت فيه اسرة فارسية الاصل تدعي انها من سلالة ملوكية ترجع بنسبها الى ما قبل الاسلام. استولت هذه الاسرة البويهية على بغداد وعلى جزء كبير من المملكة التي كانت تدين الى بغداد بالولاء^(٢) . ثم جاء السلجوقيون الاتراك على اعقاب البويهيين (١٠٥٥ - ١١٩٤)^(٣) فكان الخلفاء في العهد السلجوقي يملكون ولا يحكمون . وكانت مدة آخر الخلفاء الثلاثة^(٤) كناية عن قلق وخوف مستمرين وذلك بسبب اجتياح المغول .

١ - واليك قائمة بخلفاء بغداد الذين كان الاتراك يتحكمون بهم :
(١٦) المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢)



٢ - خلفاء العباسيون في الحكم البويهي ، الثالث والعشرون : المطيع (٩٤٦ - ٩٧٤) ثم الطائع (٩٧٤ - ٩٩١) وهو الرابع والعشرون ، ثم القادر (٩٩١ - ١٠٣١) وهو الخامس والعشرون ، ثم القائم (١٠٣١ - ١٠٧٥) وهو السادس والعشرون .

٣ - خلفاء العباسيون اثناء السيادة السلجوقية :

(٢٦) القائم (١٠٣١ - ١٠٧٥)

(٢٧) المقتدي (١٠٧٥ - ١٠٩٤)

(٢٨) المستظهر (١٠٩٤ - ١١١٨)



٤ - الظاهر (١٢٢٥-١٢٢٦) والمتنصر (١٢٢٦-١٢٤٢) والمتنعم (١٢٤٢-١٢٥٨) .

الاسرة الطولونية

كان عامل الخليفة العباسي في مصر قائداً تركياً اسمه احمد بن طولون (٨٦٨ - ٨٨٤) . واحمد بن طولون هذا مولى من بخارى اهدي الى المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) . وقد استغل ابن طولون ضعف الخلافة المركزية في بغداد وبعد الشقة بينه وبينها فاعلن استقلاله بمصر وانفصاله عن بغداد . وعندما توفي عامل سورية استولى احمد بن طولون على فلسطين وداخلية سورية (٨٧٨) دون اية مقاومة^(١) ، فاصبح لبنان بذلك نسبة لعزله عن بغداد ، ولاية خاضعة لمصر . وقد ارسل احمد ابن طولون جنداً واحتل بيروت ، واعاد مدينة عكا ميناء بحرية مركزاً لاسطوله^(٢) . وكان ابن طولون يعتمد في قوته التي كان يتحدى بها سلطة الخلافة في بغداد على اسطوله الذي عززه كثيراً ، وعلى حرس من الجيش التركي قوامه ٢٤٠٠٠ محارب وعلى جند من الزنوج عدده ٤٠ ألفاً . وقد قبض على المنطقة بكاملها بيد من حديد . وقد عقد ابنه وخليفته ، خمارويه ، معاهدة مع الخليفة في بغداد جعل بموجبها مصر وسورية تحت لوائه مقابل جزية سنوية يدفعها الى الخليفة قدرها ٣٠٠ ألف دينار . وقد كان خمارويه حاكماً خليعاً مبذراً فانفق مال الخزينة وخلفها على شفا الافلاس^(٣) . وبعد فترة وجيزة تميزت بالفوضى والاضطراب في ظل حكم ابنه واخيه شيبان (٩٠٤ - ٩٠٥) وجه الخليفة العباسي اليه جيشاً فقهره واعاد نفوذ العباسيين الى مصر .

عند اواخر هذه الفترة السياسية القلقة المضطربة هاجم القرامطة - الذين كانوا قد انشأوا لهم دولة مستقلة ذات سيادة على الشاطئ الغربي للخليج الفارسي - سورية (٩٠١)^(٤) وخربوا مدينة حمص وغيرها من المدن السورية وكادوا ان

١ - الطبري ، الجزء الثالث ص ١٦٧٠ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ . ابن خلدون الجزء الثالث ص ٢٩٥ ، والجزء الرابع ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .

٢ - ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثالث ص ٧٠٧ - ٧٠٨ حيث يرد الاسم « عكة » .

٣ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة T. G. T. Juyn-boll الجزء الثاني (ليدن ١٨٥٥) ص ٥٧ - ٥٩ . المقرئزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠) الجزء الاول ص ٣١٦ - ٣١٧ .

٤ - الطبري ، الجزء الثالث ص ٢٢٢١ - ٢٢٢٢ .

يبيدوا اهل بعلبك. اباداة تامة . وقد سموا بالقرامطة نسبة الى زعيمهم حمدان قرمط الذي كان فلاحاً من اهل سواد العراق . ^(١) وحركة القرامطة تمت في نشأتها الى الاسماعيلية بصلة وثيقة . فتمد كان نظامها نظاماً سرياً ، وكانت في عقائدها تمثل مزيجاً من عقائد شيوعية وتعاليم غلاة الشيعة . ولا تختلف نشأة القرامطة عن نشأة غيرها من الفرق الاسلامية في كونها نتيجة عوامل اقتصادية ونتيجة استياء سياسي في الاوساط الشعبية .

الدولة الاخشيدية

كان قائد الجيش الطولوني الذي دافع عن دمشق لما هاجمها القرامطة رجل تركي من فرغانة اسمه طغج . وكان له ولد اسمه محمد . وقد تمكن محمد بن طغج من انتزاع الملك من الطولونيين والاستيلاء عليه بالقوة . وفي عام ٩٣٥ ، بعد ان ثبت اركان ملكه واشاع الامن والطمـأنينة ، اتخذ القسطنطينية مقراً له . وفي عام ٩٤١ الحق سورية والحرمين (مكة والمدينة) بمملكته . وقد اغدق عليه الخليفة العباسي لقب الاخشيد وهو لقب فارسي ، واقطعه مصر ، كما فعل مع اسلافه الطولونيين مدة ٣٠ سنة له ونخائته من بعده . وفي عام ٩٤٦ عندما توفي الاخشيد انتقل زمام الحكم الى زنجي خصي كان في خدمته واسمه ابو المسك كافور . وقد استولى اولا على الحكم باسم ولدي الاخشيد القاصرين ، ولكنه تخلص منهما وحكم البلاد باسمه (٩٦٦-٩٦٨) . وقد خلد المتنبّي (٩١٥-٩٦٥) اشهر شاعر في ذلك العصر ، اسم كافور مدحاً وهجاء ، كما فعل بعدو سيف الدولة في حلب ، بشعر لا يزال طلاب المدارس في العالم العربي باسره يستظهرونه الى يومنا هذا . وقد بدأ المتنبّي شعره في كافور بقصائد مدح املا منه بان يحظى منه بجائزة أو عطف ، ولكن سرعان ما انقلب مدحه الى هجاء مر .

كان الحمدانيون (٩٤٤-١٠٠٣) ، وهم من قبيلة عربية ، ينازعون الاخشيديين السيادة على سورية الشمالية . وقد افلحوا في انشاء دولة حمدانية عاصمتها حلب . وكان اعظم حكامها وابعدهم شهرة سيف الدولة (٩٤٤-٩٦٧) .

١ - واسمه آرامي ومعناه « معلم سري » .

فقد ضم بلاطه شعراء لامعين كالمتنبي وفلاسفة كالفارابي (توفي ٩٣٠) وعلماء آخرين برزوا في مختلف العلوم والفنون . وكان سيف الدولة يرعاهم ويغدق عليهم العطاء . وبما ان الدولة الحمدانية كانت على حدود الروم فان الحمدانيين اخذوا على عهدتهم حماية الثغور ضد هجمات النصارى . ولنا ان ننظر الى الصراع الذي قام بين الحمدانيين واعدائهم الروم الى الشمال كمقدمة للحروب الصليبية التي تلت .

الفاطميون

كانت الدولة الفاطمية التي قامت في مصر (٩٠٩ - ١١٧١) اقوى دولة من تلك الدويلات التي نشأت لما دب التفكك في الدولة العباسية . والحق اننا يجب الا نحشرها في عداد هذه الدويلات المنشقة عن الخلافة العباسية لانها كانت في الواقع خلافة مستقلة تحدثت الخلافة في بغداد وكادت ان تقضي عليها . اما مؤسس هذه الدولة الفاطمية فهو عبيد الله المنتسب الى فاطمة .^(١) وقد اعلن نفسه المهدي المنتظر الذي تتطلع الشيعة الى ظهوره . ويظن انه ولد في سَلَمِيَّة بالقرب من مدينة حمص ومنها سار الى المغرب حيث اسس عاصمة له في تونس دعاها المهدية واقام فيها من ٩٠٩ الى ٩٣٤ . وفي عام ٩٧٣ نقل خليفته الثالث . المعز (٩٥٢ - ٩٧٥) ، عاصمة ملكه الى مصر حيث كان قائده جوهر - وهو مولى مسيحي من صقلية - قد اسس عاصمة جديدة لاسياده الفاطميين سماها القاهرة . وجوهر هذا هو الذي بنى جامع الازهر ، الذي يعد من اكبر المؤسسات الدينية المحافظة في العالم كله ، وهو الذي وسع ملك الفاطميين حتى بلغ سنة ٩٦٩ الشاطئ اللبناني بكامله ، وهو الذي طرد الاخشيديين من مصر وسورية . وفي خلافة العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦) بلغت رقعة المملكة ذروتها في الاتساع . فقد كان الناس يعترفون بسيادة الفاطميين من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر فالحجاز

١ - ابن الاثير الكامل في التاريخ (طبعة Tornberg) الجزء الثامن (ليدن ١٨٦٥) ص ١٧-٢٠ . ابو الفداء الجزء الثاني ص ٦٧ - ٦٨ . ابن خلدون الجزء الرابع ص ٣١ . المقرئزي ، خطط ، الجزء الاول ص ٣٤٨ - ٣٤٩ يؤيد صحة نسب الفاطميين . ابن خلكان الجزء الاول ص ٤٨٧ . ابن تغري بردي (طبعة Popper) الجزء الثاني القسم الثاني ص ١١٢ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥) ص ٢١٤ يشك ، او انه ينكر صحة هذا النسب .

واليمن ، وحتى الموصل في شمال العراق . اما ابنه وخليفته ، الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١) فاليه تغزى الحركة الدينية التي عرف اتباعها فيما بعد بالدروز .

وفي السنة الثانية من حكم الحاكم بأمر الله اعلن ملاح جريء اسمه علاقة من مدينة صور استقلاله ووصلك نقوداً باسمه كتب عليها «العز بعد الفاقة للامير علاقة» . وقد تحدى سلطة الجيش الفاطمي ، مدة من الزمن ، وبمعونة قطع من الاسطول البيزنطي وقف مدة من الزمن في وجه الفاطميين . ولكنه اجبر اخيراً على الاستسلام فسلم مدينته المحاصرة . اما هو فانه سلخ حياً وحشي جلده تبنياً وقشاً وعرض على الناس^(١) . وفي عام ١٠١٥ اقطع الحاكم مدينة بيروت وصور وصيدا احد عماله ، الفتح ، لقاء ضريبة يدفعها له قدرها ٣٠٠ الف دينار .

هجمات الروم

منذ ان فقد الروم (البيزنطيون) سيطرتهم على الشاطئ الشرقي للبحر الابيض المتوسط لم ينقطعوا يوماً عن اسداء العون لكل حركة مناوئة للعرب تقوم في تلك المنطقة ، ولم ينفكوا يوماً عن التطلع الى استعادة ملكهم المفقود . ففي الاحدى



دينار ذهبي فاطمي من عهد الخليفة المستنصر بالله ، وقد ضرب في عكا ٤٧٢ للهجرة

والثلاثين سنة الاخيرة من سني القرن العاشر جرت دوا اربع حملات عسكرية يقودها الامبراطور بنفسه ضد سورية . وكانت اولى محاولاتهم العسكرية تلك التي قادها نففور فوكاس (Phocas) عام ٩٦٩ والتي اسفرت عن اخضاع انطاكية وحلب واعادتهما الى الحكم البيزنطي . اما حملة يوحنا زيميس (Zimices) (٩٧٤-٩٧٦) فقد اسفرت عن استرجاع حمص . ثم انه بعد ذلك تابع سيره عبر البقاع واسترد

١ - ابن الفلاني ص ٥٠ - ٥١ . يحيى بن سعيد في ابن البطريق ، الجزء الثاني ص ١٨١ .

بعض اجزاء فلسطين . اما صيدا فقد فرضت عليها الجزية . وأما بيروت بالرغم من المقاومة التي أبدتها فانها نهبت وسبي كثيرون من سكانها . ولم تنج جبيل مما حلّ بغيرها من المدن اللبنانية . وفي عامي ٩٩٥ و ٩٩٩ قام باسيل الثاني بحملتين فاشلتين ضد طرابلس التي كانت على ما يبدو ، أحسن المدن على الشاطئ تحصيناً وذلك بفضل حاميتها وسوارها المنيع^(١) . وقد كان على الفرنجة ان ينتظروا قرناً آخر قبل ان يتمكنوا من تثبيت اقدامهم على الشاطئ اللبناني .

السلاجقة الاتراك

في الوقت الذي كان فيه الفاطميون يحاولون بيأس الاحتفاظ بجنوبي سورية وبالساحل ، كان السلاجقة الاتراك يوطدون اقدامهم في شمال سورية . ففي عام ١٠٧٠ استولى الب ارسلان ، ابن اخي طغرل الذي اقام نفسه سلطاناً في بغداد ، على حلب . اما قائده فقد تابع الزحف جنوباً في اتجاه فلسطين ، وفي عام ١٠٧٦ استولى على دمشق . اما حكام المدن اللبنانية من طرابلس وجنوباً فقد احتفظوا بسيطرتهم على مدنها واستمروا في الاتكال على العون المصري ، ولكن في الوقت ذاته كانوا يحاولون استمالة الغزاة من الشمال وخطب ودهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وهكذا وجد لبنان نفسه مرة أخرى يتأرجح بين قوتين جبارتين الى الشمال والى الجنوب .

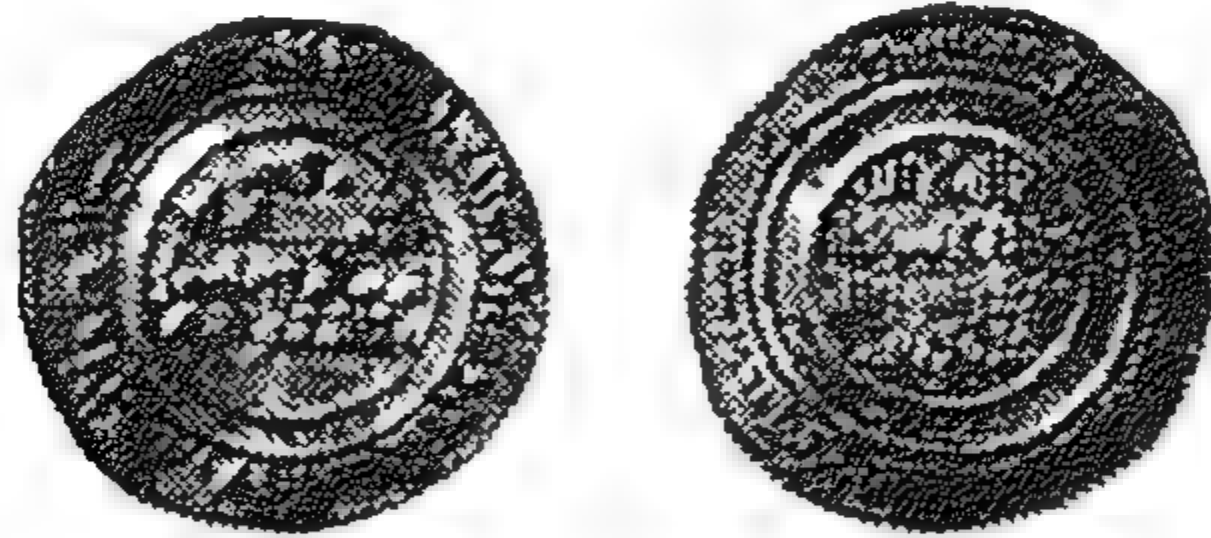
« بلد النساك والاثمار الشهية »

ولكن بالرغم من اضطراب الحالة السياسية وبالرغم من تعاقب الحكومات العسكرية التي كانت تتولى الحكم فان حالة لبنان الاقتصادية لم تتأثر كثيراً . فقد كان لبنان في نظر جغرافيي العرب في القرن العاشر بلد النساك والاثمار الشهية . يقول ابن الفقيه^(٢) (حوالي ٩٠٣) : « وبدمشق لبنان ، وهو الجبل الذي يكون عليه العباد والابدال وعليه من كل الثمر والفواكه وفيه عيون كثيرة عذبة » . ثم

١ - ابن القلانسي ص ١٣ - ١٤ ، ٤٤ . وراجع ايضاً المقدسي ص ١٦٠ .

٢ - ص ١١٢ ، وراجع المقدسي ص ٤٤ .

انه يشير بعد ذلك الى نوع من التفاح اللبناني الذي له خاصية غريبة. يقول عز هذا التفاح انه عندما يقطف عن الشجر لا يكون له نكهة ولا رائحة ولكن اذا حمله المرء وعبر به نهر البليخ (احد روافد القرات) فانه يكتسب في الحال نكهة طيبة^(١). اما ابن حوقل^(٢) ، وهو رحالة عاش في منتصف القرن الباشر ، فقد اعجب غاية الاعجاب بخصب تربة طرابلس الذي يعزى ، ولا شك ، الى نهر ابي علي . ويعجب ابن حوقل ايضاً من رخص اثمان السلع المنتجة فيها . اما الجغرافي الفلسطيني المقدسي^(٣) الذي مر في لبنان حوالي ٩٩٥ فانه يخبرنا عن مدينة بعلبك بانها مدينة تكثر فيها الالبان ومشتقاتها وفيها جميع اصناف العنب العجيب . ثم يحدثنا عن جبل عاملة (اي جبل عامل) فيقول ان فيه احسن انواع العسل ، وفيه يكثر العنب والزيتون والفاكهة وعيون الماء . ويتابع كلامه فيقول : « واما جبل لبنان فهو متصل بهذا الجبل كثير الاشجار والثمار المباحة وفيه عيون ضعيفة يتعبد عندها اقوام قد بنوا لانفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات ويرتزقون بما يحملون منها الى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك »^(٤) .



دينار ذهبي فاطمي من عهد الخليفة المستنصر بالله ، وقد ضرب في طرابلس ، ٤١١ للهجرة .

ويذكر لنا المقدسي مدينة اخرى اشتهرت بزراعة الزيتون : عكا^(٥) . اما صور فقد كانت ابام المقدسي مدينة مشهورة بتصدير السكر والخرز والاولاني الزجاجية كما عرفت بذلك في العهود القديمة^(٦) .

١ - ابن الفقيه ص ١١٧ .

٢ - كتاب المسالك والممالك طبعة دى غويه (ليدن ١٨٧٣) ص ١١٦ .

٣ - المقدسي ص ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٦٠ .

٤ - المقدسي ص ١٨٨ .

٥ - المقدسي ص ١٦٢ .

٦ - المقدسي ص ١٨٠ .

ويذكر لنا الرحالة الجغرافيون الذين زاروا هذه المدن الساحلية بانها «حصينة» تحيط بها اسوار وابراج وقلاع . فانهم كانوا يخشون عدوين : قرصان البحر وغزوات الروم (البيزنطيين) . وقد اهتم ابن طولون اهتماماً خاصاً بمدينة عكا لكونها قاعدة بحرية حصينة . فان البرج العالي القائم على سورها المزدوج الجدران كان من المناعة بحيث ان حاميته استطاعت قرابة سنتين من الزمن ان تصد هجمات ملكين من ملوك الصليبيين . حتى بعد ان انقضى على هذا البرج قرون عدة استطاع المدافعون عنه ان يصدوا هجمات نابليون بمدفعه الضخمة . ويخبرنا المقدسي ان ابن طولون استدعى جده من بيت المقدس ليني ميناء للمدينة في داخل البحر . وقد تم انشاء ميناء كهذا بضم جذوع شجر الجوز الضخمة بحيث يضعون جذعاً الى جانب جذع ثم يضعون فوقها حجارة ضخمة . وقد تركت في السور الغربي فتحة واسعة بشكل باب للميناء ، وربطت بها سلاسل ضخمة لمنع دخول المراكب غير المرغوب فيها ، ولا سيما ليلاً . ولم يقتصر بناء هذا النوع من الميناء على عكا بل تعداه الى صور وبيروت اللتين جهزتا بسلاسل من هذا النوع .

اما في القرن الحادي عشر فان افضل وصف للبنان اتحفنا به رجل فارسي الاصل ، ناصر خسرو . كان ناصر خسرو داعية اسماعيلياً مر في لبنان وهو في طريقه الى الحج . وقد قارن بين لبنان وبين سائر الاقطار الاسلامية فاثني ثناء طيباً على ما شاهده في لبنان ، واعجب بعمرانه . ويظهر انه قدم طرابلس في اواخر فصل الشتاء من عام ١٠٤٧ . وفي مثل هذا الفصل تكون البساتين والمزروعات على احسنها . وقد اعجب ناصر خسرو بجودة قصب السكر وبمختلف انواع البرتقال ، الحلو منه والمر ، وبساتين الموز والنخيل . يقول ، في هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها عشرين الف نسمة فنادق ذات طبقات يتراوح عددها بين اربع وست طبقات . وفيها من جميع اصناف اللحوم والمأكول والفاكهة . وكل ما في بلاد فارس من مأكل او مشرب يستطيع المرء ان يجده في طرابلس ، ولكنها تفوق ما في فارس كثيراً . وبيوتها نظيفة حتى يخيل للمرء ان كل بيت منها شبه بقصر من القصور . وفي سوقها عين ماء يتدفق الماء من خمسة ميازيب . وفيها رباطات للعباد والمتقشفين . وتحمي المدينة حامية من الجنود الفاطميين ، وفي اعالي اسوارها نصبت المنجنيقات . وتؤم ميناءها مراكب من بلاد اليونان

والفرنجة واسبانيا والمغرب . ومنها تسير مراكب الفاطميين الى بلاد اليونان وصقلية والمغرب^(١) . وأما الورق الذي يصنع في طرابلس فيفوق الورق الذي يصنع في سمرقند جودة وحسناً . فان المسلمين تعلموا صنع الورق في سمرقند حوالي ٧٥١ . وقد أخذوا الصناعة عن الاسرى الصينيين . وأول مصنع لصنع الورق انشئ في بغداد زمن الرشيد (توفي ٨٠٩) . ولكن بالرغم من هذا كله ، فان طرابلس لم تكن بعد قد بلغت ذروة مجدها في العمران . كان عليها ان تنتظر ردحاً من الزمن حتى قبض لها ان يحكمها امراء بني عمار . اما جليل المحاطة بسور عال منيع فغنية بالنخيل وباشجار الفاكهة . يقول لنا هذا الرحالة الفارسي انه لقي ولدأ في جليل يحمل بيده وردتين الواحدة حمراء والاخرى بيضاء وذلك في اليوم الخامس من شهر آذار^(٢) .

ولما دخل ناصر خسرو بيروت رأى قنطرة عظيمة فوق الطريق المؤدي الى المدينة علوها يتراوح بين ثمانين وتسعين قدماً . وتقوم القنطرة على ركيزتين مبنيتين من حجارة الرخام الابيض وزن الحجر منها طن ونصف الطن . وتقوم على رأس القنطرة اعمدة الرخام علو العمود منها يتراوح بين ١٤ و ١٥ قدماً ودائرة العمود كبيرة بحيث يكاد رجلان لا يستطيعان الاحاطة به . وفوق هذه الاعمدة سلسلة من قناطر علو القنطرة الوسطى يتراوح بين ٧٥ و ٨٠ قدماً ، وجميعها مبنية من الحجارة المنحوتة وزن الواحدة منها عشرة اطنان . اما الفسحة التي تحيط بهذا البناء الفخم ففيها اعمدة ذات رؤوس من الرخام وحجر الغرانيت^(٣) . ولا نشك في ان هذا الذي رآه خسرو كان من بقايا ابنية بناها الرومان ونرجح ان القنطرة التي وصفها كانت احدى الانصبه التي جعل بها هيرودس اغريبا مدينة بيروت .

اما سور صيدا المحكم البناء فقد كان له ٤ ابواب . ويقول خسرو ان اسواق صيدا مزينة تزييناً رائعاً حتى يخيل للزائر بان المدينة تستعد لاستقبال السلطان .

١ - ناصر خسرو ، سفر نامه ، نشر وترجمة : Charles Schefer أما في النص الاصيل ص ١٢ وفي الترجمة ص ٤٠ - ٤٢ ، قابل ترجمة :

Guy Le Strange, *Diary of a Journey through Syria and Palestine*, (London, 1896), pp. 6 - 8 .

٢ - راجع النص ص ١٣ وفي الترجمة ص ٤٣ - ٤٤ .

٣ - ناصر خسرو ، في النص الاصيل ص ١٣ - ١٤ ، وفي الترجمة ص ٤٤ - ٤٥ .

وكذلك بساتين صيدا فانها انشئت حسب هندسة جميلة كما انشئت خصيصا لتكون حديقة لسلطان . واما اسواق صور المزدهرة المكتظة بالبضائع والسلع فعلى غاية من النظافة ، وخاناتها ابنية ذات خمس او ست طبقات . اما سكان صور فاكثرهم من الشيعة كما هي الحال في طرابلس . والمدينة مجهزة بالماء الذي يصلها من الجبال في قناة مرتفعة . وفي عكا جامع رئيسي يتوسط المدينة ويرتفع فوق جميع ابنية المدينة ، واعلمتها من الرخام . وعلى بعد ٨٠ قدماً من الميناء لا نجد جداراً لحماية المراكب كما هو الحال في سائر المواني وانما هنالك سلاسل غليظة مربوطة بطرفي حائطين ، وعندما يقترب مركب من الميناء تُرخى السلاسل فتغوص في الماء ويدخل المركب واما اذا كان المركب مركباً غريباً أو مركباً للاعداء فان السلاسل ترفع وتربط فتمنع المركب من الدخول^(١) .

ما كان ليخطر على بال اولئك الرحالة الجغرافيين والحجاج الذين مروا في لبنان واسهبوا في وصف حصون المدن اللبنانية البحرية ، وفي وصف الوسائل المتخذة لحماية تلك الحصون ، نقول انه لم يكن ليخطر على بالهم أو على بال الطولونيين والفاطميين الذين اقاموا هذه الحصون ان هجمات خطرة ستنقض عليها من غربي اوربة هذه المرة لا من البيزنطيين عن طريق الشرق . هؤلاء الغزاة الجدد كانوا الصليبيين .

الفصل العشرون

الشرق والغرب يلتقيان

الصليبيون

عند مستهل القرن العاشر ظهر التفكك في الوحدة الاسلامية ، سواء في ذلك الاسلام كدين والاسلام كدولة . ففي اواخر القرن الحادي عشر ، كان السلاجقة الاتراك والتركمان - وكلاهما من السنة - يسيطرون سيطرة تامة على آسية الصغرى وشمالى سورية . اما مصر وفلسطين وسورية فقد كانت تحت حكم الفاطميين ، وهم شيعة . وفضلا عن هذا فقد كان في داخل الامبراطورية الاسلامية امراء يحكمون امارات صغيرة ومقاطعات تكاد تكون مستقلة عن بغداد - بعضهم من السنة وبعضهم الآخر من غير العرب . وقد أدى العداء والتنافس بين الاخوة والتناوب ومشاكل التعاقب على الحكم بين هؤلاء الحكام والامراء المنشقين الى فوضى سياسية والى حالة دائمة من القلق والاضطراب . واما المنطقة الجبلية فقد كانت ملجأ لمختلف الفرق الاسلامية المنشقة والطوائف المسيحية المختلفة: النصيرية بالقرب من اللاذقية - ولم يمض زمن حتى استقر الى الشرق منهم جماعة من الحشاشين الاسماعيلية - والوارنة في شمال لبنان ، والدروز في جنوبه ، وبينهما المتاوله (الشيعة) ومما زاد في حدة الفوضى سبل مستمر من الاعراب الذين كانوا يهجرون الصحراء ليستقروا في المناطق الزراعية او في المراكز العسكرية التي كانت تقام على الحدود ، وسيل آخر من الاكراد الوافدين الى المنطقة من الجبال الشمالية الشرقية ، ومن التركمان الذين كانوا على استعداد للانخراط في جيش الامير او الحاكم الذي يمنحهم خير الجزاء .

بعد معركة منكرت (ملازكرت) التي وقعت عام ١٠٧١ والتي انتصر فيها القائد السلجوقي البارسلان على اعدائه من البيزنطيين واسر امبراطورهم اصبحت آسية الصغرى وسورية في متناول الاتراك والتركمان . وقد كانت هذه اول مرة

وطدت هذه الشعوب الوافدة من اواسط آسية اقدامها في منطقة الشرق الادنى . ومن آسية الصغرى تمكنوا من تهديد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، تهديداً مباشراً . وقد كان بعض حكام المدن السورية يمتنون الى السلاجقة الروم بصلة القرابة ، ولكنهم كانوا يدينون بالولاء الى سلاجقة بغداد .

نداء البابا

وقد بعث الامبراطور البيزنطي ، الكسيوس كومنينوس النداء تلو الآخر الى قداسة البابا يستجيره ويطلب منه العون ليجابه الخطر الذي احاق بممتلكاته الآسيوية . وأخيراً استجاب البابا اوربان الثاني ، فلقى في اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥ ، خطاباً حماسياً شديداً في مدينة كلرمونت في جنوبي فرنسا . وهذه المقاصعة الافرنسية الجنوبية كانت الى زمن عرضة لهجمات المسلمين من اسبانيا . وكان نداء البابا استنفاراً لانتزاع القبر المقدس من ايدي « الكفرة » . وما ان حلّ ربيع ١٠٩٧ ، حتى لبى النداء جيش عظيم من الافرنج^(١) والنورمان (سكان الشمال) قوامه مئة وخمسون الف محارب تجمعوا في القسطنطينية .

اما النورمان فقد اتوا من جنوبي ايطالية ومن صقلية . وكانوا يحملون شارة الصليب شعاراً ، ولذلك عرفوا بالصليبيين . وما لا شك فيه ان بعضاً منهم كانت تحذوهم حوافز دينية ، ولكن اكثرهم كانوا يضمرون اموراً دنيوية . وكذلك قوادهم ، فان بعضهم كان يأمل في الحصول على امانة او ملك . وكان بينهم جماعة من التجار - وجلتهم من مدن تجارية كمدينة جنوا والبندقية وبيزا - يحملون باعمال تجارية تدرّ عليهم الارباح . ولا ننسى ان نذكر جماعة المجرمين والاشقياء والخطاة الذين كانوا يطلبون المغفرة عن طريق الحج الى الارض المقدسة التي داستها قدما المسيح . وكان هنالك شبان يشعرون بشيء من النعمة وعدم الرضا في الحياة ، فكان حمل شارة الصليب عندهم نوعاً من الغراء الذي يناله الانسان

١ - وهي تعريب Franks اي افرنسيون ، ومنذ ذلك الزمن اصبحت لفظة افرنج تطلق على الاجانب الاوروبيين .

الذي يذبح ذبيحة او يقدم قرباناً . وكان هنالك مغامرون يفتشون عن مغامرة رائعة مثيرة يشتركون فيها . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، اذا نحن نظرنا الى الحروب الصليبية نظرة شاملة بعيدة، نجد انها تنتم لسلسلة من الصراخ الطويل الامد بين الشرق والغرب الذي بدأ بالحروب التي وقعت بين داريوس الفارسي والاغريق واستمرت بين البيزنطيين والمسلمين وظلت الى يومنا هذا .

الانتصارات الاولى

كانت الطريق التي سلكتها الحملة الصليبية الاولى تلك التي تمر في آسية الصغرى التي كان قد استولى عليها السلاجقة . واول مدينة استولوا عليها بعد ان غادرت الحملة القسطنطينية كانت مدينة نيقيا وهي مركز عسكري استراتيجي هام (حزيران ١٠٩٧) ، ثم دوريلايوم (اسكي شهر)^(١) . وهكذا استعاد الامبراطور البيزنطي اكثر المقاطعات التي كان قد فقدتها في شبه جزيرة آسية الصغرى .

وما ان جاء الصليبيون سورية الشمالية واصبحت جبال طوروس وراءهم حتى بدأت المنافسات بين قوادهم، اذ اخذ كل واحد منهم يضع الخطط للاستيلاء على مقاطعة يحتفظ بها ملكاً لنفسه . اما بولدوين اللوريني فقد اتجه شرقاً نحو الرها (ايدسا القديمة) التي كانت واقعة تحت حكم الارمن ، واحتلها عام ١٠٩٨ . وهكذا تأسست اولى الدويلات اللاتينية . وقد اصبح بولدوين فيما بعد الملك الثاني لمملكة لقدس اللاتينية واصبح يعرف ببولدوين الأول . اما تنكرد، وهو قائد نورماني،

١ - *Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum*, ed. Heinrich Hagemeyer (Heidelberg, 1890), pp. 197, 208 seq.; Fulcher, *Historia Hierosolymitana*, ed. Hagemeyer (Heidelberg, 1913), pp. 192 seq.; Ibn-al-Qalanisi, p. 134; tr. H. A. R. Gibb, *The Damascus chronicle of the Crusades* (London, 1932), p. 42 .

ولاجل مراجع عامة تتعلق بالصليبيين يجب مراجعة :

Claude Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), pp. 3-104 .

فانه انجه غربا الى كيليكية التي كان يقطنها شعب مسيحي مزيج من يونانيين وارمن فاحتل طرسوس والبلاد المجاورة لها . اما القسم الاكبر من جنود الحملة فتمد استمر في زحمة جنوبا باتجاه هدفه الاول : بيت المقدس . وكانت مدينة انطاكية - وهي المدينة التي فيها سمي اتباع السيد المسيح بالمسيحيين (اعمال الرسل ١١ : ٢٦) - تقع على الطريق التي سلكتها الحملة . وكان اميرها اميراً سلجوقيا عاملا لسلاجقة بغداد . فضرب الصليبيون الحصار على المدينة ، وكان حصاراً شديداً طويل الامد (٢ تشرين الاول ١٠٩٧ الى ٣ حزيران ١٠٩٨) حاول اثناءه اميران سلجوقيان اخوان احدهما على حلب والآخر على دمشق ان يفكوا الحصار عن انطاكية مرتين ولكنهما اخفقا . وكان قائد الجيوش المحاصرة بوهمند ، وهو قائد نورماني ، يسانده من البحر اسطول ايطالي . وكان سبب تسليم المدينة ووقوعها في ايدي الصليبيين خيانة قائد ارمني ناظم^(١) . اما معرة النعمان ، المدينة التي ينتسب اليها الشاعر الاعمى المشهور ابو العلاء المعري (توفي ١٠٥٧) ، فقد احرقت واستبيح سكانها^(٢) .

في طريقهم الى بيت المقدس

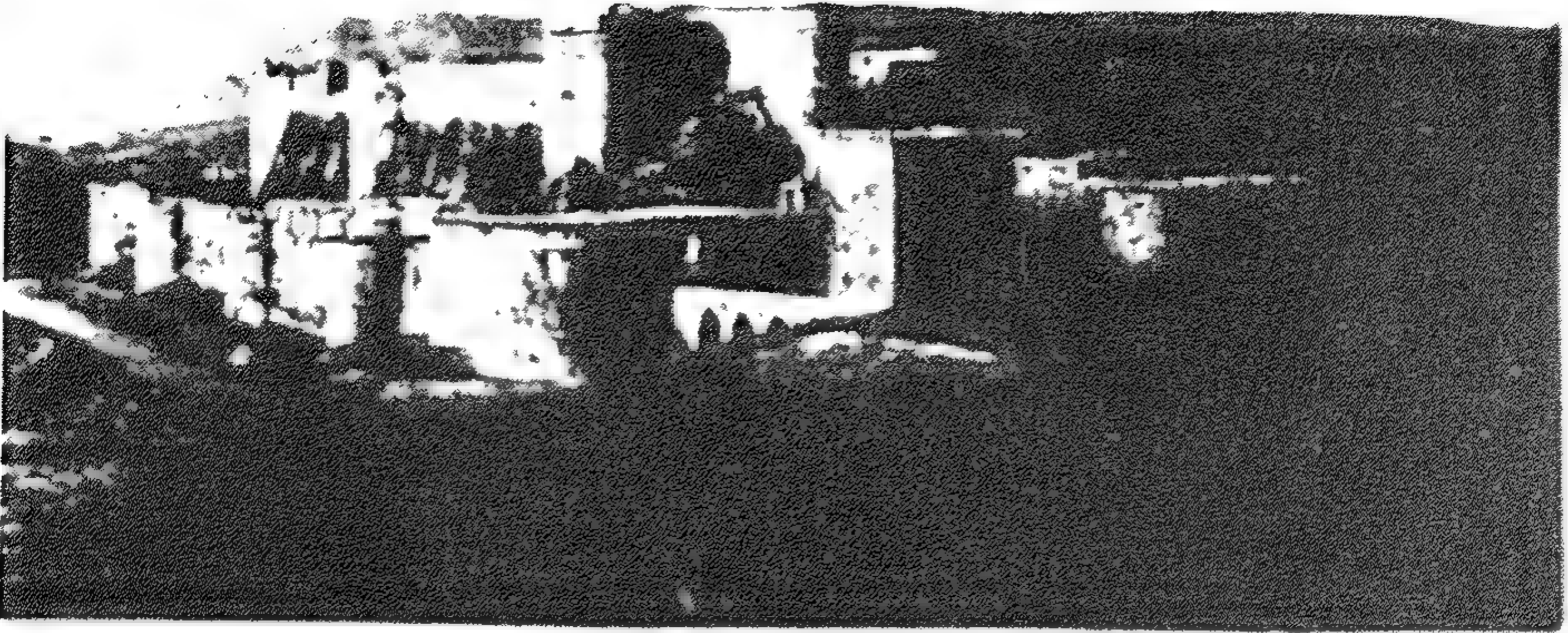
بعد ذلك تابع جيشان من الصليبيين تقدمهما جنوبا نحو بيت المقدس . وقد سلكا الطريقين القديمتين اللتين كان يسلكهما غزاة سورية ولبنان : الطريق الداخلية عبر وادي العاصي والطريق الساحلية . اما الذي سار في الطريق الداخلية عبر وادي العاصي فقد كان الكونت ريموند ابن صنجيل (Saint Gilles) كما سماه العرب . وقد كان رجلاً غنياً يقود جماعة من الفرنسيين الجنوبيين (البروفنسال) . وقد كان يأمل ان يفوز بولاية انطاكية ولكن الآخرين انكروها عليه فكان استياؤه شديداً . وفي سيره جنوباً بلغ حصن الاكراد واستولى عليه . ويقع هذا الحصن في مكان ستراتيحي

١ - كمال الدين ، تاريخ حلب في : *Recueil des historiens des Croisades historiens orientaux*, vol. III (Paris, 1884), pp. 580 seq .

ابن القلانسي ص ١٣٥

٢ - ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ ، ومختصره في ابي الفداء ، جزء ٢ ص ٢٢١ . وقابل *Gesta Francorum* ص ٣٨٧ . كمال الدين في *Recueil* جزء ٣ ص ٥٨٦-٥٨٧ . كذلك William of Tyre, vol. I, pp. 310-12 .

هام يشرف على المضيق الذي يصل الساحل بسهول البلاد الداخلية. في وادي العاصي .
وقد بنى حصن الاكراد هذا ، واسمه اليوم قلعة الحصن ، امير حمص ووضع فيه
حامية من الجنود الاكراد . وقد بنى الصليبيون على انقاضه فيها بعد قلعة حصينة



حصن الاكراد ، وهو اكبر حصن من حصون الصليبيين وامنعها

عرفت باسم Crac des Chevaliers ^(١) . اما مدينة عرقه الحصينة ، التي فيها ولد
احد الابطرة الرومانيين من الاسرة السورية ، فقد قاومت الحصار الذي ضرب
حولها من شهر شباط الى منتصف شهر ايار ١٠٩٩ . وكانت عرقه اول مدينة
لبنانية هاجتها الجيوش الصليبية . اما غودفري دي بويون (وهي عاصمة اللورين
السفلى) واخو بولدوين فقد سلك الطريق الساحلي . وقد حاول الاستيلاء على
اللاذقية . ثم انه ضرب الحصار على جبله ولكنه لم يفلح . غير انه استولى على
طرطوس (Antartus) ^(٢) التي وجدها خالية من السكان . ثم عاد بعد ذلك
والتقى بجيش اخيه بولدوين . وقد كانت المدينتان جبلة وطرطوس تابعتين لمدينة
طرابلس . وفي مدينة طرطوس شيد الصليبيون كاتدرائية فخمة لا تزال قائمة في

١ - ولغة Crac تحريف للغة « اكراد » وتختلف عن كلمة Crac الواردة في Crac de Montréal او Crac des Moabites فان لغة Crac في هذين الاسمين تحريف للغة
آرامية « كرخا » ومعناها مدينة .

٢ - انطارطوس تحريف للفظ اغريقي : Antaradus اي ارواد الجديدة .

المدينة وهي من احسن الآثار الصليبية التي بقيت سليمة الى يومنا هذا . وبما ان الاتراك لم يكن عندهم قوة بحرية فانهم لم يستطيعوا ان يستردوا المدن الساحلية او ان يحتفظوا بها كما فعل الفاطميون عام ١٠٨٩^(١) .

اما ريموند فقد وجد نفسه مكرها على فك الحصار اولا لانه كان قد نفذ صبر رجاله الذين كانوا تواقين الى بلوغ هدفهم الرئيسي ، القدس ، وثانياً لان فخر الملك ابن عمار امير طرابلس - وكانت عرقة تابعة له - كان قد عرض عليه مالا وهدايا : ١٥ الف قطعة ذهبية وخيلا وبغالا وحريراً ومزهرات ثمينة . وفضلا عن هذا فان ابن عمار جهز الصليبيين بالمؤن والعلف لكي يمنع الجند من الاعتداء على الفلاحين في القرى والدساكر المحيطة بطرابلس^(٢) .

بعد هذا تابع الصليبيون سيرهم نحو بيت المقدس على الطريق الساحلي الذي سلكه الغزاة الفاتحون من بابليين واشوريين ويونانيين ورومانيين منذ اقدم العصور . اما البترون وجبيل فقد كانتا تابعتين لامارة طرابلس وقد نجتا من ويلات الحرب . وفي البترون جرى اول اتصال بين الصليبيين والموارنة - « وهم شعب قوي الشكيمة ومحاربون شجعان^(٣) » - الذين امدوا الصليبيين بادلاء كانوا في امس الحاجة اليهم . اما في بيروت فانهم باتوا ليسلة واحدة . فان الحاكم الفاطمي في بيروت حذا حذو زميله في طرابلس ابن عمار . فانه اعطاهم كمية من المال وجهزهم بوافر المؤن لكي لا يتعرضوا للغلات والاشجار . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الصليبيين كانوا يرغبون اشد الرغبة في السير نحو بيت المقدس دون ابطاء . وهكذا لم يتعرضوا لاهل بيروت بسوء ولم يتعرض اهل بيروت لهم بسوء . وفي اليوم الثاني قدموا مدينة صيدا التي وجدوا في بساينها ظلاً وارفاً ونسباً عليلاً فنصب الصليبيون خيامهم في تلك البساتين وارسلوا بعض الجنود لسلب الماشية وجلب الاطعمة وقد ابدى الحاكم الفاطمي مقاومة شبه ضعيفة قصد ايقاف زحفهم . وفي اثناء اقامتهم في بساين صيدا تعرضوا لخطر لسع الحيات السامة ولكن اهل صيدا علموهم - وعن طيبة خاطر - كيف يتقون خطر السم .

١ - ابن الاثير ، جزء ١٠ ، ص ١١٦ - ١١٧ . ابن ميسر : اخبار مصر نشر Henri Massé (القاهرة ١٩١٩) ص ٢٨ .

٢ - William of Tyre, vol. I, pp. 329 - 30 .

٣ - William of Tyre, vol. II, p. 459; vol. I, p. 330 .

صور تنجو

كانت صور ، بعد طرابلس ، احسن المدن اللبنانية ازدهاراً وعمراناً عندما قدمها الصليبيون . فانه فضلا عن صناعاتها القديمة المشهورة التي جثنا على ذكرها سابقاً كانت صناعة السكر فيها صناعة مزدهرة . وكان الاقبال على مادة السكر قد ازداد كثيراً اولا كطعام وثانياً لخاصيته في تحضير الادوية . وكانت صور ، الجزيرة البحرية ، تنعم باسالة ماء وفير وذلك بواسطة القناة التي كان الرومان قد انشأوها لمد المدينة بالماء من نبع راس العين ولا تزال صور الى يومنا هذا تستفيد من هذه القناة . وبما ان صور كانت ميناء هاماً منه تخرج مراكب المسلمين لمحاربة القرصان البيزنطيين ، فانها كانت محصنة تحصيناً قوياً . فقد كان يحيط بها من جهة البر سور منيع يتألف من ثلاثة اسوار ، ومن جهة البحر سور مزدوج . ولكن تجار صور لم يكونوا آنذاك يحتكرون التجارة الدولية كما كانوا يحتكرونها في السابق بل كان لهم منافسون اشداء . ولم تقتصر المنافسة على تجار جنوا والبندقية وبيزا بل كان على تجار صور ان ينافسوا تجار املفي ومرسيليا . ويصادف ان مدينة صور ، قبل ان قدمها الصليبيون بسنة ، ثارت في وجه حكامها الفاطميين في مصر وهكذا تعرضت المدينة لجزرة رهيبة اما الصليبيون فانهم نصبوا خيامهم بالقرب من « ينبوع الجنات المشهور ، وهو نبع ماء حي واعجوبة من عجائب الدنيا »^(١) . ومياه هذا النبع لا تنبع من الجبل « انما تتدفق من جوف الارض » . ويظن انه النبع الذي تغنى به سليمان الحكيم حين قال : « ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان »^(٢) .

القدس عاصمة المملكة اللاتينية

وفي اليوم الثاني تأهب الصليبيون لمتابعة سيرهم جنوباً . فساروا في محاذة الشاطئ الى عكا وارسوف الى ان بلغوا قيسارية ومن هناك ارتدوا شرقاً نحو

William of Tyre, vol. I, p. 331 .

- ١

William of Tyre, vol. II, p. 6 .

٢ - نشيد الانشاد ٤ : ١٥

داخلية البلاد مارين بالرملة . وفي اليوم السابع من شهر حزيران ١٠٩٩ بلغوا هدفهم الرئيسي : القدس . وبعد حصار دام شهراً واحداً ضربه حولها كل من غودفري وريموند وتنكرد استسلمت المدينة المقدسة ، فاستولى عليها الصليبيون واعملوا السيف في اهلها دون اي نظر في السن او الجنس . وبعد ان جعلوا مدينة القدس مركزاً لهم احتلوا جزءاً كبيراً من فلسطين يؤازرهم الاسطول في عملياتهم الحربية . وبعد ان حكم غودفري القدس سنة واحدة خلفه عليها اخوه بولدوين امير ايدسا الذي نصب ملكاً على مملكة القدس اللاتينية في يوم عيد الميلاد عام ١١٠٠ .

احتلال المواني اللبنانية

كانت اول مهمة مستعجلة شعرت المملكة اللاتينية بضرورة القيام بها فوراً ، الاستيلاء على المدن الساحلية لضمان حرية المواصلات مع اوروبا . وقد تم لهم ذلك بالرغم من مناعة المدن الساحلية الحصينة بمساعدة المراكب الحربية التي قدمتها لهم الجمهوريات الايطالية ، فانها كانت تمدهم بالطعام والسلاح والمدد من الجنود . اما الاسطول الفاطمي ، الذي كان يتألف احياناً من ثلاثين او اربعين سفينة ، فلم يكن يقوى على مقاومة الاساطيل الصليبية مقاومة فعالة . ولقاء هذه المساعدة البحرية التي اسندتها الاساطيل كان الملاحون الاوروبيون يقتسمون الغنائم مع الصليبيين . فقد كان لهم احياء خاصة في المدن الساحلية تخضع لسيادة الجمهوريات التي ينتمون اليها ، وكان لهم الحق في توريد البضائع وتصديرها دون دفع ضريبة المكوس^(١) . وقد كانت هذه المنافع والامتيازات التي كانوا يمنحونها حافزاً لبذل المزيد من الجهود في مساعدة الصليبيين ، كما انها كانت مقدمة لما عرف فيما بعد بالامتيازات الاجنبية التي كانت تمنح للتجار الاجانب في الشرق الادنى كما سبأتي ذكره . وقد استولى الصليبيون على ارسوف وقيسارية عام ١١٠١ . اما عكا الحصينة فقد ضرب عليها الاسطول الجنوبي الحصار من جهة البر والبحر . وبعد مرور ثلاث سنين استسلمت . وفي عام ١١١٠ حوصرت مدينة بيروت احد عشر يوماً كان آخرها الثالث عشر من ايار لما انقض عليها الجنود المحاصرون وقد وجد

الصليبيون في غابة الصنوبر التي كانت تحيط بالمدينة من جهة الجنوب، والتي لا تزال قائمة الى عهدنا هذا، مصدراً للاخشاب التي بنوا بها ابراجاً تشرف على المدينة لرمي الاسوار ودكها. وقد خف الاسطول الفاطمي المؤلف من ١٨ سفينة انجدة المدينة كي لا تقع في ايدي الصليبيين، ولكن هذا الاسطول لم يستطع ان يقف في وجه الاسطول الاوروبي المؤلف من ٤٠ سفينة بعضها يعود الى جمهورية جنوا وبعضها الى مملكة القدس اللاتينية. ولما دخلها الجند اعمل فيها النهب والسلب، وقتل اليها وكثيراً من سكانها، واسر بعضهم، ونجا بعضهم الآخر هرباً الى جزيرة قبرص.^(١) وكان حكام بيروت من الصليبيين من اسرة ابلن.^(٢)

في شهر آب قاد بولدوين حملة ضد البقاع وبلغ مدينة بعلبك التي كانت وقتئذ تابعة لحكم اتابك تركي^(٣)، طغتنين حاكم دمشق. وقد قبل والي دمشق ان يسلم الصليبيين ثلث غلال سهل البقاع الخصب وفي الرابع من شهر كانوا الاول من السنة ذاتها استولى اسطول يتألف من ستين سفينة نروجية وبندقية على صيدا. وكان الفرنج قد بنوا برجاً غريباً في نوعه وغطوه باغصان الاشجار والحصار والجلود ليقوه من شر القذائف، وكانوا يجرونه على جرارة. وقد وضعوا فيه الماء والخل لاطفاء النار ليلاً. وبعد حصار دام سبعة واربعين يوماً استسلمت المدينة وقبلت ان تدفع جزية قدرها عشرون الف دينار. وبهذا تجنبنا الكارثة التي حلت بجارتها الى الشمال. وقد كانت المراكب النروجية تحمل معها حجاجاً ومحاربين

١ - ابن القلانسي ص ١٦٧ - ١٦٨. صالح بن يحيى ص ١٧ - ١٨.

William of Tyre, vol. I. pp. 484-5; Albert Aquensis in *Recueil des historiens des croisades : historiens occidentaux*, vol. IV (Paris, 1879) pp. 669-70; W. B. Stevenson, *The crusaders in the East* (Cambridge, 1907), pp. 58-9.

٢ - للاطلاع على قائمة حكام بيروت من الصليبيين راجع :

René Grousset, *L'Empire du Levant: histoire de la question d'Orient*, new ed. rev. (Paris, 1949), p. 330; cf. *do.*, *Histoire des Croisades et du royaume franque de Jérusalem*, vol. II (Paris, 1935), pp. 850-2.

٣ ان لفظة اتابك تركية (ومعناها ابو الامير). وكانت تطلق اولاً على الوصي او على القيم على الوريث السلجوقي. اما طغتنين، الذي كان خادماً عند ابي الوريث السلجوقي فانه اغتصب الملك في سورية، ثم ان السلجوق الاكبر في بغداد عاد فاعترف به وثبته على سورية.

واسلحة ومؤناً . اما المحاربون فقد انخرطوا في خدمة الملك بولدوين الاول^(١) . وعندما توفي هذا الملك ، بولدوين الاول ، كانت المملكة قد بلغت الذروة في اتساعها : من العقبة على البحر الاحمر الى بيروت . وقد خلفه ابن اخيه كونت ايدسا ولُقّب ببولدوين الثاني ، وملك من ١١١٨ الى ١١٣١ .

ولم يبق في ايدي المسلمين سوى صور وذلك بفضل موقعها الجغرافي (شبه جزيرة) ومناعة اسوارها . وقد قام الصليبيون بمحاولة للاستيلاء عليها عام ١١١٢ ولكنهم اخفقوا ، وذلك لان طغتنين بعث اليها بالمدد ، ولان المسلمين استعملوا النفط والقطران في اشعال النار في البرج الذي كان الصليبيون قد بنوه لمهاجمة المدينة . غير انهم استطاعوا اخيراً الاستيلاء عليها عام ١١٢٤^(٢) .

بنو عمار في طرابلس

كان على الصليبيين الذين اسسوا في الشمال مملكة في انطاكية واخرى في ايدسا . وفي الجنوب مملكة لاتينية في القدس . نقول كان على هؤلاء الفرنج ان يخضعوا البلاد الواقعة بين تلك الممالك لكي يضمنوا لانفسهم البقاء في الشرق . هذه المنطقة الواقعة بين ممالكهم في الشمال والجنوب كانت تابعة لمدينة طرابلس . وقد كان ريموند ، الذي مرّ بها وهو في طريقه الى بيت المقدس ، يرغب في الحصول على طرابلس امانة له . وعندما تمّ له الاستيلاء على القدس عاد الى طرابلس موطئاً العزم على اخضاعها والاستيلاء عليها . ولكن ريموند في هذه الاثناء كان قد فقد كثيراً من نفوذه ومقامه . ذلك انه كان موالياً للامبراطور الكسيوس كومنينوس في القسطنطينية وكان ريموند قد اقسم له يمينا ، وبشيء من التحفظ ، ان يسلمه البلاد التي يستردها من المسلمين . وكان الامبراطور الكسيوس يأمل في ان يخارب الصليبيون حروبه فيستردون له البلاد التي اغتصبها منه المسلمون وكان عدد رجال

١ - ابن القلانسي ص ١٧١ . وقد اخذ عنه ابن الاثير بعد تعديل طفيف . الجزء العشر ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . واذا اردت معرفة الحكام الذين تولوا الحكم في صيدا راجع Grousset, *L'Empire*, p. 330; cf. *do. Histoire des Croisades*, vol. II app.

٢ - ابن تغري بردي ، المجلد الثاني ، القسم الثاني ص ٢٣٦ - ٢٣٨ . سبط ابن الجوري . مرآة الزمان ، في . *Recueil : orientaux*, vol. III, pp. 543 - 6, 564 - 5 .

ربعموند الذين قدموا معه الى طرابلس ثلاث مئة فارس، فحارب الحصار (١٠٩٩) على المدينة المحصنة القائمة على شبه جزيرة والتي يبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً . ولكن عبثاً حاول الاستيلاء عليها . فعند سنة ١١٠٣ الى بناء قلعة على تلة تشرف على المدينة سماها قلعة الحجاج واطلق على التلة اسم « تلة الحجاج » . وقد كانت هذه القلعة اولى القلاع العديدة التي بنىها الصليبيون على التلال المحاذية . شاطئ .



تلة صليبيين في طرابلس بناها رينو - ونوري حوالي ١١٠٠ للميلاد ، وهي من اقدم الحصون الصليبية عهداً

وهذه القلعة لا تزال باقية الى يومنا هذا . وقد رُممها الاتراك وجعلوها سجنًا يعرف بقلعة طرابلس . واثناء الحرب العالمية الثانية اقام الانكليز فيها مدافع مضادة للطائرات . اما واجهتها الشرقية التي يظل المرء منها على نهر ابي علي ، فيعود زمن بنائها الى القرن الثاني عشر . وقد نشأ حول القلعة حي لاتيني في فترة وجيزة . وطرابلس الحديثة تقوم على هذا الموقع ذاته . ويفصل بين المدينة الحديثة وطرابلس القديمة التي كانت تقوم على شبه جزيرة (واسمها المينا) جنائن وبساتين حسة يروي ارضها الخصبه نهر ابي علي .

كان شرف الدفاع عن المدينة من نصيب ابي علي فخر الملك ابن عمار الذي كان قد تسلم الامارة عام ١٠٩٨ . اما مؤسس امارة طرابلس فهو عمه ابو طالب

امين الدولة بن عمار ، وقد كان قاضياً شيعياً في طرابلس . ولما توفي الحاكم الفاطمي حوالي ١٠٦٩ أعلن نفسه حاكماً مستقلاً على المدينة . وكان ابو طالب يهتم بالعلم ويحنو على العلماء . وقد بنى مدرسة سماها دار العلم^(١) ، وانشأ مكتبة - قيل انها كانت تحوي مئة الف مجلد - واستمال طلاب العلم إلى العاصمة . فكان عمله هذا شبيهاً بما قام به سيف الدولة في حلب^(٢) . وكان من جملة من أم مكتبة طرابلس ابو العلاء المعري . وهكذا بلغت طرابلس ، اثناء حكم بني عمار ، الذروة في الشهرة العلمية وفي الازدهار الاقتصادي^(٣) . ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً . فانه في اثناء الحصار الطويل الامد الذي ضربه الفرنج على طرابلس كان ريموند يأتيه الرجال من الجبال المجاورة لطرابلس^(٤) ، وكان الاسطول الجنوبي يعاونه من البحر . وقد استولى ريموند على الجوار رغبة منه في ان يعزل المدينة عزلاً تاماً . وكانت المدينة تتلقى بعض العون من حمص ودمشق ، ولكنه كان عوناً وقتياً . واصبحت المدينة مهددة بالمجاعة . فقد بيع الرطل من التمر بدينار من الذهب . واخذ السكان يهربون . وفي عام ١١٠٨ عهد فخر الملك بشؤون الامارة وادارتها الى ابن عمه ابي المناقب ابن عمار وغادر طرابلس قاصداً بغداد ليطلب النجدة من الخليفة ومن السلطان السلجوقي اقوى سيد في العصر . وفي بغداد استقبله الخليفة استقبالا حسناً وأثنى عليه ثناء طيباً ، واقام عنده ضيفاً مكرماً مدة اربعة اشهر . واطهر له الخليفة كل مودة واکرام لانه كان يدافع عن الدين الحنيف . وكان هذا كل ما زاله ابن عمار من حكام بغداد . وفي اثناء غيابه سلم ابو المناقب مدينة طرابلس الى الخليفة الفاطمي الذي القى القبض على افراد عائلة فخر الملك واستولى على خزائنه ، فلم يستطع هذا الامير السيء الطالع العودة الى مدينته قط . وفي هذه الاثناء كان الاسطولان الجنوبي والفرنسي قد منعاً كل اتصال مع المدينة من جهة البحر ، واشترك قواد آخرون من الفرنج في الهجوم على المدينة فسقطت في اليوم السادس والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١١٠٩

١ - اسامة بن منقذ ، ص ٢٠٨ .

٢ - Hitti, *History of Syria*, pp. 566-70 .

٣ - ابن القلانسي ص ٩٦ - ٩٧ ، ١١٤ . ابن تغري بردي ، الجزء الثاني والقسم الثاني ص ٢٦٧ . G. Wiet in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928), pp. 279 - 84 .

٤ - ابن خلدون الجزء الخامس ص ١٨٦ .

اي بعد مرور ٤ سنوات على وفاة ريموند . اما مكتبتها فقد امتحى لها كل اثر^(١) . وهكذا ظهرت اماراة لاتينية جديدة : كونتية طرابلس التي كانت تمتد من قلعة المرقب الى جبيل . وكان على هذه الكونتية برترند ابن ريموند سفاحاً^(٢) . اما مدينة اللاذقية الى الشمال فقد كانت في ايدي النصارى . اذ كان تنكرد قد استولى عليها (١١٠٣) وألحقها بامارة انطاكية . وهذه الممالك اللاتينية الثلاث ايدساً وانطاكية وطرابلس كانت جميعها خاضعة لملك بيت المقدس . وهذه الفترة التي تم فيها تأسيس هذه الدويلات اللاتينية تمثل ذروة الانتصار الذي اصابه الفرنجة .

الحصون

هذه الانتصارات الحربية الاولى التي احرزها الصليبيون في بادىء الامر - وكانت في الواقع الانتصارات الوحيدة التي احرزوها - ما كانت لتبعث في نفوسهم الثقة ولا التفاؤل بالمستقبل . وما كان الصليبيون ليطمثنوا الى مصيرهم وبقائهم في الشرق . واذا نحن استثنينا الطرفين الشمالي والجنوبي للبقعة التي احتلها الصليبيون نجد ان معظم البلاد التي استولوا عليها كانت تقع على الساحل ، ولكنها كانت تحت رحمة عدد من المدن الداخلية المتسلطة عليها والتي لم تكن اي منها تبعد عن ارض الاعداء اكثر من مسير يوم واحد . والذي نود ان نقوله هو ان داخلية البلاد لم تقع في ايدي الفرنجة ، ولم يستطيعوا ان يخضعوها لسلطانهم . نعم ، كانت هنالك مدن في الداخلية مثل حلب وحماة ودمشق وبعليك تدفع لهم الجزية حيناً بعد آخر ، ولكن الصليبيين لم يخضعوها لسلطانهم قط . حتى في عواصم الامارات اللاتينية التي انشأوها - ايدساً وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس - كان الفرنجة اقلية ، واقلية غريبة لا هي تمثلت السكان ولا هم تمثلوها .

١ - ابن تغري بردي ، الجزء الثاني والقسم الثاني ص ٣٣٤ - ٣٣١ . ابن القلانسي ص ١٦٠ - ١٦١ ، ١٦٣ ، ابن الاثير الجزء العاشر ص ٣١٥ - ٣١٧ ، ٣٢٣ - ٣٢٤ . سبط ابن الجوزي

في William of . *Recueil: orientaux*, vol. III, pp. 534-5 . ابن ميسر ص ٤٣ . Tyre, vol. I, pp. 477-8; Fulcher, pp. 531-3; Albert Aquensis in *Recueil: occidentaux*, vol. IV, P. 668 .

٢ - اذا اراد القارئ الاطلاع على قائمة حكام طرابلس عليه ان يراجع : Grousset, *L'Empire*, p. 329; cf. Steven Runciman, *A History of the Crusades*, vol. II (Cambridge 1952), app. III .

والجاليات اللاتينية التي كانت منتشرة هنا وهناك ، لم يكن اكبرها يتجاوز عدد افرادها الثلاث مئة نفس . وفضلا عن ان هذه الجاليات اللاتينية كانت مراكز محصورة محاطة بالاعداء ، فانها كانت ايضا على خصام وتزاع فيما بينها .

ولكي يحتفظ الصليبيون بموطىء قدم لهم على الشاطيء كان عليهم ان يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكي يبقوا على الصلات التي تربطهم بمواطنيهم في الغرب ،



قلعة الصليبيين في جبيل

ولكي يحظوا بعطفهم فيواصلون امدادهم بالرجال . ولقد شعر الصليبيون انهم يستطيعون الاحتفاظ بممتلكاتهم اذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من اوروبة ، واذا ظل اعداؤهم متفرقي الكلمة لا يوحدتهم زعيم قوي . فكان عليهم اقامة التحصينات الساحلية لكي يؤمنوا العمليات البحرية . ولذا فانهم اقاموا عند مداخل الموانئ البحرية في عكا وصور وصيدا وجبيل ومدن بحرية

اخرى ابراجاً عند آخر السور او الحاجز الذي يمنع الموج ، او على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانئ . وهكذا بنوا سلسلة من هذه الابراج التي كانوا يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطئ اللبناني لكي يؤمنوا الاتصال بينها . وقد بقي من هذه الابراج الى يومنا هذا تسعة ابرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبي شرقي البلدة . وجميع هذه الابراج تقوم على مواقع ابراج او قلاع قديمة ، ومواد البناء التي بنيت بها كانت انقاض تلك الابراج . وكذلك بنى الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانئ من جهة البر . اما في طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الامد فان الصليبيين بدأوا ببناء قلاع كهذه في زمن مبكر ، وكانت هذه القلاع التي بنوها من العوامل التي عجلت في اخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقايا قلعة الصليبيين في جبيل هي اول ما يسترعي انتباه السائح في تلك المدينة^(١) . وجميع هذه القلاع والحصون الصليبية في لبنان يعود زمن بنائها الى القرن الثاني عشر ، وبعضها الى القرن الثالث عشر . اما قلعة البحر في صيدا فانها بنيت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧ - ١٢٢٨ وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ يرداً لا يزال قسم منه قائماً الى يومنا هذا . ولما اخذ لوبس التاسع بترميم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التي كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها في بناء تحصينات المدينة . فاننا نجد مثلاً اعمدة من حجر الغرانيت حمراء ورمادية اللون من مصر . وفي الواقع ان اكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي اقامها الصليبيون لم تكن سوى ترميمات او اعادة بناء حصون وقلاع اقامها اما البيزنطيون او الرومان او ربما الفينيقيون انفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك واعادوا بناءها في عصر تال . ذلك ان مواقعها الاستراتيجية الممتازة يجب ان تكون قد استرعت انتباه العسكريين قبل مقدم الصليبيين بازمة كثيرة . فان الادريسي ،

الرحالة والجغرافي المراكشي ، (توفي ١١٦٦) لما زار هذه البلاد قبل الفترة التي نحن بصدددها: جاء على ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وست عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية^(١) .

قلعة الشقيف

لقد حرص الصليبيون على ان يسيطروا على المضائق والمعابر الاستراتيجية التي تربط الشاطئ الذي كان في حوزتهم بداخلية البلاد ولذا فانهم اقاموا الى جانب القلاع والحصون الساحلية سلسلة اخرى من القلاع على المرتفعات او عند سفوح الجبال الغربية المشرفة على الساحل ولا شك ان اروعاها قلعة الشقيف التي سماها الرحالة العرب « شقيف عرنون » (نسبة الى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون) اما اسمها عند الغربيين فهو قلعة بلفورت (Belfort)^(٢) . تقوم هذه القلعة ، وكأنها عش نسر ، على شاهق يشرف على نهر الليطاني على ارتفاع ١٥٠٠ قدم من مجرى النهر ، وعلى ارتفاع ٢١٩٩ قدما فوق سطح البحر . وهي بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبي الذي يربط شاطئ صيدا وصور بالبقاع فدمشق ، تماماً كما تقوم قلعة حصن الاكراد على حراسة الممر الشمالي الذي يربط شاطئ طرابلس وطرطوس بسهول حمص وحماة . وفولك (Fulk) ملك القدس^(٣) هو الذي بنى قلعة الشقيف عام ١١٣٥ على موقع استراتيجي كان الرومان قد اقاموا عليه من قبل حصناً . وبعد زمن رممها فخر الدين الثاني ، الامير الدرزي حاكم لبنان ، وجعل منها حصناً منيعاً اثناء حروبه

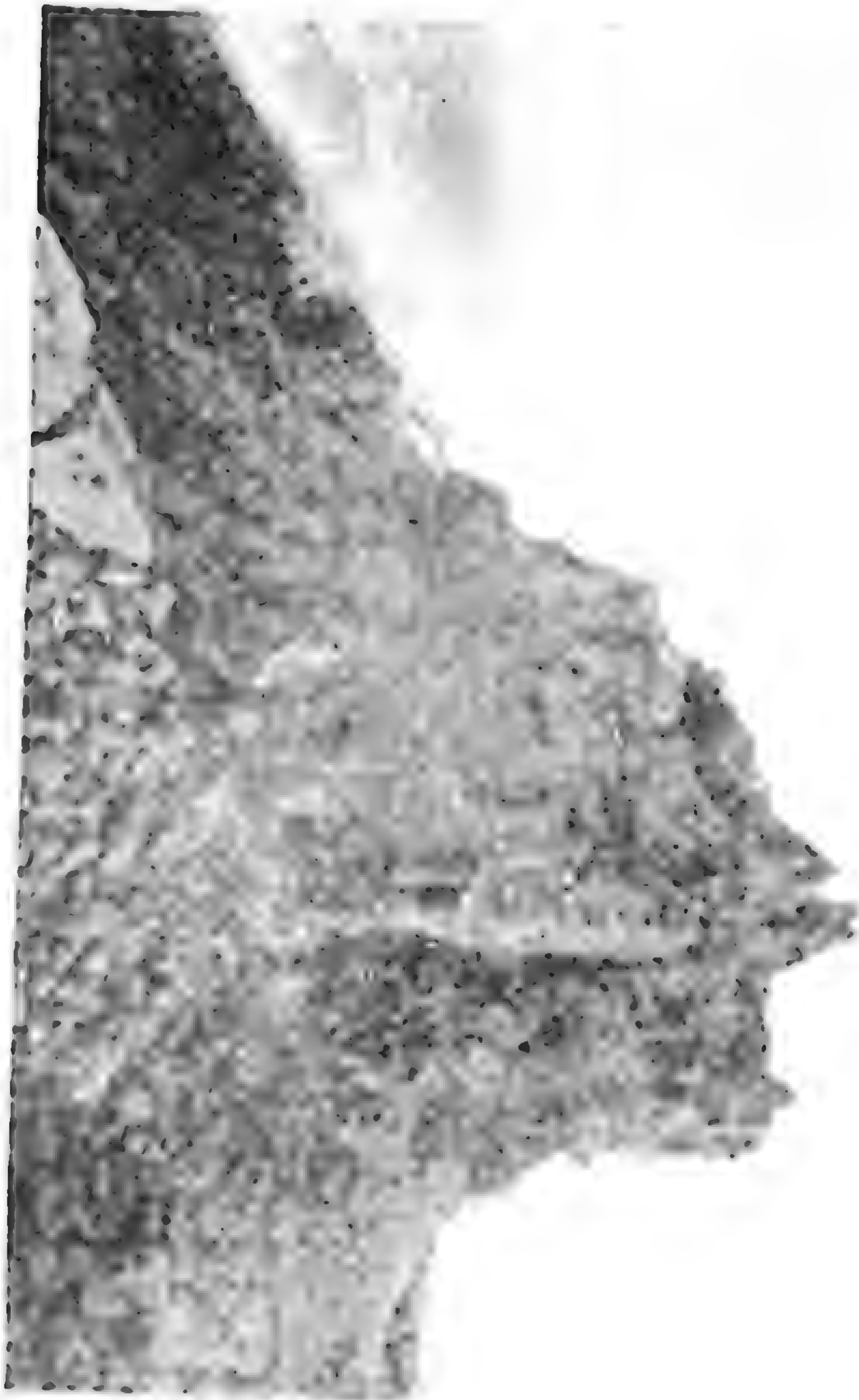
١ — الادريسي ، طبعة Gildemeister ص ١٦ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

٢ — ان لفظة شقيف سريانية ومعناها الصخر الشاهق . وعرنون سريانية ايضاً ومعناها الساقية الشديدة الجريان . وليس لهذا الاسم اية صلة بلفظ Arnold كما كان يظن سابقاً . قابل Stevenson ص ٢٦١ . وراجع فريجة : اسماء المدن ص ٦ ، حيث يثبتها بالهمزة لا بالعين . وراجع ايضاً ص ١٩٠ .

٣ — هو Fulk of Anjou صهر بولدين الثاني وخليفته . وكانت مدة ملكه من

١١٢١ — ١١٤٢ .

قلعة الشيخ (بلمورت) القائمة على تلة منيرة من الميلاد



مع الاتراك . وتبلغ واجهة القلعة ١٣٠ يردا طولاً و ٣٣ يردا عرضاً ، وترتفع جدرانها الى علو يتراوح بين ٥٨ الى ٧٨ قدماً من الخندق المحيط بها من جهتي الجنوب والغرب . وهذا الخندق محفور في الصخر وعمقه يتراوح بين ٤٨ الى ١١٥ قدماً . وفي قلب الخندق حفرت غرف آبار لحفظ الماء . وكانت هذه القلعة تعد حصناً لا يقهر^(١) . وبالرغم من مرور القرون فان هذه القلعة ، مثل اختيها في الشمال ، حصن الاكراد والمرقب ، لا تزال قائمة على هضبتها تشرف على ما حولها من اودية وتلال باباء وشمم . فلا غرو اذا كانت الحكومتان اللبنانية والسورية ترصدان كل سنة في ميزانيتها مبلغاً من المال لترميم هذه الآثار وحفظها ، فانها من الامور التي تجذب الى هذه الديار السياح من الخارج والداخل . وهناك قلعة اخرى بنيت على قمة عند سفح جبل الشيخ ، واسمها قلعة الصببية لتحمي هذا المضيق من الضفة الشرقية . وهذه القلعة واقعة الان ضمن الاراضي السورية . هذه القلعة هي قلعة بانياس وتسميها العامة قلعة النمرود . ويعود زمن بنائها الى ما قبل مجيء الصليبيين . وفي عام ١١٢٦ وهبها طغتكين الى جماعة الاسماعيلية (الحشاشين) . وبعد مضي اربع سنوات استولى عليها الافرنج ورممها الملك فولك . ويظهر من بناء واجهة القلعة انها بنيت مرة بعد اخرى على "ممر" القرون . ومن جهتها الغربية يستطيع المرء ان يشرف على مناظر رائعة تطل على بحيرة الحولة والتلال عبر نهر الاردن .

تقع الى جنوبي قلعة الشقيف والى شرقي صور قلعة تبين التي لم يبق منها سوى آثار . وقد بناها حاكم طبرية حوالي ١١٠٤ بقصد عزل مدينة صور^(٢) . وسميها Le Toron^(٣) . وفي القرن الثامن عشر أعاد ظاهر العمر ، الناصر البدوي ، بناءها ورممها وجعل منها حصناً له . والى شمالي قلعة الشقيف على بعد بضعة اميال يقع

١ - من اراد المزيد من المعرفة حول هذه القلعة فليراجع :

G. Rey, *Études sur les monuments de l'architecture militaires des Croisés en Syrie* (Paris, 1871), pp. 127 et seq.; Camille Enlart, *Les monuments des Croisés*, vol. II (Paris, 1928) pp. 42 - 3; *Les Guides bleus: Syrie - Palestine* (Paris, 1932) pp. 415 - 19 .

٢ - William of Tyre, vol. I, p. 469; E. Rey, *Les Colonies Franques de Syrie* (Paris, 1883), pp. 499 - 500 .

٣ - اي التلة المنزلة . اما لفظة " تبين " فارامية : تفنيس وهي اسم الموقع القديم . (ولكن

راجع فريجة : اسماء المدن ص ٧٨ تجد رأياً آخر) راجع ايضاً : Abel, vol. I, p. 309 .

شقيف تيرون^(١) كما سماه جغرافيو العرب الرحالة وقلعة نبحا كما تعرف الآن .
وقد وهب حاكم صيدا وصاحب قلعة الشقيف عام ١٢٥٧ قلعة نبحا وغيرها من
القلاع الجبلية الى الفرسان التيوتون^(٢) . والى هذه القلعة التجأ الامير فخر الدين
الثاني واختبأ في مغارة فيها مخفورة في الصخر تحتوي على ثلاث غرف . وقد
حاصرها الاتراك مدة شهرين قبل ان استسلم اليهم . واعلى قلعة (بالنسبة الى
موقعها) بناها الصليبيون قلعة المنيطرة (واسمها الافرنجي Le Monestre) بالقرب
من افقا . وقد شيدت هناك لحراسة المعبر الجبلي الذي يربط بين جبيل وبعبك .
وقد كانت هذه القلعة حصناً عربياً ، غير ان طغتجين تنازل عنه للفرنجة
عام ١١٠٩^(٣) .

وعلى لسان مرتفع داخل في البحر بين البترون وطرابلس تقع قلعة المسيلحة
التي لم يبق منها سوى آثار ولا يزال الغموض يكتنف اصلها وتاريخ بنائها . اما
اسمها الحالي فعربي ، وهو تصغير « مسلحة » اي مكان للأسلحة . وفن العمارة فيها
عربي ايضاً كما هو في قلعة شيزر على العاصي وقلعة مصيف في جبال النصيرية^(٤) .
ولكن هذه القلعة لم يرد لها ذكر في المصادر العربية او اللاتينية ، ولم يعثر فيها
على نقوش كتابية نستطيع معها ان نعلم شيئاً راهناً عن تاريخها . والغريب انه بالرغم
من سهولة الوصول اليها فانها من بين القلاع اللبنانية القليلة المغمورة التي نجعل
الكثير عنها . اما جدرانها الخارجية المبنية بالحجارة الرملية الخشنة الناتئة فلا تزال
قائمة لم يتطرق اليها الخراب . وقد عزا دي لاروك^(٥) (De La Roque) ، الذي
زار المسيلحة في اوائل القرن الثامن عشر ، بناءها الى الامير فخر الدين الثاني .
ولكننا نرجح ان بناء القلعة يعود الى زمن يسبق زمن فخر الدين . اما

١ — اما وليم الصوري ، مجلد ٢ ، ص ٣١٢ فانه يسميها ، عند كلامه عنها ، كهف صور
Cavae de Tyrum ونرجح ان التسمية العربية «شقيف تيرون» انما هو ترجمة للتسمية اللاتينية .
Cf. Stevenson, p. 190, note 2, p. 337 .

٢ — Rey, *Études sur les monuments*, p. 280; do. *Les colonies franques*, p. 513 .

٣ — سبط ابن الجوزي في : *Recueil : orientaux*, vol. III, p. 537

٤ — واذا اراد القارىء المزيد فعليه ان يراجع .

Van Berchem and Fatio, pp. 113 - 16 .

بوركهارت^(١) الذي زارها بعد مضي قرن على زيارة دي لاروك فيقول انها كانت يوماً من الايام في ايدي المتاولة .

ردة العمل الاسلامية : زنكي

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يعززون مراكزهم باقامة القلاع والحصون كان العالم الاسلامي يستفيق . ولا شك في ان الصليبيين اطمأنوا الى مناعة قلاعهم وحصونهم كما اطمأن الفرنسيون في الازمنة الحديثة الى مناعة خط ماجينو . ولكن هذه العقلية التي تستكين بفعل الاعتماد على الحصون لا تعتم طويلا حتى تدرك مبلغ الخطر . واول اشارة لهذا الخطر انبعثت من الموصل . بعثها اتابك تركي ازرق العينين اسمه عماد الدين زنكي . وقد كان زنكي مولى لاحد السلاجقة ، ولكنه وفق الى الاستيلاء على الموصل ، ومن الموصل تقدم لغزو سورية . فانه في عام ١١٢٨ استولى على مدينة حلب ، وفي السنوات التالية احتل حماه وحمص وبلبك . اما حامية بعلبك التي كانت متمركزة في قلعتها فقد ابدت مقاومة ضارية . ولكنه اخضعها واعمل السيف في جنودها وصلب وعذب عدداً كبيراً منهم بالرغم من انه قطع لهم عهد امان^(٢) فكان عمله هذا عبرة قاسية لمن كانت تخوله نفسه المقاومة سواء اكان من النصارى ام من المسلمين . وقد كان من الضروري ان توحد البلاد قبل الشروع بمحاربة الصليبيين . وقد بدأت عملية التوحيد بضم شمالي سورية وشمالي العراق تحت قيادة واحدة . اما امارة ايدسا فقد كانت تقع بين البلدين . وفي عام ١١٤٤ هاجم زنكي هذه الامارة اللاتينية ، وبعد حصار دام اربعة اسابيع سقطت ايدسا فانتزعها المسلمون من يد جوسلين الثاني ، فكانت اول امارة لاتينية اسسها الفرنج واول مملكة لاتينية تقسع في ايدي المسلمين . فكان سقوطها بداية النهاية بالرغم من ان النهاية كانت لا تزال بعيدة يعترضها كثير من التضحيات . غير ان الامر الهام هو ان الهجوم المنظم العنيف كان قد بدأ ، وكان بطل هذا الهجوم زنكي ، فانه كان اول من سدد الضربات القاسية المؤلمة ، تلك الضربات

١ — p. 178 . اما الاسم هنا فانه محرف .

٢ — جمال الدين بن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، طبعة جمال الدين بن الشيال (القاهرة ١٩٥٣) ص ٨٦ . ابن القلانسي ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

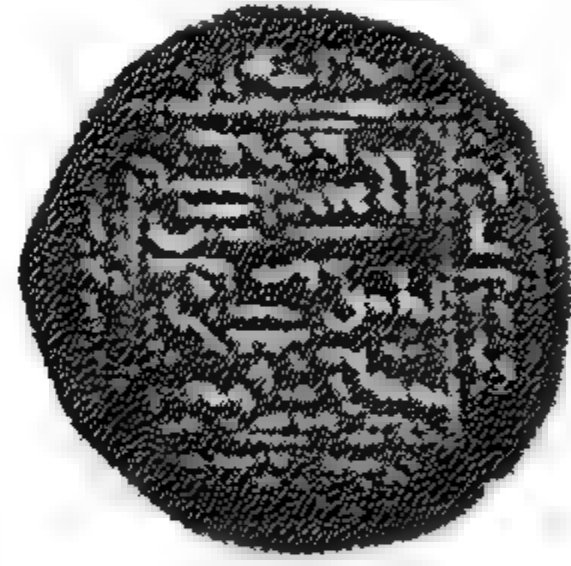
التي استمر بها نور الدين وزاد في حدتها وعنفها صلاح الدين ثم بيبرس وخلفاؤه من المماليك الى ان جلا آخر جندي من جنود الفرنجة عن هذه البلاد .

وفي عام ١١٤٦ تسلم قيادة المسلمين ابن زنكي وخليفته نور الدين محمود . واول انتصار عسكري باهر احرزه نور الدين كان استيلاءه على دمشق التي كان عليها احد اتباع طغتكين والذي كان قد قاوم الحصار الذي كان قد ضربه زنكي على مدينته بشدة^(١) . ولقد كان سقوط دمشق في ايدي المسلمين بمثابة ازالة الحاجز الاخير الذي كان يفصل مملكة نور الدين وبين المملكة اللاتينية ، واصبحت البلاد الواقعة في ايدي المسلمين تمتد من اعالي دجلة شمالا الى القرب من منابع نهر الاردن جنوباً . وتجب الاشارة الى ان دمشق ، قبل ان تسقط في يد نور الدين ، ظلت تقيم العلاقات الطيبة مع القدس ، واحياناً كانت تتحالف معها ضد الدول الاسلامية^(٢) . ولم تنفرد دمشق بهذه السياسة وحدها بل ان مدناً اسلامية اخرى في حوران وفلسطين ، مثل صرخد (صلخد الحالية) وبصرى وبانياس التي كانت في ايدي الاسماعيليين ، فانها كانت في بعض الاحيان تتطلب العون من الفرنجة ، وكان الفرنجة يلبون طلبها هذا^(٣) . وكانت قبائل البدو من الصحراء السورية مثل قبيلة بني فضل الطائية تحارب احياناً الى جانب الفرنجة واحياناً اخرى الى جانب الفاطميين ضدهم . وكذلك كان جيش المملكة اللاتينية في بيت المقدس يضم ، الى جانب الفرنجة فيه ، كتيبة من الفرسان المسلمين الذين كانوا يطلقون عليهم اسم Turcopuli اي ابناء الاتراك ، وكتيبة من المشاة الارمن واخرى من حملة الاقواس الموارنة^(٤) .

-
- ١ - ابن الاثير ، المجلد الحادي عشر ص ١٣٠ - ١٣١ .
 - ٢ - ابن القلانسي (وقد كان يحتل مركزاً حكومياً سامياً في دمشق في هذه الفترة التي نحن بصددتها) ص ٣٠٨ - ٣٠٩ : William of Tyre, vol. II, pp. 76-7; 147-8; 224.
 - ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، المجلد الاول (القاهرة ١٢٨٧) ص ٧٧ .
 - ٣ - ابن القلانسي ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ . ابو الفداء ، المجلد الثالث ، ص ٢ - ٣ . ابن خلدون ، المجلد السادس ص ٦ وما يليها .
 - ٤ - Dib, p. 94; cf. Jacques de Vitry, *The History of Jerusalem*, tr. Aubrey Stewart (London, 1896), p. 79 .

صلاح الدين

اما البطل الثالث في الحروب الصليبية ، واعظمهم شوكة وأشهرهم اسماً ، فقد كان صلاح الدين الذي بدأ حياته العسكرية في خدمة نور الدين ، ثم خلفه في الحكم . واسمه الكامل ولقبه : الملك الناصر ، السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب . ولد صلاح الدين في تكريت ، وهي بلدة تقع على دجلة ، سنة ١١٣٨ . وكان والداه كرديين . ولما كان له من العمر سنة واحدة انتقل به والداه الى بعلبك حيث كان ابوه والياً عليها من قبل زنكي . وقد بدا منه في مقتبل عمره ميل للدراسة الدين والفقه . حتى ان مرافقته لعمه اسد الدين شيركوه سنة ١١٦٤ في حملة عسكرية ضد الفاطميين كانت خلافاً لميوله . اذ انه لما سأله عمه أن يلتحق به قال : « كأنما قلبي اصيب بطعنة خنجر »^(١) . وقد كان نور الدين يعلم ان الخلافة الفاطمية قد شاخت ودب فيها الوهن وان ضعفها هذا يشكل اغراء يدفع بالصليبيين



درهم فضي من عهد صلاح الدين ، وقد ضرب في دمشق ، ٥٧٣ للهجرة

لغزو ديارها . ولكنه كان قد عزم ان يسحق شوكة الصليبيين بعد ان يكون قد رمى بهم بين حجري الرحي : من الشمال ومن الجنوب . فارسل صلاح الدين الى مصر ليحقق ثلاثة اهداف رئيسية : لقلب الخلافة الشيعية الفاطمية واستبدالها بخلافة سنية ، ولتوحيد سورية ومصر تحت صولجان واحد ، ولمتابعة الحرب ضد الصليبيين حتى النهاية . وقد كان تحقيق الهدف الاول ، قلب الخلافة الفاطمية ، اسهل الثلاثة . فانه لما اصبح وزيراً في البلاط الفاطمي اخذ يترقب الفرص لتحقيق غايته . اذ بينما كان الخليفة العاضد - وكان عمره ٢٠ سنة - يعاني سكرة الموت عام ١١٧١ ، امر صلاح الدين ان يذكر الخليفة العباسي في بغداد ، المستضيء ،

١ - ابو شامة الجزء الاول ص ١٥٥ . ابن الاثير الجزء الحادي عشر ص ٢٢٣ و ٢٢٦ . ابو الفداء الجزء الثالث ص ٤٧ .

في صلاة الجمعة عوضاً عن ذكر الخليفة الفاطمي . وقد كانت هذه الخطوة بسيطة وسهلة التحقيق اذ لم يرافقها شيء من المقاومة او الاحتجاج . وبضربة واحدة استطاع صلاح الدين السني وقائد الجيش ان يقضي على اسرة ويقوض اركان خلافة . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل انه قضى على استمرار الانقسام الخطير الذي كان يمزق العالم الاسلامي . ومنذ ذلك الحين اخذت السنة تنتقل من نصر الى نصر .

بعد ثلاث سنوات على هذه الامور توفي نور الدين في دمشق من علة اصابته في حنجرته وهو في السادسة والخمسين من عمره . فخلفه في الحكم احد ابنائه ، اسماعيل - وهو صبي في الحادية عشرة من عمره - وهكذا لم يجد صلاح الدين صعوبة في اغتصاب الملك من هذا الصبي . وقد سارع الخليفة العباسي في بغداد الى اصدار براءة حكم كان صلاح قد طلبها منه يعينه بموجبها حاكماً على مصر وسورية . وقد ضمت القيروان والنوبة والحجاز واليمن وجزء من العراق الشامي الى مملكة صلاح الدين . وهكذا قامت السلطنة الايوبية على انقاض الخلافة الفاطمية في مصر والاتبكة في سورية . فكان على صلاح الدين ، بعد ان استتب له الامر ، ان يحقق الحلم الذي كان يراود نور الدين : حصر الصليبيين والاحاطة بهم من كل جانب تمهيداً للقضاء عليهم . وهكذا ، بعد ان حقق صلاح الدين الهدفين الاولين ، قلب الخلافة الفاطمية وتوحيد مصر وسورية ، شرع في الاستعداد لتحقيق هدفه الثالث طرد الصليبيين .

دقت ساعة الخطر لما التحم جيش المسلمين مع جيش المملكة اللاتينية في الثالث من تموز عام ١١٨٧ في حطين على مقربة من قرون بركان هامد يرتفع ١٧٠٦ اقدام فوق سطح بحيرة الجليل (طبرية) بالقرب من المكان الذي القى فيه السيد المسيح عظمته الشهيرة : العظة على الجبل . هناك احاط جيش المسلمين بجيش الافرنج الذي كان قد انهكه المسير وشدة الحر واجهده العطش ، فامطروهم وابلا من النبال والقذائف الاخرى فحصدوهم حصداً . وقد نجا من هذا الجيش الذي كان يعد ٢٠ الفا عدد قليل . اما الاسرى فقد كان على رأسهم ملك بيت المقدس ، غي دي لوزينيان ، الذي استقبله صلاح الدين استقبالا ينم عن كرم ونبـل . ولكن معاملة صلاح الدين لزميله رجينا لد (ويسميه العرب ارناط) حاكم الكرك الذي كان قد نقض العهد وهاجم الحجاج المسلمين وقوافلهم التجارية التي كانت تمر بالقرب من

حصنه ، والذي كان يُعِدُّ عن حق حملة لمهاجمة المدن المقدسة في الحجاز ، نقول ان صلاح الدين عامله معاملة تختلف عن المعاملة الحسنة التي عامل بها ملك بيت المقدس . فان صلاح الدين كان قد اقسم انه سيقتل بيده ارناط ، عدو الاسلام ، ان ظفر به . ولما جاؤوا بالاسرى المكبلين وعلى رأسهم ملك بيت المقدس أعطوا ماء للشرب . ولكن اعطاءهم الماء لم يكن بمثابة اعطاء امان لهم — كما هي الحال عند العرب في مثل هذه الظروف — فان ارناط الذي كان يتكلم العربية حسناً ، طلب شربة ماء ولكنه لم يُعْطَها ، وقد قتله صلاح الدين بيده^(١)

ولم تقتصر نتائج معركة حطين على القضاء على جيش مملكة بيت المقدس ، انما كان لها نتائج خطيرة في سائر الدويلات اللاتينية التابعة لها . فان طبرية استسلمت . وقد كانت الكونتس زوجة ريموند الثالث ، كونت طرابلس وامير بلاد الجليل ، تدافع عن طبرية باسم زوجها . وقد احسن صلاح الدين معاملتها وردها مكرمة مع حاشيتها واهل بيتها الى مدينة طرابلس . اما جيش المسلمين فقد تابع زحفه نحو عكا حيث استبيحت المدينة للسلب . وقد غنم المسلمون مقادير كبيرة من البضائع والحرائر والمعادن والمجوهرات والاسلحة التي خلفها التجار النصاري وراءهم ووزعوها على الجند . ثم انهم اعدوا بناء حصونها . من هناك ارسلت فرق من الجنود الى نابلس وتبنين واماكن اخرى في شمال فلسطين ولكنها لم تلق مقاومة ما . واخيراً هاجموا يافا واقتحموها وباعوا سكانها من اللاتين رجالا ونساء واطفالا في سوق الرقيق . ويذكر ابن الاثير^(٢) الذي اشرنا اليه مراراً انه ابتاع جارية في حلب . وكان معها طفل عمره سنة واحدة . وهذه الجارية كانت

١ — ابو شامة ، الجزء الثاني ص ٧٥ وما يليها (وهو تقرير شاهد عيان) . ابن الاثير ، الجزء الحادي عشر ص ٣٥٢ — ٣٥٥ . بهاء الدين ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في : *Recueil : orientaux*, vol. III, pp. 39 - 40, 92 - 9; tr. *Saladin : or What Befell Sultan Yusuf* (London, 1897) pp. 42 - 3, 110 - 117 .
عماد الدين الاصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبعة لندبرغ (لندن ١٨٨٨) ص ٢٢—٢٨ .
(وقد كان عماد وبهاء كاتبين عند صلاح الدين وكتبا سيرة حياته) .

Ernoul and Bernard le Trésorier, *Chronique*, ed, M. L. de Mas Latrie (paris, 1871) pp. 172 - 4 .

٢ — الجزء الحادي عشر ص ٣٥٧ .

قد فقدت زوجها واخوتها الستة واختيها . ويذكر لنا قصة جارية اخرى ذهبت مع مولاها الحلبي لزيارة احد اصدقائه ، وشد ما كان عجبها عندما التقت هناك باخت لها ، فضمتها الى صدرها وتعانقتا ووقعتا على الارض مغشياً عليهما . ولم تعرفا شيئاً عما حل بسائر افراد عائلتهما . ويبدو ان روح الجهاد الذي كان قد استولى على النصارى في سبيل استرجاع الارض المقدسة من ايدي المسلمين قد انتقلت الآن الى المعسكر الثاني ، الى المسلمين .

وقد اصبح السبيل الآن ممهداً امام جيوش المسلمين لغزو مدن الساحل اللبناني . ونذكر ان ما تبقى من جيوش الافرنج بعد معركة حطين ارتد منهزماً الى صور . ولما كانت اسوار صور من جهة البر حصينة منيعة ، فقد أثر صلاح الدين ان يتعداها الى صيدا التي استسلمت بدون مقاومة فخربت . اما حاكمها الافرنجي رجينالد فانه لجأ الى الشقيف . وسقطت بيروت في يد المسلمين في السادس من آب . واما جبيل فان حاكمها اشترط في تسليمها ان يُخَلَّى سبيله . وقد تم له ما طلب ، فسلم المدينة . ولم يبق على الشاطئ اللبناني في ايدي الافرنج سوى صور وطرابلس .

اما بيت المقدس فقد استولى عليها المسلمون في اليوم الثاني من شهر تشرين الاول عام ١١٨٧ . وقد لقي اهل المدينة من حسن المعاملة ما لا يقاس بما لاقوه قبل ذلك بثمان وثمانين سنة على ايدي الافرنج لما دخلوا المدينة . وعند نهاية عام ١١٨٩ استرد المسلمون كلا من طرطوس وجبلة واللاذقية وعسقلان وغزة . ولم يتحرشوا باللاذقية بل تركوها وشأنها^(١) . وفي تلك السنة ضرب المسلمون الحصار على قلعة الشقيف الى حيث كان قد لجأ رجينالد صاحب صيدا . وكان هذا الرجل يحسن العربية ، وقد درس آدابها . ولما تمت له مقابلة مع صلاح الدين في خيمته اعجب به صلاح الدين وبحسن حديثه . وقد عرض رجينالد ان يسلم الحصن بعد مضي ثلاثة اشهر ووعده بان يعتنق الاسلام . ولكنه في الواقع استغل الهدنة هذه ليدعم مركزه وليقوي دفاعه . ولما رافقه المسلمون الى

١ - المقريري : كتاب السلوك في معرفة الملوك ، طبعة م . مصطفى زيادة ، الجزء الاول ، القسم الاول (القاهرة ١٩٣٤) ص ٩٩ - ١٠١ . عماد الدين ، ص ١٣٦ وما يليها .

بوابة القلعة أمر الحامية باللغة الفرنسية ان يستعدوا للمقاومة . ولكن لم تنطل الحيلة على المسلمين . فضربوا الحصار على القلعة وارسلوا صاحبها مخفوراً الى دمشق . وفي عام ١١٩٠ استسلمت القلعة^(١) . وكانت حاميتها تتألف من فرسان الهيكل (Templars) او الداوية . وقد سموا بفرسان الهيكل نسبة الى هيكل سليمان حيث انشأوا مقرهم الاول بالقرب من موقع الهيكل في بيت المقدس . وقد تنظمت جمعيتهم هذه حوالي ١١١٩ وكانت غايتها المحافظة على سلامة الحجاج الى الارض المقدسة .

معركة عكا

اثار وقوع بيت المقدس في ايدي المسلمين رد فعل عنيفا في اوروبة وبعث روحاً صليبية جديدة اشترك فيها اعظم ملوك في اوروبة قوة وبأساً : فردريك بربروسا (اي ذو اللحية الحمراء) من المانيا ، وفيليب اوغسطس من فرنسا ، وريكاردوس الاول ، الملقب بقلب الاسد من انكلترا . وهكذا يبدأ فصل جديد في صراع الغرب مع الشرق بطلاه صلاح الدين وريكاردوس . ولقد اختار الافرنج مدينة عكا مسرحاً لتمثيل هذا الفصل من المأساة على انها موقع ممتاز ونقطة انطلاق لاسترداد البلاد المقدسة . فضربوا عليها الحصار من جميع الجهات . وكان يعاون الافرنج هذه المرة اسطول بيزا ، فاحكموا الحصار عليها من جهة البحر . اما فردريك فانه غرق في نهر في آسية الصغرى عندما كان يستحم ، فتشتت جيشه شر تشتت . وقد دام هذا الحصار وما رافقه من معارك كانت تعد من اعنف معارك القرون الوسطى واهمها من ٢٧ آب ١١٨٩ الى ١٢ تموز ١١٩١ . فجاء صلاح الدين على رأس جيش لنجدة حامية المدينة وعسكر وراء جيش الافرنج المحاصر . وكان يتصل بحامية المدينة بواسطة سباحين ينسلون الى المدينة او بواسطة الحمام الزاجل . وقد ارسل من بيروت مركباً محملاً بالقمح واللحم والخبز والبصل وأرسله الى عكا ليخفف من حدة المجاعة فيها . ولكي تنطل الحيلة على اسطول الفرنجة فانه وضع على ظهر المركب خنازير وغير

١ - بهاء الدين . Recueil : orientaux, vol. III, pp. 121 - 2, 129 - 30;
ابو شامة صفحة ١٣٩ - ١٤٠ .

البسة الملاحين المسلمين وطلب اليهم ان يعلقوا على صدورهم شارة الصليب لكي يحسبهم الصليبيون انهم من جماعتهم^(١) . وكان صلاح الدين قد طلب النجدة من



قطعة نقود بيزنطية عليها كتابة عربية يعود تاريخها الى سنة ١٢٥٠ للميلاد ويظهر على وجه منها : إله واحد ، ايمان واحد ، ومعمودية واحدة . وعلى الوجه الآخر : الآب والابن والروح القدس إله واحد .

الخليفة العباسي الناصر في بغداد ، ولكن حظه من هذه النجدة لم يكن باحسن من حظ ابن عمار صاحب طرابلس الذي كان قد طلب العون ايضاً من الخليفة العباسي - وكان آنذاك ابا الخليفة الناصر . واخيراً استسلمت المدينة ، فعدل صلاح الدين عن خطة الهجوم واتخذ الدفاع خطة جديدة له . اما الافرنج فانهم استعادوا عسقلان واعادوا تحصين يافا واحتلوا الرملة . وبعد ذلك استعدوا للانقضاض على بيت المقدس . وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ١١٩٢ عقد الصلح بين المسلمين والافرنج على ان يبقى الساحل من صور الى الجنوب في ايدي الافرنج ، وان تكون داخلية البلاد في ايدي المسلمين شرط ان يُسمَح للنصارى بالحج الى بيت المقدس^(٢) اي ان فلسطين قسمت الى منطقتين على غرار ما جرى سنة ١٩٤٨ . وقد عاد ريكاردوس الى وطنه ، واما صلاح الدين فانه توفي اثر حتمى اصابته في العام التالي ، وكان له من العمر ٥٥ عاماً ، ولا يزال اسمه في التاريخ والاسطورة على انه يمثل القروسية العربية في اسمى معانيها . وقبره قرب الجامع الاموي في دمشق محجة يؤمها الناس .

١ - بهاء الدين في *Recueil: orientaux*, vol. III, p. 178. وابو شامة ، الجزء الثاني ص ١٦٠ - ١٦١ .

٢ - بهاء الدين في : *Recueil: orientaux*, vol. III, pp. 320 - 2 .

خلفاء صلاح الدين

ولكن ما ان توفي صلاح الدين حتى تجزأت تلك المملكة المترامية الاطراف التي انشأها بقوة السلاح وتقاسمها ابناءؤه واخوته وابناء عمومته . فان احد اولاده استولى على حلب ، وآخر على دمشق وثالث على القاهرة . وفي وسط هذه الفوضى يبرز اخوه الاصغر الملك العادل سيف الدين (١١٩٩ - ١٢١٨) كوريث جدير بالحكم . فانه استولى على مصر وعلى اكثر المناطق السورية . وهو الملك الذي يذكره مؤرخو الحروب الصليبية باسم Saphadine . وكان ريكاردوس قد عرض عليه ان يزوجه اخته (اخت ريكاردوس) وان يهبها عكا وبيت المقدس ، وبذلك يتم الصلح بين المسلمين والنصارى . والواقع ان الملك العادل كان يؤمن بالتعايش السلمي : علاقات ودية مع الافرنج وعلاقات تجارية مع اوطانهم في اوروبة . وقد نشأت بعد الملك العادل دويلات ايوبية متعددة في مصر ودمشق والعراق ، كما قامت دويلات ايوبية اخرى في حماة^(١) وحمص واليمن . وكان طبعياً ان تقع الحروب بين هذه الدويلات ، فكان من جراء ذلك ان استعاد الافرنج مقاطعة بعد اخرى . فقد استعادوا بيروت عام ١١٩٧^(٢) بعد ان ظلت في ايدي المسلمين مدة عشر سنوات . وفي عام ١١٩٨ وقعت جبيل في ايدي الافرنج وتبنين وبيت المقدس (١٢٢٩) ويافا والناصرية ١٢٠٤ وصيدا وصفد ١٢٤٠ وطبرية ١٢٤٤ . اما قلعة الشقيف وصيدا وصفد فان الملك الصالح اسماعيل الايوبي ، سلطان دمشق ، قدمها الى الافرنج على ان يحميه الافرنج من شر نسيبه الملك الصالح ايوب سلطان مصر الذي كان قد عزله واستولى على دمشق عاصمة ملكه . وهكذا تخلى المسلمون عن وحدتهم السياسية وتماسكهم ضد عدوهم المشترك وفقدوا روح الجهاد الذي الهب ، وؤسس دولتهم ، صلاح الدين .

١ - وقد كان المؤرخ الجغرافي ابو الفداء احد افراد هذه الاسرة الايوبية . وقد اشرنا اليه مراراً عديدة في هذا المؤلف .

٢ - يقول صالح ابن يحيى ص ٢٣ ، ٢٥ ان حاكم بيروت كان في ذلك الوقت اسامة ابن منقذ صاحب قلعة شيزر وصديق صلاح الدين ومؤلف كتاب الاعتبار (الذي اشرنا اليه مراراً) . وقد وصفه صالح على انه جبان سلم المدينة ، مدينة بيروت ، بدون مقاومة . ولكن الصحيح ان اسامة كان قد توفي قبل هذا التاريخ بعشر سنوات .

ولم تكن حالة الافرنج من هذه الناحية افضل من حالة المسلمين . فقد كان التنافس عنيفاً بين جنوا والبندقية والتحاسد شديداً بين فرسان الهيكل او الداوية والاسبتارية . اما زعمائهم فقد كانوا على عداء مستحكم فيما بينهم مما وقف سداً مانعاً في وجه الاستفادة من الحالة التي وقع فيها المسلمون . اما الاسبتارية ، او فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس فانهم كانوا هيئة غرضها تأسيس الفنادق والخوانات لراحة الحجاج الى بيت المقدس لا تأسيس المستشفيات كما دعوا فيما بعد (Hospitallers) . ولكنهم انقلبوا بعد ذلك الى جنود يتعاطون مهنة الحرب . وقد كان نظام الداوية والاسبتارية نظام رهبنة . ولكن هذا لم يحل دون وقوع المنازعات بينهم ولم يمنع ان يلجأ احدهم الى طلب العون من المسلمين تماماً كما كان يفعل المسلمون في منازعاتهم وحروبهم الداخلية عندما كانوا يستنجدون بالصليبيين لمحاربة بعضهم بعضاً .

في منتصف القرن الثالث عشر ظهر في فرنسة الملك لويس التاسع الذي اعاد الى الروح الصليبية نشاطها وحيويتها . كان هذا الملك مثالياً يعيش في عالم بعيد عن الواقع . فانه أهمل شؤون مملكته وتركها نهياً للمفسدين ، وحمل شارة الصليب وقرر ان يلتحق بالصليبيين . وقد ادرك لويس ان مصر آنذاك ، هي قلب العالم الاسلامي ومركز الثقل فيه . فصمم على ان يهاجم مصر اولاً . ولكنه اخطأ التقدير ومني في مصر بهزيمة نكراء ووقع هو نفسه في الاسر . وبعد ان افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال جاء الارض المقدسة في شهر شباط عام ١٢٥٠ واقام ٤ سنوات في صيدا التي اعاد بناءها ورمم حصونها . وجعل مقره في القلعة التي كان الصليبيون قد بنوها من قبل والتي عرفت فيما بعد بقصر سانت لويس وتعرف الآن بقلعة المزة . وكذلك اعاد الملك لويس بناء حصون قيسارية ويافا .^(١) وما تبقى لديه من وقت قضاه في المفاوضات والمداولات . وكان جيشه يعد ١٤٠٠ فارس . ولما كان في عكا استقبل وفداً من قبل زعيم الحشاشين في مصيف الذي حمل معه هدية للملك لويس : ادوات للزينة وفيلة وزرافة من البلور وكهرمان ولعبة نرد وشطرنج وخاتماً وقيصاً . اما الخاتم فيرمز الى اتحادهما وتحالفهما ، واما القميص فترمز الى ان ملك فرنسة قريب الى شخص زعيم الحشاشين قرب القميص من الجسم . وقد بعث

لويس بهدية الى زعيم الحشاشين: مجوهرات وقماش قرمزي اللون واقداح من ذهب ولجام من فضة .^(١) ولم يكن لويس فارساً كريماً ومحارباً شجاعاً ورجلاً صبوراً في الشدائد وحسب ، وانما كان الى جانب هذه الفضائل رجلاً مسيحياً تقياً ورعاً يصوم ويصلي . حتى انه كان في اسفاره يصطحب كهنة يرتلون له الترانيم الدينية وهم يحيطون به على ظهور الجياد . وكان يمثل احسن ما في زعماء الصليبيين من خلق وتدين . وقد طُوب قديساً عام ١٢٩٧ ولا يزال اسمه حياً في التاريخ الاوروبي على انه كان يمثل الملك المثالي في القرون المتوسطة .

المالِكُ يخلفون الايوبيين

تميز منتصف القرن الثالث عشر بحادثين على غاية من الخطورة : قيام دولة المالِك الذين خلفوا صلاح الدين واستولوا على المملكة التي انشأها ، وغزوة المغول التي عرضت المنطقة باجمعها الى فترة خراب وفوضى .

كان المالِك (ومفردها مملوك ومعناه العبد والمولى) جماعة عسكرية ينتمي افرادها الى الاتراك او المغول او الشركس استولت على الحكم من سنة ١٢٥٠ الى مقدم الاتراك العثمانيين في عام ١٥١٧ . ولا يعرف شيء عن نسب هؤلاء المالِك ، لانهم كانوا يتناعون في سوق النخاسة في البلاد الروسية او القفقازية . واول من نظم امرهم الملك الصالح ايوب (١٢٤٠ ، و ١٢٤٥ - ١٢٤٩) اذ ابتاع جماعة منهم ليكونوا بمثابة حرس له . وينقسمون الى جماعتين : المالِك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٩٠) نسبة الى مقرهم الذي كان على جزيرة صغيرة في نهر النيل (والعامة في مصر تسمى النيل بجرأ) ، والمالِك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) نسبة الى ان مقرهم كان ابراج القلعة التي بناها صلاح الدين في القاهرة . وكان اول من استولى على الحكم منهم مملوك تركي اسمه عز الدين ايبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) الذي كان قد تزوج شجر الدر ارملة سيده الملك الصالح ، التي استولت على الحكم الى فترة قصيرة بعد موت زوجها .

غزوة المغول

كانت حملات جنكيزخان بدء سلسلة من هجمات المغوليين على العالم الاسلامي ، تلك الهجمات التي احدثت فيه من الدمار والتخريب ما لم يزل اثره بعد . كان جنكيزخان من اعظم بناء الامبراطوريات في العالم . فانه ، قبل ان ادركته الوفاة عام ١٢٢٧ ، كان قد اسس امبراطورية تمتد من اطراف الصين الشرقية الى ايران ووادي السند (الاندس) في الهند . وقد كانت جحافل المغولية التي كانت تغير المرة بعد الاخرى على الممالك الاسلامية تنشر القتل والخراب انى نزلت . وقد ظل العالم الاسلامي يعاني الامرين من اثر الضربات التي انزلها به المغول امداً طويلاً . وقد تابع هولاءغو ، حفيده ، الزحف غرباً من حيث انتهى اليه جنكيزخان . فانه بعد ان قضى على قلعة الموت ، حصن الحشاشين المنيع ، وبعد ان خرب بغداد وقضى على الخلافة العباسية ، ظهر فجأة امام اسوار حلب ، فلما فتحها قتل من اهلها ٥٠ الف نسمة . ثم جاء دور حماة فنالت نصيبها . وخرّب بعلبك . واما صيدا فانه خلفها اكواماً من تراب . ثم انه بعث باحد قواده الى دمشق ، اما هو فقفل راجعاً الى ايران بسبب مقتل اخيه هناك . والحقت انطاكية اللاتينية بالامبراطورية المغولية . فان البابا لويس التاسع اعتبر التحالف بين الافرنج والمغول امراً مرغوباً فيه لمواجهة عدوهم المشترك : الاسلام . وقام قائد مغولي آخر ، وكان نصرانياً اسمه كيتبوغا ، بالتوغل جنوباً الى ان جاء فلسطين . وقد يسأل احدنا عن كون هذا القائد المغولي نصرانياً فنقول ان المبشرين النسطوريين ادخلوا المسيحية الى الصين قبل هذه الفترة التي نحن بصدها بزمان طويل . ولما اقترب المغول من فلسطين كان سلطان مصر المملوك قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠) فاتجه شمالاً ليدفع عن مصر غائلة الاجتياح المغولي . وكان قائده في المقدمة بيبرس - وهو مولى مغولي من موالي الملك الصالح . وهذا هو الذي انتصر انتصاراً باهراً على المغول في معركة عين جالوت (عين جليات الجبار في اسفار العهد القديم) بالقرب من الناصرة . وقد تابع مطاردة الجيش المغولي المنهزم الى ان جلاه عن سورية . وبينما كان بيبرس في طريقه راجعاً الى مصر منتصراً ظافراً طعن مولاه قطز خلصة بنحجر في عنقه واغتصب الملك لنفسه .

بيبرس بطل مقاومة الصليبيين

كان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) الرابع بين المماليك البحرين. وهو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك . ولد بيبرس في كيتشاك في اواسط آسية ، وبيع فتى في سوق النخاسة في دمشق بثمان مئة درهم . ولكن سيده رده الى البائع لانه اكتشف بعض العاهة في احدى عينيه الزرقاوين . فاشتراه الملك الصالح في حماة . ولما وفق بيبرس في وقف الهجوم المغولي وردّه شرقاً عمد الى توحيد سورية التي حررها مع مصر . عندها اصبح في وضع يستطيع معه ان يعدّ العدة لمهاجمة الصليبيين . فأخذ يضرب الحصار على المدينة تلو الاخرى الى ان اخضع جميع المواقع الحصينة التي كانت بيد الصليبيين . وفّت في عّضد الصليبيين فلم يتمكنوا من تأليف جيش تبلغ قوته حدّاً يستطيع معها ان يقف في وجه المماليك . ومنظمتا الهيكلين والداوية القابعتان في قلاعهما الحصينة ، التي كانت للفرنج بمثابة العمود الفقري ، لم تكونا لتستطيعا الوقوف في وجه هذا البطل الجديد خليفة صلاح الدين . وهكذا سقطت هذه القلاع والحصون الواحدة تلو الاخرى . ففي عام ١٢٦٣ سقطت الكرك وهدّمت ، وفي عام ١٢٦٥ احتلت قوى بيبرس قيسارية وارسوف ، ثم صفد في ١٢٦٦ . أما يافا وشقيف عرنون فقد سقطتا عام ١٢٦٨ اما ارسوف وهو الحصن الذي تحتله الداوية ، والشقيف ، وهو مركز الهيكلين ، فقد كانا الحصنين الوحيدين اللذين استطاعا ان يقاوما حصاراً دام خمسة اسابيع . وقد سلّط بيبرس على قلعة الشقيف ٢٦ منجنيقاً^(١) . وفي عام ١٢٦٨ سقطت انطاكية ، اقدم دولة لاتينية اسسها الافرنج . وقد قتل من سكانها ومن افراد حاميتها ١٦ الف نسمة . ويقال ان مئة الف نسمة اخرى سيقّت الى الاسر ، فبيع الفتى بثنائي عشر درهماً ، والفتاة بخمسة . وقد غنم الفاتحون كثيراً حتى انهم كانوا يكيلون الدراهم للجنود بالاقداح . اما المدينة نفسها بقلعها وكنائسها المشهورة فقد احرقت ولم يبق لها قائمة بعد ذلك^(٢) . وفي عام ١٢٧١ سقط حصن الاكراد ، القلعة الحصينة العنيدة التي كانت

١ - المقرزي : سلوك ، الجزء الاول ، القسم الثاني ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

٢ - ابو الفداء ، الجزء الرابع ص ٤ - ٥ . المقرزي : سلوك ، الجزء الاول والقسم الثاني

ص ٥٦٧ - ٥٦٨ . ابن العبري ص ٥٠٠ .

تحتلها الداوية بعد حصار دام خمسة عشر يوماً . وكانت تقع في كونتية طرابلس . وكانت تسع الف رجل محارب في وقت واحد . وكذلك سقطت مصياف وغيرها من القلاع التابعة لفرقة الحشاشين الذين كانوا احناف الداوية . وقد سارعت كل من طرطوس ، حصن الهيكليين الرئيسي ، وقلعة المرقب^(١) التي كانت تحتلها جماعة الداوية لعقد صلح مدته عشر سنين وعشرة اشهر .

قلاوون

كان السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) جديراً بان يخلف بيبرس . فانه لم يكن باقل منه قدرة وشجاعة وحماساً . وقد ولد قلاوون في كبتشاك وهي البلدة ذاتها التي ولد فيها بيبرس . ومثل بيبرس كان قلاوون مولى في خدمة الملك الصالح . وكان يلقب بالآلفي ، ذلك لان ثمنه في سوق النخاسين كان الف دينار . كان قلاوون وصياً على ابن بيبرس الذي تسم العرش وهو ابن سبع سنين . ولكنه لم يعتم ان خلعه واقام نفسه سلطاناً مكانه . وفي عام ١٢٨٢ جدد قلاوون معاهدة الهدنة بين المسلمين وصاحب طرطوس لمدة عشرين سنوات وعشرة اشهر . وبعد ثلاث سنوات عقد معاهدة هدنة مع اميرة صور التي كانت تحكم بيروت ايضاً^(٢) ولم تكن بنود هذه المعاهدة تختلف عن بنود سابقتها من المعاهدات بما في ذلك البند الخاص الذي يمنع بناء حصون او قلاع اضافية . وفي السنة نفسها (١٢٨٥) ضرب الحصار على قلعة المرقب التي كانت تفاوض المغول الذين استولوا على حلب . وقد دام الحصار ثمانية وعشرين يوماً ولما استسلمت سمح لفرسان حاميتها ان يخرجوا الى طرابلس ومعهم جميع اموالهم المنقولة التي يستطيعون حملها باستثناء السلاح^(٣) . ولا يزال المرء يرى رؤوس النبال وقذائف المنجنيقات في جدران القلعة وابراجها المبنية من الحجارة البركانية السوداء . وكان المؤرخ ابو الفداء^(٤)

١ - المقرئزي : سلوك ، الجزء الأول ، والقسم الثاني ص ٥٩١ - ٥٩٢ .

٢ - المقرئزي (طبعة كاتمر) المجلد الثاني (القسم الثالث) ص ١٧٢ - ١٧٦ ، ١٧٧ -

١٧٨ .

٣ - ابن الفرات ، تاريخ (نشر قسطنطين زريق ونجلا عز الدين) المجلد الرابع (بيروت

١٩٣٩) ص ١٧ - ١٨ .

٤ - الجزء الرابع ص ٢٢ .

الذي اشرنا الى تاريخه مراراً ابن اثني عشرة سنة آنذاك ويظهر انه حضر المعركة . وفي عام ١٢٨٩ هاجم المسلمون طرابلس ودمروها تماماً بعد حصار دام شهراً استخدم فيه الف وخمسة مائة عامل وظيفتهم الهدم والتقويض ، وتسع عشرة آلة من آلات الحصار . وقد لجأ كثير من الهاربين من المدينة الى جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ غير ان السباحين في ساعات الجزر كانوا يسبحون الى الجزيرة ويقتلون اللاجئين . ويقول ابو الفداء ان رائحة اجساد الموتى المتفسخة كانت كريهة جداً لا يستطيع امرؤ ان يطبقها^(١) . وقد هرب بعض سكان طرابلس بجزراً لان اسطول المماليك لم يكن ذا فعالية كبيرة في فرض الحصار عليها من البحر . وبعد ان سقطت طرابلس استرد المسلمون البترون بدون مقاومة تذكر .

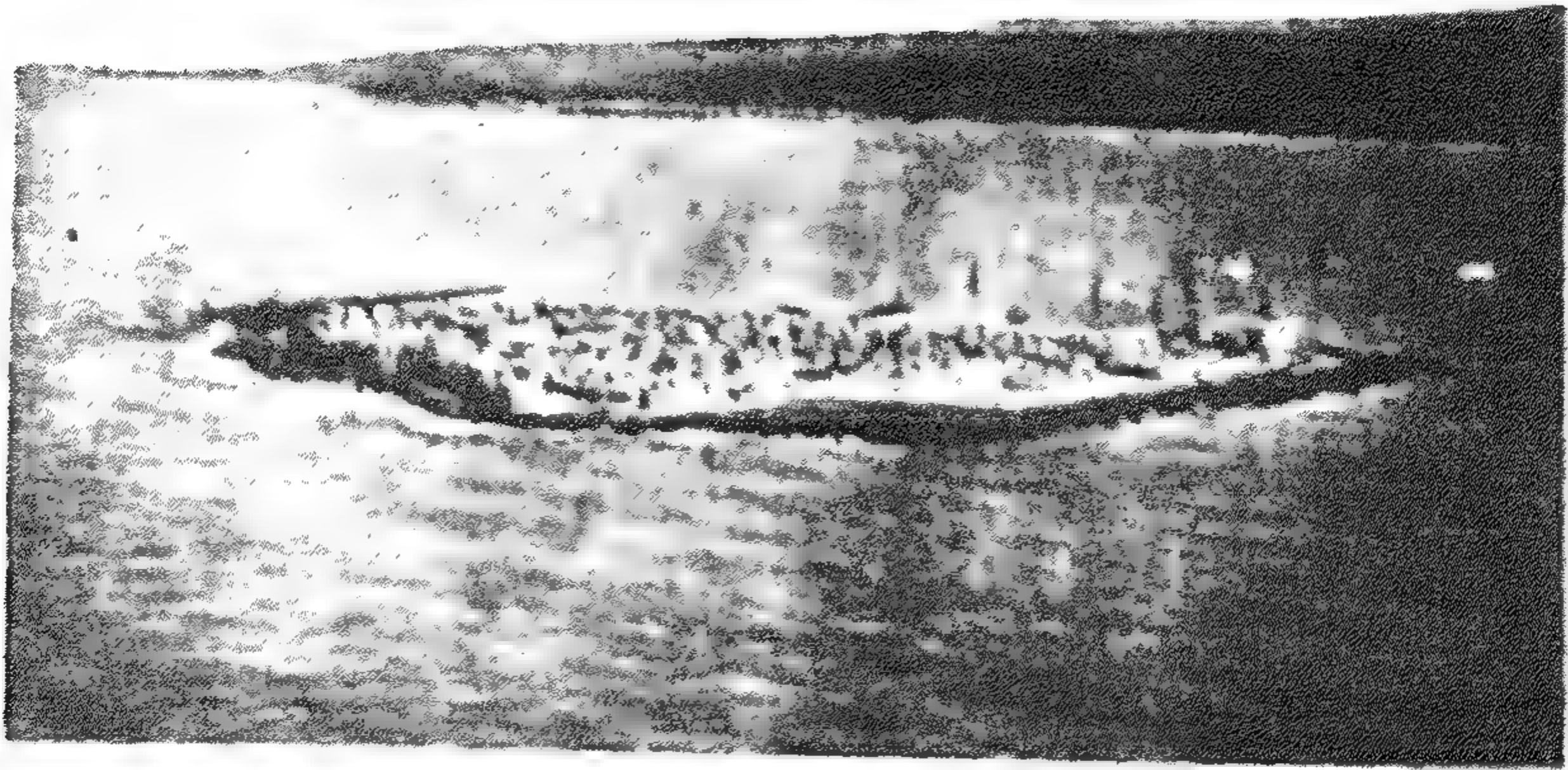
استرداد عكا

لم يبق في يد الافرنج ، بعد سقوط طرابلس ، مركز عسكري ذو شأن سوى عكا . وقد حاصرها السلطان الاشرف (١٢٩٠ - ١٢٩٣) ، ابن قلاوون وخليفته شهراً من الزمن . وفي اليوم الثامن عشر من شهر ايار ١٢٩١ ، اي بعد مرور قرن واحد على استيلاء الافرنج عليها ، هاجمها الجند واستسلمت . وقد استخدم الاشرف في حصارها اثنين وتسعين منجنيقاً . وهذا اكبر عدد من آلات الحصار التي استخدمت ضد اسوار عكا . اما حماتها من فرسان الداوية ، وعددهم قرابة تسعمائة فارس ، فقد قتلوا بعد ان كان السلطان قد امتنهم على انفسهم لتركوا المدينة . وكان الى جانب هؤلاء ما يقرب من خمسة عشر الف راجل في المدينة . وقد وصف لنا ابو الفداء استيلاء المسلمين على عكا ، وكان وصفه وصف شاهد عيان^(٢) . وقد هدمت المدينة وكاد ان يمحي لها كل اثر الى ان اعاد بناءها ظاهر العمر في القرن الثامن عشر . وبسقوط عكا فقدت باقي مدن الساحل التي كانت بيد

١ - ابو الفداء الجزء الرابع ص ٢٤ . تاريخ ابن الفرات الجزء الثامن ص ٨٠ - ٨١ اما الادريسي (طبعة غلد ميستر) ص ١٨ فانه يذكر اربع جزر صغيرة في الميناء . اما الصخور الصغيرة التي نراها في يومنا هذا فلا تستحق اسم جزيرة .

٢ - الجزء الرابع ، ص ٢٥ - ٢٦ . المقرئزي ، سلوك ، الجزء الاول ، والقسم الثالث ، ص ١٠٠٢ - ١٠٠٥ ، in Bongars, « Liber Secretorum », Marinus Sanuto , *Gesta dei per Francos* (Hanau, 1611), vol. II, p. 201 .

الافرنج كل امل بالمحافظة على كيانها . فان حماة صور غادروها في اليوم الذي سقطت فيه عكا . واما صيدا فسقطت في الرابع عشر من تموز . وبعد سبعة ايام استسلمت بيروت . وفي الثالث من آب انطربوس . وقد هجر الفرسان الداوية عثليث (واسم الحصن في اللاتينية Castrum Peregrinorum ويعرف بالافرنسية بـ Château Pèlerin) فدخلها المسلمون وهدموها في اواسط شهر آب^(١) . وكان ذلك آخر موطن قدم للافرنج . وقد عبّر ابو الفداء عن شعور المسلمين



جزيرة ارواد

اذ ذاك بقوله : « وهكذا تحررت سوريا ومدنها الساحلية من الافرنج والحمد لله »^(٢) . اما ارواد^(٣) فقد ظلت في يد الفرسان الداوية مدة احدى عشرة سنة اخرى . وعلى العتبة فوق مدخل القلعة الخربة يرى المرء رسم شعار ممسا يدل على صلتها القديمة بالشعوب اللاتينية . وبسقوط ارواد ينزل الستار على آخر مشهد من المأساة التاريخية التي وقعت بين المسيحية والاسلام .

١ - صالح ص ٤٢ . ابو الفداء ، الجزء الرابع ، ص ٢٦ .

Sanuto, vol. II, pp. 231 seq.

٢ - ابو الفداء ، الجزء الرابع ، ص ٢٧ .

٣ - اثناء الانتداب الافرنسي على سورية ولبنان استعمل الافرنسيون الجزيرة منفى للمبشرين السياسيين .

الفصل الحادي والعشرون

المعارف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين اللبانيين والافرنج

بالرغم من أن الحروب الصليبية كانت غنية في التمثيل الرائع والحوادث المثيرة فإنها كانت حروبا عقيمة هزيلة فيما حققته من نتائج في حقل الفكر والثقافة . فهي لم تقصر في بلوغ غايتها الاساسية ، الاستيلاء على الارض المقدسة ، فحسب ، بل عجزت عن تحقيق شيء ذي قيمة . وان المرء ليستطيع القول ان اثرها في الغرب كان افضل من اثرها في الشرق . فان هذه الحروب فتحت امام الغربيين كوى اطلوا منها على آفاق رحبة بعيدة لا سيما في حقل التجارة والصناعة . اما اثرها في الشرق فقد كان خراباً على طول الشاطئ وحقداً وكرهية بين المسلمين والنصارى.

ما تعلمه الافرنج من الشرق

اما في فنون الحرب فان الافرنج تعلموا صنع اسلحة جديدة ، واتقنوا اساليب جديدة . فقد تعلموا استعمال القوس الذي يشبه الصليب ، واستخدام قذائف محرقة من مختلف المواد الملتهبة ، وصنع الحواجز الجديدة لابواب القلاع والحصون^(١) ، واستعمال الطنبور والنقارة في الجوقة الموسيقية العسكرية ، واستخدام الحمام الزاجل لنقل الرسائل والاعخبار الحربية ، واستعمال النار في اعطاء الاشارات ليلاً . وتعلموا اساليب جديدة في حفر الانفاق للنفاذ الى داخل الحصون ، وفي استخدام آلات الحصار كالمنجنيق . ولكثرة التقائهم بالفرسان من اعدائهم المسلمين فانهم كانوا يلبسون مختلف الشارات والدروع العسكرية واخذوا في حمل الاسلحة الثقيلة الغالية الصنع^(٢) .

١ - ويسمونها في الايطالية saracinesca . وقد كانت هذه الحواجز معروفة عند الرومان قبل ان عرفها العرب .

٢ - Dana C. Munro , *The Kingdom of the Crusades* .
(New York , 1935) , p. 184 .

ويجب ان نذكر بان اوقات السلم بين المسلمين والافرنج كانت اطول من فترات الحرب سواء اكان ذلك شتاء ام صيفاً . وهذه الفترات التي كانت تقع فيها الهدنة اتاحت الفرصة لأهل البلاد والافرنج لان يختلطوا اجتماعياً ويتعاطوا مختلف الاعمال الاقتصادية . فكانت الحروب الصليبية عاملاً في ازدياد وسائل النقل والمواصلات وفي تعميم الانتاج الزراعي ونشر السلع الصناعية الشرقية في السوق الأوروبية . فازداد الطلب عليها ازدياداً كبيراً . وقد شجعت هذه الحروب المشاريع التجارية بين الشرق والغرب ورغبت الحجاج في زيارة الارض المقدسة ، فانسع نطاق التجارة والحج عما كان عليه في الازمنة السابقة . وفي اثناء اقامتهم في الشرق تعلم الافرنج اساليب العيش الشرقي واستخدموا خدماً من ابناء البلاد وممرضات وسائسي خيول . وعلى ممر الايام تعرفوا الى كثير من الغلال ومن مواد الاطعمة الشرقية كالسمسم والخروب والارز والليمون والبرقوق (واصل الكلمة لاتيني) والكرات والعنصل الذي يعرف احياناً بالاسقال (وهي تحريف لكلمة عسقلان ، والفرنجة يسمونه Scallions اي نسبة الى عسقلان) . وصاروا يستمرثون التوابل في اطعمتهم ، واصبحوا يتذوقون استعمال الروائح العطرية والافاويه وغيرها من منتجات المناطق المدارية والشبيهة بذلك . واهم من هذه جميعها مادة السكر وقصبه اللذين تعرفوا اليهما على الشاطئ اللبناني . وقد كانت السهول المحيطة بصور ، مدينة المؤرخ وليم الصوري (توفي حوالي ١١٩٠) الذي اشرنا اليه كثيراً^(١) غنية بزراعة قصب السكر . فان دي فكري^(٢) يقول لنا « انه رأى حقولاً واسعة مزروعة بقصب السكر في هذه النواحي (نواحي صور) وقصب السكر في داخله كثير من العسل » . ولا يزال باستطاعة المرء ان يرى الاطفال على الساحل يقطعون القصب الى عقد صغيرة ويمضغونه . وموطن نبتة قصب السكر الاول وادي نهر الكنج ، ومن هناك ادخلت الى بلاد فارس . وفي القرن السابع ميلادي كانت زراعة قصب السكر زراعة محدودة جداً في مناطق الشرق الادنى . ولكن لما فتح العرب هذه البلدان ازدادت زراعته ازدياداً كبيراً . ولقد عثر في مصر على آنية زجاجية يعود عهدها الى القرن الثامن الميلادي كانت تستعمل مكيالاً للسكر ، وقد

كتب عليها كلمة « سكر » وهذا اقدم دليل كتابي على ورود كلمة سكر في اللغة العربية^(١). وقد كانوا يستعملون السكر اولا كدواء .

وكما ان الافرنج استمرأوا الوان الطعام الشرقي فانهم ايضاً استلطفوا الثياب الشرقية . فان رجالهم اخذوا بلبس السراويل الفضفاضة والثياب الواسعة المتهذلة (التي تخفف من شدة الحر) وصاروا يعتمرون الكوفية وامتنعوا عن حلق لحاهم . وصارت نساؤهم يرتدين الثياب الشرقية ويضعن على وجوههن الحجاب في الامكنة العامة^(٢). وكثيرون منهم كانوا يبعثون بالسجاد الشرقي والستائر الى اوطانهم ، ومنهم من كان يحملها معه عند مغادرته البلاد . وراجت في اوروبة الانسجة والاقشة الشرقية كالدمقس (وهو damask تحريف اسم دمشق) والاطلس والساتان (satin)^(٣) وصار النساجون في اوروبة يقلدون صنعها . وكذلك راجت في الاسواق الاوربية الآنية الخزفية والزجاجية الشرقية التي اشتهرت مدن لبنان الساحلية بصنعها منذ اقدم الازمنة . وكانت المناطق المجاورة لبيروت وطرابلس تُعنى بتربية دود الحرير منذ العهد البيزنطي المتأخر (اواخر القرن السادس الميلادي) . وقد اشتهرت صور بصنع قماش حريري رفيع يعرف بالحرير السندي . اما عكا وبيروت واللاذقية فقد اشتهرت بصنع القماش الحريري السميك المقصب الذي يعرف بالحرير المقصب المسدس الخيطان . كانوا يدخلون في حياكته خيطاناً مذهبة ومفضضة ليستعمل اغطية فخمة للساند ولألبة الكهنة . واشغال التطريز (شغل الابرة) كانت تسير جنباً الى جنب مع صناعة النسيج . والزجاج الملون يعود في اصله الى وحي شرقي . والى جانب السلع والبضائع الوطنية كان الصليبيون يتعرفون ايضاً الى انواع اخرى من البضائع المستوردة الى الشرق الذي عرفوه .

كان من نتائج ازدياد التجارة الدولية وازدهارها اقبال عظيم على النقد المتداول مما ادى الى وضع اقتصاد يقوم على العملة ، وهذا بدوره ادى الى ازدياد في صك النقود والى ازدياد في كمية المتداول منها . وقد كان فرسان الهيكل صيارفة ذلك

١ - George C. Miles, *Early Arabic Glass Weights and Stamps : a Supplement* (New York, 1951), pp. 35,44 .

٢ - ابن جبير ص ٢٢٢ .

٣ - هذه اللفظة ، ساتان satin ، تحريف اسم مدينة في الصين كانت مشهورة بصنع الحرير . وقد سمي العرب المدينة الصينية « زيتونة » ثم حرفها الافرنج الى satin .

العهد . وكذلك اسست القنصليات في المدن الساحلية، واول قنصلية اسست كانت في مدينة عكا حوالي ١١٨٠ وكان القنصل رجلا من مدينة جنوا . اما التفاعل الفكري بين الافرنج والعرب فلم يتم بتلك السرعة والحرية التي تم فيها التفاعل المادي . ومما لا شك فيه ان الحضارة الشرقية كانت على مستوى ارفع من مستوى الحضارة الغربية . غير ان العداء المستحكم بين الشرق والغرب والتعصب الديني والحاجز اللغوي جميع هذه كانت تقف حائلا دون التفاعل الفكري . واذا استثنينا كتاب « كامل الصناعة الطبية » لمؤلفه علي ابن العباس المجوسي (توفي سنة ٩٩٤) - وكان الافرنج يضيفون الى اسمه « القديس » - فاننا لا نعرف كتاباً علمياً عربياً نقل الى اللاتينية ايام الحروب الصليبية . وقد تُرجم هذا الكتاب من العربية الى اللاتينية في مدينة انطاكية ، وقد قام بترجمته رجل ايطالي من مدينة بيزا اسمه اسطفان .

اثر الحروب الصليبية في الشرق : فن العمارة

وبهنا ان نتعرف الى اثر الحروب الصليبية في البلاد التي دارت فيها رحى الحرب . وبرزت هذه الآثار المرئية الملموسة بقايا البروج المنتثرة على طول الساحل السوري اللبناني ، وخرائب القلاع الهائلة القائمة على الهضاب القائمة عند سفوح جبال لبنان ، والكنائس العديدة التي أُحُولَ معظمها الى مساجد وجوامع . وقد حرص بناء هذه القلاع ان يكون بناؤها غملاً فنياً يتشبه مع فن العمارة البيزنطي الشائع في البلاد . وكان بناء الكنائس يتبع الاسلوب الروماني والقوطي المألوف، اما زخرفها فكان يحتذي النماذج البيزنطية . والاقواس ذات الرؤوس الحادة التي نراها في كاتدرائية طرطوس، والتي أتم بناؤها عام ١١٠٢ ، سبقت ظهور اقواس ذات رؤوس مثلها حادة في الغرب، مما يدل على ان الافرنج نقلوا بناء هذا الشكل من الاقواس عن الشرقيين . اما كاتدرائية نوتردام في صور (وقد كان المؤرخ وليم الصوري^(١) رئيساً لاساقفة المدينة من ١١٧٥ الى حوالي ١١٨٥) فقد بُدِءَ ببنائها عام ١١٢٧ على موقع قديم لكنيسة تعود الى القرن الرابع الميلادي ، ولعلها الكنيسة التي كرسها يوسبيوس^(٢) . وبسبب ان صور كانت مدينة كبيرة

Vol. II , p. 411 .

-١-

Enlart , vol. II , p. 353 .

-٢-

جامعة فقد كان اساقفة بيروت وصيدا وعكا وحتى الى البتراء جنوباً يعتبرون كمساعدين لرئيس اساقفة صور . وقد كان في صور كنيسة ثانية كرسيت للقديس مرقس بناها اهل البندقية تقريباً في هذه الفترة من الزمن . وتدل اعمدة الغرانيت ذات اللون الوردي المبعثرة في الخرائب هنا وهناك على انها اخذت من خرائب بناء اقدم عهداً من الكنيسة . وبعد انقضاء مدة تزيد على مئة وستين عاماً على بنائها هجرها الافرنج ثم خربها وهدمها الملك الاشرف مع ما تهدم من المدينة . وتقع بين صور وصيدا خرائب بلدة صرفند ^(١) حيث انشأ الصليبيون مقراً اسقفياً . وهناك كنيسة شيدت على الموقع الذي يقول التقليد ان النبي ايليا كان يسكن فيه : اما اليوم فقد تحولت الكنيسة الى مزار اسلامي للخضر ، والخضر في التقليد الاسلامي هو النبي ايليا ^(٢) . اما في صيدا فان حيطان الكنيسة المستطيلة التي بنتها الاسبتارية وكرستها لشفيعتها القديس يوحنا اصبحت في يومنا هذا جزءاً من الجامع الكبير ، وهو اكبر مسجد في مدينة صيدا . ويعود تاريخ بنائها الى القرن الثالث عشر .

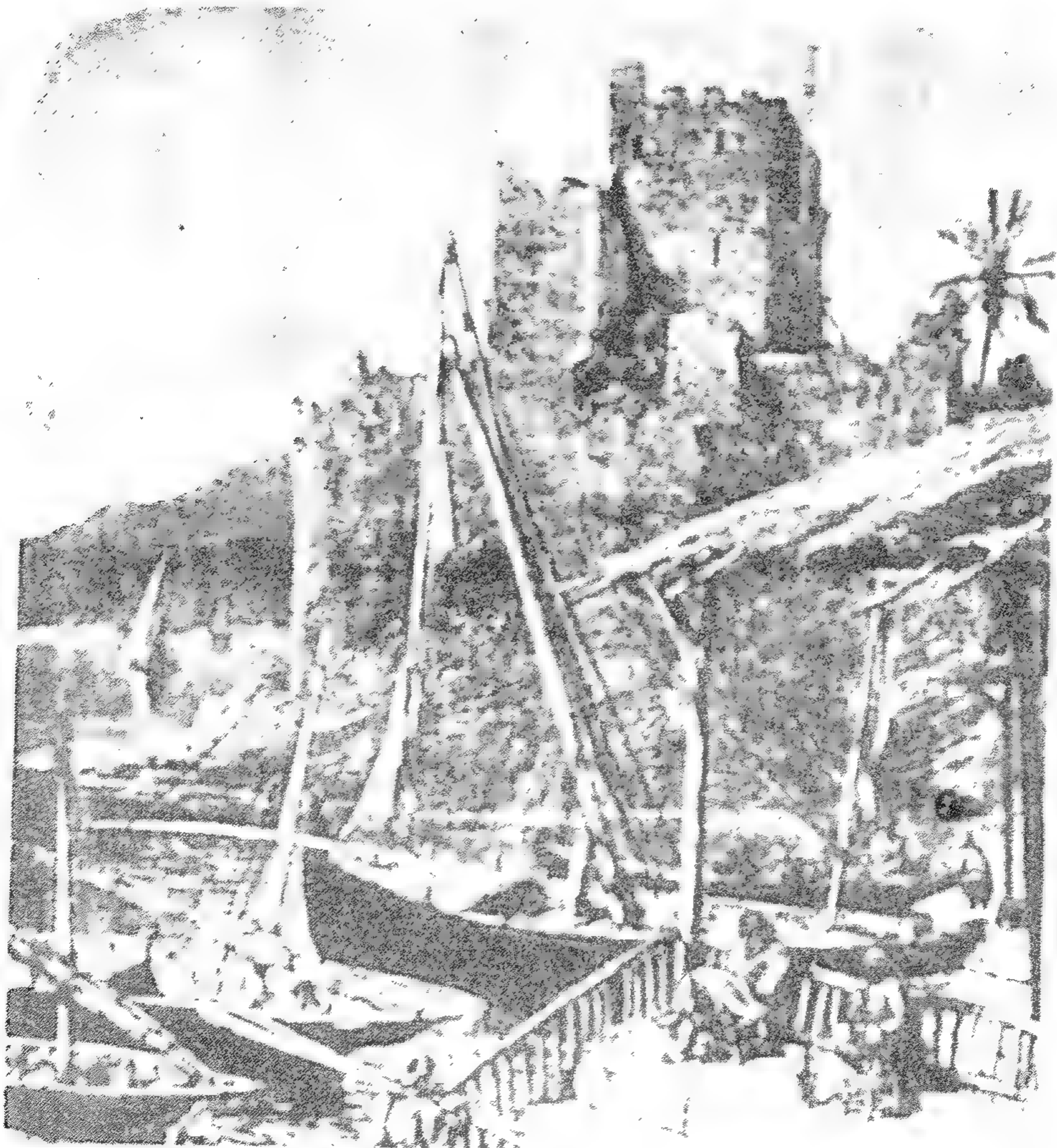
وقد كان لمدينة بيروت ، كما كان لاكثر مدن العصور المتوسطة ، قلعة ظلت قائمة حتى سنة ١٨٥٦ ^(٣) . وقد كان موقع برجها البالغ علوه ثمانين قدماً في ساحة البرج ليومنا هذا . وفي بيروت حي يعرف بالسور (وتسميه العامة عصّور اي على السور) ويشير الاسم دلالة على ان قسماً من سور المدينة كان في هذا الحي . واهم ما تبقى لنا من الآثار الصليبية في بيروت كنيسة يوحنا المعمدان التي بناها الملك بولدوين عام ١١١٠ بعد استيلائه على المدينة بزمان قصير . وقد حولها المسلمون الى جامع يعرف اليوم بالجامع العمري وهو اكبر جامع في العاصمة اللبنانية . وقد كان البناء على غاية من البساطة حسب الشكل الهندسي الروماني . ويبدو ان اعمدة الكنيسة هذه ورؤوسها كانت قبلا اعمدة بزنطية الشكل اخذت من عمارة سابقة . اما الرسوم والزخارف المنحوتة في الحجر فقد غشاها الكلس الذي تطرش به الجدران . وقد يكون موقع هذه الكنيسة (الجامع العمري الآن) موقعاً

١ - وهي صرفة الوارد ذكرها في سفر الملوك الاول ١٧ : ٩ وفي انجيل لوقا ٤ : ٢٦ .

٢ - ويرى بعض المسلمين ان الخضر هو مار جرجس .

٣ - وهذه القلعة صورة حفظها لنا جيب (Jessup) المجلد الاول : في الصفحة مقابل ٢٠ .

قديماً لهيكل فينيقي . ومنذ ان استرد المسلمون بيروت عام ١١٥١ ، اصبحت الكنيسة جامعاً . ويخبرنا المؤرخ صالح ابن يحيى^(١) ان اسلافه حولوا ديراً وكنيسة كانا للربان الفرنسكان في بيروت الى اسطبل للخيل . وهذا المؤرخ صالح (عاش حوالي ١٤٥٠) من بني تنوخ الذين جاءوا لبنان واستقروا شرقي بيروت عند مستهل القرن التاسع . وبعد سنة ١١٤٠ عيّن احد افراد عائلته من بني بخر اميراً على المقاطعة التي كانت تعرف بالغرب (وصاروا يعرفون بامراء الغرب) . واول مرة في التاريخ يرد فيها ذكر قرى صغيرة مثل شمالان (واسمها سرياني معناه



قلعة بيروت التي تعود تاريخها الى العصور الوسطى . قد كان موقعها
قرب الميناء . ، ليس له من اثر الآن .



الجامع العمري في بيروت . وكان سابقاً كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان

التمام والكمال) وعيناب وعينات وسرحول ، من قرى الغرب ، عندما اقطعها الملك بيمرس (١٢٦٢) بني بختر اسلاف صالح ابن يحيى^(١) . وقد انيط عام ١٢٩٤ امر الدفاع عن بيروت في وجه غزوات القرصنة المتكررة بهذه العائلة .

اما الكنيسة الصليبية في جبيل التي يعود زمن بنائها الى عام ١١١٥ فهي اليوم كنيسة مارونية على اسم القديس مار يوحنا^(٢) . والى الشمال في بلدة البترون كنيسة جديدة مسماة بكنيسة مار يعقوب فيها حائط واحد من العهد الصليبي . وقد كان

١ - صالح ابن يحيى ص ٥٦ .

٢ - Max Van Berchem and Edmond Fatio, pp. 110 - 13 .

في اميون ، البلد الارثوذكسي ، الى عهد قريب خرائب كنيسة قديمة تعرف بكنيسة مار فوكاس (St. Phocas) وقد رُممت واعيد بناؤها عام ١٩٢٥ . اما الكنيسة القديمة فيعود تاريخها الى هذه الفترة التي نحن بصدددها ان لم يكن الى عهد اسبق في الزمن^(١) . وعلى هضبة جنوبي طرابلس يقوم دير يعرف بدير البلسند ، وهو احد الابنية الصليبية القليلة التي احتفظت باسمها اللاتيني . وقد بني هذا الدير عام ١١٥٧ للرهبنة التي تعرف بالسسترسية ، وسمي باللاتينية Abbatia Belimontis اي الدير القائم على جبل جميل . وفي القرن السابع عشر استولى عليه اليعاقبة ، وبعد قرن من الزمن انتقلت ملكيته الى ايدي الروم الارثوذكس . اما الرهبان اللاتين الذين كانوا فيه لما استولى قلاوون على طرابلس عام ١٢٨٩ ، فقد قتل منهم من قتل وهرب من هرب^(٢) . اما الجامع الكبير في مدينة طرابلس فيقوم على الموقع ذاته الذي كانت تقوم عليه كاتدرائية صليبية تعرف بكاتدرائية القديسة مريم . وقد شيدت هذه الكاتدرائية في اوائل القرن الثاني عشر ، غير انها خربت في الزلزال الذي وقع عام ١١٧٠ ثم أعيد بناؤها في القرن الثالث عشر ، وعندما وقعت طرابلس في ايدي المسلمين بعد تحريرها من الصليبيين ، هدمت الكاتدرائية وأقيم مكانها جامع هو الجامع الكبير . وقد احتفظت بعض نوافذه وابوابه ببقايا تدل على اصلها الصليبي . وهنالك كنائس ومعابد اخرى عديدة هُدمت ولم يبق لها من اثر .

الاقتصاد

ان الحوافز التي كان مبعثها الحروب الصليبية والتي عملت على تنشيط التجارة والحج الى الاراضي المقدسة تنعكس في الاخبار والروايات التي تحدّثت الينا من الرحالة العرب . وقد اكثر هؤلاء الرحالة الجغرافيون من ذكر صور ، فانها كانت تأتي في المرتبة الثانية بعد عكا في الازدهار والعمران ايام الصليبيين .

Enlart, vol. II, pp. 41, 35 - 7 .

- ١

٢ - راجع لامنس ، تسييح الابصار ، الجزء الاول ص ١٥٤ - ١٥٦ . ومن اراد الاطلاع على معلومات اركيولوجية فعليه ان يراجع :

Camille Enlart in *Syria*, vol. IV, (1923), pp. 1 - 22 .

فان الادريسي^(١) ، الرحالة المغربي كتب عام ١١٥٤ قائلاً : « وفي صور يصنع افخر الزجاج والخزف . ويصنعون فيها ايضاً نوعاً من القماش الابيض لا يعد له قماش آخر من حيث النوع وجودة الصنع ويصدرونه الى جميع البلدان ولا يصنع قماش يضاهيه من حيث جودته في اي من الاقطار الاخرى » .

ان وصف الادريسي لصور صدى يردد عهد الفينيقيين الزاهي . ثم ان الادريسي^(٢) يصف لنا صيدا قائلاً : « انها مدينة كثيرة السكان واسواقها مزدهمة والاسعار فيها منخفضة . وتحيط بها بساتين واشجار ، والماء فيها وافر » . وقد كان وصف الادريسي لصيدا آخر وصف لعمران صيدا وازدهارها . اما الرحالة اليهودي بنيامين التودلي^(٣) الاسباني الذي مر في لبنان بعد مضي خمس عشرة سنة فانه ايضاً يذكر « الزجاج الصوري الشهير . و « الصباغ الارجواني » الذي اشتهرت به هذه « المدينة التجارية التي يؤمها التجار من كل انحاء المعمور » . وقد جاء بنيامين على ذكر الخراب الذي اوقعه الزلزال في مدينة طرابلس ، اذ يظهر ان عدداً من الزلازل وقع في البلاد اثناء القرن الثاني عشر . واشدهذه الزلازل هولا الزلزال الذي وقع عام ١١٥٧ والذي قتل فيه خمس مئة نفس في حلب وعشرة الاف في مدينة حماة . وفي شيزر نجا من اهلها امرأة واحدة وخصي واحد فقط . اما حصن الاكراد وعركة فانها خربا تخريباً يكاد يكون تاماً . كذلك في طرابلس هدمت احياء كثيرة^(٤) . وقد ذكر سائح الماني اسمه ثيودور ش^(٥) (عاش حوالي ١١٧٢) انه وجد مدينة صور احسن المدن الفينيقية من حيث مناعة ابراجها ومتانة اسوارها . وقد وصف بيروت انها مدينة غنية قوية كثيرة السكان . اما الرحالة الاندلسي ، ابن جبير^(٦) ، الذي مر في صور في سنة ١١٨٤ او ١١٨٥ فيقول انه وجدها عظيمة في تحصيناتها التي يضرب بها المثل . ووجد ان اسواقها احسن نظافة من اسواق عكا ، وان « الكفار » يعاملون

١ - الادريسي ، طبعة غلد ميستر ص ١٢ .

٢ - الادريسي ، طبعة غلد ميستر ص ١٥ .

Vol, I, p. 63

Bar Hebraeus, *Chronography*, tr. Ernest A. W. Budge. Vol. — ٤

I (Oxford, 1932) , pp. 284-5.

Theodorich, *Description of the Holy places*, tr. Aubrey — ٥

Stewart (London 1896) pp. 71, 72 - 3 .

٦ - ابن جبير ، ٣٠٤ - ٣٠٦ .

المسلمين بشيء من التسامح. ويصف ابن جبير عرساً افرنجياً حضره مع جماعة من المسلمين. اما ولیم الصوري^(١) فانه يذكر لنا المياه الغزيرة في ضواحي صور (اشارة الى مياه رأس العين) التي تسقي الجنائن الجميلة وتروي بساتين قصب السكر. يقول ولیم الصوري : « يصنعون من عصير هذا القصب مادة اسمها السكر (zachara) وهي مادة من اثنى المواد، وضرورية لصحة الانسان. ويصدر التجار هذه المادة من صور الى اقصى بلدان العالم ». وقد اعجب راهب كرיתי اسمه يوحنا فوكاس (١١٨٥) بمدينة صور فهو يقول : « ان صور تفوق بجمالها سائر المدن الفينيقية . فهي ، مثل طرابلس ، مبنية على شبه جزيرة ، ولكنها اكثر منها اتساعاً وافخم منها دوراً وبنایات ». ^(٢) وقد وجد هذا الراهب ، فوكاس ، بيروت « مدينة كبيرة كثيرة السكان » ^(٣).

التفاعل الثقافي والاجتماعي

اما في الحقل الثقافي الصرف فقد كان اثر الغرب ، قليلاً جداً ، غير انه كان اثراً واقعياً . واول ما تبدو معالم هذا الاثر في العلاقات الاجتماعية والدينية . اما عامة الناس فلم يتأثروا بكثير او قليل ، الا اذا استثنينا الاماكن التي شيدت فيها القلاع والحصون. اذ لا بد انه تم في هذه الاماكن نوع من التفاعل بسبب الاتصال والاحتكاك بين الفريقين . اما المسلمون في كل مكان فقد كانوا يعتبرون انفسهم ارفع ثقافة من الافرنج، فكانت نظرتهم اليهم نظرة ترفع وفيها شيء من الازدراء. وعليه فلم ير المسلمون ان عند الافرنج شيئاً يستحق الاهتمام .

واحسن من عبر عن موقف المسلمين من الافرنج — بالنسبة الى الثقافة والعلم — اسامة بن منقذ صاحب شيزر . فقد خلف لنا اسامة (١٠٩٥ — ١١٨٨) «مفكرة» ضمنها امتع الملاحظات وادقها واكثرها انصافاً وواقعية. كان اسامة فارساً مغواراً وجواداً شاعراً يحسن الطراد والصيد . وكان ايام الحرب يشترك في القتال

Vol. II, p. 6 .

— ١

The Pilgrimage of Joannes Phocas tr. Aubery Stewart — ٢
(London, 1896) , p. 9.

Phocas, p. 9 .

— ٣

ضد الافرنج اما في ايام الهدنة فانه كان يعاشرهم ويؤاخيهم . وكان الافرنج في نظره قوماً : « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » .^(١) ولما ذهب اسامة مرة الى صور ودخل الحمام وجد هناك امرأة من نساء الافرنج فكاد لا يصدق ما تراه عينه ، فارسل خادمه ليتأكد من صحة الامر .^(٢) ويسخر اسامة من عادات الافرنج البدائية لا سيما من رمي المتهم في الماء للفصل فيما اذا كان مذنباً أو بريئاً ، ومن عادة المبارزة بينهم للفصل في من هو على حق . وكان الافرنج الجدد الذين يفدون الى البلاد لأول مرة في نظر اسامة ، قوماً على غاية من البساطة والغفلة اذا ما قوبلوا بالافرنج القدامى الذين سبقوهم والذين كانوا قد تمرسوا بعادات البلاد .^(٣) ويظهر ان فارساً من فرسان الافرنج كان يخاطب اسامة بقوله « اخي » نسبة الى الصداقة بينهما . وقد طلب هذا الفارس مرة من اسامة ان يعطيه ابنه الاصغر ليأخذه معه الى أوروبا . ولكن اسامة اجاب بلباقة ولطف ان جدته شديدة الكلف به فلا يستطيع والحالة هذه ان يلبي طلب صديقه الفارس . ولكن اسامة لم يتمالك في نفسه عن ابداء دهشته من هذا الطلب اذ كيف يعقل ان يطلب نصراني مثل هذا الطلب من رجل مسلم .^(٤) وفي القصة التالية تظهر الفروقات الكبيرة بين المسلمين والافرنج في وسائل الطب والعلاجات . وقد وقعت هذه الحادثة في قرية من قرى اعالي لبنان ، في المنيطرة . وقد روى الحادث طبيب لبناني نصراني اسمه ثابت قال :

« احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحملت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً يداويهم . وقال للفارس ايما احب اليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ قال : اعيش برجل واحدة . قال : احضروا لي فارساً قويا وفأساً قاطعاً . فحضر الفارس والفأس ، وانا حاضر . فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة

١ - اسامة ابن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ ، ١٣٢ .

٢ - اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٧ .

٣ - اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، ١٤٠ - ١٤١ .

٤ - اسامة ابن منقذ ، ص ١٣٢ .

اقطعها . فضربه ، وانا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت . فضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من ما كلهم الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فاخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح . فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا : لا . فجئت وقد تعلت من طبهم ما لم اكن اعرفه »^(١) .

اما الامراء الافرنج والفئة الارستقراطية منهم فانها كانت تؤثر الطب الاسلامي ووسائل العلاج عندهم لا سيما فيما يتعلق بالامراض المحلية . يقول ولیم الصوري^(٢) ، وبشيء من الاسى : « ان امراءنا الشرقيين ، تحت تأثير نسايتهم ، يزدرون بالادوية وبالوسائل الطبية اللاتينية ولا يؤمنون الا بالاطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب » . ولكن عندما تناول الملك بولدوين الثالث — وكان عمره ثلاث وثلاثون سنة وكان يتمتع بصحة جيدة — بعض الحبوب التي وصفها له بركة (Barac) طبيب كونت طرابلس على انها مقو فمرض ومات في بيروت (١١٦٢) سرت اشاعة انه مات مسموماً .^(٣) وبعد اثني عشرة سنة ، لما مرض الملك املاك بمرض الزحار وهو في بيت المقدس ، رفض الاطباء السوريون ان يفصدوه أو ان يعطوه مسهلاً . غير ان اطباءه من جماعة الافرنج عاجلوه بالفصد والمسهل فمات على الفور .^(٤) ولم يكثر التزاوج بين الافرنج والمسلمين ، والتزاوج دليل على الاختلاط والتفاعل الاجتماعي . وقل من المسلمين من كان يتزوج من اوروبية . غير انهم كانوا يتسرون منهن السراري اللواتي كن يقعن في الاسر ، ولا شك في ان عائلات افرنجية عديدة ظلت في البلاد بعد القضاء على الصليبيين . وقد اندمجت هذه العائلات اخيراً باهل البلاد اندماجاً كلياً فقدوا معه كل طابع لاتيني . وقد

١ — اسامة ابن منقذ ، ص ١٢٢-١٢٣

٢ — اسامة ابن منقذ ، ص ١٢٢ - ١٢٣

٣ — Vol . 11 , p . 292 .

٤ — William of Tyre , vol. 11 , pp . 292 - 3 .

٥ — William of Tyre , vol. 11 , pp . 395 .

أوصى البابا إسكندر الرابع في رسالة بعث بها (١٢٥٦) إلى البطريرك الماروني، سمعان الحدادي، بأولئك الصليبيين الذين لجأوا إلى جبال لبنان خيراً وطلب إلى البطريرك أن يحافظ عليهم^(١). وهناك عائلات لبنانية عديدة تدعي أنها من أصل أفرنجي وتحفظ بأسماء لاتينية تشير إلى أنها تحدرت من الصليبيين الذين تخلفوا في البلاد، أمثال عائلة الصليبي^(٢) وبردويل (Baldwin) وفرنجية والدويهي (de Douhai) وديان (Comte d'Orient) وطريه (Torbey)^(٣). وأكثر هذه العائلات تنتمي إلى الطائفة المارونية. أما في المدن حيث كانت تقيم جاليات لاتينية فقد نشأ جيل هجين من أمهات وطنيات وكانوا يسمون الواحد من هؤلاء المهجناء بولان (Poulain ومعناه مهر صغير). وكان هؤلاء المهجناء في غالب الحالات يتبعون دين أمهاتهم لا دين آبائهم. وكانوا يتكلمون العربية ويحجبون نساءهم ويحجرون عليهن بشدة ويمنعونهن من الذهاب إلى الكنائس^(٤).

اللغة والدين

كانت اللغة والدين العقبتين الكؤودتين اللتين حالتا دون التمازج الاجتماعي والتلقيح الثقافي. وعندنا وثائق تدل على أن بعض الفرنجة اتقنوا العربية بينما لا نعلم أحداً من المسلمين تعلم اللاتينية أو الأفرنسية القديمة. فقد كان العربي المسلم الذي يتكلم لغة القرآن يراها حطة على نفسه أن يتعلم لغة الكفار. أما ولیم الصوري وولیم الطرابلسي (توفي ١٢٧٣) - وقد ولدا في لبنان كما ولد كثيرون من الأفرنج - فقد كانا يجيدان لا اللغة العربية المحكية فحسب، بل العربية الفصحى أيضاً. وقد وجد أمراء الأفرنج واقطاعيوهم وتجارهم ورهبانهم أن من الخير لهم أن يتعلموا العربية. فبالإضافة إلى أمراء قلعة الشقيف والكرك، القلعتين اللتين أشرنا إليهما

١ - Paul Abraham, *The Maronites of Lebanon* (Wheeling, 1931), p. 186 ; Tobias Anaissi, *Bullarium Maronitarium* (Rome, 1911) pp. 9 - 13.

٢ - راجع. د. الصليبي، تاريخ المشيرة الصليبية (بيروت ١٩٥٠) ص ٨ وما يليها.

٣ - René Ristelhueber, *Traditions françaises au Liban*, (Paris, 1918), pp. 62—3.

٤ - De Vitry, *Jerusalem*, p. 65.

سابقاً ، نجد ان ريموند الثالث ملك طرابلس يتقن العربية فقد تعلمها اثناء وقوعه في الاسر في حلب بدءاً بعام ١١٦٥ ، واصبح يعرف الاسلام وعادات اهله معرفة الخبير^(١) . ويذكر لنا كاتب سيرة الملك لويس التاسع ان عدداً من الافرنج كانوا يعرفون العربية^(٢) . ولما ارسل رئيس طائفة الحشاشين (الاسماعيلية) وفداً الى لويس التاسع احتاج الرسل الى ترجمة من الافرنج ينقلون الرسالة بواسطتهم . غير انه لما ارسل راشد الدين سنان ، رئيس الطائفة الاسبق - وكان يعرف عند الافرنج بشيخ الجبل - رسلاً الى صلاح الدين عند محاصرته عكا ، « فانهم كانوا يلبسون ثياب الافرنج ويتكلمون لغتهم^(٣) » . ذلك انهم كانوا عرباً لكنهم تخفوا بزي الافرنج رغبة منهم في الوصول الى قتل ملكهم (اي ملك الافرنج) .

وكذلك في الدين ، فان المسلمين اتباع الدين الحنيف ، وهو عندهم آخر وحي اوحاه الله ، ودين يشمل مبادئ اليهودية والمسيحية ، كانوا لا يرون سبباً في ترك دينهم ليعتنقوا النصرانية . غير انه لدينا بعض الاخبار التي تتحدث عن وقوع حوادث تنصّر افرادية لا سيما بين المرتزقة والعبيد والاسرى من المسلمين . فان دي فري^(٤) ، اسقف عكا (١٢١٧) وبطريك بيت المقدس (توفي ١٢٤٠) يذكر لنا « ان بعض هؤلاء المسلمين » تعمّدوا بعمودية يسوع المسيح لكي ينجوا من الموت .

الموارنة وفرنسة البابا

كانت اوثق العلاقات التي اقامها الافرنج مع اهل منطقة الشرق الادنى تلك التي اقاموها بينهم وبين الموارنة . فانها كانت علاقات مثمرة ودائمة . ذلك بان القيود التي فرضها عمر بن عبد العزيز الاموي والمتوكل العباسي والحالم بامر الله الفاطمي على الاقليات المسيحية - التي جعلت منهم مواطنين من الدرجة الثانية -

William of Tyre vol. II, pp. 308, 390, 403 - 4 - ١

Joinville, secs. 354, 361, 444. - ٢

Stanislas Guyard in *Journal asiatique*, vol. 1X (1877), - ٣

pp. 410, 465 .

Histoire des Croisades, ed, M. Guizot (paris, 1825), p. 31 . - ٤

جعلتهم يتلفتون الى الغرب . ان التقارب الودي بين الافرنج والارمن الذي بدأ في وقت مبكر في ايدسا وانطاكية ، وانتهى باعتراف المجمع الكنسي الارمني بسلطة الكنيسة الرومانية (١٣٠٧) ، نقول ان هذا التقارب لم يعمر طويلا ولم يكتب له النجاح . فقد كان لقرار المجمع الكنسي اثر سييء في نفوس الجماهير حتى انه ما كاد يعلن حتى اضطر المجمع الى الغائه . وقبل هذا ابدى بطريرك اليقاقبة في انطاكية خضوعه التام (١٢٣٧) لسلطة الكنيسة البابوية بحضور ممثل دومينيكي . ولكن اتحاد اليقاقبة بالكنيسة البابوية لم يرض عنه الشعب . وبعد زمن قصير اعلن الغاؤه . وقد كان على كنيسة رومة ان تنتظر اجيالا عديدة قبل ان استطاعت ان تجذب اليها احدى هذه الطوائف المسيحية الشرقية . لكن الامر كان على نقبض هذا مع الموارنة .

لا شك في ان الموارنة يشكلون اكبر طائفة مسيحية وثيقة التماسك شديدة الوحدة ، وقد بدأت العلاقة الودية بين الموارنة والصليبيين في عهد مبكر . كان ذلك لما قدموا للحملة الصليبية الاولى أدلاء يرشدونهم الى الطرق والمعابر ، ولما ارسلوا فرقة من النشابة المتطوعة الى مملكة بيت المقدس . وحسب تقليد الموارنة فان لويس التاسع كان اول صديق افرنسي لهم . تقول الرواية انه عندما نزل الى البر في عكا تقدم اليه وفد مؤلف من خمسة وعشرين الف ماروني ومعهم المؤن والهدايا . وفي هذه المناسبة سلمهم رسالة مؤرخة في ٢١ ايار عام ١٢٥٠ فيها تصريح بان فرنسة تتعهد بحمايتهم . يقول في هذه الرسالة : « ونحن مقتنعون بان هذه الامة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الامة الافرنسية »^(١) . وقد كان الموارنة يخلطون في الممالك التي شيدها الافرنج المرتبة الاولى بعد الافرنج . وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية ، وكانوا يتمتعون بالحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها البورجوازية اللاتينية ، بما في ذلك حق ملكية الأرض في مملكة بيت المقدس^(٢) حيث كان للموارنة هناك جالية كبيرة . وقد سمح لكهنة

١ - للاطلاع على النص الكامل يجب الرجوع الى :

Ristelhueber, pp. 65 - 6; I. de Testa, *Recueil des traités de la Porte ottomane*, vol. III (Paris 1866), p. 100; الدويهي ، ص ١١٠ - ١١١

Grousset, *Histoire des Croisades*, vol. II, p. 758; Ristelhue-

ber, pp. 50-1 .

الموارنة ان يقوموا بخدمة القديس على مذبح لاتينية. وبعد ان استولى صلاح الدين على بيت المقدس ذهب الملك غوي دي ليزنيان الى قبرص فتبعه جمهور كبير من الموارنة واستوطنوا الجبل الذي يقع شمالي نيقوسيا^(١) ذلك الجبل الذي كان يذكّرهم بجبل لبنان . ويجوز ان بعض هؤلاء الموارنة ذهبوا مع الاسبتارية الى جزيرة رودس وفي القرن السادس عشر ذهبوا مع فرسان رودس الى مالطة . وقد استمر هذا الود التقليدي بين الموارنة والغرب في الأجيال التالية كما حدث لما ارسل نابليون الثالث فرقة افرنسية لتهدئة الجبل عام ١٨٦٠ ، وكما جرى بعد الحرب العالمية الاولى عندما وقع لبنان تحت الانتداب الافرنسي .

في تلك الاثناء اخذت الكنيسة المارونية تتخلى رويداً عن طقسها في خدمة القديس — وطقس الكنيسة المارونية يعد من اقدم الطقوس في الكنائس المسيحية — لتبني الطقس اللاتيني . حوالي ١٢١٣ زار البطريرك ارميا العميشي رومة ، وعند عودته ادخل بعض « الاصلاحات » فيما يتعلق بالليتيرجية (خدمة القديس وطقوس العبادة) وسيامة الكهنة ، وكان اول بطريرك ماروني اقام علاقات شخصية مع المقر البابوي . اما تحويل الطقس الماروني القديم الى الطقس اللاتيني فقد بدأ رسمياً في عهد البابا انوسنت الثالث على يدي قاصده (حوالي ١٢٠٣) عندما ادخل بعض التعديلات الاساسية منها تغطيس المعمود ثلاث مرات في الماء وطلبة واحدة للثالوث وتكريس الاحداث على ايدي المطارنة فقط . وصار كهنة الموارنة يتبعون الزي اللاتيني في لبس الخواتم والقلنسوة التي تشبه التاج وحمل العكاز . وكانت الكنائس المارونية ، كما كانت سائر الكنائس الشرقية ، تدعو الناس الى القديس بواسطة قرع نواقيس من الخشب ، ولكن حوالي ١١١٢ بدأت تستعمل الاجراس^(٢) . وفي هذه الامور جميعها انما كانت الكنيسة المارونية تتبع التقليد اللاتيني . ويذكر لنا راهب دومينيكي زار البلاد المقدسة عام ١٤٨٠ ، ثم عاد اليها ثانية عام ١٤٨٣ ، ان من بين الكنائس الشرقية الموارنة هم الوحيدون الذين يستعملون الاجراس في كنائسهم بينما يستعمل غيرهم نواقيس خشبية^(٣) .

Dib, p. 259; Ristelhueber, pp. 70-1.

De Vitry, *Jerusalem*, p. 80 ;

Felix Fabri, *The Book of the Wanderings*, tr, Aubrey

Stewart (London, 1893), vol. 11, p. 389 .

وقد احتكرت عائلة نفاع من بلدة بيت شباب (المتن) صناعة صبّ الاجراس . و يروي دي فري^(١) ان الموارنة « اظهروا لخضوعهم الى كنيسة رومة فانهم يتبعون الطقوس والفروض اللاتينية » . ويخبرنا فون زوخم^(٢) الذي كان يقيم في البلاد المقدسة بين ١٣٣٦ و ١٣٤١ انه حضر سيامة مطارنة موارنة على ايدي رؤساء اساقفة لاتين . لكن اتحاد الكنيسة المارونية التام مع الكنيسة البابوية لم يتم الا عام ١٧٣٦ . وبوجه عام اصبحت الكنيسة المارونية ، على مرور الزمن ، من الكنائس المحيية الى باباوات رومة ومن الكنائس المكرّمة في نظرهم . فقد كان الباباوات يبعثون برسائل الى بطاركة الموارنة يشيدون فيها بحسن ايمان الكنيسة المارونية و بربوخ عقيدتها الثابتة ويشبهونها « بوردة بين العليق » . واقدام رسالة من هذا النوع ارسلها البابا انوسنت الثالث ويعود تاريخها الى سنة ١٢١٣^(٣) .

الحركة التبشيرية

وكان من نتائج الحروب الصليبية غير المقصودة فكرة اجتذاب المسلمين الى اعتناق المسيحية عن طريق الاقناع بدلا من طريق القوة والاكراه . وهي فكرة كان لها فيما بعد ابعاد الاثر في الحياة الثقافية في الشرق الادنى . ان الخيبة التي منيت بها الحملات الصليبية في الوصول الى غايتها ، وموت الدوافع التي كانت تدفع بالناس للالتحاق بها متهذا الطريق لفكرة جديدة : استمالة المسلمين واجتذابهم بطرق سلمية ودية . وهذه الفكرة هي اساس مبدأ التبشير المسيحي . ففي عام ١١٥٤ اسس راهب صليبي في الارض المقدسة رهبنة عرفت فيما بعد بالرهبة الكرملية نسبة الى جبل الكرمل حيث كانت تقيم ، ومن ثم انتشروا في سورية ولبنان . وقد اسسوا لهم مركزاً في طرابلس . ثم تلاهم تأسيس رهبنتين جديدتين عند مستهل القرن الثالث عشر : الفرنسيسكان والدومينيكان . ففي عام ١٢١٩ نزل القديس

١ - Jerusalem, pp. 80 - 1 .

٢ - Von Suchem, p. 135 .

٣ - للاطلاع على هذه الرسائل يجب الرجوع الى :

Anaissi, pp. 2, seq; Ghaziri, pp. 84, seq. ; Paul Abraham, pp. 186, seq; Camille de Rochemonteix, *Le Liban et L'expédition Française* (1860 — 1861) (Paris, 1921), pp. 7 — 8 .

فرنسيس الاسيسي ، مؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية : على شاطئ عكا ، وبعد مضي سنتين جمع اتباعاً حوله كانوا فيما بعد نواة الجالية الفرنسيسكانية في الارض المقدسة (فلسطين) . واتخذت عكا مقراً رسمياً للرئيس الفرنسيسكاني العام في المنطقة . وبعد مدة قصيرة اسست ارسالية تبشيرية فرنسيسكانية في مدينة طرابلس ، واسس دير لهم في بيروت . وفي عام ١٢٣٠ وصلت دمشق ارسالية دومينيكانية ، ومن ثم تقدمت الى طرابلس وعكا واماكن اخرى حيث اسست لها اديرة . وقد كتب احد اساقفة الدومنيكان ، وليم الطرابلسي ، سنة ١٢٧٠ افضل كتاب ظهر عن الاسلام في العصور المتوسطة . في هذا الكتاب Tractus de Statu Saracenorum (مقال في حالة المسلمين) يدافع الاسقف وليم عن النظرة الجديدة : نريد مرسلين لا جنوداً لاسترداد الارض المقدسة . وقد لاقت هذه الفكرة الجديدة استحساناً عظيماً عند رجل يدعى ريموند لال (توفي ١٣١٥) الذي اصبح زعيم الحركة المفوه . كان لال قسطلانياً يجيد العربية . وكان يدرسها ويدعو الى ادخال تعليمها في المؤسسات التعليمية لتحضير المرسلين ليعيشوا في الاقطار الاسلامية . وقد كان هم الاكليروس اللاتيني في الارض المقدسة ، حتى ذاك العهد ، ينصب على قضية توحيد الطوائف المسيحية المنشقة . لكن منذ ذلك الوقت اصبح همهم تنفيذ الفكرة الجديدة : حمل بشارة الانجيل الى غير المسيحيين . وقد انضم اليهم جماعة الكبوشيين واليسوعيين . وفي القرن السابع عشر وما تلاه من عصور ساهمت هاتان الارسالتان ، الكبوشية واليسوعية ، مساهمة كبيرة في بعث الحياة الفكرية في لبنان ، وبواسطة لبنان في سائر العالم العربي .

الماليك ينتقمون

ان عادة تخريب المدن التي استردها المسلمون وتعطيها — لا سيما اذا كانت المدن موانئ — التي بدأ بها صلاح الدين استمرت ايام الممالك لا بل زادت عنفاً حتى اصبحت سياسة يصح ان نسميها سياسة « حرق الارض » . فان الموانئ كانت تزدحم او تسد لمنع سفن الاعداء من دخولها . فلا الايوبيون ولا المماليك كانوا على شيء من القوة البحرية ليدافعوا عن الموانئ ضد محاولات الصليبيين

لاستردادها . فان بناء اساطيلهم كان يعتمد فيه — كما كانت اساطيل الفراعنة سابقاً — على خشب الارز من لبنان التي اصبحت موانيه الان في ايدي الصليبيين . وكان المسلمون يخشون اكثر ما يخشونه ، رجوع الافرنج الذين جلوا الى قبرص . وبالإضافة الى هذا فان غزوات المغول والزلازل التي توالى زادت من حدة الخراب فانه بين ١٢٦٠ و ١٣٠٣ اجتاحت جحافل المغول بلاد سورية المملوكية اربع مرات تاركة وراءها سيلاً من الدماء . وهكذا اصبحت جميع مدن الشاطئ الواقعة بين عسقلان وطرابلس خراباً او ما يشبه الخراب^(١) . ففي عام ١١٨٥ عندما مر ابن جبير في صور ذكر عنها انها مدينة لا مثيل لها في مناعة تحصيناتها ، ولكن بعد قرن من الزمن ذكر ابو الفداء عنها انها مدينة خربة^(٢) . واليك قصة مدينة صيدا بإيجاز : في عام ١١٠٧ حاولت ان ترشو الافرنج الذين كانوا على وشك فرض الحصار عليها ، وفي ١١١١ استولى عليها بولدوين الاول ، وفي ١١٨٧ خربها صلاح الدين ثم استردها الافرنج ثانية عام ١١٩٧ ، وفي العام ذاته استردها المسلمون وهدموها ، فاعاد بناءها الافرنج عام ١٢٢٨ ، فعاد المسلمون وخربوها عام ١٢٤٩ . ثم استردها لويس التاسع واعاد بناء تحصيناتها عام ١٢٥٣ . وفي عام ١٢٦٠ اجتاحتها جحافل المغول وخربتها ونهبتها . واخيراً استقرت المدينة في حوزة المسلمين عام ١٢٩١ على يدي الملك الاشرف الذي هدمها الى اساساتها . فهل من عجب بعد هذا اذا قال عنها المحدثون في العصور الاخيرة انها بلدة حقيرة بالنسبة الى ما كانت عليه سابقاً ؟ واليك مقتطفات من رحلة ابن بطوطة^(٣) الذي مر في هذه البلاد عام ١٣٢٧ :

« ثم سافرت الى عسقلان ، وهي الآن خراب ... ثم سافرت على الساحل ، فوصلت الى مدينة عكا وهي خراب . وكانت عكا قاعدة بلاد الافرنج بالشام . وهي خراب . ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب ، وبخارجها قرية

١ - ابو الفداء : تقويم ، ص ٢٢٩

Lammens, *Syrie*, vol. I, p. 265; vol. II. pp. 2 - 3 .

٢ - تقويم ، ص ٢٤٣ .

٣ - ابن بطوطة في تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار طبعة وترجمة :

C. Defrémery and B. R. Sanguinatti, vol. I (Paris, 1893), pp.

126, 129, 130, 132 .

معمورة . ثم سافرت منها الى مدينة طبرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبىء عن عظمتها وعظم شأنها . ولا يذكر لنا الحجاج الذين حجوا الى البلاد المقدسة في القرن الخامس عشر ان الاحوال العمرانية كانت قد تحسنت . فان فارساً حاجاً من مقاطعة برغندي واسمه دي لا بروكير^(١) زار البلاد المقدسة عام ١٤٣٢ و ١٤٣٣ وذكر انه لم ير في يافا سوى اكواخ مسقوفة بالقصب ، وليس في عكا سوى ثلاث مئة بيت . ويقول ان بيروت كانت سابقاً اكبر جداً مما هي عليه الآن .

وقد اعاد السلاطين المماليك فرض القيود المجحفة بحق الذميين واليهود . فقد امروا النصارى واليهود ان يلبسوا البسة خاصة تميزهم عن المسلمين ، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال . وانصب الحقد والكراهة للذين ولدتهما الحروب الصليبية على النصارى من اهل البلاد . ففي عام ١٢٨٣ توغل جيش السلطان قلاوون الى معاقل الموارنة في اعالي لبنان الشمالي ، الى بشري واهدن وحدث الجبة وخرّبها^(٢) . فتزحت جماعات يقدر عددها بالالوف هرباً الى جزيرة قبرص حيث بلغت جالياتهم هناك ثمانين الف نسمة . حتى انه في سنة ١٣٤٠ اقاموا لهم في الجزيرة مطرانية مارونية^(٣) . وفي يومنا هذا نجد في النظام الاكليريكي عند الموارنة مطراناً شرقياً لجزيرة قبرص . وتناولت سياسة المماليك الجديدة اعادة توحيد الفرق الاسلامية المنشقة وضمها الى حظيرة السنة ، وذلك لان بعض هذه الفرق الاسلامية اعانت العدو وهادنته . وقد قتل المماليك من الاسماعيلية والنصيرية والشيعية عدداً كبيراً . ويبدو انهم كانوا اشداء اقوياء وان عددهم كان كبيراً في جميع انحاء سورية^(٤) . وقد هرب من الشيعة جماعات والتجأت الى جبال لبنان والبقاع ذلك لان المماليك كانوا يرون في الشيعة خطراً سياسياً . وقد حاول الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ان يرغم النصيرية على بناء مساجد في قراهم ، ولكنه اخفق في جعلهم

De La Brocquière, « Travels », in *Early Travels in Palestine*, ed. Thomas Wright (London, 1848), pp. 286, 292 .

٢ - الدويهي ، ص ١١٥ . وراجع ايضاً الدويهي « تاريخ الازمنة » في مجلة المشرق المجلد ٤٤ (١٩٥٠) ص ١٤٥ - ١٤٦ .

Dib, p, 263.

- ٣

٤ - ابن جبير ص ٣٠٤ .

يصلون فيها . وعوضاً عن الصلاة فيها فانهم حولوها الى اسطبلات وزرائب لماشيتهم وعندما كان يأتي الغريب ويؤذن داعياً الناس الى الصلاة كانوا يقولون له : « لا تنهق فان عليك سيقدم لك حالا »^(١) اما الدروز فلم ينظر الممالك اليهم نظرتهم الى الشيعة والاسماعيلية . ذلك لان الدروز كانوا قد انحرفوا عن السنة في قضايا لاهوتية فلم يُعتبروا انهم يشكلون خطراً سياسياً على المسلمين . فانهم عددياً كانوا اقلية صغيرة وجغرافياً كانوا يتوطنون بقعة صغيرة محصورة ، وسياسياً لم يكن لهم اهداف تشكل خطراً على المسلمين ، ولذا فلم يكن الممالك يرون في الدروز مشكلة ذات بال . ولكن بالرغم من هذا كله فان الملك الاشرف طلب اليهم ان يكونوا ، ولو ظاهرياً ، مسلمين . الا ان طلبه هذا لم يحقق وفي سنة ١٣٠٠ هاجم النشابة الدروز جيش الملك الناصر المنهزم امام هجمات المغول التي اوصلتهم الى حمص ودمشق وهددت المنطقة بكاملها .

كانت الحملات العسكرية التي وجهها الملك ناصر سنة ١٣٠٢ و١٣٠٦ و١٣٠٧ ضد كسروان^(٢) من اعنف الحملات التي تعرض لها لبنان ومن اشدّها فتكاً وخراباً . وكانت كسروان آنذاك تمتد جنوباً الى نهر بيروت ، والى جبل صنين وجبل الكنيسة . وكانت تشمل ايضاً منطقة المتن الشمالي والجنوبي وكان سكانها من قليل من الموارنة واليعاقبة والدروز والشيعة والنصيرية . وقد اشترك في هذه الحملة العسكرية جنود من صفد وطرابلس ودمشق . وكان القائد العام جمال الدين الآقوش حاكم دمشق . وقد افتي ابن تيمية — وكان من اعظم فقهاء عصره في سورية — بان الدروز والنصيرية ليسوا مسلمين وانهم دون النصارى مرتبة ويجب ابادتهم^(٣) واشترك ابن تيمية نفسه في هذه الحملة . وكان مقدمو الدروز في ذلك الوقت الامراء اللمعيين (وهم في يومنا هذا موارنة) ، وكان مقرهم في كفرسلوان وآل مزهر في حانا . ولا يزال آل مزهر في حانا يحتفظون بلقبهم : المقدمين .

١ — ابن بطوطة ، الجزء الاول ص ١٧٧ .

٢ — تقول الروايات القديمة ان هذا الاسم ، كسروان ، نسبة الى امير ماروني من القرن الثاني عشر اسمه كسرى استولى على هذه المقاطعة وعرفت باسمه فيما بعد . وهذا يدل ، ان صحت الرواية ، على ان المنطقة كانت منطقة مسيحية في ذلك العهد . قابل :

Lammens, *Syrie*, vol. II, p. 16 .

٣ — صلاح الدين النجد : ولاية دمشق في العهد العثماني (دمشق ١٩٤٩) ص ٦-٧ .

وكانت المعركة الفاصلة في عين صوفر سنة ١٣٠٧ . فقد اباد جيش المماليك البالغ عدده خمسين الف مقاتل قرابة عشرة آلاف كسرواني ، معظمهم من الدروز ، وخرّبوا بلادهم ، وقطعوا اشجارهم وذبّحوا نساءهم واطفالهم ، وتقاسمت ثلاث مئة عائلة تركمانية المنطقة الساحلية الواقعة شمالي بيروت الى جنوبي طرابلس كاقطاعات بينها^(١) . وفي ذلك العهد كانت العلاقات بين الموارنة والدروز على احسن ما يكون من الود والصفاء . فأنه في عام ١٤٤٤ رافق وفد يتألف من الدروز والنصارى القصاصد البابوي الى رومة في بعثة صداقة وسلام^(٢) .

ومع ان سياسة المماليك في اباد الطوائف المنشقة عن الاسلام لم تنجح فانها اضعفت هذه الطوائف . وقد وجهت هذه السياسة انظار السكان في شمالي سورية وفي لبنان وفلسطين التي ظلت زمناً طويلاً تحت الحكم الاوروبي - وفي الدرجة الاولى افرنسي - الى الغرب . وفضلاً عن هذا فان المماليك اسدلوا ستاراً حديدياً بين الشرق والغرب . وقد بلغ اسدال هذا الحاجز بين الشرق والغرب اشداً حكامه في عهد الاتراك العثمانيين خلفاء المماليك .

١ - الدويهي ص ١٢٣ - ١٢٥ . ايضاً الدويهي في المشرق ، المجلد ٤٤ (١٩٥٠) ص ١٦٠ - ١٦٤ . صالح ، ص ٣٢ - ٣٣ ، ١٠٠ - ١٠١ . ابراهيم عواد : « لبنان في عهد المماليك » المشرق ، المجلد ٤٠ (١٩٤٢) ص ١٦ - ٢١ .
٢ - عواد ، في المشرق ، المجلد ٤٠ (١٩٤٢) ص ٢٨ . ذيب ص ٢٢٢ .

الفصل الثاني و لَعُروهُ

الحياة في القرن الرابع والخامس عُر

بلغ سلاطين المماليك في مستهل القرن الرابع عشر من العظمة والمنعة مبلغاً لم يضاههم فيهما ملك من ملوك العرب لا في الشرق ولا في الغرب ، ولعله لم يفقههم حاكم مسلم سؤدداً وقوة . فانهم كانوا قد طردوا الصليبيين وصدوا غزوات التتر ، وسحقوا شوكة الطوائف التي خرجت عن الاسلام في لبنان وسورية واثبتوا سيادة السنة . وعندما استتب لهم الامر في ملكهم الشاسع الذي كان يضم مصر وسورية ولبنان وفلسطين شرعوا في تطبيق سياستهم الخاصة التي كان قد املاها عليهم تغير الحال .

تقسيم لبنان

قسّم المماليك ممتلكاتهم في سورية الى ست نيابات (او ممالك) وكان نصيب لبنان ان جزىء الى ثلاثة اجزاء تلاشت في ثلاث نيابات من النيابات الست، وذلك لمنع الوحدة والاستقلال^(١) . وقد شملت نيابة طرابلس شمالي لبنان والمنطقة الساحلية من شمالي اللاذقية الى نواحي جبيل . وشملت نيابة صفد لبنان الجنوبي وصور، وادرجت المقاطعات والمدن الباقية في نيابة دمشق ، اي صيدا وبيروت وبعبك والبقاع . ثم ان البقاع قسّم الى قسمين اداريين : الشمالي او البقاع البعلبكي ، والجنوبي الى البقاع العزيزي . وكان نواب (اي حكام) هذه المقاطعات من « ارباب السيوف » - مقابلة لهم بارباب القلم - وهم في الاصل من الموالي عند السلطان . وقد كان هؤلاء النواب مستقلين الواحد عن الاخر في ادارة نيابته . وكان اسلوب الحكم ، بوجه عام ، يشبه حكم السلطان في القاهرة . وقد كانت مدة النيابة القصيرة الى جانب التنابد والتحاسد بين النواب من جملة العوامل التي كانت تحول دون

١ - الفلقشندي : صبح الاعشى ، اجرة الرابع (القاهرة ١٩١٤) ص ١٦٣ وما يليها .

توسع احدهم على حساب غيره او اتحادهم ضد السلطة المركزية في القاهرة . فقد كان الموظف الكبير يكاد لا يشغل وظيفته اكثر من ثلاث سنوات ، وكان كثيرون من القضاة يعينون ويصرفون من الخدمة اكثر من عشر مرات اثناء حياتهم العاملة . وكان السلطان برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٨) لا يتردد لحظة في عزل نائب دمشق وتعيين نائب ليحل محله^(١) .

وقد كان اسراف الحكام في بذخهم وظلمهم الرعية ومنازعاتهم وفساد حكمهم سبباً في اشاعة الفوضى والاضطراب في جميع انحاء المملكة . وقد زاد البلاء شدة المجاعة والقحط والزلازل والطاعون التي نزلت بالبلاد فعم الموت والهلاك . وقد خص المقرئ البعلبكي الاصل ، وهو مؤرخ فاضل من خيرة مؤرخي زمانه ، جزءاً كاملاً من مؤلفه^(٢) لذكر المجاعات التي حلت بالبلاد المصرية وبالبلدان المجاورة لها حتى عام ١٤٠٥ ، وهي السنة التي كتب فيها كتابه هذا . ويذكر زميله المؤرخ ابن تغري بردي^(٣) ان مرض الطاعون فشا في البلاد اربع مرات خلال القرن الرابع عشر . ويذكر مؤرخون آخرون لا اقل من اربعة عشر وباً كاسحاً حل بالبلاد خلال القرن الخامس عشر ، اي بمعدل وباً واحد لكل سبع سنوات . وهدم الزلزال الذي وقع عام ١٣٠٢ مدناً عديدة ودفن ما لا يحصى من الناس في جميع انحاء سورية ومصر « احياء في الركام ، وتصدعت جدران الجامع الاموي في دمشق ، وخرّب جزءاً كبيراً من قلعة صفد ، وتراجع البحر قبالة عكا مسافة فرسخين وعاد بشكل موجة عارمة طغت على البر فغرقته^(٤) . وقد هلك في الطاعون الاعظم الذي حل بدمشق ، في الايام الاخيرة منه ، الفا نسمة كل يوم . وقد كان ابن بطوطة^(٥) آنذاك في دمشق فشاهد جماهير الناس تخرج الى الشوارع كباراً وصغاراً ، ذكوراً وإناثاً ، مسلمين ونصارى ويهود خارجين حاملين مصاحفهم واناجيلهم وتوراتهم « باكين

١ - صالح ، ص ١٩٨ . واذا اراد القارئ المزيد حول الادارة عليه ان يراجع كتاب الدكتور نقولا زيادة : *Urban Life in Syria under the Early Mamluks* (Beirut, 1953), pp. 12 - 14 ; Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie a l'époque des Mamelouks* (Paris , 1923), pp. CVI - CXI .

٢ - اغاثة الامة في كشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٠) .

٣ - الجزء الخامس ص ٧٠ - ٧٦ ، ١٥٤ ، ١٨٥ ، ٤٠٨ ، ٥٠٧ .

٤ - المقرئ : سلوك ، الجزء الاول ، القسم الثالث ص ٩٤٤ - ٩٤٥ .

٥ - الجزء الاول ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

متضرعين متوسلين الى الله بكتبه وانبيائه . وكان حاكم دمشق قد امر الناس بالصيام فصاموا ثلاثة ايام وثلاث ليال . ويذكر ابن تغري بردي^(١) ان عدد الذين كانوا يهلكون بالطاعون في حلب كل يوم كان خمس مئة نفس، والفا ومشتين في دمشق، وان الطاعون جرف اهل صفد عن بكرة ابيهم، وكذلك بيت المقدس ونابلس والكرك وغزة ومدن ساحلية اخرى . هذه الكوارث الطبيعية، الى جانب المصائب والاحزان التي كان يسببها الانسان نفسه، خفضت عدد السكان في عهد المماليك الى الثلث مما كان عليه سابقاً . اما المناطق الريفية، بما في ذلك لبنان، فانها لم تصب باذى من جراء الطاعون كما اصبحت به المدن .

كان سحق الموارد والدروز في كسروان، كما ذكرنا سابقاً، من العوامل التي ادت الى زوال روح المردة، تلك الروح التي تميزت بها الطائفة المارونية، وعلى زوال الروح العسكرية والحماس اللذين تميزت بهما الطائفة الدرزية . وقد ضعفت جميع مدن الساحل — باستثناء بيروت وطرابلس — وحل بها الوهن الاقتصادي، وذلك بسبب زوال التجارة اللاتينية من جهة، وبسبب التقييدات الشديدة التي فرضها المماليك من جهة ثانية . وكان الحفاظ على هذين المينائين، بيروت وطرابلس، من مقتضيات الحفاظ على التجارة التي كان ينظر اليها انها ضرورة لسد حاجات البلاد من الخارج . وكان بطريرك الموارد ينقل مقره من قرية الى اخرى نظراً للحالة القلقة السائدة وانقطعت الرسائل بينه وبين رومة الى ان جاء البابا يوجينيوس الرابع^(٢) (١٤٣١ — ١٤٤٧) . وفي كتاب البراءة الذي ارسله السلطان الى بطريرك الملكيين الروم ينبهه الا يقابل الاجانب والا يستضيفهم لاسيما اذا كانوا من الاجانب المشتبه بهم، والا يرسل حاكماً او ملكاً في دولة اجنبية . وقد ارسل تنبيه مماثل الى بطريرك اليعاقة^(٣) . ولكن بالرغم من هذا كله فقد ظل الموارد في شمال لبنان يمارسون نوعاً من الاستقلال الداخلي بقيادة رؤسائهم، وهم المسمون المقدمون^(٤)، الذين كانوا يجمعون الضرائب وينشئون المحاكم القضاية لاجراء

١ — الجزء الخامس ص ٦٤ — ٦٨ .

٢ — Dib , pp . 156 , 219 .

٣ — العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢) ص ١٤٥ — ١٤٦ .

٤ — يخص طنوس الشدياق في مؤلفه « اخبار الاعيان في جبل لبنان » امراء الموارد ومقدميهم

بفصل خاص ، ص ٢٠١ — ٢٢٣ .

العدل . انما كانت الامور التي تتعلق بالاحوال الشخصية تترك للمحاكم الروحية التي كان الاكليروس يقضي فيها . ويذكر لنا الدويهي^(١) خبراً طريفاً هو ان السلطان الظاهر برقوق ظهر يوماً في بشري متخفياً بزي غير زي الملوك . وقد احسن وفادته شماس اسمه يعقوب ابن ايوب ، فارسل اليه السلطان بعد ذلك بكتاب براءة حفر على لوح من النحاس عينه بموجبه مقدماً على المنطقة بكاملها . وكذلك استقبل دير قنوين المشهور السلطان برقوق بحفاوة واکرام فاعفاه السلطان من دفع الضرائب المتوجبة عليه . وقد يكون ان هذه الحوادث وقعت سنة ١٣٨٩ و ١٣٩٠ عند نهاية عهد السلطان برقوق الذي سببه الحاجي .

اما لبنان الجنوبي فقد سارت اموره سيراً حسناً . كانت حاصبيا ومنطقة وادي التيم تحت حكم الشهابيين وكانت بعقلين ومنطقة الشوف تحت حكم المعنيين ، وكانت صور وشيعة (متاوله) جبل عامل تحت حكم بني عاملة . ولم يكن الوقت بعد قد حان ليلعب الامراء المعنيون والشهابيون دورهم الخطير في تاريخ لبنان : اما في الفترة التي نحن بصددھا فقد كانت الانوار تنصب على بني بختر من قبيلة تنوخ .

بنو بختر في الغرب

بنو بختر هم الامراء^(٢) الاقطاعيون الذين استولوا على بيروت وعلى منطقة الغرب ، وهي سفوح الجبال المجاورة لبيروت والتي تمتد جنوباً الى اعالي الدامور . وكان مقرهم اولاً قرية سرحمول وقرية عرمون . ويظهر انهم توطنوا هذه المنطقة قبل ١١٣٥ ، وكانوا اصحاب اقطاع ، وكانوا يقدمون خدماتهم العسكرية للصليبيين الذين استولوا على بيروت وصيدا . وفي اثناء الحروب التي وقعت بين التتر والمماليك كان آل بختر احياناً يقاتلون مع الفريقين ، ليضمنوا لانفسهم ان يكونوا في الكفة الراجحة^(٣) . هذه السياسة ، سياسة الترقب والحذر وسياسة

١ - الدويهي ، ص ١٣١ . الشدياق ص ٢١٣ - ٢١٤ .

٢ - لفظة امير عربية . اما لفظة مقدم ، كما كان يسمي اهالي شمال لبنان حكامهم وامراءهم ، ففيها شيء من السريانية .

٣ - صالح بن يحيى ، ص ٥٠ - ٥١ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٦٥ ، وقابل ص ١٩٦ .



اللعب على الفريقين كانت السياسة ذاتها التي مارسها سكان لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح ؛ وظل اهل لبنان يأخذون بها حتى زمن فخر الدين المعني الاول (١٥١٦) وخلفائه من بعده . وقد عهد المالك الى البحريين بحماية الشاطئ ضد هجمات الافرنج ولا سيما الغزوات التي كانوا يقومون بها من جزيرة قبرص . وبذلك تمكن البحريون من تثبيت سلطتهم وحكمهم حتى اواخر القرن الخامس عشر . وفي اثناء حكمهم النير السمع كانت مقاطعة الغرب تنعم بما يشبه الاستقلال الداخلي وتتمتع بشيء من الازدهار الاقتصادي . وبالرغم من انهم كانوا ظاهرياً مسلمين سنين فانه من المرجح انهم كانوا دروزاً في عقيدتهم . وقد فتحوا ابواب مدينة بيروت تدريجياً امام الاجانب من التجار وجعلوا منها مرفأً لمدينة دمشق . فاخذت السفن تمخر بانتظام بين مينائها وجزيرة قبرص . وكان حجاج الارض المقدسة يلتقون فيها ومنها كانوا يذهبون الى فلسطين . وقد سمح للتجار الاوربيين ان يبنوا خانات وحمامات وكنايس^(١) فازداد عدد سكانها الى قرابة عشرة آلاف نسمة . وبسبب الصلات التي عادت فتوطدت بينها وبين الممالك اللاتينية الصليبية وبعض البلدان الاوربية فان مرفأً بيروت اصبح المرفأً التجاري الذي يغذي داخلية البلاد . وكانت بيروت تستطيع الاتصال بدمشق عن طريق البريد الذي انشأه السلطان بيبرس بين القاهرة ودمشق . اما في اوقات الخطر ، فكانت تتصل بالخارج بواسطة الحمام الزاجل او بواسطة النيران . كانت الاشارات النارية تعطى ليلاً في مكان يسمى راس بيروت ، وهو لسان مرتفع داخل في البحر ، ثم الى قمة بوارج^(٢) وهي قمة في جبل الكنيسة ومنها الى يتوس في سلسلة جبال لبنان الشرقية ، ومن هناك الى جبل الصالحية الذي يشرف على مدينة دمشق^(٣) .

كان من حسن طالع نيابة دمشق ان حكمها ، بين سنة ١٣١٢ و ١٣٤١ ، تنكيز ، وهو مولى من موالى السلطان الاشرف ، وهو الذي يعتبر سجل اعماله نقطة مشرقة في اخبار الممالك في البلاد السورية . وقد اعاد تنكيز بناء جسر الدامور (بين بيروت وصيدا) الذي كان يخرب به طغيان النهر مرة بعد اخرى ، واعاد بناء

١ - صالح ابن يحيى ، ص ٣٩ - ٤٠ . Von Suchem , p . 49 .

٢ - هذا هو الاسم وقد وردت بوارش في صالح بن يحيى ص ٨٠ .

٣ - صالح ابن يحيى ص ٨٠ . الشدياق ص ٢١٢ - ٢١٣ .

حصون بيروت ، وبنى فيها خاناً جديداً وحماماً للعمامة . وكان يمدّ يد العون الى البحريين في ادارتهم البلاد . ومن جملة المدن التي انتفعت من حكمه الفاضل بيت المقدس . فانه جلب لها الماء . واخيراً اتهم انه اساء استعمال المال المخصص له فالتى عليه القبض وسجن في الاسكندرية وظل في السجن حتى مات^(١) . اما خليفته فقد امره السلطان ان يسرع في بناء اسطول ليثأر من دولة الكوزينيانين الصليبية التي كان اسطولها البحري يقضي مضاجع اهل المواني اللبنانية والمصرية . وفي عام ١٣٠٣ اسر الافريج احد امراء بني بختر عندما كان يصطاد الحجلان بالقرب من الدامور ولم يخلوا سبيله حتى دفع لهم البحريون فدية قدرها ثلاثة آلاف دينار^(٢) . وفي سنة ١٣٦٥ هاجم الصليبيون مدينة الاسكندرية . وفي السنة ذاتها بدأ بناء الاسطول على الشواطىء بالقرب من بيروت . ولكنهم بعد ان اتزلوا في الماء سفينتين للنقل وتكبدوا النفقات الطائلة عدلوا عن العمل فجأة . وقد تركوا هاتين السفينتين وهياكل السفن التي شرعوا في بنائها في مكانها للسوس ينخرها . اما الحديد فيها فقد نهبه بعض البيروتيين . وقد اختار الماليك بيروت لبناء هذا الاسطول بسبب احراج الصنوبر في ضواحيها ، وقد كانت اعم من ذي قبل ، ولوجود معدن الحديد بالقرب منها والذي كانت تصدره الى مصر^(٣) . وفي سنة ١٣٨١ هاجم اسطول من جنوا مدينة صيدا واعمل فيها النهب والسلب . ثم هاجم بيروت التي كان يدافع عنها يحيى ابوصالح المؤرخ الذي اشرنا اليه مراراً . وقد ارسل نبأ هجيم الاسطول الجنوي الى دمشق بطريقة الاشارات النارية . فوصلت كتيبة من الفرسان مساء اليوم الثاني من وصول الاسطول ، ولكن الوقت كان قد فات فلم تشترك هذه الكتيبة في الدفاع عن المدينة^(٤) . وفي سنة ١٤٠٤ ظهر هذا الاسطول مرة اخرى على شواطىء بيروت واعمل فيها النهب والسلب واحرق اسواقها القريبة من الميناء وروع السكان فولوا هاربين الى الجبال . ولا يذكر لنا التاريخ محاولات اخرى عدائية بعد ذلك الحين . ويبدو ان الناس اقتنعوا بان العلاقات التجارية الطبيعية اجدى واكثر نفعاً على ممر الايام .

١ - صالح ابن يحيى ، ص ١٠٧ ، ١١٧ ، ابن بطوطة الجزء الاول ص ١٢١ . ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الاول (بولاق ١٣١١) ص ١٧٢ .

٢ - صالح ابن يحيى ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

٣ - صالح ابن يحيى ، ص ٢٤ - ٣٥ . ابن بطوطة ، الجزء الاول ص ١٢٣ .

٤ - صالح ابن يحيى ، ص ٣٥ - ٣٦ .

الاقطاعية في لبنان

لم يكن الاقطاع - على مختلف اشكاله - الذي بدأه سلاطين المماليك وجعلوه غير وراثي لينطبق على الحالة في لبنان^(١). وقد اراد المماليك بذلك ان يبقوا صاحب الاقطاع خاضعاً لارادة القاهرة. وكان الاقطاع في عهد المماليك، كما كان سابقاً في صدر الاسلام، منحة يهبها السلطان مقابل خدمات عسكرية يقوم بها الافراد للدولة. ويظل مفعول الاقطاع معمولاً به ما دام الخليفة او السلطان راضياً عن صاحب الاقطاع. وكان السلطان ينتظر من صاحب الاقطاع ان يبعث اليه خراجاً سنوياً وكتيبة من الجنود من ابناء المقاطعة. اما بنو بختر فكانوا يتوارثون اقطاعاتهم جيلاً بعد جيل الى اواخر عهد المماليك. وفي عام ١٣٧٥ عندما توفي احد المقدّمين الموارنة في العاقورة تزوجت ابنته احد افراد آل الدحداح وورثت اقطاع ابيها^(٢). وهكذا اصبح آل الدحداح، وهي عائلة لا تزال من اهل اليسر حتى يومنا هذا، من اصحاب الاقطاع. وفي عام ١٣٢٢ صدر امر السلطان الى حسين الشهابي من حاصبيا ان يبعث اليه بالجنود لمحاربة صاحب قلعة الكرك. ولكنه ابى ان يلبي الطلب بكثير من الالباء. فاستنفر السلطان مقدمي البقاع واغراهم به فحاربوه ولكنه قتل منهم خمس مئة رجل^(٣). وكذلك فعل البحتريون فانهم لم يبعثوا بالجند الى المماليك. اما واجبهم العسكري نحو المماليك فقد كان حراسة الشواطىء بين بيروت وصيدا (بالاضافة الى شواطىء المدينتين). وكانوا يستخدمون لهذه الحراسة تسعين فارساً كل ثلاثين منهم يخدمون مدة شهر كامل.

اما الفلاحون والعمال اللبنانيون الذين كانوا يعملون في الاقطاعات فلم يكونوا اقناناً كما كان الفلاحون والمزارعون في سورية ومصر. انهم كانوا احراراً ينتقلون من اقطاع الى آخر وكان لهم ان يؤثروا اقطاعياً على اقطاعي آخر فينتقلون الى خدمته. وهذه الحرية لم يتمتع بها الفلاحون والمزارعون في النظام الاقطاعي اللاتيني الذي ادخلوه الى البلاد، بل كانوا اقناناً

١ - القلقشندي، الجزء الرابع، ص ٥٠ - ٥١.

٢ - الشدياق، ص ١٠٩.

٣ - الشدياق، ص ٤٨ - ٤٩.

نحت رحمة الاقطاعي . والاقطاع في لبنان كان صغيراً يشمل قرية الى عشر قرى موزعاً بين العائلات اللبنانية الارستقراطية . وكان حصة المزارع (ويسمونها المقاسمة) جزءاً معيناً من الغلة ، وكانت تتراوح بين $\frac{3}{4}$ و $\frac{2}{3}$ الغلة الا في الاراضي المسقية حيث كان معدل حصة الفلاح المزارع النصف . وقد ذكر في ايجار اقطاع احد الامراء البحتريين الزيتون والصابون والحرير^(١) .

طرابلس عاصمة نيابة

كانت طرابلس من جملة المدن اللبنانية التي كانت مقراً لنائب . وكان نائب طرابلس يفوق نائب حماة وصفد مرتبة ومقاماً ، ولكنه ادنى مرتبة من نائب دمشق وحلب^(٢) . وكانت صيدا تنافس بيروت في كونها منفذاً تنفذ اليه تجارة دمشق . اما صور فقد بقيت مدينة مقفرة . يقول مؤرخ عنها : « هنا مدينة كانت فيما مضى من الزمن مدينة مسيحية حسنة عظيمة . غير ان المسلمين خربوا اكثرها ، وهم يحرسون ميناءها خوفاً من ان يدخله النصاري^(٣) » . وقد وجدها فون زوخم مدينة تكاد تكون خراباً^(٤) .

كان من اعمال حكام المقاطعات المحافظة على الامن وقمع الثورات وتعيين الموظفين الذين لا يعينهم السلطان . وكانت الادارة في عهد المالك مركزية . امر السلطان سنة ١٣١٧ حاكم طرابلس ان يقفل ابواب حانة للخمر في المدينة حيث كانت ترتكب اعمال الفحشاء . وامره ايضاً ان يبني مساجد في قرى النصيرية . ولكن التاريخ لا يذكر لنا شيئاً عن وجه استعمال هذه المساجد . فقد بنيت مساجد

١ - صالح ابن يحيى ص ١٨١ . وراجع عواد في المشرق الجزء ٤٠ (١٩٤٢) ص ٢٦-٢٨ ، وراجع ايضاً :

A.N.Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon*, (London, 1950), pp. 64 seq .

٢ - ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، طبعة يوسف سرريس (بيروت ١٩٠٩) ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

٣ - « The Book of Sir John Maundeville, A.D. 1332 — 1356 » , in Thomas Wright, *Early Travels*, p. 141 .

Von Suchem, p. 50 .

قبل ذلك في بلاد النصرانية ولسنا نعلم اذا كانت قد استعملت للصلاة ام لا^(١). وكان القاضي يأتي بعد الحاكم في المرتبة. وكانت وظيفته الفصل في الدعاوى حسب احكام الشريعة الاسلامية. وكان مقر قاضي القضاة في العاصمة. ومن اشهر قضاة طرابلس ابن منظور المصري المولد (١٢٣٢ - ١٣١١) وصاحب «لسان العرب» - ومعجمه يشبه معجم الجوهري (توفي ١٠٠٨) «صحيح اللغة» - الذي رتبته على حروف الهجاء متخذاً الحرف الثالث من الجذر. وهو معجم معروف كثير الاستعمال في جميع انحاء العالم العربي حتى في يومنا هذا. وكان للمدن الكبيرة، مثل بيروت، قضاتها. وعلى مقربة من بيت القضاة كان هناك رئيس للشرطة عمله تنفيذ اوامر الحاكم واحكام القاضي. وكان هنالك موظف آخر له عمل طريف: المحتسب. ومن وظائفه فحص الاطعمة والبضائع والموازين والمقاييس واجراء التفتيش على التجار والصناع والمحافظة على الاخلاق والآداب العامة: بكلام آخر كان منفذ القوانين والشرائع، ولذا كان الصق الناس بالعامة. وقد تحدث اليينا من عهد المماليك عدة مؤلفات تبحث واجبات المحتسب ووظائفه التي كان من جملتها مراقبة القضاة والحكام والاطباء والجراحين والكحاليين والمجبرين ومعلمي المدارس والوعاظ والمنجمين والكتّاب^(٢). وكان يمتحن بعض اصحاب هذه المهن. وقد عد ابن خلدون^(٣)، قاضي القضاة المالكي في القاهرة في عهد المماليك، الحسبة من الوظائف الدينية في الدولة الاسلامية^(٤).

اما الذميون فان احوالهم الشخصية ظلت في نطاق سلطة الاكليروس كما كان يقضي العرف الاسلامي المتبع في مثل هذه الاحوال. وقد كان البطريرك يعمـل كوسيط بين رعيته وبين السلطان. وكان اكثر الموارد يقيمون في نيابة طرابلس، ولكننا لا نعثر على ذكر بطريركهم في الوثائق الرسمية التي تحدثت اليينا. غير ان

١ - القلقشندي، الجزء الثالث عشر ص ٣٥.

٢ - ابن الاخوة: معالم القرية في احكام الحسبة طبعة.

Reuben Levy (Cambridge, 1938), pp. 165 - 84 (text), 54 - 68 (tr.).

٣ - المقدمة (القاهرة ١٢٨٤) ص ١٨٨.

٤ - Consult Ziadeh, pp. 105 - 27; Gaudefray-Demombynes pp. - ٤

هذه الوثائق تذكر بطريرك طائفة الروم الملكيين وبطريرك اليعاقبة السريان^(١). وبما ان اكثرية الموارنة الساحقة كانت تتوطن الجبال وتتكلم اللغة السريانية فانه كان ينظر اليهم انهم اقلية عنصرية. لا طائفة او ملة. وليس بمستبعد انهم كانوا من ضمن « الجبلية » التي يتكلم عنها القلقشندي^(٢) والتي كانت تضم ايضاً جماعة التركمان والاكراد الذين كانوا جميعاً تحت امرة مقدميهم. وكان البطريرك مسؤولاً عن تصرف رعيته وعن الاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث، كما تنص عليها الشرائع الكنسية الخاصة بهم، وعن ادارة الاوقاف والمؤسسات الخيرية. اما الضرائب فقد كان الاقطاعيون يجمعونها. وكان يفرض على النصارى واليهود ان يلبسوا ثياباً تميزهم عن المسلمين. وفي كتابات ابن تيمية، الفقيه السوري، انعكاس لروح العداء والظلم ضد الذميين في جميع انحاء المملكة. فقد كان ابن تيمية من اتباع المذهب الحنبلي الذي نشأت عنه فيما بعد الحركة الوهابية. وقد كان ابن تيمية تيمية شديد الوطأة في احكامه ضد النصارى واليهود، وكان يقاوم بشدة احتفاظهم بالكنائس واما كن العباداة او تشييدها. يقول لنا دي لا بروكير^(٣) انه لما قدم دمشق زائراً اضطر ان ينزل عن دابته لما دخل المدينة.

الزراعة

يكثر المؤرخون والسياح من التكلم عن مقادير الغلال الزراعية وجودتها في البلاد. فقد كان لبنان وساحله يفوقان سائر البلدان بجودة فاكهتهما. وكان سهل البقاع مشهوراً بحبوه. وقد ذكر لنا الجغرافي السوري، الدمشقي^(٤) (توفي ١٣٢٧) ان بساتين طرابلس التي يسقيها نهر ابو علي لا مثيل لها في العالم. ويذكر بصورة خاصة قصب السكر والحميز واشجار الحمضيات والقلقاس^(٥). والجبل غني بالنباتات

١ - في كتاب الملك بويس التاسع - الذي اشرنا اليه سابقاً - الى الطائفة المارونية يخاطب فيه « امراء الطائفة المارونية وبطريركها واساقفتها ». وكذلك في رسائل اخرى نجد ان « الامير » او « الامراء » يحتلون المرتبة الاولى.

٢ - الجزء التاسع، ص ٢٥٤. العمري، تعريف، ص ١١٣ - ١١٤.

٣ - In Wright, *Early Travels*, p. 293

٤ - الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٢٠٧.

٥ - واصل اللفظة يوناني: colocasia.

التي تستخرج منها الادوية . فالترياق مثلاً ، على ما يقول الدمشقي^(١) ، يستخرج من نبتة تنمو في شقوق الشواهد التي لا يستطيع المرء ان يصل اليها الا اذا ربط ودلي بحبل . وهناك شجرة يصلح خشبها لصنع الملاعق والادوات المنزلية التي يمكن تغليفها برقائق الذهب والفضة ثم تصديرها الى جميع انحاء المعمور . ويذكر ابو الفداء^(٢) ، وقد كان معاصراً للدمشقي ، بساتين بيروت وخصب التربة فيها . ويتحدث عن قناة محفورة في قلب الارض تجلب بواسطتها مياه الشرب الى المدينة . ويشير كذلك الى برجها . وقد زار ابن بطوطة^(٣) طرابلس البرية فوجد ان اقنية عديدة تخترق شوارعها وان البساتين تحيط بها من كل صوب . وقد أخذ بغنى الارض وبغنى المدينة بالمواد البحرية . وكانوا يشبهون بعلبك بانهارها وبساتينها بمدينة دمشق .

ولم يكن اعجاب السائحين الاوروبيين باقل من اعجاب السيّاح والمؤرخين العرب . فان القسيس الالماني فون زوخم^(٤) الذي كان في البلاد المقدسة بين ١٣٣٦ و ١٣٤١ يقول عن شمال لبنان انه : « جبل تكسوه اجمل الاشجار ، غني بجميع انواع الفاكهة والاعشاب التي يمكن ان يتصورها العقل . وفي الجبل مدن وقرى لا عد لها ، سكانها من المسيحيين » . ويقول راهب الماني آخر اسمه بوركهارت^(٥) ، ذهب الى الشرق عام ١٢٣٢ ، ان البلاد التي تحيط بمدينة طرابلس جنة لما فيها من الكروم الجميلة التي لا تحصى ومن بساتين الزيتون والتين وقصب السكر التي لا اظن اني رأيت لها مثيلاً في اي جزء من اجزاء المعمور .

الصناعة والتجارة

ولا نظن ان الحالة الاقتصادية كما وصفها لنا الرحالة العرب والسيّاح الاجانب

١ - ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

٢ - ابو الفداء : تقويم ، ص ٢٤٧ .

٣ - الجزء الاول ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ١٨٥ .

٤ - Von Suchem, p. 48 .

٥ - A Description of The Holy Land, Tr. Aubrey Stewart - ٥

(London, 1896), p. 16 .

كانت حسنة كما يبدو من تقاريرهم . فان الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة المركزية كانت فادحة ان لم نتل انها كانت ابتزازاً . والسياسة المالية التي كانت تتبعها كانت سياسة عقيمة فاسدة . ولا شك في ان هذين العاملين ، الضرائب الفادحة والسياسة المالية الفاسدة ، قد زادت من خطورة الحالة الاقتصادية . ولم تقتصر الضرائب على السلع التجارية كالخيل والمراكب بل كانت تتناول ضروريات الحياة كالمالح والسكر التي كانت الضرائب عليها عالية جداً . وبعض هذه السلع كانت احتككاراً يحتكره السلطان الذي كان يتلاعب بالاسعار لابتزاز الاموال . وكانت قيمة العملة احياناً تنخفض لصالح الحكام مما كان يزيد في فوضى التضخم المالي . والسلاطين المالكين - الذين كانوا يختلفون عن السكان عرقاً ولغة وحضارة - ارادوا ان يكسبوا عطف رعاياهم وولائهم فقاموا بمشاريع بناء على صعيد ضخم كبناء المدارس الفخمة والجوامع الكبيرة والقبور المنيمة مما اقتضى تشييده انفاق المبالغ العظيمة من اموال الخزينة . ولكي يستعيدوا الى الخزينة حالتها الطبيعية كانوا يلجأون الى فرض ضرائب جديدة فادحة لا يقرها قانون او عدل . غير ان المعاهدات التجارية التي عقدها المالكين مع تجار البندقية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، والامتيازات التي منحوها الى التجار الاوروبيين نشطت تبادل المتاجر وعوضت على السكان شيئاً مما كانوا قد خسروه . وفي هذه الاثناء بدأ الباباوات بمنح الحجاج الاذن ليذهبوا الى الارض المقدسة .

كانت الصناعات الوطنية الرئيسية في المنطقة الساحلية ، كما كانت في عهدها السابق ، تشمل صناعة النسيج القطني والحرير والسكر والزجاج والفخار . ويخبرنا بولندي (او لعله الماني) زار طرابلس ١٤٢٢^(١) . ان في المدينة الفا ومثي حائك يصنعون الانسجة الحريرية والمخملية ، بينما كانت طرابلس في اواخر الحروب الصليبية تباهي بان في المدينة اربعة الاف نول^(٢) . ويصف هذا الحاج مرفأ بيروت بأنه مرفأ « رديء قبيح »^(٣) . اما بعلبك في داخلية البلاد فقد اشتهرت بانها مركز صناعي . فقد كانت تصنع نوعاً من القماش من القطن والصوف يعرف بالنسيج

١ — John Poloner, *Description of the Holy Land*, tr. Aubrey

Stewart (London, 1894), p. 33.

٢ — المقرئزي . سلوك ، الجزء الاول ، القسم الثالث ، ص ٧٤٨ .

٣ — Poloner, p. 32 .

البلبيكي الذي كان يقبل على شرائه الملوك والاشراف . وكان ولاية سورية ، عندما يبعثون بالهدايا الى سلاطين القاهرة ، يرسلون من هذا القماش ايضا . وقد ابى احد هؤلاء السلاطين ان يتقبل ثوبا بلبيكيا ينقص ثمنه عن الثلاثين ديناراً^(١) . وكان اهل بلبيك يصدرون الاغطية الى اماكن قصية مثل مراکش واسبانية . ويروي ابن بطوطة ان من جملة ما كانوا يفاخرون بصن الملاحق الخشبية والآنية التي « لا نظير لها في البلاد »^(٢) . ويتابع ابن بطوطة كلامه : « وربما صنعوا الصحيفة وصنعوا صحيفة اخرى تسع في جوفها اخرى الى ان يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها انها صحيفة واحدة » . وبها يصنع الدبس المنسوب اليها « الدبس البلبيكي » وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب . وإذا جمد صار كتلة واحدة يضيفون اليها الفستق واللوز ويسمونها « حلواء بالملين » . وعندما مر جيش تيمورلنك ببلبيك (سنة ١٤٠٠) وهو في طريقه الى دمشق ، وجد فيها مقادير عظيمة من الفاكهة والحبوب والبضائع فاخذ الجند من جميع ما يحتاج اليه مؤنة تكفيهم زمناً طويلاً^(٣) .

ويجب ان تكون صناعة السكر قد ازدهرت واتسعت كثيراً في هذه الحقبة بسبب اقبال الأوروبيين على شراء هذه المادة . فان اللبنانيين لم يزرعوا قصب السكر وحسب ، بل انهم صنعوا السكر وعرفوا الغربيين به . وقد كانت طرابلس وبيروت وصيدا وعكا المدن الرئيسية حيث كان يصنع السكر . وقد اخذ اهالي جزيرة قبرص صناعة السكر من الصليبيين الذين كانوا في سورية ولبنان قبل ان التجأوا الى الجزيرة حيث اقاموا لهم دولة صغيرة . وقد ظلت دمشق وطرابلس المدينتين الرئيسيتين اللتين ثمنان اوروبية حتى اواخر العصور المتوسطة بالسكر بجميع اشكاله المعروفة آنذاك : بشكل رقائق او ناعم بشكل دقيق او بشكل حلوى^(٤) .

١ - ابن تغري بردي ، الجزء السابع ، ص ٧٦٠ .

٢ - ابن بطوطة ، الجزء الاول ، ١٨٦ - ١٨٧ .

٣ - Sharaf - al - Dîn (Cherefeddin), Ali al-Yazdi, *The History of Timur - Bec* , tr . from the French of Pétis de la Crois (London, 1723) , vol. II , p 180 .

٤ - W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen-âge* , — tr . F . Raynaud , 2nd imp . (Leipzig, 1936) , vol. II, p . 686 .

واحتفظت مدينة صيدا بقسط ضئيل مما كانت قد اشتهرت به سابقاً ، نغني الزجاج والخزف .

ونجد في قائمة الصادرات التي كانت تصدرها المنطقة ان بيروت وصيدا كانتا تصدران الفا كهة الى مصر . اما الزيت والصابون فقد كانت بيروت وطرابلس تصدرانه الى مصر ايضاً . وكانت سورية تصدر القطن من سهولها الى امساكن بعيدة مثل البلاد الاسبانية . وبالإضافة الى المراكب الشراعية التي كانت تؤم مينائي بيروت وصيدا بصورة منتظمة فان اسطولاً تجارياً كبيراً كان يأتي الى هذه الشواطئ كل سنة في شهر حزيران ليشحن غلة القطن^(١) . اما الواردات الى هذه البلاد فقد كانت في معظمها من الاقشة الصوفية والكتانية من البلاد الغربية ، واللؤلؤ والحجارة الكريمة والافاويه من الشرق . وقد كانت السلعة الرئيسية التي يتجر بها اهل البندقية مع اهل هذه البلاد الافاويه ولا سيما البهار . ويأتي في الدرجة الثانية الحرير واللؤلؤ والحجارة الكريمة والعاج . وقد كان في بيروت جالية من اهل البندقية ، وكذلك الحال في مدينتي دمشق وحلب . وفي اسواق هاتين المدينتين كان التجار الاوربيون يتصلون مباشرة بالتجار من العراق وفارس والهند . وقد وجد دي لا بروكير^(٢) (١٤٣٢) في دمشق تجاراً من البندقية ، كما انه وجد ايضاً تجاراً من جنوا وفلورنس وكلايريا وتجاراً افرنسيين . فهو يقول : « ان اهل دمشق يغيضون النصارى . وفي كل مساء يأتي اشخاص مكلفون ان يقفلوا عليهم ابواب بيوتهم ، وفي الصباح التالي يحضرون لفتحها ساعة يشاؤون^(٣) . ويخبرنا انه دخل المدينة وعلى رأسه قبعة من القرو فجاء احدهم وضربها بطرف عصاه والقهاها على الارض . وقد علم ان عدد سكان المدينة يبلغ مئة الف نسمة . وعندما جاء هذا السائح الافرنسي بيروت نزل عند رجل من اهل البندقية وشاهد احد الاعياد الاسلامية ، اذ اخذ الناس « يرمون بالالعاب النارية الى الجو والى مسافة كبيرة... وهذه الاضواء اكبر من اي سراج رأيت في حياتي^(٤) » . وفي بيروت طلب اليه

W. Heyd, vol. II, pp. 460—1 .

De La Brocquière, p. 32 .

De La Brocquière, p. 295 .

De La Brocquière, p. 296 .

— ١

— ٢

— ٣

— ٤

المكاري ان يتزي بزي المسلمين قبل ان يبدأ سفرتها جنوباً . وفي مدينة حماة اشترى دي لا بروكير ثوبا من اللباد « لا يخرقه ماء المطر » . ويقول سائح الماني^(١) آخر ان الحجاج الى الاراضي المقدسة يقضون وقتاً طويلاً ، ليلاً نهاراً في المساء مة على الحللى والحجارة الكريمة فيزعجون من في الاسواق بضجيجهم . وفي القرن الرابع عشر كان لجمهورية البندقية قنصل في كل من دمشق وحلب وبيروت وطرابلس^(٢) . وظلت الصناعة والتجارة في ازدهار مطرد حتى القرن الخامس عشر عندما غزا تيمورلنك البلاد بمحافله في مستهل هذا القرن .

غزوة المغول الاخيرة

انقضّ تيمورلنك - الذي كان يدعي انه من سلالة جنكيزخان - بمحافل التتر من اواسط آسية الى غربيها كأنه اعصار هائل مخلقاً وراءه الدماء والدمار . وقد وصلت طلائع جيشه سورية الشمالية في شهر تشرين الاول عام ١٤٠٠ . وهذه هي المرة الرابعة ، او حتى الخامسة ، التي فيها هاجم المغول هذه البلاد وكانت الغزوة الاخيرة . اما مدينة حلب فقد استبيحت ثلاثة ايام ، فقتل من اهلها قرابة عشرين الف نسمة وقطعت رؤوسهم ونضدت بشكل مصطبة مستديرة علوها عشرة اذرع ومحيطها عشرون^(٣) . اما حماة وحصن فانها اقتنعنا ان المقاومة معناها الهلاك التام . وقد ظل جند التتر مدة طويلة في بعلبك ليمتعوا انظارهم ببدايع قلعتها التي « يظن ان الملك سليمان امر الجن ببنائها »^(٤) . ولكن هذا لم يحل دون استيلاء التتر عليها . ومن هناك ارسلت كتائب الى مدن الشاطئ فعادت من بيروت وصيدا محملة بالغنائم والاسلاب . في هذه الاثناء كان الجيش المصري بقيادة السلطان الناصر فرج (١٣٩٨ - ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ - ١٤١٢) يتقدم زاحفاً نحو دمشق فوصلها في ٢٣ كانون الاول (١٤٠٠) . وكان في عداد حاشية السلطان ابن

١ - Felix Fabri, vol. II, pp. 84 — 5 .

٢ - Heyd, vol. II, pp. 464 — 5 .

٣ - ابن تغري بردي، الجزء السادس، القسم الثاني، ص ٥٢ . ابن عربشاه : عجائب المقنور في اخبار تيمور (القاهرة ١٢٨٥) ص ٩٤ ، ٩٨ . ابن اياس، الجزء الاول ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

٤ - شرف الدين ، الجزء الثاني ، ص ١٨٠ .

خلدون المؤرخ الاجتماعي المشهور التونسي المولد (١٣٤٢ - ١٤٠٦) الذي كان في هذا الوقت قاضي القضاة في القاهرة . وقد بدأت المناوشات الاولى مع طلائع الجيش في الخامس والعشرين من كانون الاول . وبعد اربعة ايام وصل تيمور الى دمشق . وكان السلطان قد انتدب ابن خلدون موفداً من قبله لمقابلة تيمور ، بعد ان دلتى بجبل من على السور ليذهب لمقابلة القائد العظيم . وقد ترك لنا ابن خلدون ذاته وصفاً لهذا الاجتماع الذي حصل بينه وبين تيمور في العاشر من شهر كانون الثاني ١٤٠١ . وانه حقاً لاجتماع طريف بين اكبر عالم في زمانه وبين اكبر فاتح^(١) . ويقال ان حوالي ثلاثين الف نسمة من اهل دمشق هلكوا اما بالسيف او بالحريق . ولم يبق من الجامع الاموي قائماً سوى جدرانه . واصيبت الصناعة بضريرة قاصمة عندما حمل تيمور معه الى عاصمته سمرقند خيرة الصناع الدمشقيين من الفنانين وصانعي الاسلحة وصناع الادوات الفولاذية والحديدية والزجاجية . ولم تنج الحركة الفكرية الادبية من هول الكارثة فان كثيرين من العلماء قتلوا او اسروا . وكان من جملة الاسرى فتى دمشقي اسمه ابن عربشاه الذي عاد الى وطنه حيث توفي عام ١٤٥٠ بعد ان كان قد الف كتاباً في سيرة تيمور . وقد وصفه انه طاغية ظالم خليع . وفي السنة التالية انتصر تيمور على جيش الاتراك العثمانيين بالقرب من انقره واخذ بايزيد اسيراً .

النواحي الثقافية

بدأ عهد الظلام في الفكر ع العرب في حكم المماليك . وقد استمرت هذه الفترة المظلمة الى القرن التاسع عشر . وكانت تزداد حلكاً طيلة عهد الحكم العثماني . فان الحرب والفوضى والمرض والجوع والظلم تتنافى مع الجو الذي يعيش فيه الفكر ويزدهر . كذلك كانت العزلة التي وجد العرب انفسهم فيها حائلاً دون التلقيح الفكري الروحي بين الشعوب . وقد كان السلاطين انفسهم من اغبي الحكام الذين عرفهم الاسلام ومن اقلهم ثقافة . فقد كانوا عبيداً يتميزون بالقسوة

١ - ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، نشره محمد ابن تاووت الطنجي (القاهرة ١٩٥١) :

Walter J. Fischel, *Ibn Khaldūn and Tamerlane* (Berkeley, 1952).

والقفاظة لا يشفع بهم سوى انهم كانوا عسكريين اشداء . وليس من المالك^١ البرجين (١٣٨٢ - ١٥١٧) من هو ابن رجل عربي مسلم سوى السلطان برقوق . وكان خليفته برسباي (١٤٢٢) يجهل العربية . وقد امر بقطع رأسي طبيبه لانها عجزا عن ان يشفياه من مرض خطير . وكان اينال (١٤٣٥ - ١٤٦٠) يجهل القراءة والكتابة . ويقول لنا مؤرخ معاصر^(١) ان اينال لم يكن يستطيع ان يتلو الفاتحة او سورة من سور القرآن القصيرة بدون لحن ، مع العلم بان على كل مسلم ان يتلو الفاتحة في صلواته الخمس اليومية . وكان يوقع الرسائل والوثائق الرسمية بتصوير اسمه فوق اسم كاتبه . وكان متهماً - كما كان بيبرس وسواه من المالك - باللواط . اما خليفته الثالث يلباي (١٤٦٧) فقد كان امياً ومنصباً بمس من الجنون . ولم يكن حكام المقاطعات يختلفون في صفاتهم الخلقية والفكرية عن مواليتهم السلاطين . وهل يرجى ان يكون المولى افضل من سيده؟ ومن المستعرب حقاً انه لم يخطر ببال احد من مفكري هذه الفترة ان يسجل لنا تاريخ تلك الحقبة او ان يصف الحالة الفكرية فيها .

المدارس

اما في مصر فقد عوّض السلاطين المالك عن تقصيرهم في الحياة الفكرية بتشديد بنايات فخمة في القاهرة لا يزال كثير منها الى يومنا هذا تشهد على ما كان عاياه الفن المعماري الاسلامي من الروعة والجمال . منها مسجد برقوق وضريحه ومسجد قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٥) الذي يشمل ايضاً مسجداً للصلاة وضريحاً وبركة ماء ومدرسة ، ومسجد الغوري (١٥٠٠ - ١٥١٦) الذي حكم قبل المملوك الاخير .

كان بناء المدارس التي كانت من نوع المساجد التي تضم الى جانبها مدرسة قد استمر في العهد النوري الايوبي . وهذه المدارس لم تكن معاهد تعنى بالعلوم والآداب والفنون ، كما كانت مدارس بغداد التي اسسها المأمون (٨٣٠) ، وانما كانت حلقات دراسية تعنى بدرس علوم الدين والفقه - وكان الفقه ملازماً لعلوم الدين - وكانت تقوم الدولة باودها ونفقاتها ، على ان

١ - ابن تغري بردي ، الجزء الثامن ص ٥٥٩ .



التكية المولوية في طرابلس ، وهي من اقدم المباني العربية في لبنان، التي لا تزال الى الآن في حالة جيدة .

تكون هذه المدارس نصيراً للدين الحنيف وحرّبا على الفرق الخارجة على السنة . وهذا يعلل لنا رغبة المالك الغربية في بناء المعاهد الدراسية العالية في جميع انحاء المملكة .

وكان لهذه المعاهد اوقاف اما بشكل املاك او ريع يدفع منه اجور للمعلمين ومنح للطلاب . وقد ازدادت الاوقاف كثيراً في عهد المالك . وكانت حياة التعليم تتألف من العلماء والفقهاء واللغويين واصحاب الحديث . وكانت نواة

مادة التدريس علم الكلام . وكانت هذه المعاهد التعليمية ضيقة الاطار منكشة على ذاتها لا يدخلها بصيص من نور من عالم الفكر الخارجي . ومن خريجي هذه المعاهد كانوا ينتقون موظفي الحكومة والقضاة والمعلمين والوعاظ والكتاب . اما في لبنان فان المدينة الوحيدة التي انتفعت من نظام المدارس الذي وضعه المالك كانت طرابلس . فقد انشأوا فيها ما لا يقل عن اربعة معاهد ينفق عليها الحكام^(١) . وكان اكبرها وابعدها اثرأ المدرسة القرطائية نسبة الى احد المالك من موالي قلاوون الذي بناها عام ١٣٢٧ ودفن فيها كما تدل احدى النقوش الكتابية فيها . والبناء لا يزال قائماً الى يومنا هذا الى جانب المسجد الكبير . وهناك مدرسة اخرى تعرف بالخاصونية بنيت عام ١٣٧٣ نسبة الى « خاتون » محظية احد الحكام الذي كان مولى من موالي السلطان الاشرف .

ومن المعاهد الدينية الاخرى التي كانت تقوم ايضاً بدور التعليم التكمية او الزاوية الصوفية (وتعرف ايضاً بالرباط والخانقاه) وتشبه هذه التكميات اديرة الرهبان النصارى . فقد كانت بمثابة مركز اجتماعي عام لاصحاب الطريقة ومدرسة تدرس فيها تعاليم الطريقة الصوفية وانظمتها . اذ انه في القرن الثالث والرابع عشر كانت اهم الطرق الصوفية قد تأسست . ففي بغداد اسس عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦) الفارسي الاصل طريقته التي تعرف باسمه : الجيلانية (وتعرفها العامة بالكيلانية) وهذه الطريقة من اقدم الطرق الصوفية واوسعها انتشاراً . وتأسست كذلك الطريقة القادرية ، وكان من اتباعها ودعاتها بعلبيكان نشرا الدعوة لها في جميع الانحاء السورية . وظهرت الطريقة الرفاعية نسبة الى رجل عراقي اسمه احمد الرفاعي (توفي ١١٧٥) التي كان اتباعها يقومون بامور غريبة كابتلاع الحجر . وقد انتشرت هذه الطريقة في عهد المالك في جميع الانحاء السورية اللبنانية . ويذكر القلقشندي^(٢) ان مدينة بعلبك كانت غنية بالمساجد والمدارس

١ - محمد كرد علي : خطط الشام ، الجزء السادس (دمشق ١٩٢٦) ص ١٢٨ - ١٢٩ .

راجع ايضاً :

Khalil Totah, *The Contribution of the Arabs to Education* (New York, 1926), p. 23.

يذكر طوطح انه كان في طرابلس ١٣ مدرسة ، ولكنها ليست كلها من عهد المالك .

٢ - القلقشندي ، الجزء الرابع ، ص ١٠٩ .

وتكليات الصوفية والبيارستانات . وكانت مدرستها النجمية التي سميت باسم والد صلاح الدين الايوبي مقراً للدراسات الصوفية . وقد كان في طرابلس ثمانية دور لاصحاب الطرق الصوفية^(١) . وكان فيها بالاضافة الى ذلك بيارستانان^(٢) بنى احدهما حاكم حلب الذي توفي عام ١٣٤١ . وكانت البيارستانات كالمدارس تقوم على الاوقاف، وكانت مراكز لتعليم العلوم الطبية وللتمرين على الطبابة . وأقدم البيارستانات واشهرها على الاطلاق البيارستان الذي انشأه نور الدين في دمشق . وفي منتصف القرن الثالث عشر زاد اتساعه وادخل عليه كثير من التجهيزات وذلك بفضل الطبيب الاول فيه ، بدر الدين ، ابن احد القضاة البعلبكيين وكان فيه جناح خاص بالنساء، وآخر للمصابين بالامراض العقلية وآخر للعمليات الجراحية . وكان الطبيب بدر الدين يعلم الطب فيه . وقد ألف كتباً عديدة في الطب^(٣) .

والتعليم العالي كان حكومياً ، اما التعليم الابتدائي فقد كان من اختصاص الجامع والمسجد . وكان مقر المدرسة الابتدائية في دار الجامع او في الغرفة الملاصقة له . وكان خادماً المسجد أو مساعده معلم الصبية . اما الكتب المدرسية فقد كانت القرآن الكريم وكتابين آخرين . وفيما يلي خلاصة لفصل من كتاب ابن الاخوة^(٤) (توفي ١٣٢٩) - وكان محتسباً سوري المولد أو مصرى - وهي تعطي القارئ فكرة عن اساليب التعليم الابتدائي وغاياته التربوية :

« واعلم انها اجل المعاش لقوله ﷺ خيركم من تعلم القرآن وعلمه . وفي حديث آخر : خير من مشى على الارض المعلمون الذين كلما خلق الدين جدّ دوه . فحيث يشترط في المعلم ان يكون من اهل الصلاح والعفة والامانة حافظاً للكتاب العزيز ، حسن الخط ويدري الحساب والاولى ان يكون مزوجاً ولا يفسح لعازب ان يفتح مكتباً لتعليم الصبيان الا ان يكون شيخاً كبيراً وقد اشتهر بالدين والخير . ومع ذلك فلا يؤذن له بالتعليم الا بتركيبة مرضية وثبوت اهليته لذلك . وينبغي للمؤدب ان يترفق بالصغير وان يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة

١ - كرد علي ، الجزء السادس ، ص ١٥٧ .

٢ - ابن الشحنة ، ص ٢٦٣ .

٣ - ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الاطباء نشر :

August Mueller (Konigsberg, 1884), vol. II, pp. 259 — 63 .

٤ - ابن الاخوة : معالم القرية ص ١٧٠ — ١٧٢ .

الحروف وضبطها بالشكل ، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعاً . ثم يعرفه عقائد السنن ثم اصول الحساب وما يستحسن من المراسلات وفي وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخط على المثال ويكلفهم عرض ما املاه عليهم حفظاً غائباً لا نظراً ، ومن كان عمره سبع سنين امره بالصلاة في جماعة لان النبي ﷺ قال: علموا صبيانكم الصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر. ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لامرهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما، وتقبيل ايديهما عند الدخول اليهما، ويضربهم على اساءة الأدب والفحش من الكلام وغير ذلك من الافعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والبيض والترد وجميع انواع القمار . ولا يضرب صبياً بعصى غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لا تؤلم الجسم بل تكون وسطاً . ويتخذ مجلدا عريض السير ويعتمد بضربه على الألياء والافخاذ واسافل الرجلين لان هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة . وينبغي للمؤدب ان لا يستخدم احد الصبيان في حوائجه واشغاله التي فيها عار على آبائهم كنقل التراب والزبل وحمل الحجارة وغير ذلك ، ولا يرسله الى داره وهي خالية لئلا تتطرق اليه التهمة . ولا يرسل صبياً مع امرأة لكتب كتاب وغير ذلك . فان جماعة الفساق يحتالون على الصبيان بذلك . ويكون السائق لهم اميناً ثقة متأهلاً فانه يتسلم الصبيان في الغدو والرواح ، وينفرد بهم في الاماكن الخالية ويدخل على الصبيان في بيوتهم ، ولا يعلم الخط امرأة ولا جارية ، فقد ورد النهي بذلك لقوله صلعم لا تعلموا نساءكم الكتابة ولا تسكنوهن الغرف ولكن علموهن سورة النور وقيل ان المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سماً .

مدارس النصارى

اما في المناطق المسيحية فقد كانت اديرة الرهبان مراكز التعليم والثقيف . وكان المعلمون رهباناً وقسيسين ، وكان بناء المدرسة الكنيسة ذاتها او البناء الملاصق لها . وكان التعليم العالي وقفاً على اقلية تهيم ذاتها بالانحراط في سلك الرهبنة او الكهنوت . وكان الرهبان ، باستنساخهم المخطوطات القديمة وحفظها ونقل محتوياتها من جيل الى جيل بالدرس والتدارس ، هم الذين حفظوا قبس المسيحية مضيئاً . وكانوا ، كما كان زملاؤهم من الاكليروس في انحاء اخرى من العالم ، حماة الفكر

الوطني والتراث القومي . وقد كانت السريانية اللغة المحكية بين الموارنة في الاماكن النائية المنعزلة . حتى انه عندما اصبحت اللغة العربية تستخدم في كتبهم الدينية فانهم كانوا يكتبونها بالحرف السرياني المعروف بالكرشوني . وهي عادة لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا .

عند مسهل عهد الممالك - في منتصف القرن الثالث عشر - كانت اللغة العربية قد انتصرت انتصاراً تاماً وشاعت في جميع انحاء بلدان الهلال الخصيب باستثناء « جزر لغوية » هنا وهناك بين الطوائف المسيحية من يعاقبة ونساطرة وموارنة . والموارنة الذي يشير اليهم دي فتري^(١) (توفي ١٢٤٠) بقوله انهم « يستعملون احرف الهجاء السكندانية انما يتكلمون لغة العرب » فيبدو انهم من موارنة فلسطين والمنطقة الساحلية . « والسوريون » الوارد ذكرهم في كتاب رحلة (١٣٢٢ - ١٣٥٦) يعزى الى موندفيل^(٢) الذي يقول عنهم انهم « يستخدمون الخبز الفطير في العشاء الرباني ، وعندما يكتبون يستخدمون حروف الهجاء العربية » يجب ان يكونوا نصارى من سكان المدن . وفي عام ١٣٦٥ لما هاجم القبارصة مدينة الاسكندرية رأى السلطان انه من الحكمة ان يلقي القبض على اساقفة الموارنة ويسجنهم في دمشق . اما اسقف اهدن فانه نجا من الاسر وتوارى عن العيان ، وفي مخبأه كتب الاناجيل باللغة السريانية وبالعربية لكن بالخط الكرشوني^(٣) مما يدل على ان رعيته كانت في تلك الحقبة مزدوجة اللغة : السريانية والعربية . والراهب الفرنسيسكاني غريغون الذي عاش في لبنان من ١٤٥٠ الى ١٤٧٤ وامترج بالاكليروس الماروني امتراجاً تاماً (ويدعى بعضه أنه سيم بطريركا عليهم) وجد انه يجب عليه ان يتعلم اللغتين : السريانية والعربية^(٤) . وقد ارسل غريغون تلميذين شاوين على كثير من الذكاء الى رومة كان احدهما جبرائيل القلاعي اللحفدي (توفي ١٥١٦) . وقد عاد جبرائيل القلاعي الى موطنه واصبح مطرانا ومؤلفاً . وفي كتاباته يظهر اثر السريانية في عربية ذلك العهد .

١ - *History of Jerusalem*, p. 81 .

٢ - *In Wright*, p. 189 .

٣ - اللويهي ، ص ١٢٩ .

٤ - لامنس « في مجلة المشرق » المجلد الاول (١٨٩٨) ص ١٥ ، ١٢٧ - ١٢٨ . ايضاً

Revue de l' Orient chrétien, vol. IV (1899) pp. 76, 95 - 8.

المحصل الفكري

لم يتح لاي نتاج فكري من تلك الحقبة ان يرى النور ، والواقع انه لا يستحق ان يرى النور . فان اكثر المخطوطات التي ذكرها المؤرخون ، او المخطوطات التي حفظت لنا تعنى بالدين والشريعة واللغة والشعر ، هذا الى كونها لا تحتوي على شيء من الجدة في الفكر . فان جبرائيل القلاعي مثلاً ، يعزى اليه انه كتب مقالات عديدة دافع فيها عن قويم ايمان الكنيسة المارونية وعن علاقتها بكنيسة رومة . وقد نشرت له مقتطفات من تاريخه للبنان وبعض القصائد باللغة العامية^(١) . ومن يستحق الذكر من الطرابلسيين علي بن خليل الطرابلسي (توفي ١٤٤٠) الذي كان قاضياً في بيت المقدس . وله مؤلف عن المذهب الحنفي نشرته اولا مطبعة بولاق (١٣٠٠ هـ) ثم نشر ثانية في القاهرة (١٣١٠ هـ)^(٢) ، ومن المؤرخين الذين لهم مكانة خاصة صالح بن يحيى (توفي ١٤٣٦) الذي اعتمدنا مؤلفه « تاريخ بيروت » كثيراً عند كتابتنا هذا الفصل^(٣) . وقد استقى صالح بن يحيى معلوماته من مؤلفات امراء الغرب الذين كان يمت اليهم بصلة النسب . ومما زاد في قيمة مؤلفه انه كان يضيف اليه ملاحظاته ومشاهداته الخاصة فجاء تاريخه تاريخ شاهد عيان للفترة التي نحن بصدددها . وقد اتم تاريخ صالح بن يحيى مؤرخ آخر اسمه حمزة بن احمد بن ساباط من بلدة عاليه (توفي ١٥٢٠)^(٤) ، وهو الذي كان قد تبناه السيد عبد الله التنوخي الشهير من بلدة عبيه الذي شرح العقيدة الدرزية وعلق عليها . أما الدويهي الذي توفي عام ١٧٠٤ والشدياق الذي توفي ١٨٥٩ وغيرهم من المؤرخين اللبنانيين فقد نقلوا عن المؤرخين اللذين سبقت الاشارة اليهما رأساً او بالواسطة .

١ - مجلة المشرق ، المجلد ٤٦ (١٩٥٢) ص ٥٤١ - ٥٥٢ . الدويهي ص ١٥٢ - ١٥٤ ، ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ .

٢ - الدبس ، الجزء السادس ، ص ٥١٨ . يوسف سرقيس : معجم المطبوعات العربية والمعرية (القاهرة ١٩٢٨) . عدد ١٢٣٦

٣ - تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، الطبعة الثانية (بيروت ١٩٢٧) .

٤ - كنموذج لكتابات ، راجع صالح ، ص ٢٣٠ - ٢٣٨ . حيدر الشهابي : الفرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان ، نشر نعم مغيب (القاهرة ١٩٠٠) ص ٥٦٤ - ٥٩٩ .

الفصل الثالث والعشرون

فيل ظهور العمانيين

شهد حوض المتوسط عند منصرف القرن الخامس عشر انقلاباً جذرياً في التجارة الدولية وتغييراً في الطرق التجارية الرئيسية . وما ان استهل القرن السادس عشر حتى شهد العالم ايضاً انقلاباً سياسياً في توازن القوى الدولية الرئيسية . وكان لكليهما ، الانقلاب التجاري والسياسي ، اثر سييء في لبنان .

طريق الهند البحرية

في سنة ١٤٨٨ ادت الاسفار البحرية التي قام بها بحار برتغالي اسمه برثوليو دياز الى اكتشاف الرأس الذي سمي « رأس العواصف » ، الاسم الذي استبدل فيما بعد باسم « رأس الرجاء الصالح » . وفي سنة ١٤٩٧ غادر بحار برتغالي آخر لشبونه بسفينته وسافر بطريق رأس الرجاء الصالح الذي كان قد اكتشفه دياز ، ووصل مدينة قاليقوت في مدراس الغربية . فكانت سفرته هذه اول سفرة بحرية من غربي افريقيا حول القارة الى الهند البلاد الغنية بالافاويه وبين هذين التاريخين (١٤٨٨ و ١٤٩٧) قام بحار ايطالي آخر هو كريستفوروس كولومبس بسفرة بحرية شقت الحجب التي كانت تحجب نصف الكرة الارضية ، واسفرت عن اعظم اكتشاف جغرافي في التاريخ . وفي عام ١٥٢٠ سافر بحار برتغالي آخر ، فرديناند مجتلان ، بطريق رأس الرجاء الصالح وسار عبر البحار الى جزر الفيلين . وتابعت سفينة من سفنه سفرها وأتمت الدورة حول الكرة الارضية لأول مرة في التاريخ . وكان من نتائج هذه الاكتشافات الجغرافية ان اتجهت انظار العالم نحو الغرب . واصبحت البرتغال واسبانية ، ومن بعدهما انكلترا وفرنسا الدول العالمية . وصار بإمكان تجارتها الآن ان تصل شرقي افريقية والجزيرة العربية والهند والصين بحراً . وهي طريق ابعد مسافة من الطريق الذي كانت تسلكه التجارة قبلاً لكنها

اقل كلفة ، فضلاً عن انها مكنت التجار من الاستغناء عن المرور بالموانئ المصرية والبنانية والسورية . ومعلوم ان سبب ازدهار الاقاليم الواقعة شرقي المتوسط انها كانت تعتمد اولاً وآخرأ على مرور التجارة من الشرق في طريقها الى الغرب . اما الآن فان هذا الازدهار قد تقوّضت اركانه . ولم يعد البحر المتوسط ، بعد ان انحرفت عنه الطرق التجارية ، وبحراً يتوسط العالم المتمدن ، كما كان زمن الفينيقيين . كان على البحر المتوسط ان ينتظر الى عام ١٨٦٩ لما تم فتح قناة السويس اذ اعاد فتحها الى المنطقة بعض ما كانت قد فقدته من مكانة تجارية . في هذه الاثناء وجد التجار اللبنانيون انفسهم مجبرين على اتباع طرق القوافل البرية . وبانبلاج فجر الاكتشاف والريادة اسدل ستار من الظلام على هذه المنطقة ، وكان سبباً في ازدياد عزلتها .

ولم تقتصر النتائج السياسية لهذا العهد الجديد على الغرب وحده بل تناول ايضاً بلاد فارس . فان اتصال الغرب ببلاد فارس مباشرة عن طريق الخليج العربي كان باعثاً على نشاط تجاري قوي . ففي عام ١٥٠١ برزت بلاد فارس كدولة قوية في عهد الصفويين الشيعيين . وفي هذه الاثناء اخذ الاتراك العثمانيون - الذين كانوا خلال القرنين الاخيرين يثبتون اركان ملكهم في البلدان التي استولوا عليها في آسية الصغرى وشبه جزيرة البلقان - يتطلعون جنوباً الى البلدان العربية التي كانت في حوزة المماليك . والاتراك مثل اسلافهم المماليك كانوا سنيين .

مقدم العثمانيين الاتراك

وكان انه كلما ازدادت حالة البلاد الاقتصادية الواقعة تحت حكم المماليك سوءاً فقد المماليك قوتهم ونفوذهم فان القوة التي جابه المماليك بها غزو التتر وهجمات الصليبيين كان قد انقضى عهدا . وكان العدو المتربص لهم في الشمال يشاركهم العقيدة الدينية ولكنه كان اصلب عوداً من اي عدو آخر واجهوه في ساحة القتال . هؤلاء هم الاتراك العثمانيون الذين يمثلون الطور الأخير لقوة الاسلام العسكرية والذين انشأوا اعظم امبراطورية اسلامية في رقعتها الجغرافية .

واما نشأة الاتراك في اواسط آسية وبدء حياتهم السياسية فامران يكتنفهما كثير

من الغموض التاريخي . ان اللغة التركية من اللغات اللاصقة (agglutinative) وتنتمي الى فرع من عائلة اللغات التي تعرف بلغات الاورال - التاي التي هي لغات مغولية . والادب القليل المدون^(١) الذي كان عند الاتراك اتخذوا له الخط العربي، لما وصلوا آسية الغربية ، وهو الخط الذي ظل معمولاً به حتى عام ١٩٢٨ لما استبدله مصطفى كمال رسمياً بالحرف اللاتيني . وباتخاذ الاتراك حروف الهجاء العربية واعتناقهم الاسلام دخلت آلاف المصطلحات الدينية والعلمية والادبية والتقنية العربية صلب لغتهم . كما اخذوا كلمات لا عد لها من اللغة الفارسية لا سيما في حقلي الدبلوماسية والشعر . اما دين الاتراك القديم فكان الدين الشاماني (دين شعوب الاورال - التاي) وهو دين شرك قديم عميق الجذور بعبادة الطبيعة وقواها . وهو من نوع الدين الذي يعتنقه الاسكيمو وهنود اميركا الحمر الذين ينتمون ايضاً الى الشعوب المغولية . وقد كان اتصال العرب بهم يعود الى القرن السابع لما وصلوا في فتوحاتهم، بعد الغزنوية ، عبر نهر جيحون . وكان السلجوقيون اول شعب تركي اعتنق الاسلام وانشأ لنفسه دولة مستقلة ، وذلك في القرن الحادي عشر . تقول الرواية ان السلجوقيين يمتون الى العثمانيين بصلة القرابة بواسطة قبائل الغز^(٢) .

كان الاتراك في اول عهدهم قبائل من البدو الرحل يجوبون اواسط اسية . وقد انفصل عنهم بعض القبائل - التي اصبحت فيما بعد تعرف بالعثمانيين - التي اتجهت في تجوالها غرباً عبر ايران الى بلاد الاناضول حيث استقروا وانشأوا لهم دولة قامت على انقاض دولة السلاجقة، ثم اخذت في الاتساع على حساب البيزنطيين . ويبدأ تاريخ القومي بعثان (عاش حوالي ١٣٠٠) مؤسس دولتهم . تقول رواياتهم ان السلاجقة اقطعوا اباه ارطغرل اقطاعاً قرب بورصة . وكانت هذه المقاطعة تقع في نقطة استراتيجية بين الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية

١ - قد يكون انهم استعملوا احرف الهجاء السريانية على مستوى بسيط وهم بعد في اواسط اسية .

٢ - اذا اراد القارئ المزيد حول منشأ الاتراك عليه ان يراجع :

Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938), pp. 6 - 11; Mehemed Fuad Koprulu, *Les Origines de L'empire ottoman* (Paris, 1935) pp. 82-8; Joseph Von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches*, vol. I (Pest, 1827), pp. 40 seq .

المتداعية والحدود الغربية لدولة السلاجقة التي كانت قد دخلت طور الاحتضار .
وتقول الرواية ايضاً ان جد عثمان جاء على رأس قبيلته من العراق الى بلاد
الاناضول ، التي كان قد غلب عليها التترک بسبب السلاجقة . ولا شك في انه كان
مسلياً بدليل ان اسمه كان عثمان ، وهو اسم الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين .
وكان عثمان هو الذي بدأ التوسع باتجاه الحدود الغربية فالبوسفور والبحر الاسود .
وكان خلفاؤه الذين اتوا بعده مباشرة من الرجال الاشداء المتفوقين اذا قيسوا
بالحكام العثمانيين في العهود المتأخرة . وقد سقطت بورصة في ايديهم عام ١٣٢٦
وهي السنة التي توفي فيها عثمان . وجعلت بورصة عاصمة الدولة . وفي عام ١٣٤٥
عبر الاتراك الدردنيل واحتلوا غالبيولي واقاموا لهم هناك موطناً قدم على الارض
الأوربية . وهكذا اصبح عثمان الذي كان سابقاً حاكم مقاطعة صغيرة (بيك) عند
السلاجقة مؤسس دولة من اكبر واقوى الدول الاسلامية ومن اطولها عمراً
(١٣٢٦ - ١٩٢٢) . وكان عدد سلاطينها^(١) ستة وثلاثين سلطاناً . وفي خلال
القرنين التاليين وصلت الدولة العثمانية الى احتلال مركز سياسي خطير في شؤون
آسية الغربية وجنوبي شرقي اوروبة وفي شمالي افريقية . ولما افتتح السلطان محمد
الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) ، السلطان السادس بعد عثمان ، مدينة القسطنطينية عام
١٤٥٣ أصبحت العاصمة الجديدة من امنع المدن في العالم في ذلك العهد واخصرها
من الناحية الاستراتيجية . وفي عهد الفتوحات ضم الاتراك شعوباً مسيحية تتكلم اللغة
اليونانية وسلاجقة واقواماً تركية اخرى وقوميات متفرقة في آسية الصغرى وتمثلوها .

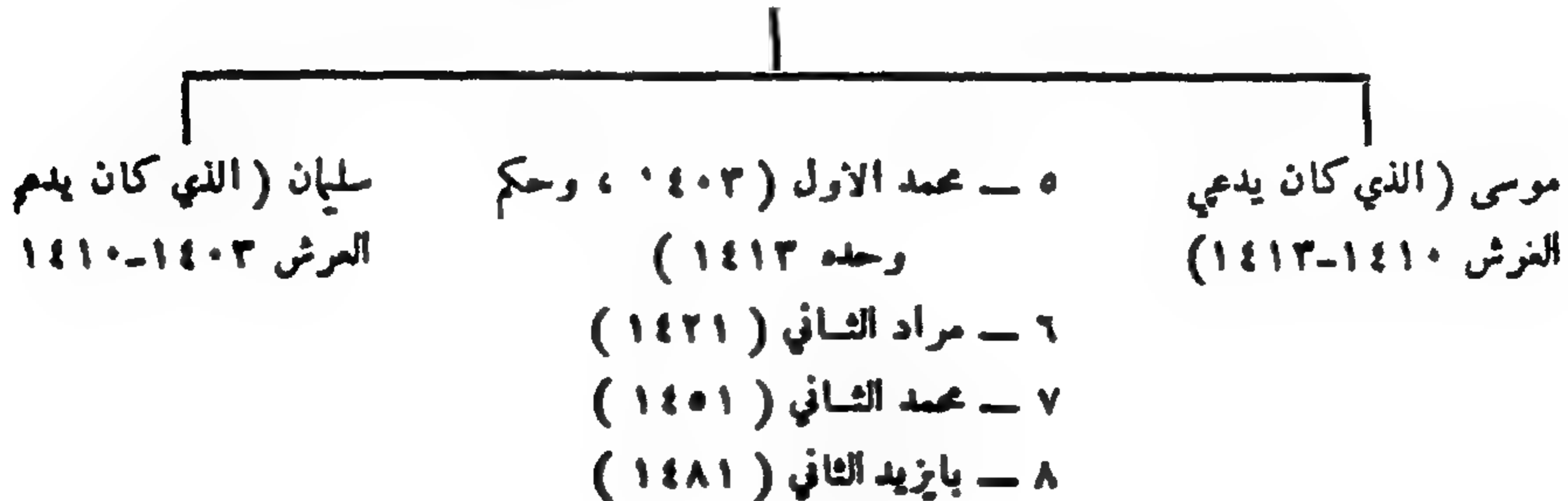
١ - شجرة السلاطين العثمانيين الاول :

١ - عثمان الاول (حوالي ١٣٠٠)

٢ - اورخان (١٣٢٦)

٣ - مراد الاول (١٣٥٩)

٤ - بايزيد الاول (١٣٨٩ - ١٤٠١)



الصراع مع الدولة الفارسية

وإذ لم تكن ثمة دولة قوية تقوم شرقي السلطنة العثمانية كانت حدودها في آسية في مأمن من الخطر . لكن قيام دولة فارسية قوية متحدة بقيادة اسماعيل الصفوي (١٥٠٠ - ١٥٢٤) غير الموقف السياسي تغيراً جذرياً . فقد انقلبت الحال مما كانت عليه في العهدين الروماني والبيزنطي بالنسبة الى الحكم الساساني . كانت الدولة الصفوية التي أسسها الشاه اسماعيل أشهر الدول الفارسية الإسلامية وأعظمها مؤدداً . وقد قضى اسماعيل على آخر معالم السنة في مملكته وأعلن ان دين الدولة الاسلام حسب المذهب الشيعي . واخذ في نشر الدعوة ، التي كانت مزيجاً من السياسة والدين ، بين الاتراك والفرس في آسية الصغرى . وبما انه كان يعتبر الزعيم الروحي عند الشيعة فانه كان يستطيع ان يستميل اليه الشيعة في كل قطر لينصروا قضيته . واسس طريقة صوفية عرف اتباعها باسم قزل باش (ومعناه اصحاب الرؤوس الحمراء نسبة الى لباس الرأس الاحمر الذي كانوا يلبسونه) . وقد توطدت اركان طريقته هذه في تركيا واصبحوا من القوة والمنعة بحيث ان التشريع الذي وضعه مصطفى كمال عام ١٩٢٥ عجز عن ان يقضي على طريقته هذه .

ازاء هاتين الدولتين الناشئتين اللتين تتميزان بدفق من الحيوية والقوة وجد الممالك أنفسهم في حالة وهن وعجز . وكانت العلاقات بين الممالك والعثمانيين قد دخلت طور التوتر الشديد في عهد خشقدم (١٤٦١ - ١٤٦٧) ومحمد الفاتح . ولكن الحرب الفعلية لم تكن قد نشبت بعد . وفي عام ١٤٨٦ تحدى قايتباي حق بايزيد الثاني العثماني في السيطرة على اداة وطرسوس ومدن اخرى على الحدود . وقايتباي هو السلطان الذي بعث الى البابا برسالة يهدده فيها انه سينتقم لنفسه من النصارى في سورية ولبنان ذلك لان فرديناند وايزابلا كانا في ذلك الوقت يشددان الحناق على البقية الباقية من الدولة الاسلامية في الاندلس . وقد ربط الممالك في هذه الفترة بمصيرهم بمصير الدولة الصفوية على اساس ان خطر الصفوية على سيادة الممالك في سورية ولبنان اقل من خطر الاتراك العثمانيين .

في شهر آب عام ١٥١٤ وقف جيشا العثمانيين والصفويين وجهاً لوجه في ساحة الحرب عند جالدران شمالي بحيرة اورمية . ولم تدم المعركة طويلاً فان فرسان الشاه اسماعيل انهزموا امام هجمات الانكشارية^(١) في جيش السلطان سليم . فتابع الجيش المنتصر العدو المنهزم الى مشارف تبريز عاصمة الصفويين . فاحتلوها واستولوا على قسم من ارمينية والعراق . وكانت الحرب قد انهكت قوى الجند فلم يستطيعوا التقدم ، حتى ولا الاحتفاظ بما نالوه من ظفر فعادوا (١٥١٥) الى مواطنهم املاً بان يعودوا مرة اخرى .

موقعة مرج دابق الحاسمة

وفي ربيع السنة التالية زحف قانصوه الغوري على رأس جيش مصري الى شمال سورية مدعياً انه انما ذهب الى هنالك للتوسط بين الاتراك والفرس . ولكي يخفي اهداف حملته هذه ولكي يوهم الناس انها حملة سلمية فانه اصطحب معه الخليفة المتوكل^(٢) وقاضي القضاة . غير انه في الواقع كان ذاهباً لنصرة حلفائه الفرس . وقد عرف السلطان سليم العثماني بحقيقة الامر بواسطة جواسيسه . وعندما بعث قانصوه بموفد لمقابلة السلطان سليم فان هذا عوضاً عن ان يحسن وفادته قتل افراد الحاشية التي كانت ترافق الموفد وحلق لحيته ورده الى سيده راكباً بغلاً وارسل معه الى قانصوه اعلاناً بالحرب . وقد قرر السلطان سليم ان يرد الخطر عن ميمنته اولاً .

وفي الرابع والعشرين من شهر آب ، ١٥١٦ ، التقى الجيشان في مرج دابق على مسيرة يوم شمالي حلب . كان قانصوه قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره عندما وقعت معركة مرج دابق . وكان في اول حياته مولى من موالي

١ — هذه الكلمة تركية : يني — تشري ومعناها الجنود الجدد ، وكانوا المشاة النظاميين الذين كانوا يجندونهم من بين الفتيان الاسرى من النصارى . وعلى سواعد هؤلاء الجنود الانكشارية ، قامت الفتوحات العثمانية .

٢ — احد خلفاء المستنصر ، وهو احد افراد الدوحة العباسية الذي نصبه بيبرس عام ١٢٦١ خليفة في القاهرة ليدعم به ملكه . راجع القرمانلي : اخبار الدول وآثار الاول (بغداد ١٢٨٢) ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

قلايتباي . وكان رجلاً قوياً مجرباً في الحرب . غير انه لم يستطع ان يركن الى ولاء نوابه في سورية ولا الى التعاون بالنسبة الى الامراء المصريين . وقد بدأت خيانتهم عندما هجر خير بك والي حلب معسكر قانصوه على رأس جنوده وانضم الى الاعداء . وبعد برهة وجيزة وقع قانصوه عن ظهر جواده — ربما بداء السكتة^(١) . وكان الجيش العثماني حسن العدة مجهزاً بالسلحة حديثة كالمدافع والبنادق والاسلحة البعيدة المرمى ، فكان انتصاره على جيش المماليك انتصاراً تاماً . والمعركة بالنسبة لمصير سورية كانت معركة فاصلة حاسمة . وكانت كتائب البدو والسوريين في جيش المماليك تزدرى الاسلحة الحديثة ، وتأبى استعمالها . وبينما كان الجيش التركي قد بدأ يستعمل البارود في الحروب منذ امد بعيد فان السوريين والمصريين ظلوا متمسكين بنظرتهم القديمة البالية بان الشجاعة الفردية هي التي تقرر مصائر الحروب . وقد دخل السلطان العثماني مدينة حلب دخول الظافر المنتصر ، فرحب به الناس كمنقذ خلصهم من ظلم المماليك . وفي قلعة حلب عثر على كنوز كان قد خبأها المماليك واعوانهم هناك تقدر قيمتها بملايين الدنانير . وحوالي منتصف شهر تشرين الاول تابع سليم زحفه نحو مدينة دمشق حيث لاقاه سكانها بترحاب . وهكذا انتقلت سورية ولبنان من حكم المماليك الى الحكم العثماني سلماً . وظلتا تحت الحكم العثماني اربعة قرون .

القضاء على حكم المماليك

ومن سورية اتجه السلطان سليم جنوباً نحو مصر حيث كان طومان باي ، وهو مولى من موالي قانصوه ، قد استلم الحكم . وقد التحم الجيشان خارج اسوار القاهرة في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني ، ١٥١٧ ، حيث ابدى طومان شجاعة فائقة في مقاومته الجيش التركي ، ولكن قضى الامر ، فانه عندما استعرت نار الحرب انهارت معنويات جنوده ، وعمل التحاسد بين قواده وفساد اسلحته على الاجهاز على الباقي . لم تكن قوة المماليك في مصر — كما انها لم تكن في سورية — كفيلة بمجابهة الاتراك الذين كانوا يفوقون المماليك في الدهاء السياسي

Ibn-Iyas, ed. Paul Kahle *et al.* vol. V, (Istanbul, 1932), — ١

pp. 67 .

وفي الخطط الحربية . واخيراً دخل الاتراك القاهرة واعملوا فيها النهب وقتلوا جميع المماليك الذين وقعوا في قبضتهم . اما طومان فانه هرب الى مضرب من مضارب البدو ، ولكن فشا امره بعد زمن فالقي عليه القبض وشنق على بوابة من بوابات القاهرة (١٤ نيسان)^(١) . وبهذا انتهى عهد الممالك وفقدت مصر استقلالها . ثم تلاها الحجاز والمدن المقدمة . فان شريف مكة اسرع في اعلان استسلامه . وكذلك اسرع خطباء المساجد في مصر فخطبوا باسم السلطان العثماني عند صلاة اول جمعة داعين له^(٢) : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه ، اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين » .

قضية الخلافة

لما عاد السلطان سليم الى استنبول منتصراً اصطحب معه الخليفة المتوكل الذي كان قد اسره في شمال سورية . وبعد زمن اتهم الخليفة بانه اساء استعمال الاموال الموقوفة والقي في غياهب السجن . ثم انه افرج عنه فعاد الى القاهرة حيث توفي سنة ١٥٤٣ . اما قضية تنازل المتوكل عن الخلافة الى السلطان سليمان الذي خلف سليماً فعلى كثير من الغموض . ويصعب تأريخياً اثباتها فضلاً عن كونها قضية ليست على شيء من الاهمية . فان الواقع هو ان السلطان العثماني ، اقوى حاكم اسلامي ، شرع تدريجياً بممارسة واجبات الخلافة وحقوقها حتى انه اخيراً اعترف به بصورة طبيعية انه خليفة المسلمين . ولما بعث السلطان سليمان الى شريف مكة^(٣) ، زين الدين

١ - ابن اياس ، نشر كاله ، الجزء الاول ص ١٣٨ وما يليها ، ١٤٥ وما يليها . القرمانى ص ٢٢٠ .

٢ - ابن اياس ، الجزء الثالث (طبعة بولاق) ص ٩٨ .

٣ - كان لقب « شريف » يطلق على ولد الحسن ، ولقب « سيد » على ولد الحسين . وقد ظل اشراف مكة يعتبرون حكام الحجاز قرابة الف سنة الى ان قضى عبد العزيز ابن سعود عام ١٩٢٤ على سلطتهم . ومن احفاد آخر شريف على مكة ، الملك حسين ، ملكان احدهما يملك في العراق فيصل ، (وقتل بعد تأليف هذا الكتاب) والحسين يملك في شرقي الاردن . وهم سنيون الان كما ان اشراف مراکش سنيون . واشراف مراکش هم احفاد ابن فاطمة الاكبر .

ابن بركات برسالة اخبره فيها بوفاة السلطان سليم ذكر انه تسلم سدة السلطنة بعده وانه اصبح « مستقر الخلافة » . وفي جواب شريف مكة على الرسالة هنا الشريف السلطان على تسلمه العرش وعلى « منصب الخلافة بعناية من الله »^(١) . وقبل هذه الحوادث بمدة من الزمن ارسل شريف مكة السابق ابنه زين الدين الى السلطان سليم وسلمه مفاتيح الاماكن المقدسة وشارات اخرى من شارات الخلافة . فكان المتوكل قد سلم من قبل شارات اخرى الى الفاتح العثماني . ومنها البردة التي كان يلبسها الخلفاء في المناسبات الرسمية ، والذخائر النبوية وهي العصا والخاتم والحذاء والسن وخصلة من الشعر ، وقد اودعت هذه السراي الكبير في استنبول . وتعتبر هذه الذخائر شارات تدل على منصب الخلافة . ولكن كان لدى العثمانيين مستند في دعواهم لمنصب الخلافة اهم من هذه جميعها : قوة السيف . الا اننا بالرغم من هذا كله لا نعرف وثيقة دبلوماسية تشير الى السلطان انه خليفة المسلمين قبل عام ١٧٧٤ ، وهي السنة التي وقعت فيها معاهدة كوتشك كينارجي بين الروس والأتراك .

١ — فريدون باي بمجموعة منشآت السلاطين ، الطبعة الثانية (استنبول ١٢٧٤) ص ٥٠٠ - ٥٠٢ .

القسم الخامس
تحت حكم الأتراك العثمانيين

الفصل الرابع والعشرون

لبنان في العهد التركي

لما وقعت معركة مرج دابق بين الاتراك والمماليك وقف بنو بختر ، امراء الغرب ، الى جانب المماليك يساعدهم عسكريا ، بينما ظل بنو معن ، امراء الشوف ، في موقف المتفرج المترقب . ويبدو ان فخر الدين المعني الاول اجرى مفاوضات سرية مع والي حلب ، خير باي ، والغزالي والي دمشق وكلاهما من الذين خانوا المماليك . ولكن بالرغم من هذه المفاوضات السرية فان فخر الدين اوعز الى رجاله قائلا « دعونا ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه » . وقد ذهب وفد يضم رهطاً من امراء لبنان الى دمشق لمقابلة السلطان سليم ، منهم فخر الدين المعني وجمال الدين التنوخي^(٢) من الغرب وعساف التركماني من كسروان . ولما دخلوا قبل فخر الدين الارض امام السلطان ودعا له هذا الدعاء:

« اللهم ادم دوام من اخترته لملكك ، وجعلته خليفة عهدك ، وسلطته على عبادك وارضك ، وقلدته سنتك وفرضك ، ناصر الشريعة النيرة الغراء ، وقائد الامة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين ، الامام العادل ، والذكي الفاضل الذي بيده ازمة الامر بادشاه ادام الله بقاءه وفي الغز الدائم ابقاه ، وخلد في الدنيا مجده ونعماءه ، ورفع الى القيامة طالع سعده ، وبلغه مأموله وقصده ... اعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بانعم العز والتمهيد . آمين^(٣) » . وقد اعجب السلطان سليم بشخصيته الوقورة وباخلاصه — باخلاصه كما يبدو في الظاهر — فخلع عليه لقب «سلطان البر» واقره ، كما اقر سائر الامراء اللبنانيين

١ — حيدر ، غرر ، ص ٥٥٩ — ٥٦٠ .

٢ — والملقب ايضاً باليتني تفرقة له عن سائر التنوخيين الذين كانوا ينتمون الى الحزب القيسي . وقد ظل هذا الامير على ولائه للمماليك .

٣ — حيدر ، غرر ، ٥٦١ . الدويهي ، ص ١٥٢ . الشدياق ، ص ٢٥١ .

معه ، على اقطاعهم وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانوا يمارسونها في حكم الممالك . وقد فرض عليهم جزية طفيفة . فان الضريبة التي فرضت على كسروان مثلاً ، كانت ٤٢٠٠ غرش ذهبي^(١) . هكذا كانت تقتضي الحكمة السياسية . اما الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الاتراك من الشرق ، فقد كان الخطر المصري والفارسي ، ومن الغرب دول البلقان . ومنذ ذلك الحين كانت الاتصالات بين السلاطين العثمانيين وحكام لبنان من الامراء يجري اما مباشرة أو بواسطة وال من الولاية المجاورين للبنان ، مثل والي دمشق او طرابلس ، واخيراً بواسطة والي صيدا . وكان الامراء اللبنانيون في الشؤون الداخلية يحكمون البلاد حكماً استقلالياً تاماً . يورثون اولادهم جميع ما يملكونه من مال وعقار ، وكانوا في حل من الخدمة العسكرية في جيش السلطان ، وكانوا يفرضون الضرائب ويجمعونها كما يشاؤون ، وكان لهم ان يحكموا على رعاياهم بالموت ، وقد عقد واحد من هؤلاء الامراء معاهدة مع دولة اجنية . وهكذا نجد ان آخر موجة من الاحتلال الاجنبي الذي تعرضت له سورية وفلسطين فشلت في ان تفرض نفسها على لبنان الذي ظل اهلوه يمارسون الحياة المستقلة التي عاشها اجدادهم ، وينظرون من اعالي القمم الى ما كان يجري حولهم متحدّين بذلك التاريخ ذاته . فان فراعنة مصر وملوك اشور وبابل مروا في لبنان وسجلوا خبر مرورهم بالازميل على صخرة نهر الكلب ، وخلف الرومان والبيزنطيون والصليبيون قلاعاً وحصوناً وكنايس هي خرائب الآن ، ومر الفرس والسلاجقة والمغول والتتر ، غير اننا نكاد لا نرى لهم اليوم من اثر قائم . فلم يكن هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بان الزاثرين الجدد ، الاتراك ، سيتركون في لبنان اثرأ يبقى ، بالرغم من ان اقامتهم طالت الى اربعة قرون .

كان ظهور الاتراك كقوة جديدة في الشرق الادنى ، وبروز فخر الدين على مسرح السياسة اللبنانية فاتحة عصر ذهبي للامراء المعنيين وخاتمة عهد للامراء البحريين . كان التنوخيون الذين تحدر البحريون منهم من اصل عربي لا يخامر الشك احداً في صحته . اما المعنيون الذين اعتنق بعضهم الدرزية في وقت

١ - حيدر ، غرر ، ٥٦١ - ٥٦٢ . عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني (جونية ١٩٣٤) ص ٩ ، هامش ١ .

متأخر فلا نعرف على وجه التدقيق شيئاً عن اصلهم . وكان التنوخيون من الحزب القيسي كما كان المعنيون خلفاؤهم من بعدهم . كانت قبيلة قيس التي ينتسب اليها القيسيون او يتسمون باسمها ، قبيلة عربية شمالية مواطنها ضفاف الفرات . اما الحزب اليمني فكان ينتمي الى قبائل عربية جنوبية هجرت مواطنها الاولى وترحت شمالا الى سورية . وقد استمر الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب في هذين الحزبين : القيسي (عرب الشمال) واليمني (عرب الجنوب) . وامتد حتى شمل العالم الاسلامي برمته من خراسان الى الاندلس . اما في شرقي المتوسط ، وعلى الاخص في لبنان ، فان هذا الصراع استمر بين حزبين : اليزبكي (القيسي) والجنبلطي (اليمني) الى يومنا هذا .

الادارة العثمانية

لقد كان الحكم العثماني في لبنان حكماً اقل مباشرة مما كان عليه في سورية . وقد ابقى الاتراك على التقسيمات الادارية التي انشأها المماليك ، انما ادخلوا عليها بعض التعديلات الطفيفة . وقد شكل السلطان سليم لجنة لمسح الارض بقصد فرض الضرائب عليها . ولكنه استثنى من سهل البقاع ووادي العاصي اقساماً شاسعة ابقاها اميرية اي ملكاً للتاج . وقد تبنى الاتراك طريقة المماليك في جباية الضرائب (التلزييم) وذلك بتلزييمها لمن يدفع للخزينة اكبر مبلغ من المال . وكانوا في مسائل القضاء يتبعون المذهب الحنفي الذي كانوا يفضلونه على سائر المذاهب الفقهية . وقد جعلوه المذهب الرسمي للدولة .

اما النيابة التي انشأها المماليك فقد اصبحت عند الاتراك ايالة ثم ولاية . وكان عدد الولايات يختلف من حيث العدد تبعاً لمقتضيات الادارة وتبعاً لنتائج الحروب العديدة التي خاضها الاتراك . واصبح النائب الآن الوالي الذي كان يخلع عليه لقب باشا ، وكانت رتبته رتبة وزير . وكان الولاة ومعاونوهم مع وزراء الدولة وامناء سرهم وكتابهم يشكلون مجموعة الحكام التي كانت تعرف « باصحاب السيف » ، والتي كان يرأسها الصدر الاعظم . وازاء هؤلاء كانت هنالك جماعة تعرف

« باصحاب القلم » وتضم العلماء^(١) . وكانت كل ولاية تقسم الى سناجق^(٢) . اما ولاية حلب المتاخمة لبرّ الاناضول فقد كان واليها تركيا . وولاية دمشق التي اضيفت اليها القدس وصفد وغزة فانها اعطيت الى جان بردي الغزالي حاكم دمشق سابقاً والمملوك الذي خان الغوري وانضم الى الجيش التركي . وهذا المنصب جعله نائب السلطان والحاكم المطلق في جميع انحاء سورية . وما عثم ان اعلن استقلاله عن العثمانيين ، فحاربه الاتراك وهزموه عام ١٥٢٠ . وقسمت سورية الى ثلاث ولايات : ولاية دمشق وكانت تضم سنجق صيدا وسانجق بيروت والقدس وناپلس وغزة ودمر ، وولاية حلب وتشمل جميع انحاء سورية الشمالية ، وولاية طرابلس التي كانت تضم حمص وحماة . وهكذا تجزأ لبنان بين ولايتي طرابلس ودمشق . وفي عام ١٦٦٠ اعلنت صيدا ولاية لقطع الطريق على اللبنانيين ولاخفاء الروح الاستقلالية فيهم^(٣) .

كان الغزالي مولى من موالى قايتباي . ولكي يظهر ولاءه للعهد الجديد (العهد التركي) القى القبض على الامراء البحتريين وحبسهم في قلعة دمشق . غير ان اميراً من الامراء البحتريين قدم الى دمشق لمقابلة السلطان سليم ولاظهار الطاعة له ، وقدّم له جياداً عربية اصيلة^(٤) . اما سائر البحتريين فكانوا متّهمين بالولاء الى المماليك . وقد اتهموا ايضاً بحماية زعيم عربي اسمه ناصر الدين ابن حنش الذي كان قد استولى على صيدا والبقياع وابى الاذعان الى الحكم التركي الجديد . غير ان الغزالي القى عليه القبض مع احد العصاة ، وهو ابن الحرفوش - زعيم عائلة شيعية لا تزال الى يومنا هذا في منطقة بعلبك - وقطع رأسيهما وارسلهما الى استنبول . ولكن المولى الذي يخون سيده الاول لا ينتظر منه ان يخلص الود لمولاه الثاني .

١ - ومن اراد المزيد عليه ان يراجع : H . A . R . Gibb and Harold Bowen , *Islamic Society and the West* (London , 1950), pp . 45 seq . Cf . Stanely Lane-poole , *The Story of Turkey* (New York, 1893), pp . 324 - 39 .

٢ - هي كلمة تركية وهي ترجمة «لواء» ثم ان السنجق اصبح فيما بعد يسمى قضاء . وجميع هذه المصطلحات ورثها الاتراك عن السلاجقة .

٣ - احمد ع . عبد الكريم : التقسيم الاداري لسورية في العهد العثماني (القاهرة ١٩٥١) ص ١٣٩ وما يليها .

٤ - ابن سابط في تاريخ حيدر ، الفرر ص ٥٩٦ .

فانه لما مات السلطان سليم (١٥٢٠) اغتتم الغزالي الفرصة ليعلن استقلاله . وفي الجامع الاموي في دمشق اعلن نفسه ملكاً مستقلاً واتخذ لنفسه لقب الملك الاشرف . غير ان سليمان خليفة السلطان سليم وابنه (١٥٢٠-١٥٦٦) ، ارسل جيشاً من الانكشارية دخل دمشق في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ١٥٢١ وقتل الغزالي وهدم ثلث المدينة وضواحيها^(١) . ومنذ ذلك الحين واسم الانكشارية في سورية يقرن بالقتل والنهب .

الرعية والملة

اعتبر العثمانيون ، تبعاً لنظريتهم السياسية، الشعوب المغلوبة على امرها ، لا سيما اذا كانوا من غير المسلمين ، رعايا يدبرون امورها بالطريقة التي تعود بالنفع على الغالب . والكلمة عربية الجذر ، وفي ثنايا الجذر تكمن الفكرة التقليدية التي اخذ بها احفاد البدو من اواسط آسية : فكرة راع يرعى قطيعاً . وقد عاملهم الاتراك كأنهم قطيع . نعم ان الاتراك حافظوا عليهم وسمحوا لهم بان يحيا حياتهم القومية الخاصة شرط ان يتصرفوا تصرفاً ترضى عنه الدولة . ولم يكن لهذه الشعوب المغلوبة وجلهم من الزراعة والصناع والتجار ، ان يتطلعوا الى تسنم مراكز عسكرية او مدنية . فان هذه المناصب كانت من حق الاتراك ، ومن المجندين من اسرى الحرب ، ومن الموالي الذين كانوا يشترونهم ، ومن ابناء النصاري الذين كانوا يؤخذون جزية . هؤلاء كانوا يشكلون الطبقة العسكرية الحاكمة فقد كانوا يحسنون تدريبهم ويحملونهم على اعتناق الإسلام ، ويجهدون في تزيكهم . وكان تدريبهم صارماً شديداً يبدأ اولاً في الثكنات العسكرية ، ثم ينقلونهم الى المدرسة التابعة للبلاط في استنبول . وهذا التدريب كان يدوم سنوات عديدة ، ويتناول الفنون العسكرية كالتخفية وحفر الانفاق وما الى ذلك . وكان الاشداء منهم من ذوي الاجساد القوية يلحقون بفرق الانكشارية الخيالة . وكان افراد الفرقة الخيالة يعرفون بالصباهيين^(٢) . اما الذين كانوا يتفوقون بالذكاء والمقدرة العقلية

١- ابن اياس (بولاق) الجزء الخامس ، ص ٣٦٣ ، ١٧١ ، ٣٧٦ - ٤١٨ ، ٤١٩ .

القرماني ، ص ٣١٦-٣١٧ .

٢- وهي لفظة فارسية معناها الجيش . وقد حرقها البريطانيون الى sepoy واطلقوها على الجنود الهنود .

فانهم كانوا ينتخبون حكاماً وقواداً من ذوي المراتب العالية — كالصدر الاعظم والوزراء وولاة المقاطعات والقواد وامراء البحر — وجميعهم كانوا يعتبرون عبيد السلطان^(١). وقد ظل هذا النظام معمولاً به حتى القرن الثامن عشر لما وجد الآباء النصارى مخرجاً من المازق الذي كانوا فيه فصاروا يفتدون اولادهم بدفع بدل من المال. وفي الوقت ذاته وجد الآباء المسلمون انه من الخير لمستقبل اولادهم ان يرسلوا الى المدرسة الحربية التي كان يتدرّب فيها « العبيد ». واصبحت كلمة « قول » (عبد) المصطلح الذي يعني خادم السلطان. وحتى ذلك الزمن ظل آل عثمان العائلة الارستقراطية حقاً في الامبراطورية التي كانت في يدها السلطة المطلقة في الادارة المركزية للدولة، بالرغم من ان هذه السلطة كانت احياناً تعطى الى موظفين آخرين يعملون بموجب اوامر آل عثمان. وهذا النظام التركي في الحكم كان يختلف عن نظام الحكم عند العرب اختلافاً يتيماً. فقد كانت الحكومة التركية حكومة « عبيد » على رأسها السلطان تحرسه جماعة من العبيد الخصيّان. وكان له حريم تعنى بشؤونه جوار ووصيفات من الاماء. وكانت صلة الوصل بينه وبين اقصى اجزاء المملكة موظفين يعتبرون عبيداً عنده، وله ان يحكم عليهم—واحياناً كثيرة كان يحكم — بالموت فضلاً عن حجز ممتلكاتهم وتجريدتهم منها. وكثيراً ما يكون السلطان نفسه ابن جارية. وبما ان قطع اعضاء الجسد امر غير جائز في الفقه الاسلامي فانهم كانوا يستقدمون الخصيّان من بلاد القفقاز حيث كانوا يأسرون الغلمان ويخصونهم قبل سن المراهقة، كما كان حكام مصر يجلبون العبيد من السودان الى مصر حيث كان الاقباط يقومون بعملية الخصي.

ويختلف نظام الحكم العثماني عن النظام العربي في ناحية اخرى بارزة. فان السلطان كان ينهز بالسلطة التنفيذية، وكان يترك امر الشريعة في ايدي جماعة يعرفون بالعلماء الذين كانوا يعرفون ايضاً بأهل القلم. وفي حقبة تالية عندما أدخل القانون المدني الى السلطنة العثمانية ترك امره الى المحاكم المدنية. وقد كان السلطان

١ — Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire under Suleiman the Magnificent* (Cambridge, Mass. 1913), pp.45 seq.; Barnette Miller, *The Palace School of Muhammad The Conqueror*, (Cambridge, Mass. , 1941), pp. 6 seq. 81—2 , 94—6 .

في هذه الامور يتبع اسلوب الحكم البيزنطي . ومؤسسة « العلماء » هذه جعلت امور الدين والدنيا تتشابكان وتتداخلان . وكان شيخ الاسلام^(١) يرأس جماعة العلماء التي كانت تضم ايضاً معلمين في المدارس الدينية التابعة للمساجد والجوامع ، والقضاة ، والمفتين . وكان مفتي استنبول، شيخ الاسلام، يعتبر المفتي الاول الذي يُرجع اليه في الفتاوى المتعلقة بالشريعة الاسلامية . وكانت فتواه فيما يتعلق بتفسير الشريعة أو بمطابقة قضية ما نصوص القرآن القول الفصل في ارجاء السلطنة . وكانت جماعة العلماء تختلف عن جماعة اصحاب السيف واصحاب القلم في ان اعضاءها الجدد كانوا من العائلات الاسلامية العريقة بينما كان اصحاب السيف واصحاب القلم الجدد من مدرسة « العبيد » التي اشرنا اليها سابقاً .

والى جانب مبدأ تصنيف الموظفين والحكام على اساس الاستعباد كان هنالك مبدأ آخر يقوم على القرابة الدينية . فان المجتمعات البشرية في بلدان الشرق الادنى كانت منذ اقدم العصور التاريخية تقوم على طبقة اساسها الدين لا العرق . وهذه الطبقة القائمة على اساس الدين اسفرت على ممر العصور عن قيام نوعين من المواطنة جنبا الى جنب: المواطنة التي تدين بالولاء الى الطائفة الدينية التي ينتمي اليها المواطن - سواء اكان يهودياً ام ارمنياً ام ارثوذكسياً ام مورانياً ام قبطياً - والمواطنة التي تدين بالولاء الى الدولة . وكانت كل طائفة من هذه الطوائف الدينية في السلطنة تعرف بالملة . وكان الاسلام ذاته يعرف بالمحلة الاسلامية ، وطبعي ان يكون الاسلام اهم ملة واكبرها . وكانت تلي ذلك ملة الروم^(٢) الارثوذكس . وكانوا يعنون بالروم الارثوذكس جميع الرعايا العثمانيين الذين ينتمون الى الكنيسة الارثوذكسية بقطع النظر عن اللغة والعرق . وبحسب نظام الملة اصبح جميع الرعايا العثمانيين من غير المسلمين ينتظمون في طوائف مستقلة يرعى شؤونها رؤساؤها الروحيون . وكانت القضايا التي تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث والتبني والتربية الدينية والمؤسسات الدينية تخضع لسلطة الرؤساء الروحيين لهذه الطوائف . وقد كان هذا النظام ، الى حد ، بمثابة قيام دولة مصغرة ضمن

Lybyer, pp. 199. seq .

١ -

٢ - الروم جمع رومي . وكانوا يطلقون هذا المصطلح اولاً على الاوروبيين ولا سيما على شعوب الامبراطورية البيزنطية ، ثم صاروا يطلقونها على سكان الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى .

دولة كبيرة . ويمكن النظر الى نظام الملة على انه محاولة قديمة من قبل المسلمين لحل مشكلة الاقليات باعطائها شكلاً معترفاً به . غير ان الحالة زادت تعقداً . وذلك ان « الامة » بالمعنى اللاتيني اصبحت تعني « الامة » فصار الموارنة والكاثوليك دينياً في صف واحد مع فرنسة والروم الارثوذكس مع روسيا ، والبروتستانت مع بريطانيا .

الامتيازات الاجنبية

وقد شمل نظام الملة الاقليات الاوروبية : ايطاليين من اهل البندقية وجنوا ، وهولنديين وفرنسيين وانكليز يقيمون في السلطنة العثمانية . وقد حددت امتيازات هذه الجاليات وواجباتها بموجب معاهدات تجارية وقضائية كانت تعقد بين الحكومة التركية وبين حكومات هذه الجاليات . وقد اطلق على مجموعها « الامتيازات الاجنبية » . واول جالية حصلت على هذه الامتيازات كانت جالية البندقية ، بموجب معاهدة عقدت بينهما وبين السلطان سليم عام ١٥٢١ . وقد نصت بنود المعاهدة على الاعتراف بالحقوق التي كان افرادها يتمتعون بها في العهد البيزنطي ، كما انها حاولت ان تحدد امتيازاتهم وواجباتهم بقانون . وبعد مضي ١٤ سنة منح السلطان سليم الافرنسيين في عهد الملك فرنسوا الاول الامتيازات ذاتها التي كان قد منحها الى البندقيين . وكانت هذه الامتيازات اساساً لازدهار التجارة الافرنسية وانتشارها في الشرق^(١) . ونال الانكليز امتيازاتهم سنة ١٥٨٠ . وبموجب هذه المعاهدات لم يكن التجار الاوروبيون وغيرهم من الاجانب القاطنين في السلطنة العثمانية يقاضون حسب القوانين التركية بل كانوا يحتفظون بكامل حقوقهم كرعابا دولهم ويحاطون في محكم قنصلية ، اي ان القانون العثماني لم يكن يطأهم بشيء . وفي عام ١٥٦٩ و١٥٨١ حصلت فرنسة على امتيازات اخرى جعلتها وحدها حامية جميع السفن الاجنبية . وفي عام ١٧٤٠ وقع السلطان محمود الاول معاهدة مع لويس الخامس عشر تنص بنودها على ان لفرنسة الحق في ان تحمي لا الحجاج الفرنسيين فحسب

١ - اذا اراد القارئ الاطلاع على نص المعاهدة عليه ان يراجع :

de Testa, vol. I, pp. 15 seq.; Nasim Sousà, *The Capitulary Régime of Turkey* (Baltimore, 1933), pp. 314 - 20 .

بل جميع الحجاج والزوار الذين يؤمون البلاد العثمانية وهذه الامتيازات التي حصلت عليها فرنسة أصبحت اساس الادعاء بانها حامية جميع النصارى الكاثوليك في سورية^(١)

وفي عهد لاحق تطورت هذه الامتيازات التي كانت تمنح الاجانب فاصبحت مرتكزا للتدخل الاجنبي في شؤون الدولة العثمانية الداخلية. وعملت على افساد ضمائر الموظفين الاتراك وكثير منهم قد فسدت ضمائرهم من قبل، ومهدت السبل لقروض مالية بفوائد باهظة، واستغلال الموارد الطبيعية، وللحصول على امتيازات بشروط ممتازة لمد الخطوط الحديدية، واستغلال المناجم وغيرها من المصالح العامة. وبكلام آخر فقد ادت هذه الامتيازات الى وضع الحياة الاقتصادية في الامبراطورية في قبضة يدهم. وانعكست الآفة فاصبحت الامتيازات التي كانت تمنحها دولة قوية ذات سيادة الى دول صديقة حقوقاً تفرضها دول قوية على دولة مستضعفة رضخت الى ما كان يملى عليها من شروط. وقد استمرت هذه الامتيازات معمولاً بها الى ان الغاها الباب العالي^(٢) لما دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى الى جانب المانية. وقد ظلت بقايا منها معمولاً بها الى ان الغيت بعد الحرب العالمية الثانية.

الدولة العثمانية في ذروة عظمتها

بلغت الدولة العثمانية اوج عظمتها في حكم السلطان سليمان الاول (١٥٢٠ - ١٥٦٦). وكان حكمه اطول حكم واعظمه شأنًا وعزة. فقد كانت حدود مملكته الغربية في اوروبة تتاخم مدينة فينا، وحدودها الشرقية عبر نهر الدنيبر الأسفل تصل الى شبه جزيرة القرم. اما في آسية فقد كانت حدودها من بحر مرمرة الى الخليج العربي بما في ذلك شواطئ الجزيرة العربية على البحر الأحمر، وفي افريقية من مصر الى الجزائر. ولم تقم دولة اسلامية في التاريخ الحديث

١ - de Testa, vol. I, pp. 186 seq.; F. Charles - Roux, *France et Chrétiens d'Orient* (Paris, 1939), pp. 68 - 77; Ristelhueber, pp. 93 - 105 .

٢ - الباب العالي كناية عن البلاط العثماني في استنبول الذي كان مركز الدوائر الحكومية الرئيسية. وقد سمي بالباب العالي نسبة الى البوابة العالية الفخمة المؤدية الى صحن البلاط.

تضاهيها في اتساعها او في مدة بقائها . وكان رعايا السلطان يعرفونه بالقانوني ، فانه جمع القوانين والشرائع القديمة المتعلقة بالجيش واصحاب الاقطاع وواجبات الرعية وحقوقها ونظمها بشكل مجموعة قوانين . اما خارج سلطته فكان يعرف بسليمان العظيم ، ولقد كان حقاً عظيماً . فانه كان يرعى الفنون والآداب والاعمال الانشائية العامة . وكان يفرض احترامه لا بل هيئته على الدول الاوربية . فقد خاطب ملك فرنسا ، فرنسوا الاول بهذه اللهجة : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك مانح التيجان للملوك وظل الله على الارض ... اليك انت فرنسوا ملك فرنسه^(١) » . وفي حكم سليمان اصبحت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها دولة بحرية من الدرجة الاولى ، فاحتلت جزراً في البحر المتوسط ، واستردت موريا وازادت الى ممتلكاتها ، مباشرة او عن طريق القرصنة ، تونس وطرابلس الغرب والجزائر . وقد جمل سليمان عاصمته وبعض المدن الاخرى ببناء مساجد فخمة ومدارس ومستشفيات وقصور وازرحة واقنية للماء وجسور وفنادق او خانات وحمامات للعامة ومسجد السليمانية الفخم الذي وضع تصميم بنائه مهندسها الخاص سنان ، والذي انشئ لينافس في جماله وفخامة بنائه كنيسة ايا صوفيا لا يزال الى يومنا هذا اثرأ يؤمه السياح في المدينة التي كانت من قبل عاصمة السلطنة .

عوامل الضعف الداخلية والخارجية

ان سنة ١٦٨٣ ، وهي السنة التي حاول فيها الاتراك عبثاً احتلال فينأ للمرة الثانية والاخيرة ، نقول ان هذه السنة كانت بداية التقهقر بعد ان ظل الاتراك مدة قرون اربعة ينتقلون من نصر الى آخر . وكان الخط البياني لتقهقر الاتراك يسير باستمرار في خط منحدر - باستثناء فترات قصيرة - الى ان قضي على السلطنة اثناء الحرب العالمية الاولى . كانت الدولة العثمانية تشبه الدولة الرومانية في انها كانت ملكية عسكرية في تنظيمها . ولم تكن تُعنى كثيراً بمصالح رعاياها . فقد اقتصرَت العناية قبل كل شيء على مصالح الدولة التي كانت تتمثل بشخص السلطان - الخليفة وبموظفي حكومته الكبار . كان الحكام بوجه عام يعيشون عيشة

Roger B. Merriman , *Suleiman the Magnificent* (Cambridge, - ١
Mass . 1944), p . 130 .

ترف وتنعم . كانوا يشترون الوظيفة شراء من موظف اعلى منهم درجة ، فكان طبعياً ان يستردوا ما دفعوا من الدراهم من مال الرعية بوسائل مشروعة او غير مشروعة ليسددوا حسابهم مع الوسيط في العاصمة . اما الرعية - وقد كانت مزيجاً من اعراق بشرية مختلفة : عرباً وسوريين ومصريين وبربراً واكراداً وارمناً وصقالبة ويونانيين والبانين ينتمون الى مختلف الديانات واللغات ويتباينون في اساليب العيش - فلم يكن يجمع بينها ولاء روحي لمثل اعلى ، انما كان يمسكها معاً السيف العثماني المصلت . حتى ان الاتراك الفلاحين الذين كانوا يختلفون منزلة عن الاتراك العثمانيين الحكام (الذين كانوا يجيئون من العاصمة ومن المدن الكبيرة ومن الذين اعتنقوا الاسلام في المقاطعات وحتى من عبر الحدود احياناً) هؤلاء الفلاحون كانوا في نظر الحكام يعتبرون كسائر الرعايا من الشعوب المغلوبة . كانت الدولة العثمانية منظمة تنظيمياً عسكرياً لتكون في الدرجة الاولى اداة حرب فعالة لا مؤسسة تعمل لخير الرعية التي كانت تتألف من شعوب مختلفة . وكانت رقعتها الجغرافية شاسعة الارحاء تمتد بشكل خط منحني يشبه الهلال قرنه الاول في اواسط اوربية وقرنه الثاني في شمالي افريقية . ولم يكن فيها طرق موصلات حسنة منظمة . ودولة هذا تنظيمها وهذه جغرافيتها الطبيعية والبشرية انما هي دولة تكمن فيها بذور الضعف . وتركيز السلطة المطلقة في يد رجل واحد ، هو السلطان الخليفة ، والاساليب المتبعة في تعيين خليفة السلطان ، وظهور طغمة عسكرية كقوة جديدة معارضة طامحة ، هذه العوامل وغيرها كانت ايضاً من عوامل الضعف التي كانت تعمل على انحلال السلطنة . والى جانب هذه العوامل الداخلية كانت تعمل ايضاً عوامل خارجية في الوقت ذاته . ففي القرن الثامن عشر شرعت الدول الاوربية ، فرنسا وانكلترا والنمسا ، تفتش عن « مناطق نفوذ » . وفي القرن التاسع عشر اخذت روسيا ترنو بعين الطمع الى ممتلكات « الرجل المريض » في اوربية .

لا يشترط في المجتمع البدوي ان يخلف شيخ القبيلة ابنه بل كان يخلفه كبير القبيلة . لكن معاوية ، مؤسس الدولة الاموية خرج على العرف القبلي وجعل الخلافة ارثاً في ولده ^(١) ، الامر الذي لم يكن يتفق مع التقليد القديم . ومنذ عهد

محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) جرت العسادة ان ايّاً من اولاد السلطان الذي يحظى بالتاج بعد موت ابيه يقتل جميع اخوته ، وجلهم في الغالب من امهات غير امه وهن من الجوارى . فكانت كل منهن تسعى لان يلي ابنها الحكم . فان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) بدأ عهده بان قتل خمسة من اخوته الاصاغر . وقد بزّاه في الامر ابنه وخليفته محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) الذي قتل تسعة عشر اخا من اخوته . اما سليمان القانوني فلأنه كان الابن الوحيد فانه نجا من مؤامرات الخلافة ومنازعاتها ، ولكنه هو ايضاً قتل ولدين من اولاده . وقد قتل ابنه الاكبر بتحريض من زوجته روكسيلانا ، وكانت جارية روسية ابنة رجل كاهن التي كانت تسعى لتمهيد السبيل ليتولى احد ابنائها الخلافة . ولم يكن هذا السبيل الوحيد الذي كان السلطان يسلكه لفرض سلطانه وهيئته . فقد كان هنالك والدة السلطان التي تتحكم بالقصر . وكان هنالك ايضاً الانكشارية الذين كثيراً ما كانوا ينصبون السلطان والصدر الاعظم ويخلعونها اذا شاؤا .

ولما جاء احمد الاول الى الحكم (١٦٠٣ - ١٦١٧) اخذ الاتراك يعتبرون اكبر اقارب السلطان سناً من الذكور وريثه الشرعي . وبدأ احمد عادة الحجر على الاخ الاكبر للسلطان في جناح خاص يعرف بالقفص عوضاً عن قتله . وكان المحجور عليه يراقب مراقبة شديدة هو وحرّبه وجواريه وخصيانه . وكانوا يقتلون اولاده . ولكن هذه المعاملة التي هي اكثر انسانية من العادة التي كانت متبعة في السابق لم تكن تخلو من المساوىء . فانّ الاخ المحجور عليه عندما يخلف السلطان يكون بحكم الطبع عديم الاختبار وقد يكون احياناً ممن لم يكتمل نموه العقلي . وقد ظل السلطان عبد الحميد الاول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) محجوراً عليه مدة ثلاث واربعين سنة ، وكان ضعيف العقل . وكان محمد رشاد الخامس ، الذي خلف اخاه عبد الحميد الثاني في فترة من اشد الفترات خطورة (١٩٠٩) ناقص العقل بصورة ظاهرة .

الحضارة التركية :

ان ما ندعوه حضارة تركية ليس سوى مزيج عجيب من عناصر حضارية مختلفة مستمدة من الحضارة المغولية والفارسية والعربية والبيزنطية . اما العناصر

الحضارية المغولية المتمثلة في الحضارة التركية فقد كانت القبلية الرحلية ، وحب التوسع ، وميلاً فطرياً للحرب . وانحسرت الآثار التي خلفتها الحضارة الفارسية ، حيث توطنوا زمناً قبل زحفهم غرباً ، فن العمارة والرسوم الفنية والاساليب الادبية وعادة تعظيم الملوك وتمجيدهم . وقد كُتِبَ البلاط السلجوقي في آسية الصغرى متأثراً الى حد بعيد بالحضارة الفارسية . وقد كان اثر بيزنطة في الحضارة التركية مباشراً او عن طريق السلاجقة . فقد اخذ الاتراك عن البيزنطيين كثيراً من تنظيماتهم العسكري ومن ادارتهم الحكومية . ولكن العرب اكثر من غيرهم كانوا اساندة الاتراك في الحضارة . كان الاتراك بالنسبة الى الحضارة العربية كالرومان بالنسبة الى الحضارة الاغريقية ؛ فقد اخذوا عن العرب دينهم بما فيه من تعاليم ومبادئ تتعلق بالاقتصاد والاجتماع . وعندهم اخذوا العلوم وحروف الهجاء التي كانوا يكتبون بها لغتهم حتى سنة ١٩٢٨ عندما استبدلوه بالحرف اللاتيني . وبسبب اعتناق الاتراك الاسلام واتخاذهم الحرف العربي لتدوين لغتهم فان عدداً لا يحصى من المصطلحات الدينية والفلسفية والقانونية والعلمية والادبية دخل في صميم اللغة التركية ، وهي مصطلحات عجزت محاولة مصطفى كمال تنقية اللغة التركية منها . غير ان الاتراك برزوا في حقول ثلاثة : في السياسة والبناء والشعر .

وقد تبع التدهور السياسي تفهقر في الحضارة . ففيما كانت اوروبا تسير قدماً مخلفة وراءها العصور المظلمة لتدخل عصر النور ، وفيما كانت اوروبا تسعى للسيطرة على قوى الطبيعة للاستفادة منها وتشق سبلاً جديدة في العلم والتكنولوجيا وتجيئ فوائدها كانت توكية ترسفت في قيود من التقليد متغافلة عما يجري في العالم حولها من تقدم ورفي . كان بعض رعاياها يسكنون ارضاً اوروبية ولكنهم لم يكونوا من اوروبا في الروح والعقل وقليلون من الاتراك اموا المدارس الغربية ودرسوا لغات اجنبية ، وما ترجم عن اللغات الاجنبية فقد كان من عمل النصارى واليهود . وقد كان لهذا التأخر في اللحاق بوكعب الحضارة اثر سيئ خطير^(١) . وقد كان الرعايا الاتراك من غير المسلمين اسرع الى التجاوب مع حضارة المغرب واكثر نزوعاً الى التقدم والرفي . فازدادت الهوة السحيقة بين الحاكم والرعية .

Lewis V. Thomas and Richard N. Frye, *The United States and Turkey and Iran* (Cambridge, Mass. 1951), p. 49 .

الفصل الخامس والعشرون

امراء الجبل

المعنيون

لما قام الحكم العثماني حلّ المعنيون محلّ البحتريين والتنوخيين في تولي اماراة لبنان الاوسط ولبنان الجنوبي . يقول الشدياق : «وبه غابت شمس الامارة التنوخية واشرقت شمس الامارة المعنية»^(١). اما الجدلّ الاول الذي ينتمي اليه المعنيون، الامير معن الايوبي ، فليس له في جداول الانساب العربية نسب اكيد . واول مرة نلتقي به في التاريخ سنة ١١٢٠ لما امره طغتكين صاحب دمشق ان يقوم بعشيرته الى البقاع ومنها الى جبال لبنان المشرقة على الساحل فينزها ويتخذها حصناً يطلق الغارة منه على الافرنج الذين في الساحل . وفي الشوف «الذي كان قفراً من السكان» تخلى المعنيون عن حياتهم الرحلية ونزلوا في «صحراء بعقلين» وجعلوها مقراً لهم^(٢). وبعد نصف قرن من الزمن هجر الشهابيون الذين يتحدرون من قبيلة قريش موطنهم في حوران ونزلوا في جنوبي لبنان في وادي التيم . هاتان الاسرتان اللتان لعبتا فيما بعد دوراً رئيسياً في لبنان الاقطاعي تحالفتا بموجب معاهدة وبسبب التزاوج . وقد اعتنق المعنيون دين الاكثرية من رعيّتهم : الدرزية ، بينما اعتنق الشهابيون ، باستثناء قسم منهم ظلوا مسلمين ، المسيحية حسب العقيدة المارونية .

آل غساف وسيفا

بلغت قوة المعنيين السياسية التي كان قد اسسها فخر الدين الاول (توفي ١٥٤٤) ذروتها في عهد حفيده فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥) ومن ثم اخذت

١ - الشدياق ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

٢ - محمد المحي : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ١٢٨٤) الجزء الثالث ،

ص ٢٦٦ . الشدياق ، ص ٢٤٧ .

تضعف رويداً رويداً الى ان زالت اخيراً بموت الامير احمد (١٦٩٧) سبط
فخر الدين المعني الثاني . فتولى الحكم بعدهم الشهابيون الذين حكموا لبنان الى
منتصف القرن التاسع عشر . وكان بنو عساف من كسروان ، وهم معاصرو
المعنين ، يتولون الحكم في شمالي لبنان وكانت بينهم منافسة . وكان بنو عساف
من اصل تركماني قدموا كسروان سنة ١٣٠٦ ، وكانوا من جملة الامراء اللبنانيين
الذين ارسلوا وفداً لتقديم الولاء الى السلطان سليم كما ذكرنا سابقاً . وقد اضيفت
جبل الى ممتلكاتهم التي كانت في عهد الامير منصور (١٤٢٢ - ١٥٨٠) تمتد
من ضواحي بيروت الى عرقة شمالي طرابلس . وكان مركز الحكم العسافي بلدة
غزير . وفي ايام العسافيين ازدهرت مناطق كسروان اقتصادياً كما لم تزدهر من
قبل . فأتت جماعات من الشيعة من مناطق بعلبك وتوطنوا في قاريا وحراجل .
وجاء مسلمون سنيون من البقاع واستوطنوا ساحل علما وفيترون . وانتشر دروز
المتن في قرى عديدة، وغادرت طرابلس جماعات من الموارنة ونزلوا في عرمون^(١)
والكفور ومنطقة الفتوح^(٢) . ولما مات خليفة الأمير منصور ، محمد (١٥٩٠) ،
انتهى عهد بني عساف الذين حكموا شمالي لبنان حكماً اقطاعياً دام ٢٨٤ سنة .

وانتقل الحكم بعد بني عساف الى منافسيهم بني سيفا في عكار . وكان بنو
سيفا من اصل كردي . وقد اتخذوا طرابلس مقراً لهم واتبعوا سياسة مناوئة
للتجارة الاجنبية . واذا اخذنا بتقارير القناصل في تلك الحقبة نجد ان مركز
الثقل التجاري ارتحل شمالاً الى الاسكندرونة^(٣) . ويبدأ تاريخ بني سيفا السياسي
بالامير يوسف ابن سيفا الذي اصبح اقوى من الباشا التركي^(٤) . وكان على جانب
من الثروة كريماً جواداً فاستمال اليه الشعراء حتى اصبح بلاطه اشبه - بدار
البرامكة ايام الرشيد^(٥) . وكانت امارته تمتد الى القرب من انطاكية . كان رسل
السلطان من قبل يسلكون طريقاً بحرياً الى استنبول ، لكن هذا الطريق لم يعد اميناً

١ - في لبنان قرستان تعرفان بهذا الاسم الواحدة في الغرب ، والثانية في كسروان .

٢ - الدويهي ، ص ١٥٢-١٥٣ .

٣ - G. Berchet, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, (Turin, 1866), pp. 16, 74-6, 85, 125 .

Berchet, p. 127

٤ -

٥ - المحي ، الجزء الرابع ، ص ٥٠٣ .

بعد انحصار الاستطول الايطالي والاسباني الذي كان تحت امره امير الى نيساوي سنة
على الاستطول التركي بالقرب من لبنان (١٤٥١-١٤٥٢) ، فالتحق للوسائل فيلزيون برأيه
وفي سنة ١٥٨٤ هاجم رجال بني سيفاً جماعة من الصايح الانكشارية في جون
عكار وهم في طريقهم الى استبول لا يصل الضرائب المترتبة على مصر وفلسطين .
فاحتاج السلطان مراد الثالث لهذا العمل العدواني وارسل حملة تأديبية بقيادة ابراهيم
باشا حاكم مصر ، فخرست بلاد عكار . وهكذا لم يحضر الامراء اللبنانيون الخلاف
فيما بينهم بل كانوا احياناً يختلفون مع السلطان ، وقد استنفد الصراع على الحكم ،
على الصعيدين المحلي والقومي ، ما لهم وقوتهم . وفي سنة ١٥٩٠ نصب رجال الامير
يوسف كيناً بين البترون والمسلحة لحمد العساف وقتلوه . وحسب العادة التي كانت
متبعة في ذلك الحين تزوج المنتصر ، الامير يوسف ، زوجة القتل واستولى على
ممتلكاته وممتلكات جميع افراد عائلته وخرب بيوتهم في غزير . وآثار تلك الدور
لا تزال قائمة الى الآن في هذه الامة . وكذلك قضى بنو سيفاً على حشايخ
وهي عائلة مارونية كان بنو عساف قد اقطعوا ابناءها اقطاعات في شمال لبنان^(١) .

وقد جرت العادة ان يوزع الامير الاول اقطاعه على المقدمين والمشايخ وعلى
سائر الامراء (وكانوا يعرفون بالمقاطعية) وكان معظم مقدمي الموارنة في بشري
يأتمرون بامر بني سيفاً^(٢) . وكان واجب المقدم الرئيسي ان يجمع الضرائب ويبعث
بها الى الامير الذي يرسلها بدوره الى السلطان بواسطة احد اليشاورات القريين
منه . وعند مستهل القرن الثامن عشر كان الشوف اقطاعاً للجنلاطين الذين كانوا
يلقبون بالمشايخ . وهم دروز الآن . وكان المتن اقطاعاً لامراء ابي اللمع الذين كانوا
يلقبون بامراء . وهم الآن موارنة ، اما قبلاً فقد كانوا دروزاً ، اما مشايخ آل
تلحوق الذين دخلوا لبنان بعد الفاطميين^(٣) فقد اقطعوا مقاطعة الغرب الاعلى ،
واقطع الارسلانيون الغرب الادنى واعطيت كسروان الى آل الخازن^(٤) .

١ - القويحي ، ص ١٨١-١٨٢ . حيدر ، الفور ، ص ٦٢٠ . الشدياق ، ص ٣٥٠ .

٢ - الشدياق ، ص ٢١٨ وما يليها .

٣ - الشدياق ، ص ١٥٤-١٥٥ .

٤ - راجع . Poliak , pp. 56-8 .

الأتراك يغزو لبنان

ولقد استغل الأتراك حادثة التشليح في جون عكار فادعوا أن بعض الجنّة كانوا من الدروز أو من جماعة اللاجئين إلى المناطق الدرزية . وهكذا وجهوا الحملة التاديبة ضد الشوف الذي كان المعيون يتولون الحكم فيه . وقد شعر الباب العالي أن قد آن الأول أن يلقي درساً قاسياً على رعائيه الذين يجرأون على مهاجمة رجاله . وكان قد قدم وفد كبير من عقّال الدروز إلى عين صوفر لمقابلة إبراهيم باشا ، ولكنه غدر بهم وقتل منهم ست مئة رجل ، ونزع السلاح من بين أيدي الناس وقتل منهم ، على ما هو مروي ، ستين ألف رجل^(١) . وكان أمير جبل الدروز^(٢) أي لبنان الجنوبي ، آنذاك الأمير قرقماز (قرقاس) الذي كان شديد العداوة للأتراك ، إذ أن باشا دمشق قتل أباه ظلماً وخيانة ١٥٤٤ . وقد فر الأمير قرقماز واختبأ في شقيف تيرون ، وتسمى قلعة نبحا قرب جزين ، حيث توفي فيها عام ١٥٨٩ . أما منسوباً أو جانحاً . وكان قرقماز ابن فخر الدين الأول الشهير ، ثم أصبح ابنه فخر الدين الثاني الذي فاق جده شهرة ومجداً .

فخر الدين الثاني أمير الامراء في لبنان

كان للأمير قرقماز ولدان صغيران ، الأمير فخر الدين والأمير يونس . وقد طلبت والدتهما ، زوجة قرقماز من الحاج كيوان الماروني أن ينحى ولدها عند أحد الامناء بكسروان فجاء بهما إلى بلونة وخبأهما عند ابراهيم بن سر كين واخيه رباح الخازن . وفي عام ١٥٩٠ استدعي الأمير سيف الدين التنوخي ابني اخته الأمير فخر الدين والأمير يونس إلى عيه . ولما بلغ الأمير فخر الدين سن الرشد سلمه ولاية الشوف . وقد تسلم الأمير فخر الدين ولايته على الدروز التي كانت لأسلافه بقلب يتقد عيظاً وكراهية للأتراك وبعاطفة محبة وولاء للمسيحيين الذين

١- في المجلد ٤ ص ١٧٨-١٧٩ في المجلد ٤ ص ١١٨-١١٩ . الشدياق ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

٢- أطلق هذا الاسم على جبل الدروز . فها يمد على القسم الجبل من حوران . بعد هجرة الدروز اليه من لبنان .

تعهدوه صغيراً . ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد تبلورت في مخيلته سياسة ذات مبادئ ثلاثة يتبعها في حياته : انشاء لبنان كبير ، قطع العلاقات نهائياً مع الاتراك ، والسير قدماً بلبنان في سبل الحضارة العصرية . وقد اصبحت هذه المبادئ الثلاثة هدفه الاول والاخير في الحياة . وكاد يحقق احلامه عن طريق الزواج حيناً ، وعن طريق الدسائس والرشوة والتحالف حيناً آخر . وما لا شك فيه ان هذا الأمير كان اشد الامراء وبرزهم شخصية في تاريخ لبنان العثماني ، ولا نغالي اذا قلنا انه كان من ابرز شخصيات السلطنة العثمانية .

وقبل ان يقدم على تحقيق هذه الرغائب البعيدة رأى من الحكمة ان يبدأ بتوطيد اركان البيت لكي يبدأ عمله من قاعدة ثابتة حصينة . وفي سبيل تحقيق هذا تحالف اولاً مع الشهابيين السنيين في وادي التيم ، ومع آل حروفوش الشيعيين في بعلبك والبقاع ، وتزوج من امرأة درزية من آل ارسلان امراء الغرب^(١) . وقد كان آل الخازن في كسروان من اعز اصدقائه لانهم حنوا عليه صغيراً عندما نجأته امه عند احدهم . وكذلك كان الامراء المعنيون الدروز في المتن من جملة حلفائه واصدقائه . الا ان الجار القوي الذي كان يخشى جائبه فهو يوسف ابن سيفا، الذي كان قد تزوج فخر الدين ابنته لأسباب سياسية . وقد اقنع يوسف ابن سيفا الباب العالي انه كان لابي فخر الدين ضلعا في حادث التشليح في جون عكار . وكانت هذه الوشاية سبباً من اسباب سقوط قرقماز والد الأمير فخر الدين المعني . كان بنو سيفا على رأس الحزب اليمني وكان المعنيون على رأس الحزب القيسي . وكان فخر الدين قد استعاد سنجق صيدا ، الذي كان تحت ولاية ابيه ، من السلطان احمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) و اضاف الى امارته ايضاً بيروت مما فتح له طريق البحر . وقد كان السلطان احمد رجلاً ضعيفاً متردداً توفي وهو في الثامنة والعشرين من عمره بعد حكم دام اربعة عشر عاماً تميز بالهزائم والانكسارات العسكرية على ايدي الشاه عباس الاول ملك ايران والنمساويين والهنغاريين والمالطيين في حروبهم البحرية معه ، وعلى ايدي العصاة من باشاواته حكام الولايات في آسية الصغرى وسورية وقد كان آخر هؤلاء الحكام الذين ثاروا عليه علي جانبولاد (جنبلات) الزعيم

١ - بولس قرالي : فخر الدين المعني الثاني (حريصا ١٩٣٧) ص ١٣ - ١٤ . ملفوف ،

الكردي الذي اغتصب لنفسه ولاية حلب ؛ وقد حالفه الامير فخر الدين . وقد هاجر قسم من رجاله الى لبنان ، واحفادهم هم الجنبلاطيون الذين لا يزالون الى يومنا هذا من زعماء الدروز . ولم ينس الامير فخر الدين ان يدخل في تحالف مع مشايخ العربان في البقاع وهوران وفلسطين وكان يدخل في روع السلطان بواسطة الهدايا والرسائل انه موال للتاج مخلص له ، ولكنه في الوقت ذاته كان يستميل حكام المقاطعات الواحد تلو الآخر الى ان تمت له السيطرة — كما يقول سانديز وهو سائح انكليزي زار لبنان عام ١٦١٠ — من نهر الكلب الى جبل الكرمل بما في ذلك صفد وبانياس وطبرية والناصره^(١) . ويصف لنا هذا السائح الانكليزي^(٢) الامير فخر الدين بقوله انه كان « قصير القامة ، لكنه عملاق في شجاعته ومآتيه . عمره اربعون سنة ذو دهاء كالثعلب ، وفيه ميل ان يكون طاغية . لم يكن البادىء قط في حرب ، ولا قام بعمل يؤثر عنه الا بعد استشارة امه الست نسية ورضائها . »

وقد مكنه توسعه من الاستيلاء على قلاع وحصون تحتل مراكز استراتيجية كقلعة الشقيف التي كانت تسيطر على الطرق منذ عهد الصليبيين . وزاد في دخله استيلاؤه على سهل البقاع الحصص . فاصبح في وضع مالي يستطيع معه ان يبدأ بانشاء جيش حسن التدريب نواته جنود محترفون على شاكلة الجنود الانكشارية ليكونوا في عون الجنود النظاميين العاديين من الدروز والموارنة الذين لا يستطيعون مواجهة الجيش العثماني وحدهم . وقد كانت نواة هذا الجيش مرتزة يعرفون بالسكبان^(٣) وعددهم اربعون الفا . وكان باستطاعته ان يجمع جيشاً عدده مئة الف محارب^(٤) . وكان للانكشارية ايضاً كتيبة من السكبان . وكان مدبر فخر الدين وامين سره

George Sandys, *A Relation of a Journey*, 2nd ed.

— ١

(London, 1621), pp. 211-12; Volney, vol. II p. 39 .

٢ — ص ٢١٠ من الكتاب المذكور اعلاه .

٣ — ويقال « سقان » ايضاً ، وفي العربية العامية سقان (الدويهي ، ص ١٩٠) وهي أصلاً كلمة فارسية معناها « القيم على كلاب الصيد » . المحي ، الجزء الثالث ، ص ٢٦٧ .

d'Arvieux, vol; I, p. 438; Michel Chebli, *Fakhreddine II Maan, prince du Liban*, (Beirut, 1946), pp. 46-8; Lammens, vol. II, pp. 74-5 .

٤ — المحي ، ٢٦٧

الحاج كيوان^(١) الذي كان سابقاً مولى انكشارياً في الجيش السوري وكان داهية لا يشق له غبار في حبك المؤامرات والديبائس :

أما سياسة الأمير فخر الدين الداخلية فقد كانت ترتكز على دعائم ثلاث : الأمن ، والأزدهار الاقتصادي ، والتسامح الديني ، أو عدم الاعتراف بالطائفة . وهذه الدعائم الثلاث كانت تعتمد الواحدة منها على الأخرى . ولكي يوطد الأمن في البلاد فإنه أقام الحاميات وبنى القلاع أو رممها - كقلعة بانياس وتدمر^(٢) - وشيد الأبراج - كرج الكشاف في بيروت^(٣) - وأنشأ الدوريات واستعمل الحمام الزاجل في نقل الرسائل ، واستورد المدافع من أوروبا . وجميع هذه ، إلى جانب نفقات الجيش والحاشية والنفقات السرية على الجواسيس لمتجسسوا له في الخارج ، تتطلب زيادة كبيرة في فرض الضرائب . ولكنه لا يستطيع زيادة الضرائب إذ لم تكن حالة البلاد الاقتصادية مزدهرة . ولكي يزيد في مقدرة الناس على دفع الضرائب فإنه شجع الأعمال الزراعية : الزيتون والتوت وأشجار أخرى مثمرة . وشجع صناعة الكتان والحرير وحاول توسيع آفاق التجارة الأجنبية لا سيما مع البندقية وفلورنسا وفرنسة . وقد كانوا يستوردون القماش والنقود والتجهيزات العسكرية من فلورنسا . وكان تجسار فلورنسا من أقرب الناس إليه وإلى رعاياه . ففي سنة ١٦٠٨ وقع مع فرديناند الأول دوق توسكانا الذي كانت عاصمته مدينة فلورنسا معاهدة تحتوي على بنود عسكرية سرية موجهة ضد السلطان العثماني^(٤) . فكانت المراكب الفلورنسية تؤم الموانئ اللبنانية لتحميل من لبنان الحبوب والصابون والحرير وزيت الزيتون والفول والحنطة والقطاني . ومن أعمال الأمير فخر الدين الانشائية بناء أربعة جسور كبيرة على الأنهر الأربعة الكبيرة : نهر الكلب وبيروت والأولي والقاسمية . وشيد

٢ - راجع المحي ، الجزء الثالث ص ٢٩٩-٣٠٢ . الشدياق ص ٢٥٢ . معلوف ص ٣٩ . يعتبره خطأ مارونيا .

٢ - وتعرف الآن بقلعة ابن معن . وقد يكون أن الأمير فخر الدين هو الذي بناها أصلاً .

٣ - والميدان الرئيسي في بيروت يعرف بساحة الرج ، وقد غيروا اسمه مؤخراً إلى ساحة الشهداء .

٤ - للإطلاع على نص هذه المعاهدة وعلى غيرها من المعاهدات التي عقدت مع الدوق راجع :

Paolo Carali (بولس قرالي) ، *Fakhr ad-Din II e la corte di Toscana* , vol. I (Rome, 1936), pp. 146 seq; vol, II, pp. 159 seq .

الخانات لاقامة التجار الاجانب فيها ، ومنحهم امتيازات خاصة كان قد جريها
السلطان سليمان (١) . واصبح الخان الفرنسي في هذا في القرن التاسع عشر مقر
القنصلية الفرنسية ومقر بعثة الابهاء الفرنسيين . وهذا الخان في عصرنا الحاضر
دار ايتام للبنات بادارة راهبات مار يوسف الظهور . وضيداً ، التي كانت في
العهد القبطي مدينة عظيمة زاهرة والتي انحطت الى بلدة حقيرة فيما بعد ، اخذت
تستعيد شيئاً من حيويتها ونشاطها في عهد الامير فخر الدين . وقد منفتحت بيروت
في استعادة العلاقات التجارية مع الغرب ، تلك العلاقات التي كانت قد تعطلت ،
ان لم نقل توقفت ، منذ الحروب الصليبية . وقد كانت هذه الفترة آخر فترة من
فترات الازدهار التي عرفتها المدينة في تاريخها الماقبل . وكانت فترة قصيرة ، وقد
قضى على تجارتها الخارجية نوح من ميثاقها التجاري عام ١٧٩٣ لمنع السفن التركية من
الدخول ، ثم قبحها الحلفاء لجزائري على الباقي وذلك بطرد التجار الفرنسيين
عام ١٧٩١ . وكانت تلك توقفت بيروت نظراً للتقدم في أيام بطريرك آذنا
ميناها كان قد رجمه الامير فخر الدين بجمجمة من البرج المجاور له (٢) . لكنها
فيما بعد اصبحت غنياء وجليل وميناء دمشق ايضا . وقد اعاد الامير فخر الدين
زرع جزء من غابة الصنوبر الكبيرة المجاورة للمدينة مما جعل بعض المورثين في
الاجيال التالية يعزوا اليه خطأ زراعة الغابة بكاملها . فقد ظن فولني (٣) وتشيرشل (٤)
ان الامير فخر الدين هو اول من زرع الغابة . وكذلك موندل (٥) ولا من بين (٦) ،
فانها يسميان هذه الغابة غابة فخر الدين . والواقع ان هذه الغابة اقدم عهداً من
عهد الامير فخر الدين . فقد ذكرها شاعر بينظلي عاش في القرن الرابع الميلادي ،
وفي ايام الجغرافي العربي الادريسي (٧) (توفي ٩٦٦) كانت مساحتها اثني عشر

١ - Carali (فرالي) , vol. II, pp. 58-9, 67

٢ - D' Arvieux, vol. II, p. 338; Ristelhueber, p. 129 .

٣ - Vol. II, p. 1/2

٤ - Colonel Churchill, *Mount Lebanon: A Ten-year's Residence*, 2nd ed. (London, 1853), vol. I, p. 121

٥ - P. 43.

٦ - De Lamartine, *Voyage en Orient*. (Paris, 1859), vol. I, pp 430; 454

٧ - الادريسي ، طبعه غلد ميستر ، ص ١٧ .

ميلاً مربعاً . وقد كانت للصليبيين مصدر اخشاب لادواتهم الحربية كما كانت ايضاً لخصومهم المسلمين مصدراً لبناء اسطولهم .

وقد كان استتباب الامن والازدهار الاقتصادي من العوامل التي شجعت على الهجرة الى البلاد كما فعل الجنبلاطيون الذين جاؤوا من حلب . وكانت سياسة التسامح الديني عاملاً في هجرة الموارنة من شمال لبنان الى جنوبه الذي كان منطقة درزية صرفة . وكانت هذه هي المرة الاولى التي تجتمع فيها الطائفتان في منطقة واحدة وتعيشان بصفاء ومودة . وقد اختار الامير مديراً مارونياً خازنياً ، ابا نادر^(١) .

وكان خازني آخر قائد المشاة . وعندما كان الامير يبعث برسالة الى احد افراد آل الخازن كان يخاطبه بقوله « اخونا العزيز » مما رفع مرتبة العائلة الخازنية الى رتبة المشايخ^(٢) ، ولا يزال آل الخازن في يومنا هذا يحتفظون بلقب « الشيخ » . وقد كان عدد الجنود الموارنة الذين كانوا يشتركون معه في المعارك احياناً عشرين الف مقاتل . وفي عام ١٦١١ ارسل مبعوثاً مارونياً ، الاسقف جرحس بن مارون الاهدني ، الى قوزما الثاني من توسكانيا والى بولس الخامس لعقد معاهدة تحالف معهما ضد الباب العالي^(٣) .

وفي آخر الامر تنبه الباب العالي الى الخطر المعني الذي كان حافظ باشا والي دمشق قد حذره منه مراراً . فبعث السلطان الى حافظ باشا جيشاً عرمرماً جنده من خمسين سنجقاً ، وجهزه باسطول يتألف من ستين سفينة للقضاء على هذا الامير اللبناني الجريء ، ولوضع حد لسياسته التي كانت ترمي الى الانفصال عن السلطنة العثمانية ولطامحه التوسعية . كان ذلك في صيف ١٦١٣ . فاما الاسطول فقد ضرب الحصار على الشاطئ ، واما الجيش البري فزحف الى الجبل . وقد رأى الامير من الحكمة الا يقاوم هذه القوة العظيمة . وصدف ان كان في ذلك الوقت ثلاث سفن افرنسية وفلمنكية راسية في ميناء صيدا فأقلت احدها الامير وزوجته المفضلة ومستشاره كيوان وحاشية صغيرة الى ايطالية . وبعد ثلاثة وخمسين يوماً نزلت الحاشية الى البر في مدينة لغورنا . وكان الامير قد جعل اخاه الامير يونس

١ - اسمه الاول خازن ، وابنه الاكبر نادر .

٢ - المملوك ، ص ٧١ .

٣ - Carali, pp. 14—15 قرألي ، الجزء الثاني ، ص ٣٧—٣٨ .

قائداً للجيش ، ووضع مكانه في الامارة اخاه علياً^(١) . وانتقل مقر الامراء المعنيين من بعقلين الى دير القمر .

في ايطالية

لقد خلف لنا كاتب سيرة الامير فخر الدين ، القاضي احمد الخالدي من صفد - وقد يكون الامير ذاته قد اوعز الى هذا القاضي ان يكتب سيرته - ملحقاتاً طريفاً ممتعاً لوصف اقامته في ايطالية التي دامت خمس سنوات جاء فيه على وصف « العجائب التي شاهدها في بلاد النصارى »^(٢) . وقد وصف لنا ميناء لغورنا بسفنه



الاميرة خاصكية زوجة الامير فخر الدين الثاني ، وقد رافقته الى منفاه في توسكانيا .

١ - احمد الخالدي (الصفدي) : تاريخ الامير فخر الدين ، نشره اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، (بيروت ١٩٣٦) ص ١٧ - ١٩ .
٢ - الخالدي ، ص ٢٠٨ - ٢٤١ .

الكثرة في فلورنسيا بقصورها والاعمار الرياضية المشيئة ومهرجاناتها ، وميزاجها المنحني ، ومسينا وبلارمو في صقلية ، جميع هذه المدن وصفها وصفاً دقيقاً ومن الانطباعات التي تركت في نفسه اثراً عميقاً الحفلات التي يشترك فيها الرجال والنساء حيث يرقصون معاً ، وخلق الاسواق من الجمال ، والخرفان التي ليس لها رتبة والمستشفيات المجانية ، وبيوت اللقطاء ، والحفلات العامة التي ينصارع فيها الناس مع الحنازير البرية ، والمخاض والبنوك التي تدفع لمودعي الاموال فائدة ، والمطابخ التي تطبخ وبلغتهم وباللغة العربية . وقد وجد الامير وحاشيته خارج مدينة نبلاتولو في صقلية مسجداً لا يزال قائماً بقبابه من ايام الفاطميين . وشاهد في نابولي دوراً تتألف من خمس الى سبع طبقات . وفي هذه المدينة انشأ الامير مسجداً واستحضر له مؤذناً بالرغم من ان عمله ازعج جماعة الاكليروس في المدينة .

استقبل قوزما الثاني صديقه اللبناني بكثير من الحفاوة ، وانزله في قصر فخم ، وانفق عليه من مال الدولة . ثم ان قوزما ارسل بعثة فنية الى لبنان لتدرس عن كسب الحالتين العسكرية والاقتصادية ثم تبعث بتقريرها اليه . ولكن قوزما الثاني لم يستطع ان يستجيب الى رغبة الامير فخر الدين في ان يجهز حملة عسكرية بالتعاون مع اسبانية وفرنسية او الفاتيكان . وقد زار بعض المهندسين الفتيان من فلورنسا عدداً من القلاع في الجبل وعلى الشاطئ اللبناني وفي رسالة بعث بها الامير فخر الدين الى اللبنانيين معلقاً على هذه الحادثة يقول : « ان المفاوضات بين فريقين غير متساويين من حيث القوة خسر من الاستجداء . وعليه فاني اشور عليكم ان تعتمدوا على انفسكم اولاً هذا اذا اردتم ان تنالوا استقلالاً محترماً ومركزاً مرموقاً بين الشعوب » (١) . وفي رسالة ثانية بعث بها الامير فخر الدين عندما علم بان الاتراك احتجزوا امه يقول : « وبما اننا قد وضعنا نصب اعيننا هدفاً لن نحيد عنه ، الا وهو استقلال بلادنا وسيادتها ، فانتا قد عقدنا العزم على ان لا نتأثر بما يعرض علينا من وعود او تهديدات » (٢) .

في سنة ١٦١٥ انتقل الامير فخر الدين الى صقلية بناء على دعوة وجهها اليه

١ - انيس النصولي : رسائل الامير فخر الدين (بيروت ١٩٤٦) ص ١٦ . ويظهر من أسلوب هذه اللغة انها حديثة العهد لا تتلائم مع ما نعرفه عن العربية في ذلك العهد ،

٢ - النصولي ص ٩٥ .



الامير فخر الدين الثاني في توسكانيا

دوق مدينة مسينا نائب ملك اسبانيا يقول لنا مترجم كثيره ان «سلطان اسبانيا»
 عرض عليه ولاية تضاهي في اتساعها الولاية التي اعطاها له «سلطان المسلمين»
 شرط ان يعتنق المسيحية. فكان جواب الامير مقتضياً: «ملا جثنا نفقش عن
 دين او ملك انما جثنا للحياة» وفي حيف تلك السنة قام بسفرة سرية في
 مركب اعد له الدوق الى لبنان. وبعد ان اطمأن الى ان الحالة حسنة عاد بطريق
 مالطة حيث استقبله فرسان الجزيرة استقبالا حسناً. وقد كان وجود هذا الامير
 اللبناني الدرزي في اوروبا يطلب العون منها ضد عدو مشترك (الأتراك) سبباً في
 شيوع الاضطوارة القاتلة بان الدروز هم احفاد جالية صليبية اسسها الكونت دي
 دره (de Dreux) ١٢٢

١ - الخالدي ، ص ٢٢٦ .

٢ - Abbé Mariti, *Travels through Cyprus, Syria, and Palestine* (London, 1791), vol. II pp. 26-8; Volney, vol. II, pp. 40-1; cf. Berhét, p. 90; Maundrell, p. 39 .

في هذه الاثناء كان قد حصل تغيير في حكومة استنبول . فان الصدر الاعظم تغير ، واستبدل الوالي بدمشق بوال آخر . وقد جاءت هذه التغيرات في صالح الامير فخر الدين الذي كان قد نفى نفسه الى اوروبة . وعندما جاء يستأذن الدوق بالسفر تذرع برسالة اتته من امه العجوز تستحلفه « بالثدي الذي ارضعته به ليعود كي ترى وجهه قبل ان تموت » . وعندما نزل الى البر اللبناني فرح الناس فرحاً عظيماً ، وتوافد الناس اصدقاء واعداً ليسلموا عليه وليرحبوا بعودته مقدمين له الهدايا . وارسل يوسف سيفاً ابنة حسن الذي كان قد تزوج من احدى بنات الامير فخر الدين ومعه جياد عربية لتقديمها هدية له . لكن الامير رفض قبولها قائلاً ، وبشيء من التهديد السافر : « ان ما نبتغيه مواد لتعيد بناء البيوت التي هدمتموها في دير القمر » . ذلك ان يوسف اغتم فرصة غياب الامير فبعث برجاله الى دير القمر عاصمة المعنيين واحرقها .

لقد كان في عودة الامير فخر الدين الى بلاده بدون ان يصطحب معه حملة عسكرية من اصدقائه في اوروبة ، تلك الحملة التي علق عليها الآمال ، شيء من خيبة الامل ، ولكنها لم تصل به الى حد تثبيت العزم او القنوط . فانه ما كادت قدماء تطأ ان ارض موطنه حتى اخذ ليس باسترداد المقاطعات التي كان قد فقدوها وحسب بل شرع في توسيع رقعة امارته . وهكذا بدأ بتطبيق منهج التوسع والاستغلال بعزيمة لا تعرف الكلل ، وببراعة عسكرية فائقة ، وبدبلوماسية حكيمة ، حتى ان ما كان قد حققه سابقاً يتضاءل كثيراً اذا قوبل بما لقيه من نجاح هذه المرة . كانت قامته القصيرة هدف نبال من السخرية يرميه بها منافسوه واعداؤه . كانوا يقولون عن قصر قامته « لو ان بيضة سقطت من جيبه لما انكسرت » . واشد من هذه اللذعات ما قاله يوسف لكتته (وهي ابنة الامير فخر الدين) : « ابوك ! والله اني لأستطيع ان اضعه جنباً الى جنب مع مفاتيحي في الجيبة » . وقد هجاه احد الزجالين التابعين لابن سيف :

جونا الطوال يا نصلة السكين يا سلسلة مذهبة يا سيف علي الدين
جونا القصار لا شور ولا تدبير مثل الضفادع يقعوا في قراني البير

فاجاب الامير فخر الدين :

نحنا صغار وفي عين العدو كبار انتو خشب حوّر نحنا للخشب منشار
وحق طيبة وزمزم والنبي المختار ما بعمر الدير الا من حجر عكار^(١)

وقد صدق الامير فخر الدين في وعيده . فانه زحف على رأس جيش الى بلاد عكار وهاجم قلعة الحصن وخرب قصور آل سيفا في عكار ثم في طرابلس ونقل بعض حجارتها الى دير القمر . وفي بقايا البنايات المعنية في دير القمر وفي مسجدما الذي لا يزال قائماً الى الآن حجارة صفراء يسهل تمييزها عن غيرها من الحجارة تدل على ان منشأها من بلاد بعيدة . وباستيلائه على بلاد عكار اصبحت سورية الشمالية تحت رحمته . وفي سنة ١٦٢٢ عندما اقطعه السلطان سنجقي نابلس وعجلون اصبحت الطريق الى فلسطين وشرق الاردن مفتوحة امامه . ولكن والي دمشق ، مصطفى باشا ، رفض ان يسلمه السنجقيين ، وزحف على رأس جيش قوامه اثنا عشر الف مقاتل . فالتقاه الامير بجيش في عنجر من اعمال البقاع قوامه اربعة آلاف رجل وهزمه شر هزيمة ومزق جيشه شر ممزق . واسر مصطفى باشا في المعركة لكن اخلي سبيله فوراً^(٢) . كان على عرش السلطنة اذ ذاك السلطان مراد الرابع . وهو الذي نصبه الانكشارية والصباهيون الثائرون في ذات السنة التي استولى الفرس فيها على بغداد والموصل (١٦٢٣) . وقد رأى هذا السلطان الحدث — وكان ابن اثني عشرة سنة — انه من الحكمة ان يعترف بالامر الواقع . فاعترف بالامير فخر الدين والياً على عربستان من حلب الى مصر وذلك بناء على خط همايوني . فكان مقامه اعظم شأناً من مقام جده الامير فخر الدين المعني الاول الذي لقبه السلطان سليم « سلطان البر » . اما الامير فقد أثر ان يلقب « بامير جبل لبنان وصيدا والجليل » . ولم يبق له كما يقون كاتب سيرته الا ان يعلن ذاته سلطاناً^(٣) .

بعد ان اصبحت الامير فخر الدين سيد المنطقة غير المنازع شرع في تحقيق

Churchill, vol. II, p. 370 .

١ — المملوك ، ص ٢٨١ .

٢ — قرألي ص ١٦ . المملوك ، ص ٢٣٢-٢٣٣ . الدويهي ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

٣ — المحي ، الجزء الاول ، ص ٣٨٦ .

الامنية الثالثة في المنهاج الذي وضعه لنفسه : جعل لبنان بالتخفيف مركز كلب الحضارة
العصرية وللغياض في طريق الترقى متاوفي سبيل تحقيق هذه الغاية اعلم بالعلاقات التي
بين لبنان وتوسكيا الى هذا اكلت عليه سابقاً من تطلد في التمثيل الدبلوماسي
واستحضار مهندسي البناء ومهندسي الري والاختصاصيين في الزراعة . وهذه
البعثات التوسكانية التي وصلت الى لبنان عكست للبنانيين اساليب جديدة في فلاحه
الارض ، وادخلت آلات زراعية حديثة ، واستحضرت انواعاً جديدة من البقر
لتحسين السبل المحلي ، فكانت لبنانياً اشبه بسياسة النقطة الرابعة : ومن المستغرب
ان نجد الامير يستحضر من اوروبا انواعاً من كلاب الصيد والحراسة ، مع العلم
ان الكلب في نظر المسلمين حيوان دنس . ومقابل هذا الاستيراد من الكلاب
كان يصدر الجياد العربية الاصيله .

وقد ساهم الخبير الطليان في تحصين بيروت وتجميلها . فان الامير كان قد
اختر هذا مقراً شتوياً له عوضاً عن صيدا . وقد بنى لنفسه قصرأ فخماً تحيط به
حديقة كبيرة ، وهو القصر الذي زاره موندول سنة ١٦٩٦ وكان يقع في الشمال
الشرقي من المدينة . وقد اعجب ايضاً اعجاب بالبركة الجميلة والدور الفسيحة العديدة
والاسطبلات وميادين الخيل وعمرى الاسود . « امور تليق بامير من الامراء في
العالم المسيحي » . - والاشجار المثمرة والجنائن بمصاطبها العديدة لاقامة التماثيل
والانصبه . « مما يدل على ان الامير صاحب القصر لا يمكن ان يكون مهتماً متحمساً
لإسلامه » (٢) . اما قصره في صيدا ، الذي لم يتم بناءه ، فكان يقع قبالة الحصان
الذي شيد للتجار الفرنسيين والذي ابتاعه فيما بعد راهبات القديس يوسف (٣) .
وتثبت التقارير القنصلية على ان الامير لم يقنع بتشجيع التجار الاوروبيين على
الإقامة في البلاد والتمتع بما تخرجه عليهم الامتيازات التي كانوا يمنحونها وحسب ،
بل انه كان يحافظ عليهم ضد خطر قرصان البحر (٤) .

ومن الاعمال التي قام بها وكان لها اثر بعيد الغور سحاحه للارساليات

Carali, vol. H, pp. 32—3.

Maundrell, pp. 29—41 ,

٢ — احمد حارق الزين : تلخيص صيدا (بيروت ١٩١٣) ص ١٠٤ — ١٠٥ .

Berchet, p. 163 .

الكاثوليكية ، ولا سيما للكبتوشيين ، لتؤسس ارسالية في صيدا ثم بالتوسع في اعمالها التي شملت بيروت وطرابلس واهل دن حيث كان هناك ايضاً رهبان فرنسيكان^(١) . وكان معتمد الامير في ايطالية العالم الماروني المشهور الحاقلي وهو الذي حمل نيابة عن الامير الى احد البنوك في فلورنسة كمية من المال ؛ وهذا المال بعد ان مر عليه تسعون سنة قام احد ورثاء الأمير بالمطالبة به ولكن بدون جدوى . وكان وكيل الورثاء الذي طالب البنك بالمال العالم الماروني المشهور الـ معاني^(٢) .

وقد كانت معاملة الأمير فخر الدين السمحاء للنصارى من الامور التي جعلت بعضهم يعزونها الى كونه مسيحياً . يقول سانديز^(٣) : « انه لم يُرَ قط يصلي ، ولا رآه احد يدخل الجامع » . اما دي افريو^(٤) ، الذي شغل وظيفة قنصل افرنسي في مراكز عديدة في الشرق ، فيقول ان دين الامير كان دين شعبه «الذين لم يكن عندهم من دين » . ويبدو ان المعنيين كانوا يعترفون بالاسلام ديناً في الظاهر امام العثمانيين ، اما في الباطن فقد كانوا دروزاً على دين اتباعهم . وهناك رواية^(٥) تقول انه تعمد سنة ١٦٣٣ على يدي طيبيه الكبوشي . ويقال انهم وجدوا صليبا بين ثيابه عندما اعدم^(٦) .

وقد مكنته الزيادة السنوية في دخل الامارة ، التي كانت تقدر بتسع مئة الف ليرة ذهبية - منها ٩٣ الف ليرة كانت ترسل الى استمنول للخزينة المركزية - من متابعة انشاء جيش قوي . وانشاء هذا الجيش وتكديس الاسلحة والمفاوضات مع الأوروبيين وهذا الميل نحو النصارى جميع هذه جعلت الاتراك يوجسون من

١ - Antoine Rabbath, *Documents inédits pour servir a l'histoire du christianisme en Orient*, vol II (Paris, 1910), pp. 464, 468, 473 seq. .
الدويهي ، ص ٢٠٣ .

٢ - Carali, vol. I, pp. 402 - 3; vol. II, pp. 315 - 18, 378 - 88.

٣ - P. 210.

٤ - Vol, I, p. 367.

٥ - Carali, vol. II, pp. 340 seq.

٦ - F. Wüstenfeld, *Fachr ed-Din der drusenfürst*. ٢٧٥ ص
und seine Zeitgenossen (Göttingen, 1886), pp, 167 - 8.

الامير خيفة . ولكن السلطان مراد الرابع كان الآن في مركز ، على الصعيدين الداخلي والخارجي ، اقوى بكثير مما كان عليه احمد الاول ومصطفى الاول . فصدرت الاوامر سنة ١٦٣٣ الى باشاوات سورية ومصر بالزحف ضد الناصر اللبناني بقيادة كوتشك احمد باشا والي دمشق . وفي الوقت ذاته شرع اسطول تركي مؤلف من اثنتين وعشرين سفينة بقيادة جعفر بهاجم الموانئ والحصون على الشواطئ اللبنانية . فحشد الامير جيشاً قوامه خمسة وعشرون الف مقاتل منهم اثنا عشر الفاً (كان من بينهم الف مقاتل ماروني والفا مقاتل درزي) بقيادة ابنه علي واسرع الى صفد وبانياس ليمنع اتصال الجيوش الزاحفة ضد الجبل من حلب ودمشق وغزة والقاهرة والتي كان عددها ثمانين الف رجل ^(١) . وفي المعركة الاولى التي خاضها ابنه علي وانتصر فيها خسر سبعة آلاف رجل مما افقده القوة على الهجوم . وفي معركة وقعت في وادي التيم جرح جواده جرحاً مميتاً ، وكان علي غاية من الوهن والعياء فاستسلم وقطع رأسه فوراً وحنط وأرسل بلع اصبع من اصابعه التي فيها خاتمه الى استنبول . اما ابوه الامير فخر الدين فقد تخلى عنه حلفاؤه واعوانه - بنو سيفا والحرافشة واليمينيون - الواحد تلو الآخر . فحاول ان يرشو الباشاوات بدفع مبلغ مئة الف غرش ذهباً ^(٢) وبتسليم ولده منصور رهينة . فقبل الاتراك بهذه الشروط ، ولكنهم لم يصدروا امراً بوقف القتال ^(٣) . وقد كرر طلب المساعدة من اصدقائه الطليان بواسطة رسوله الخاص المطران جرجس ابن مارون ولكن طلبه لم يلق اذنأ صاغية ^(٤) . اخيراً هرب الامير فخر الدين والتجأ الى قلعة نبحا ليتحصن فيها كما كان ابوه قد فعل قبلاً . ولكنه اضطر الى الفرار منها لمحاصرة الاتراك لها ولافسادهم ماء الشرب بدم الحيوانات المذبوحة واللجوء الى مغارة بالقرب من شلال جزين يصعب الوصول اليها . ولكن

١ - Paul Rycout, *The History of the Turkish Empire* (London, 1680), vol. I, p. 40.

٢ - Zeckins وهي كلمة ايطالية من اصل عربي « سكة » وهي قطعة نقود ذهبية ايطالية وتركية سك منها مرات . اما قيمتها فكانت تختلف ، ولكن قيمتها على وجه التقريب كانت تساوي نصف جنيه .

Rycout. vol. I, p. 41.

- ٣

Carali, vol. II, pp. 346 seq.

- ٤

مخبأه اكتشف أخيراً (حوالي ١٠ شباط ١٦٣٥) واسر مع ثلاثة من ابنائه وسيقوا الى استنبول . يقول القنصل البريطاني في ازмир^(١) ان صناديق الذهب التي حملها الامير فخر الدين معه هدية الى السلطان ، الى جانب الفصاحة التي تشبه فصاحة جده المعني الاول عندما خاطب السلطان سليم ، نجت رأسه من سيف النطع - ولكن الى حين ، وفي دفاعه عن نفسه امام السلطان قال :

« اني مظلوم ولم ابن القلاع الاحماية من الاعداء ولم احارب الا من كان عاصياً الدولة . وقد مشيت طريق الحج ومنعت العربان عن التعدي واديت الاموال الاميرية واديت الأحكام الشرعية »^(٢) .

وهكذا أصبح الامير الثائر من اقرب المقربين الى السلطان فاثار الحسد في قلوب الذين كانوا يخشون ان يحل محلهم عنده . فاخذوا يبرون له المكائد . وقد اقنعوا المفتي الاكبر ان يصدر فتوى بان الامير مرتد عن الاسلام . وفي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان ، ١٦٣٥ ، مات خنقاً في باحة المسجد ، خنقه رجلان اخرسان^(٣) . وقُتل اولاده الثلاثة ايضاً . وكذلك قتل الامير حسن ابنه الرابع ويونس وغيرهم . الا ان ابنه الاصغر ، حسين ، نجا من الموت وتترك وتقدم في المراتب الى ان أصبح حاجباً ثم سفيراً الى الهند .

لقد بين الامير فخر الدين المعني للبنانيين معنى المصير . فان حياته تربط بين لبنان الماضي ولبنان الحاضر .

Rycaut. vol. I, p. 42.

١ - الشدياق ، ص ٣٢٦ . المخطوف صفحة ٢٧٣ .

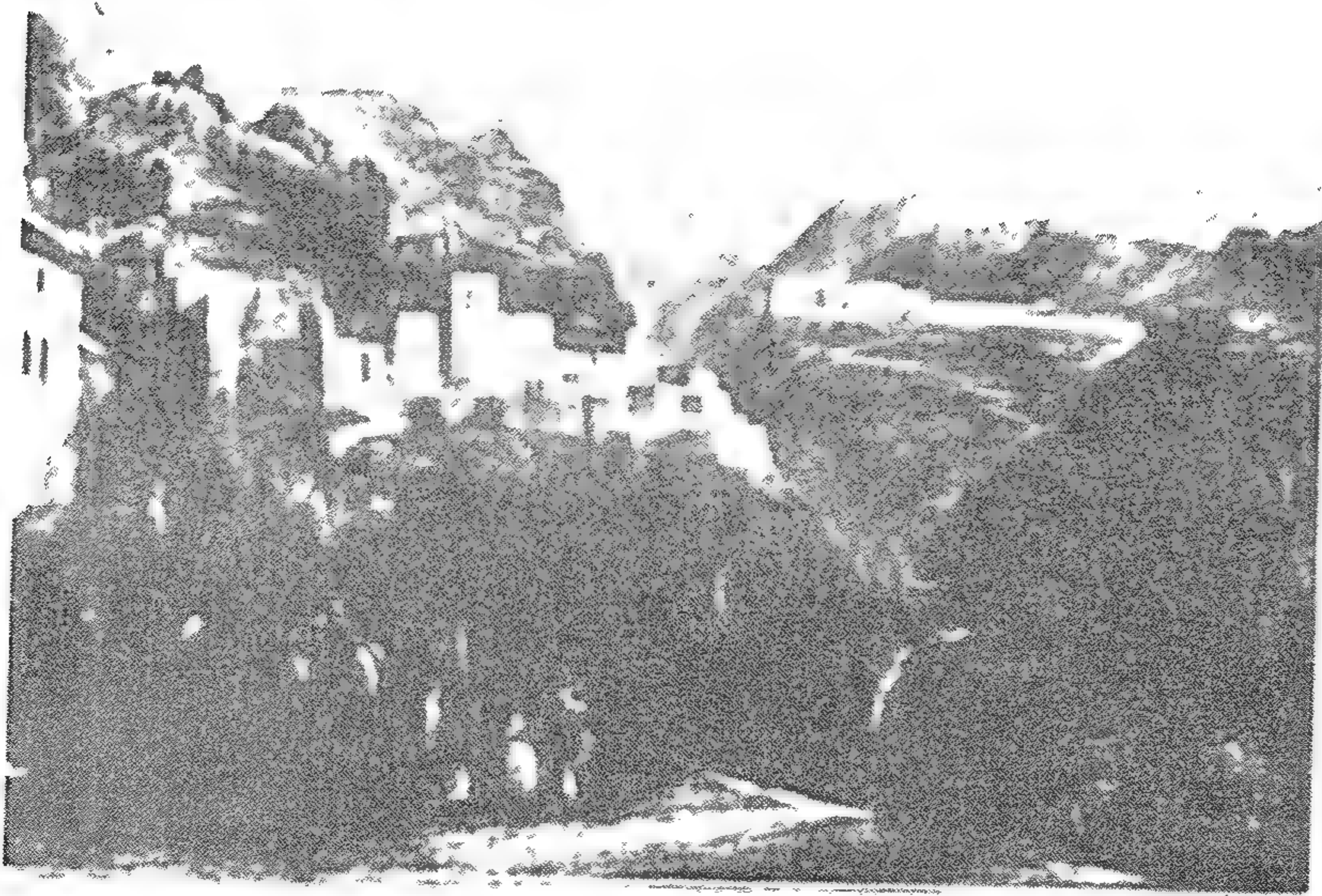
٢ - Rycaut, vol. I, p. 42; Carali, vol. II, pp. 355-6.

الفصل السادس والعشرون

امراء الجبل

الشهابيون

كان اختفاء المعنيين من الحياة السياسية في لبنان بداية فترة قلق وفوضى. وعاد النزاع بين القيسيين واليمنيين، وعادت الاسر التي كانت قد غلبت على امرها كبنى سيفاً في عكار والحرافشة في بعلبك الى ثاراتها القديمة. وقد اختار احمد كوتشك باشا والي دمشق علي علم الدين اميراً على جنوبي لبنان. وكان آل علم الدين فرعاً من التنوخيين،^(١) وكانوا يتزعمون الحزب اليمني ضد القيسيين والمعنيين. كان



دير القمر ، عاصمة لبنان في عهد الأمراء

١ - انطونيوس ابو خطار (العينطوري) « مختصر تاريخ جبل لبنان » المشرق المجلد ٤٦ (١٩٥٢) ص ٣٣٣ . وقد استقى الشدياق كثيراً من معلوماته من هذا المصدر ، فان ابا خطار من اقدم المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الاسم الارستقراطية اللبنانية .

رأيهم السعي بشتى وسائل الكيد والتآمر لكي يحصلوا على الولاية^(١). وقد اتبع علي علم الدين ، الذي برز اسمه لما استحوذ على ممتلكات المعنيين واضطهد اتباعهم ومريديهم ، سياسة حزبية عنيفة . فسار على خطة العباسيين في القضاء على اعدائهم الامويين . دعي مرة الى وليمة اقامها له التنوخيون في قصرهم في عبيه ، واثناء الوليمة انقض مع رجاله على مضيفيه وقتلهم . والذين نجوا من الواقعة هذه تتبّعهم الى ان ابادهم جميعاً^(٢). غير ان المقاومة استمرت بقيادة الامير ملحم^(٣) ابن الامير يونس وابن أخي الامير فخر الدين . وقد ظل الامير ملحم سنوات عديدة يحارب هنا وهناك ، واخيراً وفق الى الاستيلاء على جزء كبير من البلاد بينما كانت عين الاتراك الحذرة تراقبه . اما الامير علي علم الدين فانه كان احياناً يغضب الباب العالي لمتنّعه عن دفع الاموال الاميرية لهم . وقد دخلت البلاد في حالة من القتل والنهب حتى ان الشدياق^(٤) يقول : « دخلت الشوف والغرب والمتن والجرد من السكان » . واستمر حكم المعنيين تحت ولاية ابن ملحم ، الامير ، الذي مات سنة ١٦٩٧ ولم يترك ولداً . وبهذا انقرض نسل المعنيين من الذكور بعد حكم التنوخيين بجيلين . وكانت البلاد في حالة من الفوضى جعلت والي طرابلس يولي عام ١٦٥٤ بني حمادة الشيعيين اقطاع جبّة بشرّي التي حكموها بكثير من الظلم ، حتى انهم طردوا اخيراً الى الهرمل من اعمال بعلبك اثر ثورة محلية قام بها سكان المنطقة ، بعد ان حكموها قرابة قرن من الزمن .

١ - الشدياق ، ص ١١٤ .

٢ - الشدياق ، ص ١١٤-١١٥ . حيدر ، الفرر ، ص ٧١٦ .

٣ - الامارة المعنية :

فخر الدين الاول (توفي ١٥٤٤)

قرقاس (او قرقاز ١٥٤٤ - ١٥٨٥)

يونس
فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥)

ملحم (١٦٣٥ - ١٦٥٧)

احمد (توفي ١٦٩٧)

٤ - الشدياق ، ص ١١٥ .

الشهابيون يتولون الامارة

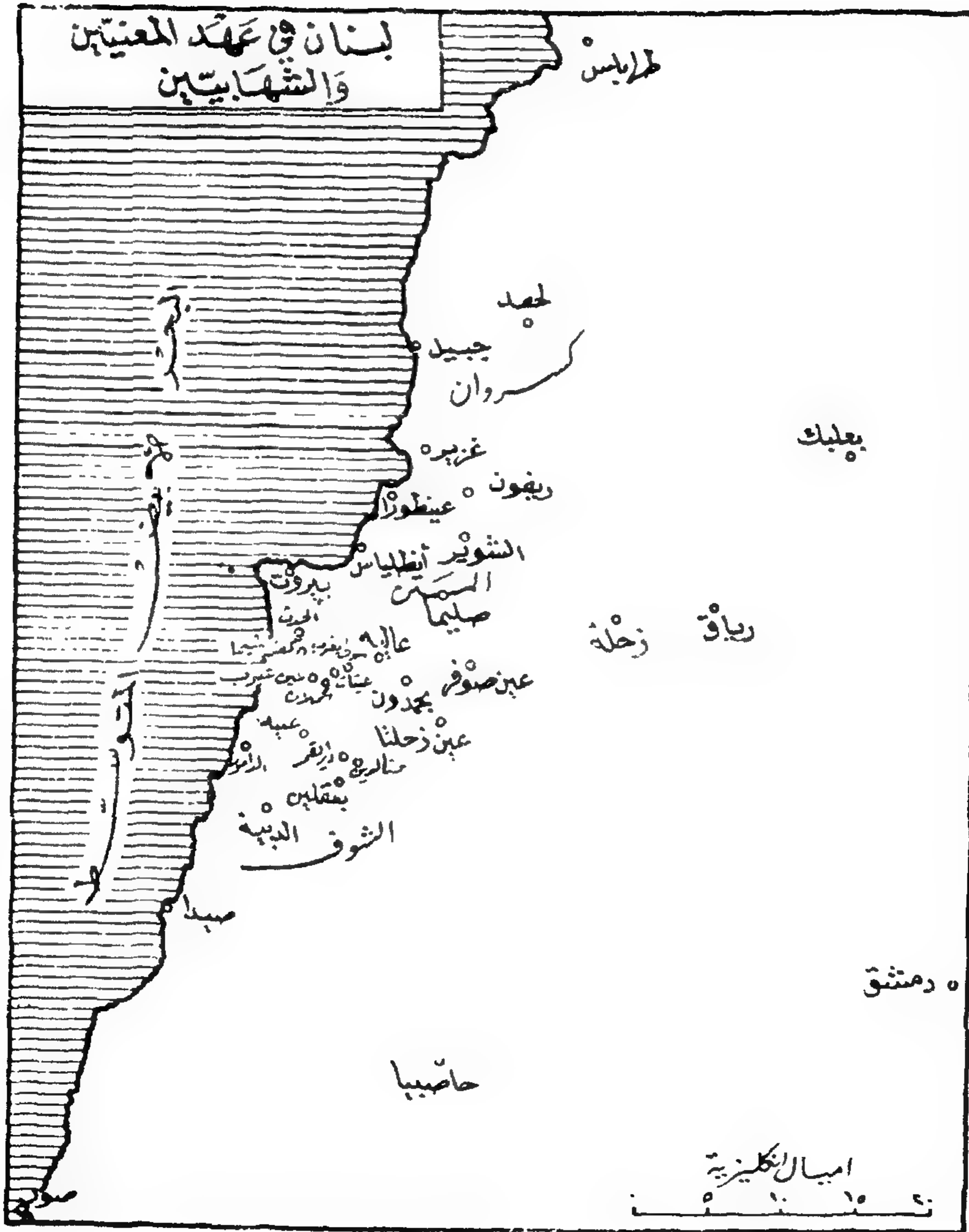
في اجتماع قومي عام عقده وجهاء لبنان عام ١٦٩٧ في السمقانية (بالقرب من بعقلين) اجتمعوا على انتخاب الامير بشير الشهابي من راشيا حاكماً على لبنان . وكان هذا الامير ابن اخت الامير احمد آخر الامراء المعنيين . فان مبدأ الحكم بالوراثة لم يزل بانقراض المعنيين من الذكور ، كما ان مبدأ الحكم الوطني المستقل ظل قائماً ، وهذا هو معنى انتخاب الشهابي في السمقانية . وقد أرسل قرار اجتماع السمقانية الى استنبول بواسطة والي صيدا مع التأكيدات بان الاموال الاميرية سترسل حالاً مع المتأخر منها^(١) . ونذكر بهذه المناسبة ان صيدا في تلك الاثناء اصبحت ولاية لتحول دون طموح اللبنانيين ولتحصي على حكامه اعمالهم . فان بيروت ، التي كان مرجعها احياناً دمشق ، كانت توضع احياناً تحت عهدة والي صيدا التي كانت مقراً للباشوية في سنوات الستين من القرن الثامن عشر^(٢) . ثم عاد الجزار فنقل مقر الباشوية الى عكا . اما الباب العالي ، تحت تأثير الامير حسين ابن فخر الدين ، فقد اصر ان حيدر الشهابي من حاصبيا ابن ابنة الامير احمد المعني ، آخر المعنيين هو احق بالولاية من بشير الشهابي ابن اخت احمد . وكان حيدر اذ ذاك ابن اثني عشرة . واعلن الباب العالي ان بشيرا يتولى الحكم بالنيابة عن حيدر الى ان يبلغ اشده . وقد احتفظ الامير بشير بولايته حتى ١٧٠٧ ، اذ توفي مسموماً . ويقال ان الذين كانوا يتولون امر وصيه هم الذين سمموه . وانتقل من الامارة الشهابية الى دير القمر ، عاصمة المعنيين القديمة . وقد اقام بها الاميران بشير وحيدر . وكانت إمارة الشهابيين نحو قرن ونصف (١٦٩٧ - ١٨٤١) تولوا فيها حكم الجبل واخذوا على عاتقهم الحفاظ على وحدته واستعادوا السهول - السواحل والسهول في داخلية البلاد - وذلك بانهم استغلوا تحاسد الولاة العثمانيين في صيدا وطرابلس وطمعهم في المال ، واستفادوا من ضعف الحكومة المركزية في استنبول

١ - حيدر الشهابي : لبنان في عهد الشهابيين ، نشر اسد رستم وفؤاد افرام البستاني (بيروت

١٩٣٣) ص ٣ - ٤ . الشدياق ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ . Lammens, vol. II, pp. 93-4 .

٢ - Fr. Charles - Roux, *les Échelles de Syrie et de Palestine* -

(Paris, 1928), p. 87 .



واخيراً استطاعوا ان يحتفظوا بنوع من التوازن السياسي بين الموارنة والدروز بتحريض حزب على حزب او اثاره شيخ ضد شيخ آخر . ويتضح الدليل على نجاحهم في الحكم بمدى الاستقلال الذاتي الذي كان لبنان الكبير يتمتع به . وقد عدل الامير بشير عن سياسة اسلافه التي كانوا يتوددون بها الى ولاية صيدا . ولم يكن درزياً في دينه ولم يكن كذلك احد من خلفائه . غير انه من الممكن انه كان يطمئن اتباعه سرّاً ان اعتناقه الاسلام ليس الا تقية ، والتقية مبدأ تأخذ به الشيعة .

احداث ترتيبات جديدة بين الامراء الاقطاعيين

بدأ الامير حيدر الشهابي عهده بانتصار ساحق للحزب القيسي على الحزب اليمني في معركة عين دارة (١٧١١) حيث قضى قضاء كاد ان يكون نهائياً على اليمنيين . وفي هذه المعركة قتل آل علم الدين حاملو لواء اليمنية مع كثير من اعوانهم . والذين نجوا منهم لجأوا الى حوران حيث اصبحوا النواة الاولى لجالية درزية قوية هناك . وقد اسفرت المعركة عن احداث ترتيبات جديدة بين الاسر الاقطاعية . فان المقدمين للمعينة نسبة للشجاعة والاستبسال اللذين اظهروهما في هذه المعركة منحوا لقب امراء ، وهذا اباح لهم الزواج مع الشهابيين ^(١) . وقد اقطعوا المتن اي انهم اصبحوا « مقاطعجية المتن » . اما الجنبلاطيون فقد رفعت رتبتهم الى المشيخة ، وولوا الشوف . وثبتت آل الخمازن في كسروان . واما الارسلانيون ^(٢) الذين كانوا يميلون الى الحزب اليمني ، والذين كانوا يملكون اكثر اراضي صحراء الزيتون بالقرب من الشويفات فقد جردوا من اقطاعهم في الغرب واعطي الى آل تلحوق من عيتات . ورفعت رتبة التلاحقة الى المشيخة . وثمة اسرة درزية اخرى برز اسمها في هذه الحقبة هي اسرة عبد الملك الذين خلع عليهم الامير حيدر لقب « مشايخ » وولاهم الجرد . والارسلانيون والجنبلاطيون وآل تلحوق وعلم الدين لا يزالون الى يومنا هذا من الاسر الدرزية الارستقراطية التي لها مقامها الرفيع عند الدروز . واصبح اسم الجنبلاطيين اسما لحزب جديد يعرف

١ - الشدياق ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

٢ - هم اصلا فرع من التنوخيين مثل آل علم الدين .

بالحزب الجنبلاطي مقابلة له بحزب آخر منافس له يعرف باليزبكي . ويزبك هذا كان عميد بني عماد^(١) نسبة الى مدينة العمادية بالقرب من الموصل . وبعد مقدمهم الى العرقوب من اعمال لبنان ، اعتنقوا الدرزية وابلوا بلاء حسناً في معركة عين دارة^(٢) . وقد انضم الى بني عماد اليزبكيين آل تلحوق وعبد الملك . وعلى ممر الزمن اصبح هذا الانقسام الحزبي : جنبلاطي ويزبكي ، لا يشمل الدروز وحسب ، بل تعداهم الى سائر اهل البلاد من النصارى والمسلمين . وبقياً هذا الانقسام الحزبي لا تزال الى يومنا هذا .

الشهابيون يوطدون اركان لبنان الكبير

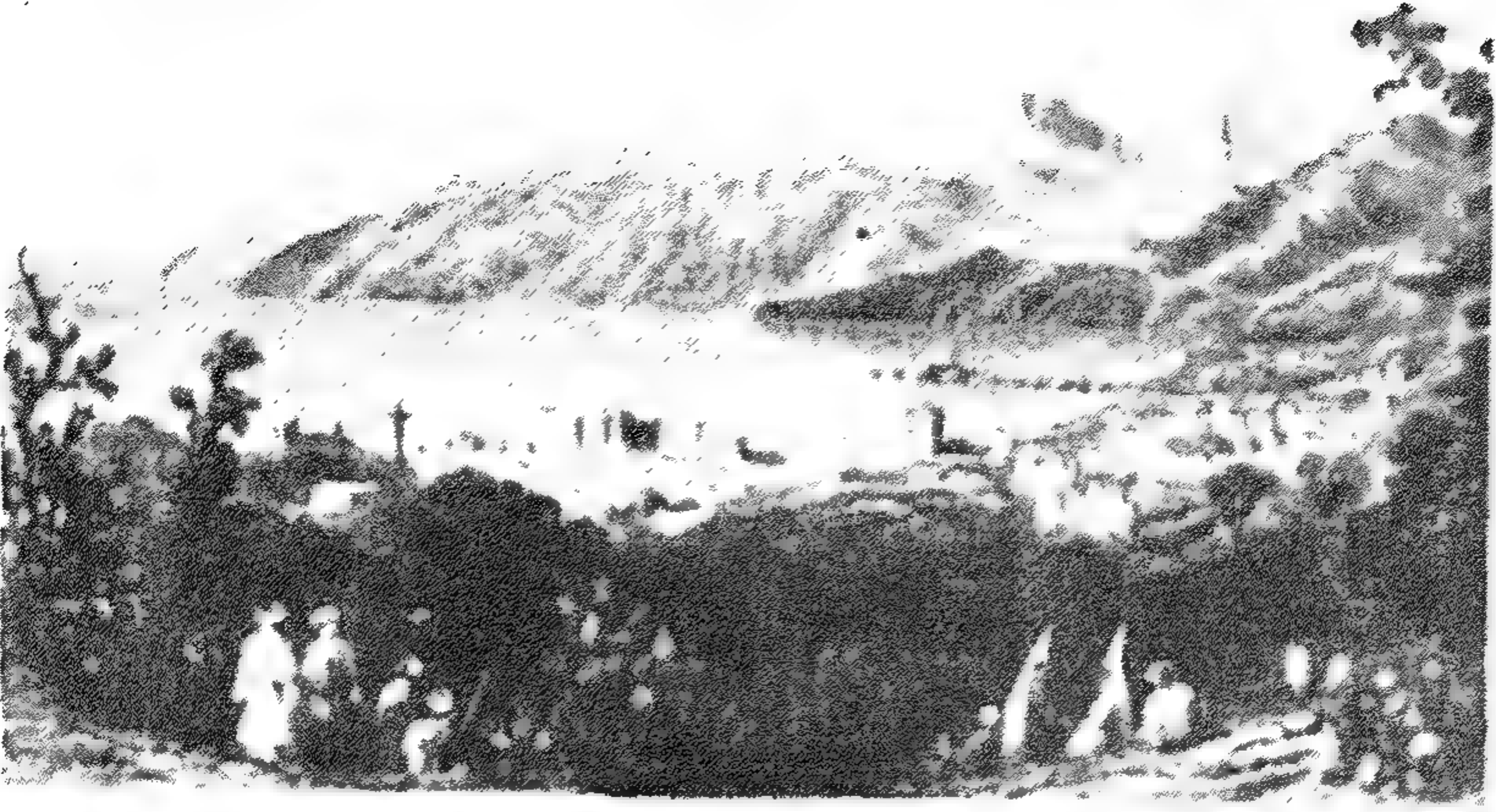
كان لبنان الاقطاعي يشبه هرمـاً قاعدته الوجهاء ثم المشايخ ثم المقدمون فالامراء . وكان الشهابيون في الفترة التي نحن بصددھا على قمة هذا الهرم ينعمون بالقوة والمنعة . وما دام المقاطعية ، كما كانوا يعرفون ، يمدونهم بالمؤن والرجال والضرائب التي كانت تعرف « بالميري » أي الاموال الاميرية ، فان الشهابيين كانوا عامل قوة واتحاد في البلاد . وكان الامراء والمقدمون والمشايخ والوجهاء يشتركون في الرأي في مسائل السلم والحرب وفي القرارات الخطيرة التي تتعلق بمصالح البلاد العليا . وكان الشهابيون — كما كان اسلافهم المعنيون — يوزعون الضرائب على المقاطعية ثم يجمعونها ويبيعون بالضرائب المجموعة من شمال لبنان الى والي طرابلس وبالضرائب المجموعة في الشوف الى والي صيدا ، وبالضرائب المجموعة في البقاع وفي اما كن اخرى مثل نابلس وصفد — اذا حدث ان هذه المدن كانت في حوزتهم — الى والي الشام^(٣) .

اما الامير ملحم (١٧٣٢ — ١٧٥٤) ابن الامير حيدر الشهابي فقد استطاع ان يسترد سهل البقاع . وكان هذا فاتحة عهد توسع جديد . فانه بعد ذلك اضاف الى امارته جبل عامل شرقي صور الذي كانت تقطنه جماعات من المتأولة (الشيعة) .

١ — وهناك آراء أخرى في اصل التسمية « يزبكي » . راجع شبلي ، ص ٢٤ ، والمعلوف ص ١٨ — ٢٠ .

٢ — الشدياق ص ١٦٢ — ١٦٤ .

٣ — عبد الكريم ، ص ١٤٢ . كرد علي ، الجزء الثاني ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .



مدينة بيروت وفي المؤخرة جبل صنين

وكان السبب في ضم جبل عامل ان والي صيدا ، سعد الدين العظم ^(١) ، طلب الى الامير ملحمة ان يساعده في جمع الضرائب المفروضة على اهل جبل عامل . وكان الامير بشير قبل هذا الحين استرد صور وصفد عندما عين له عاملا من زعماء العربان اسمه عمر الزيداني ابو ظاهر (ظاهر العمر) . وفي سنة ١٧٤٨ نجح الامير ملحمة في استرداد البقاع . والبقاع مصدر يغذي الدخل القومي ويشكل خط دفاع عن القسم الجبلي . وقد تم له ضم البقاع بعد انتصار احرزه الامير ملحمة على جيش اسعد باشا العظم ، والي دمشق واخي سعد الدين العظم والي صيدا ، في معركة وقعت بينهما في بلدة بر الياس في البقاع ^(٢) . والقصر الشهير في دمشق المعروف بقصر آل العظم ، الذي لا يزال قائماً الى يومنا هذا ، هو قصر اسعد باشا . ويعتبر من اجمل نماذج البناء العربي في عصرنا هذا . وكان امير بني حرفوش قد خف الى بر الياس على رأس جنوده لمساعدة اسعد باشا والي دمشق . فاتخذ الامير ملحمة الشهابي هذا الحادث ذريعة ليزحف ، بعد انتصاره في المعركة ، على بعلبك .

١ - كان الاتراك قد منحوا ولاية دمشق وصيدا وحماة الى هذه العائلة الوجيعة التي لا تزال من كبار العائلات في دمشق . راجع كرد علي ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٩ - ٢٩١ . الشدياق ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

٢ - حيدر : لبنان ، ص ٣٧ - ٤٠ .

فدخلها عنوة وعزل الامير الذي ساعد اهل الشام ونصب اخاه مكانه وجعل المنطقة بكاملها تدخل في فلكه . وقد لجأ الامير ملحم الى تدابير اخرى للاستيلاء على بيروت (١٧٤٩) . فانه اوعز الى الشيخ شاهين تلحوق ان يثير الاضطرابات في المدينة وحولها . ولما عجز الوالي التركي ياسين بك ، عن معالجة الامر شكاه الى والي دمشق وطلب اليه ان يزوده بالجند . ولكن والي دمشق ، عوضاً عن اعانة ياسين بك ، ارسل يعرض على الامير ملحم ولاية بيروت ^(١) فقبلها وظلت المدينة في حوزتهم الى ان جاء الجزائر . وكان لبنان يفوق جيرانه عسكرياً ، ذلك لان لبنان كان يحتفظ بالرجال على اهبة الاستعداد للخدمة العسكرية الفعلية ، اي ان الخدمة العسكرية كانت اجبارية عامة ، ولكن بدون ان يلتحق المرء بالجيش للتدريب . والى جانب هذا فان اللبناني الجبلي يتميز بالصلافة والشجاعة وحب الاستقلال ، مما جعل الجيش اللبناني في قدرته وامكانياته جيشاً لا يضاهى في اي منطقة اخرى مجاورة له . وقد جرى الشهابيون على سنة اسلافهم المنعنين في الحفاظ الشديد على الاوروبيين وحمائهم . بذلك على ذلك ان الامير ملحم اعدم رجلين بيرونيين مسلمين لما انتهزا فرصة هجوم القرصان علي بيروت فذهبا ونهباً ديراً للاتبين ^(٢) .

وفي سنة ١٧٥٤ تنازل الامير ملحم عن الامارة وانقطع الى حياة تدّين وزهد واقام في بيروت « وانعكف على درس الفقه ومعايشة علماء الاسلام » ^(٣) اما ولداه فقد اعتنقا المسيحية ، ثم تبعهما اقاربهما من الدعيين . واما اخواه الامير منصور ، الذي كان يميل الى الحزب الجنبلاطي ، والامير احمد الذي كان يميل الى الحزب اليزبكي فقد اختصما وتحاربا في سبيل الحصول على الامارة . والامير احمد هو والد حيدر المؤرخ الذي اشرنا الى مؤلفه مراراً في هذا الفصل

كان حيدر مسيحياً تقياً ورعاً . وقد اوقف هو وزوجته جميع املاكهما في شملان الى دير ماروني انشئ هناك عام ١٨٢٨ ^(٤) . وهو الدير الذي كان نواة لقيام قرية

١ - الشدياق ، ص ٣٧٣ .

٢ - حيدر : لبنان ، ص ٤٧-٤٨ .

٣ - الشدياق ، ص ٣٧٥ .

٤ - ابرونيوس خير الله : تاريخ موجز للرهبانية الانطونية المارونية (جوفية . ١٩٤٠) ص ٣٢ .

حوله هي قرية شمالان الحالية . ومكتبته هي الآن في دير الشير في خراج سوق الغرب . ويقول راهب ايطالي زار لبنان في عهد الامير منصور ان الدروز مستقلون عن السلطان في استنبول لكنهم يدفعون له جزية طفيفة - « وهي ما تبقى للباب العالي من سلطة على هذا الشعب الذي كان الاتراك يضمنون عليه بالاستقلال »^(١) . وكانت بيروت عاصمة الدروز شتاء ودير القمر صيفاً . وبالرغم من ان المعنيين والشهابيين استولوا على بيروت فانهم تحاشوا جعلها مقراً لامارتهم لتعرضها لغزوات القرصان .

ولقد استمرت الاضطرابات الاهلية الى ان بلغ الامير يوسف ابن الامير ملحم سن الرشد واستقل بالامارة^(٢) . وقد كان الوصي على الامير يوسف مارونيا من رشميا اسمه سعد الخوري^(٣) ومن آل سعد الخوري قام رئيسان للجمهورية اللبنانية

Mariti, vol. II, p. 31 .

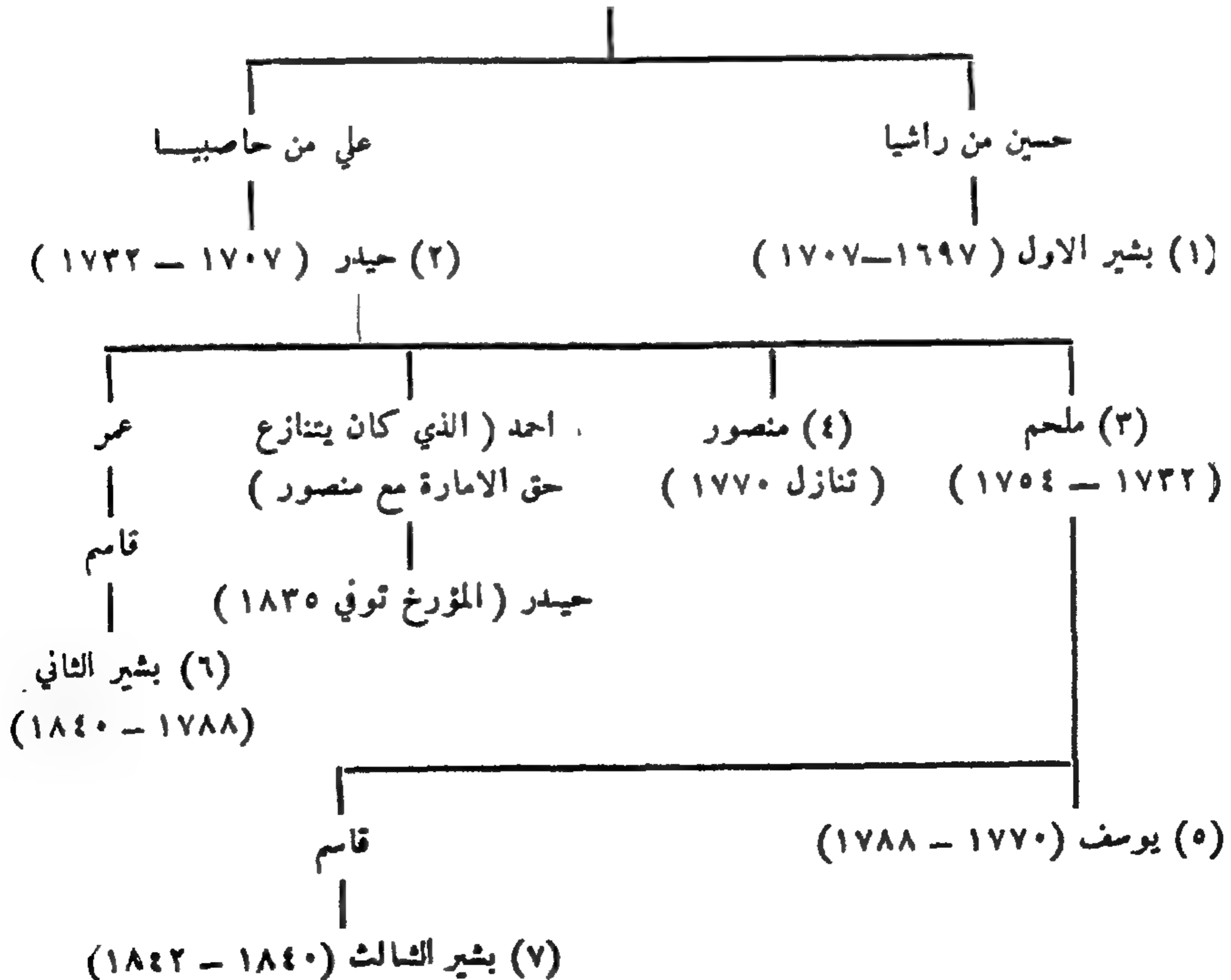
١ -

٢ - حيدر ، الفرر ، ص ٨٠٧ . الشدياق ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

٣ - حيدر، الفرر ، ص ٧٨٣ . الشدياق ص ٣٧٧ . Volney, vol. II, p. 46-7 .

الامراء الشهابيون

منصور (توفي حوالي ١٥٩٧)



الحديثة وقد رفع الامير يوسف رتبة آل الخوري الى درجة المشايخ ، وفي اجتماع قومي عام عقد عام ١٧٧٠ في الباروك اعلن الامير منصور عزمه على التنازل الى ابن اخيه ، الامير يوسف ، الذي أعلن حاكماً على البلاد^(١) ، واخبر الباب العالي بالامر بواسطة والي دمشق . ويمكن اعتبار الامير يوسف (١٧٧٠-١٧٨٨) اول امير مسيحي يتمتع بالسلطة التامة . من طرابلس الى صيدا^(٢) . وقد جعل الامير يوسف سعد الخوري صاحب خزينته . أما فولني^(٣) الذي اقام ثمانية اشهر بين الدروز في دير واصبح يعرف العربية ، فقد ادهشته كثافة السكان في لبنان التي « تقاس بكثافة السكان في احسن المقاطعات في بلادنا » . وقد اعجب بعدد الرجال القادرين على حمل السلاح الذين يبلغ عددهم اربعين الفاً ، وبمدى الحرية والاطمئنان اللذين يتمتع بهما اهل البلاد مما يجعل عدداً من العائلات النصرانية تهجر كل يوم من المقاطعات الواقعة تحت الحكم التركي الى لبنان « حيث يضيء شعاع من الحرية » وحيث يستقبلهم الاهلون من الموارنة والدروز على السواء بكثير . من الترحاب^(٤) يقول فولني :

« ان المرء في هذه البلاد يختلف عن اي امرئ آخر في السلطنة العثمانية . اذ انه ينعم بالاطمئنان التام على نفسه وممتلكاته . وليس الفلاح في لبنان بأغنى من الفلاح في مناطق اخرى ، انما يعيش عيشاً هائلاً هادئاً . فانه لا يخشى - كما قد سمعت كثيرين منهم يقولون - ان يرسل الآغا أو القائم مقام أو الباشا جنوده لينهبوا بيته أو ليلقوا القبض على افراد عائلته أو لينزلوا فيه عقاب الفلق . هذه الانواع من الظلم غير معروفة في الجبل »^(٥) .

ظاهر العمر

وقد برز في هذه الحقبة زعيان آخران لمع اسمهما الى جانب الامراء الشهابيين :

- | | |
|---|--|
| ١ - حيدر، المرص ص ٨٠٧ . الشدياق ص ٣٨٦-٣٨٧ . | |
| ٢ - Churchill. vol. III, p. 109 . | |
| ٣ - Volney, vol. I, p. VIII . | |
| ٤ - Volney, vol. II, pp. 66-7 . | |
| ٥ - Volney, vol. II, p. 67 . | |

ظاهر آل عمر (= العمر) في صفد ، واحد الجزار في عكا . وبظهورهما اخذت فلسطين تنافس لبنان في احتلالها مركزاً مرموقاً على مسرح السياسة آنذاك . اما سورية فقد ظلت في هذه الحقبة بلاداً مغمورة .

كان ظاهر ابن شيخ قبيلة بدوية^(١) . وقد برز على مسرح السياسة سنة ١٧٣٧ ، واخذ يضيف الى ممتلكاته في صفد رويداً رويداً طبرية والجليل الاعلى ونابلس والناصرية . وفي سنة ١٧٥٠ لما ضمّ عكا الى ملكه كان قد اقترب الى لبنان بحيث انه اصبح بشكل خطراً عليه . وقد اختار عكا التي كانت في معظمها خرائب منذ ايام الصليبيين لتكون مقراً له بعد ان رمت حصونها . وكان الامير فخر الدين قد ردم ميناءها بانقاض البيوت القديمة ليمنع دخول سفن القرصان اليها^(٢) . لكنها اخذت في هذه الفترة تستعيد مجدها وازدهارها ولو الى حين . كان ظاهر العمر مستبداً عادلاً فقضى على اعمال الشقاوة وشجع الاعمال الزراعية واحسن معاملته النصارى . وقد كان معظم افراد حاشيته المقربين اليه من الروم الكاثوليك . يقول لنا مؤرخ^(٣) حياته ، وبكثير من المفارقة : « حتى ان ان المرأة تستطيع ان تسافر من مكان الى آخر حاملة معها ذهباً دون ان تخشى سوءاً » . واذا زنت امرأة فان جزاءها الشنق واما جزاء الرجل الذي زنى بها فالموت غرقاً ؛ كان يوضع في كيس ويرمى به في البحر . وقد لاحظ ماريتي ان زراعة التبغ واشجار التوت كانت زراعة مزدهرة في التلال المجاورة لمدينة صور ، ولكنه لم يلاحظ ان الناس يستفيدون من الاصداف التي كان اسلافهم يستخرجون منها صبغ الارجوان^(٤) . وقد قام ظاهر العمر بتعهداته المالية الى الحكومة التركية بكل امانة ، فكان يدفع ما عليه من ضرائب مستحقة . وكان الاتراك بدورهم لا يبالغون سواء اتاهم الخراج عن طريق عامل عربي ام عن طريق عامل تركي . ومعدل الضريبة على الشخص الواحد كان خمسة غروش في السنة^(٥) . والحقبة التي نحن بصدددها كانت حقبة اشتبك فيها

١ - حيدر الفرر ص ٨٠٠ .

٢ - Mariti, vol. II, p. 88 .

٣ - ميخائيل ن. الصباغ (العكاوي) تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني ، نشر قسطنطين الباشا (حريصا) ص ٥٠ .

٤ - Mariti, vol. II, p. 103, 211, 213 .

٥ - Mariti, vol. II, p. 102 .

الأتراك بصراع مرير ضد الروس في عهد الملكة كاترين الثانية . وكان نفوذ الأتراك في كل مكان قد وصل الى الحضيض . ففي عام ١٧٦٨ قبل السلطان ان يمنح ظاهر العمر طلباً تقدم به وهو ان تكون حكومته وراثية وان يكون لقبه « شيخ عكا ، وامير الامراء ، صاحب الناصرة وطبرية وصفد وامير الجليل »^(١) . اما في مصر فقد حاول حاكمها علي بك ان يعيد حكم المماليك في سورية وفلسطين كما كان قبل مقدم الأتراك . وذلك لانه رأى في ضعف الأتراك فرصة مناسبة لتحقيق اغراضه . فارسل عامله أبا الذهب^(٢) سنة ١٧٧١ ليستولي على دمشق وسائر المدن السورية . وقد وجد ظاهر العمر في ابي الذهب حليفاً طبيعياً . وبينما كان الاسطول الروسي ، الذي كان يتعاون معهما ، يقصف مدينة صيدا دخلتها جيوش ظاهر واستولت عليها (١٧٧٢) . وقصف الاسطول الروسي مدينة بيروت واعمل بحارته فيها النهب . اما الامير يوسف الشهابي فانه حالف هذه المرة والي دمشق ضد الخطر الجديد من الجنوب . فارسلت استنبول كتيبة لتساعد والي دمشق والامير يوسف الشهابي . وبعد اعمال حربية بحرية وبرية استعاد مدينة صيدا من ظاهر العمر (١٧٧٥) وارغم على التراجع الى عكا عاصمته المحصنة حيث ضربت عليها دمشق الحصار . اما رصاص بنادق الجنود الأتراك فلم يكن لها اي تأثير في اسوار المدينة المنيعه . الا ان ذهب الأتراك فعل فعله في جنود الحامية ، واسفر عن مقتل ظاهر العمر . فقطع رأسه وارسل الى استنبول ليعلق على سور سراي السلطان . وقد كان من جملة الجنود الذين دافعوا عن صيدا وبيروت ، لما كان الاسطول الروسي يقصفهما وعندما كانت جنود ظاهر وابي الذهب تهاجمهما برأ ، جندي اسمه احمد الجزار الذي تتضاءل مغامرات ظاهر العمر ازاء مغامراته العتيدة .

احمد باشا الجزار

ولد احمد باشا الجزار في بوسنة ، وكان مسيحياً . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره حاول الاعتداء على امرأة اخيه ، ثم هرب الى استنبول وباع نفسه الى تاجر

١ — . Mariti, vol. II, p. 100; Churchill, vol. III, pp. 119 - 20 .

٢ — سمي «ابو الذهب» لان عطاياء وهباته كانت دوماً قطعاً من النقود الذهبية . راجع الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والاخبار (القاهرة ١٢٩٧) الجزء الاول ص ٤١٧ .

رقيق يهودي . واستقر به المقام اخيراً في القاهرة كعبد من عبيد علي بك . فاقامه جلاداً . وكان ذا دهاء وقسوة . ولم يلبث طويلاً حتى اعتقه علي بك ولقبه بالجزار



احمد باشا الجزار ، وهو في مجلس يصدر فيه حكماً على مجرم

وهو الاسم الذي عرف فيه فيما بعد . وقد سعى جاهداً ان يطابق الاسم المسمى . ثم انه غادر القاهرة وذهب الى دمشق والتحق بالجيش السوري . وجزاء لخدماته في الجيش ضد ظاهر العمر اعطي ولاية صيدا . واستولى الى مدة قصيرة على بيروت غير معترف بسلطة الامير يوسف الشهابي عليها . وكان عدد سكان بيروت آنئذ ستة آلاف نسمة^(١)

بعد ان جرّد احمد باشا الجزار لبنان من اقسامه الساحلية وبعد ان ورث ولاية ظاهر العمر اتخذ عكا مقراً له واحسن تحصينها وذلك بتسخير السكان للعمل في حصونها . وانشأ اسطولا وكتيبة مشاة قوامها الف رجل من المغاربة وفرقة خيالة قوامها ثمان مئة رجل من البوسنة والبانبا . وقد احتكر من تجارة البلاد ما مكنه من دفع النفقات العسكرية ، ومن العيش الرغد^(٢) . ولا يزال الجامع الفخم

١ - حيدر ، الفرر ، ص ٨١١-٨١٢ ، ٨٢٧ . Volney, vol. II, p. 170 .

٢ - المنجد ، ص ٨٥ .

الذي بناه والذي دفن فيه قائماً الى يومنا هذا . وقد تناولت سلطته اقاليم ابعد من الشاطئ اللبناني والفلسطيني . فان السلطان . عام ١٧٨٠ ، انعم عليه بولاية دمشق بفرمان . وهكذا اصبح حاكم سورية المطلق والحكم الاخير في القضايا اللبنانية مدة ٢٥ سنة . ولم يحدث اثناء حكمه اي حادث كان من شأنه ان يكدر حياته او ان يسبب له نكسة سياسية بل انه مات سنة ١٨٠٤ ميتة طبيعية . وهذا نادر غاية الندرة في تاريخ حكام هذه المنطقة من الارض . وقد اصبح اسم هذا المغتصب الطاغية في الاخبار المحلية الشعبية مرادفاً للقسوة الفظيعة التي لا تعرف حداً . ويروي لنا مؤرخ من اهل البلاد^(١) ان الجزار لمجرد ريبة قذف بسبع وثلاثين امرأة من حريمه الى النار . كان خصميانه يحرون الواحدة تلو الاخرى وهو يرمي بها الى اللهب . اما في لبنان فقد اتبع سياسة تحريض حزب على آخر ، واستصفى الجنبلاطين خلفاء له . وبعد معركة قب الياس التي وقعت عام ١٧٨٨ والتي هزم فيها جيش الامير يوسف الشهابي طلب من اهل البلاد ان ينتخبوا الامير بشير الشهابي حاكماً على لبنان . اما الامير يوسف الذي كان قد طعن في السن واصبح عاجزاً فانه ربط منديلاً حول عنقه — علامة الاستسلام — وسلم نفسه الى رحمة الجزار الذي شنقه في سجن عكا^(٢) .

وقد بلغ الجرار الذروة في القوة سنة ١٧٩٩ عندما اوقف زحف جنود نابليون بونابرت الظافر الذي كان قد بدأ به من مصر في السنة التي قبلها . وقد دافع الجزار عن عكا بمساعدة الاسطول البريطاني الذي كان بامرة سدني سميث من الحادي والعشرين من اذار الى العشرين من شهر ايار . واضطر الجيش الفرنسي الذي كان قد فقد كثيراً في الارواح بسبب الطاعون وقلة المؤن الى التراجع . فكانت عكا التي كان يعتبرها نابليون مفتاح الأستانة والهند عشرة في سبيل الفوز بفتح العالم^(٣) .

١ — مخايل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، نشر ملحم عبده واندراوس شخاشيري (القاهرة ، ١٩٠٨) ص ٥٤ .

٢ — حيدر الغرر ، ص ٨٥٦ وما يليها . مشاقة ، ص ٤٦ . الشدياق ص ٤١٩ — ٤٢٠ ، ٤٢٧ . Churchill, vol. III, pp. 170 seq .

٣ — Édouard Lockroy, *Ahmed Le Boucher*, 4 th ed. (Paris, 1888) p.VIII; Montgomery B. Gibbs, *Military Career of Napoleon The Great* (New York, 1909), p. 128 .

الفصل السابع والعشرون

العلاقات الخارجية والداخلية

كان الحجاج الى البلاد المقدسة يمثلون الاوربيين الذين تعرف اليهم اللبناني في الازمنة القديمة . وفي العصور المتوسطة تعرف الى الجنود الصليبيين ؛ وفي العصور الحديثة الى المرسلين والتجار ومن بعدهما الى السياح . ولجماعة السياح اهمية خاصة لانهم خلفوا لنا ادب الرحلة الغني بالمعلومات . وفي عهد المعنيين والشهابيين اسس المرسلون الكبوشيون واليسوعيون ارسالياتهم في البلاد ، ووطدوا اركان اعمالهم التبشيرية والثقافية . وكان جل افراد هذه البعثات - سواء أكانوا مرسلين ام تجاراً - من المواطنين الافرنسيين الذين كانوا عن عمد او عن غير عمد ، يمهّدون السبيل لتحقيق السياسة الخارجية الافرنسية التي وضعها لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥) والتي اتبعتها خلفاؤه من تشجيع التجارة الافرنسية وحماية الكاثوليك . وفي القرنين السابع والثامن عشر عادت الصلات الثقافية والعلاقات الاقتصادية التي كانت قد انقطعت اثر الحروب الصليبية الى سابق عهدها بنشاط وعزم .

التجارة الخارجية

بدأت التجارة الافرنسية عهداً زاهراً في عصر مبكر بفضل الامتيازات التي منحت لهم عام ١٥٣٥ واعيد تجديدها عام ١٥٦٩ . ثم تلتها التجارة الانكليزية ولكنها لم تكن لتنافس التجارة الافرنسية بشكل جدي . وقد ظلت المراكب الافرنسية ومراكب البندقية تسافر حاملة العلم الافرنسي مدة من الزمن . وفي عام ١٦٩٧ اصدر لويس الرابع عشر تعليماته الى سفيره في استنبول والى قناصله في سورية ليفتحوا ابوابهم لمساعدة « الامة » المارونية البالغ عددها قرابة سبعين الف نسمة ، وليكونوا في عون سائر الكاثوليك في المشرق . وقد اعلم لويس

الرابع عشر « رئيس الكنيسة المارونية بالامر^(١) ». وهذه التعليمات تؤكد مرة ثانية بياناً آخر كان قد صدر قبلاً يتعلق بالطلبة اللبنانيين الذين يودون السفر الى « بلاد النصارى » وفيه تعهد بتخفيض اجور السفر بحيث تتناسب مع حالة الطلبة المالية^(٢). وبعد اربعين سنة (١٧٣٧) جدد لويس الخامس عشر هذا البيان متعهداً بحماية الموارنة ومصدرأ تعليماته الى قناصله « ليضعوا قنصلياتهم في خدمة بطرك الموارنة وجميع افراد رعاياه^(٣) » .

وفي سنة ١٦١٦ أصبحت صيدا ، لأول مرة ، مركزاً لقنصلية افرنسية ذات صلاحية تشمل بيروت وصور وعكا وحيفا ويافا . وقد وضع فخر الدين الخان الفخم الذي كان قد بناه تحت تصرف القنصلية والتجار الافرنسيين والمرسلين . ولما كانت صيدا مستودعاً للبضائع في لبنان ، وبوصفها ميناء لدمشق فقد ارسلت الحكومة الافرنسية بين ١٦٨٥ و ١٧٠٩ لا اقل من مئة وخمسة وسبعين مقيماً على التوالي . وقد كان يصل الى مينائها حوالي عشرين مركباً من « رسييليا كل سنة^(٤) » . وكادت صيدا ان تغتصب مركز حلب التجاري الذي كان يحتل المركز الرئيسي في سورية بكاملها . اما بيروت التي كانت عام ١٦٦٠ اكبر من ضعفي صيدا فانه لم يكن فيها سوى اربعة او خمسة من التجار الافرنسيين^(٥) .

ويروي قاصد رسولي ايطالي جاء طرابلس عام ١٥٩٦ انه وجد ميناءها حسنة التحصين ، وشاهد على الشاطئ خمسة ابراج لحراستها . وقال انه لم يكن فيها سوى بضعة تجار ايطاليين . اما بلاد الارز في اعالي لبنان فقد وجدها غنية بغلاتها الزراعية . القمح والحبور الممتازة والقطن والحري والعسل والشمع والاختشاب

١ — للاطلاع على نص التعليمات راجع :

de La Roque, vol. II, pp. 246 - 7; de Testa, vol. IV, p. 141 .

٢ — تجد النص في :

Ristelhueber, pp. 117 - 18; de Testa, vol. III, pp. 140 - 1 .

والترجمة العربية في الدويهي ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

٣ — de Testa, vol. III, pp. 141—2; Ristelhueber, p. 255 .

٤ — Ristelhueber, pp. 96, 129 .

٥ — D'Arvieux, vol. II, pp. 338, 344 .

والعنب « الذي حجم الحبة منه كحجم الخوخ »^(١) . وبعد انقضاء قرن من الزمن زار موندل^(٢) طرابلس — التي كان قد تخرب ميناؤها بسبب انخساف الشاطئ والصخري — فوجد فيها تاجراً انكليزياً واحداً وقنصلاً انكليزياً .

وفي اواخر القرن السابع عشر اخذت طرابلس — وكانت لا تزال حتى ذلك الحين مقرّ نائب قنصل لمدينة حلب — تشق طريقها لتصبح مركزاً تجارياً مزدهراً بين المواني اللبنانية يجهز حص وحماة وشمال لبنان بالبضائع المستوردة . غير ان القرصنة — وهي مهنة محترمة حتى من قبل زمن الرومان — بلغت في اوروبا عند منصرم القرن السابع عشر من العنف ما لم تبلغه من قبل . وكان يرعى اعمال القرصنة تجار كانوا ينظرون اليها على انها غزو بحريّ محلّ تماماً كما ينظر البدوي الى اعمال الغزو انها سنة محلّلة . وعليه كان طبعياً ان تتأثر التجارة اللبنانية البحرية باعمال القرصنة . وكان اشدّ القرصان خطراً على اللبنانيين في هذه الفترة قرصان مالطة .

وكان من اهمّ الغلال الزراعية والمصنوعات المصدّرة من لبنان الحرير والزيت والصابون والزبيب والصوف والبضائع القطنية . ومن جملة البضائع التي كان اللبنانيون يأتون بها من البلدان المجاورة ويصدرونها من صيدا الارز والبن . وكان الحرير اللبناني يعتبر من اجود واثن انواع الحرير . وكان الطلب على حرير طرابلس الناصع البياض كبيراً لان الصناع كانوا يؤثرونه على غيره من الحرير في اعمال التطريز المذهب والمفضّض . اما حرير الشوف ، الذي كان اخشن قليلاً من حرير طرابلس ، فانهم كانوا يستعملونه في صناعة النسيج المخمل ، وكانوا يستعملون حرير بيروت في صنع قماش التفتا والستائر واغطية القرش . وكان التجار الافرنسيون يبتاعون سنوياً من حرير لبنان ما قيمته مليوناً فرنكاً فرنسي ذهبياً . وكانت تجارة صيدا السنوية تقدّر بمليون الى مليوني ليرة افرنسية ذهبية^(٣) . مقابل هذا كان اللبنانيون يستوردون الاقمشة الصوفية والقطنية من فرنسا والورق والحديد والنحاس من انكلترا ، والآلات والنقود المصكوكة من كلا البلدين . فان الليرتين الذهبيتين ،

Dandini, pp. 25, 42—3 .

— ١

Maundrell, p. 25 .

— ٢

D'Arvieux vol. II, p. 345, Ristelhueber, p. 96 .

— ٣

الانكليزية والافرنسية ، دخلتا الاسواق التركية وبقيتا العملتين المتداولتين حتى الحرب العالمية الاولى والعملة التركية ذاتها صكّت حسب نماذج اوروبية كما يستدل من شكل الليرة العثمانية الذهبية. وكانت الليرة عملة البندقية اصلاً واصبحت الوحدة النقدية الذهبية ، بينما كانت الوحدة النقدية الفضية الريال ، وهي مأخوذة من لفظة افرنسية الاصل (royal d'or) وكانت العملة الشائعة في القرنين الخامس والسادس عشر . اما الوحدة الفضية الصغيرة فهي الغرش أو القرش وهي من لفظة المانية Groshen (وهذه لاتينية الاصل : grossus ومعناها ثخين - كثيف) . وقد كانت هذه القطعة من النقود شائعة الاستعمال في المانيا وفي البلدان الواقعة شرقيها^(٢). واول مرة ترد فيها هذه اللفظة « غرش أو قرش » في وثيقة يعود تاريخها الى اواخر القرن الرابع عشر . غير ان صكّ الغروش في الدولة العثمانية لم يُبدأ به الا بعد مضي ثلاثة قرون. وكانت قيمة الغرش اربعين بارة^(٣)، وكل ٣٠ بارة كانت تساوي زلطة^(٤) وهي اصلاً قطعة نقود هولندية وجزء من الفلورين التي كان يتعامل بها في الاسواق التركية في القرن السابع عشر .

عائلة لبنانية تتقلد مناصب قنصلية افرنسية

في سنة ١٦٥٥ عيّن نادر الخازن ، وكنيته ابو نوفل ، نائب قنصل افرنسي في بيروت . وكانت بيروت اذ ذاك تابعة لضيدا . وكان ابو نوفل ابن ابي نادر الخازن مقاطعياً على كسروان من قبل الامير منحم المعني ووصياً على ابنه احمد^(٥) . وكحكم على كسروان فانه حمى الارساليات الافرنسية . ولقاء خدماته هذه واقراراً بفضلهم فانهم اوصوا حكومتهم بتعيينه قنصلاً . ولا شك في ان هذا التعيين

١ - ليرا لفظة ايطالية من الكلمة اللاتينية ليبرا .

٢ - راجع المقال عن « غروش » في الموسوعة الاسلامية .

٣ - وهي لفظة تركية من اصل فارسي ومعناها قطعة صغيرة .

٤ - من كلمة ايطالية isolotti وفي الافرنسية isolotte . وقد تكون اللفظة مشتقة من اسم نهر

في هولندا : يز (Ijssel) Yesel) حيث كانوا يصكون النقود . راجع :

Albert R. Frey, *A Dictionary of Numismatic Names* (New York. 1917), p. 251.

كان بموافقة الامير ملحم . وبعد سنتين انعم لويس الرابع عشر على قنصله اللبناني، ابي نوفل ، بالجنسية الافرنسية ، وبالحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها طبقة الاشراف من الافرنسيين . وفي سنة ١٦٦٢ رقي الى رتبة قنصل . وهو اول قنصل يعين في بيروت . وبعد ثلاث عشرة سنة عين نائب قنصل للبندقية . وكان يخاطب في الرسائل والوثائق الرسمية هكذا : « نادر خازن ، امير الموارنة ، الفارس الروماني »^(١) ، الكونت بلاتين ، مستشار الملك ، قنصل جلالة المسيحي^(٢) الورع في مدينة بيروت وتوابعها^(٣) . وقد خلف ابا نوفل في منصبه ابنه ابو قانصوه (فياض) سنة ١٦٧٩ . وهكذا اصبحت هذه الوظيفة وراثية في العائلة^(٤) . وبعد وفاته سنة ١٦٩١ بسة اعوام عين ابنه حصن خلفاً له . وبعد موت حصن (١٧٠٦) عين ابنه نوفل ، وكان ابن عشرين سنة ، قنصلاً وظل في هذا المنصب حتى ١٧٥٨ . ولكن في السنوات الاخيرة من خدمته غير لقبه الى لقب قنصل فخري . ذلك لان الباب العالي كان يرفض ان يعترف باحد رعاياه وكيلا او عاملا لدولة اجنبية . وفي عام ١٩١٦ شق جمال باشا اثنين من هذه العائلة : فيليب ترجمان القنصلية الافرنسية في بيروت واخوه فريد الصحافي . وقد شنقهما جمال لاشتراكهما مع آخرين من الوطنيين في التآمر على سلامة الدولة العثمانية .

في سنة ١٧٨٧ عين لويس السادس عشر ، غندور ابن سعد الخوري ، قنصلاً في بيروت . وكان غندور امين سرّ الامير يوسف الشهابي . وبمجاية آل خازن ورعايتهم اتسعت اعمال الكبوشيين ، الذين كانوا قد أسسوا لهم ارسالية في بيروت سنة ١٦٢٦ ، وأعمال اليسوعيين الذين قدموا البلاد سنة ١٦٥٢^(٥) وانتشرت ارسالياتها التبشيرية والثقافية في البلاد . واسس الفرنسيون ارسالية في طرابلس ، والكرمليون ارسالية في بشري . وكان من اثر اولئك المرسلين الكاثوليك انهم دقوا اول اسفين لتحطيم الرجعية الفكرية .

في سنة ١٦٥٦ شطط راهب يسوعي بالقرب من جونية بعد تحطّم المركب

١ - هذا اللقب منحه اياه الفاتيكان .

٢ - الدويهي ص ٢٢٢ وما يليها ، ٢٢٣ - ٢٢٤ . D'Arvieux, vol. II, p. 366 .

Ristelhueber, pp. 132 seq.; Charles - Roux. *Échelles*, p. 62.

٣ - وقد حفظ لنا الدويهي الرسالة التي بموجبها عين ابو قانصوه قنصلاً ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

٤ - Rabbath, vol. I, pp. 30 seq .

الذي كان مسافراً فيه . فظن الناس انه من القرصان ، فقبضوا عليه واخذوه الى ابي نوفل الخازن صاحب كسروان . غير ان ابا نوفل وهبه قطعة ارض كبيرة في عينطورا حيث بنى اليسوعيون بيتاً وكنيسة^(١) . وفي سنة ١٧٣٤ وضع بطرس مبارك الغوسطاوي الماروني المدرسة الثانوية، التي كان قد اسسها في عينطورا ووقف لها الاملاك ، تحت ادارة اليسوعيين . وكان بطرس مبارك قد درس في رومة وصار يسوعياً ولكن بعد الغاء الرهبنة اليسوعية بعشر سنوات (١٧٧٣) وضعت مدرسة عينطورا تحت ادارة اللعازريين . وكان المرسلون اليسوعيون في بادىء امرهم يلبسون ثياباً كهنوتية تشبه الاكليروس الماروني مما ساعدهم على التجول والانتقال لاداء رسالتهم بدون خشية . وفي سنة ١٧٨٩ انشأ ماروني آخر تخرج من رومة مدرسة ثانوية اخرى في عينطورا ، التي كانت اصلاً ديراً ثم تحول الى مدرسة ثانوية . هاتان المدرستان يمكن اعتبارهما اول مدرستين انشئتتا على نمط المدارس الاوروبية اصبحتا فيما بعد النموذج الذي انشئت عليه مدارس اخرى في غزير وزغرتا واماكن اخرى . وقد خرجت هذه المدارس ٢٠ فاضل علماء المواردنة من الاكليروس والعلمانيين في القرن التاسع عشر .

الطلاب المواردنة في رومة

كان المواردنة اول شعب من شعوب الشرق الادنى اقام علاقات وثيقة قوية مع الغرب في العصور الحديثة . ولم تقتصر هذه العلاقات على التجارة والعلاقات السياسية انما تعدتها الى ما هو اعمق : الى العلاقات الثقافية ذات الاثر البعيد في الفكر . وكانت رومة نقطة الاتصال هذا .

بعد ان اسس المرسلون الكاثوليك مدارسهم في لبنان بزمان قصير اخذوا ينتخبون من بين خريجائها الطلبة الاذكياء النجباء ويرسلونهم الى المدرسة الشرقية في رومة لمتابعة الدروس العالية . وتند نشطت حركة ارسال الطلبة الى روما اثر تقرير رفعه موفدان يسوعيان قدما طرابلس سنة ١٥٧٨ الى الفاتيكان عند رجوعهما الى رومة . وكانا قد اصطحبا معها تلميذين مارونيين (احدهما قبرصي) . ومن

جملة توصياتهما أن يُؤسسَ معهدٌ في روما للتلامذة النصارى الشرقيين ، وان تؤسس مطبعة في لبنان للعربية والسريانية . وفي سنة ١٥٨٤ دشن البابا غريغوريوس الثالث عشر الكلية المارونية التي كانت في الواقع معهداً للاهوت في عاصمته رومة ، وقد كان عدد تلاميذها آنذاك عشرين طالباً^(١) . ولقد كان هذا الحادث حادثاً له مغزاه التاريخي . فقد تخرج من هذا المعهد المع رجالات الاكليروس الماروني الذين عادوا الى وطنهم ليتسمنوا المراكز الكنسية الرفيعة وليكونوا قادة فكر في كنيستهم وليعملوا في سبيل ضم الكنيسة المارونية الى حظيرة الفاتيكان . وقد ظل بعضهم في ايطاليا وذهب بعضهم الى باريس ليؤسسوا الدراسات الشرقية في المعاهد العليا وينشروا المعارف عن الكنائس الشرقية والحضارة الشرقية وليوطدوا علاقات الصداقة والود بين فرنسا ولبنان .

وكان من ابرز الطلاب الذين عادوا الى وطنهم لبنان ومن ألمعهم اسطفان الدويهي (ويعرف في الغرب باسمه اللاتيني Aldoensis ١٦٣٠ - ١٧٠٤) الذي تسنم ارفع الرتب الاكليريكية في كنيسة . وهو مؤلف كتب عدة اشرنا الى بعضها مراراً عديدة في هذا المؤلف^(٢) . ولد اسطفان الدويهي في اهدن وذهب الى رومة وهو بعد في الحادية عشرة من عمره حيث قضى اربع عشرة سنة . وفي سنة ١٦٧٠ اصبح بطريكاً ، ولكن تسنمه سدة البطريركية لم ترق لابي نوفل الخازن صاحب كسروان وقنصل فرنسة لانه لم يستشر في الامر . غير ان البطريرك قام بزيارته شخصياً فزال ما كان بينهما من سوء تفاهم . الا ان عهد بطريركيته كانت تشوبه غيوم قائمة وحوادث مؤلمة . يقول عن نفسه انه « ناله من البلاء واصابه من الاضطهاد ما لا يمكن وصفه^(٣) » . وكان آل حمادة ، مقاطعجية باشا طرابلس ، يفرضون عليه الضرائب الفادحة التي لم يستطع ان يؤديها لهم . وكان احياناً يضطر الى الهرب الى المغاور والكهوف بالرغم من ان مقر البطريركية في

١ - Rabbath, vol. I, pp. 204-7; Joseph Nasrallah, *L'Imprimerie au Liban* (Beirut, 1948), pp. XVI - XVII .

٢ - « تاريخ الطائفة المارونية » نشره رشيد الخوري الشرتوني (بيروت ١٨٩٠) مقتطف من « تاريخ الازمنة » نشره فرديناند توتل في المشرق ، المجلد ٤٤ (١٩٥٠) . راجع ميخائيل الرجي في المشرق ، المجلد ٤٨ (١٩٥٤) ص ٧٧ وما يليها .

٣ - الدبس ، الجزء السابع ، ص ٣٠٩ .

قنوبين في وادي قاديشا كان ملجأ حصيناً منيعاً لا يمكن الوصول اليه . حتى ان اوروبياً زار الدير لم يتألك عن ابداء دهشته بقوله ان الذي ينبغي الوصول اليه يحتاج الى جناحين^(١) . وقد وجد قسيس انكليزي كان يقوم بالخدمة الروحية للجالية الانكليزية في حلب ان في دير قنوبين جرسين يقرعان عند دعوة الرهبان الى الطعام ، وهو امتياز لم يعط لاي دير او كنيسة اخرى في البلاد كلها^(٢) ، ولو ان قرع هذين الجرسين بلغ مسامع الاتراك لما كانوا سمحوا باقامتهما . وقد وجد موندل^(٣) في قلعة طرابلس رجلاً مارونياً طاعناً في السن يظهر انه اعتنق الاسلام تحت الضغط والارهاب ، ولكنه عاد فارتد الى المسيحية فحكم عليه بالموت على الخازوق .

ذهب الدويهي الى رومة ليتابع دراسته بموجب توصية من البطريرك جرجس عميرة (توفي ١٦٤٤) الذي كان احد الطلاب القدامى في المعهد الماروني في رومة . وكان البطريرك عميرة ايضاً من اهدن ؛ وكان مؤلفاً . اما امه فكانت من آل الدويهي . وهو الذي ادخل التقويم الذي عدله غريغوريوس الثالث عشر الى الكنيسة المارونية بحيث اعيادها تقع في الوقت الذي تقع فيه الاعياد اللاتينية . ومن لبنان انتشر استعمال هذا التقويم بين الجاليات المارونية في دمشق وحلب ، ولكن بعد مقاومة عنيفة من قبل الموظفين المحليين . وفي سنة ١٥٩٦ نشر البطريرك عميرة كتاب قواعد اللغة السريانية الذي كان اول كتاب من نوعه . وبعد اربعين سنة نشر خريج آخر من مدرسة اللاهوت المارونية في روما اسمه اسحق الشدراوي كتاباً باللغة اللاتينية عنوانه اللغة السريانية . ولد اسحق في شدرا من اعمال عكار . وفي سنة ١٥٩٠ عندما كان عمره اثني عشرة سنة ذهب الى رومة ثم عاد الى موطنه بعد خمس سنوات . وعندما كان في ايطاليا اقام مدة في ميلان ينظم مجموعة المخطوطات الغنية في مكتبتها . وفي سنة ١٦٦٠ - وكان اذ ذاك مطراناً على طرابلس - ذهب الى ايطاليا وفرنسا ليسعى في تثبيت ابن نوفل قنصلاً في بيروت ، اذ ان قناصل فرنسا في هذه البلاد كانوا قد بعثوا الى باريس

D'Arvieux, vol. II, p. 430 .

— ١

Maundrell, p. 143 .

— ٢

٣ - المصدر ذاته ص ١٤١ . الدويهي ص ٢٥١ ، الدبس مجلد ٧ ، ص ٢٨٧ - ٢٩١ .

بشكايات ضده^(١). وعندما كان في ايطاليا عرج على رافنا ليزور مدرسة مارونية كان قد اسسها ووقف لها الاوقاف رجل من العاقورة واحد خريجي مدرسة اللاهوت المارونية في رومة. ويبدو ان الجالية المارونية اللبنانية في هذا الميناء الايطالي الشمالي كانت جالية كبيرة.

وكان من جملة الاعلام البارزين الذين ظلوا في اوروبة يعملون وينشرون المخطوطات ويكتبون وينقبون الصهيووني والحاقلي والسمعاني، وهذه العائلات الثلاث لا تزال عائلات كبيرة معروفة في شمال لبنان. بدأ جبرائيل الصهيووني (باللاتينية Sionita ١٥٧٧ - ١٦٤٨) حياته الأدبية معلماً للغة السريانية والعربية في كلية ساينزا في رومة. ثم انتقل الى باريس بدعوة من لويس الثالث عشر ليرأس دائرة اللغات السامية في الكلية الملكية (وهي الآن Collège de France). وفي الوقت ذاته عين ترجمانا للملك. وافضل خدمة قدمها للعلم نشره التوراة بلغات متعددة، ومن جملتها الترجمة السريانية والترجمة العربية. وتعرف هذه التوراة بتوراة باريس المتعددة اللغات. وعندما نشرت التوراة المتعددة اللغات في لندن استعان مترجموها بتوراة باريس التي كان قد جمعها الصهيووني. والى جانب تأليفه كتاباً في قواعد اللغة العربية الذي يعد من اقدم كتب القواعد من نوعه، فان الصهيووني تعامل مع زميل لبناني تخرج من مدرسة اللاهوت المارونية في رومة، واسمه حنا الحصري وباللاتينية (Hesronita) في ترجمة مختصر كتاب الادريسي الى اللاتينية بعنوان خطاطىء Geographia Nubiensis (باريس ١٦١٩). وكان معاونه وخليفته في جمع التوراة المتعددة اللغات ابراهيم الحاقلي (أو الحساقلاي وفي اللاتينية Ecchelensis). وبعد ان تخرج الحاقلي عين استاذاً للغة العربية والسريانية في كلية ساينزا، ثم عين سنة ١٦٤٦ خلفاً للصهيووني في الكلية الملكية في باريس. وقد كان هؤلاء العلماء اللبنانيون مزدوجي اللغة. فانهم كانوا يعرفون ويتكلمون اللغتين معاً السريانية والعربية. يقول دي لاروك^(٢) الذي زار لبنان سنة ١٦٨٨ انه وجد عدداً كبيراً من الناس في

١ - راجع مجلة المشرق، المجلد الثاني ١٨٩٩، ص ٩٣٩ - ٩٤٥ ففيها تفاصيل اخرى عن هذه السفارة.

٢ - De La Roque, vol. I, p. 175.

لبنان في نواحي بشري والحدث لا يزالون يتكلمون السريانية . ويقول افرنسي اسمه دي شاستي (De Chasteuil) جاء بيروت سنة ١٦٣٢ انه وجد اهل حصرون واهدن لا يزالون يتكلمون السريانية . وقد انضم هذا الافرنسي الى دير في وادي قاديشا ومات هناك بعد مضي اربع عشرة سنة لمجيئه^(١) . حتى انه في زمن متأخر نسبياً ، في سنة ١٨١٠ على ما يروي الرحالة السويسري بوركهوت ، الذي درس العربية في حلب ، انه وجد كثيرين من الموارنة يتكلمون السريانية . وقد لاحظ ان جميع الاسماء المكتوبة على الاكياس الصغيرة المعلقة في كنيسة قرحيا والتي فيها بيض دود الحرير مكتوبة بالاحرف السريانية^(٢) . واثناء اقامته في رومة حاول الحاقلي ان يفاوض البابا لعقد معاهدة مع الامير فخر الدين . والى جانب تأليفه كتاباً تعنى بخدمة القديس (الليترجيا) فان الحاقلي نشر سنة ١٦٢٨ في رومة كتاباً في صرف السريانية ونحوها . وبعد ثلاث عشرة سنة وضع وهو في باريس كتاباً في الاخلاق استمد فيه آراءه من مختلف المصادر . وفي سنة ١٦٥١ اصدر في باريس ترجمة لاتينية لتاريخ ابن الراهب المصري ، وهو راهب قبطي . اما ترجمته كتاب الزرنوجي في التربية (البداغوجيا) فقد نشرت في زمن لاحق (اترخت ، ١٧٠٩) وقد نقش اسم الحاقلي والصهيوني الى جانب اساتذة آخرين عند مدخل المعهد الذي علموا فيه .

وقد خلف الحاقلي كاستاذ وكرجمان لمجمع الدعاية Congregation of The Propoganda ابن اخيه ، مرهج ابن نمرون (Faustus Naironius ١٦٣٠ - ١٧١١) . ولد مرهج في بان وهي بلدة تقع في وادي قاديشا قبالة قنوبين . وقد جاء به عمه الى روما حيث تابع دراساته العالية . وقد اشتغل مرهج في نشر الاناجيل باللغة السريانية والعربية . واصدر كتاباً في تاريخ الموارنة عنوانه اللاتيني : *Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitarum* (Rome, 1679) وكانت لغة بلدته بان اذ ذاك السريانية .

١ - De La Roque, vol. II, pp. 151, 157—8 .

٢ - Burckhardt, p. 32 فيليب حتي : اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان (بيروت ١٩٢٢) ص ٣٠—٣٥ . اما حفظ بيض دود الحرير في كياس من الشاش الابيض وتعليقها في الكنيسة للتبرك اثناء الشتاء وفي مكان عال بارد ، فعادة لبنانية قديمة ولا تزال الى يومنا هذا (م) .

١ - De La Roque, vol. II, p. 106 .

السمعاني

كان يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) من المع العلماء الذين خرجتهم مدرسة اللاهوت المارونية في رومة واشهرهم . كانت عائلة السمعاني من حصرون . وقد نبغ من هذه العائلة عدد من العلماء الذين درسوا في رومة . اما يوسف فقد ولد في طرابلس وذهب الى رومة وهو بعد في الثامنة من عمره . وفي رومة عاش وفيها مات . واليه يعود الفضل في جعل مكتبة الفاتيكان التي كان ناظرها ومديرها اغنى واعظم مكتبة في العالم بالمخطوطات الشرقية . وقد قام بسفرتين الى الشرق طلباً للمخطوطات . وقد غرق مركب عليه بعض هذه الكنوز الشرقية في عاصفة وهو في طريقه الى ايطاليا . وقد ضمن ابحاثه ودراساته لهذه المخطوطات السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية مؤلفاً ضخماً عنوانه « المكتبة الشرقية » *Bibliotheca Orientalis* (اربعة مجلدات ، رومة ١٧١٩ - ١٧٢٨) ولا يزال هذا المؤلف مصدراً اولياً قيماً للمعلومات التاريخية التي تتعلق بالكنائس الشرقية وتاريخها . وكان ملك نابولي وصقلية قد عين السمعاني مؤرخاً لمملكته وجعله مواظن شرف . وقد ألف السمعاني تاريخاً لهذه المملكة في اربعة مجلدات . وفي سنة ١٧٣٦ اوفده البابا الى المجمع الكنسي الذي عقد في اللوزة (لبنان) . وكان ممثل مطران طرابلس في هذا المجمع الكنسي مخائيل الغزيري (Casiri ١٧١٠ - ١٧٩١) . ولد مخائيل في طرابلس ودرس في رومة ، ثم اصبح ناظر مكتبة الاسكوريال في اسبانية . وقد عهد اليه ان يدرس ويفهرس المخطوطات العربية ، وعددها ١٨٠٠ مخطوطة . وقد قام بهذا العمل واصدر فهرساً في مجلدين (مدريد ، ١٧٦٠ - ١٧٧٠)^(١) .

١ - اذا اراد القارئ المزيد عن اولئك العلماء اللبنانيين الذين درسوا في رومة عليه ان يراجع :

De La Roque, vol. II, pp. 98 - 110 .

(ان هذا المؤلف زار الدويهي سنة ١٦٩٠ واقام عنده ضيفاً في قنوبين . وراسل ابن نمرون) .
الندبس ، الجزء ٧ ، ص ٢٩٩ وما يليها ، والجزء الثامن ، ص ٥٤٧ وما يليها . (وبعض المواد التي ذكرها الندبس في مؤلف خاص عنوانه : الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، بيروت ١٩٠٥) ،

K. T. Khairallah, *La Syrie* (Paris, 1912) pp. 32 - 42; Ristelhueber pp. 106 -- 14 .

المجمع الكنسي اللبناني الذي انعقد في سيدة اللويزة

كان دير سيدة اللويزة الواقع على هضبة رائعة تشرف على مصب نهر الكلب مقر انعقاد المجمع الكنسي الذي قرر نهائياً اتحاد الكنيسة المارونية بالكنيسة الكاثوليكية في رومة . ولقد جاء انعقاد المجمع هذا نتيجة حركة بدأت قبل هذا الموعد بستة قرون غايتها ضم الكنيسة المارونية الى كنيسة رومة . وقد كان هذا المجمع اكثر من مجمع كنسي بمعنى انه كان اجتماعاً قومياً يضم علمانيين من مشايخ آل الخازن وممثلين عن الطوائف الشرقية الاخرى . وقد اشترك فيه ثلاثة عشر مطراناً . وكان اساس البحث في المؤتمر رسالة بابوية ترجمها السمعاني الى العربية . وقد اقر المجمع الاعتراف بالمجمع الكنسي السابقة ، والايمان بان الروح القدس منبثق عن الآب والابن ، وتبني قانون الايمان الروماني على طريقة السؤال والجواب ، وادخل اسم البابا في خدمة القديس ، وحصر الزواج بالرتب الكهنوتية الدنيا ، وحرم سكنى الرهبان والراهبات في دير واحد ، وسمح باستضافة الرهبان والراهبات لا العلمانيين وقرارات هذا المجمع التي يمكن اعتبارها الى حد بعيد اعادة صياغة للقرارات التي كانت قد اتخذت في المجمع الذي عقد من قبل في قنوين بمثابة تنظيم للكنيسة المارونية كما نعهدنا في يومنا هذا ^(١) . وقرر المجمع ايضاً اعادة النظر في القوانين الكنسية التي لها علاقة بالاحوال الشخصية التي كان قد وضع اساساً لها الراهب الماروني عبدالله قرألي الحلبي في مؤلف حول هذا الموضوع . وكان هذا الراهب قد انتقل الى لبنان في منتصف القرن السابق .

وقد مثل البابا في المجمع الذي عقد سنة ١٥٩٦ في قنوين يسوعي ايطالي اسمه دنديني . ويبدو من التقرير الذي رفعه الى قداسة البابا عن المجمع انه تم الاتفاق على بعض المعتقدات ، وعلى ان يحتفظ الموارنة بطقوس خدمة القديس (الليترجيا) السريانية وعلى ان يحتفظوا بايام اعيادهم وقديسيهم والسماح لكهنوتهم بالزواج وبتناول العشاء الرباني على الطريقتين ^(٢) .

١ - راجع ابو خطار في مجلة المشرق ، المجلد ٤٦ ، (١٩٥٢) ص ٥٣٦ وما يليها . باخوس النعماني في المشرق ، المجلد ٤٥ ، (١٩٥١) ص ٢٤٤ - ٢٧٥ . الدبس ، جامع ، ص ٤٩٢ - ٤٩٦ .

Dandini, pp. 59 seq.

وقد وصف لنا دنديني^(١) الحياة^(٢) اجتماعية المارونية عند منصرم القرن السادس عشر يقول لنا انه كان مجتمعاً لا اثر فيه للدعارة ، ولا يسمع فيه احد شيئاً عن الزنا او الجرائم الجنسية . فان الصغار يتزوجون بين سن الرابعة او الثانية عشرة . والنساء على كثير من الدمائه والاحتشام ، ولا تختلف البستهن عن البسة النساء الايطاليات . واذا التقت المرأة برجل لا تعرفه فانها تميل عنه ببصرها او انها تغطي وجهها بحجاب ، ويعتم الرجال بعمائم مقلّمة ، ولكن لا يحق لهم ان يعتموا بالعمائم الخضر فان اللون الاخضر من لبس الاسياد من آل البيت . ومستوى الاستقامة والامانة لا يقل شأناً عن مستوى الاخلاق عندهم . اما الكتب الصالحة الفاضلة فقليلة ، ولكن ليس عندهم كتب رديئة - « نسطورية او يعقوبية »- فان اليعاقبة وحدهم ادخلوا الى البلاد حوالي خمسين حمل بغل من كتبهم .

وقد قبل الموارنة ، قبل اتحادهم مع كنيسة رومة وبعده ، برحابة صدر وكرم ضيافة ، عدداً كبيراً من اللاجئين الذين كانوا يتركون كنائسهم اي الكنائس التي كانت تستخدم اليونانية والسريانية والارمنية في خدمة القداس . وكان اكليروس الموارنة يرحبون بالطلاب من هذه الكنائس ويفتحون لهم ابواب معاهدهم اللاهوتية . وكان مشايخهم وامراؤهم ، لا سيما آل الخازن ، يعطون هؤلاء النازحين ارضاً ويساعدونهم في تنظيم استيطانهم الجديد . وهكذا كان الموارنة باتباعهم هذه السياسة الرشيدة يقرّبون وجهات النظر المتباينة ، ويعملون على التوفيق بين مختلف الكنائس وبين الفاتيكان^(٣) . واما رهبنتهم فانها كانت قد تنظمت في زمن مبكر، حوالي سنة ١٦٩٤ وهكذا نشأ في شمال لبنان وفي كسروان جاليات من الكاثوليك السريان والروم الارثوذكس والارمن حيث لا يزالون الى يومنا هذا .

جنوب لبنان

لقد برز اسم لبنان الشامي ، بفضل علاقاته مع ايطالي وفرنسة ، في المحافل

Dandini, pp. 27, 30, 47 seq.

Piere Raphael, *The Role of the Maronites in the Return of the Oriental Churches* (Youngstown, 1946), pp. 32-3, 37-8, 41-2, 88.

الدولية . اما لبنان الجنوبي بدروزه وشيعيته فقد ظل بلداً مغموراً . فلم يسترع انظار الرحالة الاوروبيين، ولم يسجل لنا احد من اهليه شيئاً عن الحياة فيه . غير ان هنالك حقيقة واحدة جلية : كان النصارى والدروز والشيعية يعيشون معاً بانسجام وصفاء . .

وقد دهش رلني^(١) ، وهو كونت وعالم افرنسي ، من شدة الشبه بين الدروز والموارنة في اساليب العيش ، وفي نظام الحكم وفي اللهجة وفي العادات والآداب العامة . فان عائلات درزية ومارونية تعيش جنباً الى جنب متصافية متوادة . واحياناً يصطحب الموارنة جيرانهم الدروز الى الكنائس . ويؤمن الدروز بفعل الماء المقدس الذي يصلي عليه الكاهن . واحياناً اذا الح المبتشر في تبشيريه للدرزي فقد يقبل الدرزي سر المعمودية . وقد لاحظ ماريتي^(٢) الراهب الايطالي الذي زار البلاد سنة ١٧٦٠ قبل مجيء فولاني بقليل ، ان الدروز « يظهرون خالص الود والاحترام للنصارى ويحترمون دينهم . والدرزي يصلي في كنيسة للروم الارثوذكس كما يصلي في مسجد تركي » . ويتقلد الدرزي سلاحه دوماً وهو كناية عن طينجتين وخنجر تتدلى من زناره . ولا يزال الدروز الى يومنا هذا يشتركون مع جيرانهم النصارى في كثير من الاحتفالات والاعياد . ولهذا مغزاه العميق . ويقول فريدريك بلس^(٣) ان الدروز لكي يتخلصوا من الخدمة العسكرية التركية كانوا يعلنون انهم بروتستانت . ويؤكد ضابط افرنسي^(٤) كان مقر خدمته في حوران ان العائلات الدرزية الارستقراطية اذا فقدت طفلاً أو اكثر فانهم يعمدون الطفل الذي يولد بعده . وقد عمّد الابن الثاني لسلطان الاطرش سنة ١٩٢٤ . وقد تكون ممارسة هذه التقاليد نوعاً من التقية ، وقد يكون ان الذين يمارسونها يعتقدون بان لها اثرأ سحرياً يعود عليهم بالنفع . ولا يزال الدروز

Volney, vol. II, pp. 31, 57, 68 . — ١

Mariti, vol. II, p. 25 . — ٢

Frederick J. Bliss, *The Religions of Modern Syria and Palestine* (New York, 1912) pp. 318 - 319; cf. Isaac Riley, *Syrian Home-life* (New York, 1874), p. 181. — ٣

N. Bouron, *Les Druzes : histoire du Liban et de La montagne haouranaise* (Paris, 1930), pp. 299, 315 . — ٤

والنصارى يشتركون في تقديس بعض المزارات المقدسة عند كلا الطائفتين. وليس بمستغرب ان يتبرع درزي يقطن قرية أكثر سكانها من النصارى بالمال لكنيسة القرية . وفي لبنان اشجار قديمة يتركها الدروز والنصارى على السواء ، وذلك بتقديم التقدّمات التي تتخذ في يومنا هذا شكل خرق من القماش تعلق في اغصانها . ومن هذه الاشجار شجرة سنديان قديمة في عاليه ظلّ النصارى والدروز يعلقون فيها خرقاً الى زمن قصير جداً ولا شك في ان هذه عادة سامية قديمة (تكريم الاشجار وعبادتها) تعود الى ازمة بعيدة قبل ظهور المسيحية أو الدرزية .

نظام المجتمع الديني والاجتماعي عند الدروز

ان التقارير والملاحظات المقتضية التي خلفها لنا الرحالة الاوروبيون عن الدروز وعن حياتهم الاجتماعية والدينية تدل على ان النظام الديني والاجتماعي الذي كان معمولاً به في عهد المعنيين والشهابيين هو النظام الديني والاجتماعي ذاته، في عصرنا هذا . فلم يكن الدروز يصومون شهر رمضان ، ولا كانوا يحجون الى مكة ولا يحضرون صلاة الجمعة . ولا يسمح بتعدد الزوجات فان الدرزي يتزوج امرأة واحدة . اما الطلاق فامرّه في يد الرجل ، وليس بالعسير عليه ان يطلق امرأته حين يشاء . وللرجل الدرزي ، كما للرجل النصراني . ان يوصي بماله كما يشاء . وهذا ما لا يجوز في الاسلام . للسلم ان يتصرف بما لا يزيد عن ثلث ماله . ويوزع الثلثان الآخران حسب نص القرآن الكريم . اما طبقة رجال الدين عند الدروز فتألف من ثلاث فئات هي : المحربون وهم الذين يستعدون لتقبل اسرار الدين ، ثم العقال ، ثم الاجاويد (ومفردها جويد) وجميعهم يلقبون بالمشايخ وعلى اصحاب الفئة الاولى ان يلبسوا لفّة صغيرة من الشاش الابيض على الطربوش . والعقال الراسخون في علوم دينهم يعلمون الصغار ويقومون بمراسم الزواج والموت . وفي اجتماعاتهم العامة التي يحضرها الجهال منهم يشدد العقال في تعليمهم ووعظهم على التمسك بالفضائل واطراح الرذائل كالسرقة والزنا والسكر والكذب . والعقل الدرزي لا يدخن ولا يبدي شيئاً من شره او ذم . ويرفع عن الاغتياب والنميمة . واذا صدف ان احد العقال اتى كبيرة كالسرقة او الزنا فانه يطرد من الجماعة . وارفح مرتبة يصبو

العاقل الى الوصل اليها ان يكون في عداد النخبة الصالحة من الاجاويد الذين يمكن تمييزهم عن سائر الاجاويد باللغة المبرومة والثياب السوداء او الزرقاء تحت العباءة الصوفية المقلّمة بقلم اسود وبنوع العكاز الذي يتوكأ عليه .

والمكان الذي يجتمعون فيه للصلاة بناء على غاية من البساطة والتشف لا صور فيه ولا مناضد ولا مقاعد بل حصر او بسط او جلود غنم او ما عر مدبوغة تغطي ارضه حيث يتربعون على الطريقة الشرقية . وعندما يصفق اكبر العقال سناً بيديه يخرج جميع الجهال من قاعة الاجتماع . ويعقدون اجتماعاً للصلاة نهار الخميس ليلاً في خلواتهم التي يبنونها على رؤوس الهضاب أو عند السفوح المشرقة . في هذه الخلوات يعقدون اجتماعاتهم السرية التي لا يجوز للجهال ان يحضروها . في سنة ١٥٢٤ هاجم والي الشام المنطقة الدرزية في لبنان واحرق ثلاثاً واربعين ضيعة من الضياع التي كانت رأسها بلدة الباروك ، ونهب خلواتهم وعاد الى دمشق بعدد من كتبهم المخطوطة المقدسة وباربعة احمال من الرؤوس البشرية ليعلقها على اسوار القلعة في عاصمته^(١) . والغزوة الثانية التي حلت بالدروز كانت في ايام ابراهيم باشا المصري ، بعد غزوة والي الشام بثلاثة قرون . فانه هاجم شبعاً التي تقع جنوبي شرقي حاصبيا ونهب خلوتها التي تعد من اقدم خلوات الدروز ومن اعظمها احتراماً وتكريماً ، وحمل معه مخطوطاتها التي استقر بعضها في مكاتب مصر والبعض الآخر سرب الى اوروبة ، وبهذا تعرف الناس الى اسرار الدين الدرزي ، تلك الاسرار التي حافظوا عليها بدقة وسرية لا مثيل لها في تاريخ الاديان . وللنساء الصالحات ان يحضرن الاجتماع انما يجلسن في مؤخرة القاعة وراء حجاب يفصل بين الرجال والنساء . وهذه الاجتماعات السرية التي تعقد للصلاة ليل الجمعة كانت مثار اتهامات شتى رمي بها الدروز كما رمي بها جماعة ماني والنصارى في عهدهم الأول . فيقال مثلاً ان في هذه الاجتماعات اباحية وعريضة ، وانهم يقدمون الضحايا البشرية او انهم يقدسون صورة العجل وجميعها اقتراءات لا صحة لها .

وبعض الاجاويد يعيشون عيشة تصوف وزهد في خلواتهم بالرغم من ان هذا الاسلوب في العيش لا يعرف عندهم بالتصوف . وقد تكون عيشة الزهد التي

يعيشها الاجاويد في عزلتهم اشدّ ارهاقاً للجسد واعمق تأملاً في الامور الروحية من حياة الرهبان في اديرة الروم الارثوذكس او الروم الكاثوليك . وعلى سفح من سفوح جبل الشيخ على هضبة فوق حاصبيا تطل على مهد الدرزية في وادي التيم تقوم خلوة تعرف بخلوة البياضة . وهي اشهر خلوات الدروز واقدمها عهداً . في هذه الخلوة يجتمع كل يوم قرابة عشرين مريدا لتلقي التعليم وللصلاة والتأمل الروحي . ويشرف على تعليمهم وادارتهم اربعة او خمسة من افاضل الاجاويد . وليس على هؤلاء الطلاب المريدين ان يندروا انفسهم ولا ان يمتنعوا عن الزواج ولا ان يهجروا العالم . هذه الجماعة المتقشفة تعيش على ريع الاوقاف التي تخص الخلوة . ولذا فانهم يحرثون ويزرعون . ثم انهم ينسخون نسخاً من كتبهم المقدسة لتهدى ، لا لتباع ، الى الطلاب الجدد . واذا سافروا ساروا على الاقدام او ركبوا حماراً . ويتحاشون الوظائف الحكومية . والمحافظون منهم لا يأكلون من طعام موظف في الحكومة . وبعضهم يسرف في محافظته فلا يأكل من بيت درزي اذا كان من الجهّال^(١) .

المتاولة

ان حجباً كثيفاً تحجب عنا حياة الشيعة في لبنان . ولكن من وراء هذه الحجب تبرز امامنا ناحية مشرقة لها مغزاها البعيد ، وتدل على ان هذه الجالية لم تقطع اسباب العلم بل انها احتفظت به على صعيد عال . عند منصرم القرن السادس عشر عندما جعل الشاه اسماعيل ، مؤسس الدولة الصفوية في ايران ، دين الدولة الرسمي المذهب الشيعي وجد انه من العسير ان يوفر للناس أئمة يعلمون الناس حقيقة المعتقد ويرسخون مبادئه في نفوسهم . ووجد ايضاً ان الكتب غير متوفرة . فعمد الى ملء الفراغ باستحضار علماء الشيعة من لبنان . وقد غادر لبنان جمهور من اولئك العلماء وذهبوا الى ايران بدعوة او بغير دعوة . وقد كان من جملة من ذهب حسين العاملي الذي غادر جبل عامل عندما قتل الاتراك استاذة زين الدين الذي اصبح يعرف بين قومه بالشهيد الثاني .

١ — للمزيد من المعلومات عن الحياة الدينية عند الدروز راجع . Bouron , pp . 288 seq .

وكان الشهيد الاول شمس الدين العاملي الذي قتل في دمشق سنة ١٣٨٤ بموجب فتويين اصدرهما القاضي المالكي والقاضي الشافعي . وكان حسين قد اخذ معه ابنه الاصغر بهاء الدين العاملي (١٥٤٦ - ١٦٢٢) ، الذي ولد في بعلبك ، المدينة التي لا تزال الى يومنا هذا بلداً شيعياً . وقد فاق بهاء الدين اباة علماً وشهرة . فانه كان فقيهاً وفيلسوفاً وعالماً في الرياضيات . وكان الفرس يعرفونه « بشيخي بهائي » وقد رفع الى رتبة شيخ الاسلام في اصفهان حيث كان من المع الشخصيات في بلاط الشاه عباس . وعندما عاد من الحج عرج على جبل عامل ، موطنه الاول ، متخفياً بزيّ احد الدراويش . ومن الكتب التي اشتهر بها كتاب ضمنه فتاوي واحكاماً شرعية وبه عرف بين الناس . وبالإضافة الى هذا الكتاب فانه ألف كتاب الكشكول وهو كتاب جامع فيه الاخبار والنوادر والادب . وهو اشبه بمفكرة ادبية . وقد طبع الكتاب في مصر . ومنه طبعة على الحجر طبعت في بلاد فارس^(١) .

الفصل الثامن والعشرون

القرن التاسع عشر : قرن تقبر ونحو

لما أمر طاغية عكا ، احمد باشا الجزائر سنة ١٧٨٨ وجهاء لبنان ان ينتخبوا الامير بشير الشهابي الثاني ، وكان في الحادية والعشرين من سنه ، وهو احد اقارب الامير يوسف الشهابي الذي قتله الجزائر في سجن عكا . نقول ان طاغية عكا لم يكن يدري . ولا كان الوجهاء الذين انتخبوا الامير بشير يدرون ، أي حاكم سيكونه هذا الامير الجديد المنتخب . فانه لم يطل الزمن حتى أدرك احمد باشا الجزائر ان الامير بشير لم يكن بالحاكم الذي يتلقى التعليمات . وادرك المشايخ والمقاطعية والوجهاء ان سلطتهم ستزول عندما يتسلم اميرهم الجديد سلطاته كحاكم على لبنان .

الامير بشير البشّاء الثاني للبنان الكبير

لقد برهن الامير بشير الثاني في حياته السياسية انه خير وريث لفخر الدين المعني الثاني . فان طموحه وأهدافه والسبل التي سلكها في سبيل تحقيقها صورة طبق الأصل لحياة سلفه السياسية . انما كان يختلف عنه جسماً وهيأة . كان المعني كما قلنا سابقاً ، رجلاً قصير القامة لا يفرض على الناس هيئته ، بينما كان الشهابي يبعث في نفوس الناس الهيبة والاحترام . كان اشبه ببطريك جليل الوقار ذي حاجبين ثخينين متدليين فوق عينيه البراقتين اللتين تذبعت منهما نظرات نافذة . وكان له لحية عظيمة متموجة تبعث على الاحترام . وقد روي عنه انه حينما كان في منفاه أراد المثل أمام السلطان . فأمر السلطان جلساءه ان يظلوا جالسين عندما يدخل هذا العامل الذي خالف الأوامر السنية . ولكنه عندما دخل عليهم وجدوا انفسهم بدافع لا شعوري واقفين هيبة واجلالاً^(١) وكانت مدة ولايته التي زادت

١ - راجع بطرس ف. صفي : الامير بشير الشهابي (بيروت ١٩٥٠) ص ١٣ .

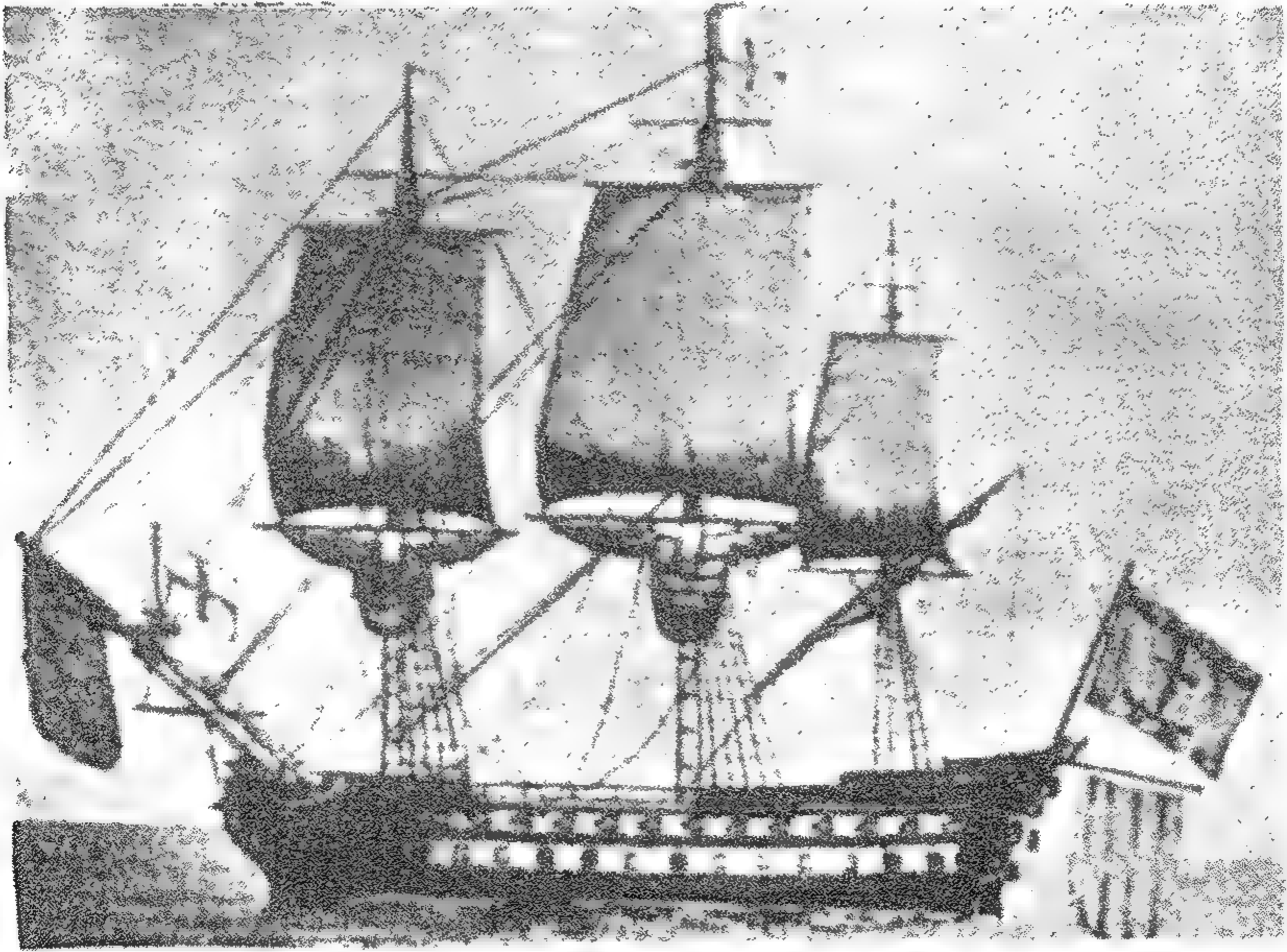


الامير بشير الشهابي الذي حكم لبنان من ١٧٨٨ - ١٨٤٠

على نصف قرن (١٧٨٨ - ١٨٤٠) فترة مضطربة متقطعة تعاقبت فيها الاحداث . فقد نفى نفسه أو نفى اربع مرات . ولكنها كانت ولاية تتميز بالسعي الدائم لتوسيع حدود لبنان ولتثبيت استقلاله ، ولتحدى سلطة الباب العالي ولادخال المدنية العصرية واساليب الرقي الى البلاد . فكان بدهائه يتجنب شر الولاة العثمانيين المجاورين له . وكان يسخر في رشوة حكام الولاية الذين كانوا يوجسون منه خيفة . اما معاملته للمقاطعة الدروز والنصارى فكانت معاملة قاسية لا هوادة فيها . فقد كان يشعر ان هؤلاء المشايخ والاعيان الذين اوجدتهم اسلافه قد

اصبحوا من القوة والمنعة ما يستحيل معه فرض سلطة حاكم قوي عليهم .

كان اول محك لمنكته السياسية عندما وقف نابليون سنة ١٧٩٩ امام عكا محاولاً دك اسوارها الحصينة . فلما طلب الجزار اليه ان يهب الى نجدته تذرّع الامير ان لا سلطة له على المشايخ والأعيان (ذلك ان الجزار كان قد أثار مشايخ الدروز ضده ، لا بل عين ابني للامير يوسف مكانه^(١)). أما إزاء نابليون فإنه اتبع سياسة الانتظار والترقب^(٢) . ذلك ان نابليون كان قد ارسل رسالة الى الدروز - وقد استعمل في هذه الرسالة « الامة الدرزية » - تعهد لهم بموجبها بالاستقلال وبتخفيف الضرائب عن كواهلهم ووعدهم بأن يعطيهم ولاية بيروت وموانئ أخرى ذات أهمية لسلامة مواصلاته البحرية ولتجارته . لكن نداء نابليون لم يلق اذناً صاغية ولم يستجب له سوى بعض الناقمين الموتورين وجلهم كانوا من



سفينة حربية تركية : « كورويا عثمانية » ومجهزة بسبعين مدفعاً .
وهي تمثل نوع السفن الحربية التي كانت تبني في القرن الثامن عشر .

١ - باسيلوس قطان : مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسورية (بيروت ١٩٢٩) ص ١٥٨، ١٦٠ .

٢ - يستطيع القارئ ان يجد نص الرسالة في :

de Testa, vol. I, p. 576; cf. de Lamartine, vol. I, pp. 206-7 .

الشيعة . أما موقف الامير بشير ازاء الصدر الاعظم الذي قدم سورية على رأس جيش من تركيا لايقاف الغزوة الافرنسية فقد كان موقف ولاء وخضوع . فان الامير قدّم له الخيل في حماة ، والحنطة في دمشق وكان مستعداً ان يضع اهراء الحنطة في بعلبك والبقاع تحت تصرف الجيش التركي . فجاءته المكافأة على الفور ، وكانت مكافأة سخية . فقد استصدر الصدر الاعظم فرماناً عيّن بموجبه الامير بشير حاكماً « على جبل الدروز ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وجبل عامل ومنطقة جبيل » واعطاه صلاحية ان يخبر الباب العالي مباشرة^(١) . ولكن الجزار لم يكن ذلك الرجل الذي يستطيع ان يتغاضى عن الاساءة ، ولم يكن ذلك الرجل الذي يلين جانبه ، لا سيما الآن بعد ان كلل هامته بهالة النصر على جيوش نابليون . فخشي الامير على نفسه وطلب من قائد الاسطول الانكليزي السير سدي سمث ان يقله الى العريش لمواجهة الصدر الاعظم . ومن هناك توجه الى قبرص وعاد الى لبنان بعد غياب استغرق بضعة اشهر^(٢) . وكانت السفن الحربية التركية تعاون الاسطول الانكليزي في جلاء الفرنسيين عن مياه شرقي المتوسط .

بموت الجزار سنة ١٨٠٤ ازيلت العقبة الرئيسية التي كانت تعترض سبيل الامير بشير لتحقيق اغراضه . فانه وجد نفسه الان طليقاً في سحق اعدائه في الداخل وفي تركيز السلطة في يده وتوحيد ممتلكاته وتثبيت الحكم فيها . اما منافسائه ، ابنا الامير يوسف الشهابي ، فقد قتلها بعد ان فقأ عيونهما . وقد نشر لواء العدل بين الجميع . والاقاصيص اللبنانية تعج باخبار الامير وطريقة ملاحقته المجرمين والاقتصاص منهم . يقال ان احد عابري السبيل وجد قتيلاً بالقرب من مصب نهر الدامور . فارسل الامير رجلين من رجال التحري في خدمته وطلب اليهما ان يقيما هناك متخفين لكي يكتشفا المجرم . ويروى انه بعد مرور ثمانية اشهر وهما مختبئان وراء شجرة سمعا في الليل مكارين يتسامران ويتباهيان ان احداً من الناس لم يكتشف بعد جريمتها ، فاقتاداهما الى الامير . وقد ورد في قصة ثانية ان رجلاً من رجال الامير ذهب يقتني آثار مجرم لجأ الى قبرص . فصادق الرجل وشاركه

١ — حيدر ، لبنان ص ١٩٥ . قطان ص ١٥٧ .

٢ — حيدر ، لبنان ص ٢٠١ وما يليها . Churchill , Lebanon , vol . 111 , pp . 196 - 8 ,

في تجارته . فركبا مرة السفينة في طريقهما الى الاسكندرية بطريق بيروت وعندما وصلا مدينة بيروت القى عليه القبض وسلمه الى الامير . ومرة مرّ الامير بشير في قرية بالقرب من دير القمر ، مقر ولايته ، فرأى امرأة تبكي زوجها القتيل وتولول . فجمع الامير ابناء القرية وقال لهم : « ان لم تسلموا القاتل خلال يومين فاني ساشق منكم اناساً بعدد اوراق شجرة السنديان هذه التي تظللنا » . وعندما عاد الى القرية وجد ان الاهالي كانوا قد اكتشفوا القتلة : الامراة ذاتها التي كانت تولول ورجلين آخرين تأمرا معها على قتل زوجها . فسلموهم الى الامير^(١) . واحتفظ لبنان في عهده بطابعه المميز له : ملجأ كل ملهوف ومظلوم . فانه دعا اربع مئة عائلة درزية مضطهدة كانت تقيم في منطقة حلب للاقامة في لبنان . وقدم لهم العون الاقتصادي وساعدهم على ان يستقروا وينظموا شؤون عيشهم . وفي لبنان دروز عديدون يسمّون بالحلبي مما يذكرنا بالبلاد التي جاؤا منها . واقليّة اخرى كانت مضطهدة نزلت الى لبنان من مناطق حلب ودمشق ، نعي الروم الكاثوليك الذين استقروا في دير القمر وزوق مخائيل وفي قرى مسيحية اخرى . وفي سنة ١٨٠٧ شعر القنصل البريطاني في حلب ان العلاقات السياسية بين انكلترا والباب العالي قد تردّت وان التمثيل السياسي سيقطع قريباً . ففر من حلب مع امرأته الحامل فاستضافه الامير في دير حريصا . وقد حاول قنصل فرنسة في بيروت وزميله في طرابلس ان يخرجاه من ملجأه في حريصا ولكن الامير لم يستجب لهما^(٢) ،

كانت سياسة الامير بشير مع الموظفين الاتراك سياسة حزم وشدة ولكن بكثير من الدربة واللياقة . ففي سنة ١٨١٠ ، مثلاً ، عندما خرج الوهابيون بجموعهم من قلب الصحراء في الجزيرة العربية وانقضوا على البلدان المجاورة على حين غرة واعملوا فيها السيف والنهب ، هب الامير بشير على رأس ١٥ الف مقاتل لمساعدة الاتراك في حوران وشرقي الاردن لصد الغزو الوهابي^(٣) . وفي مناسبة اخرى

١ — صفيّر ، ص ٧٦ وما يليها . Churchill, *Lebanon*, vol . 111, pp . 274-8 .

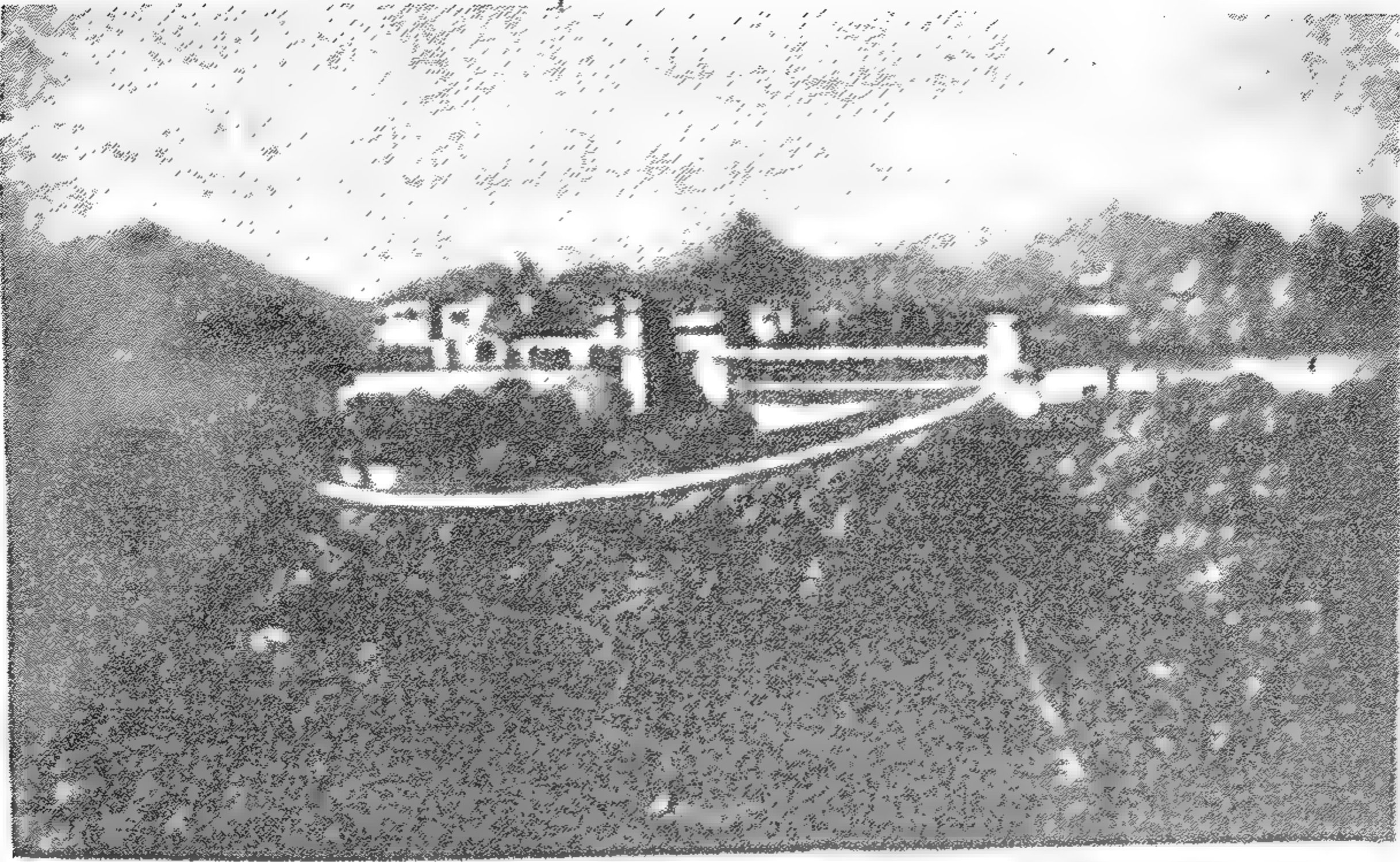
٢ — John Barker, *Syria and Egypt under the Last Five Sultans*, (London, 1876), vol . 1 , pp . 99-108 .

٣ — حيدر ، لبنان ، ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

اسرع الامير بشير الى معاونة الاتراك في الاستيلاء على قلعة بالقرب من نابلس تعرف بقلعة سانور كان العصاة من نابلس وضواحيها قد تحصنوا فيها . وفي السنة التي وقعت فيها حرب الوهابيين كان المستشرق بوركهت الذي كان يحسن العربية ويلبس اللباس الوطني يجوب لبنان من شماله الى جنوبه . واليك ما يقوله عن حسن الضيافة اللبنانية :

« عندما يسافر اللبناني الجبلي من مكان الى آخر فانه لا ينفق بارة واحدة على مأكل او مشرب او مبيت . عندما يصل المسافر الغريب الى قرية ما فانه يذهب الى بيت احد الاصدقاء او المعارف اذا كان له في القرية اصدقاء او معارف ، ويقول لصاحب الدار : « نحن ضيوفك الليلة ... » فيرحب صاحب الدار به ويقدم له عشاء من حليب او لبن وخبز وبرغل ، واذا كان المضيف على شيء من سعة العيش فانه يقدم علفاً الى دابته . واذا لم يكن للمسافر الغريب من اصدقاء او معارف فانه يذهب الى بيت ما ويربط دابته بالقرب منه ويدخن غليونته ، فلا يلبث طويلاً حتى ينزل اليه صاحب الدار ويدعوه الى بيته ويكرمه ويقدم له العشاء . وفي الصباح يغادر الضيف مودعاً مضيفه بقوله : « بخاطركم، عامر »^(١) .

كانت حروب الامير بشير ومشاريعه تقتضي زيادة في الضرائب التي كان يجمعها من المدن والقرى والديساكر حتى آخر فلس منها - وهو ذاته كان يوماً من الايام جاني الضرائب عند سلفه . وقد علم الناس درساً قاسياً عندما عجزت زحلة عن اداء الضريبة المفروضة عليها . فانه ارغمها على ان تدفعها ضعفين ، مما سبب فقر كثير من الناس وهجرتهم^(٢) . ولكن بدت الان غيوم سوداء تتجمع عند الافق منذرة بشر مستطير . فان النعمة عليه وعلى جباته اخذت تزداد حدة الى ان انفجرت اخيراً سنة ١٨٢٠ بشكل ثورة في انطلياس يعرفها الناس « بالعامية » اي ثورة عامة الناس . فرأى الامير بشير انه من الحكمة ان يغادر البلاد الى ان تهدأ العاصفة . فذهب الى حوران . ولكنه لم يفقد شيئاً من نفوذه وسلطته ، بل رجع الى بلاده يدس الدسائس ويتدخل في شؤون سورية وفلسطين ، ويشير والياً

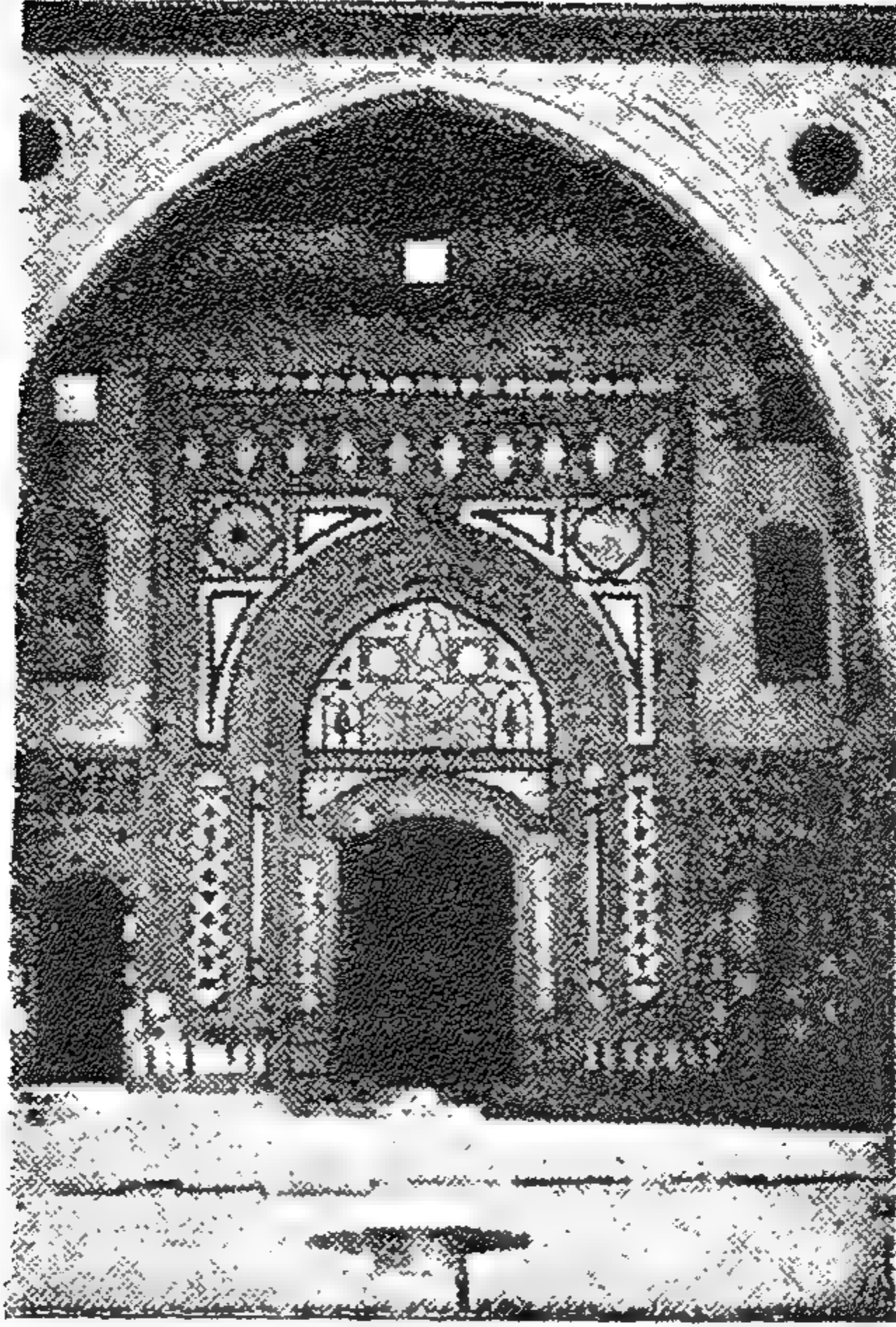


قصر بيت الدين الذي بناه الامير بشير الشهابي الثاني

على والٍ في كل من دمشق وطرابلس وصيدا . ولكن حوالي ١٨٢١ اخطأ التقدير وراهن على الحصان الخاسر . فانه في تلك السنة وقفت الى جانب والي صيدا ضد والي دمشق . فسار على رأس جيش وهزم والي دمشق هزيمة نكراء في المرة . وعندها غضب الباب العالي وجرد عليه حملة قوية اضطر معها الى الهرب واللجوء هذه المرة الى مصر حيث رحب به محمد علي وهنأه بالسلامة قائلا « انه ما دخل الى الديار المصرية احد اعز منه لدينا »^(١) وقد توثقت عرى الصداقة بين هذين الرجلين الكبيرين ، زعيم الجبل وزعيم الوادي . وكان يجمعهما عداؤهما الشديد لعدوهما المشترك : السلطان العثماني . وكان كلاهما يعملان سراً على توسيع ولايتهما على حساب السلطان . وقد توسط محمد علي للامير بشير عند السلطان ليرضى عنه . فنجحت وساطته فعاد الامير مرضيا عنه الى وطنه بقوة وسلطة ابعد مدى من ذي قبل شأنه كل مرة كان يعود فيها الى بلاده .

كانت سياسة الامير بشير في الامور الدينية على كثير من التسامح وسعة الصدر . فقد كان مسيحياً بالمعمودية ، مسلماً بالزواج ، ودرزياً بالمصلحة لا عن اعتقاد . وهكذا استطاع ، كما استطاع اسلافه من الشهابيين ، ان يمهّد السبيل للتقدم والرفق . وكان قصره في بيت الدين يحتوي على كنيسة وعلى قول لامارتين

١ - حيدو ، لبنان ، ص ٧٢٧ ، الشدياق ص ٥٢٦ .



المدخل الداخلي لقصر بيت الدين

على جامع^(١) . وفي عهد امارته تأسس كثير من المدارس والمعاهد الثقافية التي اعطت ثمارها الطيبة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اذ ايقظت الحياة الفكرية في جميع انحاء البلاد . وفي السنة الثانية لتوليه الامارة تحولت مدرسة اللاهوت في عين ورقة الى معهد ثقافي عال على نمط الكليات الاروروبية ، وذلك بايعاز من غندور السعد كاتم سر سلفه الامير يوسف ، وقنصل فرنسا . وفي معهد عين ورقة هذا درس بعض اعلام الفكر الذين حملوا مشعل اليقظة الفكرية الحديثة امثال يوسف الدبس (١٨٣٣ - ١٩٠٧) مطران بيروت ومؤسس الكلية المارونية ومؤلف كتب تاريخية عديدة^(٢) ، ورشيد الدحداح (١٨١٣ - ١٨٨٩) الذي كان كاتم سر الامير بشير وصحافياً واديباً ، وبطرس البستاني .

وفي شهر حزيران من سنة ١٨٢٣ وصل اول مرسل اميركي الى بيروت .

١ - De Lamartine , vol . 1 , p . 198 .

٢ - ومن مؤلفاته كتابان اشرنا اليهما مراراً في هذا المؤلف : تاريخ سورية في ثمانية اجزاء . (بيروت ١٨٩٣ - ١٩٠٥) والجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل (بيروت ١٩٠٥) .

واسمه بليني فسك ، موفداً من قبل المجمع الاميركي للارساليات الاجنية . وكان من رواد الاساتذة الاميركيين في الشرق العربي . وقد خلدت الارسالية الاميركية اسمه بتسمية احدى بنايات الجامعة الاميركية على اسمه : بناية فسك . ومات ودفن في بيروت في مدفن الارسالية الاميركية بالقرب من مكتب المطبعة الاميركية ، وراء الكنيسة الانجلية الوطنية في بيروت . ووضعت هناك بلاطة على قبره كتب عليها « بليني فسك ، توفي في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٨٢٥ عن احدى وثلاثين سنة من العمر »^(١) ، وفي سنة ١٨٣٤ انتقلت الى بيروت المطبعة الاميركية العربية من مالطة وكانت قد اسست هناك سنة ١٨٢٢ .

وقد اوفد الامير بشير^{استهياى الكسار} عدداً من الطلاب اللبنانيين ليدرسوا الطب في اول معهد طبي حديث في الشرق العربي : في القصر العيني الذي اسسه محمد علي على أسس غربية حديثة . وقد عادوا الى وطنهم لممارسة مهنة الطب فكانوا اول رغيل من الاطباء في لبنان . ويعزى الى الامير بشير انه اول من اقام الحجر الصحي (الكرتينا) على السفن الاجنبية التي ترسو في ميناء بيروت . ومن قبيل اجراء التجارب فانه اخضع بعض الناس للتلقيح ضد الجدري بلفاح جاء به (١٨١٠) القنصل النمسوي . ثم انه ارسلهم ليقبوا في القرى الموبوءة بالجدري ليرى اذا كانت العدوى تنتقل اليهم . وعندما تفشى مرض الطاعون في قرية في جوار جزين امر باقامة حصار حولها ومنع الدخول اليها والخروج منها^(٢) . والواقع ان مثل هذه الاجراءات الصحية ومثل هذا الحفاظ على الصحة العامة لم يكن له ما يماثله في الحكومات المعاصرة للبنان في البلدان المجاورة .

كان دخل الامير الكبير ورغبته في الظهور بمظهر العظمة عاملا في نشاط الاعمال الانشائية العامة على مستوى عال . فقد وسع الطرق القديمة وشق طرقاً جديدة وبني الجسور - كالجسرين فوق نهرى الكلب والدامور - ورمم القديم منها . وعلى الجسر الروماني فوق نهر الكلب شعر فيه ذكر لاسم الامير بشير .

١ - Henry H. Jessup, *Fifty-Three Years in Syria* (New York, — 1910), pp. 25, 34-5 ; Rufus Anderson, *History of the Missions of the American Board of Commissions For Foreign Missions to the Oriental Churches* (Boston, 1872), vol. I, pp. 28 - 31 .

٢ - حيدر ، الفرر ، ص ٩١٧ وما يليها ، ٩٢٦ وما يليها .

واعظم الاعمال الانشائية التي قام بها جرّ مياه نبع الصفا - وهو نبع عند سفوح جبال عين زحلتا - في قناة طولها تسعة اميال الى عاصمته الجديدة بيت الدين عبر الوادي الذي يفصل بين عاصمته الجديدة والقديمة دير القمر . وقد قام بهذا المشروع عن طريق العمل الاجباري والسخرة . فقد فرض على اهل الجبل ثمانين الف يوم عمل . فكان على كل عامل ان يشتغل يومين في السنة بدون اجر ، مما مكّنه من القيام بالمشروع في سنتين بدءاً من اليوم العاشر من شهر تموز عام ١٨١٢ بدون ان يستنفد اموال الخزينة . وعند اتمام المشروع قامت مظاهرة فرح عظيمة اطلق فيها الرصاص ابتهاجاً واشعلت النيران ليلاً وكثر فيها الحداء والغناء . وقد نظم شاعر الامير بطرس كرامة قصيدة طويلة « على اسلوب الموشحات الاندلسية » مطلعها :

صاح قد وافى الصفا يروي الظأ^(١)

وكان طبيعياً ان تجري المياه عند وصولها اولاً الى قصر الامير الفخم الذي كان يبنيه على هضبة رائعة المنظر تشرف على الوادي . وقد حرص الامير على ان يكون القصر افخم بناء عرفته البلاد . ولذا استحضر مهرة البنائين اللبنانيين واستقدم من دمشق وحلب عمالاً مهرة في صقل الرخام وفي صنع الفسيفساء . وامام القصر ميدان فسيح يستطيع ان يتبارى فيه مئة خيال في العاب الجريد، وعلى جانب منه اسطبلات تتسع لحس مئة حصان ، وعلى الجانب الآخر صف من القناطر المشرفة على السفح الذي يكاد يكون انحداره عمودياً . وقد استغرق بناء هذا القصر بقاءاته الوسيعة وابراج المربعة اربعين سنة بما في ذلك زخرفته وما اضيف اليه من تحسينات في البناء . وكان الامير اذا اراد ان يسري عن نفسه ذهب يشرف على العمل ويتفقدده ووراءه حامل شبقه . او كان يجلس على سجادة عجمية يراقب العمل - وهي الساعات الوحيدة التي لم يكن يأمر فيها ويملي - اذ انه ترك الامر الى خبرائه .

وقد وصف لنا الشاعر الافرنسي لامرتين القصر وصفاً دقيقاً . ووصفه هذا من اقدم ما وصلنا عن هذا البناء الفخم (١٨٣٢) :

ويقف عند الباب (المؤدي الى جناح الحريم) المصنوع من الخشب المزخرف

المتعدد الالوان ومن على جوانبه الرخام المزين بكتابات عربية صفّ من العبيد السود اللابسين افخر الالبسة المسلحين بالطبنجات المفضضة والسيوف الشامية المذهبة المطعمة . وكانت القاعات الوسيعة في القسم الامامي من القصر تعج ايضاً بالخدم وافراد الحاشية والكهنة والجند كل بلباس واحد من عناصر السكان الخمسة [كذا] التي ينتمي اليها: الدروز والنصارى والارمن والاروام والموارنة والمتاولة . وكان هنالك خمس مئة جواد عربي مسرح ملجم وعليها قطع من القماش ذي اللون الزاهي^(١) .

وقد اعجب الزائر الافرنسي ايما اعجاب « بلطف هذا الامير الطاعن في السن وبحكمته وبهائه ونباه ووقاره » الذي يصّر على ان يتولى بنفسه ارشاد ضيفه الى حمام القصر^(٢) . واذا كان الزائر عربياً فانه يعجب بالكتابات العربية المزخرفة على الجدران ، كتابات ضمنها بطرس كرامة حكماً عربيّة قديمة : « عدل ساعة افضل من الف يوم صلاة » « ان الله يحسن الى الحاكم الذي يحكم بين الرعية بالعدل » . ولا شك في ان حاكماً يبتني لنفسه قصرأ كهذا القصر العظيم يجب ان يكون عنده طموح واهداف بعيدة المدى، ولا شك في انه كان يفكر في انشاء دولة عظيمة . فانه كان حاكماً مستقلاً فعلاً ، انما شكلاً كان يستمد سلطته من الباب العالي . ففي اثناء وايمة اقيمت في القنصلية السردينية في بيروت على شرف لامرتين وابناء الامير بشير شرب الحاضرون نخب « انتصار ابرهيم باشا وتحرير لبنان ونخب الصداقة الفرنسية العربية »^(٣) . كان هذا الاديب الشاعر الفرنسي من اشد الاجانب اعجاباً بجمال لبنان الطبيعي . وقد عبر عن اعجابه ومحبه لهذه البلاد بقصائد تفيض شعوراً . فانه كان يرى في الهضبة التي تعرف بحبي مار متر في بيروت اجمل هضبة في سورية ، وفي وادي حمانا ارووع واجمل ما وهبه الخائق للعين لتتمتع برؤيته^(٤) .

De Lamartine, vol. I pp. 191 - 2 .

- ١

De Lamartine, vol. I p. 195 .

- ٢

De Lamartine, vol. I, p. 432 .

- ٣

De Lamartine, vol. II, pp. 3, 6 .

- ٤

ابراهيم باشا في سورية

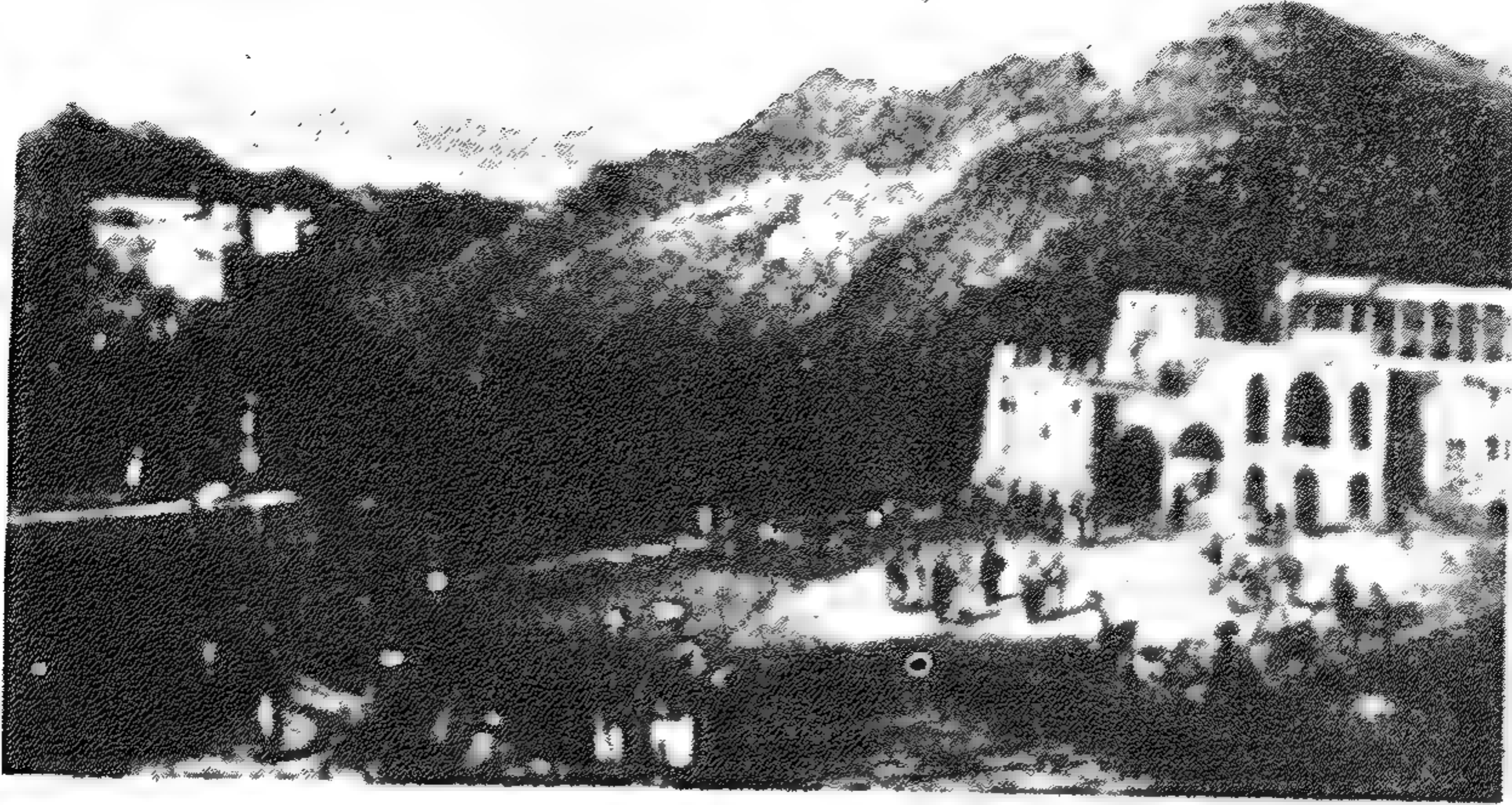
كانت السنوات العشر الاخيرة من عهد ولاية الامير بشير حافلة بالاحداث السياسية العالمية الجسيمة مما وضع لبنان ، بفضل موقعه وبحكم السياسة التي اتبعها الامير علي مسرح السياسة الدولية - وهو وضع دولي لم يتحول لبنان عنه بعد - وجعله محط الانظار مدة ثلث قرن . بدأت هذه الاحداث لما قام محمد علي سنة ١٨٣١ بغزو تركيا ماراً في فلسطين وسورية . فان الامير اختار ان يكون الى جانب محمد علي معلقاً مصيره بمصير تلك الحرب . ولنا ان نستنتج ان تحالفه مع محمد علي كان بموجب اتفاق أو تعهد بينهما ، بالرغم من ان معظم مشايخ الدروز كانوا يؤيدون السلطان . كان محمد علي حاكماً مصر يأمل بأن يكافئه السلطان بولاية سورية لقاء الخدمات العسكرية التي قام بها في حرب اليونان الاستقلالية عندما حاربت الجيوش المصرية الى جانب الجيوش التركية ، ولقاء خدماته في القضاء على الحركة الوهابية قضاءً مؤقتاً .

وبفضل تعاون الامير بشير مع ابراهيم باشا قائد الحملة ، كان الاستيلاء على سورية امراً يسيراً . فان الجنود اللبنانيين اشتركوا مع المصريين في المعارك التي خاضها الجيش المصري للاستيلاء على عكا وطرابلس وحمص ودمشق^(١) . وقد جعلت زحاة مستودعاً للذخيرة والمؤن للجنود المصريين . ونجح ابراهيم باشا في وقت قصير في الاستيلاء على دمشق . وفي القضاء على الجيش التركي في نواحي حمص . ثم انه فاجأ الاتراك في عبوره جبال طورس وتوغله في قلب الاناضول حتى خيّل للعالم ان الضربة القاضية على السلطنة أصبحت وشيكة الوقوع . أما المدن السورية المحتلة فقد وضعت ادارتها في ايدي ابناء الامير بشير . وكان ابنه الثاني خليل قائد الجيوش اللبنانية . وقد عرض ابراهيم باشا على الامير بشير ولاية سورية كلها ولكنه أبى^(٢) . في هذه الحرب المصرية - التركية كانت فرنسا الى جانب محمد علي تشجع ابنه وساعده اليمين ابراهيم باشا . على متابعة فتوحاته

١ - مشاققة ، ص ١٠١ وما يليها . حيدر . لبنان . ص ٨٢٣ وما يليها . الشدياق ، ص

٥٦٧ - ٥٦٨ .

٢ - اسد رستم في « ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا » (القاهرة ١٩٤٨) ص ١١٣ ، ١١٩ .



جنود لبنانيون في ساحة قصر بيت الدين ، قصر الامير بشير الشهابي الثاني حليف
ابراهيم باشا . في مزرعة الصورة دير القمر

الباهرة . ولكنه اخيراً ردّ على اعقابه ، اذ ان انكلترا والنمسا وروسيا اضطرتّه سنة ١٨٤٠ على ان يتراجع . وكانت اشدّ الدول حماساً لتراجع انكلترا التي كانت تخشى في حال زوال تركية كقوة في الشرق الادنى ، ان تتعرض ضريق الهند الى مخاطر ، وان يتعرض مركزها في الهند الى سوء . وهكذا قضى على الحلم الذي حلم به محمد علي من انشاء دولة عربية يرأسها هو ذاته . كما ان سائر الشعب العربي لم يتحمس للفكرة ، ولم تكن فكره الاستقلال قد اختمرت في العقول بعد . وقد كان الحكم الذي لفظه لامرتين على فكرة انشاء الدولة العربية برئاسة محمد علي حكماً اثبت التاريخ صحته : ان مصير مصر كان يتوقف على رجلين اثنين ، محمد علي وابنه ابراهيم « وانت اذا قبض لك ان تزيل هذين الرجلين عن المسرح فلا يبقى من مصر شيء ولا يبقى من حلم الامبراطورية العربية شيء »^(١) .

كان الحكم المصري في سورية حكماً مركزياً مباشراً ، اما في لبنان فقد ظلت الادارة الحكومية في يد الامير بشير . وقد ادخل ابراهيم باشا في سورية اصلاحات

جذرية : فقد سمح للنصارى ان يتبوا مراكز حكومية عالية ، وان يركبوا الخيل ويعتصموا بالعمامة البيضاء ، وهي امتيازات كان المسلمون فقط يتمتعون بها . واخذ نصارى دمشق يمارسون طقوسهم الدينية بحرية كخروجهم مثلاً في موكب او في زياًح . فان قنصلاً بريطانيا ، قبل سنة ١٨٣١ ، يقول لنا أنه كان يتعذر عليه دخول دمشق راكباً مطية ، اما الآن فلا يعترض طريقه احد^(١) . ومن دلائل سياسة التسامح ازاء النصارى ان ابراهيم باشا منح حنّاً البحري مدير الخزينة السورية عنده لقب « بك » . وهذه اول مرة يمنح هذا اللقب لنصراني عربي في السلطنة العثمانية . وقد تغاضى عن ثلاثة رجال من الموارنة كانوا قد اعتنقوا الاسلام فارتدوا عنه الى مسيحيتهم . ولكن ابراهيم باشا لم يكن ليقر درزياً على اعتناقه المسيحية . وقد منح لقب البكوية الى اربعة من وجهاء الدروز : جنبلاتي ورجل من آل ابي نكد ، واثنين من آل عماد^(٢) . وقد اطرح الامير بشير وابناؤه لبس العمة واستعاضوا عنها بالطربوش المغربي ، اقتداء بلباس الرأس الذي كان يلبسه ابراهيم باشا والذي اصبح لباس الرأس الشائع في جميع أنحاء البلاد . اما المصرية^(٣) وهي قطعة نقود قيمتها بارة ، التي كانت العملة المتداول بها الى عهد قريب ، فلم يدخلها الى البلاد ابراهيم باشا كما يظن في الغالب ، ان الجزائر هو الذي ادخلها^(٤) .

حاول ابراهيم باشا في بادىء الامر ان يستميل اليه قلوب الشعب ولكنه عااد فرفع الضرائب ثلاثة اضعاف ما كانت عليه في السابق ، وذلك بناء على تعليمات كان قد تلقاها من أبيه محمد علي الذي كان قد احتكر جميع موارد مصر الاقتصادية . وقد صنع ابراهيم في سورية ولبنان ما كان قد صنعه والده في مصر ، فاحتكر الحرير والصابون وضروريات اخرى تنال من الطبقات العاملة . وادهى من هذا كله انه امر بتجريد الناس من اسلحتهم وفرض الخدمة العسكرية الاجبارية . ولم

١ - Syria and Palestine (London, 1920), p. 27. (وهو دليل وضعه

القسم التاريخي في وزارة الخارجية البريطانية .

٢ - رستم في ذكرى الفاتح ابراهيم باشا ص ١١٣ - ١١٤ .

٣ - وجمعها « مصاري » . وقد أصبحت هذه الكلمة « مصاري » تعني في العربية العامة في لبنان دراهم ومال .

٤ - المنجد ، ص ٨٨ .

يكن ابراهيم ليجد سبباً لاثارة الخواطر ولخلق استياء عام بين اللبنانيين كقانون الخدمة العسكرية الاجبارية ، لا سيما وان قراره هذا اتى نقضاً لتعهداته السابقة بان يحترم جميع الامتيازات التي كان يتمتع بها اهل الجبل . وكان الامير بشير قد وضع تحت تصرف ابراهيم باشا تسعة آلاف محارب ، اي ما يعادل نصف عدد الجنود النظاميين الذين بدأ بهم حربه في سورية . وقد سخروا العمال اللبنانيين في استخراج الفحم من المناجم الواقعة في خراج صليبا والحديد من مناجم مرجبا فوق بلدة المتين . وبقايا هذه المناجم لا تزال الى يومنا هذا . وكان المصريون يرغبون - كما كان يرغب الفراعنة قبلا - في الحصول على الاخشاب من لبنان لآعمال البناء وانشاء الاساطيل ، لا سيما وان اسطولهم كان قد اصيب بخسارة كبيرة في حربهم ضد اليونان . ولذا استغل المصريون حرج الصنوبر بالقرب من بيروت .

كانت حالة الحرب واصرار ابراهيم باشا على بلوغ القسطنطينية يملسان على ابراهيم باشا ضرورة فرض التجنيد الاجباري الذي بدأ بتطبيقه على المسلمين اولا فأخذ مسلمو بيروت الصالحون للتجنيد يلجأون الى القنصليات الاوروبية او الى بيوت الاجانب هرباً من ملاحقة المصريين لهم . وكان بعضهم يختبئ في الكهوف الواقعة في كثران الرمل جنوبي بيروت ، وبعضهم كان يرمي بنفسه في البحر ويسبح الى صخور الروشة الصعبة المرتقى التي يبلغ علوها مئتي قدم فوق الماء^(١) . وكان بعض الدروز ، لكي ينجوا من الخدمة العسكرية ، يتعمدون او يعتنقون المسيحية البروتستانتية . وقد بدأت الثورة ضد الحكم المصري في فلسطين عام ١٨٣٤ . ثم امتدت الى جبال النصيرية في شمالي سورية فحوران الى ان امتدت سنة ١٨٤٠ الى لبنان حيث كانت الخدمة العسكرية اختيارية منذ عهود قديمة . ورغبة منه في اخاد ثورة حوران ، التي كلفته خمسة عشر الف قتيل وجريح ، جنّد ابراهيم باشا سبعة آلاف مقاتل ماروني . ومكافأة لهم فانه سمح لهم بابقاء اسلحتهم الى اجل غير مسمى وبعدم زيادة ضريبة الاملاك والاعناق عليهم^(٢) . غير انه عاد فعدل عن

١ - William M. Thomson, *Lebanon, Damascus, and Beyond Jordan* (London, 1886), pp. 110 .

٢ - Achille Laurent, *Relation historique des affaires de Syrie* - ٢ (Paris, 1846), vol. I, pp. 5 - 9 ; Le Baron d'Armagnac, *Nezib et Beyrouth* (paris, 1844), pp. 232 - 3 ;

قسطنطين الباشا : مذكرات تاريخية ، (حريصا ١٩٣٠) ص ١٥٠ .

هذا القرار واصرّ عام ١٨٤٠ ان يسلم هؤلاء الجنود الموارنة اسلحتهم ، واصر ايضاً على تجريد سائر الموارنة من سلاحهم . فكانت حادثة حوران - حيث حارب الموارنة ضد الدروز - بداية عهد عداة بين الدروز والموارنة . وقد استغل عملاء الانكليز والأتراك الحالة النفسية الناتجة في لبنان وحاولوا اشعال نار الفتنة الكامنة تحت الرماد بالرشوة حيناً وبالسلاح والوعود حيناً آخر^(١) . وقد حاول ابراهيم باشا عبثاً ان يطمئن عامة الناس ، مقسماً بحياته وبجياة ابيه ، ان تجريدهم من السلاح انما هو اجراء مؤقت ، وان ليس في نيته ان يفرض التجنيد الاجباري^(٢) . وكذلك اخفق الامير بشير في وعيده وتهديده ان كل من يتلقى سلاحاً او ذخيرة او مؤناً من الباخرة الانكليزية الراسية في ميناء بيروت سيعدم فوراً^(٣) . فانه في الثامن من حزيران ١٨٤٠ عقد الثائرون - دروز ونصارى وشيعة وسنة - مؤتمراً في انطلياس واقسموا يمينا عند المذبح في كنيسة مار الياس على ان يظلوا يداً واحدة . وقد بعثوا بنداء الى اتباعهم ليثوروا ضد الحكم الظالم ، وتعاهدوا فيما بينهم « على ان يحاربوا ليستردوا استقلالهم او ان يموتوا^(٤) » . ان هذه الوثيقة التي تصدرها العامة وتدعو الناس لحمل السلاح دفاعاً عن الحرية والاستقلال وثيقة رائعة تدعو الى الاعجاب الشديد . وفي هذا المؤتمر انتخب فرنسيس الخازن قائداً وزعيماً . وقد ضايق الثائرون الجيش المصري ونهبوا مستودعات المؤن والذخيرة واصطدموا مع الجند في مناوشات لم تلبث ان اتسعت حتى عمت جميع اطراف البلاد . وفي الوقت ذاته كان اسطول يتألف من سفن انكليزية ونمساوية وتركسية يهاجم بيروت ، الميناء الذي اتخذه الجيش المصري قاعدة له ، وينزل الجيوش على شواطئ جونيه . ولا تزال آثار

١ - *La Vie militaire du Général Ducrot* (Paris, 1895), vol. I, p. 389 .

أما للاطلاع على الوثائق الرسمية فيجب مراجعة :

Correspondance Relative to the Affairs of the Levant, pt. II London, 1841 , pp. 302 - 3 .

٢ - De Testa, vol. III, p. 73 .

٣ - De Testa, vol. III, p. 83 .

٤ - تجد النص في فيليب وفريد الخازن . مجموعة المخررات السياسية والخدمية - جونيه حرة .

الاول (جونيه ١٩١٠) ص ٢ - ٥ . De Testa, vol. III, pp. 74 - 6 .

قصف الاسطول بادية للعيان في الخلدوش التي احدثتها القنابل في واجهة مسجد المجيدية . وقد ذكرت الدول الخمس التي اشتركت في الحرب ضد ابراهيم باشا الغاية من تدخلها، كما تقول وزارة الخارجية البريطانية «الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية». ولها [للدول] ملء الحق في الحفاظ على سلامتها لأن سلامتها من مقتضيات توازن القوى في اوربا وضرورة لحفظ السلام في العالم^(١) . وفي العاشر من شهر تشرين الاول ١٨٤٠ ، استسلم الامير بشير للانكليز الذين خيروه في الاقامة في اي مكان يشاء باستثناء سورية وفرنسا . فسافر الى مالطة مع زوجته الجارية الشركسية الحسنة التي كان عمرها ٢٣ سنة وكاتم سره وشاعره بطرس كرامة وثلاثة من اولاده مع عدد من احفاده وحاشيته التي تتألف من سبعين شخصاً يحملون اكياس الذهب والكنوز . وكان قد بلغ سني العقد السابع من عمره . وبعد اقامة في مالطة مدتها احد عشر شهراً سافر الى استنبول حيث توفي سنة ١٨٥٠^(٢) . وفي سنة ١٩٤٧ نقلت رفاته الى القصر الذي شيده واحبه : قصر بيت الدين الذي يخص الان الحكومة اللبنانية التي اتخذته متحفاً ومقراً صيفياً لرئيس الجمهورية . ولا يزال الاباء والجدود يحدثون ابناءهم واحفادهم وهم جلوس امام الموقد ايام الشتاء وفي الليالي الطويلة عن الامير بشير الكبير وعن اخلاقه ومآثبه العظيمة .

وقد نلت ولاية الامير بشير فترة ثورات وقلاقل كانت بداية زوال عهد الامراء الاقطاعيين وفاتحة عهد جديد ، هو عهد متصرفية لبنان المستقلة المعترف بها دولياً .

بيروت تزعم المدن اللبنانية :

اثناء السنوات العشر التي احتل فيها المصريون سورية تغلغل النفوذ الغربي الى داخل البلاد . واصبحت بيروت الميناء الرئيسي ، وهو وضع احتفظت به الى يومنا هذا . فانها كانت مقر القناصل ، ومركز للارصاليات التبشيرية والتعليمية من افرنسية واميركية وانكليزية ، ومركزاً تجارياً وصناعياً يقصده الاوروبيون

١ - Correspondance Relative to Affairs, pt.I (London, 1841), p. 224

٢ - حيدر ، الفرر ، ص ١٠٤٩ - ١٠٥٠ .

والسوريون واهل الجبل . وقد زاد عدد سكانها — وكان عدد سكانها اذ ذاك ثمانية آلاف نسمة — ازدياداً كبيراً واخذ الناس يخرجون خارج المدينة القديمة لينوا البيوت خارج اسوارها . ولم يكن مألوفاً ، قبل سنة ١٨٣١ ، ان يرى المرء سيدة اوروبية لابسة ثوباً اخضر تسير في الشارع . فان اللون الاخضر كان محصوراً استعماله في آل البيت . ولم يكن مألوفاً ان يرى الرجل متأبطاً ساعد امرأة خارج البيت . وقل ان يرى المرء في شوارع بيروت رجالا اوروبيين يرتدون ملابسهم الغربية . واذا تجرأت امرأة غربية ، زوجة قنصل او تاجر ، ان تنتقل خلسة من بيت الى بيت فان ذلك كان امراً يسترعي انتباه الناس . غير ان الحال تغيرت واصبح الاوروبيون يتنقلون في شوارع المدينة بكل ثقة واطمئنان^(١) . وفي سنة ١٨٤٠ ازداد عدد العائلات الاوروبية التي تقطن بيروت الى مئة عائلة . وبينما كان منظر المركب القادم الى الميناء يثير الدهشة والفضول اصبح مقدم المراكب بعد سنة ١٨٤٠ امراً عادياً قل ان يعيره احد من الناس اي انتباه . فقد كان معدل السفن التي تدخل ميناء بيروت حاملة العلم الانكليزي مئة وخمسين سفينة كل عام^(٢) . وكانت بيروت تفخر وتتباهى بأسواقها الاوروبية التي كان اصحاب الحوانيت فيها من الاروام والمالطيين والايطاليين ومن المدن الايونية . حتى ان الحمامات العامة كان فيها غرف خاصة بالاجانب . وانشأ الايطاليون واليونان فنادق (لوكندات ومفردها لوكنده وهي لفظة ايطالية locanda) . وكانت اللغة الاجنبية في التخاطب الايطالية اولا ثم اصبحت فيما بعد الافرنسية . وفي اسماء العائلات البيروتية مثل باسيلا وابيلا وبني وباولي وكاتسفليس ما يشهد على اندماج الاعراق البشرية في هذا الميناء . وكانت مدينة تكثر فيها انواع التسلية والترفيه : الكركوز، وقصاصو قصص عنتر وصلاح الدين وبيرس، واللاعبون على الدربة والراقصون وفي اصابعهم « الطقشيات » والفنيمات المصرية الراقصات ذوات العيون البراقة والالوجه الموشومة . وكان الناس رواد هذه الملاهي يجلسون

١ - *Memoirs of The Lady Hester Stanhope* (London, 1845), pp. 247 - 8 .

٢ - *F. A. Neale, Eight Years in Syria, Palestine and Asia Minor*, 2nd. (London, 1852), vol. I, p. 247 .

وهذا المؤلف Neale كان موظفاً قنصلياً من سنة ١٨٤٢ - ١٨٥٠ .

ويدخنون النارجيلة او يحتسون القهوة . ولم تكن هنالك مدينة لبنانية اخرى تستطيع ان تنافس بيروت . فطرابلس كانت بلدة صغيرة سكانها سبعة آلاف نسمة^(١) ، وكانت صيدا قد فقدت عظمتها ورونقها . اما صور فقد كانت تغطى في سبات العصور المتوسطة . وفي جميع هذه المدن كانت المرأة النصرانية تغطي وجهها بحجاب كما تفعل المرأة المسلمة . اما في بيروت فان الطنطور كان في طريقه الى الزوال^(٢) . وكانت النساء المترفات يرفهن عن انفسهن بمضغ المسك وتدخين النارجيلة في المنازل . ويظهر ان الناس كانوا يستعملون احدى الحشائش البرية قبل ان عرف التبغ في العالم الجديد .

المقيمون البريطانيون الاول

وبدأ الاوروبيون يؤسسون البيوتات التجارية . فقد أسس جايمس بلاك محلا تجارياً اشتهر بالاستقامة والأمانة حتى ان المصطلح الشائع آنذاك « كلمة انكليزية » . أصبح مرادفاً للصدق وحسن المعاملة^(٣) . وفي سنة ١٨٤١ اسس رجل فرسي اسمه فورتينه بورتالس معمل حلّ للشرانق في بلدة بتار . ثم تبعه رجل اسكوتلندي اسمه سكوت وأسس معملاً آخر في شملان . وقد كان هذان المعملان من اقدم معامل الحرير في البلاد . وصارت تربية دود الحرير وزراعة التوت مصدراً رئيسياً من مصادر ريع الفلاحين في لبنان . وظل موسم الحرير الى الحرب العالمية الاولى من المواسم التي يعتمد عليها المزارع اللبناني .

وكان فيمن استوطن في واد تحت بتار ووراء شملان رجل انكليزي اسمه شارل هنري تشرشل (وكان يعرفه الناس بشرشريك) ينتمي الى العائلة الارستقراطية المشهورة مارلبورو . جاء تشرشل البلاد كضابط في الجيش الذي حارب ابراهيم باشا . وقد اشترى مزرعة بحوارة وانشأ فيها مدرسة صغيرة . وكان يلبس اللباس الوطني فيضع على رأسه الكوفية والعقال ويرتدي عباءة . وتزوج امرأة حلبية ثم اخرى شهائية . وكان صديقاً حميماً للدروز وكانوا يحبونه

Neale, vol. I p. 264 .

- ١

Neale, vol. I, p. 250 .

- ٢

Jessup, p. 49, n. 1; p. 465; Neale, vol. I, p. 245 .

- ٣

فجعلوه موضع سرهم وثقتهم . وقد ألف كتابين فيهما الكثير من المعلومات عن الحياة والمجتمع في لبنان بين ١٨٤٠ و ١٨٦١ . وقد أشرنا اليهما .

وفي سنة ١٨١٠ غادرت سيدة انكليزية من عائلة ارسقراطية بلادها بعد ان اصبحت بخيبة امل قاسية في حياتها العاطفية ، وراحت تنتقل في الشرق الى ان استقر بها المقام اخيراً في بلدة جون على بعد ثمانية اميال شمالي شرقي صيدا . هذه السيدة هي هستر ستانوب حفيدة ارل تشاتم وامينة سر وليم بت الشهير وزير مالية انكلترا . وعلى رابية مشرفة هناك اقامت هستر بيتاً يجمع بين الفيلا والقلعة ، وأحاطته بسور عال ، وجملته بحديقة رائعة الجمال . وكانت ترتدي الملابس الوطنية ، وتدخن الشبق ، وتحمل بيدها سوطاً او تضع خنجرأ على جنبها . وكان يحرسها رهط من البانيين اشداء ، وكان خدمها من الزنوج السود ، وجميعهم كانوا يعاملونها معاملة المالك . وكانت الحكومة الانكليزية تدفع لها راتب تقاعد سنوي قدره الف ومثلاً ليرة انكليزية . وقد درست هستر العربية واسترسلت في مطالعة الكتب التي تعنى بعلم الفلك والتنجيم وعلم الكيمياء « العلمين اللذين لا تعرف اوربا عنهما شيئاً » . وكانت تسير على رأس القوافل الذاهبة الى بعلبك وتدمر والقدس . وقد اعجبت قبائل البدو في الصحراء السورية برشاقة قامتها ونبل خلقها وكرمها حتى انهم اصبحوا يلقبونها « بملكة تدمر » . وكانت سلطتها على القرى المجاورة لجون ، ومعظمها قرى درزية ، تكاد تكون تامة . ولما عزم ابراهيم باشا على غزو لبنان وسورية حاول ان يبقياها على الحياد وكان لها يد في اثارة الدروز فيما بعد ضده^(١) .

وقد بثت الجواسيس في عواصم لبنان وسورية . وكانت ، بالتعاون مع الباشوات والمشايخ والامراء ، تدس الدسائس وتدبر المؤامرات ، ونبعث بالرسائل الى الامير بشير وغيره من الامراء . غير انها لم تفتح ابواب بيتها الى ابناء جنسها من الانكليز ، ولما كانت تستقبل النساء . واحياناً كانت تهين القناصل — على ما كان لهم من مقام في تلك الفترة — وتردري بالقواد ، وقد تهوي على الضباط بسوطها . أما دائنوها فانها كانت تتحاشاهم واحياناً توقعهم في اشد الارتباك . وقد قابلها الشاعر الافرنسي لامرتين (١٨٣٢) وترك لنا وصفاً لتلك المقابلة فيه الكثير مما يكشف عن سر هذه المرأة الغريبة الاطوار^(٢) . ومن غرائب اطوارها انها كانت

— ١ — *Memoirs of Lady Hester Stanhope*, vol. III, pp. 63, 76.

— ٢ — *De Lamartine*, vol. I, pp. 164 - 87 .

تهبىء فرساً عربية أصيلة ليركبها المسيح المنتظر . يقول لنا مرسل اميركي^(١) ان هذه الفرس « ولدت مسرجة » وكانت تقدم لها شراب الورد وتطعمها مختلف اللذائذ وتضعها في اسطبل لا ينطفئ سراجها ابداً . وفي سنة ١٨٣٩ توفيت الليدي هستر ستانوب ودفنت في ارض جديقتها ولم يحضر وفاتها اي اوروبي . وقد اصبح بيتها مزاراً يؤمه السائح الاوروبي بعد ان كانت الحكومة الانكليزية ذاتها تعجز عن الاتصال بها مباشرة . واذا اتصلت بها فعن طريق وكيل قنصل كان مقره في قبرص .

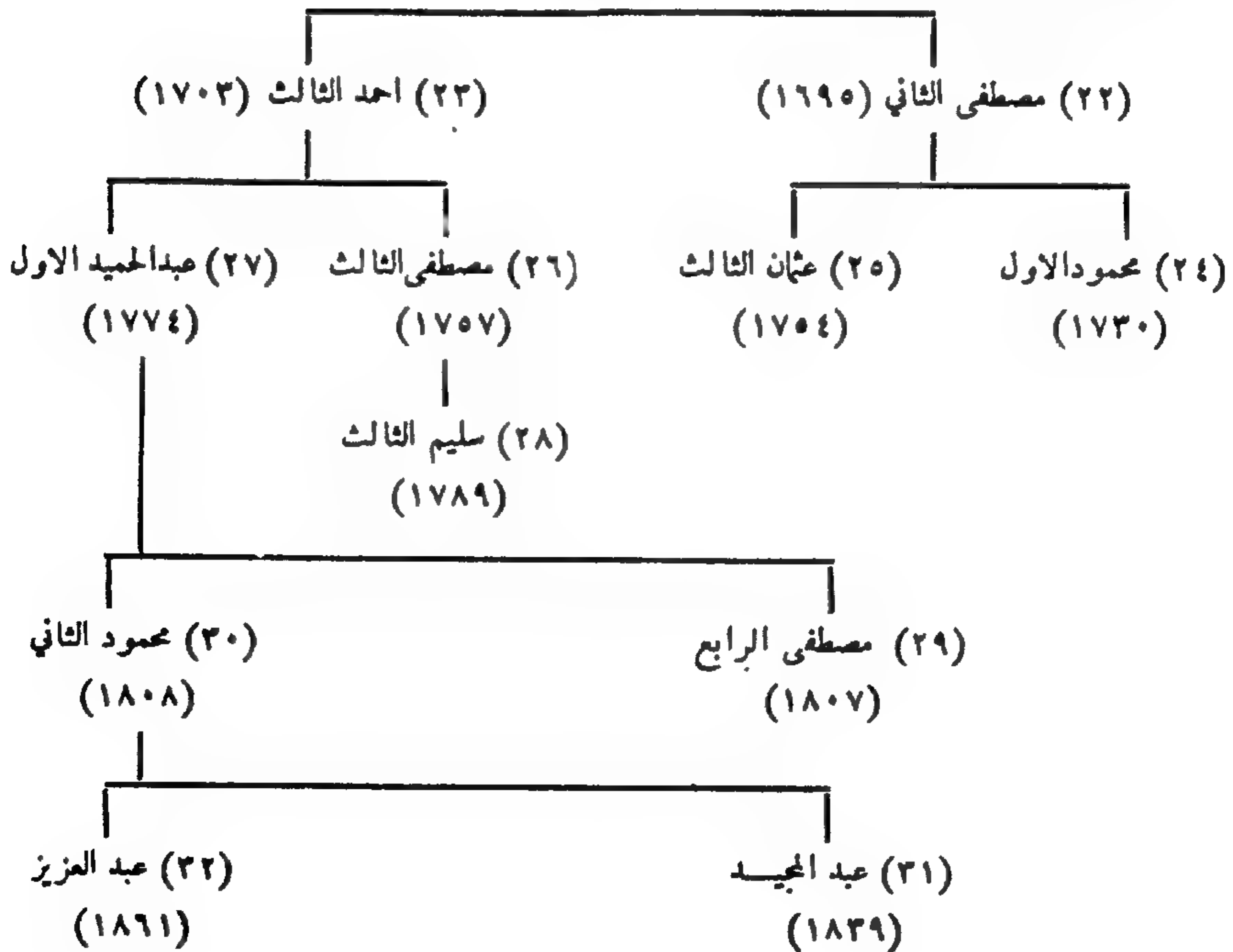
التنظيمات

كان الاحتلال المصري في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) . وقد كان السلطان محمود اعظم السلاطين الثلاثة الذين قاموا بالاصلاحات التي كانت تعرف بالتنظيمات . اما السلطانان الآخران فهما سلفه السلطان سليم الثالث وابنه السلطان عبد المجيد^(٢) . وقد قام السلطان محمود بعمل قوتي ماثور . ذلك

Thomson, *Lebanon*, p. 17 .

١ -

٢ - السلاطين العثمانيون :



انه في يوم من ايام حزيران سنة ١٨٢٦ جمع الانكشارية في ثكناتهم وامر جنسده الخاص بان يطلقوا مدافعهم على الثكنات التي حشد فيها الانكشارية ويهدموها الى اساساتها . وقد قتلهم الى آخر رجل منهم . فقد كان الانكشارية فئة ثورية قوية معارضة تقف في سبيل كل اصلاح او تبديل دون موافقتهم . فقد كان بيدهم ان ينصبوا السلطان وان يخلعوه ساعة يشاؤون وان يعينوا الوزراء وان يقيلوهم كما يرغبون . و آخر فريسة وقعت في ايديهم كان السلطان سليم الثالث . ولم تقتصر تنظيمات السلطان محمود على اعادة تنظيم الجيش بل تعدتها الى اصلاح جهاز الحكم المدني ، فأنشأ مدارس طبية ومدارس اخرى مختلفة وجلب لها الخبراء الوروبيين . وقد حاول القضاء على الاقطاع في بر الاناضول ليحل محله الحكم الملكي المركزي في استنبول . وكان اول سلطان اتخذ الطربوش الاحمر^(١) لباساً للرأس وهو اللباس الذي انتشر بين الرعية الى ان اصبح لباس الرأس الاسلامي من مراکش الى اندونيسية . والغريب في امر هذا السلطان ان تسميه رعيته giaur^(٢) اي الكافر . وقد كان من جملة الاصلاحات التي قام بها مؤخراً . مصطفى كمال الغاء لبس الطربوش . اما المحفل الماسوني الذي يعرف باصحاب المزار Shriners فان اعضاءه يتخذون الطربوش شعاراً ، اولا لانه لباس رأس يستلفت النظر لشكله ولونه ، وثانياً لانهم يقولون بان اصل المحفل عربي .

كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧ - وهو السلطان الوحيد من سلاطين القرن الثامن عشر الذي لم يحجر عليه - أول من بدأ بالحركة الاصلاحية . وقد انت غزوة نابليون لجزء من سلطنته صدمة عنيفة له ، لانه كان من أشد المعجبين بالثقافة الافرنسية . وقد كانت التنظيمات التي قام بها ، والتي تعرف ب « نظامي جديد » تستهدف اصلاح الاصول المالية والجندية ، والتي اصبحت فيما بعد نموذجاً للتشريعات التي تلت . انما كانت اصلاحات سليم تصطدم دوما بمعارضة الانكشارية والموظفين الفاسدين والفئة الرجعية . فكان على السلطان عبد الحميد (١٨٣٩ - ١٨٦١)

١ - ويعرف بالانكليزية ب ez ، وهي تحريف فاس عاصمة مراکش . اما لفظ الطربوش فتحريف لفظ فارسي « حربوش » ولفظ الطربوش لا يرد في الادب العربي الا بعد ان جمعت قصص الف ليلة وليلة في القرن الرابع عشر او الخامس عشر .

٢ - وهو لفظ فارسي يطلق تحقيراً لغير المسلم ، ولا سيما على النصاري .

ان يحقق ما كان قد بدأ به سليم الثالث ومحمود الثاني . فأصدر سنة ١٨٣٩ وخط شريف كلخانة (لانه اعلن من حديقة كلخانة) وخط همايوني^(١) سنة ١٨٥٦ وفيهما تأكيدوا اضافات وتوضيحات للقرارات السابقة . وتستهدف هذه القرارات اشاعة العدل وتأمين الحياة واحترام الملكية الشخصية والكرامة الانسانية بين جميع الرعايا بدون تمييز وبقطع النظر عن الجنس أو الدين . وبموجب هذه القوانين الجديدة لا يحق الاقتصاص من رجل قبل ان يحاكم امام القضاء . واجبار المرء على اعتناق دين أو مذهب ما بالقوة امر ممنوع . وابواب التوظيف مفتوحة امام جميع الافراد على السواء . ويحق للنصارى الانخراط في سلك الجندية ، ولكن لهم الحق في ان يدفعوا بدلاً مالياً عوضاً عن الخدمة العسكرية اذا شاؤوا ذلك . وكانت هذه القوانين تستهدف ازالة جميع العقبات والصعوبات التي كانت الرعية تعاني منها ما تعاني . وتناولت اصلاح قانون ضريبة العشر وسائر الضرائب الزراعية الاخرى . والحقيقة ان هذه المراسيم السلطانية كانت ممتازة بحد ذاتها ، انما كان ينقصها حكومة حازمة لتطبيقها . والحقيقة ان اثرها في تغيير الحالة الاجتماعية والاقتصادية كان ضئيلاً . فانها ، الى جانب انعدام حكومة حازمة تطبقها ، أتت كتنظيمات سابقة لاوانها . فقد كانت قوة استمرار الرجعية التي خلفتها العصور اقوى من ان توقفها اصلاحات ظلت حبراً على ورق . فقد كان العلماء ورجال الدين يقاومونها بشدة . كذلك لم يستغفها الاجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة . اما الصرافون والمرابون من يهود ونصارى فلم ترق لهم بعض القوانين الواردة في التنظيمات . وكذلك الاكليروس الكاثوليكي والارثوذكسي فانهم رأوا فيها ما يحد من سلطتهم ومن دخلهم . وفضلاً عن هذا فان هذه الاصلاحات لم تصدر عن دافع للاصلاح وللخير العام بقدر ما كان سلاحاً يتذرع به السلاطين امام حكام اوربة في مساوماتهم السياسية عند نشوب الازمة . ويجب ان نذكر ان الفترة التي جاءت فيها هذه الاصلاحات كانت فترة

١ - للاطلاع على النص راجع :

Ahmad Lutfi, *Ta'rikh* (Constantinople, 1303), vol. VI, pp. 61-4; Enver Z. Karal, *Osmanli Tarihi*, V, *Nizami Cedit ve Tanzimat Devirleri* (Ankara, 1947) pp. 266-72; de Testa, vol. V, pp. 132-7, 140 - 3; Edward Hertslet, *The Map of Europe by Treaty* (London, 1875), vol. II, pp. 1002-5, 1243-9 .

ضعف ونقهر في السلطنة ، ليس لعوامل داخلية وحسب ، بل لاسباب خارجية كما كانت تتمثل في الضغط السياسي على السلطنة . وسواء أكانت هذه التنظيمات قد وضعت لوقف التدخل الاوربي في شؤون السلطنة العثمانية الداخلية ، ام للحاق بركب الحضارة ولتقوية المملكة المتداعية الاركان فمسألة قابلة للجدل التاريخي .

في تلك الفترة كانت روسيا القيصرية تحاول ان تلعب دور حامي الكنيسة الارثوذكسية . فانه اذا كانت فرنسا « اقدم ابنة من بنات الكنيسة الكاثوليكية » حامية الرعايا الكاثوليك في المملكة العثمانية ، فما الذي يمنع اعظم قوة ارثوذكسية ، روسيا القيصرية ، من ان تحمي الرعايا من الروم الارثوذكس ؟ وللابقاء على التوازن الغربي في شؤون المملكة العثمانية حاولت انكلترا ان تجد « متكأ » لها ، فوجدته في الدروز . واصبح الدروز يتطلعون الى لندن كما يتطلع الموارنة والكاثوليك الى باريس . وفي معاهدة كوتشوك كينارجي (١٧٧٤) - وهي اشد المعاهدات اذلالا لكبرياء السلطنة العثمانية - منحت روسيا الامتياز الذي كانت تطمح فيه منذ زمن بعيد : حماية الارثوذكس . وبعد ان اخذت روسيا في ممارسة الحقوق التي منحتها بموجب معاهدة كوتشوك كينارجي شرعت في المطالبة بتوسيع صلاحياتها لتشمل الاماكن المقدسة مما ادى الى حرب القرم الذي اشتبكت فيها روسيا بحرب ضد تركيا وحلفائها من الافرنسيين والانكليز ومملكة سردينيا . وفي سنة ١٨٤٤ عرض القيصر على انكلترا اقتسام تركيا التي سماها « رجل اوروبية المريض » . وقد ظلت روسيا القيصرية طيلة قرن او اكثر تتبع سياسة تهدف الى السيطرة على الاجزاء التركية المجاورة لها . واحياناً كانت ترتبط مع دول الغرب بتعهدات من نوع «تعهدات الرجل الشريف» تتخلى روسيا بموجبها عن الاقسام الجنوبية من تركيا وابقائها ضمن اطار النفوذ الغربي على اساس الا يتدخلوا بشؤون روسيا في سياستها التركية المتعلقة بالمناطق الشمالية . وكان هنالك دول استعمارية اوروبية اخرى تنظر بعين الطمع الى التوسع على حساب الاتراك . منها الامبراطورية النمساوية - الهنغارية وانكلترا وفرنسا . وكانت هاتان الدولتان الاخيرتان ، انكلترا وفرنسا ، تعيان بصورة خاصة بالمسألة الشرقية - وهي فعلاً مسألة غربية لا شرقية سببها تدخل اوروبا في شؤون تركيا الداخلية ورغبتها في توسيع نطاق نفوذها في هذه المنطقة . وكانت كلا الدولتين تنظران الى المسألة

الشرقية كل بمنظارها الخاص . وكانت كل منهما تنظر الى مصالحها الاقتصادية والتجارية في هذه البقعة الاستراتيجية الواقعة عند ملتقى اهم طرق المواصلات الرئيسية البحرية والبرية التي تربط بينهما وبين مستعمراتها واسواقهما التجارية في شرقي افريقيا والهند والشرق الاقصى .

وفي الوقت الذي ظهر فيه ان هذه التنظيمات كانت عقيمة الجدوى سنت بعض القوانين التجارية والبحرية التي كان لها اثرها في تحسين الحالة التجارية . ذلك لانها انت قوانين وشرائع تتمشى مع روح الشريعة الاسلامية لا لتحل محلها كما كان الحال في التنظيمات . فان الشريعة الاسلامية كانت حتى ذلك الحين هي الشريعة السائدة المعمول بها ، على الاقل نظرياً . ولكن اخذ الناس يشعرون ان القوانين التي سنت في صدر الاسلام (القرن السابع الميلادي) لم تعد تلائم متطلبات الحياة المعقدة ، ولم يكن فيها ما يكفل سير الاعمال التجارية والصناعية . ففي سنة ١٨٥٠ اصدر عبدالمجيد قانوناً يتعلق بالتجارة . وبعد مضي ثماني سنوات سنّ قانوناً آخر يتعلق بالعقوبات ، وكلاهما مستمدان من الشرائع والقوانين الاوروبية . وفي الدرجة الاولى من القوانين الافرنسية . وفي سنة ١٨٦٣ اصدر السلطان قانوناً يتعلق بالتجارة البحرية . وكان ايضاً مبنيّاً على القانون الافرنسي . ولتنفيذ احكام هذه الشرائع التجارية والبحرية أنشئت محاكم خارج صلاحيات قضاة الشرع . غير ان قانون الاحوال الشخصية الذي صدر سنة ١٨٧٦ والمعروف « بالمجلة »^(١) فانه يقوم في مبادئه على الشريعة الاسلامية . وقد ظلت قوانين المجلة معمولاً بها في سورية ولبنان الى زمن الانتداب .

١ - للاطلاع على نص الاحكام وشرحها راجع : « شرح مجلة الاحكام العلية » نشر محمد س. المحاسني ، في ثلاثة مجلدات (دمشق ١٩٢٧) وترجمتها :

C. A. Hooper, *The Civil Law of Palestine and Trans-Jordan*, vol. I (London, 1938) .

الفصل التاسع والعشرون

فترة الحروب الأهلية : ١٨٤٠ - ١٨٦٠

وجد لبنان نفسه ، عند منتصف القرن التاسع عشر ، في حمة من حروب وقتن دامية لم يكن له عهد بمثلها طيلة تاريخه المديد المليء بالحوادث . وكانت ذروة هذه الحوادث الدامية ثلاث قن اهلية وقعت بين الدروز والنصارى وكادت تؤدي بالبلاد الى هاوية من الفوضى والبلاء : فتنة ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ . وتمثل هذه الفترة القائمة نهاية عهد حكم الامراء اللبنانيين وبداية عهد المتصرفية ، حكم المتصرف العثماني باشراف خمس دول اوروبية .

كانت عوامل الانفجار تعمل منذ سنوات . فقد كان الدروز مستائين على اشد ما يكون الاستياء من محاولات الامير بشير للقضاء على نفوذ مشايخهم واجبيانهم من الاقطاعيين ، ومن ابنه خليل قائد الجيش الماروني الذي اعان ابراهيم باشا على قمع الثورة في حوران . ومن عوامل نقمة الدروز ازدياد عدد النصارى في المقاطعات الدرزية وازدياد نفوذهم . اصف الى هذا تدخل بريطانيا في سعيها للحصول على منطقة نفوذ في هذه البقعة وبث عمالها لاحداث المشاكل واشعال نار الفتنة بين جزئي السكان المتكافئين . ومن جملة هذه العوامل ايضاً سياسة الحكم المباشر التي اتبعها الاتراك وتركيز السلطة التي بدأها السلطان محمود الثاني . وقد استغل الاتراك اوضاع البلاد الطائفية والحزبية فأخذوا يثيرون فئة ضد فئة . واخيراً ، اوقع تنافس الدول الكبرى لبنان الصغير المستضعف في سعيها لتون السياسة الدولية ، ووضع سكانه البسطاء المسالمين تحت رحمة جيوش الدول المستعمرة .

كانت الحروب في جبل لبنان حتى سنة ١٨٤٠ حروباً داخلية متقطعة يحارب فيها الدرزي اخاه الدرزي والنصراني اخاه النصراني تبعاً للحزب الذي ينتمي اليه كل منهما : الحزب القيسي او اليميني والحزب الجنبلاطي او اليزبكي . وكان ولاء

الناس الى اميرهم او اقطاعيهم او الى حزبهم لا الى دينهم او الى طائفتهم .
والرحالة الغربيون الذين كتبوا عن لبنان قبل هذه الفترة ابدوا اعجابهم بالموودة
والصفاء اللذين كانت تتميز بهما العلاقات الدرزية النصرانية^(١) . والشاهد على هذا
انه حتى سنة ١٨٤٠ كان الدروز والموارنة يوقعون معاً بيانات ضد ابراهيم باشا .
وقبل هذا بثماني سنوات كتب لامرتين : « قل ان يشاهد السائح في سكوتلندا او
في سافوي او سويسرا حياة نشيطة هائلة هادئة كحياة الناس على هذه السفوح
اللبنانية التي كنا نترقب ان نجد سكانها قوماً برابرة »^(٢) .

نشوب الفتنة الاولى

عندما عُزل الامير بشير الثاني قويت سلطة الباب العالي سيما بعد تعيين الامير
بشير الثالث (١٨٤٠ - ١٨٤٢) الشهابي النصراني « اميراً على جبل الدروز »^(٣) .
وكان الامير بشير الثاني قد اشترك في الثورة ضد ابراهيم باشا وتعاون مع الاتراك
والانكليز في طرده من البلاد . ولم يكن بينه وبين سميته وسلفه العظيم من الامور
المشتركة سوى الاسم . وبعد تسنمه الولاية بقليل ، وقعت حادثة تافهة كانت
الشرارة الاولى لاشعال نار الفتنة الاولى بين الدروز والنصارى (وتعرفها
العامة بالحركة الاولى) . وتفصيل الحادثة : ان رجلاً من دير القمر اصطاد
حجلاً في أرض لعائلة ابي نكد في خراج بعقلين . « فاعترضه بعض دروزها
بمشاجرة فسمع رفاقه ضجيجهم ، فبادر احدهم الى دير القمر وبث الخبر
مهيجاً . فهاجت الشبان وتجمعوا بالسلاح »^(٤) وانضم الجنبلطيون وآل عماد

١ - Abbé de Binos, *Voyage au Mont Liban* (Paris, 1809), vol. II, pp. 90 - 1 .

٢ - De Lamartine, vol. I, p. 270 (ed. 1835, Paris) .

٣ - De Testa. vol. III, p. 83 .

٤ - الشدياق ، ص ٦٢١ وما يليها . وراجع ايضاً مشقة ص ١٤٥ - ١٤٦ .

Churchill, *Druzes*, pp. 44 seq.; Jessup, pp. 161 seq.;

اما تشرشل فقد كان شاهد عيان . فانه كان يستطيع ان يرى من على سطح بيته في نخوارة دخان
الحريق في القرى المجاورة . اما جيب فقد كان شاهد عيان فيما سطره ، وفي حالات اخرى كانت
تصله تقارير يوثق بصحتها من اعضاء الارشاقية الاميركية .

برجالهم الى النكديين فاحرقوا دير القمر في الرابع عشر من تشرين الاول، ١٨٤١. ولم تلبث ان شملت الفتنة قرى اخرى في الشوف وفي منطقة الغرب : جزين وعبيه والشويفات والحدث وبعيدا . وفي الحدث وبعيدا احرق قصور الشهابيين . وقد وقع جمهور من الموارنة بينا كانوا هاربين من بيروت في قبضة الجند التركي المربط في ضواحي المدينة ، والذي كان قد ارسل خصيصاً لتهدة الحال في لبنان، فهاجمهم الجند ونهب اموالهم . وقد جرّ دوا النساء من حليهن والبستهن . هذه الحادثة وسواها من حوادث القتل والنهب التي تعرض لها السكان على ايدي الجنود الاتراك تفسر لنا مغزى قولهم : « انه لأفضل لنا ان ينهبنا الدروز من ان يحميننا الاتراك »^(١) . فان الدروز ، حسب تقاليدهم الموروثة ، لا يتعرضون الى النساء بسوء .

وقد قدمت قناصل الدول الاجنبية : فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا ، مذكرة مشتركة الى الوالي التركي ولفتت نظره الى الاشاعات القائلة ان الاتراك حرضوا الدروز على القيام بالثورة المسلحة . وقد اتهمت المذكرة ايضاً الحكومة التركية بان الجنود الاتراك في دير القمر جردوا النصارى من اسلحتهم ، وبأن شبلي العريان ، زعيم الدروز في حوران قد تلقى أوامر ان يزحف برجاله الى زحلة بمعونة الجنود الاتراك ليجردوا اهلها من السلاح^(٢) .

اسفرت هذه الفتنة الاولى (الحركة الاولى) عن مقتل ثلاث مئة رجل معظمهم من الدروز ، وعن خراب في الممتلكات تقدر قيمته بنصف مليون من الدولارات. غير ان فقدان الثقة بين جزئي سكان البلاد ، وروح الكراهية اللذين ازدادا حدة عندما تجاهلت الحكومة امر التعويض على الاضرار واعادة السكان الى قراهم وتعاميها عن معاقبة المجرمين ، نقول ان فقدان الثقة وشيوع الكراهية بين الفريقين كانا اشد خطراً من الخسارة المادية. وادهى من هذا كله ان الفتنة الاولى اصبحت النمط او النموذج لفتن لاحقة اشد هولاً منها .

Churchill, *Druzes*, p. 52; Jessup, p. 162 .

De Testa, vol. III, pp. 102-5 .

حلول خلقت من المشاكل اكثر مما حلت

في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٤٢ عزل الامير بشير ، آخر الامراء الشهابيين عن ولايته وأرسل الى استنبول . وعين الباب العالي رجلاً هنجارياً كان قد انضم الى الجيش التركي لمحاربة ابراهيم باشا في سورية والياً على لبنان . واسمه عمر باشا النمساوي^(١) . وهو اول رجل عثماني يتولى هذا المنصب في لبنان . واتخذ قصر الشهابيين في بيت الدين مقراً له . وكانت تنقصه المقدرة والحنكة السياسية ليدرك حقيقة الوضع في لبنان . وقد عجز عن ان يظفر بولاء الدروز او النصاري وتعاونهم معه . فان هؤلاء كانوا قد اعتادوا زمناً طويلاً حكم امرائهم الاقطاعيين . فلجأ الاتراك الى تدبير جديد : تقسيم جبل لبنان الى قسمين او قائمقاميتين ، شمالية للنصارى يحكمها قائم مقام نصراني ، وجنوبية يحكمها قائم مقام درزي ، وكلاهما مسؤولان امام والي صيدا المقيم في بيروت . وقد اتخذت طريق بيروت - دمشق الحد الفاصل بين القائمقاميتين . وقد باءت جميع محاولات فرنسا للبقاء على الحكم الموحد بزعماء الشهابيين بالفشل . فعين حيدر من الامراء الدعيين قائم مقاماً في المقاطعة المسيحية ، واحمد ارسلان قائم مقاماً على الدروز^(٢) . وكان حيدر حديث عهد بالنصرانية ، وكان احمد ارسلان حديثاً لم يستطع ان يفرض هيئته على مشايخ الدروز . وكان هم الباب العالي ان يبرهن للدول الاوروبية ان الحكم الوطني في لبنان مصيره الى الفشل اكثر مما كان مهتماً في نجاح المشروع الجديد . وقد كان عدد سكان القائمقامية النصرانية (الشمالية) ، حسب الوثائق الرسمية^(٣) ، ٧٤,٧٠٠ نسمة متركزين في شمالي القائمقامية . اما عدد سكان القائمقامية الجنوبية (الدرزية) فقد كان حسب التقسيم التالي : ٢٥,٤٥٠ درزياً و ١٧,٣٥٠ مارونياً و ٥,٢٠٠ من الروم الارثوذكس ، ١٥,٥٩٠ من الروم الكاثوليك . وقد كان في القائمقامية النصرانية وفي دير القمر ١٠,١٥٠ درزياً . وقد كان عدد سكان لبنان في هذه الحقبة ٢١٣,٠٧٠ نسمة منهم ٩٥,٣٥٠ من الموارنة ،

١ - الشدياق ، ص ٦٤٠ وما يليها .

٢ - الشدياق ، ص ٦٩٦ .

٣ - Richard Edwards, *La Syria, 1840—1860* (Paris, 1862), p. 71

و ٤١,٠٩٠ من الروم الكاثوليك ، ٢٨,٥٠٠ من الروم الارثوذكس و ٣٥,٦٠٠ درزي ، و ١٢.٣٣٠ شيعياً (متواليا) و ٢٠٠ يهودي .

وكان هذا التقسيم السياسي الجديد عاملاً في توسيع الخرق بين الطوائف الدينية ، وسبباً رئيسياً في زيادة التوتر عوضاً عن ان يكون عاملاً في تلطيف الجو فقد كان سكان القانم مقاميتين مزيجاً من الدروز والنصارى ، لا سيما في الشوف والغرب والتمن . وكان عدد سكان دير القمر التي كانت مركزاً مسيحياً ثمانية آلاف نسمة . وتقع هذه البلدة في قلب المنطقة الدزية . غير انها كانت تتمتع بإدارة خاصة بها . ولم يكن احد يخرج من بيته دون سلاح اعد للاستعمال لا للزينة هذا اذا كان ممن يعتبر اهلاً لان يقتل .

في شهر نيسان من سنة ١٨٤٥ عادت الغيوم المكفهرة المتلبدة في الافق السياسي تنذر بشر مستطير . فبعد ان احرق النصارى اربع عشرة قرية درزية زحفوا على المختارة مقر الجنبلاطين حيث كان بانتظارهم فيلق تركي اصلاهم ناراً حامية . وفي حادثة عبيه انحاز الاتراك ايضاً الى جانب الدروز فكانوا لهم مجناً . وامتدت نار الفتنة الى جزين ودير القمر والى اماكن اخرى^(١) .

اسرع الباب العالي بايفاد وزير الخارجية ، شكيب افندي ، فثبت نظام القانم مقامية - الذي ظل معمولاً به الى سنة ١٨٦٠ - وحاول ان يعيد الامن والنظام ، وسعى للحد من سلطة الامراء والوجهاء مما ادى اخيراً الى الانفجار العنيف الذي عرف ولا يزال يعرف الى الآن بحركة الستين (أي ثورة ١٨٦٠) .

اما الدروز فكانوا يداً واحدة بزعامة اعيانهم ، خلاف ما كان عليه الموارنة.

١ - مشافة ، ص ٥٢ - ٥٣ . اسكندر ابكار يوس : نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان (وهو مخطوط) ص ٢٢ - ٢٣ . وكاتب هذا التاريخ ، ابكار يوس ، رجل مسيحي مثقف من اصل ارمني ولد في بيروت . راجع ايضاً Churchill, Druzes, pp. 91 - 2 وللاطلاع على تقارير القناصل والوثائق الرسمية راجع :

Correspondence Relative to The Affairs of Syria, pt. I, 1843, 1844, 1845, (London, 1844), pp. 106 seq. De Testa, vol. III, pp. 174 seq. Khazin, vol. I, pp. 176 seq. Rabbath, vol. II, pp. 163-6 .

فانه في هذه الفترة بالذات بدت طلّاع ثورة اجتماعية تهدف الى القضاء على الاقطاع والى التحرر من ربقة الاقطاعيين . وقد نشبت سنة ١٨٥٨ ثورة مارونية قام بها الفلاحون بزعامة رجل من العامة ، طانيوس شاهين من ريفون الذي كان بيطاراً يعمل في دير للعازريين هناك^(١). فطردوا آل الخازن وجماعة اخرى من اعيان المواردنة من اقطاعاتهم واستولوا عليها ووزعوها على الفلاحين . وفي السنة التالية اعلن شاهين قيام حكومة فلاحين ونصب نفسه حاكماً مطلقاً^(٢) . اما البطرك الماروني فقد تجاهل الامر . واما الخوارنة والقسس الذين كانوا من عامة الناس فقد شجعوا الناس على الثورة هذه وايدوها . لان سلطة الاكليروس الماروني ونفوذه كان قد تضاعف كثيراً ازاء نفوذ الاقطاعيين المواردنة وسلطتهم الواسعة . اما موظفو الاتراك فانهم وقفوا يترقبون ان تنتهي الحوادث الجارية الى ما فيه صلاحهم ونفعهم . وفي هذه الاثناء كانت حياة المسيحيين وممتلكاتهم في المناطق الدرزية على كف عفريت . فانه في غضون عشر سنوات قتل منهم ما يربو على سبع مئة قتيل بدون ان يعاقب قاتل واحد وبدون ان يجري اي تحقيق قضائي^(٣) .

سنة شؤم في تاريخ لبنان

لم يكن هنالك من اسباب مباشرة لنشوب فتنة ١٨٦٠ ، او « مذابح الستين » او « حركة الستين » كما تعرفها العامة ، بل كان هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بانها كانت فتنة مدبرة . بدأت الفتنة في شهر نيسان وظلت نيرانها تستعر حتى آخر شهر تموز من تلك السنة المشؤومة . كانت الحوادث التي ادّت الى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صبيّان ، ماروني ودرزي ، كما يتشاجر الصبيان . ولكن هذا الحادث ادى الى قتال بين دروز القرية والنصارى فيها واسفر عن مقتل عدد من الدروز اكبر من عدد القتلى من النصارى . وقد حدثت مناوشات متقطعة بين الدروز والنصارى في المناطق التي يقطنها من الفريقين .

١ - [Comte de Paris], *Damas et le Liban* (Paris, 1861), p. 102 .

٢ - انطوان العقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ١٩٢٨) ص ٨٢ - ٩٠ .

Khazin, vol. I, pp. 364, 366, 371 - 2, 384 - 5 .

Churchill, *Druzes*, pp. 111-12 .

ثم حل الشتاء ، وكان شتاء بارداً قاسياً ، فخيل للناس ان هذه الفترة من الهدوء النسبي كانت فترة تهيؤ واستعداد لا مفر منه . وكان مشايخ الدروز يتصلون علناً بخورشيد باشا في بيروت ويجرون معه مفاوضات . ويقال انهم تسلموا اسلحة بواسطته . ولما نشبت الثورة شعر كل مسيحي قاطن في المنطقة الدرزية ان حياته في خطر شديد . وفي خلال اسابيع قليلة احرقت اكثر من ستين قرية من قرى المتن والشوف . والجيش التركي النظامي (باش بوزق) فانه لم يحاول ان يوقف القتال ، بل كان موقفه على نقيض هذا ، فانه اساء معاملة الهاربين اللاجئين الى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه من ثياب واموال .

اما كسروان ومنطقة شمالي لبنان فلم يصبها أذى من هذه الفتنة . ولم يكن لها من اثر حاسم في القتال . فقد جاءت قوتان رمزيتان من تلك المناطق لمساعدة اخوانهم في لبنان الجنوبي وفي المتن . وكان على رأس احدهما يوسف بك كرم من اهدن - وكان زعيماً وطنياً في منطقته - وطانيوس شاهين من ريفون - وقد سبقت الاشارة اليه . غير ان الموظفين الاتراك حاولوا بالوعد والوعيد ان يمنعوا اتصال هذين الزعيمين باخوانهم في الجنوب . وكذلك كان لتدخل فرنسا في الامر يد في وقف هذه المساعدة . اما رجال الدين من الموارنة فكانوا يهاجمون العدو بسيل من الاحتجاجات والشتائم ويشجعون اتباعهم على متابعة القتال بشتى الوسائل والوعود . وقد كان دور الاكليروس في هذه الفتنة اقرب الى الضرر منه الى النفع . اما المعسكر الثاني ، المعسكر الدرزي ، فقد انهالت عليه المساعدات العسكرية من حوران ، اذ جاءتهم نجدة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة اسماعيل الاطرش . واما قائد الثورة في لبنان فقد كان سعيد جنبلات يعاونه خطار العماد وعلي حمادة .

ثم جاء دور المدن . وقد كانت اساليب الثورة في المدن الاساليب ذاتها في الارياض : كان قائد الحامية التركية في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الاسلحة ، ثم يقف يتفرج عليهم يُذبحون . هكذا كان مصير دير القمر حيث قتل ٢,٦٠٠ نسمة . وفي جزين وجوارها قتل ١,٥٠٠ نسمة . وفي حاصبيا قتل من الروم الارثوذكس الف نسمة ، وبصورة بربرية ، من اصل مجموع سكانها

الارثوذكس البالغ ستة آلاف . وفي راشيا هلك ثمان مئة نسمة^(١) . وكانت اوامر قيادة الثورة المتعلقة بحاصبيا ألا يبقى على ذكر من سن السابعة الى السبعين . وقد وقف الثوار القساة يتمتعون ابصارهم باشلاء الاجساد ، الاجساد المختلطة ، كباراً وصغاراً ، في صحن الدار في قصر الشهابيين في حاصبيا . اما زحلة أكبر المدن في داخلية لبنان - وكان عدد سكانها آنذاك ١٢ ألف نسمة - فقد صمدت في بادئ الامر بشجاعة الى ان غلبت على امرها في وجه هجمات جماعات كبيرة من الحوارنة ومن بدو الصحراء . هذه المدينة ، القابعة في وادي بردوني المنساب سلسبيلا من سفح صنين لم ينج بيت واحد فيها من الحريق . ويقال ان الهجوم على زحلة دبره الكولونيل تشرشل متبعاً في ذلك خطة يشوع بن نون في استيلائه على عاي وبيت ايل^(٢) . وقد ازدحمت الطرقات المؤدية من القرى الى مدن الساحل بالهاربين الذين لم ينجوا من تعديات الجند التركي . فقتل مسلمو صيدا نحواً من ثلاث مئة لاجئ . وقد كان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال اشهر ثلاثة وفي بقعة قطرها بضعة اميال اثني عشر الف قتيل . وكانت الخسارة في الاملاك تقدر باربعة ملايين ليرة انكليزية ذهبية . وقد وقعت الفتنة في موسم تربية دود الحرير ، ذلك الموسم الرئيسي في حياة الناس الاقتصادية . ولم يقتصر الخراب والحريق على البيوت بل شمل الكنائس والاديرة^(٣) .

وطارت شرارة من فتنة لبنان فاشعلت نار ثورة دامية في دمشق التي كانت في

١ - راجع : *Further Papers Relating to the Disturbances in Syria*, June 1860 (London, 1860), pp. 40 - 6 .

٢ - راجع القصة في يشوع ، ٨ : ٩ - ١٧ .

٣ - ابكاربوس ص ٤٢ وما يليها . مشاقة ص ١٥٨ - ١٦٨ (وكان مشاقة طبيباً بروتستانياً تعلم على نفسه ، وهو من مواليد رشميا) . حسين غ . ابو شقرا . الحركات في لبنان ، نشره عارف ابو شقرا (بيروت ١٩٥٢) ص ١١٣ - ١٣١ (ومؤلف هذا الكتاب درزي اشترك في القتال) . ثم للاطلاع على الوثائق الرسمية راجع :

Correspondence Relating to the Affairs of Syria, 1860 - 61 (London 1861); De Testa, vol. VI, pp. 67-101; Khazin, vol. II, pp. 1 seq. ; Edward Driault, *La Question d'Orient*, 8th ed. (Paris, 1921), pp. 194 - 5 ; Churchill, *Druzes*, pp. 132 seq. ; Riley, pp. 250 seq. ; Charles-Roux, *France*, pp. 183-6 ; *Souvenirs de Syrie* (Paris, 1903), pp. 32 - 89 .

غليان من جراء سياسة ابراهيم باشا ، ومن جراء قوانين المساواة بين المواطن المسلم والمواطن غير المسلم كما جاء في « خط همايوني » . وقد شجّع اهل دمشق على الثورة ضد المسيحيين عدم معاقبة المجرمين في لبنان وتواطؤ الموظفين الاتراك معهم . فاحرق اهل دمشق الحيّ المسيحي وقتلوا عشرة آلاف نسمة . وقد قتل ثلاثة اخوة من عائلة مسابكي المارونية عند مذبح الكنيسة الفرنسيسكانية حيث كانوا قد لجأوا هرباً من القتل . وفي سنة ١٩٢٦ طوبهم البابا^(١) . وكان مجموع القتلى في العاصمة السورية احد عشر الف قتيل . والاحية الوحيدة المشرقة في هذه القصة الحالكة هي نبل اخلاق عبد القادر الجزائري ، وهو الامير المغربي الذي كان قد لجأ الى سورية هرباً من الافرنسيين في الجزائر ، فقد حمى اكثر من الف نصراني من القتل . اما في لبنان فلم يكن هنالك من امثال عبد القادر .

التهمة

واخيراً تحرك ضمير الدول العظمى . فعقد مؤتمر دعت اليه فرنسا ضم بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا تقرر فيه التدخل لاييقاف المذابح . وقد اتفق على ايفاد قوة قوامها اثنا عشر ألفاً . غير ان فرنسا وحدها نفذت القرار فارسلت جيشاً قوامه سبعة آلاف محارب بقيادة الجنرال بوفور دوتبول . وكان هذا الجنرال الافرنسي قد اشترك في حروب سورية لما كان ضابطاً في اركان جيش الكولونل سيف (Seve) الذي كان قد اعتنق الاسلام واصبح مدير العمليات في الجيش المصري باسم سليمان باشا . ولكن قبل ان وصل الجنرال بوفور بيروت في شهر آب من سنة ١٨٦٠ كان فؤاد باشا وزير الخارجية قد سبقه الى البلاد على رأس جيش واخذ في معاقبة الموظفين الاتراك الذين وقفوا على الحياد او الذين تواطؤوا مع الثائرين في لبنان ودمشق . واخذ يشدد في ملاحقة المجرمين بيد من حديد فقتل نحو من مئة واحد عشر جندياً رمياً بالرصاص وشنق بعض الاهالي وقد قتل عبد القادر الجزائري وساماً رفيعاً لعمله الشريف . وقد شدد النكير على المعتدين من اهل دمشق فعاد الهدوء الى البلاد قبل ان وصل الفرنسيون . وقد شكّل فؤاد باشا لجنة دولية كانت مهمتها اكتشاف المسؤولين عن الفتنة ،

والمجرمين الذين اشتركوا في اعمال القتل وتقدير التعويض عن الخسائر وتقديم الاقتراحات لاصلاح الحكم في جبل لبنان . وكان فؤاد باشا رئيساً لهذه اللجنة فاستطاع بدهائه وتحايله ان يسيطر على اعمالها ويسيرها على هواه . كما انه استغل الخلاف الذي نشب بين اعضاء اللجنة فكان يقول لهم : «سانتظر الى ان يتم الاتفاق بينكم» . او «ساحيل القضية الى حكومتي وانتظر التعليمات التي تردني»^(١) . وكذلك استطاع اللورد دوفرن الانكليزي بدهائه ان يتفوق على موفد نابليون الثالث ويضعف من شأنه . وكان دوفرن يقف الى جانب فؤاد ويدافع عن سيادة تركيا وسلامتها ، وطالب بشدة ان تخفف الاحكام الصادرة بحق الدروز . وكان يماشيه في سياسته هذه ممثلا النمسا وبروسيا . اما فرنسا فكانت تدافع عن وجهة نظر النصاري وتحاول ان تدعم قضيتهم ، وكانت روسيا تقف الى جانبها وقفة المتردد .

وقد تسلمت اللجنة قائمة باسماء ٤٦٠٠ متهم درزي . فحكمت على ٤٨ بالاعدام وعلى ١١ بالسجن المؤبد وعلى ١٣ بالحبس ٦ سنوات ، وعلى ٢٤٩ بالحجر او بالنفي المؤقت^(٢) . ولكن لم يعدم جميع الذين حكم عليهم بالاعدام . فان حكم الاعداد الصادر بحق سعيد جنبلاط استبدل ، وهرب كثيرون من اتباع خطار العماد الى حوران ، وقد نفي حوالي ١٢٠ شخصاً الى طرابلس الغرب . وقد نجا خورشيد باشا من الموت ، ولكن والي دمشق اعدم . وكذلك اعدم قائد حامية حاصبيا . اما خورشيد باشا (والي صيدا) القائد العسكري لموقع بيروت مع بعض الموظفين من ذوي المناصب الدنيا فقد نفوا الى قبرص ومالطة او الى استنبول . وفي دمشق حكم على ثلاث مئة رجل بالاشغال الشاقة مدى الحياة . وقد احضروا مكبلين الى بيروت مشيا على الاقدام ، ومنها نقلوا الى استنبول . ولكن بعد غياب ستة اشهر ، عادوا يظهرون في اسواق بيروت وهم في طريقهم الى دمشق^(٣) .

Souvenirs, pp. 274 - 6.

١ -

٢ - من اراد الاطلاع على اسماء المتهمين عليه ان يراجع :

Edwards, pp. 403-10, cf. Churchill, *Druzes*, p. 222; *Correspondence Relating to The Affairs of Syria, 1860 - 61* (London, 1861), p. 509; Driault, p. 196; *Souvenirs*, pp. 238 seq. 270 seq.

Riley, pp. 87 - 8.

٣ -

وقد قدرت مبالغ التعويضات التي كانت ستدفع للمتضررين بـ ١,٢٥٠,٠٠٠ ليرة انكليزية . وقد اقترح في اللجنة ان يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات . غير ان فؤاد باشا اعترض قائلاً ان الدولة العلية ستدفعها من خزينتها . ولكن الخزينة العثمانية دفعت قسطاً ضئيلاً منها ثم امتنعت بعد ذلك عن الدفع واعتبرت الامر منتهياً . وقد اعلن الباب العالي العفو العام على ان لا يشمل العفو اولئك الذين هربوا الى حوران^(١) . اما حالة اللاجئين والهاربين من النصارى فقد تردت كثيراً . فانه فضلاً عن المجاعة التي اصابتهم فقد انتشرت بين جموعهم امراض فتاكة تنتقل بالعدوى كالتيفوس والتيفوئيد والزحار وغيرها من الامراض التي اودت بحياة كثيرين . ونساء كثيرات اخذن عنوة الى حريم الرجال الذين سبوهن ، واخريات بعن اولادهن بيع العبيد^(٢) .

اعادة تنظيم الحكم

اما فيما يتعلق باعادة تنظيم الحكم في لبنان فان فرنسا اقترحت الغاء التقسيم الى قائممقاميتين واعادة البلاد الى وحدتها وجعلها ولاية مستقلة يحكمها ماروني كما كانت الحال عليه قبل سنة ١٨٤٠ . وقد رشع الجنرال الافرنسي بوفور الامير مجيد بن الامير بشير الكبير لذلك . اما الجنرال ديكر ، وكان الجنرال الثاني في قيادة الجيش الافرنسي في لبنان، فقد كان يميل الى تنصيب يوسف بك كرم الذي ولاه فؤاد باشا قائممقامية النصارى . وكذلك ممثل فرنسا في اللجنة فانه كان يأخذ بوجهة نظر الجنرال ديكر في تفضيله يوسف بك كرم^(٣) . وكان يوسف من مشايخ اهدن ، وتعلم في عنطورا عند اليسوعيين فكان يحسن الافرنسية ويميل بجوارحه الى الثقافة والحضارة الافرنسيتين . وكان ابوه يستضيف السياح الافرنسيين وهم في طريقهم الى زيارة الارز . وكان يوسف بك كرم شاباً وسيماً شجاعاً دمث الخلق وقور الشخصية محبوباً بين قومه وعشيرته . وقد عضدت روسيا

١ - يقول ابو شقرا (ص ١٣٣) ان حوالي ثلاثة آلاف رجل هربوا الى حوران محملين بالغنائم والاسلاب .

٢ - *The World* (New York, April 23, 1861.) .

٣ - *La Vie militaire du Général Ducrot*, vol. II, pp. 1-2.

اقترح فرنسا، دون ان تتحمس للامر كثيراً غير ان الاقتراح لاقى مقاومة عنيفة من قبل العثمانيين يعصدهم في ذلك البريطانيون . وفي التاسع من شهر حزيران ١٨٦١ وقّع في استنبول على نظام جديد للحكم في لبنان يعرف بنظام ١٨٦١ الذي جرى تعديله بعد مضي ثلاث سنوات . وقد ظل هذا النظام معمولاً به الى نشوب الحرب العالمية الاولى . وقد وقعت عليه كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا . وبموجبه اعيد لبنان ولاية مستقلة (متصرفية) يحكمها متصرف مسيحي يعينه الباب العالي وتوافق على تعيينه سائر الدول الموقعة على الميثاق . واصبح استقلال لبنان الآن حقيقة معترفاً بها على صعيد دولي ، واصبح استقلاله اسراً تضمنه الدول الاوروبية . وعندما انضمت ايطاليا سنة ١٨٦٧ الى مجموعة الدول الموقعة على ميثاق ١٨٦١ و ١٨٦٤ اصبح عدد الدول سبعة .

وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٦١ اخذت بريطانيا تضغط على فرنسا لتسحب جيوشها من لبنان . وبكثير من التردد قبلت بريطانيا ان تمديد مهلة الانسحاب الى الرابع من حزيران من تلك السنة . وقبل ان تنسحب الجيوش الافرنسية من لبنان ساهمت في اعمال الغوث وفي اعادة بناء وترميم الخراب الذي حل بزحلة ودير القمر وحمانا وقرى اخرى^(١) . وقد خلفت الحملة اثرأً كتابياً عند مصب نهر الكلب .

كان هذا النظام الجديد خاتمة عهد من القوضى والعنف ، عهد اورث الحقد والكراهية التي لم يستطع لبنان ان يمحو آثارها محواً تاماً . وكان النظام الجديد فاتحة عهد يعرف بعهد متصرفية جبل لبنان . وهو موضوع الفصل التالي

Ernest Louet, *Expédition de Syrie* (Paris, 1862), pp.

(ومؤلف هذا الكتاب كان امين الخزينة في الحملة الافرنسية الى لبنان) . 123, 138, 146 .

الفصل الثلاثون

متصرفية جبل لبنان

لقد حصل لبنان الذي شغلت قضيته الدول الأوروبية الكبرى سنتين (١٨٦٠-١٨٦١) على انظمة لادارته لا تكاد تشغل صفحتين . وانه لمن الصعب ان تدار شؤون بلاد جديدة بدستور عدد بنوده سبعة عشر بنداً^(١). ان التعديلات التي طرأت على هذا النظام في السادس من ايلول عام ١٨٦٤ كانت تعديلات جزئية طفيفة لم تكن بذي بال^(٢). فان مدة ولاية المتصرف مددت من ثلاث الى خمس سنوات . واصبح تجديد ولايته عند انقضاء المدة القانونية امراً ممكناً . وكان المتصرف مسؤولاً لدى الباب العالي . وبوصفه رئيساً للسلطة التنفيذية فانه كان يجمع الضرائب ، ويعين القضاة وينفذ الاحكام الصادرة عن المحاكم ، كما انه كان مسؤولاً عن احوال الامن والنظام . وكان يعاونه مجلس منتخب يعرف بمجلس الادارة الذي كان يضم اثني عشر ممثلاً عن الطوائف الدينية المختلفة ، خمسة منهم يمثلون النصارى . ولم يكن لبنان المتصرفية في حدوده آنذاك يشمل البقاع ووادي التيم - اللذين يعود خصب التربة فيهما الى انجراف التربة من اعالي الجبال بواسطة الامطار والرياح ، والى الينابيع المتفجرة من قلب الجبال - كما ان بيروت وصيدا فصلتا عنه . وهذه جميعها كانت من قبل اجزاء من لبنان . وهكذا وضعت موانئ لبنان القديمة ، بيروت وصيدا وطرابلس ، تحت اشراف الدولة العلية المباشر . وفي الواقع لم يكن لبنان المتصرفية لبنان المعنيين والشهابيين ، بل كان الجزء الجبلي منه فقط . وقد قسم لبنان الى سبعة اقصية . على رأس كل قضاء قائم مقام .

١ - للاطلاع على النص راجع :

British and Foreign State Papers, 1860—1861, vol. LI (London, 1868), pp. 288—92 .

٢ - للاطلاع على هذه التعديلات راجع :

Thomas E. Holland, *The European Concert in The Eastern Question*, (Oxford, 1885) pp, 212—18 .

ويكون القائم مقام من الطائفة التي تمثل الاكثرية في القضاء . وعلى هذا فقد كان توزيع القائم مقاميين على هذا النحو : ثلاثة من الموارنة ، ودرزي واحد ، ومسلم واحد ، وروم ارثوذكس واحد ، وروم كاثوليك واحد . وكان كل قضاء مقسماً الى مديريات . وكان القضاء في الامور البسيطة الثانوية في ايدي مشايخ^(١) تعينهم الحكومة او ينتخبهم الشعب . وقد احتفظ بالحكام الكنسية التي كان لها صلاحية النظر بامور الاكليروس فقط . والى الدستور الجديد امتيازات رجال الاقطاع ومنح جميع الرعايا حقوقاً متساوية ، كما نص على اجراء احصاء للسكان ومسح الاراضي . وقد احتفظت حكومة الجبل بمحاكمها وبقضاائها . وكانت تحافظ على الامن بواسطة احتياطي محلي . ولم يسمح للجنود الاتراك بدخول البلاد . واعفي السكان من الخدمة العسكرية الاجبارية ومن دفع خراج الى الباب العالي . بل كانت تفرض الضرائب على نحو ما تقتضيه نفقات الحكومة المحلية . واذا كان هنالك من مال فائض في الميزانية فقد كان يرسل الى خزينة الدولة العثمانية على ان تدفع الخزينة العثمانية قيمة العجز اذا وقع شيء من ذلك في ميزانية الحكومة اللبنانية .

كان اول متصرف عين لمتصرفية لبنان داود افندي ، وهو رجل ارمني المولد كاثوليكي المذهب ، ومدير التلغراف في استنبول . وقد ألّف كتاباً بالفرنسية عن الشرائع الانكلوسنكسونية . اختار قصر الامير بشير في بيت الدين مقراً له ، وكانت عاصمته الشتوية بلدة بعبد حيث انشئت سرايا فخمة في عهد خليفته الثالث . ولم يشر الدستور الى امكان تولي لبناني منصب المتصرف ، ولذا ظل يوسف بك كرم يتطلع اليه . وقد عرض عليه داود باشا قائممقامية جزين ولكنه رفضها ، وعرض قائممقامية كسروان على الامير مجيد ابن الامير بشير فقبلها . اما يوسف بك كرم فانه ارسل كتاباً مفتوحاً موجهاً الى الفاتيكان وباريس ، وفيه يحتج على كون حاكم البلاد غير لبناني ، وعلى الصلاحيات المطلقة التي كان يتمتع بها ، وعلى تحديد بعض الاقضية المسيحية ، وعلى الفصل في القضايا التجارية في محاكم خارج لبنان (في بيروت) ، وعلى سد العجز في ميزانية لبنان من مال الخزينة العثمانية مما يجعل لبنان

١ - هؤلاء المشايخ هم غير المشايخ الاقطاعيين الذين كانوا يمثلون ادنى مراتب الاقطاعية ، وغير مشايخ الدين .

خاضعاً لسلطة الباب العالي^(١). وقد اعلن العصيان ورفع لواء الثورة وخاض بعض المناوشات الدامية . ولكن قبل ان ينصرم العام (١٨٦١) كان داود باشا قد القى عليه القبض وارسله الى استنبول . ولكنه ظل يؤمل انه سيعين يوماً متصرفاً عندما تنتهي ولاية داود باشا . ولكن في سنة ١٨٦٤ عندما جددت ولاية داود باشا رجع يوسف بك كرم الى شمالي لبنان خلسة ليستمر في ثورته . غير انه ، بوساطة فرنسا التي كان لها حق التدخل بصفتها احدى الدول الموقعة على البروتوكول ، نفى اولاً الى الجزائر ، ثم الى باريس ، ومن بعدها الى نابولي حيث توفي عام ١٨٨٨ وهو في الثالثة والستين من عمره^(٢) . ولم تكن فرنسا وحدها قد خيبت الآمال التي كان قد عقدها على مساعدتها ، بل ان الاكليروس ايضاً تخلوا عنه . وقد نقل جثمانه الى مسقط رأسه اهدن ووضع في كنيسة ليعرض على الناس . ويقولون ان جثمانه غير محنط ولكنه لم يبل ، مما جعل الناس ينظرون الى هذه الظاهرة انها دليل على حياة طهر وقداسة . وقد اقيم له تمثال نصب في مقبرة الكنيسة . وقد خلد اسمه في شمالي لبنان على انه زعيم وبطل وطني .

ومن جهة ثانية قامت معارضة اخرى : معارضة رجال الاقطاع – وجلهم من الدروز . وقد لاقت معارضتهم عند عامة الناس استحساناً ورواجاً بسبب فداحة الضرائب على الطبقات الدنيا . ولكن الحق يقال ان داود باشا استطاع ان يتجنب العاصفة ، فوطد الامن والاستقرار وتمكن من تطبيق احكام الدستور . وفي احدى خطبه امام اعيان اللبنانيين ضرب لهم المثل الآتي :

مرض طبيب فاستدعى طبيباً زميلاً له وقال : نحن ثلاثة انت وانا والمرض . فاذا اعنتني قهرنا المرض ، واذا اعنت المرض فتكون قد قهرتني انا . وهكذا نحن في لبنان ثلاثة : انتم الشعب ، وانا الحاكم ، والعداوة التقليدية بين طوائف لبنان وشيعة .

١ - بطرس ب. كرم : قلائد المرجان في تاريخ جبل لبنان ، الجزء الأول (بيروت ١٩٣٢) ص ١٩١ - ١٩٢ .

٢ - الدبس ، تاريخ سوريا ، الجزء الثامن ص ٧٢٦-٧٣٣ (وكان المطران الدبس علاقات شخصية مع يوسف كرم) واوفى المعلومات عن يوسف بك كرم تجدها في « لبنان ويوسف بك كرم » لاسطفان البشعلاني (بيروت ١٩٢٥) ص ٣١٢-٦٤٤ . نسيم نوفل : بطل لبنان (الاسكندرية) ص ٢٢٤-٢٤٨ .

فساعدوني وأؤكد لكم اننا سنتنصر . ساعدوا العداوة والبغضاء فتجلبوا الخراب والدمار عليّ وعلى انفسكم^(١) .

وقد بدأ هذا المتصرف ، داود باشا، عهده بنشاط وحزم . فانه طلب الحاق البقاع ببلبنان ، وارسل الى استنبول طلب اهالي صيدا بالالتحاق ببلبنان . وفي سنة ١٨٦٣ انتهت شركة افرنسية ، بعد اعمال دامت خمس سنوات ، شق طريق العربات بين بيروت ودمشق — اول طريق من نوعها في البلاد . وانشأت الشركة خط مواصلات كانت العامة تعرفه بخط الدليجانس (diligence) — اي عربات كبيرة يجرها عدد من الجياد — يسير مرتين يوميا بين بيروت ودمشق . وكانت هذه العربات تقطع المسافة بين بيروت ودمشق (٦٠ ميلا) في اربع عشرة ساعة . وفي تلك الايام بدأت عربات الخيل تظهر في شوارع بيروت . واصبحت هذه الطريق بين بيروت ودمشق خطاً رئيسياً لنقل البضائع وطريقاً تتفرع منه الطرقات الثانوية شمالاً ويمينا فتربط قرية باخرى . وفرضت الشركة صاحبة الامتياز ضريبة على المكارين قدرها ثلاثة فرنكات على البغل الذي يسير على هذه الطريق الجديدة . وهكذا ثبتت عزائم المكارين وارغمتهم على أن يستعملوا الطرقات الترابية القديمة^(٢) . وفي سنة ١٨٦٧ اصدر السلطان قانوناً يسمح بموجبه للاجانب ان يقتنوا ، لأول مرة في تاريخ السلطنة ، املاكاً . وقد شق داود باشا طريقاً للعربات تربط بين بيروت ودير القمر وعاصمته بيت الدين . وقد اصلحت الطريق فيما بعد في عهد خلفه الثاني والثالث ووسعت واضيفت اليها تحسينات فاصبحت احدى الطرق المعبدة التي تسير في معابر الاودية ومنعطقات الجبال رابطة قرية باخرى^(٣) . وفي بلدة عبيه اسس مدرسة عالية لا تزال تعرف باسمه « الداودية » ودبر شؤونها بان جعل الوقف الدرزي ينفق عليها . وهي مدرسة لا تزال الى يومنا هذا يؤمها الطلبة من الجنسين.

— ١ — Jessup, pp. 266—7 .

— ٢ — Harper's New Monthly Magazine, vol. XLI, (New York 1870), p. 53. Éleuthère Elefériadés, *Les Chemins de fer en Syrie et au Liban* (Beirut, 1944), pp. 37—40 .

— ٣ — Thomson, *Lebanon*, pp. 125—6, 151; Jessup, p. 234 .

سبعة متصرفين

كان المتصرفون الذين خلفوا داود باشا ، باستثناء المتصرف الثالث ، رستم باشا ، ينحدرون نحو الفساد والسوء . كان رستم باشا شبيه سلفه داود في الاستقامة والعناية بمصالح البلاد . فانهم جميعاً كانوا يهتمون اولاً بان ينالوا عطف الباب العالي ، وكانوا يحرصون على ان يكافأوا عند عودتهم الى استنبول بمناصب ارفع ومراكز تدر عليهم المزيد من المال .

رفع داود باشا استقالته قبل انتهاء ولايته بسنة واحدة . ويبدو انه استقال تحت ضغط الباب العالي ، وخلفه نصري فرنكو باشا (١٨٦٨ - ١٨٧٣) وهو اوروبي الاصل حلبي المولد . وكان يشغل وظيفة في اركان جيش فؤاد باشا في بيروت . لم يطالب فرنكو كما طالب قبلاً داود باشا بالحاق البقاع وصيدا بلبنان ، لا بل ان تعليمات صدرت اليه من الدوائر التركية العليا بان يهمل الطلب الذي كان قد تقدم به اهالي صيدا طالبين الالتحاق بلبنان . وعند بدء ولاية فرنكو كان السلطان قد اصدر قانوناً صارماً يقضي بمراقبة كل ما ينشر . فكان هذا سبباً في ظهور مطابع وجرائد عديدة في جبل لبنان حيث لم يكن لهذا القانون من مفعول . واعلنت الحكومة العثمانية القوانين والشرائع كما تتضمنها « المجلة » المبنية على المذهب الحنفي في الفقه والتي تتناول المبيع والشراء والايجار والقروض والشراكة وخلافها من الامور . والى جانب احكام المجلة فقد انشئت المحاكم المدنية المبنية على انظمة من القوانين العلمانية العصرية^(١)

كان رستم باشا (١٨٧٣ - ١٨٨٣) نبيلاً ايطالي المولد . وكان سفيراً لبلاده في سانت بطرس برج ومرشحاً لسفارة لندن دشن عهد ولايته بتحديث سلطنة الاكليروس الماروني ونفوذ المتزايدين ، وكان سلفه داود قد سعى لاستمالتهم واقناعهم بصلاح النظام الجديد . فانه عندما اخذ الاقطاع الماروني والارستقراطي

Herbert J. Liebesny, « Impact of Western Law in The Countries of The Near East », *The George Washington Law Review*, vol. XXII (1935), pp. 127-41 .

يفقد سلطته ونفوذه اخذ الاكليروس الماروني يحل محله رويداً رويداً . وكان البطريرك الماروني، من بين جميع رؤساء الطوائف الروحيين ، الرئيس الروحي الوحيد الذي كان يمارس سلطته على رعايا كنيسه بدون براءة رسمية من السلطان . وقد اصر بطارقة الموارنة على رفض طلب البراءة من الباب العالي .

كان رستم باشا في حال وقوع عجز في الميزانية اللبنانية يطلب الى ناظر الخزينة العثمانية ان يبعث اليه بهذا العجز الذي كان قدره في غالب الاحيان خمساً وعشرين الف ليرة عثمانية ذهبية . غير ان تعليمات صدرت اليه ان يكف عن طلب العجز . فما كان منه الا ان خفض رواتب الموظفين الى نصف ما كانت عليه ممهداً بذلك السبيل لتفشي الرشوة والبخشيش الذي وصل الى حالة مخزية في عهد ولاية خلفه واصله باشا (١٨٨٣ - ١٨٩٢) الذي لم يسلم هو ذاته من الاتهام بانه كان يرتشي . وقد تميز عهد ولايته بهجرة خطيرة لقسم كبير من المواطنين اللبنانيين الى مختلف الاقطار عبر البحار وفي عهد ولايته عبد الطرق الرئيسية التي تربط بين زحلة وعاليه وكفرشما ودير القمر وبين بيروت . كذلك عبد الطريق الشمالي من بيروت الى الدين . وجعلها جميعها صالحة لمرور العربات . وكمل الطريق الشمالي من بيروت الى جنوبي طرابلس . وفي سنة ١٨٨٨ انشئت ولاية بيروت وفصلت عن دمشق . وكلا المتصرفين واصله وفرنكو توفيا قبل نهاية ولايتهما ودفنا باحتفال رسمي في الحازمية في مكان لا يزال يعرف الى يومنا هذا بقبر الوالي على طريق بيروت - دمشق عند سفح الجبل . اما نعوم باشا ، صهر فرنكو ، وخلف واصله (١٨٩٢ - ١٩٠٢) ، فقد جددت ولايته مرة ثانية وفي كلتا الولايتين لم يتميز حكمه بشيء يذكره له التاريخ . غير انه اكمل الطريق الشمالية الى طرابلس والجنوبية الى صيدا . وفي السنة الاولى من ولايته بدأت شركة سكة بيروت - دمشق - حوران الحديدية بانشاء السكة الحديدية التي اكملت سنة ١٨٩٥^(١) . وفي عهد مظفر باشا (١٩٠٢ - ١٩٠٧) الذي كان بولندي الاصل بلغ الفساد في الحكم مبلغاً لم يعرف مثله من ذي قبل . حتى ان افراد عائلة مظفر باشا كانوا يُتَّهمون باستغلال البلاد

Vital Cuinet, *Syrie, Liban et Palestine* (Paris, 1896), pp. 42-3; 360-2. M. Jouplain, *La Question du Liban* (Paris, 1908), pp. 551-2 ; Comité de L'Orient, *Les Oeuvres françaises en Syrie* (Paris, 1919), pp. 3-9.; Éléstériadés, pp. 43 seq .

وباستغلال ساكنيها . وكان مظفر قد وعد باجراء الاصلاح في القضاء وفي الحياة الاقتصادية ولكنه لم يف بوعده، ولم يحقق اي اصلاح اما عهد المتصرف يوسف فرنكو (١٩٠٧ - ١٩١٢) ابن المتصرف الثاني، فقد تميز بتدمير الشعب ومطالبته بالاصلاح وذلك بسبب «وجه التفاؤل التي بعثتها ثورة ١٩٠٨ . وبلغ التدمير والتمليل اشده بين الناس في عهد خلفه الارمني اوهانس كويوجيان الذي كان متصرفاً اثناء الحرب العالمية الاولى كان اوهانس آخر متصرف عرفه لبنان . وفي اثناء الحرب العالمية الاولى ، سنة ١٩١٥ ، اقام الاتراك حاكماً تركياً . وظل الحكم التركي المباشر معمولاً به الى ان احتل الحلفاء لبنان سنة ١٩١٨^(١) .

نواح مشرقة :

انه بالرغم من فساد حكم المتصرفين وسوء ادارتهم ، وبالرغم من اقتطاع اجزاء كبيرة من لبنان، وسد النوافذ عليه للوصول الى البحر ، وحرمانه من المناطق الخصبية الساحل والبقاع ، فان لبنان - بفضل نشاط سكانه وحسن تدبيرهم وقدرتهم على التكيف - كان ينعم بفترة ازدهرت فيها الثقافة والاقتصاد ، وتوطدت فيها اسباب الامن والاستقرار مما اعطى لبنان قصب السبق بين سائر الولايات العثمانية الاسيوية أو الأوروبية. فقد ازدهرت على سفوحه الصخرية قرى عديدة تحيط بها الكروم والبساتين والمزارع والمدرجات كأنها جنائن معلقة . وكان لبنان يعد من احسن مناطق الشرق الادنى حكماً وازدهاراً اقتصادياً وامناً وهناءً^(٢) . فانه في خلال عشرين او ثلاثين سنة ارتفع سعر الارض والممتلكات مئة ضعف . ويجب ان يكون المثل اللبناني المشهور « هنيئاً لمن له مرقد عزة في جبل لبنان » قد وضع وشاع في هذه الاثناء .

١ . للاطلاع على المزيد من هذه الحقبة راجع :

George-Samn , *La Syrie* (paris, 1920), pp. 209 - 32 ;

الدبس ، الجزء الثامن ، ص ٦٨٥ - ٦٨٧ . المسعودي (بولس مسعد) الدولة العثمانية في

لبنان وسورية (القاهرة ١٩١٦) ص ٧٤ - ٧٩ .

٢ - Cf. William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors, 1801-1927* (Cambridge, 1936), pp. 300-3; Charles E. D. Black, *The Marquess of Dufferin and Ava*, (London, 1903), p. 59; Jessup, pp. 211-12 .

ولم تكن حركة الستين كلها شؤماً وظلاماً . فقد كان لها ، فضلاً عن كونها السبب المباشر في استقلال لبنان وضمان استقلاله من قبل الدول الأوروبية ، نواح أخرى مشرقة . فانها استثارت عطف الدول البروتستانتية نحوه . ففي الفترة الواقعة بين آب وايلول من تلك السنة قدمت لجنة انكلوسكسونية في بيروت جلّ اعضائها من المرسلين المقيمين في البلاد الغوث والعون الى عشرين الف لاجئ^(١) . واصبحت المؤسسات العلمية والخيرية التي كانت قد تأسست قبل هذه الفترة مؤسسات دائمة تقوم على دعائم متينة واسس ثابتة . ونشطت المؤسسات التربوية الافرنسية والكاثوليكية الاخرى ، بعد ان كانت قد انقطعت عن العمل اثناء ١٨٦٠ ، وتابعت اعمالها بقوة وحماس جديدين . وانتقل معهد اللاهوت اليسوعي الذي كان قد تأسس في غزير سنة ١٨٤٦ (حيث كتب ارنست رينان كتابه المشهور « حياة المسيح » سنة ١٨٦٠) الى بيروت سنة ١٨٧٥ واصبح النواة التي نشأت حولها جامعة القديس يوسف اليسوعية الحالية في بيروت . وانشأ اليسوعيون مدارس اخرى عالية للصبيان في زحلة وتعنابل وبكفيا وجزيث . وفي سنة ١٨٤٦ شرعت راهبات القديس يوسف من مرسيليا بانشاء مدارس داخلية وخارجية ومياتم ومؤسسات خيرية في بيروت وصيدا وصور وحمانا وفي غيرها من القرى اللبنانية . ثم تلاهن بعد ذلك سنة ١ٸ٧١ راهبات الناصرة من ليون ، ثم راهبات العائلة المقدسة فراهبات الراعي الصالح . وتأسست سنة ١٨٥٣ رهبنة وطنية تعرف بجمعية المريمات التي اتبعت في نظامها النظام الافرنسي . وكان مقرها بكفيا ، ومن بكفيا خرجت الراهبات ليؤسسن عشرين مدرسة في القرى المجاورة . وقد كان عدد البنات التلميذات في مدارس هذه الرهبنة مع رهبنة اخرى مقرها زحلة سنة ١٩١٤ ستة آلاف ابنة موزعات في مدارسها البالغ عددها الثلاثين . وفي هذه الحقبة كان لفرنسا في سورية ولبنان وفلسطين خمس مئة مدرسة تمثل عشرين مجتمعاً طائفيّاً تضم بين جدرانها خمسين الف تلميذ وتلميذة^(٢) .

١ - Jessup, pp. 251, 811 ; Anderson, vol. II, pp. 350 - 1 .

٢ - Ristelhueber, pp. 74 - 92, 261 - 2, 279 - 80 ; George-Samn , pp. 184 - 208 ; Lubnan, pp. 202 - 8, 465 s q., 470 ; Khairallah, pp. 44 - 6 ; Chambre de Commerce de Marseille, *Congr s fran ais de la Syrie : S ance et travaux*, fascicule III (Paris, 1919) .

وفي شهر تشرين الاول سنة ١٨٦٠ جاءت الارسالية الانكليزية السورية واسست لها مدارس للصبيان وللبنات في بيروت وزحلة وبعبك وعين زحلنا وشملاان وحاصبيا . وفي تلك السنة ذاتها فتحت مدرسة لتدريب المعلمات في مدينة بيروت ، وهي لا تزال الى يومنا هذا وتعدّ من احسن المعاهد لتدريب المعلمات للمدارس الابتدائية والثانوية . وقبل انتهاء السنة جاءت الراهبات البروسيات اللواتي كنّ بتخصصن في المياثم والمستشفيات وأسن هن مركزاً في صيدا . ومن ثم انتقلن الى بيروت . وقد اختار فرسان القديس يوحنا بيروت مركزاً لتأسيس مستشفى كان يعرف بمستشفى القديس يوحنا . وقد وهبهم فؤاد باشا ، وزير خارجية الدولة التركية ، قطعة ارض على هضبة صخرية في رأس بيروت لبنوا فيها مستشفاهم (وكان يعرف بالمستشفى الالماني وهو الآن مقر السفارة الفرنسية بالقرب من الجامعة الاميركية) . وكان المستشفى الالماني من احدث المستشفيات في المنطقة باسرها . وكانت الراهبات المرضيات يدرن شؤونهن ويعتنين بالمرضى . وبعد زمن اخذ اساتذة كلية الطب في الكلية السورية الانجيلية (وهي اليوم الجامعة الاميركية في بيروت) يمارسون مهنتهم في هذا المستشفى . وفي مستهل سنة ١٨٦٣ اتخذت الارسالية الاميركية ، قراراً بتأسيس كلية للتعليم العالي كانت تعرف بالكلية السورية الانجيلية والتي هي اليوم الجامعة الاميركية في بيروت .

وقبل ان ينصرم العام كانت الارساليات الاميركية قد أسست لها مراكز في عبيه وسوق الغرب وصيدا وحاصبيا وطرابلس ، وانشأت فيها مدارس في تلك السنة وبعدها . وثلاث من هذه المدارس لا تزال قائمة الى عهدنا هذا^(١) وفي سنة ١٨٧٧ اضيف الى مدرسة سوق الغرب قسم للطلبة الداخليين . ومنذ مدة قصيرة استلمت ادارتها هيئة من خريجيها القداماء وجعلوا منها مدرسة ثانوية ممتازة . وفي سنة ١٩٠٩ أنشأت الارسالية الاميركية مصحاً للمصدورين في المعاملتين بالقرب من جونبة ، اسسته الدكتورة ماري ادي احدى المرسلات الاميركيات . وقبل

Frederick J. Bliss, *The Reminiscences of Daniel Bliss*, - ١
(New York, 1920), pp. 166 seq. ; Jessup, pp. 254, 811 ; Roderick D. Mathews and Matta Akrawi , *Education in Arab Countries of the Near East* (Washington, 1949), pp. 499 - 502 .

ذلك كانت قد مارست الطب سنوات في صيدا وجوارها . وعلى الأرجح انها كانت اول امرأة مارست مهنة الطب في السلطنة العثمانية بإجازة رسمية . وقد نقل المصحح بعد ذلك الى الشبانية بالقرب من حسانا وهو مصحح مشهور نالآن يعرف بمصحح هملن . وفي سنة ١٨٩٧ أسس مرسل الماني اسمه ثيوفيلوس ولده ميتر - وهو الذي بنى المدرسة الانكليزية لجمعية الاصدقاء في برمانا - أول مستشفى للمصابين بالامراض العقلية في مكان قرب الحازمية يعرف بالعصفورية^(١) . وقد ظل هذان المصححان - مستشفى الامراض العقلية في العصفورية ومصحح الشبانية لامراض السل - المصححين الوحيدين في البلاد مدة عشرات السنين . وكان المرضى يأثونه من جميع اقطار الشرق الادنى حتى من اماكن نائية كإيران . وكان الناس الى سنة تأسيس مستشفى العصفورية (١٨٩٧) - وفي الولايات المتحدة الى سنة ١٨٥٠ - يعتقدون ان العلاج الوحيد للمصابين بالامراض العقلية هو الحجر عليهم وربطهم بالحبال وتقييد ايديهم بالاغلال . وكان الموارنة يرسلون المصابين بالجنون الى دير قزحيا للحجر عليهم في غرف مظلمة والصلاة من اجلهم .

لقد فاق لبنان سائر الاقطار العربية المجاورة له في تجاوبه مع المدنية الغربية تجاوباً تلقائياً وتجاوباً حميداً . ولم يتنع ان يأتي الغرب اليه . بل كان يسعى ان يذهب هو نفسه الى الغرب . وفي السنوات العشر او العشرين التي تلت سنة ١٨٦٠ هاجر اللبنانيون الى زوايا الدنيا الاربع طالباً للعيش الرفيع . وفي خلال نصف قرن من الزمن استحال لبنان فعلاً من بلد يعيش في العصور المتوسطة الى بلد عصري . ولقد أظهر النكولونيل تشرشل بعد نظر عجيب (لولا بعض التحيز الانكليزي) في تنبؤه عن مستقبل لبنان اذ كتب سنة ١٨٥٣ :

« عندما ينفصل لبنان عن السلطنة التركية يجب ان يصبح ولاية انكليزية او دولة جديدة مستقلة . وبالرغم من انه بلد لا مطمع له في التوسع الجغرافي ، وبالرغم من انه لا يملك قوة عسكرية يُخشى جانبها فانه يستطيع كدولة مستقلة ان يحافظ على كرامته وهيئته . وسيكون لبنان حريصاً بصورة خاصة على رسالته التي

من اجلها وجد ، والتي بفضل موقعه الجغرافي يستطيع إداءها على اتم وجه ، نعني ان يكون مركزاً تجارياً ممتازاً يجذب اليه مختلف الاجناس البشرية المتباينة المتباعدة فيوحد بينها برباط من الانسانية والاخوة والصفاء^(١) .

الفصل الحادي والثلاثون

رفع مرتبة الغرب على لبنان والبنفلة العصرية

كان لبنان بفضل مجاورته للبحر ، وبفضل اكثرية سكانه المسيحية ، وبفضل اتجاهه نحو الغرب منذ العهد الفينيقي فالروماني - البيزنطي الى ايام فخر الدين المعني والامير بشير ، اسرع تجاوباً مع تيار الافكار العصرية الغربية واكثر ميلاً لتقبل الحضارة الاوروبية. فقد كانت الستائر التي اسدلها الاتراك على سائر الولايات اشد كثافة من الستائر التي اسدلوها حول لبنان ، فلم تستطع اشعة النور ان تنفذ الى تلك الولايات كما نفذت الى لبنان. وبينما كان اهتمام الاتراك منصبا على انشاء شبكة من الطرق التي تربط بين اجزاء امبراطوريتهم في الشرق الادنى وبين الممالك المجاورة لهم كانت الدول الغربية تتطلع الى طريق جديدة توصلهم الهند فالشرق الاقصى. ولم تكتف اوروبا بانها اكتشفت طريقاً الى الهند بالسفر بحراً حول افريقية بل انها وفقت ايضاً عن طريق المصادفة الى اكتشاف القارة الاميركية: الشمالية والجنوبية. فازداد الشرق العربي تحت الحكم العثماني عزلة وانكماشاً ، وهذه العزلة وهذا الانكماش كانا من اسوأ ما اصاب العالم العربي من شرّ فانه ادى بالعرب الى شبه سبات صدّ عنه تيارات الفكر الخارجية المعاصرة اللازمة لكل تلقيح فكري منتج. في هذه الاثناء عندما وقع العرب في هذا السبات الفكري كانت اوروبا تشق حجب المجهول باكتشافاتها العلمية وبوسائلها التقنية مما دفع بها الى آفاق اجتماعية واقتصادية جديدة ، بحيث اتسعت الهوة الاجتماعية الاقتصادية بينهما. ولكن لما شقت ترعة السويس سنة ١٨٦٩ واختصرت الطريق البحرية المباشرة بين الشرق والغرب ، وانشئت الخطوط الحديدية وطرق السيارات المعبدة ، واخيراً لما اصبح الشرق الادنى نقطة هامة في المواصلات الجوية ، نقول لما تطورت طرق المواصلات هذه عادت الى الشرق الادنى اهميته الاستراتيجية التاريخية كصلة بين الشرق والغرب. وفضلاً عن هذا فان الشرق الادنى ذاته اخذ يستيقظ من سبات العصور المتوسطة ليلحق بركب الحضارة والتقدم. وقد صدق من شبه طرق المواصلات

بالجهاز العصبي للحضارة العصرية .

وبالرغم من ان لبنان كان منذ اقدم الازمنة التاريخية على اتصال جغرافي وفكري باوربية فإن التغييرات الجذرية في حياة لبنان لم تحصل الا في القرن التاسع عشر ، ولم يأخذ لبنان باسباب المدنية العصرية الا في هذا القرن . ولقد طبع هذا التغلغل الحضاري الفكري الغربي لبنان واللبنانيين بطابع مميز ، واصبح لبنان رائداً في تقريب الحضارتين الغربية والشرقية ، وفي التوفيق بين عناصرهما المتباينة . ولان لبنان اول بلد حرر نفسه من قوقعة القديم فانه اصبح مركز اشعاع فكري - وكثيرون من ابنائه يسمونه بلد الاشعاع - يشع منه نور الفكر والتحرر الى البلدان العربية المجاورة . وفي تجاوبه مع الحضارة الاوربية يختلف لبنان عن تركيا في أن تركيا فرضت الحضارة الغربية على ابنائها بقانون كانت تعاقب بموجبه من لا يتقبل الحضارة الغربية . ويختلف كذلك عن سائر الاقطار الشرقية والافريقية في ان السياسة والاقتصاد وجدا سبيلهما الى هذه البلدان اولا ثم الافكار الحضارية ثانياً . بينما كان تقبل الحضارة الغربية في لبنان والتجاوب معها تلقائياً وتدرجياً ذلك لانه تعرض اولا للافكار الغربية بصورة طبيعية ، ولمس الحياة الغربية عن كذب . ويكلام آخر لم تفرض عليه فرضاً ولا اجبر على تقبلها . وقد اختار المرسلون قرى لبنان الجميلة ذات المناخ الصحي نقطة الانطلاق مخالفين بذلك العرف الشائع الذي يبدأ بالمدن كنقطة انطلاق في تحضير البلاد وفي التأثير عليها . ولم تكن حملة نابليون ولا الحملة المصرية العامل الرئيسي الفعال في احداث التغييرات الجذرية في الحياة اللبنانية ، بل كان تمهيد السبيل لتغلغل الافكار الحديثة هو العامل الرئيسي في ادخال الحضارة الغربية الى لبنان . ولنا ان نقول ان دخول الحضارة الغربية الى هذه المنطقة بعد العامل الاول في تطور تاريخها الحديث . فان جميع الاحداث والتغييرات التي طرأت عليها من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية وعقلية يمكن ردها مباشرة او بالوساطة الى هذا العامل : وقع الحضارة الغربية في حياة الناس .

المؤسسات التربوية الكاثوليكية والبروتستانتية

كانت جهود الارساليات التربوية ، في القرن التاسع عشر ، الكاثوليكية اولا - وجلهم من الافرنسيين - ثم البروتستانتية - وجلهم من الاميركان - الحافز الاول في ايقاظ الحياة الفكرية . وكان النصارى من سكان البلاد ، على انهم اول من نال قسطاً من الثقافة الغربية ، رواد الحركة الفكرية الغربية كما كان اجدادهم لما نقلت العلوم اليونانية والفلسفة اليونانية الى العربية . وقد جاء تأسيس جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٨٧٥ ذروة اعمال الارساليات الكاثوليكية التربوية . وبعد مضي ست سنوات على تأسيسها ثبتها قداسة البابا كجامعة . وفي سنة ١٨٨٣ اعترفت بها وزارة التربية الفرنسية ووافقت على منحها مساعدة مالية سنوية لفتح كلية للطب التي الحق بها فيما بعد فرع للصيدلة . ومن غريب المناقضات ان هذا العون المالي من قبل وزارة المعارف الفرنسية اتى في وقت كانت فرنسا تطرد فيه اليسوعيين من بلادها . وفي سنة ١٩١٣ اضيف الى هذه الجامعة كليتان اخريان تحت رعاية جامعة ليون الاولى للهندسة والثانية للحقوق . اما كلية طب الاسنان فقد انشئت عام ١٩٢٢ . وقد انشئ الى جانب معهدي اللاهوت والفلسفة عند مستهل القرن العشرين معهداً آخر للدراسات الشرقية . ولهذا المعهد الشرقي مكتبة من اغنى مكاتب العالم في هذا الحقل . ويعنى هذا المعهد بالبحث والتنقيب والنشر على اسس علمية رفيعة لم تكن معروفة بعد في الشرق^(١) . وقد التحقت بالجامعة المطبعة الكاثوليكية التي تأسست سنة ١٨٥٣ . وهذه المطبعة هي اليوم من خير المطابع في الشرق العربي تجهيزاً واخراجاً . تتبع جامعة القديس يوسف اليسوعية نظام الجامعة كما هو معروف في اوربية . فانها تعنى بالدرجة الاولى بتقديم منهاج من الدراسات الجامعية العالية الخاصة ونهيئ الطلاب لنيل درجة جامعية . ولا تهتم كثيراً بحياة الطلاب الاجتماعية اذ ليس عندها الوسائل لاقامة الطلاب في مبانيها ، بعكس ما هو الحال في زميلتها الجامعة الاميركية في بيروت . ان فكرة الجامعة كما هي عليه في اميركا بمبانيها المخصصة لسكنى الطلاب ، وملاعبها

وجمعياتها ، وحياتها الاجتماعية ، فكرة غربية في بعض البلدان الاوربية . تأسست الجامعة الاميركية سنة ١٨٦٦ باسم الكلية السورية الانجيلية . وهي تمثل ذروة الجهود التربوية التي قام بها الاميركان . وهي تتبع نظام الجامعة كما هو معروف في اميركا . فانها تعنى بسكنى الطلاب ومأكلهم وملاعبهم وحياتهم الاجتماعية خارج الصفوف بما في ذلك تأسيس الجمعيات والاندية الادبية - وجميع هذه الامور غربية عن النظرة الشرقية الى المعهد العلمي التربوي . وتعنى الجامعة الاميركية في بيروت بتنمية الاخلاق الحميدة وتشجع اقامة العلاقات الشخصية بين الطالب والمعلم . ويتجلى حرصها في الحفاظ على التراث القومي في جعلها اللغة العربية لغة التدريس في بادىء امرها . ولكنها اضطرت اخيراً للتخلي عن هذا التقليد الجليل لاسباب عديدة منها تنوع الجنسيات التي كانت تتمثل على ارض الجامعة ، ومنها صعوبة ايجاد المعلمين من ذوي الخبرة الكافية في اللغة العربية ، وصعوبة ايجاد الكتب المدرسية ، وتختلف العربية ذاتها عن اللحاق بركب العلوم والفلسفة^(١) . وهذه الجامعة بكلياتها المختلفة للعلوم والآداب والطب والصيدلة والهندسة والزراعة تعد من افضل الجامعات الاميركية خارج اميركا اثرأ وأبعدها شهرة . والعقائد الوطنية وقيادة الحركات الفكرية والوطنية في الشرق العربي يرجع الفضل فيها الى خريجيها . ولقد عبر رئيسها الاول دانيال بلس عند وضع الحجر الاساسي للبنية الاولى الرئيسية فيها عن سياستها التعليمية الحرة وعن غايتها النبيلة بقوله :

« ان هذه الكلية تفتح ابوابها لجميع الطلاب على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون اي اعتبار للون او التبعية او العرق او الدين . ويستطيع كل انسان ، سواء أكان ابيض ام اسود ام اصفر ، وسواء أكان مسيحياً ام يهودياً ام مسلماً ام وثنياً ، ان يدخل هذه الكلية ويفيد من كل ما تقدمه له هذه المؤسسة من خدمات مدة ثلاث او اربع او ثماني سنوات ويخرج منها وهو يؤمن باله واحد او بالهة عديدين او ملحداً لا يؤمن باله . ولكن يستحيل على اي انسان ان يقيم بين ظهرانينا على ارض هذه المدرسة مدة من الزمن دون ان يعرف الحقيقة التي تؤمن بها ودون ان

يعرف الاسس والاسباب التي تدعونا الى هذا الايمان بالحقيقة^(١) .

ان التبشير الديني الذي تميزت به جهود المرسلين في بادئ الامر اخفق لان هذه الرسالة الدينية لم يكن لها في نفوس الناس ذلك الاثر او الصدى الذي ترقبه المرسلون والذين بعثوا بالمرسلين الى هذه البلاد . فبدأ التبشير الديني يحتل مرتبة ادنى واخذ المرسلون يدركون اهمية التربية والتعليم . ان الذين التحقوا بالطوائف التي تمثلها الارساليات البروتستانتية كانوا مسيحيين ، وبنوع خاص من الكنيسة الارثوذكسية . وعوضاً عن ان يظلوا في كنائسهم القديمة المحترمة ذات التقاليد القديمة كعامل جديد مثقف مستنير يعمل على اعادة الحيوية في هذه الكنائس فان المرسلين جمعهم في بيروت سنة ١٨٤٨ في طائفة واحدة واطلقوا عليهم اسم « الكنيسة الانجيلية السورية » . اما التبشير الديني بين المسلمين فلم يكن له اي اثر يذكر . واما مقاومة الاكليروس الماروني لاعمال التبشير البروتستانتية فقد كانت عنيفة . فانه عندما اعلن المعلم اسعد الشدياق الذي علم بلني فسك ، اول المبشرين الاميركان ، اللغة العربية ، بروتستانتية استدعي الى قنوين ، وعندما عجز البطريرك عن رده الى مارونيته القوي في غرفة من غرف الدير حيث مات سجيناً (حوالي ١٨٣٠) . وفي الحال اعلن المرسلون ان اسعد الشدياق كان « اول شهيد^(٢) » .

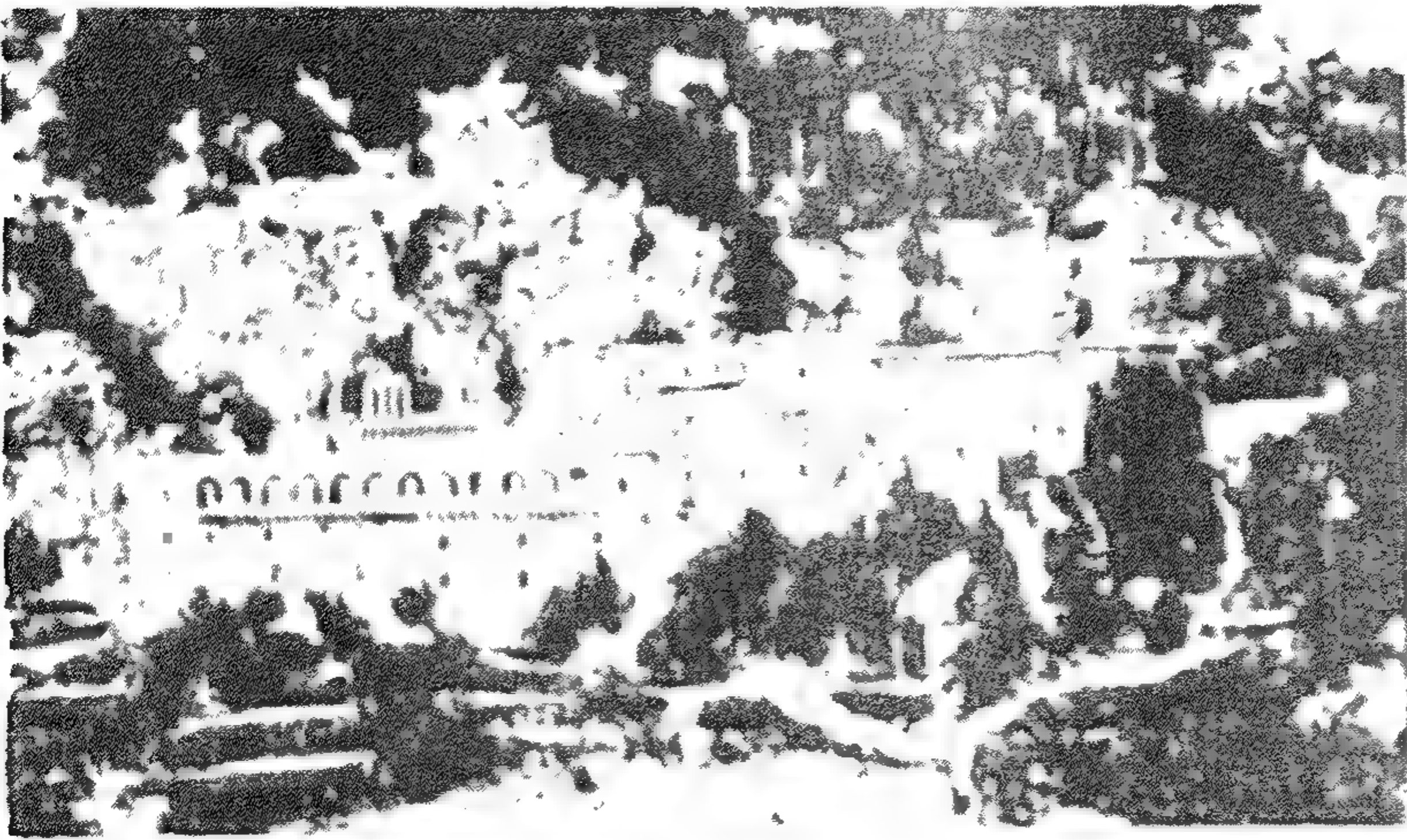
كان لاسعد اخوان اشتهر اسمهما : طنوس الشدياق (توفي حوالي ١٨٦١) وفارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٧) . وكان طنوس قاضياً عند الامراء الشهابيين . وقد الف كتاباً رجعنا اليه مراراً في هذا المؤلف عنوانه « اخبار الاعيان في جبل لبنان » . وفي ثورة الستين خسر جميع ممتلكاته في بلدته الحدث بما في ذلك مخطوطة قاموس كان قد الفه ، ولم يبق عنده لحاف يلتحف به^(٣) . اما الاخ الثاني فارس

١ - *Reminiscences*, p. 198 .

٢ - Anderson, vol. I, pp. 52—71; Jessup, pp. 34—5, 40; Gregory M Wortabet, *Syria and the Syrians*, (London, 1856), vol. I, pp. 53—5; Churchill, vol. I, pp. 61—3 ,

٣ - الاب لويس شيخو : المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٢٤) ص ١٢٣ .
Jessup, p. 183 .

الشدياق فقد درس في عين ورقة ثم التحق بخدمة المرضلين الاميركان ، فكان يقف على مطبوعات المطبعة الاميركية ومنشوراتها عندما كانت لا تزال في مالطة . وكان شاعراً ، وقد نظم قصيدة مدح بها باي تونس فلاقت عنده الاستحسان الشديد . فأرسل يستدعيه ليكون في خدمته . وارسل الباي سفينة خاصة تقله . وفي تونس اعتنق الاسلام واطاف الى اسمه اسم احمد : احمد فارس الشدياق . وفي سنة ١٨٦٠ اصدر في استنبول جريدة عربية اسمها « الجوائب » وهي من اقدم الصحف



دير مار انطونيوس قزحيا القديم حيث انشئت اول مطبعة عربية في لبنان

العربية . ويقال انه اول من اطلق لفظة « جريدة » على الصحيفة اليومية . وقد اشتهر بكتاباتة النقدية العنيفة اللاذعة سواء اكان في الادب ام في الادباء أوغيرهم من الناس . وقد نقلت رفاته حسب وصيته الى الحازمية القريبة من موطنه الاول الحدث^(١).

١ - جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٢٢) الجزء الثاني ص ٧٤ - ٨٣ . الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني (بيروت ١٩٢٦) ص ٨٦ - ٨٨ . الكونت فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول (بيروت ١٩١٣) ص ٧ ، ٩٦ - ٩٩ .

المطبعة

١

نقلت الارسالية الاميركية مطبعتها المعروفة بالمطبعة الاميركية من مالطة. حيث اسست اولاً ، الى بيروت (١٨٣٤) قبل تأسيس الجامعة الاميركية . واول عمل عظيم شرعت به الارسالية كان ترجمة التوراة والاناجيل الى لغة عربية فصيحة سهلة لتضعهما في متناول الطبقات العامة من الناس . وقد استغرق العمل ثماني سنوات . وقد قام بالترجمة مبشر اسمه عالي سمث (Eli Smith) خريج جامعة ييل ، وكورنيليوس فان ديك المشهور الذي كان احب المبشرين الى قلوب الناس واقربهم اليهم . وكان يعاونهم في هذا المشروع العظيم ثلاثة علماء من الوطنيين سنأتي على ذكرهم قريباً . وبواسطة المطبعتين الكاثوليكية والاميركية . والجامعتين اليسوعية والاميركية ، توفرت للبلاد سبيل التفاعل الادبي والعلمي بين الغرب والشرق فنشطت حركة الترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية ومن العربية الى اللغات الاجنبية ، ونقلت امهات الكتب واحداث الافكار الغربية في العلم والادب والنقد الى العربية .

وقبل ان يؤسس الاميركان والكاثوليك مطبعتهم ، كان في لبنان وسائل للطبع ولكن لم تكن بالوسائل ذات الكفاءة المعالة . فقد كان في دير قزحيا (ومعنى اسمه « كنز الحياة ») في وادي قاديشا مطبعة تعد اقدم مطبعة في العالم العربي على الاطلاق . ويرجع ان طالباً من الطلاب الموارنة الذين كانوا يدرسون في رومة - وقد اشرنا سابقاً الى هذا المعهد - ادخل هذه المطبعة الى الدير وفي سنة ١٦١٠ اصدرت هذه المطبعة نسخة من سفر المزامير باللغة العربية . انما كان سفرًا مكتوباً بالحرف السرياني (الكرشوني) كما كان شائعاً في لبنان^(١) في ذلك العهد . وفي اوائل القرن التاسع عشر تأسست في دير طاميش من اعمال كسروان مطبعة سريانية . ثم في سنة ١٨٥٥ تأسست مطبعة عربية في الدير نفسه^(٢) . وفي سنة ١٧٠٢ تأسست في حلب اول مطبعة عربية بحروف عربية في الشرق . وكان

١ - نصر الله ، ص ١ - ٦ ، ١٤٠ .

٢ - انطونيوس شلي ، في مجلة المشرق ، المجلد ٤٦ (١٩٥٢) ص ٥٩٥ .



حفر في الخشب من صنع عبد الله زاخر

مؤسسها البطريرك اثناسيوس الدباس الذي يرجع انه استحضر آلاتها من الفلاخ (Wallachia) . وقد سبك امهات الحروف شماس من الروم الكاثوليك اسمه عبد الله زاخر (١٦٨٤ - ١٧٤٨) وهو سوري الاصل لبناني الموطن . وفي سنة ١٧٣٣ انتقل عبد الله الى دير مار يوحنا الصايف (يوحنا المعمدان) بالقرب من بلدة الخنشارة حيث شرع في تأسيس مطبعة جديدة^(١) . وفي دير للروم الارثوذكس في بيروت اسس يونس الجبيلي المعروف بابي عسكر مطبعة اتبع فيها الحرف الذي كان مستعملا في دير مار يوحنا . واول كتاب اصدرته هذه المطبعة في بيروت كان سفر المزامير (١٧٥١)^(٢) . غير ان الفاتيكان كان اول من اسس مطبعة عربية في التاريخ - اي قبل هذه المحاولات التي جرت في الشرق والتي اشرنا اليها آنفاً - نعتي مطبعة فانو في ايطاليا . ولا يزال لدينا من مطبوعات هذه المطبعة كتاب للصلاة يعود تاريخه الى سنة ١٥١٤ . وقد تكون مطبعة فانو العربية هي ام المطبعة التي اسسها البطريرك الدباس في حلب . ولما اسس محمد علي باشا مطبعة بولاق في القاهرة سنة ١٨٢٠ استدعى رجلا سوريا اسمه نقولا المسابكي ، الذي كان قد قضى اربع سنوات في ايطاليا يتقن فن الطباعة ، ليكون مديراً لها . ويبدو ان المسلمين لم يرضوا في بادىء الامر عن الطباعة بالحرف المتحرك بل كانوا يؤثرون الكتابة باليد^(٣) . التي اصبحت فنا من الفنون الجميلة واكتسبت شيئاً

١ - نصر الله ص ١٧ - ٣٢ .

٢ - الاب لويس شيخو في مجلة المشرق ، المجلد الثالث (١٩٠٠) ص ٥٠١ - ٥٠٢ .

٣ - A. Demeerseman in IBLA, vol. XVII (1954), pp. 1-46, 113-40 - ٢

من القدسية والاحترام لان القرآن الكريم كان ينسخ نسخاً باليد . ولا يزال المسلمون الى يومنا هذا يبدون اعتراضاً على طبع القرآن بالحرف العصري المتحرك ويؤثرون ان يطبع على الحجر . ولذا كانت الطباعة الحديثة في بادىء الامر وقفاً على نصارى سورية ولبنان . ويعود الفضل في نقل الطباعة العربية الى اقطار العالم الخارجى ، الى المهاجرين من النصارى اللبنانيين .

لقد اختار الرهبان ان يعيشوا عيشة النسك والزهد في اديرة نائية منعزلة حيث يستطيعون ان يكرسوا حياتهم للدرس والصلاة والتأمل والعناية بارض الدبر وبالحيوانات التي يعيشون عليها . هؤلاء الرهبان ذوو اللحى الوقورة والملابس السوداء ، الذين اختاروا العيش الاسبارطي على الروابي العالية القريبة من السماء حيث يتنفسون الهواء النقي ، ابقوا مشعل الحياة المسيحية والحضارة المسيحية منيراً . ان مرور الزمن لم يقو على النيل من اسوار الاديرة ، ولم يستطع كر السنين ان يخذش جدرانها . اما المطبعة فقد استطاعت ان تقوم بنشر المعرفة والنور اللذين ظلا زمناً وقفاً على رهبان الاديرة .

المكتبات العامة ودور بيع الكتب

قبل ان تأسست مكتبات الجامعات كان الحصول على الكتب الثمينة امراً عسيراً . ذلك لان هذه الكتب كانت اما في حوزة العائلات الغنية الارستقراطية او في مكتبات الاديرة التي يتعذر على الناس الوصول اليها ، او في المساجد والجوامع . وقد جمع محمد امين ارسلان (١٨٣٨ - ١٨٦٨) رئيس الجمعية العلمية السورية مكتبة في الشويفات كانت تضم ثلاثمئة مخطوط . ثم انتقلت هذه المكتبة الى حوزة اخيه الامير مصطفى ارسلان في عين عنب ، ثم توزعت بعد ذلك بين الورثاء بعد وفاة الامير مصطفى^(١) . اما مكتبة العاتيكان والمكتبة الوطنية في فرنسا وغيرها من المكتبات العامة في اوروبا فقد اشترت مجموعات كبيرة من اديرة الشرق وخزائنه . وكان اصحاب الكتب يحرصون غاية الحرص على الحفاظ عليها وعلى

١ - الكونت فيليب دي طرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين (بيروت ١٩٤٧) ص



دير مار انطونيوس بالقرب من اهدن

ابقائها في حرز حرز فلا تصلها ايدي اللصوص . ويبدو لك حرصهم على صيانتها من اللعنات التي يصبونها على من تخوله نفسه سرقتها . ولا يستنكفون ان يدونوا هذه اللعنات على الصفحة الاولى من الكتاب أو على جلده من الداخل . وهاك ما كتبه المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢) . مطران الكنيسة المارونية في حلب . في الوصية التي بموجبها وقف كتبه على مكتبة كنيسة مار الياس :

« من أخذ كتاباً من هذه المكتبة ولم يرجعه . فليكن محروماً مسخوطاً عليه مردولاً من الله ومن حقارتنا ، وليكن مقطوعاً من جسد الكنيسة المارونية . ويكون بيته مثل صادوم وعامورة ويذهب رزقه وينهدم بيته ويشهد أولاده من أبواب الخلائق ... »^١.

وألّف المطران جرمانوس عدة كتب منها كتاب في الصرف والنحو لا يزال مرجعاً لطلاب العربية هو كتاب بحث المطالب . وفي بيروت اشترت دار الكتب اللبنانية التي أنشأها الكونت فيليب دي طرازي بعض المكتبات الخاصة .

أما الدور الذي كان يلعبه اصحاب دور الكتب في تعميم الكتاب بين الناس وفي نشر المعرفة فامر يصعب تقريره نسبة لقلة الوثائق التي من شأنها ان تاتي ضوءاً على هذه الناحية . وكان بعض تجار الكتب من نوع التجار المتجولين مثل يوسف اليان سركيس (١٨٥٦ — ١٩٣٣) الذي كان اديباً عالماً وقد خلف لنا مؤلفات عدة اهمها موسوعته « معجم المطبوعات العربية والمعربة » (القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣٠) الذي استعنا به ونحن نجمع ، اداة هذا الفصل من هذا المؤلف . ولد سركيس في دمشق وعمل اولاً في بيروت ثم انتقل سنة ١٩١٢ الى القاهرة حيث اسس مخزناً للكتب . وقبل ان دخلت الطباعة لبنان كان عدد المخازن التي تباع الكتب في بيروت لا يزيد عن اصابع اليد الواحدة . وكان مخزن الكتب كناية عن غرفة صغيرة مظلمة تحوي على الكتب ذات الورق الاصفر المدسوخة نسخ اليد والتي تدور حول المسائل الدينية واللغة والتاريخ لا سيما اخبار عنتر والوزير التي هي اقرب الى الاساطير والافاصيص منها الى التاريخ . وكان عدد الكتب المستوردة من الخارج قليلاً جداً ، ولم يكن ثمة ترجمات عربية لكتب غربية ذات قيمة . فلو ان احد الناس كان يرغب في الحصول على كتاب ببحث قضائيا طبية فمقد يقدم له بائع الكتب نسخة من طب ابن سينا (توفي ١٠٣٧) . وكذلك لو رغب احد الناس في اقتناء كتاب في الصرف والنحو لقدم له البائع كتاب سيمويه « الكتاب » (توفي حوالي ٧٩٣) او شرح ابن عقيل (توفي ٧٦٩) لالفية ابن مالك اما الكتب الحديثة في العلوم الطبيعية . او عن جغرافية البلاد او تاريخها الحديث فكانت في حكم المعدومة . ولكن تغيرت الاحوال عند منصرم القرن التاسع عشر

اذ عمت المطابع وكثرت المخازن التي تباع الكتب بالرغم من ان الرقابة العثمانية على المطابع والكتب كانت رقابة شديدة صارمة .

المدارس الوطنية

لما ادرك اهل البلاد ان الذين يتثقفون في المدارس الاجنبية يحتلون مراكز اجتماعية مرموقة ومناصب حكومية رفيعة ، ولما لاحظوا بان كسب المال ايسر اذا كان الانسان متعلماً تعليماً عصرياً ، اخذ بعض الناس يفتحون المدارس التي كانت تقتفي اثر المدارس الاجنبية من لاتينية وانكلوسكسونية في برامجها وادارتها . وكانوا يستخدمون الاساتذة الافرنسيين أو الاميركيين ، وجعلوا الافرنسية أو الانكليزية لغة التدريس . ومن هذه المدارس مدرسة الحكمة التي اسسها المطران يوسف الدبس سنة ١٨٧٤ الذي نقل المطرانية من الجبل الى بيروت . اما مطرانية الروم الارثوذكس فانها نقلت مدرستها التي تأسست سنة ١٨٥٢ من سوق الغرب الى بيروت وعرفت بمدرسة « الثلاثة اقمار » . وكان ينافس هذين المعهدين العاليين المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك . وفي سنة ١٨٩٨ اسس الروم الكاثوليك الكلية الشرقية في زحلة . وجميع هذه المدارس التي جئنا على ذكرها لا تزال مدارس زاهرة تعمل بنشاط الى يومنا هذا . ثم ان المدارس الاسلامية الجديدة اخذت تستوحي المدارس الاجنبية في برامجها فادخلت في برامجها تعليم اللغات الاجنبية كالافرنسية والانكليزية ، مثل المدرسة العثمانية التي اسسها احمد عباس الازهري (١٨٥٣ - ١٩٢٧) في بيروت سنة ١٨٩٧ . وقد ولد احمد في بيروت ودرس في القاهرة في الازهر - كما يدل على ذلك اسمه - وعاد وانخرط في سلك التعليم والتحق بمدرسة بطرس البستاني في عبيه . وفي اثناء الحرب العالمية الاولى اغلقت مدرسته ونفي الى استنبول^(١) .

ولم تقتصر الحركة الفكرية على انشاء المدارس بل تناولت ايضاً تأسيس الجمعيات . ومن هذه الجمعيات التي يجدر بنا ان نأتي على ذكرها الجمعية العلمية السورية التي أعيد

١ - ابراهيم معوض ومنير وهيب . نبذة تاريخية عن دار الكتب اللبنانية (بيروت ١٩٤٨)

ص ١٠٣ - ١٠٤ . اذ - لويس شيخو : آداب ، الجزء الثاني ص ٦٦ - ٦٧ .

تنظيمها واعترف بها رسمياً سنة ١٨٦٨. وكان في عداد اعضاء هذه الجمعية مسلمون مثل حسين بيهم ، ودروز مثل محمد امين ارسلان ونصارى مثل بطرس البستاني وناصيف اليازجي . وقد ارسلت دعوة الى السوريين واللبنانيين المقيمين في القاهرة واستنبول وعواصم اخرى لينضموا الى الجمعية ويسهموا في اعمالها التي تعدت الاعمال «العلمية» الى اعمال اخرى سياسية . وكان للجمعية مجلة شهرية اسمها «مجموعة العلوم» تنشر المقالات العلمية والادبية والاقتصادية والزراعية ويرجع انه هذه هي المرة الاولى في تاريخ البلاد - وعلى وجه التأكيد المرة الاولى في تاريخ البلاد تحت الحكم العثماني - التي يجتمع فيها رهط من افاضل الناس من مختلف المذاهب ويكرسون جهودهم المشتركة في سبيل الخير العام^(١).

الطليعة من الادباء والعلماء

كان الادباء الثلاثة من الوطنيين الذين ساعدوا المرسلين الاميركان في ترجمة التوراة الى العربية بطرس البستاني وناصيف اليازجي ويوسف الاسير .

ولد بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) في قرية الدبية من ابوين مارونيين وتعلم في مدرسة عين ورقة . وفي بيروت درس العربية واليونانية على المرسلين الاميركيين . وكان بطرس البستاني هو الذي نقل التوراة والاناجيل من لغاتها الاصلية (التوراة من العبرية ، والاناجيل من اليونانية) الى العربية . ثم ان ناصيف اليازجي ويوسف الاسير كانا يراجعان الترجمة العربية دون الرجوع الى الاصل بقصد اصلاح الاسلوب العربي والمصطلح العربي . غير ان المرسلين الاميركيين ، عالي سمث وكورنيليوس فان ديك كانا يخشيان ان يكون اصلاح الاسلوب العربي والمصطلح العربي على حساب المعنى . فكان سمث يراجع ما قرأه واصلحه اليازجي والاسير ثم يعيد قراءته فان ديك مرة اخرى . وقد اسس بطرس البستاني مدرسة في عبيه سماها المدرسة الوطنية التي نقلت سنة ١٨٦٣ الى بيروت وادجت بالكلية السورية الانجيلية . وعمل ايضاً كترجمان في القنصلية الاميركية . ومما لا

١- George Antonius : *The Arab Awakening* (Philadelphia, 1919) .

الاب لويس شيخو ، آداب ، الجزء الاول ، ص ٧٥ - ٧٦ . pp . 53-4 .

شك فيه ان بطرس البستاني كان من اغزر اللبنانيين علماً ومن اكثرهم انتاجاً في عصره . وكان من اعظم علماء الشرق العربي . فقد كان صحافياً ، وصاحب مجلات يصدرها ويحررها . وكان مؤلفاً يضع الكتب المدرسية . وله معجم مشهور (محيط المحيط) واصدر دائرة معارف . وبعض كتبه المدرسية في اللغة والرياضيات لا تزال من الكتب التي يرجع اليها حتى في عصرنا هذا . ومعجمه محيط المحيط (بيروت ١٨٧٠ ، في مجلدين) ومختصره قطر المحيط (بيروت ١٨٦٩ ، في جزئين) بالرغم من مرور أكثر من مئة سنة على ظهورها فإنها من أحسن المعاجم حتى في يومنا هذا . وهناك معاجم عربية قديمة اقدم من محيط المحيط ، ولكنها معاجم ضخمة تعج بالمئات من الالفاظ . ناهيك عن سوء ترتيبها الهجائي ، فانها في ترتيبها الهجائي تعتمد الحرف الاخير من الجذر الثلاثي . اي ان فعل لعب يفتش عنه في باب الباء فصل اللام . وبدأ بطرس البستاني بتأليف دائرة معارف ، اصدر منها ستة مجلدات (بيروت ، ١٨٧٦ - ١٨٨٢) وقد اضاف اليها ابنه سليم بالتعاون مع سليمان البستاني خمسة مجلدات اخرى (بيروت ١٨٨٣ - ١٩٠٠) . واقرب عمل علمي ثقافي لهذا المجهود الجبار الذي قام به البستاني هو محاولة ترجمة الموسوعة الاسلامية الى اللغة العربية التي لم تكمل بعد . وبدأ البستاني حياته الصحافية باصدار « نفيير سورية » (١٨٦٠) . وبعد عشر سنوات اصدر صحيفة اسبوعية : « الجنة » ، وكان يحورها ابنه سليم ، ثم مجلة نصف شهرية « الجنان » وفي سنة ١٨٧١ اصدر « الجنيانة » وكان يحورها نسيبه سليمان البستاني^(١) .

اما ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) فقد كان مخضرمًا في الادب والحياة . في شعر من اشعاره يصف اختباره عندما استعمل سكيناً وشوكة لأول مرة على المائدة ، ويشبه نفسه بامرأة بدوية تلبس حذاء له كعب رفيع عال . ولد ناصيف في كفرشيا وعمل في خدمة الامير بشير الكبير كاتباً ، وظل في خدمته الى ان توفي الامير سنة ١٨٤٠ . فعاد واستقر في بيروت . ولم يعتنق ناصيف البروتستانتية كما فعل بطرس البستاني بل ظل على مذهبه : رومياً كاثوليكياً . وكان ناصيف قبل

١ - زيدان، تراجم الجزء الثاني ص ٢٧ - ٢٢ . طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ١٠ ،

٢٢ ، ٤٥ . سر كيس ، ٥٥٧ - ٥٦٠ . C . Brockelmann , *Geschichte der arabischen Litteratur*, supp. II, (Leyden, 1938), pp. 767-8:

كل شيء اديباً وشاعراً وعالمًا باللغة . وقد كانت مؤلفاته تستخدم كتباً مدرسية ، وظلت شائعة الاستعمال في المدارس اجيالاً بعد وفاته . ومن الكتب التي شهرته وخلدت اسمه كتاب « فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب » الذي صدر اولاً في مالطة (١٨٣٦) ثم اعيد طبعه مراراً ، وكتاب « بجمع البحرين » الذي صدر اولاً في بيروت (١٨٥٦) . وهو كناية عن ستين مقامة يقلد فيها مقامات الحريري (توفي ١١٢٢) . اما شرحه ديوان المتنبي فقد قام باكماله ابنه ابراهيم (بيروت . ١٨٨٢) . اما ابنه ابراهيم (١٨٤٧ - ١٩٠٦) فقد فاق اباه ادباً ولغة . وقد عهد اليه اليسوعيون (١٨٧٢ - ١٨٨٠) باصلاح لغة التوراة التي كانوا قد قاموا بترجمتها . وقد جاءت ترجمة تفضل في نواح كثيرة ترجمة الاميركان . وقبل ان يلتحق بالصحافة كان مدرساً في المدرسة البطريركية في بيروت^(١) . وله تمثال يزين ساحة الجامعة اللبنانية الجديدة .

ولد يوسف الاسير (١٨١٥ - ١٨٨٩) في صيدا ودرس في الازهر . ثم عين قاضياً في طرابلس ففتياً في عكا ونائباً عاماً في لبنان في عهد داود باشا . وقد شغل مركز استاذ للعربية في دار المعلمين في استنبول . ثم عاد الى وطنه ودرس في المدرسة البطريركية في بيروت وفي الكلية السورية الانجيلية . وبعد ذلك اصدر « ثمرات الفنون » اول جريدة يصدرها مسلم (١٨٧٥) . وكان الى جانب هذا كله يعطي دروساً خاصة في الفقه الاسلامي . وقد شرح « المجلة » (بيروت ، ١٩٠٤) وعلق عليها . وكان من بين الذين درسوا عليه نخبة صالحة من المحامين اللامعين^(٢) .

واحسن مثال على ما قدمه الادباء والعلماء الاجانب من خدمات وتهدمات في حقلي العلم والادب يتجلى لنا في حياة استاذين احدهما في الجامعة الاميركية والثاني في جامعة القديس يوسف . اما الاول فهو كوريليلوس فان ديك (١٨١٨ - ١٨٩٥) . كان عالماً في الرياضيات واللغات . وكان مؤلفاً ناشراً . وقد قام

— الاب لويس شبحو ، آداب ، الجزء الثاني ص ٢٧ - ٤٣ . زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ص ١٣ - ٢١ . معوض ووهيبة ، ص ٥٥ - ٥٦ .

٢ — زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ، ص ١٦٤ - ١٦٥ . الاب لويس شبحو ، آداب ، الجزء الثاني ص ٧٥ - ٧٧ . معوض ووهيبة ، ص ٥٣ - ٥٤ . طراري ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ٢٥ . سركيس ، ٤٤٩ - ٥٥٠ .

بأعمال كثيرة فشغل منصب أستاذ في الطب ومنصب استاذ في علم الفلك في الكلية السورية الانجيلية. وكان يحرر المجلة الاسبوعية الدينية التي تصدرها الارسالية الاميركية ، « النشرة » وكانت معرفته الجيدة بالعربية تؤهله ان يؤلف بها . وقد ألف ثلاثة عشر كتاباً (وقد صححت) في الجغرافية والفلك والرياضيات (الجبر والهندسة واللوغارثم) والطب (الباثولوجيا ، اي علم الامراض وعلم التشخيص)^(١) . ومما يدل على تحرره الفكري ورحابة صدره في تقبل حقائق العلم وقوفه الى جانب الطلبة الذين عضدوا قضية استاذ كان يعلم مبادئ التطور - وكانت نظرية جديدة يرى فيها ارباب الدين ما يخالف الحقائق الدينية - لما فصلت الكلية هذا الاستاذ من هيئة التعليم . وهذا الخلاف انتهى باستقالة فانديك وتنظيمه مستشفى الروم الارثوذكس (والمعروف بمستشفى القديس جورجوس)^(٢) في بيروت (١٨٨٢) . كان فانديك يلبس العباءة ويدخن النارجيلة . وقد خلف اسما عند عامة الناس وخاصتهم تحيط به هالة من الاحترام والوقار . ولما احتفلت مدينة بيروت التي احبته باقامة نصب له بمناسبة السنة الخمسين لدخوله لبنان شعرت انها بعملها هذا ستخلد ذكرى رجل عظيم وهو شعور لم يخامر البيروتيين منذ عهد بعيد ، اذ كانوا ايام الرومانيين يقيمون للعظماء انصبه في ساحات المدينة .

اما الاب لويس شيخو (١٨٥٩ - ١٩٢٨) فمارديني الاصل ، واحد افراد الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية . درس شيخو في لبنان واوربة قبل ان اصبح يسوعياً واستاذ اللغة العربية في جامعتهم في بيروت (جامعة القديس يوسف) . وقد ظل الاب شيخو محرراً لمجلة المشرق ، المجلة اليسوعية ، اعواماً طويلة . وهي من ارقى المجلات العربية ، تُعنى بالامور العلمية والتاريخية والدينية والادبية . وقد ساهم هو نفسه بكتابة المقالات العديدة التي نشرت له في هذه المجلة . وقد جال في اوربة وسورية والعراق يفتش في مكاتبها عن المخطوطات سواء بقصد درسها ونشرها ام بقصد شرائها للمكتبة الشرقية التابعة للجامعة اليسوعية . واكثر منشوراته - وهي تربو على الثلاثين مؤلفاً - تتناول الادب وتاريخه - وقد رجعنا في هذا المؤلف الى

١ - ومن اراد الاطلاع على اسماء هذه الكتب فليراجع سر كيس ، العمود ١٤٦٣ - ١٤٦٥ .

٢ - جرجي زيدان « يكتب قصة حياته » في مجلة الهلال ، المجلد ٦٢ (١٩٥٤) ص ٣١-٣٥ وكان جرجي زيدان يرأس حلقة الطلبة التي اعترضت على فصل الاستاذ الاميركي .

بعضها . وبعض كتبه ينقصها التدقيق العلمي . وافضلها واشهرها عند الناس كتاب « مجاني الادب في حدائق العرب »^(١) .

ان كتب هذين الاستاذين وغيرهما من كتاب الطليعة كانت حجر الزاوية في الحركة الفكرية واليقظة القومية ليس في لبنان وحسب ، بل في سائر انحاء العالم العربي . فقد كانت كتباً مدرسية يستعملها الطلاب في المدارس ، ومراجع يرجع اليها المعلمون ، ونماذج يُقتدى بها في البحث العلمي والادبي . بكلام آخر كان هذا النتاج العلمي الادبي اداة اليقظة العربية الفعالة في القرن التاسع عشر .

الجراند والمجلات

كان مولد الصحافة العربية يوم صدرت في بيروت سنة ١٨٥٨ « حديقة الاخبار » لمؤسسها وصاحبها خليل الخوري من بلدة الشويفات . وقد سبق ظهور « حديقة الاخبار » : جريدتان فقط هما : « الوقائع المصرية » ، وكانت الجريدة المصرية التي اصدرها محمد علي سنة ١٨٢٨ باللغتين التركية والعربية ، « ومرتآة الاحوال » التي صدرت في استنبول سنة ١٨٥٤ لصاحبها ومؤسسها رزق الله حسون . اما الصفحة التي كان يصدرها نابليون في مصر بمناسبة غزوة مصر فمن العبث ان نسميها جريدة : ولان جريدة « حديقة الاخبار » كانت الجريدة الوحيدة في البلاد فان فؤاد باشا استخدمها في نشر البيانات والتقارير ومختلف الشؤون التي لها علاقة بحوادث ١٨٦٠ . اما فرنكو باشا فقد جعلها الجريدة الرسمية للحكومة اثناء توقيف جريدة لبنان عن الصدور . وقد استمرت جريدة « حديقة الاخبار » بالظهور كجريدة خاصة يقوم بها فرد حتى سنة ١٩١١ .

ولكن لم يطل الوقت حتى اصبح لجريدة « الحديقة » زميلات عديدة . ففي سنة ١٨٦٦ ، انشأت الارسالية الاميركية « النشرة الاسبوعية » وهي نشرة دينية

١ - وهو في نمة اجزاء (بيروت ١٨٨٢ - ١٨٨٣) وقد اعيد طبعه ست عشرة مرة .

راجع سر كريس ، عمود ١١٦٧ - ١١٧٠ .

اجتماعية . وقد تغير وقت صدورها فاصبحت شهرية واستمرت بالصدور نحو قرن محتفظة بعدد لا بأس به من المشتركين . وبعد اربع سنوات لحق بهم اليسوعيون فاصدروا جريدة « البشير » التي اصبحت في زمن قصير جريدة ذات شأن كبير لما كانت تناوله من مواضيع اجتماعية واخبار سياسية . وكان شعار البشير المطبوع في اعلى الصفحة الاولى : « وتعرفون الحق والحق يحرككم » . وقد ظل البشير يصدر حتى سنة ١٩٤٧ . وفي اثناء الحرب الاولى والثانية تعطلت جرائد عديدة وزالت من الوجود . ومن اقدم الجرائد التي لا تزال تصدر الى يومنا هذا جريدة « لسان الحال » التي اسسها في بيروت خليل سركيس سنة ١٨٧٧ . وتبدأ هذه الجرائد عادة كنشرات اسبوعية وتتحل لنفسها الصفة التي ترغب فيها : سياسية ، اجتماعية ، ادبية وما شا كل ذلك وقد استهوت مهنة الصحافة والنشر احسن العقول والمواهب الناشئة فظهرت الجرائد والمجلات بكثرة هنا وهناك في جميع انحاء العالم العربي . ثم ان اللبنانيين المهاجرين انشأوا مجلات وجرائد انى توجهوا باعداد كبيرة . وقد جاء في احصاء قامت به مجلة الهلال سنة ١٨٩٢^(١) ان في بيروت اربع عشرة جريدة ومجلة (هذا عدا عن ١٦ جريدة ومجلة في المدينة ذاتها كانت قد توقفت عن الصدور او انتقلت الى القاهرة) و ١٤٧ مجلة وجريدة عربية في العالم كله ، منها ٥٤ لا تزال تصدر . اما الاحصاء الذي قام به فيليب دي طرازي^(٢) مؤرخ الصحافة العربية بعد انقضاء ٣٧ سنة على الاحصاء الذي قامت به مجلة الهلال فيشير الى ان عدد الصحف التي ظهرت ثم اختفت مع عدد الصحف الباقية الى يومنا هذا في العالم العربي يبلغ ٣٠٢٣ بين جريدة ومجلة منها ٤٢٦ ظهرت في لبنان . ومن المجلات والجرائد التي صدرت في لبنان (وعددها ٤٢٦) ٢٩٤ صدرت في مدينة بيروت . ومن هذا المجموع الكبير من الجرائد والمجلات العربية ١٠٢ منها ظهرت في اميركا الشمالية و ١٦٦ في اميركا الجنوبية و ١٤ في بريطانيا العظمى . وكانت مدينة نيويورك تباهي بان خمس جرائد عربية تصدر فيها . ولان الجريدة العربية مشروع فردي فان « معدل الوفيات » بين الجرائد العربية عال جداً . اما تلك الجرائد التي كانت تمثل حزبا او فكرة قومية ، او تلك الجرائد التي سارت مع الزمن وتكيفت حسب مقتضيات العصر فانها استطاعت البقاء .

١ - المجلد الاول (١٨٩٢) ص ١٢-١٤

٢ - الصحافة العربية ، الجزء الرابع ، ص ٤٨٨-٥١١

ان اقدم مجلة علمية ادبية كانت مجلة المقتطف . ومن اقدم الجرائد واكثرها انتشاراً وابعدها اثرأ جريدة المقطم . وقد كان مؤسساها ومحرراها يعقوب صروف وفارس نمر من قدامى خريجي الكلية السورية الانجيلية في بيروت ومن المدرسين فيها . اما مجلة المقتطف - وقد اقترح هذا الاسم عليها استاذهما فان ديك - فقد ظهرت اولاً في بيروت سنة ١٨٧٦ ومنها انتقلت الى القاهرة . وظلت تصدر هناك الى ان احتجبت سنة ١٩٥٢ . وقد كان المقتطف منبراً لافاضل الادباء العرب واداة لنشر العلوم الطبيعية والافكار العلمية المترجمة عن الانكليزية في الغالب الاكثر . فكان في العالم العربي تنمة لمدرسة فكرية عالية ينهل منها القراء بعد مغادرتهم قاعات الدرس . وفي سنة ١٨٨٩ اسس صروف ونمر جريدة المقطم التي اصبحت من اكبر الجرائد واوسعها انتشاراً في العالم العربي . وقد احتجبت عن الصدور سنة ١٩٥٢ . وعندما تذكر الصحافة العربية يبرز اسم صروف ونمر كقطبين من اقطابها وكعلمين من اعلامها القدامى . اما صروف فقد ولد في بلدة الحدث سنة ١٨٥٢ وتوفي في القاهرة سنة ١٩٢٧ . وقد كان في طليعة الكتاب الذين طبعوا العربية لتصبح اداة صالحة لنقل العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء وعلم الاحياء والفلك والرياضيات . وقد قصر صروف جهوده على خدمة المقتطف بينما انصرف نمر الى المقطم .

اما فارس نمر فقد كان مولده في حاصبيا . في سنة ١٨٦٠ هربت امرأة فقدت زوجها في المذابح التي وقعت في البلدة مع اولادها الثلاثة . وكان احدهم فارس . وكان عمره اذ ذاك ست سنوات . وفي صيدا دخل مدرسة اميركية ومن ثم جاء الى بيروت والتحق بالكلية السورية الانجيلية . كان فارس نمر الرجل الذي ترأس ادارة جريدة المقطم ، الجريدة العربية العظيمة التي حملت حملات شعواء على فساد الحكم والظلم اثناء العهد الحميدي . وقد ظل على ادارتها الى ان توفي سنة ١٩٥٢ . وقد حكم عليه الاتراك بالموت غياباً ، كما حكموا على كثيرين غيره من احرار كتاب العرب لمقاومتهم الظلم والفساد .

وكان لجريدة المقطم جريدة اخرى تنافسها الزعامة : الاهرام . وكان مؤسساها ومحرراها لبنانيين آخريين هما سليم تقلا واخوه بشارة . وهذه الجريدة لا تزال من اكبر الصحف العربية انتشاراً . ولد سليم تقلا (١٨٤٩ - ١٨٩٢)

في كفرشيا ودرس في مدرسة بطرس البستاني في عبيه . وبعد ان درس مدة في المدرسة البطريركية في بيروت هاجر الى القاهرة حيث اسس جريدة الاهرام (١٨٧٥) . اما اخوه بشاره (١٨٥٢ - ١٩١١) فقد تلقى علومه في مدرسة عينطوزا الافرنسية .

في سنة ١٨٩٢ اصدر لبناني آخر ، جرجي زيدان ، مجلة الهلال التي كانت الى جانب المقتطف ، في طليعة المجلات العربية الراقية الواسعة الانتشار . وكانت تعنى في الدرجة الاولى بالقضايا الادبية والتاريخية والاجتماعية . ولد مؤسس الهلال ، جرجي زيدان ، في بيروت سنة ١٨٦١ . وكان ابواه قد هاجرا اليها من قرية عين عنوب . وفي مذكراته^(١) التي نشرت بعد موته يصف لنا جرجي زيدان ما لاقاه من عناء في سبيل تحصيل العلم . كان ابوه رجلا امياً فقيراً يعمل كخباز ومن ثم كصاحب مطعم حقير . فلم يستطع الاب ان يعيل عائلته وان يدفع ثمن تعليم جرجي . وهكذا بعد ان بلغ جرجي السنة الثانية في درسه الطب في الكلية السورية الانجيلية اضطر الى ترك الكلية . وفي السنة التالية هاجر الى مصر . ولم يكن جرجي زيدان صحفياً وحسب انما كان اديباً مؤلفاً كتب اقدم الكتب في التاريخ العربي على اسس من النقد العلمي الحديث . وكان زيدان اول من كتب الرواية التاريخية في العربية . فقد حاول كتابة تاريخ العرب في سلسلة من الروايات الشيقة التي لا تزال تقرأ للآن . اما احسن مؤلفاته وابعدها شهرة فهما تاريخ التمدن الاسلامي (في خمسة مجلدات) وتاريخ الآداب العربية (في اربعة مجلدات) اللذين اعيد طبعهما مراراً . وقد ترجم كتابه الاول ، تاريخ التمدن الاسلامي ، كلياً او جزئياً الى الانكليزية والتركية وغيرهما من اللغات الاجنبية . ودار الطباعة والنشر التي اسسها زيدان لا تزال الى يومنا هذا من اكبر دور النشر في الشرق^(٢) .

١ - راجع مجلة الهلال ، المجلد ٦٢ (١٩٥٤) ص ١٥ وما يليها .

٢ - للإطلاع على المزيد من المعلومات حول الصحافة العربية الحديثة راجع :

Tom J. McFadden, *Daily Journalism in the Arab States* (Columbus, 1953) .

المسرحية

ولدت المسرحية العربية يوم دعا كاتب عربي صيداوي المولد ، مارون النقاش (١٨١٥ - ١٨٥٥) ، بعض الوجوه والاعيان والقناصل والاصدقاء الى بيته في بيروت ليشهدوا تمثيل روايته « البخيل » . وقد اقام مارون مدة من الزمن في ايطاليا . ويظهر انه استوحى رواية مولير « البخيل » عندما وضع روايته . وبعد سنتين عرض رواية اخرى من تأليفه : « هارون الرشيد » . وقد كان الاعجاب برواياته والاستحسان الذي ابداه اصدقاؤه دافعاً حاداً به الى بناء مسرح حديث الى جانب بيته . وكان يقوم بتدريب الممثلين . وقد لاقى عمله هذا مقاومة كبيرة كما لاقى التمثيل في بادىء امره مقاومة في حضارات اخرى . فقد كان الناس يخشون ان يكون المسرح عاملاً في افساد اخلاق الناس وآدابهم العامة . وكان النقاش في بادىء الامر يتوسل الى بعضهم توسلاً حاراً ان يحضروا التمثيل^(١) . وعندما احتفل بالذكرى المئوية لمولد النقاش كان في العالم العربي اكثر من ٩٠٠ رواية ومسرحية اكثرها من تأليف الادباء العرب وبعضها مترجم^(٢) . وكان الادب الافرنسي بجميع فنونه - وهو نتاج حضارة متوسطة - يستأنف الى قلوب ادباء العرب اكثر مما كان الادب الانكلوسكسوني يستأنف الى قلوبهم . وكان اسماء الادباء الافرنسيين : مولير وكورناي وراسين وهيغو وديماس وروسو على السنة الادباء العرب في مختلف حلقاتهم واوساطهم قبل ان يتعرفوا الى شكسبير وملتون وامرسون وغوته بزمن طويل . وعندما بنى الخديوي اسماعيل دار الاوبرا المصرية في القاهرة بمناسبة الاحتفال بفتح قناة السويس (١٨٦٩) نشطت حركة المسرح العربي في جميع اقطار العالم الاسلامي ، لا سيما وان حكومة اسلامية بررت قيام المسرح وباركته . وقد عرف الاسلام منذ القرن الرابع عشر خيال الظل ، ولكن لا علاقة بين هذا وبين المسرحيات العصرية .

١ - زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

٢ - وقد جمعها يوسف هاجر في مجلة المشرق ، المجلد ٤٢ (١٩٤٨) ص ٤٣٤ - ٤٦٠ ، والمجلد ٤٣ (١٩٤٩) ص ١١٨ - ١٣٩ ، ٢٧١ - ٢٩٦ . راجع ايضاً انيس المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (بيروت ١٩٥٢) الجزء الثاني ص ١٤٧ - ١٥٢ .

ومن ابرز النواحي في هذه الیقظة الثقافية في العالم العربي التغيرات التي طرأت على اللغة العربية التي ظلت حتى مستهل الحركة الفكرية لغة جامدة يصعب التعبير بها عن الفكر والحضارة . وكانت اللغة العربية في اوائل عهدها لغة البداوة ثم اصبحت لغة الشعر والدين . غير ان هذه اللغة ، على اقلام الكتاب اللبنانيين وغيرهم من الاقطار العربية ، تطورت وتكيفت لتلائم متطلبات الحضارة العصرية ، ولم يمض وقت حتى اصبحت لغة مرنة طیعة تصلح للتعبير عن العلوم التكنولوجية والفلسفية والشوعية وعن العلوم الطبيعية بدقة ووضوح . وعندما واجهت اللغات الغربية الصعوبات ذاتها للتعبير عن العلوم الحديثة وعن الفكر الجديد لجأت الى معین لا ينضب : الى اللغتين الاغريقية واللاتينية . لكن العربية رفضت ان تستقي من هذا المعین . فقد كانت تأبى ان تقتبس عن اللغات الاجنبية - لا سيما المصطلحات التي في لفظها تنافر حروف او في اوزانها خروج فاضح عن اوزان الكلمات العربية - وعوضاً عن الاقتباس كانت تجهد في الاشتقاق والقياس . والعربية لغة غنية بجذورها ، ومن هذه الجذور استطاع الكتاب والادباء من صياغ كلمات جديدة حسب قوانين الاشتقاق العربي المتعارف . وقد جابهت اللغة العربية في تاريخها وضعاً شبيهاً بوضعها هذا وذلك في القرن التاسع عندما نقلت العلوم الاغريقية والفلسفة الاغريقية الى اللسان العربي في بغداد .

والى جانب هذا التطور اللغوي كانت تهب على جميع ارجاء لبنان روح جديدة ، روح العصر الحديث التي بدأت تهب عليه في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، كانت روح العصر هذه تتجلى بهدير ماكينات المطابع ، وتتجسد بسيل من المنشورات والمطبوعات . كانت تتجلى باسلاك البرق وبالخطوط الحديدية وطرق السيارات التي كانت تربط بين القرى النائية في قلب الجبال . وهكذا اصبحت لبنان ، بفضل المهاجرين الذين توطنوا في جميع ارجاء المعمور ، وبفضل الروح الوطنية والقومية والديمقراطية السياسية التي كان يبتثها في قلوب احرار العرب ، أول بلد عصري بين اقطار الشرق العربي .

الفصل الثاني والثمانون

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

لم تكن المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي اشرنا اليها في الفصل السابق ، ولا كان الرجال البارزون الذين جئنا على ذكر نبذ من حياتهم ومآلهم العاملين الوحيدين اللذين جعلنا لبنان القرن التاسع عشر يختلف اختلافاً بيناً عن لبنان القرن الثامن عشر . غير انهما ، دون شك ، خلقا الجو الفكري الملائم الذي يمكن ان تعتمل فيه قوى روحية اخرى . عندما تصطدم حضارة حية نشيطة بحضارة مستكنة جامدة فان الحضارة الجامدة تتصدع وتنفكك ، مما يمهّد السبل للتغلغل والنفوذ . وفي الغالب يكون التغلغل الاقتصادي في الحضارة المغلوبة على امرها اسرع اثرأ وابعد غوراً من التغلغل الاجتماعي والفكري . ذلك ان التغلغل الفكري والروحي يلاقي عند اهل الحضارة البدائية مقاومة وتصلباً ، لان الامر متصل بامور عاطفية روحية . واما التغلغل الاقتصادي فانه لا يمس العاطفة ولا يتناول الامور اللصيقة بحياة الناس كالادب والدين والعادات .

كان الزائر الغربي عندما يأتي لبنان في مستهل القرن التاسع عشر تؤثر فيه المشاهد المحلية الغريبة . فلابس الناس مختلفة وغريبة في ازيائها : الرجال بسرّاويلهم الواسعة او غنابيزهم المقلّمة ، والنساء ، سواء اكن نصرانيات او مسلمات ، يخرجن الى الاسواق محجبات ، والنساء الارستقراطية بطناطيرهن التي تشبه القرون^(١) . والجميع يجلسون القرفصاء على طراريح او على فرش وبأكلون طعامهم في صواني ويشربون الماء بالابريق . وجميع ما في البيت يكاد يكون من الصنع المحلي . فكان الغربي الذي لا يعرف العربية يشعر انه في عالم غريب عنه . فقد كان الناس في هذا الجزء من العالم ، في نظر الغربي ، يعيشون في عالم حالم يسير ببطء . ولكن ما ان

Henry J. Van-Lennep, *Bible Lands: Their modern customs* — ١
and manners (New York , 1875) , pp . 528-30 , 546 .

انصرم القرن حتى اصبح الغريب الزائر يشعر في لبنان ، او على الاقل في بيروت ، انه ليس غريباً في بلاد غريبة .

التغيرات التي طرأت على الاقتصاد اللبناني

كان النظام الاقتصادي اللبناني في عهده الاول يقوم على المشاريع البسيطة الصغيرة الفردية شأنه في ذلك شأن الانظمة الاقتصادية في البلدان المجاورة . اما الزراعة — وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي يتعاطاه اكثرية السكان — فقد كانت على مستوى بدائي ضيق يكفل للفلاح قوته اليومي . اي ان الزراعة لم تكن عملاً اقتصادياً من النوع التجاري الذي يكفل للمرء طعامه وارباحاً اخرى لسد حاجاته الاخرى . ولكن في سهل البقاع حيث التربة خصبة والماء متوفر كان الفلاح يكسب عيشه وعيش عياله . اما الصناع فكانوا صناع قري اي ان انتاجهم لم يكن يتعدى استهلاك اهل قريتهم . وكان لكل بيت نول يدوي لحياكة ما يحتاجون اليه من الاقمشة . وكانت علاقاتهم التجارية تجري على اساس الجوار الودي ذاته ، ان لم نقل العائلي ، الذي كانت تجري عليه علاقاتهم الاجتماعية ، في القرية . وكانت التجارة والاعمال التجارية تجري على اساس شخصي يتميز بالتعاون والثقة . فان ابن القرية يخاطب حتى الغريب بقوله يا اخي او يا عمي .

ولكن بتقدم وسائل النقل البحري والبري بدأت البضائع الاوروبية تتدفق الى اسواق الشرق الادنى . وكان معظم البضائع يتألف من الاقمشة القطنية والصوفية من مانشستر ، واثاث مصنوع في باريس ، وبضائع مختلفة للبيع بالجملة من المراكز الصناعية في اوروبة . وجميع هذه الاعمال كانت تقتضي اساليب جديدة للاستيراد والتوزيع . وفي وجه هذا السيل من البضائع المصنوعة بالماكينات تراجعت الصناعات المحلية ، ان لم تكن شلت ، وفي قرى عديدة تلاشت وانقرضت كالصبغة والحياكة وصنع السلال والخزف التي اشتهر بها اللبنانيون لما فيها من فن وذوق . جميع هذه الاعمال اليدوية انقرضت . وكذلك في المدن فان كثيراً من الصناعات التي كانت فردية تقوم على اساليب قديمة كصنع الاثاث والاحذية والحياطة اضطرت الآن في وجه المنافسة الاوروبية الى تغيير الاساليب لتستطيع

البقاء . غير ان صناعات قليلة جدا استطاعت ان تعيش في وجه المنافسة الأوروبية وذلك لانها كانت تتميز بشيء من الفن واللون المحلي كالاقمشة الجميلة التي تصنع في الزوق من اعمال كسروان، والتي ترغب فيها ربوات البيوت كاغطية للموائد والفرش والسناثر وكصناعة السكاكين والشوك الجزينية ذات المقابض المصنوعة من العظم المطعم بالفضة والنحاس .

هذه التغيرات الاقتصادية التي طرأت على الريف لم يقتصر اثرها على الصناع، بل تعدى ذلك الى الالبيدي العاملة في الزراعة وانتهت بهجرة الكثيرين من الريف الى المدن. اما تربية دود الحرير في الساحل وعلى السفوح الغربية من لبنان فلم يطرأ عليها تغييرات اساسية الا بعد الحرب العالمية الاولى . وفي الواقع ان تربية دود الحرير لم تتلاش كلياً بل ظل فلاحون كثيرون يكسبون عيشهم من انتاج الحرير وبيعه الى فرنسا حتى زمن قريب جداً^(١) .

وقد ازداد عدد سكان المدن بسبب هجرة الجبلين اليها . ومن العوامل التي دفعت باهل الجبال الى السكنى في المدن زيادة المثقفين ثقافة عالية والرغبة الملحة في رفع مستوى العيش ، والشعور بان مجال العمل والكسب في المدن افضل واوسع مما هو عليه في القرى الصغيرة الضيقة الآفاق . فاصبحت مدن الساحل الصغيرة ذات الازقة والمعاير التي يسبحها الصير مدناً كبيرة عصرية . فان بيروت التي كان عدد سكانها عند مستهل القرن التاسع عشر خمسة الاف نسمة اصبح عند نهاية القرن مئة وعشرين ألفاً^(٢) . وظهر في هذه المدن الناشئة جماعة من التجار العصريين الاغنياء الذين استطاعوا تدريجياً ان يقبضوا على دفة الاقتصاد الوطني . واصبح هؤلاء التجار الاغنياء الاقوياء مع جماعة المحامين والاطباء والاساتذة الذين تخرجوا من مدارس غربية او مدارس تسير على النهج الغربي يشكلون طبقة ثالثة جديدة في البلاد . فان السكان حتى هذه الحقبة كانوا فئتين : فئة حاكمة تتألف من الامراء والاقطاعيين والاكليروس ، وفئة محكومة تتألف

١ - Jaques Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche-Orient*, 6th ed. (Paris, 1946.), pp. 185, 265; Cuinet, p. 219.

٢ - Jessup , pp. 25 , 38 ; Cuinet , p. 53 .

من الفلاحين والعمال^(١). فتغيرت الحياة من جوها القديم الهانئ البسيط الى جو من النشاط والعمل الكادح. وتمتع السكان بالحياة المريحة التي اتخذوا منها فناً جميلاً والتي كانت تمثلها « السهرة » اذ كان جل اهل القرية يتجمعون في بيت او على « سطيحة » يشربون القهوة ويدخنون النارجيلة ويتنقلون تيناً يابساً او زبيباً مع الجوز واللوز. ان تلك الحياة القانعة تأثرت تأثراً كبيراً بهذا التغيير

توتر وتبدل

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التغييرات الاقتصادية الجذرية كان هنالك تغيير اساسي يجري في تركيب العائلة اللبنانية. والعائلة اللبنانية وحدة اجتماعية متماسكة. فقد يعيش داخل جدران البيت ربما ثلاثة اجيال من الناس الاب الذي يرأس العائلة كما يرأس بطريق كنيسته او يتزعم شيخ قبيلته، وابنه المتزوج، واولاده. وفي اثناء حياة الاب تعتبر جميع الممتلكات ملكاً للجد. لكن هذا التماسك العائلي اخذ بالتفكك، وبتفكك الرباط العائلي اخذت بعض الفضائل التي تنشأ في مثل هذا الجو العائلي كالولاء والنجدة والتعاون والطاعة واحترام الكبير وغيرها بالزوال. والولاء للعائلة هو احد دعائم اساسية ثلاثة تركز عليها الحياة القروية اللبنانية. والدعامتان الاخريان هما الولاء للدين الذي ينشأ عليه المرء والولاء للتربة. والحضارة القروية القديمة في لبنان حضارة تقوم على هذه العلاقات الروحية التي تربط الفرد بعائلته وعشيرته. وكان اللبناني حتى هذه الفترة التي نحن بصددتها رجلاً قنوعاً يعتبر ان الولاء لعائلته وعشيرته ودينه يكفل له مجالا رحباً لكسب عيشه وتدير اموره، فلم يبق هنالك دوافع تدفع به لارتياح المجهول او للسعي في الارض لكسب عيش افضل من عيشه في القرية^(٢) وما يدل على قدسية هذا التماسك العائلي وقع شتيمة في نفس المرء اذا تناولت دينه

١ - Raphael Patai in the *middle East Journal*, vol. IX (1955), pp . 6-12 .

٢ - راجع عفيف طنوس في مجلة : *The American Journal of Sociology*, col . XLVIII (1942), pp . 231-9 ; in *Annual Report of the Smithsonian Institution* (Washington , 1944), pp . 536-43 ; André Latron , *La Vie rurale en Syrie et au Liban* (Beirut, 1936), pp . 220 seq .

او والديه . ولما افلت اللبناني من قيود العشيرة الكبيرة ومال الى النظام الغربي — العائلة الصغيرة المؤلفة من الرجل وامرأته واولاده فقط — اخذ الشاب اللبناني يمارس حقه الطبيعي في اختيار زوجة له من خارج نطاق العائلة، وفي اختيار العيش خارج جدران البيت القديم . وهكذا اخذ المجتمع اللبناني المتماسك المترابط يتحلل من القيود التقليدية التي كانت تشد افراده الى العائلة والكنيسة .

وطبيعي ان يرى الجيل القديم الذي عايش الروح المحافظة حتى مغرب شمسها في القيم الجديدة وفي التعابير الجديدة ما يدعوه الى الاشتراز والازعاج . كانت الحكومة المطلقة الصلاحية هي الحكومة الصالحة التي تلائم النظام الاقتصادي الاجتماعي القديم ، وكانت السلطة الكنسية هي السلطة المطلقة في الامور الدينية . ولما هبت من الغرب موجة من الفكر الغربي الحديث — وهي موجة من تلك التي عمت العالم بأسره — ظهرت فئة فكرية ثالثة في لبنان لا هي بالقديمة في تفكيرها ولا بالعصرية المتطرفة انما كانت جماع الاثنتين . وكان التوفيق في لبنان بين القديم والحديث ايسر منالا مما كان عليه في بلدان عربية اخرى . والواقع ان مشكلة التوفيق بين القديم والحديث لقيت في لبنان من الصعوبات اقل مما لاقت في اقطار عربية اخرى . والواقع ان هذه المشكلة لم تواجهها الجزيرة العربية بعد مواجهة تامة .

لبنان المهاجر

ان تكاثر السكان في لبنان الجبلي حيث التربة اقل خصباً من النساء وجد منفذاً له في الهجرة الى بلدان اخرى . وبالرغم من ان لبنان هو البلد الوحيد من مراكز غرباً الى العراق شرقاً الذي لا تغذي سكانه موجات من البدو فان تكاثر السكان فيه بلغ حداً بعيداً . فان في سورية مثلاً اربعين الف خيمة للبدو ويشكل اهلها عشر السكان، وفي العراق تشكل العشائر خمسة وستين بالمئة من مجموع السكان ، وفي العربية السعودية، ثمانين بالمئة . اما في مصر فان تزايد السكان كان اشد واسرع مما هو عليه في لبنان . ولكن الفارق هو ان نقمة الرجل العادي ، وتدمره من مستوى عيشه ، ورغبته في رفع مستوى الحياة ، وغيرها من الامور النفسية لم تدفع بالمصري الى الهجرة والسعي

في الارض . وفضلا عن هذا فان في اللبناني من الحيوية والنشاط ما يبعث فيه الطموح فيلجأ الى الهجرة . ان هجرة اللبنانيين في الربع الاخير من القرن التاسع عشر هي الفصل الاخير ، والفصل الرائع من هجرات سابقة بدأت ايام الفينيقيين واستمرت في العهد الروماني البيزنطي .

وكان وادي النيل البلد الذي استهوى اللبنانيين اولا . ذلك انه لما بدأ الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) الذي تم فتح قناة السويس في عهده في اعادة تنظيم الحكم والادارة في مصر تنظيماً يتفق مع رغباته في جعل مصر بلداً عصرياً، وجد في خريجي الجامعات الاوروبية في بيروت موظفين اكفاء . وكذلك لما احتل الانكليز مصر عام ١٨٨٢ وجدوا في خريجي الجامعة الاميركية في بيروت موظفين « انعمت بهم السماء » كما يقول كرومر^(١). كان هؤلاء المهاجرون اللبنانيون الى مصر يقومون بخدمات جلي في حقول الطب والصيدلة والادارة الحكومية المدنية منها والعسكرية، حتى ان بعض الموظفين الانكليز الكبار كانوا يقولون : « لقد كان باستطاعتنا احتلال البلاد ولكن لم يكن باستطاعتنا الاحتفاظ بها لولا هؤلاء السوريون واللبنانيون » اما اولئك المهاجرون منهم الذين اشتغلوا في الحقل الفكري - الادب والصحافة والعلم - فلم يقتصر اثرهم على مصر وحدها بل تعداها الى سائر الاقطار العربية . وفي الواقع ان الصحافة - وكان اللبنانيين فيها نصيب كبير - بعثت الروح العربية من جديد ، وعملت على تحرير الشعوب العربية من القيود التي كانت تقيد لها حكوماتها، وخلقت الحركة الادبية العربية الحديثة، وعرفت الناس الى مبادئ القومية ومثلها كما كانت عليه في القرن التاسع عشر . ومع ان محمد علي هو الذي ادخل الحياة العصرية الى مصر قبل هذه الحقبة بزمان فان حفيده وخليفته الثاني عباس الاول (١٨٤٨ - ١٨٦٣) صرف من الخدمة المدنية جميع الخبراء الاجانب واغلق كل مدرسة او معهد له صبغة اوروبية . وفي اعقاب اهل الفكر الذين هاجروا الى مصر من لبنان وسورية جاء التجار واصحاب الاعمال فوجدوا في مصروطناً ثانياً . وفي سنة ١٩٠٧ كانت ثروتهم تقدر بخمسين مليون ليرة انكليزية

١ - Earl of Cromer, *Modern Egypt*, (New York, 1909), vol. II, p. 216 -

كان اللبنانيون في ذلك الزمن يعرفون بالسوريين او الشوام كما تسميهم العامة في مصر .

اي عشر الثروة القومية في مصر^(١) : وتدل الاحصاءات اللبنانية الرسمية على ان عدد اللبنانيين في مصر اصبح ثلاثين الف نسمة .

غير ان الحظ بسم للمهاجرين اللبنانيين في القارة الاميركية . فان بعض المهاجرين اللبنانيين اكتشفوا في اواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر اميركا الشمالية . وكان قد سبقهم بعض المهاجرين الى شواطئ الاطلسي . وكان في طليعتهم انطون بشعلاني من صليبا . وكان عمره ٢٧ سنة . وبعد سنتين على وصوله توفي في نيويورك^(٢) سنة (١٨٤٥) . وبمناسبة الذكرى المئوية لوفاة اول مهاجر الى اميركا اعلنت الجمهورية اللبنانية ان سنة ١٩٥٥ ستكون سنة «عودة المهاجرين» واعدت برنامجا حافلا بالبرامج الممتعة لاستقبال المهاجرين العائدين الى وطنهم الاول . غير ان الهجرة اللبنانية لم تتخذ شكلا خطيرا الا في اوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر . وفي السنوات الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٩١٤ انخفض عدد سكان الجبل عن طريق الهجرة الى زوايا الارض الاربع بمعدل خمس وعشرين بالمئة ، اي مئة الف نسمة . وقل ان ترى الآن بلدة او قرية من قرى لبنان البالغ عددها ١٦٠٠ قرية ليس فيها بيت مسقوف بالقرميد الاحمر . والشائع في القرى اللبنانية ان صاحب البيت المسقوف بالقرميد الاحمر يجب ان يكون قد جمع ثروة في اميركا . ويقدر عدد المهاجرين اللبنانيين في الولايات المتحدة بربع مليون نسمة ، وفي البرازيل وهي اهم مهجر لبناني ، بثلاث مليون . وكان اول مهاجر استهوته بلاد «أل دورادو»^(٣) في كولومبيا لبنانياً من بلدة مزيارة في قضاء البترون (١٨٨٠) . واغنى العائلات اللبنانية المهاجرة تقيم في سان بولو في البرازيل . ثم اتسع نطاق الهجرة اللبنانية فشمّل بلدانا عديدة متفرقة في جميع انحاء العالم : كندا ، استراليا ، مكسيكو ، نيوزيلندا ، افريقية ، جزائر الهند الغربية والفيليبين وغيرها كثير . كان معظم الرواد المهاجرين اناساً فقراء معدمين اميين يجهلون لغة البلاد التي

١ - British Admiralty, *A Handbook of Syria*, p. 186.

٢ - Philip K. Hitti, *The Syrians in America* (New York, 1924)

٣ - El Dorado كلمة اسبانية معناها المذهب وكانت تطلق على ملك من ملوك الهندو الحمر في اميركا الجنوبية لانه كان يلبس البسة من ذهب في احد الاحتفالات الدينية السنوية . واصبح الاسم يطلق مجازاً على اميركا اللاتينية الغنية (م) .

يأتونها وكان يلاقون ضروباً من الشقاء ويكابدون انواعاً من شظف العيش . كان الواحد منهم يبدأ كبائع متجول يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً فيه طرائف وبضائع غريبة من البلاد المقدسة وقطع قماش مطرزة . وقد يصبح احد هؤلاء الباعة المتجولين بعد حين تاجراً يستورد ويورد وينشئ المكاتب التجارية في العواصم الكبيرة في مختلف القارات^(١) . ولم يكن بالامر العسير على التاجر المهاجر في نيويورك ان يوطد علاقات تجارية بينه وبين تاجر في بونس ايرس بواسطة لبناني آخر . ومن طريف اخبار المهاجرين اللبنانيين وجمعهم ثروات خيالية ان اغنى لبناني في استراليا بقي هناك مدة سنتين قبل ان ادرك انه ليس مقيماً في نيويورك ، او على لغته « النايك » . ذلك ان احد وكلاء شركة سفر في مرسيليا اخطأ فوضعه على مركب مسافر الى استراليا بدلا من نيويورك ! وكما ان الفائض من السكان المسيحيين هاجر الى بلدان الغرب هكذا وجد الفائض من السكان الدروز في حوران موطناً ثانياً . اما الهجرة بين المسلمين فعلى مستوى صغير جداً^(٢) . وقد اجاد حافظ ابراهيم في احدي قصائده وصف المهاجر اللبناني وطموحه الذي لا يعرف حداً حيث قال :

رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا الى الهجرة ركبا صاعدا ركبوا

كان على المهاجرين الاول ان يعيلوا انفسهم وان يرسلوا بعض المال لاءالة اهلهم في لبنان . وقل جداً ان يهمل المهاجر اهله في الوطن الام او ان يقطع علاقاته نهائياً بوطنه . وحسب احصاءات الحكومة اللبنانية حتى في السنين المتأخرة ١٩٥١ و ١٩٥٢ ، نجد ان ما بعث به المهاجرون اللبنانيون من مال الى المعاهد الخيرية والدينية والتربوية بلغ ثمانية عشر مليوناً من الدولارات ، واما بعثوا به الى الاهل والاصدقاء بلغ اثنين وعشرين مليون دولار . لم يكن في زحلة سنة ١٨٨٥ سوى بناية واحدة فقط مبنية بالحجارة ، وهي الكنيسة . ولكن بعد مرور ربع قرن من الزمن لم يعد في المدينة بناء واحد من الطين . وفي زحلة شارع رئيسي يعرف بشارع

١ — للاطلاع على المزيد من اخبار المهاجرين واعمالهم راجع :

Institute of Arab American Affairs , *Arabic - Speaking Americans* (New York , 1946) .

٢ — اذا اراد القارئ الاطلاع على احصاءات من هذا القبيل فليراجع :

Thoumin, pp. 334 - 7 .

البرازيل ويقدر عدد المهاجرين من زحلة ، المدينة الجميلة التي سماها شوقي « جارة الوادي » بثلاثة اضعاف سكانها الحاليين . وتعتبر الحكومة اللبنانية الدخل الذي يبعث به المهاجرون اللبنانيون الى اهلهم والذي يعادل الدخل الذي يعود به موسم الاصطياف على البلاد، على انه من المداخل الرئيسية غير المنظورة . ويعتبر اللبنانيون ان لبنانهم شطران : شطره المقيم وشطره المغترب . ووزير الخارجية اللبنانية يعرف بوزير الخارجية والمغتربين^(١) .

ولكن احتفاظ المهاجر بولائه الى وطنه الام والابقاء على صلاته القديمة باهله ومواطنيه لم يحل دون القيام بواجباته كمواطن في موطنه الجديد . فان اللبناني المهاجر لم يكن يشعر بالقومية الجارفة العنيفة التي يشعر بها القوميون في عهدنا هذا . فكان من اليسير عليه ان يشعر انه مواطن ، ومواطن مخلص ، في البلد الذي كان مهاجر اليه . فان الليونة والمرونة وحسن التكيف التي يتميز بها اللبناني جعلته رجلاً عالمياً . ففي مصر اصبح مصرياً ، وفي فرنسا فرنسياً ، وفي اميركا اميركياً وذلك في زمن لم يكن يشعر اللبناني بعد انه لبناني . بل كان الواحد منهم في لبنان يفكر انه يبروتي او زحلاوي او ديراني او حصروني او حاقلاني او ماروني او درزي او روم او رثوذكس او شيعي . واذا سئل الواحد منهم في المهجر عن جنسيته اجاب انه « ابن عرب » او « سوري » .

لقد ظل الجسر الذي يربط الشرق بالغرب زمناً طويلاً معبراً للبضائع المادية والقيم الفكرية التي كانت تتجه من الغرب الى الشرق . اما الآن فقد ازدوج الجسر فاصبح ايضاً معبراً من الشرق الى الغرب تنتقل عليه الاشياء المادية وغيرها . وكان المهاجرون بمنشوراتهم ومطبوعاتهم ورسائلهم وزياراتهم المتكررة الى الوطن الام يحملون الى مواطنيهم الافكار الجديدة والمعتقدات السياسية الجديدة من مثل حق تقرير المصير ، والحكم الديمقراطي ، وحب الاستقلال ، والتحرر من نير الاتراك اولاً ثم من الانتداب الافرنسي ثانياً . وقد اتخذوا من لبنان مستودعاً للبضائع المادية وموطناً لقيم الحضارية الغربية ، ومنفذاً للبضائع الشرقية والقيم الروحية الشرقية

١ - لدرس التغيرات الاجتماعية التي طرأت على القرية اللبنانية من جراء الهجرة راجع مقالاً لعفيف طنوس في مجلة *Rural Sociology*, vol. VII (1942), pp. 62—74 راجع ايضاً انيس فريجه : حضارة في طريق الزوال ، القرية اللبنانية ، جونية ١٩٥٧ .

الى الغرب، وكثيرون من الكتاب العرب الذين حكم عليهم عبد الحميد بالموت كانوا صحافيين لبنانيين يقطنون القاهرة ونيويورك .

وحيثما ذهب اللبناني كان يحمل معه مطبخه وكنيسته ومطبعته . ففي نيويورك مثلاً تأسست حلقة ادبية كان يرأسها جبران خليل جبران (توفي ١٩٣١) وامين الريحاني (توفي ١٩٤٠) كان لها الاثر البعيد في جميع أرجاء العالم العربي . كان جبران فناناً وشاعراً متصوفاً . وكان لنثر جبران وشعره اثر في تحرير اللغة العربية من بعض جمودها وقسوتها . وقد أصبح زعيم حركة ادبية ، واصبح له اتباع يقلدون اسلوبه ، ولكنهم قصرُوا دونه فكرة وروحاً . وكان لكتابات جبران في الانكليزية وترجماتها الى لغات أوروبية أخرى صدى استحسان عند جمهور القراء في الغرب . اما في البرازيل فقد تأسست حلقة ادبية أخرى تعرف بالعصبة الاندلسية . وكانت تصدر مجلة ادبية استمرت في الظهور حتى سنة ١٩٥٠ . ان حب اللبناني لجبله يتجسد شعراً ، وارق هذا الشعر واجمله واصدقه عاطفة واكثره حنيناً نظمه شعراء لبنانيون وزجالون يقيمون خارج بلادهم . وفي لبنان وخارجه مجلات تعنى بالشعر الزجلي العامي . فقد عرفت بيروت خمس مجلات من هذا النوع^(١) . وليس في العالم العربي من بلد بلغ فيه الشعر العامي من الرقة والكمال والجمال ما بلغه في لبنان .

القومية والديمقراطية السياسية

في سنة ١٨٦٨ عقدت الجمعية العلمية السورية^(٢) اجتماعاً سرّياً انشد فيه الشاعر ابراهيم البازجي — وكان في الحادية والعشرين من عمره — قصيدته المشهورة :
تنهوا واستنشقوا ايها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
وهي دعوة صريحة الى الخروج على الحكم العثماني . وقد سرت هذه القصيدة بين الناس كالنار في الهشيم .

كانت البقطة السياسية والدعوة الى التحرر من الحكم العثماني نتيجة محتمة للبقطة

١ — راجع الاب رفائيل حلة اليسوعي في مجلة المشرق ، المجلد ٤٠ (١٩٥٥) ص ٣٦١ — ٣٦٨

٢ — Antonius, pp. 53—54 .

الفكرية . وقد انتقل مركز الحركة الى القاهرة حيث كانت الصحافة والحرية الفكرية تتمتعان بقسط اوفر من الحرية في ظل الحكم الانكليزي اما الشرارة الاولى فقد انطلقت من اقلام اللبنانيين والسوريين لتلهب الشعور الذي تفجر عن القومية العربية . وشاع على السنة للناس طائفة من الكلمات الجديدة ، أو الكلمات التي اصبحت لها معان جديدة، مثل وطن ووطنية وامة واستقلال وحقوق الانسان^(١).

وكان شعار مجلة الجنان النصف شهرية التي اصدرها بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ « حب الوطن من الايمان » وقد ورد هذا المصطلح « حب الوطن » في الادب القديم . فقد وردت في شعر شاعر حلبي هو ابن الورددي ، (توفي ١٤١٣) ولكن هذا المصطلح اصبحت يوحى من الشعور ما لم يُوحى من قبل ، ويبعث من الولاء الخالص ما لم يبعثه في قلوب الناس من قبل . وكذلك تغير معنى لفظة الحرية عند الناس . فقد اصبحت للحرية معنى جديد فيه قوة واقدام وعزم . يتمثل لك ذلك في قول الياس صالح وهو شاب بيروتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره عندما وقف سنة ١٨٨٨ على منبر الجامعة الاميركية في بيروت وانشد^(٢) :

انت حرّ يا ايها المرء فاعلم ولك العلم فيه والاسبقية
انت حرّ فاعلم بهذا وعلم انت حرّ وهذه اولية
لست عبداً ان كنت تحت نظام لا وليس النظام ذا اولية .

ان شعور العرب بروح القومية كشعور سائر الامم مستوحى من الفكر السياسي الافرنسي ، ولا سيما ذلك الفكر الذي تجسّد في الثورة الافرنسية وفي مبادئ الحكم في الجمهورية الثالثة^(٣) . وكان اول احتكاك فكري بين العرب وفرنسا عندما غزا نابليون مصر . وقد خلف لنا لبناني من دير القمر وصفاً مقتضباً لهذه الغزوة في

١ - رثيف خوري : الفكر العربي الحديث (١٩٤٣) ص ٢١٤ - ٢٢٣

Nicola A. Ziadeh in *The Middle East Journal*, vol. VI, (1952) pp 468—73 .

٢ - زيدان ، تراجم ، الجزء الثاني ص ٢٨٨ . شيخو ، اداب ، الجزء الثاني ص ١٢٦ .

٣ - Hans Kohn , *A History of Nationalism in the East* (London - 1929) , p. 271 .

« مذكراته »^(١) مع مقدمة عن مغزى الثورة الافرنسية . وكان نقولا الترك (١٧٦٣ — ١٨٢٨) قد ارسل الى مصر ليشاهد عن كثب ويرسل تقريراً عن تلك الحرب . ويظهر ان اللبنانيين كانوا على اطلاع حسن على الثورة الافرنسية ومبادئها ، وعلى الغزوة الافرنسية لمصر . وذلك بواسطة « مذكرات » نقولا الترك وتاريخ حيدر الشهابي^(٢) الذي خصّ تاريخه بقسط وافر عن الثورة الافرنسية وحروب نابليون . وتجدر الاشارة الى ان الثورتين المعروفتين « بالعامية » وقعتا سنة ١٨٢٠ و ١٨٤٠ في انطلياس . وقد قامت الحركة القومية العربية اولا على اساس واسع عام : كل الذين يتكلمون العربية يشكلون امة هي الامة العربية التي يجب على كل عربي ان يسعى لتحقيقها . ولكن هذه الفكرة العامة الشاملة التي اصبحت تعرف بالجامعة العربية اصطدمت بعقبات ومشاكل محلية اقليمية اسفرت عن تجزؤها . ففي مصر مثلاً اتخذت القومية اولا شكل مقاومة عنيفة للحكم الانكليزي ثم تحولت تدريجياً الى حركة قومية مصرية . وكذلك الحال في سورية فان الروح الوطنية تجلت اولا في مقاومة الانتداب الافرنسي ومحاربهته . ولم تلبث هذه الروح ان اسفرت عن قومية سورية . اما في سائر البلدان العربية فقد اثار حماسهم وبعث شعورهم القومي من سبائه عاملان آخران : مقاومة سياسة التتريك التي بدأها جماعة تركيا الفتاة والحركة الصهيونية . وفي هذه الاثناء ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية ، وهي فكرة رائعة ومثال سام يروق لكل مسلم . وتختلف عن سابقتها ، الجامعة العربية في ان الفكرة تقوم على ان الدين هو اساس الوحدة القومية الصحيح ، لا اللغة ولا العرق ولا الجنسية . وكان زعيم حركة الجامعة الاسلامية بشكلها الحديث جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ — ١٨٩٧) استاذ محمد عبده المصلح الكبير والمفتي الاكبر للديار المصرية . وكان شعار جمال الدين « لا وطنية في الاسلام » . وكان هدفه الاعلى جمع المسلمين في مختلف اقطارهم تحت حكم اسلامي واحد يرئسه الخليفة . وكان هذا الهدف يتفق تماماً مع سياسة عبد الحميد الذي كان يتطلع الى جمع المسلمين تحت رايته . وواضح ان حركة الجامعة

١ — يظهر ان نقولا الترك كان يتحدر من عائلة رومية في استنبول . وقد نشرت مذكراته بعنوان « مذكرات نقولا الترك » وترجمت الى الافرنسية . وقد قام بالترجمة :

Gaston Wiet, *Chronique d' Égypt* , 1798 - 1804 (Cairo, 1950)

٢ — لبنان، ص ٢١٣ وما يليها .

الاسلامية تخالف الفكرة القومية مخالفة ظاهرة . فان الاسلام لا يعترف بحواجز جغرافية وفوارق طبيعية . الاسلام يعترف بالفوارق الدينية فقط . والاسلام دين شامل في نظره ودولي فوق الدول . والتوكيد في الاسلام على القيم الروحية التي تربط بين المسلمين لا على المسائل الاقتصادية . والقومية العصرية (التي تنبع من الفكر الغربي) تتطلب ولاء يفوق كل ولاء آخر بما في ذلك ولاء المرء لدينه . الولاء للقومية الحديثة اشد رسوخاً في نفوس معتقبيها من ولائهم لدينهم . والقومية الحديثة لا تعترف بالطبقية الطائفية ولا تستطيع العيش الا في جو علماني . وهذا الضرب من القومية في شكله المتطرف في الغلو يصبح ذاته ديناً يعتنقه الناس . ولهذا السبب فان الروح القومية كحركة واعية ذات اهداف معينة لم تتجح في العالم العربي ولم تنتشر فيه الا في الحرب العالمية الاولى . فان جذورها لم تصل الى الاعماق ولم تلهب قلوب الجماهير الا بعد ان تعدت بشقاء الحروب وقاست من ويلاتها ضروبا من البلاء . واطلت عليها مبادئ ودررو ولسن بما فيها من وعود جميلة للشعوب المغلوبة على امرها ولا سيما حق تقرير المصير . والغريب ان المصطلح العربي (القومية) الذي اطلق على هذه الروح لم يظهر في الادب العربي الا في القرن العشرين . حتى انه في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ لم تتناول قراراته التي كانت تهدف الى اصلاح اموراً جذرية سوى المطالبة باللامركزية وبلاستقلال الثقافي والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في مجلس المبعوثان وفي المقاطعات التي يتكلم الناس فيها بالعربية^(١) . والواقع ان هذا المنهاج كان منهاج حزب اللامركزية الذي اسس في القاهرة في السنة التي سبقت عقد المؤتمر . وقد مثل الجالية اللبنانية المقيمة في نيويورك في مؤتمر باريس صحافيان لبنانيان . وكانت نيابة الرئاسة من حظ لبناني آخر يقيم في باريس هو شكري غانم (١٨٦١ - ١٩٣٢) . وكان لشكري اخ في بيروت عين مبعوثاً عن بيروت في مجلس المبعوثان الذي انشأه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦ . وشكري غانم مؤلف اوبرا افرنسية عنوانها عنتر مثلت في باريس والقاهرة .

في وسط هذه الفوضى من التيارات المتضادة من القومية والاممية والقومية المتطرفة وجد لبنان نفسه في حيرة وقلق . فان الشباب المسلم المثقف يؤثر الجامعة

١ - المؤتمر العربي الاول (القاهرة ١٩١٣) ص ١١٣ - ١١٩

العربية . وفي بيروت جريدة يومية اسمها « بيروت » شعارها « العروبة فوق الجميع » . اما رجال الدين من المسلمين فانهم يميلون الى الجامعة الاسلامية . وبين اولئك وهؤلاء تقف الجماهير التي لا تعي الفرق بين جامعة عربية وجامعة اسلامية . اما النصاري في لبنان فانهم كانوا يؤثرون القومية اللبنانية بالرغم من ان عدداً قليلاً من المفكرين كانوا يظهرون العروبة . وكذلك الدروز فانهم يميلون الى القومية اللبنانية . وكانت الحال في سورية كما كانت عليه في لبنان . يدلك على ذلك ان خطيباً وقف سنة ١٩٥٥ في الجامع الاموي يعلن في خطبته ان المسلم الالندوسي اقرب اليه من رئيس الوزارة في دمشق الذي كان اذ ذاك رجلاً نصرانياً (فارس الخوري) والواقع ان هذا الخطيب مخلص مع ذاته وامين لمعتقدده . فان الاسلام يعتبر المسلمين اخوة .

تركيا الفتاة والعثمانية

غير ان ضرباً جديداً من القومية كان في هذه الاثناء يتبلور ، ولكن في الاسنانة .

ففي يوم من ايام تموز سنة ١٩٠٨ صعد الناس عند سماعهم ان ضابطاً تركياً اسمه نيازي قام بثورة مسلحة في استنبول وارغم السلطان على اعلان اعادة دستور ١٨٧٦ واعادة الحياة البرلمانية . كان نيازي يمثل حزب تركيا الفتاة الذين كانوا يمثلون اليد الحديدية في جمعية سرية تدعى جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمل سراً ضد الحكم الحميدي الرجعي وتطالب بالاصلاح في جهاز الحكم . وكان السلطان عبد الحميد قد اعلن في السنة الاولى من حكمه ، بايعاز من مدحت باشا رئيس وزرائه ، دستوراً جديداً وانشأ مجلس المبعوثان (البرلمان التركي) وكلاهما على منوال الدستور والبرلمان الافرنسي والبلجيكي . وكان هذا الدستور الجديد على غرار التنظيمات التي اعلنت من قبل ، اي انه كان يضمن الحرية والمساواة لجميع الرعايا العثمانيين ويضمن حرية الصحافة وتمثيل الشعب بواسطة مجلسين اعلى وادنى . غير ان السلطان عبد الحميد نفى مدحت باشا في السنة التالية وحل مجلس المبعوثان . وكان من جملة الذين غادروا البلاد هرباً من بطش عبد الحميد لبناني اسمه خليل غانم (١٨٤٦ - ١٩٠٣) الذي كان احد اعوان مدحت

باشا . واستقر غانم في باريس حيث اصدر جريدة عربية : « البصير » وقفها في الدرجة الاولى لاطهار مساوىء عهد عبد الحميد وفضح امر المذابح التي اتزلها بالارمن . وكان يرسل جرائد افرنسية وتركية^(١) . ويبدو ان الخطوة التي اتخذها عبد الحميد كانت تهدف الى المحافظة على سلطته . فانه كان يخشى ان يحد المجلس من صلاحياته المطلقة . وعاد ففرض المراقبة على الصحف ، والغى حرية القول ، وانشأ جهازاً للتجسس ، وحرص على ان يكبح جماح الموجة الغربية وما تحمله من افكار عصرية . واحاط نفسه بطغمة من الموظفين الرجعيين الخنوعين الذين يأتمرون بامره وينفذون خططه . وكان يستغل الجامعة الاسلامية ليهدها الدول الغربية عند مفاوضات هذه الدول على الامور التي تتعلق بالبلدان الاسلامية .

غير ان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ لم يكن بافضل من عبد الحميد سنة ١٨٧٦ . فانه لم يكن ينوي الحفاظ على عوده الخلافة في منحه رعاياه الحرية والمساواة . وفي سنة ١٩٠٩ بينما كان يعد العدة مع اعوانه للقيام بثورة رجعية يقضي بها على الروح العصرية الجديدة التي كانت تلهب مشاعر الاثراك الشباب الذين ينتمون الى حزب تركيا الفتاة نشبت الثورة التي اسفرت عن عزله . واقاموا على العرش اخاه ، محمد رشاد الخامس ، الذي كان مسجوناً مدة طويلة .

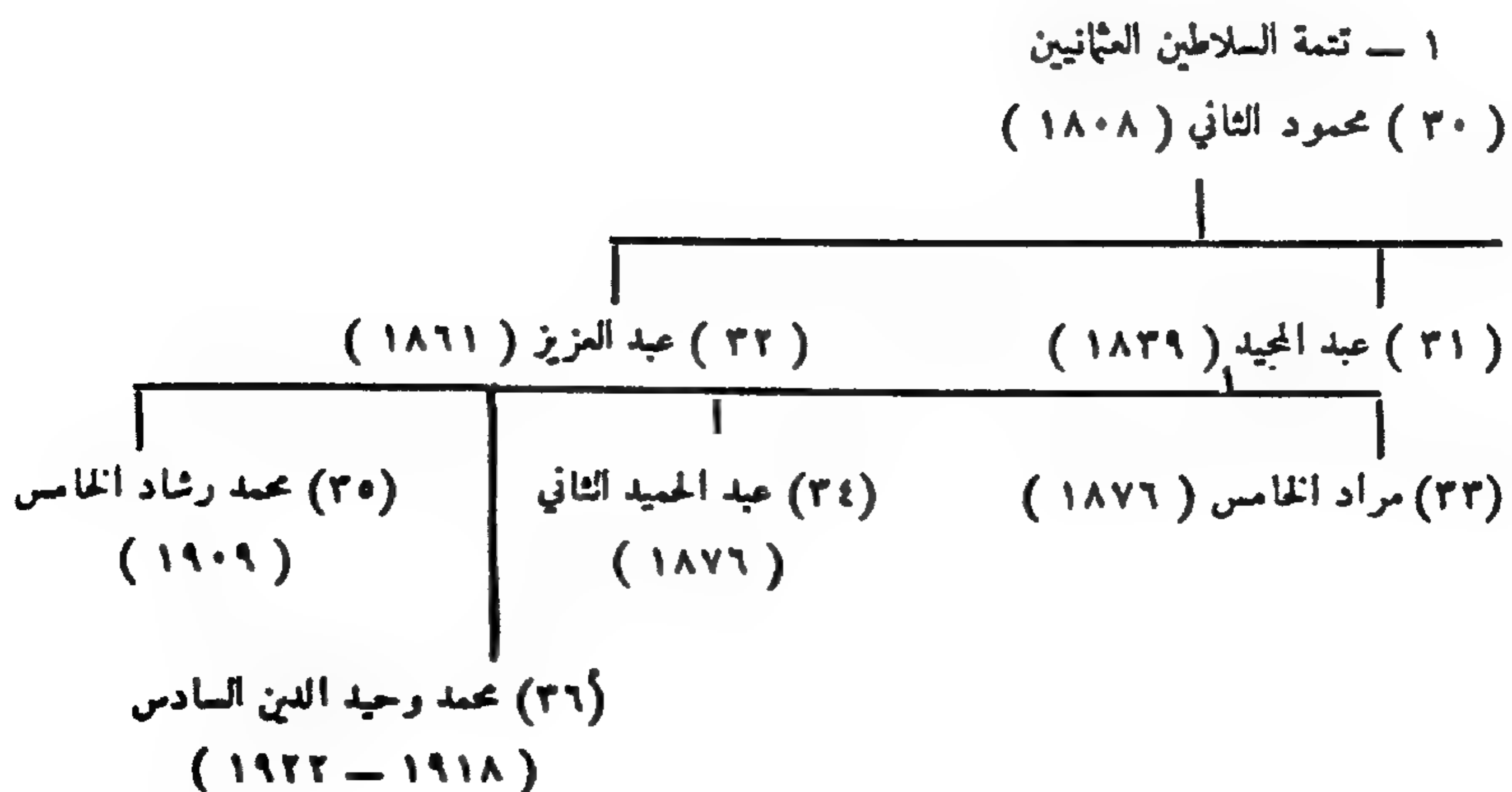
وقد استبشر الناس خيراً بالثورة التي قام بها الشباب الاثراك وبلغ الحماس في جميع انحاء السلطنة مبلغاً عظيماً . غير ان مجلس الادارة في لبنان رفض ان يستجيب الى دعوة استنبول بارسال ممثلين عنه في مجلس المبعوثان . لكن عالماً واديباً لبنانياً هو سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥) الذي ترجم الالباذة الى العربية ، تقلد وظائف حكومية عالمية بما في ذلك وزارة الزراعة^(٢) . وكذلك تقلد لبناني آخر وظائف رفيعة في عهد عبد الحميد وهو سليم ملحمة (١٨٧٨ - ١٩٣٨) فانه كان وزير المناجم والتجارة . وكان سليم صديق ابناء احد ولاة بيروت . وعندما غادر الوالي بيروت الى استنبول ذهب معه سليم وكان له من العمر اذ ذاك سبع عشرة سنة . وفي هذه الفترة العصيبة لم يستطع الاثراك الشباب الذين قاموا بالثورة ان يسيروا

١ - الكونت فيليب دي طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ٢٦٨ - ٢٧١ . سركيس ، معجم المطبوعات ، عمود ١٤٠٥ - ١٤٠٦ .

٢ - طرازي ، الصحافة ، الجزء الثاني ص ١٥٩ - ١٦٨ George - Samné, p. 57

دفة المركب الذي كانت تتلاطمه الامواج من كل صوب . فقد كانت تجابههم مشاكل دولية ومحلية خطيرة لم يكونوا المسؤولين عن كثير منها . فاستحالت الحكومة التي شكلوها الى ديكتاتورية حزبية كانت اشد سوءاً من الحكومة التي تخلصوا منها . وكان لمحاولتهم في خلق وحدة تشمل جميع رعايا السلطنة عن طريق حل جميع الاحزاب والفئات وصهرها في بوتقة العثمانية رد فعل معاكس . فانها شجعت الاحزاب والفئات التي كانت تنادي بالانفصال عن الحكم العثماني . فان القومية العربية مثلاً التي ظهرت كرد فعل لسوء الحكم العثماني ازدادت ، بعد سنة ١٩٠٨ ، حدة وانتشاراً بين مختلف الطبقات^(١) . فانشئت جمعيات ومنظمات سرية وعلمية في سورية ولبنان ومصر واستنبول وباريس ونيويورك تعمل على استقلال الاقطار العربية . وفي الحرب العالمية الاولى انضم الاتراك الى المعسكر الالماني فكانت نهاية الدولة العثمانية ومعها الحركة العثمانية ليقوم مقامها بعد نهاية الجرب قومية تركية . فقد سلخ عن تركيا الولايات العربية وانفصل عنها سائر الاقاليم غير التركية وتقلصت الى دولة تركية صرف تشمل بلاد الاناضول حيث كانت اللغة السائدة التركية وجزءاً صغيراً من اوروبة . وكان هدف مؤسسي تركيا الحديثة ان تكون عصرية غربية علمانية تتطلع الى الغرب . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف عزل السلطان الخليفة محمد السادس وحيد الدين سنة ١٩٢٢ واقيم على العرش عمه عبد المجيد كخليفة للمسلمين وحسب . وبعد مضي سنتين الغيت الخلافة . وهكذا زال حكم الدولة العثمانية ، الدولة الاسلامية التي عمرت اكثر من اية دولة اسلامية اخرى (١٣٠٠ - ١٩٢٢) . وقد تعاقب على عرشها ستة وثلاثون سلطاناً . وكذلك زالت الخلافة وهي اقدم المؤسسات الاسلامية التي بدأت بعد موت النبي

محمد^(١) . كان باني الدولة التركية الحديثة ضابطاً ينتمي الى حزب تركيا الفتاة الذي اشترك في المعارك التي دارت في الجبهة السورية اثناء الحرب العالمية الاولى . واسمه مصطفى كمال الذي لقبوه ب « أتاتورك » اي « ابو الاتراك » لانه حقاً كان ابا الاتراك .



الفصل الثالث والأربعون

الحرب العالمية الأولى والثانية وفرة الازدباب بينهما

ما ان دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى (تشرين الاول سنة ١٩١٤) الى جانب الالمان حتى ظهر جمال باشا ، مدير المذابح الارمنية ، في دمشق كقائد اعلى للجيش الرابع وكحاكم عسكري للمنطقة . وكان جمال باشا يتهم بانه كان يعدل ضد العثمانية وبانه كان يميل الى مناصرة العرب او انه ذو ميول افرنسية . وقد سارع جمال الى احتلال لبنان والغاء استقلاله واقامة حكم عسكري عنيف . تضاعف ازاءه كل حكم ظالم عرفه لبنان من قبل . وكانت الامتيازات الاجنبية قد الغيت في جميع ولايات السلطنة العثمانية ولم تراع حتى حرمة الكنائس والمعابد . فان دير مار شعبا بالقرب من برمانا ودير مار يوحنا القلعة - وهما ديران يقومان على هضبتين ستراتييجيتين مشرفتين على البحر - حولتا الى قلعتين عسكريتين ، واطلق على احدهما اسم قلعة جمال والآخر قلعة رشاد . وفي صيف ١٩١٥ عين علي منيف حاكماً للبنان محل آخر متصرف ، او هانس باشا الذي تردد كثيراً قبل ان ارغم على حل مجلس الادارة . وكان علي منيف الحاكم التركي الثاني الذي حكم لبنان حكماً مباشراً (كان الاول عمر باشا النمساوي) . وقد ظل لبنان طيلة سنوات ثلاث ، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، يرزح تحت نير الحكم العثماني المباشر . وعندما اخذ جمال يعد العدة لغزو ترعة السويس فرض الخدمة العسكرية الاجبارية وامر بمصادرة الخيل والبغال والحمير وفرض على الناس تقديم المؤونة للجيش الرابع .

وفي عاليه « عروس المصايف في لبنان » اقام جمال باشا مجلساً عرفياً للنظر في جميع القضايا التي تتعلق بامن الاتراك في البلاد . وكان اكثر ما يشغل المجلس العرفي النظر في قضايا التهريب من الخدمة العسكرية . وقد قضى هذا المجلس بسجن كثيرين من المسلمين والنصارى السوريين واللبنانيين وببني آخرين واعدام عدد كبير من الذين اتهموا بالخيانة العظمى اي المؤامرة على سلامة الدولة . وعندما استولى على القنصلية الفرنسية في بيروت عثر على وثائق ورسائل اعتبرت مستمسكاً

لادانة عدد كبير بالتآمر مع دولة اجنبية . وقد شجع المجلس العربي الناس على التقدم بشكايات واتهامات باطلة بعضهم ضد بعض . واعتبر كل شخص ينتمي ، او يقال انه ينتمي ، الى جمعية او منظمة من الجمعيات والمنظمات الداخلة في القائمة السوداء^(١) خائناً يجب ان يحاكم عرفياً . وكان مجرد ورود عبارة عابرة في رسالة يبعث بها صديق في المهجر الى صديق له في الوطن يعتبر جريمة يعاقب عليها متسلم الرسالة اذا شعر المراقب ان في العبارة نقداً او تهجماً على الاتراك . اما مطران الطائفة المارونية في بيروت فقد نفى الى بر الاناضول حيث توفي . وقد هدد البطريرك بالنفي ايضاً ، ولكن حكمته في تلك الظروف حالت دون تنفيذ الوعيد . وعندما استدعاه والي بيروت ليسله فرمان الذي انعم به السلطان عليه اعتذر عن المجيء بسبب مرضه . فارسله اليه الوالي مع رسول خاص . وفي اليوم السادس من ايار سنة ١٩١٦ نفذ جمال باشا حكم الاعدام شنقاً باربعة عشر رجلاً من المسلمين والنصارى في بيروت وبسبعة في دمشق بتهمة الموالاتة للقضية العربية التي كان يترعّمها اذ ذاك الشريف حسين في مكة او بتهمة الاتصال بدولة اجنبية^(٢) : فرنسا . ولذا سمي جمال السفاح . ويوم السادس من ايار يوم يحتفل بذكراه في سورية ولبنان وهو عيد الشهداء . وفي بيروت وفي دمشق ساحتان تعرفان بساحة الشهداء حيث نصبت المشانق^(٣) .

قرى مهجورة

مما لا شك فيه ان لبنان عانى من ويلات الحرب واهوالها اكثر مما عانته سورية . ولا نظن ان ولاية من ولايات السلطنة العثمانية قاست ما قاساه لبنان . واول ما نكب به لبنان اقتصادياً زوال موسم الاصطاف والسياسة . والتحاويل المالية التي كان يتلقاها اللبنانيون من شطره المغترب كانت تتأخر اشهرًا وسنين .

١ - راجع : القائد العام للجيش الرابع : ايضاحات (الاستانة ١٣٣٤) ص ٥ وما يليها .

٢ - للاطلاع على اسماء الشهداء راجع كتاب القائد العام للجيش الرابع : ايضاحات ص

١١٥ - ١٢٥ .

٣ - George Haddad, *Fifty Years of Modern Syria and Lebanon* - ٣

(Beirut, 1950), pp. 48—57 .

وسدت طريق البحر ، ولم يحاول الاتراك جلب الطعام والدواء والملبس من الخارج . فقلت البضائع ونقلت الاسواق من ضروريات الحياة . وقطع الاتراك احراش لبنان وقوداً للقطر الحديدية التي كانت تستخدم لاغراض عسكرية . اما الاسعار فقد ارتفعت ارتفاعاً جنونياً . وانزل الاتراك الى الاسواق عملة ورقية لأول مرة في تاريخ البلاد . وكانت قيمة هذه العملة متدنية كثيراً . وبرز شبح المجاعة المخيف في شتاء ١٩١٦ وتفاقم خطره في السنتين التاليتين . اما الدروز فقد رحل قسم كبير من فقراهم الى حوران . وغادر اطفال ايتام قراهم وساروا على غير هدى الى داخلية البلاد ، الى الصحراء حيث كان البدو يأخذونهم الى خيامهم . اما خبر الفتاة اليتيمة التي استقر بها المقام اخيراً في حريم احد الامراء الاغنياء في الجزيرة العربية فقصة نادرة . ولكن عشرات من الفتيات امثالها كان حظهن في الحياة اسوأ مما يمكن ان يكون ، وبعد مرور سنوات كان الواحد يرى اناساً بزي الاعراب على اجسامهم وشم البدو يعودون الى قراهم يفتشون عن الاهل والاقارب علمهم يجدون من يتذكرون او من يتذكروهم . وفي قرية صغيرة من قرى الجنوب وضعت امرأة لبنانية المولد اميركية الجنسية طفلاً ذكراً ، وتوفيت اثر الولادة . ولم يكن للطفل من اهل او اقارب يعتنون به . وبعد زمن وجد طريقه الى التلال المحيطة بقريته وراح يقات على النبات وجذور النبات وعلى حليب الماعز من القطعان السارحة في الجبال . وبعد سنوات عرف الولد انه يستطيع الحصول على الجنسية الاميركية . وسافر الى الولايات المتحدة وهناك كتب قصة حياته الشجية^(١) . واليك ما دونه احد اساتذة الجامعة الاميركية^(٢) :

« اما المعسرون فبعد ان فرغوا من بيع اشياهم قصد قسم منهم الداخلية لتحصيل الاقوات من مخالب الافات ، وقسم ظلوا في قراهم يستقبلون الموت تحت سقوف منازلهم . وقسم هبط الى الساحل فاصاب بيروت منهم نصيب كبير فانضموا الى متسوليهها واصبحوا بجيشاً كبيراً . وقد كانوا طبقتين الاولى هم الذين

١ — Salom Rizk , *Syrian Yankee* (New York , 1934)

٢ — جرجس المقدسي : اعظم حرب في التاريخ (بيروت ١٩٢٧) ص ٦٨ — ٦٩ . راجع ايضاً انطون يمين . لبنان في الحرب ، الجزء الاول (بيروت ١٩١٩) ص ١٠٢ — ١٠٥ ، ١٣٠ ، وما يليها ، والجزء الثاني ص ٥ وما يليها .

كان لم يزل فيهم شيء من النشاط مكنهم من ان يطوفوا على ابواب المخازن والمنازل للاستعطاء . وكانوا يبحثون في الدمن والمزابل لعلهم يعثرون على ما يشغلون به المعد الفارغه من قشور الموز والبطاطا والليمون والواح الصبير وغير ذلك . وكان بعضهم يقصدون الجيف المنتنة للالتهام منها . اما القسم الثاني فهم الذين خارت قواهم من شدة ما عانوا من سوء المعيشة والجوع فانطرحوا على جوانب الشوارع يستنجدون بكلمات تفتت الاكباد . بل بعضهم لم يبق فيهم الضعف قوة لرفع اصواتهم فكانوا يستغيثون بعيونهم الدليلة وهم منطرحون في الطرقات على ان اشد منظر على النفس كان منظر الاطفال .

وفي هذه الاثناء انتشرت الامراض والابوة بشكل مخيف ، فكان الضربات التي ضرب الله بها المصريين القدماء حلت بلبنان . كان الذباب ينقل حمى التيفوئيد، وكان القمل يحمل حمى التيفوس ، وكانت الجرذان تنقل عدوى الطاعون . وكثر البعوض وزادت الوفيات من حمى الملاريا . وكان الناس يشربون المياه ملوثة بجراثيم الزحار . وكانت اشد المصائب ارجال الجراد التي غزت البلاد في نيسان سنة ١٩١٥ . ظل الجراد يحجب نور الشمس اياماً عديدة فلم يبق من الاخضر شيئاً . ويقدر ان خسارة لبنان في الارواح بلغت المئة الف نسمة ولا شك ان الخسارة في الارواح كانت تجاوزت ذلك كثيراً لولا المال الذي كان يرد للناس من اهلهم وذويهم في المهجر . وتقدر المبالغ المالية التي بعث بها المهاجرون الى ذويهم في لبنان في السنة الاولى من سني الحرب بمئتين وتسعة وخمسين مليوناً من الدولارات ، يضاف الى ذلك اعمال الغوث والاحسان التي قامت بها منظمة خيرية اسسها وعضدها مواطن اميركي من مدينه نيويورك اسمه كليفلند هـ . دودج الذي ينتمي الى اسرة كانت ولا تزال تعنى باعمال البر والاحسان والتربية في بلدان الشرق الادنى . وكان ابن كليفلند دودج ، بايرد دودج ، آنذاك مدرساً في الجامعة الاميركية فتولى عملية التوزيع . وقد جاء الى لبنان اثناء الحرب الوف من الاشوريين والارمن اللاجئين . فقد كان في معسكر اللاجئين التابع لمدينة بيروت فقط خمسة عشر الف لاجيء . وكان في ضواحي بيروت عدد مماثل . وقد استمرت مؤسسة الغوث الاميركية في الشرق الادنى في اعمالها الخيرية الى ما بعد الحرب (١٩١٦ - ١٩٢٩) . ويقدر انها انفقت مئة مليون دولار ، وعلمت

١٣٦,٠٠٠ ولد ، واطعمت ١٢,٥٠٠,٠٠٠ جائع وعالجت طيباً ستة ملايين نسمة^(١) . ويدلك على هول الفاجعة التي المت بلبنان اثناء الحرب العالمية الاولى ان بلدة مثل البترون كان عدد سكانها عند نشوب الحرب خمسة الاف نسمة . فهبط عند انتهائها الى القين . وقد قامت الارسالية الاميركية في جنوب لبنان وفي صيدا بعملية احصاء للاضرار المادية والخسارة في الارواح التي وقعت في الاجزاء الجنوبية من لبنان ، فتبين لها ان ١٨٢ قرية بمساكنها البالغ عددها عشرة الاف مسكن ، وبعدد سكانها البالغ ٧٧ الف ، تهدم فيها ٢٥٠٠ مسكن اثناء السنوات الاربع من سني الحرب ، وهلك ٣٣ الف نسمة . وان الاربعة واربعين الفا الباقين فيهم ١٦,٤٠٠ فقير معدوم و ٢٦٠٠ يتيم . وكما قلنا آنفاً بلغت خسارة لبنان في الارواح مئة الف نسمة من اصل ٤٥٠,٠٠٠^(٢) .

الانتداب الافرنسي

بدت للناس الملهوفين في لبنان بارقة امل جميل عندما احتل الجنرال اللنبي في شهر ايلول عام ١٩١٨ فلسطين ممهداً السبيل لاحتلال لبنان وسورية . بدأ اللنبي هجومه من قاعدته في مصر . وكانت الجيوش العربية بامرة فيصل ابن الحسين تعاونه عن طريق شرقي الاردن^(٣) . وفي اليوم السابع من شهر تشرين الاول انزل الاسطول الافرنسي فرقة من الجنود في مدينة بيروت . وعلى صخرة نهر الكلب حيث سجلت اخبار امم قديمة في اجتياحها لبنان وعبورها نهر الكلب ، ترك الانكليز والفرنسيون نقشين تخليداً لذكرى احتلالها لبنان وسورية . وقبل ان ينصرم شهر تشرين الاول كان فيصل قد دخل دمشق مع الجيوش الانكليزية . كذلك وقعت تركيا على شروط الهدنة في مودروس (في جزيرة لمنوس) التي بموجبها سرحت على الفور جميع جيوشها . وتابعت جيوش الحلفاء زحفها حتى جبال طوروس . وفي مؤتمر سان ريمو (في

١ - Frank A. Ross, C. Luther Fry and Elbridge Sibley, *The Near East American Philanthropy* (New York, 1929), p. 2 .

٢ - جرجس المقدسي ، اعظم حرب في التاريخ ، ص ٥٩ .

٣ - في هذه المعارك برز اسم لورنس . راجع كتابه :

Revolt in the Desert (New York, 1927), pp. 41 seq .

Seven Pillars of Wisdom (New York, 1936), pp. 537 seq .

ايطاليا) الذي عقد في شهر نيسان سنة ١٩٢٠ اعطيت فرنسا، باعتبارها من ورثاء السلطنة العثمانية المنحلة ، الانتداب على كل من لبنان وسورية ، واعطيت كذلك انكلترا الانتداب على فلسطين والعراق . وبعد اربعة اشهر وقعت تركيا على معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة سيفر والتي تنص على تنازل تركيا نهائياً عن المقاطعات التي وقعت تحت الانتداب الافرنسي والانكليزي . وبعد سنتين وقع في لندن على صك الانتداب الذي وضع العلاقات الافرنسية اللبنانية على صعيد دولي رسمي تحت رعاية عصبة الامم . وفي هذه الاثناء توترت العلاقات بين فرنسا وبين فيصل في دمشق ووقعت الحرب بينهما . وفي ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ التحم الجيش الافرنسي في معركة بالجيش السوري في ميسلون اسفرت عن دخول الافرنسيين مدينة دمشق . وبذلك ثبتت فرنسا قدمها في سورية .

تعزى فكرة الانتداب - وهي ظاهرة جديدة في العلاقات الدولية - الى الجنرال سمطس من جنوبي افريقية والى الرئيس وودرو ولسن . ولكن الرئيس ولسن ، قبل الاقدام على فرض الانتداب على سورية ولبنان ، بعث بلجنة مهمتها الاطلاع على رغبات السكان في المقاطعات المنوي وضعها تحت الانتداب . وقد قام الرئيس ولسن بهذه الخطوة بناء على اقتراح قدمه له هورد س. بلس، رئيس الجامعة الاميركية في بيروت، وتمشياً مع مبدئه القائل بحق تقرير المصير . فبعد ان احتلت جيوش الحلفاء سورية ولبنان بقليل من الزمن (٧ تشرين الثاني ، ١٩١٨) اصدرت الحكومة الانكليزية بيانا مشتركاً اعلنت فيه عن رغبتها الصادقة في اقامة « حكومات تستمد سلطاتها من الشعب وبملاء حريته واختياره » وقد ضمن هذا المبدأ فيما بعد في بند من بنود ميثاق جمعية الامم وفي صك الانتداب . غير ان انكلترا وفرنسا وايطاليا في هذه الاثناء قصرت في امر تعيين ممثلين عنها . وكانت نتيجة استقصاءات اللجنة الاميركية كما جاءت في تقريرها ان اكرية اللبنانيين اظهروا ميلاً للانتداب الافرنسي وطالبوا بلبنان الكبير من صور الى طرابلس

وبلبنان مستقل استقلالاً تاماً عن سورية^(١).

كان صك الانتداب وثيقة واحدة تشمل البلدين سورية ولبنان. ومن بنود صك الانتداب بند الغيت بموجبه الامتيازات الاجنبية التي كان معمولاً بها في السلطنة العثمانية. وتنص المادة العاشرة على « ان مراقبة الدولة لبعثات المرسلين الدينية في سورية ولبنان تقتصر على حفظ النظام العام وحسن الادارة ». وتنص مادة اخرى على ان اللغة الافرنسية والعربية لغتان رسميتان غير ان لغة التعليم الرسمي في المدارس هي اللغة العربية. والدليل على ان وثيقة صك الانتداب صيغت على عجل وبدون روية وانه ينقصها التوازن في اهمية بنودها العشرين يظهر لك بجلاء في البند الرابع عشر الذي يعنى بامر الآثار التاريخية. هذا البند، الذي هو في نظر الناس اقل اهمية من غيره شامل مانع يحتوي على ثماني فقرات مفصلة ويشكل سدس حجم الوثيقة^(٢)! ولكن الحقيقة الثابتة هي ان الانتداب هذا، لكونه انتداباً من نوع (آ)، يتضمن فكرة سامية ويهدف الى غاية نبيلة لا عهد للناس بها ولا ذكر لها في العلاقات الدولية بين المستعمر والمستعمر. وقد حددت المادة الثانية والعشرون من ميثاق جمعية الامم فكرة الانتداب الاساسية ووضحت الغاية منه :

« إن بعض الشعوب التي كانت تحت الحكم التركي سابقاً قد وصلت إلى طور من التقدم يمكن معه الاعتراف بوجودها احتساباً كأمم مستقلة تقدم لها الدول المنتدبة عليها النصع والمساعدة إلى أن تصبح قادرة على إدارة شؤونها بذاتها. وينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار رغبات هذه الشعوب لدى اختيار دول الانتداب^٣. »

ولكن صك الانتداب كانت تنقصه الوسائل الفعالة لبلوغ الهدف

١ - ان تقرير هذه اللجنة لم ينشر رسمياً، انما ظهر اولا تحت عنوان « تقرير لجنة كنغ - كراين عن الشرق الادنى » في *Editor and Publisher*, vol. LV (New York, Dec. 2, 1922).

ويحسن بالقارئ الذي يريد تحليلاً لهذا التقرير ان يراجع :

Harry N. Howard, « *An American Experiment in peace-making: The King Crane Commission*, » *The Moslem World*. vol. XXXII, (1942), pp. 122 - 46.

٢ - تجد نص وثيقة صك الانتداب في كتاب روبرت ابيلا : اطوار الحكم في لبنان (بيروت ١٩٤٢) ص ٥ - ١٢.

٣ - *Covenant of the League of Nations* (Geneva, 1924), pp. 12-13.

الاساسي . ذلك أنه في الواقع لم يضع مقاييس موضوعية يستطيع المرء بموجبها ان يقيس مدى بلوغ الشعب المنتدب عليه درجة من النضج السياسي يستطيع معه ان يحكم ذاته بذاته . بل ترك هذا الامر (انتهاء الانتداب ، والحكم على الشعب المنتدب عليه بانه اصبح قادراً على ادارة شؤونه) للشعب المنتدب عليه ليبرهن عن قدرة اقتصادية وسياسية تؤهله للحكم الذاتي ، وللدولة المنتدبة لتعالج الامر تبعاً لاغراضها ودوافعها وبقدر ما تفرضه سياستها .

ولكن تطبيق الانتداب اعظم شأناً من نص الوثيقة ذاتها . كان المفوضون الساميون الثلاثة الاول من العسكريين الذين برزت اسمائهم اثناء الحرب العالمية الاولى . وكان اعوانهم في ادارة الانتداب موظفين افرنسيين تمرنوا على الادارة في المستعمرات الافرنسية . وكانت السلطة في ايدي الافرنسيين ، وكانوا يحكمون البلاد حكماً مباشراً . وكانت الصلاحيات التي تعطى الى الحكومة الوطنية اقل بكثير من الصلاحيات التي كانت تتمتع بها الحكومات الوطنية في العهد الذي سبق الانتداب . ويجب الاعتراف بان فرنسا وجدت البلاد في اسوأ فترة من تاريخها سواء اكان ذلك في حقل الاقتصاد ام في السياسة ام في الاجتماع ام في الحالة الروحية والفكرية التي كانت تتردى البلاد فيها . فشرعت على الفور في تنظيم الادارة والقضاء واصلاح الموانئ وترميم الطرق وانشاء المدارس وتأسيس مصلحة للصحة العامة والاعمال الانشائية^(١) . وكذلك وضعت الدولة المنتدبة قوانين مدنية عصرية . وفي سنة ١٩٢٢ سنت قوانين للبلديات عصرية لتحل محل القانون العثماني القديم لسنة ١٨٧٧ . وهذه القوانين الجديدة من شأنها ان تمكن قرابة مئة وعشرين قرية ومدينة من ممارسة شيء من الاستقلال الذاتي المحلي ومن تشجيع انتاج الحرير الذي لولا هذه القوانين والانظمة البلدية لكان اضمحل اضمحلالاً تاماً . وربطت الدولة المنتدبة

١ - Jean - Albert Sorel, *Le Mandat français et L'expansion économique de la Syrie et du Liban* (Paris, 1929), pp. 241—2 .

للاطلاع على التقارير المفصلة التي كانت تبث بها الدولة المنتدبة راجع :

Ministère des Affaires Étrangères : *Rapport à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban* (Paris, 1923).

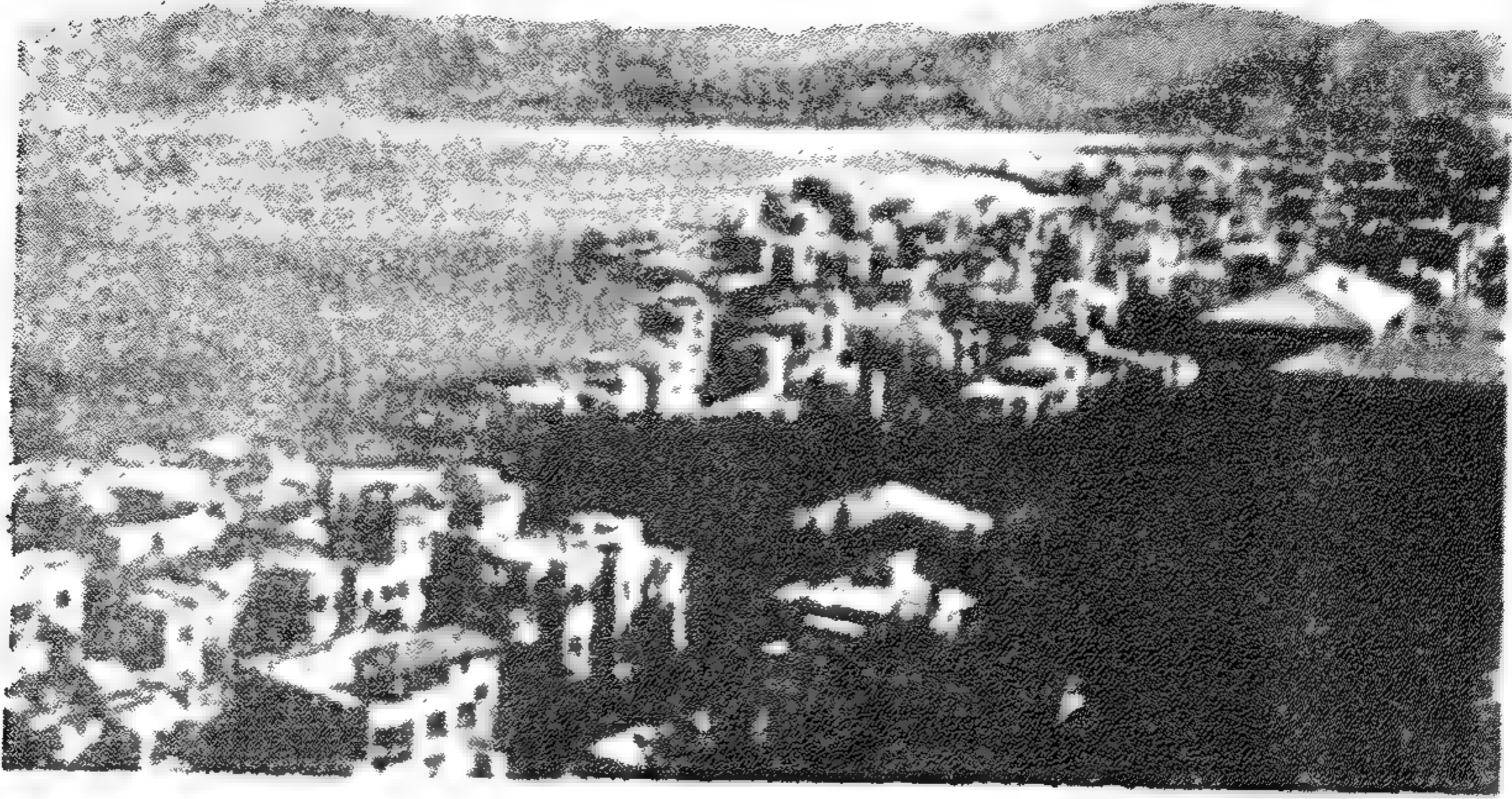
وما تلاها من تقارير اخرى .

عملية البلاد بالفرنك الافرنسي الذي كانت قيمته قد انخفضت كثيراً . وابتدت السلطة اهتماماً خاصاً ببناء بيروت وانشائه انشاء عصبياً بعد ان كان قد اهل منذ ان انشأته شركة افرنسية بين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٤ . ولكن معظم جهود السلطة المتدبة تركزت على اقامة جهاز اداري وخطة سياسية تضمنان لها الاستقرار وسلامة مصالحها وبقائها في البلاد لا على استغلال موارد البلاد الطبيعية لصالح الشعب، ولا على تدريبه على ممارسة الحكم لكي يصبح يوماً قادراً على حكم نفسه بنفسه . ومن جهة اخرى تركزت اتجاهات الرأي العام على السياسة الحزبية الضيقة التي كانت تدور حول اشخاص اكثر مما كانت تدور حول مبادئ^(١) .

اعادة لبنان الكبير الى الوجود

كان اول مفوض سام افرنسي الجنرال غورو بطل معركة المارن الذي فقد احدى ذراعيه في المعارك الحربية. وهذا المفوض الافرنسي الاول هو الذي ثبت قدم فرنسا في سورية. فانه بعث بانذار الى حكومة فيصل في دمشق واتبعه بارسال جيوشه التي التحمت بالجيش السوري في معركة ميسلون . وكان غورو القائد العام للجيش الافرنسي في سورية ولبنان التي كانت تتألف في الدرجة الاولى من جنود افرنسيين وجنود المستعمرات وبعض الوحدات المحلية التي كان يطلق عليها اسم « الجيوش الخاصة بالشرق » . وفي اليوم الاول من شهر ايلول سنة ١٩٢٠ اعلن الجنرال غورو في بيروت اعادة لبنان الكبير الى الوجود بهذه العبارة :

« في سفح هذا الجبل الشامخ الذي كان قوة بلادكم وسور ايمانها وحريتها المنيع ، وعلى شاطئ هذا البحر العجيب الشهير الذي شاهد سفن فينيقية واليونان ورومة ماخرة عبابه حاملة آباءكم اهل الذكاء والمهارة وارباب الفصاحة والتجارة، وهو يحمل اليكم اليوم بعد رجوع الحظ عهد صداقة عظيمة قديمة ونعمة السلم الفرنسي ، وامام هؤلاء الشهود جميعاً شهود آمالكم ومجهوداتكم وانتصاراتنا ، وبقلب يشاطركم فرحكم وفخركم ... اناذي باسم حكومة الجمهورية الفرنسية بدولة



بيروت ، عاصمة الجمهورية اللبنانية ، كما تبدو من ارض الجامعة الاميركية في بيروت

لبنان الكبير واحبيه راجياً له المجد والنجاح .

وفي هذه الاثناء وضع دستور جديد لحكم البلاد ولتعيين الحدود^(١) . اما المدن البحرية التي الحقت بلبنان - بيروت التي اصبحت العاصمة وصيدا وصور وطرابلس - والمدن والمقاطعات الداخلية مثل البقاع وبعبك وحاصبيا وراشيا ومرجعون فانها كانت سابقاً جزءاً من لبنان تاريخياً وجغرافياً . وكان يحكمها احياناً المعنوني وتارة اخرى الشهابيون . غير ان مساحة الارض التي الحقت بلبنان ضاعفت تقريباً مساحته وزاد عدد سكانه بما يقرب من مئتي الف نسمة معظمهم من المسلمين الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهملة ومتأخرة اقتصادياً واجتماعياً^(٢) ، فان عدد سكان لبنان حسب احصاء ١٩١٣ كان يقدر ب ٤١٤,٨٠٠ منهم ٣٢٩,٤٨٢ مسيحيون (ومن هذا العدد ٢٤٢,٣٠٨ من الموارنة) . وبعد مضي عشر سنوات بلغ عدد السكان ٦٢٨,٨٦٣ منهم ١٥٠,٠٠٠

١ - Text in League of Nations , *Permanent Mandates Commission : Minutes of the Eight Session (Extraordinary)* (Geneva , 1926), pp . 192-5 .

٢ - Sa'id Himadeh , ed . *Economic Organization of Syria* (Beirut , 1936), pp . 6 , 410 - 11 .

يسكنون بيروت و ٣٠,٠٠٠ في طرابلس و ١٣,٠٠٠ في صيدا . ولكن هذا الكسب في مساحة الارض كان يقابله عدم تجانس في السكان ونقص في التمازج والترابط . ذلك ان لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً . ولكن من الناحية الجغرافية والاقتصادية اصبح لبنان دولة تستطيع البقاء . اما الاكثية



بنية مجلس النواب اللبناني

المسيحية فلم تظل لها تلك الاكثية الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل .
تميزت السنوات الواقعة بين الحربين بتقدم مستمر في اساليب الحكم الوطني الديمقراطي . ففي الثالث والعشرين من شهر ايار عام ١٩٢٦ اعلنت دولة لبنان جمهورية . واتخذت علماً لها العلم الافرنسي المثلث الالوان ، انما اضافت اليه صورة الارزة الخضراء — شعار لبنان — في الرقعة البيضاء ، ولكن هذا العلم غير فيما بعد الى علم يتألف من ثلاثة رقع افقية الوانها : احمر ابيض احمر ، والارزة الخضراء في الابيض . وكذلك وضع دستور جديد ينص على اقامة نظام برلماني وحكومة

ديمقراطية . وكانت جمهورية لبنان الديمقراطية اول جمهورية من نوعها تأسست في العالم العربي . والدستور الجديد الذي وضعه المجلس التمثيلي بطلب من المفوض السامي هنري دي جوفينال ، اول مفوض مدني ، مستمد بروحه من الدساتير الغربية العصرية . وينص على انتخاب رئيس للجمهورية وعلى اقامة وزارة مسؤولة ومجلسين : مجلس النواب ومجلس الاعيان (وقد الغي مجلس الاعيان فيما بعد) . وبالرغم من ان هذا الدستور عدل مرات عديدة وعلقه المفوضون الساميون اكثر من مرة فانه لا يزال في اساسه الدستور المعمول به الى الآن . والدستور اللبناني لا ينص على ان للدولة ديناً معيناً كما هو الحال في دساتير البلدان العربية المجاورة ، بل ان حرية العبادة في لبنان حقيقة ثابتة . غير انه ابقى على قانون الاحوال الشخصية القديم الذي كان تنفيذه منوطاً برؤساء الطوائف والملل سواء اكانوا نصارى ام مسلمين . وفي سبيل المحافظة على التوازن الطائفي فقد نشأ تقليد بموجبه يصبح رئيس الجمهورية مارونياً (ان الموارد ، كطائفة ، هم اكبر طائفة في لبنان) ، ورئيس الوزارة مسلماً سنياً ورئيس المجلس النيابي شيعياً ووزير الدفاع درزياً . وكان اول رئيس ماروني للجمهورية عينه المفوض السامي الافرنسي حبيب باشا السعد الماروني (١٩٣٤ - ١٩٣٦) . اما اول رئيس من الموارد للجمهورية ينتخبه المجلس فقد كان اميل اده (١٩٣٦ - ١٩٤١) . وفي الواقع كان اول رئيس منتخب^(١) . واصبح الحكم الافرنسي في البلاد حكماً غير مباشر وذلك عن طريق المستشارين الذين كسانوا يسمون « مستشارين » ولكنهم في الواقع كانوا

١ - رؤساء الجمهورية اللبنانية :

- (١) شارل دباس (٢٦ ايار ١٩٢٦ - اول كانون الثاني ١٩٣٤)
- (٢) حبيب باشا السعد (٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ - ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦)
- (٣) اميل اده (٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ - ٤ نيسان ١٩٤١)
- (٤) الفرد نقاش (٢٤ تشرين الثاني ١٩٤١ - ١٨ اذار ١٩٤٣)
- (٥) ايوب ثابت (١٨ اذار - ٢١ تموز ١٩٤٣)
- (٦) باترو طراد (٢٢ تموز - ٢١ ايلول ١٩٤٣)
- (٧) بشارة الخوري (٢١ ايلول ١٩٤٢ - ١٨ ايلول ١٩٥٢)
- (٨) كميل شمعون (١٢ ايلول ١٩٥٢ - ٢٣ ايلول ١٩٥٨)
- (٩) فؤاد شهاب (٢٣ ايلول ١٩٥٨ - ٢٣ ايلول ١٩٦٤)
- (١٠) شارل تلو (٢٣ ايلول ١٩٦٤ - ٢٣ ايلول ١٩٧٠)
- (١١) سليمان فرنجية (٢٣ ايلول ١٩٧٠ -)

يتمتعون بصلاحيات واسعة . اضيف الى هذا ان دائرة الامن ظلت في ايدي الافرنسيين ، وقد كانت تضم بين موظفيها جماعة كبيرة من رجال التحري .

استقلال اسمي

في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ وقع رئيس الجمهورية اميل اده والمفوض السامي دي مارتل معاهدة صداقة وتحالف مع فرنسا مدتها ٢٥ سنة . وبموجب هذه المعاهدة تعترف فرنسا باستقلال لبنان وبمساعده على الانضمام الى عصبة الامم كدولة مستقلة ، بينما تحتفظ فرنسا بالامور الخارجية والعسكرية التي تظل ضمن صلاحيات المفوض السامي . وهذه المعاهدة شبيهة بالمعاهدة التي عقدت بين فرنسا وسورية بفارق واحد رئيسي ، وهو ان تدريب الجيش السوري كان ينسب بضباط افرنسيين ، بينما يحق لفرنسا ابقاء جيوش افرنسية في لبنان طيلة مدة المعاهدة التي يمكن تجديدها بتراضي الفريقين . ولكن هاتين المعاهدتين ، الافرنسية اللبنانية والافرنسية السورية ، لم تصدق عليهما الجمعية الوطنية في فرنسا مما زاد العلاقات بين فرنسا وسورية ولبنان توتراً وسوءاً^(١) . اما لبنان الذي تعود اهله على مدى الايام تقلبات الاحوال وتغير السلطات الحاكمة فانه لم يبد من المقاومة العنيفة والانتفاضات الخطيرة التي ابداهما سكان سورية في وجه الدولة المنتدبة . فقد عبر السوريون عن الاستياء العام ، والمقاومة الشديدة للانتداب ، وخيبة الامل في تحقيق اهداف القومية الوطنية احياناً بشكل اضراب عام أو بقيام مظاهرات واحياناً اخرى بثورات مسلحة . وخطر هذه الثورات كانت ثورة ١٩٢٥ التي انطلقت شرارتها الاولى من جبل الدروز فعمت سائر انحاء البلاد ، مثل دمشق وحماة ومدن اخرى . ولم تهدأ الثورة الا في

١ - للاطلاع على المزيد من سير العلاقات بين لبنان الانتداب ولبنان المستقل راجع :

Pierre Rondot, *Les Institutions politiques du Liban* (Paris, 1947), pp. 7—21; Albert H. Hourani, *Syria and Lebanon* (London 1946), pp. 179—230; Louis Jalabert, *Syrie et Liban* (Paris, 1934), pp. 30—40; Nicola A. Ziadeh, *Syria and Lebanon* (London, New York, 1957), pp. 46—61; Stephen H. Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate* (London, 1958), passim .

سنة ١٩٢٧ . وقد تناولت الثورة بعض لبنان الجنوبي . ومما زاد التوتر في سورية سياسة الانكليز في العراق التي كانت اكثر تحرراً واخف قيوداً على شعب العراق . ولكن في هذه الاثناء كانت تتلبد في الافق البعيد غيوم سوداء تنذر بشراً مستطير . كان ذلك شبح الحرب العالمية الثانية .

في ظل الاحكام العرفية

في التاسع من شهر ايلول سنة ١٩٣٩ اعلن المفوض السامي غبريال بيو^(١) الاحكام العرفية وعلق الدستور وحل المجلس النيابي وحد كثيراً من سلطة رئيس الجمهورية . وعين وزير دولة ليقوم ببعض الاعمال الادارية التي كانت تقوم بها الوزارة . وعينت الحكومة الافرنسية الجنرال ويغان ، احد ابطال الحرب العالمية الاولى وخليفة غورو كمفوض سام في سورية ولبنان ، قائداً عاماً لجميع جيوش الحلفاء في منطقة حوض المتوسط الشرقية . ولكنه استدعي في الربيع التالي ليتولى قيادة جيوش الحلفاء في اوروبة . وقد ظل في هذا المركز الى ان سقطت فرنسا صيف ١٩٤٠ . اما خليفته في قيادة الجيش الافرنسي في سورية ولبنان فقد اعلن ، بالاتفاق مع المفوض السامي بيو ، ولاءه لحكومة فيشي وانهاء جميع الاعمال الحربية ضد المانيا وايطاليا^(٢) . وكان هذا العمل الى حد ما نتيجة العداء التقليدي الذي كان مستحكماً بين الموظفين الافرنسيين في سورية ولبنان وبين الانكليز جيرانهم في فلسطين والعراق . غير ان انكلترا التي لم تكن مطمئنة الى وضعها السياسي والعسكري في فلسطين والعراق ومصر ، والتي كانت تخشى ان تلجأ دول المحور

١ - اسماء المفوضين السامين :

- (١) الجنرال هنري غورو ، ٨ تشرين الاول سنة ١٩١٩ .
- (٢) الجنرال مكسيم ويغان ، ٩ ايار ، ١٩٢٣ .
- (٣) الجنرال موريس ساراي ، ٢ كانون الثاني ، ١٩٢٥ .
- (٤) هنري دي جوفينل ، ٢ كانون الاول ، ١٩٢٥ .
- (٥) هنري بونسو ، ١٢ تشرين الاول ، ١٩٢٦ .
- (٦) دميان دي مارتل ، ١٢ تشرين الاول ، ١٩٣٣ .
- (٧) غبريال بيو ١٢ كانون الثاني ، ١٩٣٨ .

لاستخدام لبنان وسورية قاعدة لاعمال حربية ضدها ، سیرت حملة عسكرية تعاونها بعض الجيوش الافرنسية التي التفت حول الجنرال ديغول فطردت الجيوش الافرنسية الموالية للحكومة فيشي ومن كان معها من جيوش دول المحور واحتلت سورية ولبنان. وقد دامت الحرب بين القوات الانكليزية وبين قوات فيشي شهراً واحداً ضرب فيه الحصار البحري على الساحل وضربت بعض المدن والمطارات بالقنابل . ثم ان سورية ولبنان الحقا بالقيادة البريطانية للشرق الاوسط . اما في فلسطين فكان السكان في غليان من جراء التسرب الصهيوني على نطاق واسع . واما في العراق فنشبت الثورة المعروفة بثورة رشيد عالي الكيلاني^(١) .

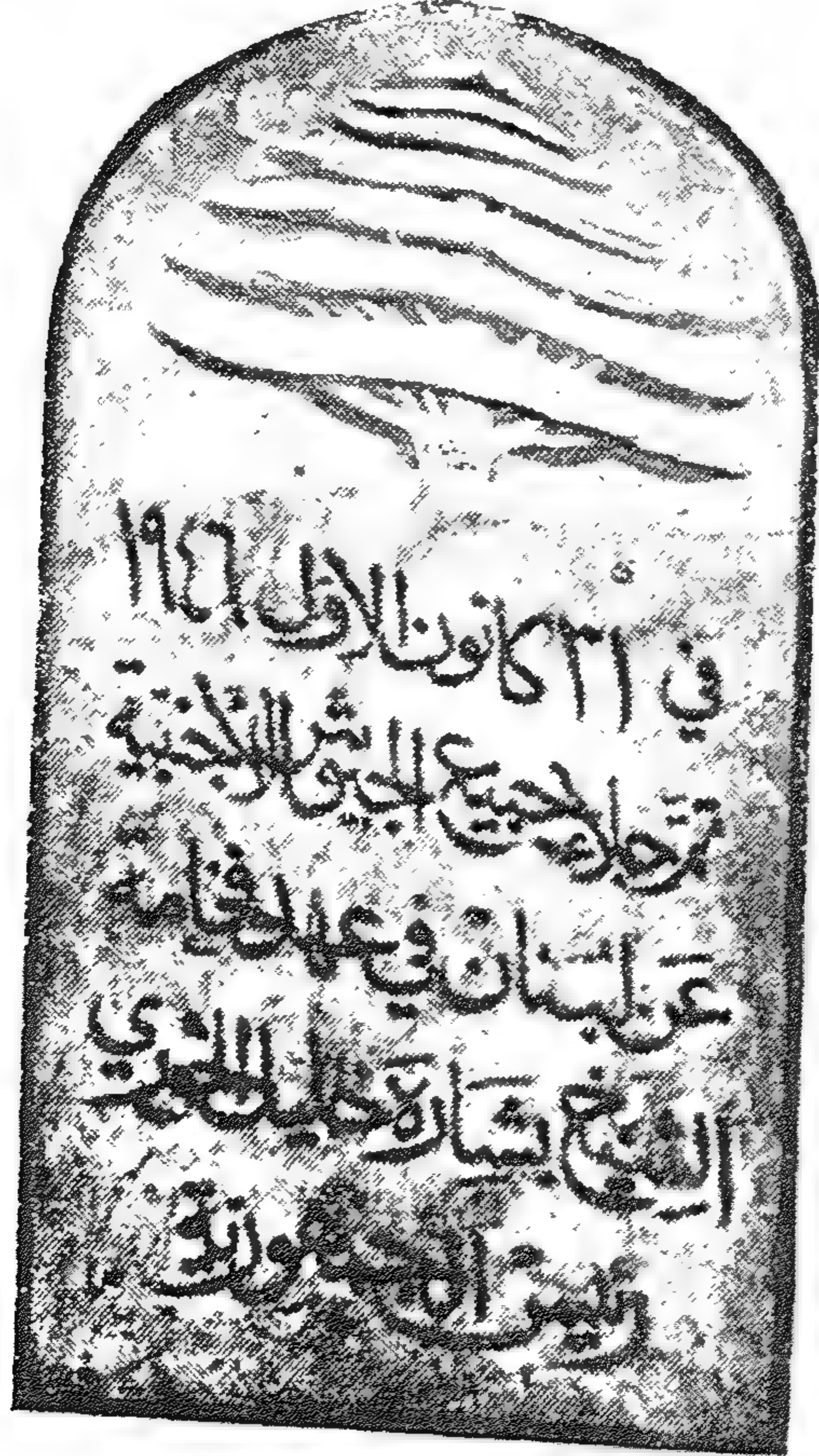
كان اللبنانيون، الذين لم يكونوا قد نسوا بعد ويلات الحرب الاولى، ينظرون الى المستقبل نظرة قلق ووجل . ولكن لم يطل الوقت حتى اعلنت انكلترا الحاق سورية ولبنان بمنطقة التجارة البريطانية. ونشط مركز التموين الانكلو اميركي لمنطقة الشرق الاوسط في القاهرة لمعالجة النقص في مواد الاستهلاك الناشئة عن قلة البواخر وصعوبة النقل البحري . وقد حاول الانكليز زيادة الانتاج المحلي وانشاء نظام اقتصادي موجه من شأنه ان يخفف حدة الازمة الاقتصادية في المنطقة كلها. وكان من نتائج هذه التدابير التي اتخذتها السلطات العسكرية لتحسين الحالة الاقتصادية انها لم تقتصر على توفير الطعام ومنع التضخم المالي ووقف التدهور الاقتصادي وحسب ، بل انها ساعدت على وضع البلاد في حالة ازدهار ورخاء . فقد كان لوجود الجيوش الكبيرة التي تحتاج الى المؤن والخدمات المختلفة اثر في النشاط الزراعي والتجاري . وكان لمشاريع البناء والنقل والواصلات اثر في تشغيل اليد العاملة وارتفاع اجورها . وقد انشئ خط حديدي يربط بيروت بطرابلس شمالاً وبحيفا جنوباً مما جعل الاتصال بين «لبنان» وتركيا ومصر وفلسطين والعراق وسورية امراً ميسوراً . وقد اهتمت السلطات اهتماماً خاصاً بالحفاظ على الصحة العامة . ولكي يقدر المرء هذه النعم التي نعم بها لبنان في الحرب العالمية الثانية عليه ان يقابل بين لبنان في الحرب العالمية الاولى وبينه اثناء الحرب الثانية .

١ - للاطلاع على التفاصيل راجع :

Albert H. Hourani, *Syria and Lebanon*, pp. 230—40 .

الاستقلال التام

استعاضت فرنسا الحرة عن المفوض السامي وارسلت مكانه جورج كاترو كقائد عام للجيش الافرنسي الحرة وكمندوب فوق العادة يمثل حكومة الجنرال ديغول . وفي اليرم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، ١٩٤١ ، اعلن الجنرال كاترو باسم حكومته ، وبالاتفاق مع حليفتها بريطانيا ، الاستقلال التام للبنان وانهاء الانتداب ، واصبح هذا اليوم عيداً وطنياً هو عيد استقلال لبنان . اما في سورية فانهم يحتفلون بالسابع والعشرين من شهر ايار كعيد وطني لاستقلال البلاد



على صخرة قرب مصب نهر الكلب حفر هذا النقش تخليداً لذكرى جلاء الجيوش الاجنبية

عن لبنان في ٣١ كانون الاول ١٩٤٦

وانهاء الانتداب عليها . وسارعت بريطانيا للاعتراف باستقلال الجمهوريتين اللبنانية والسورية . وكانت حكومة الولايات المتحدة اول حكومة ارسلت معتمداً دبلوماسياً وقنصلاً عاماً يمثلها في البلدين المستقلين . وما ان عادت الحياة الدستورية في لبنان حتى جرى انتخاب مجلس نواب جديد في خريف ١٩٤٣ . وكان اكثر النواب المنتخبين من الوطنيين الشديدي الحماس للقضايا الوطنية ومن الذين يعطفون على القضايا العربية . وقد انتخب المجلس الجديد الشيخ بشارة خليل الخوري رئيساً للجمهورية . وكان بشارة الخوري محامياً لامعاً مثقفاً ثقافة افرنسية عالية ، وموظفاً احتل ارفع المناصب الحكومية . وقد عين الرئيس الجديد رياض الصلح رئيساً للوزارة . وكان رياض الصلح من ابرز الشخصيات السياسية وادهاها . وكان جمال باشا قد نفاه لنشاطه في الحقل العربي ولدعوته الى القومية العربية . وكان اول عمل قامت به الوزارة تعديل الدستور لحذف بعض المواد التي وجد انها تتنافى مع الوضع الراهن للبلاد وتمس سيادتها . وكان البرنامج يشمل حذف جميع البنود التي يرد فيها اسم فرنسا كبلد متدب على لبنان . ولكن هذا التعديل لم يرض عنه المفوض الافرنسي الجديد جان هيلو . ومن جملة الامور الحيوية التي كانت موضع خلاف خطير بين الحكومة اللبنانية الجديدة وبين المفوض الافرنسي قضية الجيوش الخاصة بالمشرق والامن العام والمصالح المشتركة بين لبنان وسورية لاسيما الجمارك وبعض الشركات ذات الامتيازات وادارة حصر التبغ ومراقبة الحدود . فان هذه المصالح والخدمات كانت لا تزال في ايدي الافرنسيين . وازاء الاصرار اللبناني وعناده وتصميمه على استلام هذه المصالح اتماماً لسيادته علق المفوض الافرنسي الدستور والتقى القبض على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبعض الوزراء واحد النواب وارسلهم مخفورين الى قلعة راشيا . واعلن الاحكام العرفية واقام نظام مراقبة شديداً على الصحف . فكان هذا الاجراء التعسفي الاهوج مثاراً لاستياء عام وسخط شديد ظهرا على الفور في الاضراب الشامل الذي اضربته البلاد بأسرها ، وفي المظاهرات الصاخبة في شوارع المدن وقراها . ولم تقتصر موجة الاستياء هذه على لبنان بل تعدتها الى سائر البلدان العربية التي ايدت لبنان في صراعه مع الافرنسيين . وكذلك اهتمت الرأي العام في اوساط المغتربين ، فانهال على حكومة الولايات المتحدة والبرازيل وعلى حكومات اخرى سيل من الاحتجاجات

على تصرف الافرنسيين. وكان الضغط على الحكومة الافرنسية الحرة من الداخل ومن الخارج شديداً. واخيراً اذعنت للواقع. وفي الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني (١٩٤٣) اعيد الموقوفون في قلعة راشيا الى بيروت بعد ان سجنوا هناك احد عشر يوماً وعادوا يمارسون سلطاتهم القانونية فعادت الحياة الدستورية الى البلاد مرة ثانية .

وما ان حل عام ١٩٤٤ حتى كانت الحكومة اللبنانية قد تسلمت جميع المصالح التي كانت في ايدي الافرنسيين باستثناء الجيوش الخاصة بالمشرق . وقد اشترطت فرنسا مقابل تسليمها هذه الجيوش الى حكومة لبنان توقيع معاهدة بين لبنان وفرنسا . ولكن لبنان رفض هذا الشرط ، ولم يكن بد من ان تسلم فرنسا آخر الامر بالواقع . وفي السابع والعشرين من شهر شباط اعلن لبنان الحرب على المانيا واليابان كرمز انه يقف الى جانب الحلفاء . وفي الشهر التالي وقع لبنان على ميثاق هيئة الامم المتحدة وبذلك اصبح له الحق بان يحضر اول اجتماع لهذه الهيئة الدولية التي عقدت اجتماعها الاول في سان فرانسيسكو . وعلى صخرة من صخور نهر الكلب حيث سجل اعظم القواد في العالم القديم اسماءهم نقشت هذه العبارة :

« في ٣١ كانون الاول ١٩٤٦ تمّ جلاء جميع الجيوش الاجنبية عن لبنان في عهد فخامة الشيخ بشارة خليل الحوري رئيس الجمهورية »

اي ان ما وعدت به فرنسا وبريطانيا في اواخر الحرب العالمية الاولى من منح هذه البلاد استقلالها التام لم يتم الا في اواخر الحرب العالمية الثانية .

الفصل الرابع والثلاثون

تحت راية الارز : تطورات ومساكن

بدأت الجمهورية اللبنانية الفتية عهد سيادتها واستقلالها التامين في جو مشوب بمشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة ، وهي صادرة عن موقع لبنان الجغرافي وتاريخه المعقد وتركيبه الاجتماعي الذي يتميز باختلاف السكان وتباين اديانهم . غير ان الجمهورية اللبنانية في الاثني عشرة سنة الاولى من تاريخها وفقت الى حل



علم الجمهورية اللبنانية

بعض مشاكلها السياسية وسارت شوطاً بعيداً في تحسين الحالة الاقتصادية ، انما ما يؤسف له ان التقدم في الحقل الاجتماعي كان يسير سيراً بطيئاً ، فانها كدولة لم تستطع ان تغرس في نفس المواطن الولاء المخلص لوطنه ، ذلك الولاء الذي يتعدى الاقليمية الضيقة والقبلية البدائية .

في الحقل السياسي

هنالك عاملان رئيسيان يحددان الى مدى بعيد طبيعة العلاقات التي تربط لبنان بجيرانه من الدول العربية . العامل الاول هو اللغة العربية وذلك الجزء الكبير من السكان المسلمين الذي يشد بجزء من لبنان ناحية العروبة والقضايا العربية الوطنية . والعامل الثاني هو اتجاه لبنان نحو المدنية الغربية وذلك الجزء الكبير من سكانه

المسيحيين الذين يبدوون تخوفاً من ذوبان لبنان في مجموعة عربية كبيرة ذوبانا يفقده استقلاله وكيانه وطابعه الخاص . مما لا شك فيه ان لبنان ، نتيجة لانتشار العلم والمعرفة فيه ونتيجة للهجرة الى الغرب ، اصبح اقرب البلدان العربية نجاباً وانسجاماً مع الحضارة الغربية . فكان من الطبيعي ان يرى نفسه مهدداً بمشاكل من الداخل ومن الخارج . فالى جنوبه كان الملك عبدالله الطامح بسورية الكبرى والحالم بتتويجه ملكاً عليها . وفي حال تحقيق هذا الحلم يترك للبنان الخيار في الانضمام الى البلدان العربية ام البقاء مستقلاً عنها^(١) . وقد لاقت خطة الحسين استحساناً عند كثيرين من الزعماء السياسيين في سورية . ثم كان هنالك سياسة عراقية يتزعمها سياسيون بارزون يعملون لخلق الهلال الحبيب الذي يتوج عليه ملك العراق الهاشمي^(٢) . وكان هنالك زعماء سوريون سياسيون يرون رأي زعماء العراق ، وتعاونوا معهم تعاوناً وثيقاً . ثم انه في سنة ١٩٣٢ ظهر على مسرح السياسة شاب لبناني عائد من البرازيل اسمه انطون سعادة والى حزباً منظماً تنظيمياً مركزياً دقيقاً يعرف بالحزب السوري القومي . وعقيدته الاساسية ان هنالك قومية سورية متميزة مستقلة تقطن المنطقة الواقعة بين جبال طوروس في الشمال وخليج العقبة في الجنوب الممتدة من البحر غرباً الى الفرات ودجلة شرقاً . هذه هي الامة السورية المتميزة . وقد انضم الى الحزب جمهور من الشبان المثقفين المتحمسين في جميع انحاء البلاد . اما زعيم الحزب ومؤسسه فقد اعدته الحكومة اللبنانية سنة ١٩٤٩ اثر محاولته القيام بثورة مسلحة تهدد كيان الدولة^(٣) . هذه بعض المشاكل التي كانت تواجه الجمهورية اللبنانية . غير انها كانت ابدأ تسعى للمحافظة على سياستها التي كانت تقوم على ثلاثة مبادئ اساسية : المحافظة على سيادة لبنان واستقلاله ، وعلى التعاون الودي المخلص مع مائثر الدول العربية ، وعلى الحفاظ على العلاقات الثقافية

١ - عبدالله ابن الحسين : مذكراتي (القدس ١٩٤٥) ص ٢٥٢ . راجع ايضاً « الكتاب الاردني الابيض . سوريا الكبرى » (عمان ١٩٤٧ ؟) الذي اصدرته الحكومة الاردنية ، وفيه الوثائق المتعلقة بهذه القضية .

٢ - Halford L. Haskins, *The Middle East* (New York, 1954) .
p. 151.,

٣ - وزارة الانباء في لبنان ، قضية الحزب القومي (بيروت ١٩٤٩) ص ٦٣ وما يليها .
بخصوص الاحزاب السياسية في لبنان وسورية راجع :
Nicola A. Ziadeh, *Syria and Lebanon*, p. 191—212 .

والاجتماعية مع الغرب . ولا شك بأن المحافظة على هذه السياسة من ادق المشاكل التي تجابه سياسة لبنان الداخلية والخارجية .

اما في حقل القضاء فان الجمهورية اللبنانية سارت شوطاً بعيداً في سنّ الشرائع والقوانين العصرية . فانها كانت دوماً تعدل قوانينها بحيث تطرح جانباً القوانين العثمانية القديمة البالية وتسنّ شرائع عصرية لتحل محلها في الجزاء والتجارة . وفي سنة ١٩٥٣ منحت المرأة اللبنانية حق الاقتراع بعد ان جاهدت في هذا السبيل وبعد ان تقدمت بمطالبها هذه الى الحكومة اللبنانية . واخيراً اقر المجلس طلبهن ، وكانت هذه اول مرة تمنح بها المرأة هذا الحق السياسي في منطقة الشرق الادنى . غير ان محاولة الحكومة الغاء الطائفية لم يكن امراً يسيراً فكانت جميع المحاولات تلاقي اعتراضاً من قبل فئات مختلفة . وقانون الانتخاب اللبناني يقوم على مبدأ التمثيل النسبي بين الطوائف ، اي ان لكل طائفة نوابها . وكذلك لم تنجح محاولة الحكومة في الغاء قانون الاحوال الشخصية الذي ظل في ايدي الرؤساء الروحيين لمختلف الطوائف .

اما الدور الذي لعبه لبنان على مسرح السياسة الدولية فاكبر بكثير من مساحته الجغرافية . فان ممثلي لبنان في هيئة الامم المتحدة وفي العواصم الكبرى في العالم مثل لندن وباريس وواشنطن وغيرها كانوا ابداءً من اشد انصار المثل العليا للعالم الحر . وفي هيئة الامم المتحدة كان ممثل لبنان يقف دوماً الى جانب قضايا العرب العادلة . فقد وقف الجميع صفاً واحداً في معارضتهم تقسيم فلسطين . وعندما نشبت الحرب في فلسطين بين الصهيونيين والعرب (١٩٤٨) ساهم لبنان بارسال جيش الى حدوده الجنوبية ليقف الى جانب اخوانهم العرب . ولم يكن جيش لبنان بالجيش الكبير بل كان جيشاً صغيراً منظماً على النمط الافرنسي . وكانت الغاية منه المحافظة على الامن الداخلي . وعندما نشبت الحرب الكورية قررت الحكومة تخصيص مبلغ خمسين الف دولار كمساعدة رمزية لقوات الامم المتحدة التي حاربت في كوريا . وبالرغم من مرارة الخيبة التي مني بها العرب من جراء مساندة الولايات المتحدة لقيام دولة اسرائيل فان لبنان ، الذي كان يشاطر اخوانه العرب هذه المرارة ، لم يستنكف عن تلقي المساعدات الفنية والقروض

المالية من اميركا كما فعلت بعض الدول العربية . وسبب هذه المرارة التي شعر بها العربي في جميع الاقطار العربية هو ان العرب يعرفون الاميركي رجلاً مثالياً كريماً ومسيحياً خيراً . ولكن عطف اميركا على الصهيونية ومساندة دولة اسرائيل جاء صدمة عنيفة غيرت رأي العربي في الاميركي الذي كان يعرفه . ولا يزال العرب يشعرون بوقع هذه الصدمة .

في شهر آذار سنة ١٩٤٥ ، لما تأسست جامعة الدول العربية وباركت بريطانيا قيامها ، كان لبنان احد الموقعين على ميثاقها . وبفضل مساعي لبنان ادخل في الميثاق بند ينص على حق كل دولة ان تنسحب من الجامعة اذا شاءت ذلك^(١) . والواقع ان لبنان لعب دوراً رئيسياً في وضع ميثاق الجامعة ، وفي داخل الجامعة كان دوماً الوسيط بين الدول المتنازعة او المختلفة في الرأي . وينص ميثاق جامعة الدول العربية على استقلال كل دولة وسيادتها ويحرم اللجوء الى استعمال القوة في فض الخلاف الذي قد ينشأ بين دولة واخرى . وقد جاء انشاء الجامعة العربية تعبيراً عن شعور الوحدة التي تربط بين الشعوب العربية وعن ضرورة التعاون بينها . وفي سنة ١٩٤٩ وقع لبنان على وثيقة الضمان الجماعي الذي كان يضم اربعة اعضاء : مصر وسورية والسعودية العربية واليمن . واشد نكسة اصابته الجامعة عجزها الفاضح في الحرب الفلسطينية . وكانت الصدمة الثانية التي اصابته الجامعة انضمام العراق الى حلف بغداد الذي جعل العراق يتعاون تعاوناً وثيقاً مع الديمقراطيات الغربية في صراعها ضد الشيوعية . وتعرض لبنان الذي لا يختلف اتجاهه عن اتجاه العراق لضغط سياسي وتهديد اقتصادي مُقنَّع قامت به الدول التي عارضت انضمام العراق الى ميثاق بغداد ، نغني مصر والسعودية العربية وسورية .

التجارة والترازيت

كانت العلاقات السورية اللبنانية الاقتصادية تتميز في كثير من الاحيان بالفتور وذلك لاختلاف اساسي في سياستهما الاقتصادية . فان الدولتين ورثتا من الحكومة الفرنسية المتتدية كثيراً من المصالح المشتركة وذلك فيما يتعلق بمراقبة الحدود

١ - احمد موسى : ميثاق جامعة الدول العربية (القاهرة ١٩٤٨) ص ٦١ - ٦٢ .

واحتكار التبغ والجمارك والشركات ذات الامتيازات التي كانت تعمل في الدولتين . وفي سنة ١٩٤٤ عينت الدولتان لجنة مؤلفة من ستة اعضاء ، ثلاثة من كل بلد ، لادارة هذه المصالح المشتركة والاشراف على وارداتها وتوزيعها بنسبة ٤٠ بالمئة تعود الى لبنان و ٦٠ بالمئة الى سورية .

ولكن سورية كانت تتجه في سياستها الاقتصادية نحو التجارة المقيدة والصناعة المحمية بعكس اتجاه سياسة لبنان الاقتصادية الحرة التي كانت تملحها عليه مينااء بيروت وموقعه الجغرافي . فكان في مقدمة اسباب الخلاف قضية الجمارك وفرض الرسوم الجمركية . ولم تتردد سورية في الغاء اتفاقية الجمارك والحكم عليها بانها ليست في صالح سورية . وكانت الحكومات العسكرية التي تعاقبت على الحكم في الفترة الاخيرة تقفل الحدود احياناً وتعلن القطيعة . اقتصادية .

اما لبنان فهو بلد تجارة وترازيت بين الشرق والغرب . ولبنان دولة تجار لا يختلفون كثيراً في اعمالهم عن جدودهم الفينيقيين . ولذا كان لبنان منذ اقدم العهود يميل الى التجارة الحرة ، وسياسة التجارة الحرة هي اساس ازدهاره وغناه . فانه بلد صغير يقع على ملتقى الطرق الجوية والبرية بين الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب ولانه ليس في لبنان موارد طبيعية غنية — اللهم اذا استثنينا المناظر الخلابة والمناخ الجميل والموقع الاستراتيجي ومهارة تجاره وحذقهم واقدامهم وطموح سكانه — فانه كان يعتمد على الخدمات التي كان يقوم بها كعميل في التصدير والتوريد والتوزيع كمصدر كسب في التجارة الدولية .

والدخل من تجارة الترازيت ومن الاصطياف ومما يبعث به المهاجرون من مال الى عيالهم وذويهم وما يدخل لبنان من اعانات مالية للمؤسسات الدينية والتربوية يسد العجز في الميزان التجاري بين التصدير والاستيراد . فان لبنان يستورد اكثر مما يصدر . وبالتالي فان مستوى العيش في لبنان مستوى لم تصل بعد اليه دولة عربية اخرى . ففي سنة ١٩٥٤ ، مثلاً ، دخل البلاد اكثر من مئة وخمسين الف سائح (٢٥ الف اميركي وكندي) . ويقدر الدخل الحاصل بثلاثين مليون من الدولارات . وقد بلغ الدخل الوطني في شهر اب سنة ١٩٥٥ ، حسب بيان القاه رئيس الجمهورية اللبنانية في تلك السنة ، ١,٣٨٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة لبنانية . وكان

ينتظر ان يبلغ الدخل عند نهاية السنة ذاتها ١,٤٤٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة لبنانية مما يجعل معدل دخل الفرد الواحد في لبنان اعلى مما هو عليه في اي بلد عربي آخر . وقال رئيس الجمهورية في خطابه هذا ان ٣٧ بالمئة من هذا الدخل الوطني مصدره التجارة ، و ١٩ بالمئة منه مصدره الزراعة ، و ١٦ بالمئة من الصناعة .

ولبنان بلد اصطياف . والاصطياف في لبنان قديم العهد نسبياً . ولكن بعد الحرب العالمية الثانية اصبح بلد اشتهر ايضاً . فان هواة التزلج على جباله المغطاة بالثلج شتاء يقصدونه من اما كن بعيدة . وقد اصبح لبنان ملعباً ومكاناً لقضاء العطل في مختلف الفصول . ويباهي اهل لبنان بجبال بلادهم . فان الطبيعة اسبغت عليه من النعم الطبيعية ما لم تسبغه على بقعة اخرى بمثل هذا الخير الجغرافي . يقولون لك : في اي بقعة من بقاع الارض يستطيع المرء ان يسبح في بحره الدافئ وبعد ساعة من الزمن يصعد الى قممه ليتزلج على الثلج ؟ وفي البلاد الآن سبعة مراكز للتزلج احسنها تجهيزاً بوسائل الراحة جبال الارز المشهورة التي تبعد عن بيروت ٩٠ ميلاً . هنالك بالقرب من غابة الارز الجميلة فنادق جميلة وبالقرب منها مصعد كهربائي ينقل الزائر الى قمة الجبل البالغ علوها ٩٩٠٠ قدم حيث ينعم بمنظر ، اذا كان الجو صافياً ، قل ان يجد له مثيلاً .

وقد ازداد اخيراً عدد المصطافين في لبنان من البلدان المنتجة للنفط . فان تدفق الثروة على بعض ابناء السعودية والكويت والعراق وقطر والبحرين دفع بكثيرين منهم الى الاصطياف في جبال لبنان . كان عدد زوار لبنان صيف ١٩٥٣ مئتين وخمسة وثمانين ألفاً . ومن اشهر المصايف التي يقصدها الاثرياء الارستقراطيون عين صوفر ، على بعد ١٥ ميلاً من بيروت ، وعلى ارتفاع ٤٢٦٥ قدماً ، وتقع على متن جبل مشرف على وادي حمانا الشهير . ومنها عاليه على بعد ٩ اميال من بيروت ، وعلى ارتفاع ٢٧٩٠ قدماً ، وضيهور الشوير على بعد ١٥ ميلاً من بيروت ، وعلى ارتفاع ٤٠٨٥ قدماً . ومن المصايف المعروفة التي يقصدها عامة المصطافين بجمدون وسوق الغرب وبرمانا . وفي الصيف تنتقل الملاهي الليلية من بيروت الى بعض هذه القرى التي قامت فيها فنادق كبيرة عصرية وبانسيونات مريحة . ولا عجب في تدفق الناس صيفاً الى لبنان من البلدان الصحراوية المجاورة له . فان نسيم لبنان العليل بلسم ، ومياهه العذبة الباردة المتفجرة من قلب الجبل بهجة . شروق

الشمس البارزة من وراء القمم المتجلية بضياؤها ، وغروب الشمس وكأنها تاج متوهج يغيب وراء افق المتوسط مناظر لا يستطيع الزمن ان ينتزعها من مخيلة المرء الذي يزور لبنان .

وفي لبنان أيضاً نواح اخرى تجذب اليه الزوار ، فهناك آثار بعلبك ، ذلك المعبد الروماني الرائع الذي يعد من عجائب الدنيا لجمال بنائه وروعة هندسته . وهناك آثار تاريخية اخرى ورد ذكرها في التوراة كالارز مثلاً ، وفي كتب التاريخ مثل : فينيقية ومدنها جبيل (بيلوس) وصيدا وصور والقلاع الصليبية المنتشرة على سفوح الجبال .

ومن مصادر الدخل الوطني ما يتقاضاه لبنان من شركات النفط التي مدت انابيبها عبر اراضيه . هنالك خطان لانايب النفط ينتهيان على شاطئ المتوسط في لبنان ، الواحد في طرابلس والثاني في الزهراني بالقرب من صيدا . وفي سنة ١٩٥٤ كان معدل ما يجري من النفط في هذين الانبوبين ٨٠٠,٠٠٠ برميل يومياً . اما خط طرابلس فقد انشئ زمن الانتداب الافرنسي ، والدخل منه للخزينة اللبنانية ليس دخلاً كبيراً . وفي اليوم الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٠ احتفل رسمياً بتدشين مصفاة للبترول انشأتها في طرابلس شركة النفط العراقية لمعالجة الفائض من انتاج النفط من جراء مد خط آخر من كركوك الى طرابلس .

في شهر كانون الاول سنة ١٩٥٠ تدفق نفط السعودية العربية في الزهراني بالقرب من صيدا بواسطة انايب شركة خطوط الانايب عبر الصحراء (التابلين) وطول هذا الخط ١٠٦٨ ميلاً وهو اطول خط من نوعه في العالم . وقد دفعت شركة الخطوط هذه الى الحكومة اللبنانية مبلغ ١١٢ الف دولار كحق مرور و ١٢٦ الف دولار لحماية الخط . وتأخذ الحكومة اللبنانية ضريبة قدرها ثلاثة بالمئة على النفط الذي يصب في صيدا . ولها الحق ان تبتاع من الشركة مئتي الف طن من النفط كل سنة بسعر الانتاج . وتضخ شركة النفط الاميركية السعودية ٣٨ بالمئة من انتاج النفط بواسطة هذه الانايب التي يراوح قطرها بين ٣٠ و ٣١ قيراطاً وتمر عبر الصحراء من الخليج العربي لتسحنه ناقلات النفط من الشاطئ اللبناني الى بلدان اوروبا الغربية . وفي اول شباط سنة ١٩٥٥ احتفل بتدشين مصفاة للنفط جنوبي صيدا انشأتها شركة

تملك نصف اسهمها شركة كاليفورنيا تاكساس (كالتكس Caltex) وقد كلف انشاؤها ثمانية ملايين من الدولارات وتديرها شركة البحر المتوسط لتكرير النفط، وهي تجهز لبنان بما يحتاج اليه من النفط . وقد كانت مدينة صيدا الى وقت قريب تغط في سبات العصور المتوسطة . اما الآن فان العمل فيها يجري بمعدل اربع وعشرين ساعة في اليوم وتعد من اكبر المراكز في العالم لتصدير النفط الخام بواسطة ناقلات النفط. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الاتفاقات مع شركات النفط عدلت غير مرة فزاد دخل لبنان منها بعد التعديل .

بيروت بوابة الشرق

ان مدينة بيروت الواقعة وسطاً بين الشرق والغرب اصبحت اليوم من اوسع المدن اعمالاً ومن افضل المدن العصرية المجهزة باحدث وسائل الراحة في شرقي حوض المتوسط . ولكونها مقر اعمال الصيرفة على نطاق واسع ومركزاً تجارياً مرموقاً فانها اصبحت في وقت قصير مركز الثقل في الجمهورية اللبنانية، كما ان الجمهورية اصبحت مركز نشاط تجاري للمنطقة بأسرها . ففي عالم قيدت فيه اكثر الحكومات المعاملات المالية والقضايا المتعلقة بالعملة وتحويلها ونقلها بقوانين صارمة ، وفي عالم حدث فيه الدول من نشاط التجارة الحرة ، كان من الطبيعي ان تصبح عاصمة لبنان ، بيروت ، سوقاً حرة للعملة والتجارة والاسعار كما يحددها مبدأ العرض والطلب لا كما يحددها النظام والقانون . وفي الاوساط التجارية تعتبر بيروت افصل مركز حساس يعكس الحالة المالية والتجارية ليس في لبنان بل في المنطقة بأسرها . ودخل التاجر البيروتي اعلى دخل من نوعه في العالم العربي^(١) . وقد هبطت في مطار بيروت الدولي الذي ادخلت عليه تحسينات جمة ١٣,٣٥٨ طائرة في سنة ١٩٥٤ . وهو من اكبر المطارات واحسنها تجهيزاً في الشرق الادنى وخطر منافس لمطار القاهرة كمركز اولي للطرق الجوية . ويربط بيروت بسورية خط حديدي يتفرع منه خط الى بغداد وآخر الى تركيا فاوروبا. وميناء بيروت هو الميناء العصري الوحيد في شرقي المتوسط الذي تستطيع ان ترسو فيه البواخر الكبيرة . وهناك شبكة طرقات عصرية مزفتة تربط بيروت بالمدن اللبنانية وقرى

الأصطيفاف . وفي السنوات العشر الاخيرة قفز عدد السكان فيها من ٢٨٠ ألفاً الى يزيد عن نصف مليون نسمة . وسبب هذه الزيادة هجرة القرويين اللبنانيين الى المدينة وسيل من الاجانب جلهم من الاميركيين والاوربيين الذين يتعاطون الاعمال التجارية والصناعية . وقد ازداد عدد السكان في جميع انحاء البلاد لا في بيروت وحدها . ففي سنة ١٩٤٤ بلغ مجموع السكان ١,١٠٠,٠٠٠ وفي عام ١٩٥٥ بلغ ١,٤٠٠,٠٠٠ نسمة مما يجعل كثافة السكان بمعدل ٤٠٣ اشخاص للكيل المربع الواحد . ولبنان ، بعد مصر ، يعد من اكدف بقاع الشرق سكانا . وكثافة السكان فيه تقاس بما هي عليه في ايطاليا والمانيا وبريطانيا وايرلندا . وهي اكدف بكثير مما هي عليه في فرنسا^(١) . وفي هذا بعض التناقض العجيب : اعلى جبل في المنطقة يصبح اكدف بقعة مزدحمة بالسكان .

الزراعة

تشغل الزراعة الدرجة الثانية في الاقتصاد اللبناني . والفلاح اللبناني يملك ارضه ولم يبق من اثر للاقطاع سوى في بعض مناطق البقاع وعكار . اما في الجبل وفي الساحل فان جميع الاراضي يملكها افراد . بينما في شرقي الاردن والعراق ٢٠ بالمئة من الارض يملكها اشخاص والباقي اراض اميرية . اما في سورية وفلسطين فان نسبة الارض التي يملكها الفلاحون اكدف قليلا مما هي عليه في العراق وشرقي الاردن . ومن المعلوم ان اقتصاد سورية والعراق وفلسطين وشرقي الاردن يعتمد على الزراعة اكدف مما يعتمد عليها الاقتصاد اللبناني .

تقدمت اساليب الزراعة في لبنان تقدماً مرضياً بعد الحرب العالمية الاولى وذلك لان الغلات الزراعية قد تغيرت . فانه بينما كانت تربية دود الحرير وشجرة الزيتون تأتيان في الدرجة الاولى في قائمة الغلال الزراعية اصبح الاعتماد بعد الحرب على زراعة الفسكهة والحبوب والخضار . فقد تلاشى موسم الحرير ، واستحالت مزارع التوت الى جنائن تفاح ، وقد نقب الفلاح اللبناني سفوح الجبال الى ان بلغ علواً كبيراً ، ولم تبق بقعة تصلح للزراعة لم يحرقها ويدرج سفوحها . وقد نجحت

١ - راجع United Nations, *Demographic Yearbook*, 1954, (New York 1954), pp. 103, 106, 107.

زراعة التفاح نجاحاً عظيماً وادخلت الى البلاد انواع اميركية جديدة لاقت اقبالا عظيماً عند جمهور المستهلكين . وفي سنة ١٩٥٤ احصت وزارة الزراعة ثلاثة ملايين شجرة تفاح يعتمد عليها كلياً أو جزئياً عشرون الف عائلة في كسب عيشهم . وسوقهم الكبيرة لتصدير التفاح مصر والسعودية العربية والعراق . وشجرة التفاح ليست من الاشجار الغريبة عن لبنان بل هي قديمة العهد . يقول المتنبي الشاعر المشهور الذي عاش في القرن العاشر الميلادي :

احب حمصا الى خناصرة وكل نفس تحب حياها
حتى التقى خدها وتفايح لبنان وثغري على حياها^(١)

في ربيع سنة ١٩٥١ عقد لبنان اتفاقية اقتصادية مع الولايات المتحدة يتلقى بموجبها عوناً شاملاً في تحسين احوال الريف الاقتصادية والزراعية . وقد شكل في لبنان مجلس للانشاء والتصميم العام الذي قدم قرابة ثلاثين مشروعاً للانماء تتناول الزراعة والري وتحسين احوال الريف وبناء المساكن والتربية والصناعة . وبالرغم من انه كان مشروعاً ضخماً يتناول الريف في الدرجة الاولى الا ان بعض هذا العون خصص لتوسيع ميناء بيروت وتحسين ميناء طرابلس واصلاح الطرق الرئيسية . وكان اهم هذه المشاريع على الاطلاق مشروع جر مياه الليطاني للاستفادة من مياهه التي كانت تذهب هدراً الى البحر في توليد الكهرباء وري اراضي الساحل من القاسمية الى ضواحي بيروت . وهذا النهر الذي يبلغ طوله ١٢٥ ميلاً والذي يمر في سهل البقاع من الشمال الى الجنوب فيشطره الى شطرين ، هو نهر لبناني في مصدره وفي مجرى نهره بدءاً من نواحي الهرمل الى القاسمية شمالي صور . وقد قامت الحكومة اللبنانية ، بالتعاون مع خبراء النقطة الرابعة ، بدراسة اولية استغرقت ثلاث سنوات ووضعت مشروعاً لبناء خمسة سدود وحفر قناة من الشرق الى الغرب في قلب جبل طولها ١٩٧٠ قدماً ، وذلك لري ١٨,٦٠٠ هكتاراً رياً تاماً و ٢٩٠٠ هكتاراً رياً جزئياً في البقاع ، وما تبقى من الماء يوزع في المنطقة الواقعة بين صور وبيروت . وهذا المشروع يزيد مساحة الارض المروية في لبنان بقدر خمسي الاراضي المروية حالياً . واتمام المشروع نهائياً بما في ذلك من مشاريع ثانوية متفرعة يحتاج

الى مئة مليون من الدولارات والى خمس وعشرين سنة . وفي شهر آب سنة ١٩٥٥ عقد لبنان قرضاً مالياً قدره ٢٧ مليوناً من الدولارات من البنك الدولي للانشاء والتعمير في وشنطون .

التقدم الصناعي

وبالاضافة الى فوائد الري المرتقبة فان مشروع الليطاني سيجهرز البلاد بماتحتاج اليه من كهرباء اذ ستقام خمس محطات لتوليد الكهرباء تستطيع انتاج ١٨١ الف كيلواط . ومما لا شك فيه ان هذه القوة الكهربائية الجديدة ستعشش الصناعة في لبنان . وصناعة لبنان لا تزال في طور التكوين الاولي وتعسائي مشا كل جمه سواء اكان ذلك من قلة المواد الخام، ام من ضآلة الرساميل ، ام من عدم توفر الخدق التقني . واكبر صناعة في لبنان صناعة النسيج ، القطني والضوفي والحرير . وتأني في الدرجة الثانية صناعة الاسمنت والدباغة وتكرير زيت الزيتون وصنع المأكولات المعلبة وصنع الاثاث والخمر والصابون وعود الثقاب . ومعامل هذه الصناعات التي يبلغ عددها الف مئمة منتشرة في ضواحي بيروت . اما الصناعة الثقيلة فلا وجود لها في لبنان .

واجور العمال في لبنان ومستوى عيشهم افضل بكثير مما هي عليه في البلدان العربية الأخرى . غير ان الحكومة اللبنانية تسعى دوماً لرفع مستوى العيش بين العمال ولازالة كل حيف يلحق بهم . ففي سنة ١٩٤٦ وضعت الحكومة قانون العمل الذي ينص على ان يكون عدد ساعات العمل ثمانى ، وعلى ان تعطى المرأة الحامل أو العامل المريض عطلة عن العمل . وينص على دفع تعويض في حال الصرف من الخدمة . وبموجب هذا القانون لا يحق استخدام الاولاد الذين هم دون الثالثة عشرة من العمر . وهناك تقييدات وشروط متنوعة تفرض على صاحب المعمل التقيد بها من حيث الامور الصحية وخلافها . ولكن قوانين العمل في لبنان لم تبلغ بعد درجة الكمال . اذ لا يزال امام الحكومة مجال لتعميم الضمان الاجتماعي ولتقديم العون للعاطلين عن العمل . ولا نستطيع القول بان لبنان قد بلغ درجة عالية في حقل الاعمال الاجتماعية وانما نستطيع ان نقول بانه خطا خطوة كبيرة في سبيل

الترفيه والاعتناء باليتام والعميان والعجزة والمرضى . فقد انشئت في السنوات الاخيرة دور للعجزة ومدرسة للعميان ومياتم كثيرة تعنى بالفقراء منهم . وقد انشئت لهذه الاغراض الاجتماعية وزارة جديدة تعرف بوزارة الشؤون الاجتماعية . وقد بدأ العمال في لبنان يتكتلون في نقابات تعمل لرفع مستواهم . ويسعى الشيوعيون للتغلغل في هذه النقابات . وبالرغم من ان الحزب الشيوعي في لبنان حزب غير مرخص به فان حرية القول والفكر في لبنان مقدسة . وبفضل هذه الحرية في القول والفكر تجد في لبنان جماعة من النخبة المفكرة من اطباء ومحامين وكتاب لونها قريب من اللون الاحمر . ولكن لم ينجح بعد شيوعي في لبنان في الوصول الى الندوة اللبنانية أو الى شغل منصب ذي اهمية في الدولة .

ثورة سلمية غير انها ثورة فعالة

لقد عرف لبنان المستقل استقلالاً تاماً ناجزاً عهدين من الحكم : عهد بشارة خليل الخوري الذي تحقق فيه الاستقلال وجلاء القوات الاجنبية وتركيز السياسة اللبنانية الخارجية والداخلية، وعهد كميل نمر شمعون^(١) . وقد اعيد انتخاب الرئيس بشارة الخوري في اليوم السابع والعشرين من ايار سنة ١٩٤٨ لمدة ست سنوات اخرى « اعترافاً بخدماته للبلاد » وكانت مدته القانونية ستنتهي في شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٩ . وقد كان السبب في اتخاذ هذه الخطوة - تعديل الدستور لاعادة انتخابه - كما كان يقول اعوانه حراجه الموقف في فلسطين . ولكن بشارة الخوري ارغم على الاستقالة قبل انهاء ولايته الثانية . وذلك لان استياء عامماً ظهر في صفوف المعارضين وجماهير الشعب من جراء السياسة الداخلية الخرقاء التي اتهم بها . فقد فشت الرشوة وحظي المقربون والاعوان بالمناصب والمغانم، وعم الفساد جهاز الحكم ولا سيما دوائر القضاء . ولم تلق الاحتجاجات الصارخة التي كانت تظهر مرة بعد اخرى اذناً صاغية . شوائب الحكم في الشرق الادنى عميقة الجذور . فالولاء للعائلة والاهل بقية من بقايا الولاء للقبيلة ، والرشوة والفساد مردهما الى ان الحكم يركز على الافراد لا على نص القانون واحترامه . يشعر

١ - بعد ان كتب المؤلف هذه الفقرة الاخيرة من كتابه وقعت « ازمة لبنان » (١٩٥٨) وانتخب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية . اي ان لبنان دخل عهده الثالث .

الحاكم ان عليه ان يجازي الحسنة بالحسنة ولو كان ذلك على حساب القانون وعلى حساب الشعب . ولكن الشعب اللبناني اصبح شعباً متمدناً واعياً يصبو الى حكم القانون والعدل . ولما فشلت جميع المحاولات لاصلاح الحال تحالفت الاحزاب المعارضة ودعوا الى الاضراب والمظاهرات في العاصمة وفي سائر انحاء البلاد . واستقال رئيس الوزراء ، ولم يجزء زعيم آخر ان يشكل وزارة في هذه الاحوال الحرجة . وتفاقت الحال واستقالت الوزارة بكاملها . فلجأ رئيس الجمهورية الى قائد الجيش لقمع الثورة بالقوة . ولكن قائد الجيش رفض الانصياع . وكان موقف الجيش اللبناني يختلف اختلافاً جذرياً عن موقف الجيش في العراق وسورية حيث كان الجيش ذاته وقواده هم الذين يقومون بالانقلابات . واخيراً ، في ١٨ ايلول سنة ١٩٥٢ رضخ الرئيس الى ارادة الشعب وقدم استقالته . وبعد خمسة ايام انتخب المجلس النيابي خلفاً للرئيس المستقيل : الاستاذ كميل نمر شمعون . وكان شمعون زعيماً من زعماء المعارضة . وقد تثقف شمعون ثقافة افرنسية ودرس المحاماة ومارسها . وعين وزيراً للمالية والداخلية في وزارات سابقة ، ومثل لبنان في هيئة الامم المتحدة وكان سفيراً لبلاده في بلاط سانت جيمس . ومن زعماء المعارضة الذين قاموا بدور حاسم في الازمة الزعيم الدرزي كمال جنبلاط مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي . ومنهم احمد الأسعد الزعيم الشيعي من الجنوب وهو احد رؤساء المجلس النيابي . وكان هنالك ايضاً زعماء معارضون من السنة ومن النصاري . وهذه الثورة التي لم يرق فيها دم والتي حدثت ضمن الشرعية الديمقراطية ثورة فريدة من نوعها في الشرق الادنى . فانها في نطاق الشرعية ايضاً هزمت عهداً ليحل محله عهد اخر بالطرق الديمقراطية السليمة^(١)

اختلال التوازن ثم إعادته :

كان عهد الرئيس شمعون عهد ازدهار في الاقتصاد فازداد الدخل الوطني ازدياداً سريعاً من المصدرين المميزين للبنان ، وهما الترنزيت والسياحة . وفي حتمل

التشريع تميّز العهد بمنحه (١٩٥٣) حقّ التصويت للمرأة اللبنانية وهو أمر لم يسبق له مثيل في البلاد العربية . وفي عام ١٩٥٦ أخذ حكم شمعون يواجه صعوبات كان بدؤها عندما قطعت الدول العربية المجاورة علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا على أثر هجومهما مع إسرائيل على مصر . أما لبنان فلم يبرّ قطع العلاقات من مصلحته . فأصبح شمعون رمزاً لحرية بلاده في العمل وميلها إلى الغرب ، كما أصبح الرئيس المصري جمال عبد الناصر رمزاً للعروبة والاشتراكية والميل نحو اليسار .

وفي صيف ١٩٥٨ انقسم لبنان إلى شطرين : شطر موال وشرط مناويء يستند على المعونات المالية والحربية من الخارج . وكادت الحكومة أن تفقد السيطرة على البلاد ، ممّا دفع شمعون إلى الاستعانة بالرئيس الأميركي ايزنهاور (١٤ تموز) الذي كان قد عرض المعونة المالية والعسكرية على كل دولة من دول الشرق الأدنى تتعاون على مقاومة النفوذ الشيوعي . وللحال أرسل ايزنهاور عشرة آلاف من جنود البحرية الأميركية . ولم تأت بعمل يذكر لأن الثورة كادت تنتهي . وفي أيلول عند انتهاء مدة الرئيس شمعون خلفه في الرئاسة قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب الذي طلب في الحال سحب الجنود الأميركية فانسحبت .

حاز الرئيس الجديد على رضى الطرفين المتنازعين ، فألّف وزارة ائتلافية . واتجه في سياسته الخارجية نحو عدم الانحياز بحيث أعاد التوازن . واستأنف لبنان سيره نحو الأمام وشعاره « لا غالب ولا مغلوب » . وبرغم أن شواهاً ذو تربية حربية وسليل عائلة ارسقراطية حكمت البلاد قرناً ونصف قرن ، فإن إحساسه الاجتماعي ، كما يظهر ، كان أشدّ من إحساس سالفه . فسن المجلس في عهده قوانين هي بمثابة بدء مرحلة جديدة من الوعي الاجتماعي . وأهمها الضمان الاجتماعي المتضمن الضمان الصحي والعناية بالأطفال والأمومة والضمان ضد الحوادث التي يتعرض لها عمال الصناعة . وضد الأمراض الناجمة عن الأشغال المهنية . وضمان التعويض المالي لدى إنهاء الخدمة . وفي أيلول عام ١٩٦٤ انتهت مدة رئاسة شهاب . وعندما رفض قبول

التجديد - الأمر الذي يقتضي تعديل الدستور - انتخب المجلس النيابي وزير التربية شارل حلو خلفاً له . وقد تخرج الرئيس حلو من كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت ، وبعد أن مارس الصحافة تعيين سفيراً للبنان لدى الفاتيكان وكانت طلبعة أعماله . محاولة جريئة لتطهير جهاز الحكم في أعلى مستواه ، ولكنه اكفى بفصل عدد من السفراء والقضاة عن مناصبهم . وفي آخر عهده احتد النزاع مع إسرائيل بداعي تغلغل الفلسطينيين في جنوب لبنان وسفح جبل حرمون وضربهم مستعمرات إسرائيل المجاورة .

ولدى انتهاء مدة الرئيس حلو انتخب المجلس النيابي أحد أعضاء المجلس سليمان فرنجية ، وكان يومئذ وزير الاقتصاد ، خلفاً له ، وكان ذلك بأكثرية صوت واحد (٥٠ ضد ٤٩) . وبقبوله سجل الشعب اللبناني مثلاً رائعاً في الحياة النيابية والديمقراطية السياسية .

وقد مرّ على عهده في الرئاسة أكثر من سنة تميز فيها بكثير من ظواهر الإصلاح والعمران .

وعند انتهاء مدة المجلس النيابي الذي انتخبه بأكثرية صوت واحد كما ذكرنا جرى في نيسان سنة ١٩٧٢ انتخاب مجلس جديد من ٩٩ نائباً وتمّ ذلك في جوّ رائع من الحياء والنزاهة والحرية بصرح أن يكون مثلاً يقتدى به في كل بلد تتعدّد فيه المذاهب والعقائد والأحزاب .

قد يبدو لبعض الناس أن التقدم الذي أحرزه لبنان المستقل المستظل تحت راية الأرز طفيف بطيء في زمن يتميز بالسرعة . وفي عصر يعرف بعصر الذرة والنفاتة . ولكن في ثنايا هذا التقدم وتضاعيفه نواة أمل جديد بأن يصبح لبنان يوماً نموذجاً ديمقراطياً يستطيع أن يقوم برسالته العظيمة : أولاً التوفيق بين أسلوب الحياة الشرقية وأسلوب الحياة الغربية . وثانياً التعايش السلمي الودي بين المسيحيين والمسلمين في ظل الحياة الديمقراطية الكريمة . زد على هذا ما يقوم به لبنان من جهود . وما يضعه من برامج وما يبنيه من جسور لربط الشرق بالغرب قد أصبح فيما بعد نماذج تقتدي بها دول أخرى في المنطقة .

فهرس عام

٤٥٨	ابو نادر	٥٥٩	ابن عقيل
٤٨٦	ابو نوفل ، نادر الخازن	٣٦٩	ابن عمار
٤٨٧ ٤٨٨		٣٣٧	ابن الفقيه
٣٠٨	ابجر : رسالته الى السيد المسيح	٥٨١	ابن الوردي
١٦٣ ١١٣	ابراهيم	٤١٠	ابن منظور المصري
٤٩٧ ٤٥٣ ٤٥٢ ٣١٩	ابراهيم باشا	٣٠٥	ابن نمرون
٥١٩ ٥١٨ ٥١٦-٥١١			
٥٣٣ ٥٢٨ ٥٢٦			
٣١٩-	ابراهيم باشا ، نهب كتب الدروز	٢٩٣ ٢٩١ ٢٩٠	ابو بكر
٥١٣-	الدروز في عهده	٤٨	ابو الحن
٥١٣-	الضرائب ٥١٣ - بحتكر ٥١٣	٣٢٩	ابو حنيفة
٥١٤	التجنيد في عهده	٤٧٩	ابو الذهب
٤٥٣	ابراهيم بن سركيس		ابو طالب [امين الدولة بن عمار]
	ابراهيم الحاقلي = الحاقلي	٣٥٣ ٣٥٢	
٥٨٠ ٥٦٣	ابراهيم اليازجي		ابو العباس السفاح ، مؤسس دولة
٢٥٦	ابفيانوس	٣٢٦	العباسيين
٢٥٧	شهيد	٣٢٤	ابو العباس عبدالله
٣٥٠	ابن	٢٩٢ ٢٩١	ابو عبيدة ابن الجراح
٤٣	ابهل [ضرب من الشجر]	٢٩٤	
٢١٧ ١٦٥	ابولو		ابو عسكر = يونس الجبيلي
٢٤٢	ابولوم	٣٥٢	ابو علي فخر الملك
٢٢٢	الايقورية [الفلسفة]	٣٩٦ ٣٧٧ ٣٧٦ ٣٧٥	ابو الفداء
٥١٧	ايبلا [عائلة]		ابو الفرج ابن العبري = ابن العبري
٣٦٥	الاتابكة	٤٨٦	ابو قانصوه
	اتاتورك = مصطفى كمال	١٠٣	ابو ملكي
	الاتراك = العثمانيون		ابو المناقب ابن عمار ، يسلم طرابلس
٢٧٠ ٢٦٥ ٢٦٣	اترغاتس	٣٥٣	للفاطميين

اتو - بعل	١٢١ ١٨١ ١٨٣	احمد باشا الجزار = الجزار
اتون [اله]	٩٨	احمد الخالدي = الخالدي ، احمد
اتيكة	١٨٩	احمد الرفاعي ٥٢٠
الاتيكي ، النحت ١٩٢ - الدرهم ١٩٢		احمد فارس الشدياق = الشدياق ، فارس
اثليا	١٢١	احمد كوتشك ٤٦٨
اثناسيوس	٢٥٦	احمد المعني [الامير] ٤٧٠
اثناسيوس الدباس [البطريك] مؤسس		احوس الاول ٩٢ ٩٦ - مؤسس
اول مطبعة عربية في الشرق ٥٥٦		الاسرة الثامنة عشرة ٩٢
اثنودورس	٢٧٩	احيرام = حيرام
الاثوريون = الاشوريون		اخاب [ملك اسرائيل] ١٢١ ١٧٥
اثيره = اشيرا		اخبار الاعيان في جبل لبنان
اثينة	١٨٩ ٢٢٠ ٢٢٢ ٢٤٧	[كتاب لطنوس الشدياق] ٥٥٣
	٢٨٠ ٢٧٦	الاخشيدي (لقب) ٣٣٤
الاثينيون	١٨٩	الاخشيدي [الدولة] ٣٣٤ - ٣٣٥
الاجانب ، املاك في لبنان ٥٤٠		الاخشيديون : طردهم من مصر
الاجاويد ٤٩٧ - عيشتهم ٤٩٨		وسورية ٣٣٥
اجينور	١٤٠ ١٤٤	الاخطل ٣١٣
احشويرش	١٨٨ ١٩٥ ٢٠١	اخناتون = امنحوتب الرابع
- بناء جسر عبر الدردنيل ١٨٨		ادارة حصر التبغ ٦٠٤
احمد الاول (السلطان) ٤٤٨ ٤٥٤		الادب الافرنسي وادباء العرب ٥٦٩
٤٦٦		ادريانوس ٢٤٨
احمد [سبط فخر الدين المعني]		الادريسي ٣٥٧ ٣٨٦ ٤٩٠
٤٥١ ٤٧٥		ادنة ٤٢٩
احمد بن طولون	٣٣٣	ادوم ١١٨ ١٨١
احمد ارسلان قائم مقام مقاطعة الدروز ٥٢٨		ادون ١٥٧ ١٦٢
احمد الاسعد	٦١٨	ادونيس ٦٤ ١٥٧ ٢١٩
احمد عباس الازهري	٥٦٠	ادونيس [تموز] وعشروت ١٥٨
		٢٤٢ ١٥٩

الارسالية الانكليزية السورية	ارادوس = ارواد
مدارس للضيان والبنات ٥٤٦	ارام دمشق [دولة] ١١١
ارسوف ١٦٤ ١٦٥ ٣٤٨ ٣٤٩	الآرامية ، انتشار اللغة ١١٠ - رئيس
٣٧٤	الالهة ١٦١ - لغة عالمية ١٨٥ -
ارطغرل ٤٢٧	لغة السيد المسيح ٢٠١ - اللهجة
ارطميس ٢٢٤	٢١٨ ٢٣٥ - في عهد البطالسة
ارل ٢٤٣	٢١٩ - في عهد السلوقيين ٢١٩
الارمن ٧ ٧٤ ١٣٥ ٣٤٤	الادب ٢١٩ - بقايا ٢٩٧ -
٣٩٢ - العرق ٧٤ ٧٥ -	اسماء من النبات ٢٩٧ - كلمات
مذابح ٥٨٥ - في لبنان ٥٩١	٢٩٧ - اسماء المدن والقرى
ارميا العمشيتي ٣٩٣	٢٩٨ - اللغة ٣٠٠
ارمينية ٣١٠ ٣٣١ ٤٣٠	الآراميون ٦ ١٠٨ ١١٠ ١٦٣
٣١٠ - المونوفيسيتية في	مجمع الآلهة ١٦١ - التجار ١٨٣
ارناط = رجينالد	البلدان ٢١٧ ٢١٨
ارنست رينان ٥٤٥	ارباب القلم ٤٠٠
الاروام : حوانيت في بيروت ٥١٧	اربيل ٢٠٠
الازهر [الجامع] ٥٦٣	ارنحتشتا الثالث اوخس ١٨٨ ١٩٠
ارميا [النبي] ١٨١	- ثورة ضده ١٩٠
ارواد ٣٤ ٧٥ ٨٤ ٩٤	الارجوان ٢٣٩ ٤٧٨ - صباغ ٢٣٩
١١٤ ١١٨ ١٧٣ ١٧٨	ارداتا ١٠٣
٢٠٨ ٢٢٨ ٢٣٢ ٢٣٤	الاردن = شرقي الاردن
٢٣٨ ٢٧٧ ٢٩٣	ارز الرب ٤٥
- سقوطها ٩٩ - مدينة مستقلة	ارز لبنان ١٦ ١٧ ٢٤ ٣٩
١٨٦ - ملك من ١٩٦ -	٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤
مراكب حربية من ١٩٨ - ملجأ	٤٥ ٤٦ ٤٨ ٣٠٣
سياسي ١٠٨ - تاريخ ٢١٨ -	٦١٢ - تابوت من خشب
حصار العرب لها ٢٩٣ -	٧٩ - توايت من خشب ٨٠
احواض ٢٣٢	الارسالية الاميركية ٥٤٦ ٥٦٥
ارواد البرية ٢٦١	- في جنوب لبنان ٥٩٢
الارواديون ٩٤ ١٠٠ ١٨٨	

الاسرة المصرية الاولى ٨٥ - الثانية	٨٣ ارواد جزيرة في الخليج الفارسي
٨٦ - الرابعة ٧٩ - السادسة	٢٨٠ اريوس : بدعة اريوس
٨٦ - الثانية عشرة ٨٨ ١٢٩	٦٧ اريحا ٦٤ - خزف
- الثامنة عشرة ٩٢ - العشرون	٣٧ الازدرخت (الزرنجيت)
١٣٧ ١٠٧	٢٨٢ ٢٥٨ ازدرشت
اسرحدون الاشوري ٣ ١٧٧ ١٧٨	٤٦٧ ازميز
- نصب عند مصب نهر الكلب ١٧٩	١٠٣ ١٠٢ ٩٩ ازيرو
الاسطرلاب الكروي ٣٣٠	٣٨٨ ٣٨٧ ٤٨ اسامة بن منقذ
اسطفان الدويهي ٤٨٨	٣٨٨ - في حتام صور
اسطول عربي ٢٩٥	٣٤٠ ٢٤٢ ٧٤ ٤٢ اسبانيا
الاسطول الفاطمي ٣٥٠	٤١٥ ٤١٤ ٣٠١ ٤٦١
الاسطول الافرنسي ٥٩٢	٤٢٥ - مستعمرات فينيقية
اسعد الشدياق = الشدياق ، اسعد	في ١١٧
اسعد باشا العظم ٤٧٤	٣٩٣ ٣٨٢ ٣٧١ الاسبتارية
اسكلايوس ١٦٤	٥٨٤ ٥٠١ ٤٨١ الاستانة
اسكندر الرابع [البابا] ٣٩٠	٣٤ ٤ [الجيش] الاسترالي
الاسكندر المقدوني ٣ ١٩٢ ١٩٥	٤٦٢ ٤٥٢ ٤٤٠ ٤٣٣ استنبول
١٩٧ ١٩٨ ٢٠١ ٢٢٦	٤٧٦ ٤٦٧ ٤٦٦ ٤٦٥
٢٦٠ - فتح سوريا ١٤٥ -	٥٢١ ٥١٦ ٤٨٢ ٤٧٩
في مصر ١٩٩ - مقدمة ثقافية	٥٣٨ ٥٣٦ ٥٣٤ ٥٢٨
٢٠٢ - ناووس ٢٠٥ -	٥٦٠ ٥٥٤ ٥٤١ ٥٣٩
امراطورية ٢٠٢	٥٨٥ ٥٨٤ ٥٦٥ ٥٦١
اسكندر سفروس ٢٥٨	٥٨٦ - جمعيات سرية
الاسكندرونة ١٩٦ ٤٥١	٢٥٤ استيفانوس اول شهيد مسيحي
الاسكندرية ٢١٣ ٢٣٩ ٢٧٦	١٦٤ اسحق
٤٠٧ ٥٠٤ - طلاب من ٢٨١	٤٨٩ سحق الشدراوي
اسكي شهر ٣٤٤	٣٦٤ سد الدين شيركوه
الاسلام ٥٨٣ - والمسرحية ٥٦٩	سرائيل = اليهود
الاسلامية ، الشريعة ٥٢٤	اسرائيلية الديانة ٥ واطلب اليهود
الاسكيمو ، دين ٤٢٧	اسرة البويهية = البويهيون

اشور ناصر بال الثاني ١٧٣-١٧٤ ١٧٦	اسماعيل [الشاه] مؤسس الدولة الصفوية
اشورية ، نقوش ٣ - الرسوم	في ابران ٤٢٩ ٤٩٨
والتمثيل ١٣٦ - ظهور الدولة	اسماعيل [بن نور الدين زنكي] ٣٦٥
١٤٦ - الامبراطورية ١٧٦	اسماعيل (الامام السابع) ٣١٦
١٨٠ - التوسع ١٧٦ -	اسماعيل (الخدوي) ٥٦٩ ٥٨٦
الجيش ١٧٧ - تذكارات ١٧٧ -	- بني دار الاوبرا المصرية ٥٦٩
سيادة على غرب آسية ١٧٩	اسماعيل الاطرش ٥٣١
الاشورية - البابلية ، الحضارة ١٨٤	الاسماعيلية ٣١٤ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٣٤
الاشوريون ٧٤ - ظهور في الشرق	٣٦٠ ٣٩١ ٣٩٧ ٣٩٨
كدولة ١٤٦ - في لبنان ٥٩١	العقيدة ٣١٦ - الحشاشين
الاشوريون (الاثوريون) ٨	٣٦٠ ٣٩١ - فرقة ٣٩٧ ٣٩٨
اشيرا ١٦٢	الاسماعيليون ٣٢٣ ٣٦٣
اصحاب السيوف ٤٠٠ ٤٤٣	اسية ٤٢٨ ٤٤٥ - واسط ٢١٢
اصحاب الطبيعة الواحدة = المونوفيسيت	٤١٦ ٤٢٦ ٤٢٧ - جنوبي
اصحاب القلم ٤٣٩ ٤٤٠	غربي ٧٦ - غربي ٤٦ ٤٩
اصحاب المزار (محفل ماسوني) ٥٢١	٥١ ١٧٢ ١٧٩ ٢١٧
اصحاب المشيئة الواحدة ٣٠٤ ٣٠٥	اسية الصغرى ١٩٥ ٢١٣ ٢١٧
٣٠٧ - تحريم ٣٠٥	٢٨٣ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٦٨
اصفهان ٤٩٩	٤٢٨ ٤٢٩ ٤٤٩
الأعراب ٥٩٠	- مستعمرات يونانية في ١٨٣
اعمدة هرقل = جبل طارق	٨٨
اغريبا الاول ٢٧٢ - ملعب في بيروت	اشبيلية ٢٤٢
٢٧٣	اشتار = البعلة
اغريبا الثاني ٢٧٣	الاشرف [السلطان] ٣٧٦ ٣٨٢ ٣٩٨
الأغريق = اليونان	٤٠٦ ٤٢٠ ٤٤١
الاغريقية ، اللغة ٢٣٥ ٢٤٩	اشعياء النبي ٤٣ ٤٥ ٤٦
الاغبلوس ٢٧٨ - عهد ٢٧١	اشمون (اله الشفاء) ١١٩ ١٦٤
واطلب اله الجبل	اشمون عزز ١٦٤ ٢٠٤ ٢٠٥
افامية ٢١٧ ٢٤٩ ٣٠٢	اشور ١٧٣ ٤٣٨
	اشور بانيبال ١٧٨ ١٧٩-١٨٠

١١٧ - شجر الزيتون في شمال	٣٦٧ ٣٦٥ ٣٦٠ ٣٤٣	الافرنج
١٤٥ - شرقي ٥٢٤	٣٧٨ ٣٧٧ ٣٧٠ ٣٦٩	
٣٠٨ افسس ، المجمع المسكوني في	٣٨٨ ٣٨٧ ٣٨٢ ٣٨٠	
١٨ ٥٨ ١٦١ ١٦٦ ٣٢٧ -	٤٠٧ ٣٩٦ ٣٩٢ ٣٩٠	
هيكل ٢٦١ - الحة ٢٦١	٤٥٠ - صلح مع المسلمين	
٢٤٨ افلوطين المصري	٣٦٩ - علاقات مع الملك	
٥٣٩ الاقطاع ، رجال	العادل ٣٧٠ - حالة ٣٧١ -	
٣٣٠ اقليدس	تحالف ٣٧٣ - امراء من	
الاقليم السوري = سورية ، اقليم	٣٨٩ - ثياب ٣٩١ - هجمات	
الاكادي ، اللسان ٩٨ - الكتابة	٤٠٦ - ياسرون بختريا ٤٠٧	
١٥٢ - اللغة ١٧٢ - الخط	الافرنسية ، الحملة ١٨٦٠-١٨٦١ ٣	
والكلمات ١٧٢	١٠٧ - لغة التخاطب ٥١٧ -	
٢٠٠ اكبتانا	المؤسسات التربوية ٥٤٥ -	
٢٢٩ اكنيوم	الثورة ٥٨١ - لغة رسمية في	
٤١١ ٣٤٢ ٧٤ الاكراد	لبنان ٥٩٤	
الاكليروس الارثوذكسي ، وتنظيمات	الافرنسيون ٥٢٣ ٥٥١ ٥٩٢ -	
عبد المجيد ٥٢٢	انتداب ٤ - جيوش الاحتلال	
الاكليروس الكاثوليكي [الروم	١٠٧ - اللغة ٢٢٠	
الكاثوليك] وتنظيمات عبد	افروديت ١٦٠ ١٦٢ ٢١٩ ٢٢٥	
المجيد ٥٢٢	هيكل ١٦٠	
الاكليروس الماروني ٥٤٢ - نفوذه	افروديت - عشروت ، هيكل ١٦٠	
٥٣٠ - دوره في فتنه ١٨٦٠	افريقية ٣٠١ ٤٢٥ ٤٢٨ ٤٤٥ -	
ص ٥٣١ - تحديد سلطته ٥٤١	السفر بحراً حول افريقية ١٣٧ -	
- مقاومة التبشير البرونستاني	١٣٨ ٥٤٩ - الشاطئ الشرقي	
الاكليل [عنوان مقطوعة شعرية] ٢٢٤	١٢٩ - شمالي ٤٩ ١٤٠	
٥٧٧ ال دورادو (بلاد)	٢٩٣ - مستعمرات في شمال	
٢٤٢ اكيليا		

الب ارسلان ٣٣٧ ٣٤٢ - استولى	امراء ابي اللع = اللعيون
على حلب ٣٣٧ - استولى على	امرسون ٥٦٩
دمشق ٣٣٧	امرو ٨١
الازا ٩٥ ١٠٣ ١٠٥	املك ٣٨٩
البانيا ١٤٤ ٤٨٠	املفي ٣٤٨
البانيون ٥١٩	امنحوتب الثاني ٩٦
البريه ١٤٤	امنحوتب الثالث ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠
النبني ٣ ١٩٢ ٥٩٢	امنحوتب الرابع ٩٧ ٩٨ ١٠٠
الف ليلة وليلة ٣٢٦	امنحت الثالث ٨٨
الكسيوس كومنينوس ٣٤٣ ٣٥١	امنحت الرابع ٩٠
الامان ٥٨٨	الاموريون ٨١ ١٦٣ ١٦٥
المانيا ٦٠١ ٦٠٥ ٦١٤	امون ١٨١
آله الجبل ٢٣٤ ٢٦٥ ٢٦٧	امون - رع ١٠٧
الباذة هوميروس ٣٠٤ ٥٨٥	[بنو] امية = الامويون
الباش صالح ٥٨١	الامويون ١٠ ٢٩٥ ٣٢٤ ٤٦٩
اليريوس ١٤٤	امير الامراء [لقب رئيس الحرس] ٣٣١
اليسا = ديدو	اميركا [العالم الجديد] ٣٨ ٤٠
اليوثرس = النهر الكبير	٤٦ - الجامعة في ٥٥١
اماسا = حمص	اميركا الجنوبية ، جرائد ومجلات عربية ٥٦٦
امانوس = جبل اللكام	اميركا الشمالية ٢٦ - جرائد ومجلات عربية ٥٦٦
الامبراطورية المصرية ٩٢ ١٠٧	الاميركان ٥٥١ - المرسلون ٥٥٣ ٥٥٤
١٢٩ - انحطاط ٩٦	اميل اده ، اول رئيس منتخب ٥٩٩
الامبراطورية الرومانية الشرقية ٢٢٩	وقع معاهدة صداقة وتحالف مع فرنسا ٦٠٠
٢٩١ ٣٠١	اميلوس بابنيانوس ٢٧٧
الامبراطورية النمساوية - النغارية ٥٢٣	
امي = انقه	
الامتيازات الاجنبية ٤٤٤ ٥٨٨	

انطلياس ٥٣ ٥٤ ٥٥٥ - مغاور	٥٨٠ امين الريحاني
٥٣ ٥٤ - مؤتمر ١١٥ -	اميون ٣٠٤ ٣٨٥ - كنيسة ٣٨٥
كنيسة مار الياس ٥١٥ -	الاناضول ٢٩٩ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٤٠
عامية ٥٨٢ ٥٠٥	٥١١ ٥٨٦ - بر ٤٤٠
انطون البشعلاني [من صليبا] ٥٧٧	الانتداب الفرنسي ٥٧٩ ٥٢٤
انطون سعاد ٦٠٧	انتبياتر الصوري ٢٢٢
انطوني وكليوبا طرا ٢٢٩	انتبياتر الصيداي [الشاعر] ٢٢٣ ٢٢٤
انطونيوس ييوس ٢٦٥	انترادوس = ارواد البرية
انطيفونس ٢٠٢	انتوليوس [او انطوليولس] ٢٧٨
انطيفونس ، ملك مقدونيا ٢٢٠	٢٨٠
انطيوخس الثالث ١٤٧ ٢٠٥	اندونيسية ٥٢١
انطيوخس الرابع ٢٠٦ ٢٠٧	انتن ٩٠
انطيباتر ، من قادة الاسكندر ٢٠٢	الاندس = نهر الاندس
انطيوخس السابع ٢٠٧ ٢١٨	الاندلس ٣٣٠ ٤٢٩ ٤٣٩ - انتشار
انطيوخس الثالث عشر ٢١١	الاسلام ٣٣٠
انفه ٩٩	انسان النيندرتال ٥٤ ٦١
الانكشاريه ٤٣٠ ٤٤١ ٤٤٨ ٤٥٢	انطاكية ٢١٧ ٢٤٨ ٢٥٦ ٢٦٢
٤٥٥ ٤٦٣ ٥٢١ -	٢٩٥ ٢٩٩ ٣٠١ ٣٠٢
هجات ٤٣٠ - قتلهم	٣٠٣ ٣٢٠ ٣٢٦ ٣٤٥
٥٢١	٣٥١ ٣٥٥ ٣٧٣ ٣٧٤
انكلترا ١٣٥ ٢٥٧ ٤٢٥ ٤٤٧	٣٨١ ٣٩٢
٤٨٤ ٥٠٤ ٥١٢ ٥١٩	مقاطعة ٢١١ - مركز الحاكم
٥٢٣ ٥٩٣ ٦٠١	الروماني ٢٢٧ - فتح ٢٩٢ -
الارجوان في بلاد ١٣٥	فتحها العزب ٢٩٩ - مركز
والدروز ٥٢٣ - منطقة	الكنيسة الارثوذكسية ٣٠٢ -
التجارة البريطانية ٦٠٢	سقوط ٣٧٤
انكلو سكسونية ، لجنة في بيروت ٥٤٥	

الانكليز	٥١٥ ٥١٦ ٥١٩ ٥٢٣	الأوروبيون في بيروت ٥١٧ - تجارة
	٥٢٦ ٥٣٦ ٥٧٦ ٥٩٢	٥١٨
عملاء لهم في لبنان ٥١٥		اورشليم = القدس
سياستهم في العراق ٦٠١		اورفا = الرها
الانتاج المحلي ٦٠٢		اورليان ٢٣٩ ٢٤٣
انكليري ، الحكم في القاهرة ٥٨١		اوريفون ٢٥٦ ٢٧٩ - مدفنه في كنيسة
انكليزية ، سيده ٥١٩ - الحكومة		صور ٢٥٥
٥١٩ ٥٢٠ - باخرة في		الاورينية = الحضارة الاورينية
بيروت ٥١٥		الاوزاعي [الامام] ٣٢٧ ٣٢٨ - ٣٣٠
انوسنت الثالث [البابا] ٣٩٤ ٣٩٣		انقطاعه الى العلم ٣٢٩ -
اهدن ١٧ ٤٣ ٢٣٣ ٣٩٧		اخلاق ٣٢٩ - محلة قرب
٤٢٣ ٤٦٥ ٤٨٨ ٤٨٩		بيروت ٣٣٠ - مذهب ٣٣٠
٤٩١ ٥٣١ ٥٣٥ ٥٣٩		اوستاليا ٥٧٧ ٥٧٨
كنيسة ٣٣٣		اوستيا [مدينة باوربا] ١١ - جاليات
اهل الذمة = الذميون		صورية في ٢٤١
اهل الكتاب ٢٩٤		اوسيرس ، قصة ١٥٥ ١٦٠
اهل القلم ٤٤٢		اوغاريت ٤١ ٥٣ ٩٧ ١٢٤
اهمج ٥٠		١٥٣ ١٥٥ ١٦٥ - خراب
الاهرام (جريدة) ٥٩٧		١٠٣ ١١١ - ملك من ١١٤
اهرام سنفرو ٨٠		- نصوص ١٣٣ - نظام
اوبرا عنتر (لشكري غانم) ٥٨٣		كتابة في ١٥١ - الواح من
الاورال - التاي (لغات) ٤٢٧		الطين ١٥١ - إله السماء
اوربان الثاني ٣٤٣		١٦١ - الادب والشعر ١٥٥ -
اوروبه ١٤٤ ٤٢٨ ٥٢٢ ٥٤٩		١٧٠ - اكتشافات ٢٤٦
٥٥٠ ٥٥٧ ٥٧٢ ٥٨٦		اوغسطس قيصر ٢٢٩ ٢٣١ ٢٤٠
٦٠١ - اواسط ٣٠ -		٢٤٢ ٢٥٢ ٢٦٢ ٢٧١
غرب ١٦٤		٢٧٢ - حكمه ٢٤٠ ٢٤٢
الاوروبي ، التدخل ٥٢٣		٢٦٢

٤٢٩	بايزيد الثاني	البابلية ، النقوش ٣ - العبادات ١٥٦
٥١٨	بتاتر ، معمل لحل الشرائق	اساطير ١٧٢
	بتدين = بيت الدين	البابليون المحدثون [الكلدانيون] ١٨٠
٣٨٢ ٢٣٩ ٢٤	البتراء	بابنيان (بابنيانوس) ١١ ٢٧٩-٢٧٧
٣٠٣ ٢٣٤ ٩٩ ٥٤	البثرون	بابنيانوس - اوليانوس ، قوانين ٢٧٩
٣٨٤ ٣٧٦ ٣٦١ ٣٤١		بارة ، ادخالها الى لبنان ٥١٣
٥٧٧ ٥٩٢ - كنيسة		الباروك ٤٣ ٤٧٧ ٤٩٧ - نبع ٣٥
٣٨٤		حرق ٤٩٧
٩٩	بترونا ، اغتصاب	باريس ١١ ٤٩٠ ٥٢٣ ٥٣٨
٢٤٨	بنية	٥٣٩ ٥٧٢ ٥٨٣ ٥٨٥
٤٣٧ ٤٠٧-٤٠٤ ٦٨٣	البحثريون	٥٨٦ ٦٠٨ - جمعيات
٤٣٨ ٤٤٠ ٤٥٠ - في		سرية وعلنية ٥٨٦
الغرب ٣٨٣ - يتوارثون		باسيل [القديس] ٣١١
أقطاعهم ٤٠٨ - يحمون		باسيل الثاني ٣٣٧
الشاطئ اللبناني ٤٠٦		باسيلا [عائلة] ٥١٧
بحث المطالب [المطران جرمانوس		باسيليوس ، اسقف كبدوكية ٣١١
فرحات] ٥٥٩		وفاته ٣١١
البحر الابيض المتوسط ٥ ٢٦ ١٤٥		باش بوزق ٥٣١
٤٢٦ - شرقه ٥ ١٣ ٣١		الباطنية ، العقيدة ٣١٨ - الفرقة ٣٢٢
١٣٩ ١٣١ ١٢٠ ٩٠ ٣٢		الباقية ٤٠
١٩٢ ٢١٣ - جانبي ٧ -		بامفيلوس ٢٥٧ ٢٥٦
١٣٣ ٣٧ ساحل		بان ٤٩١
عرق سكان ٧٣ ٨١ ٩١ -		بانونية ٢٤٢
مزايا شعوب ٨١ - القرصنة في		بانياس ٢٠٥ ٣٦٣ ٤٥٥ ٤٦٦ -
١١٢ - حوض ١١٥ ١١٧		قلعة ٣٦٠
- بحيرة فينيقية ١١٧ - مواني		باولي [عائلة] ٥١٧
١١٧ ١٣٧		باي تونس ٥٥٤
البحر الاحمر ١٩ ٣٣٥ ٣٥١ ٤٤٥		بايرد دوج ٥٩١
- مكان اتصاله بالنيل ١٣٢		بايزيد ٤١٧

٤٥٦	برج الكشف في بيروت	٤٢٨ ٢١٠	البحر الاسود
٤٣٣	البردة	٢١٦ ٢٤٢ - صناعة	البحر الايجي
	بردى = نهر بردى	٨٥ - الخزف الكنعاني	المعادن
	البردعاني = البردعي ، يعقوب	١٢٣ - مستعمرات يونانية في	
٣١٠	البردعي - يعقوب	١٨٣ - جزر في البحر	١٨٨
٥٣٢	البردوني	بحر الظلمات = المحيط الاطلسي	
٣٩٠	بردويل	بحر قزوين ٤٦ ٩١ - شرقه	٤٧
٤١٨	برسباي	بحر مرمره	٤٤٥
٤٠	البرسيم	البحر الميت ٢٠ ٧١ ٢٨٨ ٢٩١	
٣٩٧	برغندي	البحرين ٣٢ ٦١١ - جزر	٨٣
	برقوق [السلطان] ٤٠٢ ٤١٨ -	بحمدون	٦١١
	مسجد ٤١٨	بحواره	٥١٨
٣٨٩	بركة	بحيرة اورمية	٤٣٠
	برمانا ٢٧٦ ٥٨٨ ٦١١ - المدرسة	بحيرة الحولة	٣٦٠ ٢٢
	الانكليزية في ٥٤٧	بحيرة طبرية	٣٦٥ ٢٢
٣٦	البرواق	بخارى	٣٣٣
٤٤٥	بروتستانت ٤٩٥ - البروتستنتية	البخيل [رواية لموليير]	٥٦٩
٥٣٦ ٥٣٤ ٥٣٣	بروسيا	بدر الدين [الطبيب]	٤٢١
٥٣٦ ٥٣٣ ٥٢٧ ٢٧٧	بريطانية	البدو ٨١ - وشم	٥٩٠
٦١٤ ٦٠٩ ٦٠٥ ٦٠٣		بر الياس	٤٧٤
	تدخل ٥٢٥ - جرائد	بر الاناضول	٥٨٩ ٥٢١ ٤٤٠
٥٦٦	ومجلات عربية	البرازيل	٦٠٤ ٥٨٠ ٥٧٧
	تعترف باستقلال لبنان	البرامكة	٤٥١
	وسورية ٦٠٤	برترند	٣٥٥
	البريطانية ، وزارة الخارجية ٥٠٦	البربريس [شجر]	٣٩
٥٦٧	بشارة تقلا ، مؤسس الاهرام	البرتغاليون	٣٨
٦٠٥ ٦٠٤	بشارة خليل الخوري	البرتقال	٤٢٥
٦١٧ - عهد ٦١٧ - ارغم -		برثوليو دياز	٤٢٥
	على الاستقالة ٦١٧	برج جبيل	٣٥٧

بطليموس الاول ٢٠٢ ٢٣٢ ٢٤٧	بشري ٤٣ ٣٩٧ ٤٠٤ ٤٥٢
بطليموس الثاني = فيلادلفوس بطليموس الثاني	السلطان برقوق في ٤٠٤
بعيدا ٣١٨ ٥٤٢ ٥٧١ - عاصمة	بشير الشهابي [الثاني] ١٠ ٣٥
المتصرف شتاء ٥٣٨ - سرايا	٤٧٠ ٤٧٢ ٤٨١ ٥٠٠
١٣٨	٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٤
بعقلين ٤٠٤ ٤٥٩ ٤٧٠ ٥٢٦	٥١٥ ٥١٦ ٥١٩ ٥٢٥
مقر المعنيين ٤٥٩	٥٢٦ ٥٢٨ ٥٤٤
بعل ٩٢ ١٥٦ ١٦٢ ١٦٧ ١٦٩	يسترد صور ٤٧٤ - لبس
١٧٠ - هياكل ١٥٤ -	الطربوش ٥١٣ - استسلم
بعل الثاني ١٨٣ - بعل	للاكلينز ٥١٦ - في مالطه
اتصر ١٢١ - بعل حرمون	٥١٦ ، في استنبول ٥١٦ - مع
٢٢ - (اطلب جبل الشيخ)	هستر استانبول ٥١٩ - مع
بعل الصوري ١٧٨ - بعل	الدروز ٥٢٥
لبنان ١٣٩ - البعل الفينيقي	بشير الثالث ٥٢٦
٢٧٦ - بعل مرقود ٢٧٤	البشير [جريدة] ٥٦٦
البعلة ٩٢ ١٣٣ ١٦٢	بصايم ٢٩٨
- بعلة جبيل ٨٧ ١٦٢	بصرى ٣٦٣
١٠ ١٦ ٢٣٣ ٢٩٢	البصرة ٣٢
٢٣٤ ٢٤١ ٢٥٤ ٢٦٠	البصير [جريدة] ٥٨٥
٢٦٨ ٢٩٥ ٣٢٣ ٣٣٤	البطاركة الموارنة، يرفضون براءة الباب
٣٥٠ ٣٥٥ ٣٦١ ٣٦٢	العالي ٥٤٢
٣٦٤ ٤٠٠ ٤١٣ ٤١٤	البطالسة ١٩ ٢١٥ ٢١٦ - حكم ٢٠٢
٤٤٠ ٤٥٤ ٤٦٩ ٤٧٤	بطرس البستاني ٥٠٧ ٥٦١ ٥٦٢
٥٠٣ ٥٥١ ٥١٩ ٥٤٦	٥٦٨ ٥٨١ - نقل التوراة الى
٥٩٧ - مقالع الطباشير	العربية ٥٦١ - اسس مدرسة
بالقرب من ٢٣٨ - كنيسة	في عبيه ٥٦١
في ٢٦٠ - مركز ديني ٢٦٢	بطرس كرامة ٥١٠ ٥١٦
- هياكل ١٠ ١١ ٢٦٣ -	بطرس مبارك الغسطاوي ٤٧٨
	البطريك الماروني، ممارسة سلطانه ٥٤٢
	هَدَد ٥٨٩

٢٧١ - آثار ٢٦٧ -	٨٦ - مقسدمو ٤٠٨ -
خراب - هولاكو ٢٦٧ -	حبوب ٤١١ - استرداد
مركز الحياة الرومانية ٢٧٢	٤٧٤ - الاقطاع ٦١٤
- طالب من ٢٨٢ - مولد	٣٠٤ بكركي
- الامام الاوزاعي ٣٢٨ -	بكفيا ٥٤٥ - مدرسة يسوعية ٥٤٥
مدينة الالبان ٣٣٨ - خراب	٢٩٩ ٢٩١ البلاذري
٣٧٣ - شهرة ٤١٣ -	٢٢٠ بلا ، عاصمة مقدونية
الدبس ٤١٤ - التستر	٢٧٢ بلاطانوس
٤١٦ - المدارس والمساجد	٥ بلد وين الاول
٤٢٠ - البيمارستانات	٤٦٠ بلرمو ١٤٣ - مسجد للفاطميين
٤٢١ - بلد شيعي ٤٩٩ -	٤٩٥ بلس ، فردريك
آثار ٦١٢	٤٣٨ البلقان
البغايا [ج بغية] ١٥٩ ١٦٠	٤٥٣ بلونة
بغداد ٢٦٧ ٣١٣ ٣٢٦ ٣٣١	٢٠١ بلوخستان
٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٥ ٣٣٧	٢١ بلودان
٣٤٠ ٣٥٣ ٣٧٣ ٤٦٣	٢٠٦ بلوزيوم
٥٧٠ ٦٠٩ - تأسيس	٥٥٢ ٥٠٨ ٢٣٢ بليني فسك
٣٢٦ - حركة الترجمة عن	٣٧١ ٣٤٨ ٣٤٤ ٣٤٣ البندقية
طريق السريان ٣١٣ -	٤٨٢ ٤٥٦ ٤١٥ ٣٨٢
استيلاء البويهيين على ٣٣٢	٤٨٥ ٤٨٠ - تجار ١٣٥
- مدارس ٤١٨	- بقايا زجاجية ٢٤٣ -
٨ ١٨ - ٢٠ ٢٠٠ ٢٦٢	قنال ٤١٦
٣٢٣ ٣٣٦ ٣٥٠ ٣٥٦	٢٧٩ ٢١ بنطس
٣٩٧ ٤٠٠ ٤٣٩ ٤٤٠	٦١٦ البنك الدولي للانشاء والتعمير
٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٤ ٤٥٥	٨٨ بني حسن [محلة]
٤٧٣ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٣٧	٣٢٠ ٣٨٦ - رحلة ٣٢٠ بنيامين التودلي
٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٤ ٥٧٢	٤٩٩ بهاء الدين العالمي
٥٩٧ ٦١٥ - المزروعات	١٠٦ بوارج
في ٣٩ - طريق النيل مصر	١٤١ بوتولي

بيلوس = جبيل	٢٤٦	بونس
بيت ايل ٥٣٢	بورتالس - فورننه ، معمل الحـل	
بيت الدين ٣٥ ٥٠٦ ٥٠٩ ٥٤٠	الشراق ٥١٨	
٥٤٢ - قصر ٥٠٦ ٥١٦	٢٤٢ ١١	بورديو
٥٣٨	٤٢٨ ٤٢٧	بورصة
بيت شباب ٣٩٤	بوركهارت ٣٦٢ ٤١٢ - درس	
بيت لحم ٢٥٢	العريسة في حلب ٤٩١ - في	
بيت مري - ضواحي ٢٧٦ ٢٧٤	لبنان ٥٠٥	
بيت المقدس = القدس	بوزولي = بوتولي	
بيروت ١١ ١٠٠ ١٥٥ ٢٣٤	البوسفور ٤٢٨ ٢٩٠	
٢٦٢ ٢٨٠ ٢٩٦ ٣٢٨	البوسنة ٤٨٠	
٣٣٠ ٣٣٣ ٣٤٠ ٣٤٧	بوسيدون ١٤٠ ٢١٧ - اله بيروت	
٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥٨ ٣٦٧	٢٧٣	
٣٦٨ ٣٧٠ ٣٧٥ ٣٨٢	بوفور (الجنرال) ٥٣٣ ٥٣٥	
٣٨٧ ٣٨٩ ٣٩٧ ٤٠٠	بولاق : مطبعة ٤٢٤	
٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٦ ٤٠٧	بولدوين ٣٤٤ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٨٢	
٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١٢	بولدوين الاول ٣٩٦	
٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤٥١	بولدوين الثاني ٣٥١	
٤٥٤ ٤٦٤ ٤٧٠ ٤٧٥	بولدوين الثالث ٣٨٩	
٤٧٦ ٤٨٠ ٤٨٣ ٤٨٥	بولس الخامس ٤٥٨	
٥٠٢ ٥٠٤ ٥٠٨ ٥٢٨	بولس الرسول ٢٥٤ ٢٥٥ - في صور	
٥٣١ ٥٣٣ ٥٣٧ ٥٣٨	وصيدا ٧	
٥٤٢ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٦٠	بولينوس ٢٥٥	
٥٦٣ ٥٦٥ ٥٦٧ ٥٣٨	بومبي ٢٢٧ ٢١١ ١٩٢	
٥٦٩ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٨	بونس ايرس ٥٧٨ ١١	
٥٨٩ ٥٩١ ٥٩٧ ٦١٠	بوهمند ٣٤٥	
لقب ١١ - معهد الحقوق	البويهون : استيلاؤهم على بغداد ٣٣٢	
١١ ٢٧٦ - ٢٨٠ - كتيبان	بيبرس ٣٦٣ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٨٤	
الرميل الاحمر قرب ١٤ - جبل	٤٠٦ ٤١٨ - انشأ بريسدا	
٤٩ - المتحف الوطني ٣٤	٤٠٦ - قصة ٥١٧	

- ٩٠ - نهر ٣٤ ٣٥ - المطر
 ٣٠ - نسيم البحر ٣٢ -
 الحرارة ٣١ ٣٢ ٣٣ -
 نقطة تأريخ ١١٨ - استسلام
 للاسكندر المقدوني ١٩٧ -
 تصك نقوداً باسمها ٢٠٨ -
 حديد من ٢١٥ ٢١٦ -
 تجارة ٢١٦ - خراب ٢١٨ -
 زبيب ٢٣٦ - انوال ٢٣٩ -
 معكرونة من ٢٤٦ - جزيرة
 لاتينية ٢٥٠ - مقر اسقي
 ٢٥٦ - حاكم ٢٥٧ - في يد
 معاوية بن ابي سفيان ٢٩٣ -
 مسيحية ٢٦١ - مركز ثقافي
 ٢٦٢ - مستعمرة رومانية
 ٢٧١-٢٧٦ - ابنية يهودية
 ٢٧٢ - اله بـيروت ٢٧٣ -
 مركز الدراسات اللاهوتية ٢٧٩
 - كنيسة في ٢٨١ - زلزال
 ٢٨٣-٢٨٤ - جاليات فارسية
 ٢٩٧ - المنصور في ٣٢٨ -
 اقطاع للحاكم بامر الله ٣٣٦ -
 نبيت ٣٣٧ - ميناء ٣٣٩
 ٤٠٣ ٤١٣ - قنطرة ٣٤٠ -
 حصار ٣٤٩ - حكام ٣٥٠ -
 في ايدي الافرنج ٣٧٠ -
 مناطق ٣٨٠ - قلعة ٣٨٢ -
 الجامع العمري في ٣٨٢ - بنو
 تنوخ ٣٨٣ - وصف ٣٨٦
 الصليبيون في ٤٠٤ - مرفأ
- لدمشق ٤٠٦ - مرفأ داخلية
 البلاد ٤٠٦ - حضون ٤٠٦ -
 بناء اسطول المالك ٤٠٧ -
 قضاة ٤١٠ - بساتين ٤١٢ -
 السكر في ٤١٤ - الفاكهة لمصر
 من ٤١٥ - قنصل من البندقية
 ٤١٧ - برج الكشاف
 ٤٥٦ - في أيام الجزار ٤٥٧ -
 تحصين ٤٦٤ - عاصمة الدروز
 شتاء ٤٧٦ - الشهابيون في
 ٤٧٦ - ضربها الاسطول
 الروسي ٤٧٩ - تابعة لصيدا
 ٤٨٥ - دير للرهبنة
 الفرنسية في ٤٩٥ - حرش
 ٥٤ - هوجت ٥١٥ -
 زعيمة المدن اللبنانية ٥١٦ -
 ٥١٨ - عدد سكان ٥١٧
 ٥٧٣ ٦١٤ - ولاية منفصلة
 عن دمشق ٥٤٢ - مدرسة
 لتدريب المعلمات ٥٤٦ -
 مكاتب بيع الكتب ٥٥٩ -
 جرائد ومجلات ٥٦٦ - دمشق
 - بـيروت طريق ٥٢٨ -
 بيروت - دير القمر ، شق
 طريق ٥٤٠ - ميناء ٥٩٦ -
 خط حديدي ٦٠٢ ٦١٣ -
 بوابة الشرق ٦١٣ ٣١٤ -
 ضواحي ٦١٥
 بيروت - بعلبك ، صلات ٢٧٤
 بيروت [جريدة] ٥٨٤

٣٧٠	تبنين ٣٦٦ - في ايدي الافرنج	بيروتا = بيروت	
٣٦٠	قلعة	بيريه [ميناء]	١٨٩ ٢٤٢
٢٨٨	تبوك	البيروتيون ٢١٧ - عبادة جوييترا البعلبي	
٢٩١	تبوك - معان ، طريق		٢٧٤
٤٠٠ ٤٠٤ ٤١٦	التتر - في بعلبك	بيتر ٣٤٣ ٣٤٨ ٣٦٨ ٣٨١ ٤٦٠	
٤١٦ - غزو ٤٢٦		بزنطية ٢٨٧ ٣٠٢ ٣١٨ ٤٤٩	
٢٦	تثيس ، بحر	- اميرات ١٣٤ - عهد ١٣٥ - ممثلة	
١٩ ٢٣٤ ٢٣٩ ٥١٩ -	تدمر	الارثوذكسية ٢٩٠ - اثرها في الحضارة	
٢٣٩	محطة برية ٢٣٩ - ثروة	التركية ٤٤٩	
٢٣١ ٢٤١ ٢٦٤ - موته في	تراجان	البيزنطية [نسبة] بقايا الهندسة المعمارية ٣٠٣	
٢٦٤	كيليلية	البيزنطيون ٢٩٧ ٣٤١ ٣٤٨ ٤٢٧	
١٤٤	تراقية		٤٣٨
٦١٠	ترانزيت	بيغمليون	١٤٥
١٤٢	ترشيش	بيوئس الصيداوي	٢٢٢
٤٢٦	ترعة السويس ٥٨٨ - شقها		
٥٤٩ ٥٦٩ ٥٧٦			
٣٤٢	التركان ٤١١ - من السنة	ت	
٥٣٣ ٥٢٣ ٥١٢ ٥١١	تركيا	التابليين	٦١٢
٥٨٨ ٥٥٠ ٥٣٦ ٥٣٤		تارح [امير]	١١٨
٦٠٢ - اقسام ٥٢٣ - مع		تاريخ الاداب العربية [لجرجي زيدان]	
٥٦٣ - والغرب	حرب روسيا	٥٦٨	
٥٨٦ - والهدنة ٥٩٢ - معاهدة		تاريخ التمدن الاسلامي [لجرجي زيدان]	
٥٩٣	سيفر	٥٦٨ - ترجم ٥٦٨	
٥٨٧ - ٥٨٤ ٥٨٢	تركيا الفتاة	تاريخ حيدر الشهابي [كتاب] ٥٨٢	
٥٨٥	حزب	تاريخ الصحافة العربية [الكونت فيليب	
٤٢٧	التركية ، اللغة	دي طرازي] ٥٦٦	
١٧٨	ترهاقا	التاسوعيات [كتاب لفرفوريوس] ٢٤٨	
٢٤٢	تريستا	٤٣٠	
٢١٧	تريفون	٥٥٣	
٢٣٣	تسيتوس	تبشير الديني	
		تبنت = كفر تبنت	

٤٦٤ ٣٥٨	توسكانا	٤٥٧ ٥٣٢ ٥٤٧ - مستقبل	تشرشل
١١٢ ٩٧ - هديته الى	توشرتا	٥٤٨ ٥٤٧ لبنان	
١١٢	امنحوتب الثالث	٥٤٥ - مدرسة يسوعية في	تعنايل
٢٤٢	توف	١٧٣	تغلت فلاصر الاول
٣٠٤	توفيل ، نقل الياذة هوميروس	٦١٥ - تصدبره	التفاح ، زراعة
٢٢	تومات نبخا	٣٠٧ - جاليات مارونية في	تكريت
٣٣٥ ١٣٩	تونس	٤٢٠	التكية
٢١١ ٢١٠	تيغرانس	١٣١	تل جازر ٧٤ - تقويم
٤١٦ ٤١٤ - في	تيمورلنك	٧٤ - خزف	تل الجديدة ٦٧
٤١٧ دمشق		٦٧ مدهون	
		٨١	تل الحريري
		٨٢ ٩٨ - رسائل	تل العمارنة
		٢١٧	تل النبي ، مند
			تليلات الغسول = الغسول
		١٧٢ ١٦٣ ١٣١-١٥٦	تموز
		٢٤٢	عبادة
		١٦٠	تموز وعشروت ، قصة
		٦٠٢	التموين الانكلو - اميركي
		١٩٠	تنس (ملك صيدا)
		٣٤٩ ٣٤٤ ٣٥٥	تنكرد
		٤٠٦	تنكيز ٤٠٦ - بني جسر الدامور
		٤٠٤ ٣٨٣ ٣٢٠ ٣١٨	التنوخيون
		٤٦٩ ٤٦٨ ٤٥٠	
		٤٣٩	قيسيون
		٢٣٣	تنورين
		٦١٤	التوت ٥١٨ - مزارع
		٢١٦ ٨ ٧	التوراة
		٨٥	كلمة - واطلب العهد القديم
		٥٥٥	التوراة ٦١٢ - ترجمتها الى العربية
		٤٩٠	توراة باريس

جبال البرز (في ايران) ٢٩
 جبال زغروس Zagros ٢٩
 جبال طوروس ٢٩٣ ١٩٥ ٩٧
 ٥٩٢ ٥١١ ٣٤٤ ٢٩٨
 ٦٠٧ - منطقة الجراجمة ٢٩٩
 في ايدي المسلمين ٢٩٣
 جبال لبنان ٣٩٧ ٣٩٠ ١٧٣
 جبال النصيرية ٥١٤ ٣٦١
 جبرائيل الصهيوني = الصهيوني
 جبرائيل القلاعي اللحفدي = القلاعي
 جبران خليل جبران ٥٨٠
 جبل اثوس ١٨٨
 جبل الثلج = جبل الشيخ
 جبل جرزيم ٢١٦
 جبل الدروز ٣٢٢ ٥٠٣ - ثورة سنة
 ١٩٢٥ ص ٦٠٠
 جبل الدروز (لبنان) ٥٢٦ - ثورة
 سنة ١٩٢٥ ص ٦٠٠
 جبل الشيخ ٥٠ ٤٨ ٢٢ ٢١ ٢٠
 ٣٦٠ ١٣٦
 جبل الصالحية ٤٠٦
 جبل طارق (اعمدة هرقل) ١٣٨ ٧
 ١٤٧ ١٤٠
 جبل عامل ٤٧٣ ٤٠٤ ٣٣٨ ٣٢٣
 ٤٧٤ ٤٩٩ ٥٠٣ - عسل
 في ٣٣٨
 جبل الكرمل ٣٩٤ ٣٢٠ ١١٤
 ٤٥٥ - مغارة ٥٣ ٥٤
 جبل الكنيسة ٤٠٦ ٣٩٨ ١٦
 جبل لبنان ٣٩٢ - الحروب ٥٢٥

ج

الجابية - مؤتمر ٢٩٤ - ٢٩٣
 جاسينيوس ١٥٣
 جالدران ٤٣٠
 الجامع الازهر ٣٣٥
 الجامع الاموي (بدمشق) ٤٠٢ ٣٦٩
 ٤١٧ ٤٤١ ٥٨٤
 الجامعة الاسلامية ٥٨٤ ٥٨٣ ٥٨٢
 ٥٨٥
 الجامعة الاميركية في بيروت ٥٤٦
 ٥٥٥ ٥٦١ ٥٦٣ ٥٦٤
 ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٨١ ٥٩٠
 ٥٩٣ - متحف ٦٦ - عمود
 بركاني ٢٣٧ - مقابلة مع
 الجامعة اليسوعية ٥٥١ تأسيس
 ٥٥٢ - اللغة العربية في
 جامعة الدول العربية ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤
 - تأسيس ٦٠٩ - ميثاق ٦٠٩
 جامعة القديس يوسف في بيروت ٣٠
 ٥٤٥ ٥٥٥ ٥٦٣ - تأسيس
 ٥٥١
 الجامعة اليسوعية = جامعة القديس
 يوسف في بيروت
 جامعة ليون ٥٥١
 جامعة بيل ٥٥٥
 جان بردي الغزالي ٤٤٠ ٤٤١
 جانبولاد = جنبلاط
 جان هلولو ٦٠٤
 جايمس بلاك ٥١٨
 جبال الامانوس = جبل اللكام

٢٩٧ - سور ٣٤٠ - تحصينات
 صليبية في ٣٥٦ - في ايدي
 الافرنج ٣٧٠ - الكنيسة
 الصليبية في ٣٨٤ - برج ٣٥٧
 الجيلي - القينقي ، الهجاء ١٥١
 الجيليون ٨٦ ١٦٠
 جرابلس = كركميش
 الجراجمة ، قدومهم على معاوية ٢٩٨ -
 قوم اشداء ٢٩٨ - من الجنود
 المرتزة ٢٩٨ - في سورية
 ٢٩٩ - غزوات ٢٩٩ -
 قوادهم من الروم ٢٩٩ -
 يحتلون فلسطين ٢٩٩ -
 يحتاجون لبنان في عهد الملك
 ٢٩٩ - يندجون بسكان الجبال
 ٣٠٠ - هم المردة ٣٠٠ - في
 لبنان ٣٠٠ - في سورية ٣٠٠
 جرجس بن مارون الاهدني ٤٥٨ ٤٦٦
 جرجس غيره ٤٨٩
 الجرجمة [مدينة] ٢٩٩
 جرجي زيدان ٥٦٨
 الجرد ٤٦٩
 الجرود ٤٠
 جرمانوس فرحات (مطران حلب
 الماروني) ٥٥٨
 جريدة ٥٥٤
 الجنواثر ٤٤٥ ٥٣٩
 جزائر الهند الغربية ٥٧٧
 الجزائر (احمد باشا) ٤٥٧ ٤٧٠
 ٤٧٥ ٤٧٨ ٤٧٩ - ٤٨١

- اصلاح الحكم في ٥٣٤
 متصرفية ٥٣٧-٥٤٨
 جبل اللكام ١٤ ٨١ ١٧٢ - منطقة
 الجراجمة ٢٩٩
 جبلة ٣٤٦ ٣٩٧ - تابعة لطرابلس
 ٣٤٦
 جبون ٣٠٤
 جبلة = جبيل
 الجيليون ٩ ١٦ ٤٧ (اهل الجبل)
 جبلة بشري ٤٦٩
 جبيل ٨ ١٨ ٨٤ ٩٤ ٩٧
 ١٠٠ ١٠٣ ١١٨ ١٧٣
 ٢١٦ ٢٣٤ ٢٥٤ ٣٣٧
 ٣٤٧ ٣٥٦ ٣٦١ ٣٦٧
 ٤٠٠ ٤٥١ ٥٠٣ ٦١٢
 ابنية ٧٣ - مقبرة في ٧٣ -
 بيوت ٨٥ - مراكب ٨٦ -
 رئاسة ٩٩ - قطع خزفية من
 ٦٨ - امراء ٨٧ - المجلس
 الحكومي في ١١٤ - هيكل في
 ١٦٦ - قلعة ١٥٢ ٣٥٧ -
 كتابة ١٥٣ - طقوس
 ١٥٨ - مقابر في ١٦٨ - مدينة
 مستقلة ١٨٩ - استسلام الى
 الاسكندر المقدوني ١٩٦ -
 مراكب حربية من ١٩٨ -
 نقود ٢٠٨ - اوراق الردي
 ٢١٦ - مفكرون من ٢٤٦ -
 في يد معاوية بن ابي سفيان
 ٢٩٣ - جاليات فارسية في

١١٢	جليات الجبار	٥١٣ ٥٠٣ ٥٠٢ ٥٠٠	
٤٧٨ ٣٦٦ ٣٢١ ٧	الجليل	هرب الى استنبول ٤٧٩ -	
٤٧٩ -	تلال ٢٢	موت ٥٠٣ - ادخل الباره	
	جمال باشا ٦٠٤ - يغزو ترعة السويس	٥١٣	
٥٨٨ -	يستولي على القنصلية	جزر الارخبيل ٢٤٢	
الافرنسية في بيروت ٥٨٨ -		جزر الازور ١٤١	
مدبر المذابح الارمنية ٥٨٨ -		جزر الباليار ١٤٧ ١٤٢	
احتل لبنان ٥٨٨ - اعدام		الجزر البريطانية ٣٠ - القصدير في	
الشهداء ٥٨٩		١٤٠ - الارجوان في ١٣٥	
جمال الدين الافغاني ٥٨٢ - شعاره ٥٨٢		جزر سلي ١٤٠	
٣٩٨	جمال الدين الاقوش	جزر الفيليبين ٥٧٧ ٤٢٥	
٤٣٧	جمال الدين التنوخي	جزر القصدير ١٤٠	
٥٨٤	جمعية الاتحاد والترقي	الجزيرة ، رفض دفعها ١٠	
٥٩٤ ٥٩٣	جمعية الامم ، ميثاق	جزيرة ديلوس ٢١٧	
٥٨٠ ٥٦٠ ٥٥٧	الجمعية العلمية السورية	جزيرة ساموس ١٤٤	
من اعضائها ٥٦١		جزيرة سيناء = سيناء	
جمعية المريمات (راهبات) ٥٤٥ -		الجزيرة العربية ٤٢٥ ٢٣٨ ٢١٢	
مدارس ٥٤٥ - عدد تلامذة		٤٤٥ ٥٠٤ ٥٩٠ - بدو	
٥٤٥		٧٥ ٢٠٩ - حول ١٢٩ -	
٦٠٠	الجمعية الوطنية في فرنسا	جنوب ١٤٥ - شواطئ ١٢٩	
٥٨١	الجمهورية (الافرنسية) الثالثة	- انتاج ١٩٩	
٦٠٧ ٥٧٧ ٤٥	الجمهورية اللبنانية	جزيرة كريت ١٤٤ ١٣٩ ١١٦	
اول جمهورية في العالم العربي		١٥٤	
٥٩٩ - القبض على اعضاء		جزيرة لمنوس = مودروس	
حكومتها ٦٠٤ - اطلاقهم		جزين ٥٠٨ ٤٥٣ ٥٠ ٢٢	
٦٠٥ - سياستها التامة ٦٠٦ -		٥٣٨ ٥٢٩ ٥٢٧	
سن القوانين ٦٠٨		شلال ٣٥ - مذبحه ٥٣١ -	
٣٧	الجزير	مدارس يسوعية في ٥٤٥	
الجنان (لبطرس البستاني) ٥٦٢ شعارها		صناعة ٥٧٣	
٥٨١		جعونة ٣٢٧	

٦٠٩ ٦٠٥ ٦٠٢	الحاكم بامر الله ٣١٣ ٣١٥ ٣١٨
الزراعة بعد ٦١٤	٣٣٦ ٣٩١ - قتله ٣١٦ -
الحرب العالمية الثانية ١٦ ٣٩ ٤١	غيبته ٣١٩ - عبادته ٣١٦ -
٦١١ ٦٠٥ ٥٨٨	٣١٧-٣١٨ - المؤرخون
٥٢٣ حرب القمر	واخباره ٣١٦
٥٢٦ الحركة الاولى	هدم كنيسة القيامة في القدس
٤٧٤ ٤٦٦ ٤٥٤ حرفوش ، (بنو)	٣١٦ نهى عن اكل الملوخية
٥٢٩ حركة الستين (سنة ١٨٦٠)	٣١٦ مبايعته ٣١٦ - مؤسس
٥٤٥ ٥٣٤ - ٥٢٣ ٥٣٠	الحركة الدرزية ٣٣٦ اقطع
٥٨٢ الحركة الصهيونية	احد عماله ٣٣٦
٥٣٠ حركة مارونية (سنة ١٨٥٨)	الحاميون ٦١
٣٣٤ الحرمان (مكة والمدينة)	الحبشة ٢٥٦
حرمون = جبل الشيخ	حبيب باشا السعد ٥٩٩ - تعيين رئيساً
٢٨٨ حروب الردة	للمجمهورية اللبنانية ٥٩٩
٣٣٨ ٣٣٥ ٣٠٧ الحروب الصليبية	حبش (مشايخ) ٤٥٢
٣٩٧ ٣٩٤ ٣٨٥ ٣٧٩	حنوشلش ١٠٦
٤١٣ ٤٥٧ - اثرها ٣٨١ -	الحنثون ٣ ٥ ٤٦ ٧٤ ٩٧ - قوة
٣٩٥	١٧٣
٢٣٩ الحرير الصيني	الحجاز ٢٨٨ ٣٣٥ ٣٥٣ ٤٣٢
٥١٨ الحرير اللبناني ٤٨٤ تربية دود	حدث (بيروت) ٥٢٧ ٥٥٣ ٥٥٤
٦١٤ بيعه الى فرنسا ٥٧٣ موسم	٥٦٧
٥٠٤ ١٣ حريصا	حدث الجبة ٤٣ ٤٠٣ ٣٩٧ ٤٩١
٦١٨ الحزب التقدمي الاشتراكي	حدثون كنيسة ٣٠٣
٤٧٥ ٤٧٣ ٤٣٩ الحزب الجنبلاطي	حديثه الاخبار (جريدة) ٥٦٥
٥٢٥ واطلب الجنبلاطيون	حراجل ٤٥١
٦٠٧ الحزب السوري القومي	الخرافشه = بنو حرفوش
٦١٧ الحزب الشيوعي في لبنان	الحرب العالمية الاولى ٢٤ ١٠
٤٧٢ ٤٥٤ ٤٣٩ الحزب القيسي	٣٨ ٤١ ٥٠ ٩١
٥٢٥	٥١٨ ٥٣٦ ٥٤٤ ٥٧٣
٥٨٣ حزب اللامركزية	٥٨٣ ٥٨٦ ٥٨٧ - ٥٨٨

١٦٠	حضر موت	٤٧٥ ٤٧٣ ٤٣٩	الحزب اليزيدي
٣٦٧ ٣٦٦ ٣٦٥	حطين ، معركة	٥٢٥	
٦٠٠	الحكومة الافرنسية	٤٥٤ ٤٣٩ ٣٢٠	الحزب اليمني
٥٩٣	الحكومة الانكليزية ، بيان	٥٢٥ ٤٧٢	
٦٠٥	الحكومة اللبنانية ، تتسلم جميع المصالح	١٧٧٠	حزقيا
			حزقيال [النبي ، سفر] وصفه للتجارة
			الفينيقية ١٣٧
٣٥٥ ٣٥٣ ٣٤٥ ٣٣٤	حلب	٤٦٢	حسن [ابن يوسف سيف]
٣٧٣ ٣٧٠ ٣٦٦ ٣٦٢		٣٢٢	الحسن العسكري
٤٠٩ ٣٩١ ٣٨٦ ٣٧٥		٢٢	حسان بن ثابت
٤٣٧ ٤٣١ ٤٣٠ ٤٢١			الحسين [بن علي بن ابي طالب]
٤٦٦ ٤٦٣ ٤٨٣ ٤٥٨		٣٢٤	حسين [الملك ، ابو فيصل الاول وعبد
٥٠٩ ٥٠٤ ٤٩١ ٤٨٤			الله] ٤ - (شريف مكة)
٥٥٦ - فتح ٢٩٢ - عاصمة		٤٣٢ ٤٣٣ -	زعيم القضية
الحدانيين ٣٣٤ - هجمات		٥٨٩	العربية
الروم ٣٣٦ - الطاعون ٤٠٣			حسين بن فخر الدين (الامير)
جالية اسبانية ٤١٥ - المغول		٤٧٠	حسين بيهم
٤١٦ - ولاية ٤٤٠ - قنصل		٥٦١	حسين الشهابي
من البندقية ٤١٦ - قنصل		٤٠٨	حسين العاملي
بريطانيا ٥٠٤ - اول مطبعة		٤٩٩ ٤٩٨	الحشاشين
عربية في الشرق ٥٥٥		١٠٧٢ ٣٧١ ٣٤٢ ٣٦٠	
		٣٩١ ٣٧٥ ٣٧٣	
			واطلب الاسماعيلية
٦٠٩	حلف بغداد	٤٩٢ ٤٩١	حصرون
	الحلفاء [سنة ١٩١٥] في لبنان وسورية	٤٩٠	الحصروني ، حنا
	وفلسطين ٥٩٢ - جيوش ٦٠١	٤٨٦	حصن ابن ابي نوفل
٤٨٨ ٤٦٩	حمادة ، بنو	٣٥٨ ٣٤٦ ٣٤٥	حصن الاكراد
٤٠٦ ٣٧٨	الحمام الزاجل	٤٦٣ ٣٨٦ ٣٦٠	
٥٤٥ ٥٣٦ ٣٩٨	حانا		سقوطه ٣٧٤
٣٦٢ ٣٥٨ ٣٥٥ ٤٩	حاة		الحضارة الاورينية ٥٥ ٥٧ - السفلى
٤٠٩ ٣٨٦ ٣٧٤ ٣٧٣			٥٥ - العليا ٥٧
٥٠٣ ٤٨٤ ٤٤٠ ٤١٦			
٦٠٠ - احتلال ٩٩ - فتح			

١٩٥ ١٨٧ ١٨٥	داريوس الاول	٤٩٧	الخلوة
٣٤٤ ٢٨٣ ٢٠٠		٤٩٨ ٣١٩	خلوة البياضة
٢٠١	داريوس الثالث ١٩٥ ، ابنة ٢٠١	٣١٩	خلوة شبع
	داقيانوس = دقيوش	٧١ ١٣	خليج الاسكندرونة
٢٤٢	داكية	٢٣٥	خليج سرتة
٤٠٧ ٤٠٦ ٢٠٤ ٣٥	الدامور	٦١٢ ٧٦	الخليج العربي
	نهر ٣٥	٢٨٨ ١٣٦ ١٢٩	خليج العقبة ١٩
	الدانوب ٢٢٩ - وادي ٢٤٢	٦٠٧ ٣٥١ ٢٩١	[ايلة] -
١٧٠	دانيال (النبي)	١٣٧ ٨٣ ٨١	الخليج الفارسي
٥٥٢	دانيال بلس	٤٢٦ ٢٣٩ ٢٠٥	
	داود النبي ٤٢ ٤٥ ١١٣ -	٥٢٥ ٥١	خليل [ابن الامير بشير]
	رقص ١٣٠		خليل الخوري [صاحب حديقة
	داود افندي [باشا] ٥٣٨ ٥٦٣ -		الاخبار] ٥٦٥
	اول منصرف في لبنان ٥٣٨		خليل سر كيس ، مؤسس لسان الحال ٥٦٦
	٥٣٩ - اول عهد ٥٤٠ -	٥٨٥ ٥٨٤	خليل غانم
	استقالته ٥٤١	٣٣٣	خمارويه
٣٧١ ٣٦٨	الداوية (فرسان الهيكل)	٣١٤	الحماسين
٥٤٠ ٣٨٠ ٣٧٦ ٣٧٥ ٣٧٤		٥٥٦	الخنشارة
٥٦١	دائرة المعارف (لبطرس البستاني)	٥٣٤	خور شيد باشا ٥٣١ - نفيه الى قبرص
٥١٢	الدبس (عائلة)	٧٩	خوفو ٨٧ - مركب
٤١٤	الدبس البعلبكي	٤٣٧ ٤٣١	خير بك (والي حلب)
٥٦١	الديبة		
٣٦٣ ٣٣١ ٣٢٥ ١٧٣	دجلة		
	٦٠٧ ٣٦٤	٢٩١	دائن
٣٠٧	دجلة والفرات ، جاليات مارونية		داجون ١٦٤ ، هياكل ١٥٤
٥١٧	الدربكة	٥٦٩	دار الاوبرا المصرية
٤٢٨ ١٩٥	الدردنيل	٣١٦	دار الحكمة
٣٢٠ - ٣١٤ ٩ ٣	الدروز	٣٥٣	دار العلم (في طرابلس)
٣٩٨ ٣٤٢ ٣٢٣ ٣٢٢		٥٦٣	دار المعلمين في استنبول
٤٥١ ٤٠٦ ٤٠٣ ٣٩٩		٥٦٨	دار الهلال

د

سنة ١٨٤٠-١٨٤١ ص ٥٢٧ -	٤٧٢	٤٦١	٤٥٥	٤٥٣
احراق قرى ٥٢٩ - والقومية	٥٠١	٤٩٥	٤٧٧	٤٧٦
اللبنانية ٥٨٤ - يرحلون الى	٥١٨	٥١٥	٥١٤	٥٠٢
حوران ٥٩٠	٥٢٩	٥٢٧	٥٢٦	٥٢٥
دريان [عائلة] ٣٩٠	٥٦١	٥٣٩	٥٣١	٥٣٠
دفتري ٤٢٣	٥٧٨ - مجيئهم الى لبنان ٩٥ -			
الدفة ٣٦	قراهم ٢١ - نساك ٩ - مميزات			
دقيوس ٢٧٩ - مضطهد المسيحيين	٧٥ - نشأتهم ٣١٤ - ظهورهم			
٢٥٨	٣١٥ - ٣٣٤ - مذهب ٣٢٠ -			
الدلتا المصرية ١٣٩ - طريق دولية	٣٢٢ - هجرة الى حوران			
رئيسية ٨٦ - ٨٧ ، مستعمرات	٣٢٠ - عددهم في حوران			
اغريقية ١٨٣	٣٢٢ - مواطنهم في لبنان ٣٢٢ -			
دلاسية ٢٤٢	في ايام فخر الدين المعني ٣٢٠ -			
الدليجانس ٥٤٠	في جبل عامل ٣٢٠ - في			
دمشق ٢٢ ٧٥ ١٩٦ ٢٣٤	الجليل ٣٢٠ - عددهم في			
٢٤١ ٢٩١ ٣٣٧ ٣٤٥	فلسطين ٣٢٠ - خلوات ٣١٩ -			
٣٥٣ ٣٥٥ ٣٥٨ ٣٦٨	نهب كتبهم ٣١٩ - دراسة			
٣٧٣ ٣٩٢ ٣٩٨ ٤٠٠	٣١٩ - توسعهم في لبنان ٣٢٠ -			
٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٦ ٤٠٧	الجهال ٣١٩ - العقال ٣١٩ -			
٤٠٩ ٤١٤ ٤١٦ ٤١٧	الاجاويد ٣١٩ - يختلفون عن			
٤٢٣ ٤٣١ ٤٣٨ ٤٤٠	المسلمين ٣١٩ - اسم ٣١٥ -			
٤٥٠ ٤٥٣ ٤٥٧ ٤٦٢	ينتقضون على الحاكم ٣١٥ -			
٤٦٥ ٤٦٦ ٤٧٠ ٤٧٥	موحدون ٣١٦ - اعتقادهم بالله			
٤٧٧ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١	٣١٦ - نظامهم الاجتماعي والديني			
٤٨٣ ٤٩٧ ٤٩٩ ٥٠٣	٤٩٦ - يتبركون ببعض			
٥٠٦ ٥٠٩ ٥١١ ٥٣٣	الاشجار ٤٩٦ - استقلاهم			
٥٣٤ ٥٤٢ ٥٨٨ ٥٨٩	٤٧٦ - غزوة ضدهم ٤٩٧ -			
٥٩٢ ٥٩٦ ٦٠٠	بعضهم يعتنق المسيحية ٥١٤ -			
سقوط المطر ٣٠ - السياسة	مع انكتره ٥٢٣ - مقاطعاتهم			
المصرية ٨٨ - سقوط ٩٩ -	٥٢٥ - والامير بشير ٥٢٥ -			

دوريلايوم = اسكي شهر	عاصمة الاراميين ١٧٨ -
٥٣٤ دوفرن	عاصمة سورية ٢٩٢ - جند
٦٠٢ ٦٠١ دول المحور	٢٩٤ ٢٩٨ - بعد مؤتمر
٣٢٦ ٣٢٤ الدولة الانوية ٤٤٧ - سقوطها	الجابية ٢٩٤ - الخلافة
٣٣٥ ٣٣٤ الدولة الحمدانية	الاموية ٣٢٤ - الخلفاء
٤٤٦ الدولة الرومانية	الامويون ٣٢٤ - في يد
٤٤٧ ٤٤٦ الدولة العثمانية	نور الدين محمد - ود زنكي
دوميتيوس اولبيانوس ٢٧٧ ٢٧٨ -	٣٦٣ - دولة يوية ٣٧٠ -
ولد في صور ٢٧٨	عاصمة الغساسنة ٣٩٤ -
الدومينيكان ٣٩٤ ٣٩٥ - اساقفة	ارسالية دومينيكانية ٣٩٥ -
٣٩٥	الطاعون ٤٠٣ - نيابة
٢٩٠ الدويهي [عائلة]	٤٠٦ - جالية اسبانية ٤١٥ -
٤٠٤ ٣٠٥ الدويهي - اسطمان	تمون اوربة بالسكر ٤١٤ -
٤٨٩ ٤٢٤	قنصل من البندقية ٤١٦ -
١٤٥ ديدو	تيمورلك ٤١٧ - بمارستان
٣٨٥ دير البلند	نور الدين ٤٢١ - امراء
٥٠٤ دير حريصا	لبنان ٢٣٧ - الانكشارية
دير الروم الارثوذكس في بيروت مطبعة	٤٤١ - نصارى في عهد
٥٥٦	ابراهيم باشا ٥١٣ - فتنة
دير سيادة اللوزة ٤٩٢ ٤٩٣ - مقر	٥٣٢ - ٥٣٣
المجمع الكنسي اللبناني ٤٩٣	دمشق - بيروت شق طريق ٥٤٠
دير الشرفة ، مقر بطريرك السريان	الدمشقي ٤١٢ ٤١١
الكاثوليك ٣١٠	الدمقس ٣٨٠
٤٧٦ دير الشير	دنديني : ممثل البابا في المجمع الكنسي
دير طاميش ، مطبعة سريانية ٥٥٥ -	اللبناني ٤٩٣ - وصفه للحياة
مطبعة عربية ٥٥٥	الاجتماعية المارونية ٤٩٤
دير قزحيا ٥٤٧ - مطبعة ٥٥٥	دهشور : هرم سنفرو ٧٩
٢٧٤ دير القلعة	دود الحرير ٥٧٣ ٦١٤ - تربية ٥٧٣
٥٠٤ ٤٦٣ ٤٦٢ ٣٥ دير القمر	دورا اوربة ٢٣٩
٥٢٩ ٥٢٧ ٥٢٦ ٥٠٩	دوروثيوس ٢٧٨

الرها ١٣٧ ٣٠٨ ٣١٠ ٣٤٩ ٣٥٥	الراهبات البروسيان ، في صيدا ٥٤٦ -
٣٩٢ - لهجة ٢٥١ -	في بيروت ٥٤٦
الكنيسة الشرقية ٣٠٩ -	راهبات الراعي الصالح ٥٤٥
طلاب ٢٨١	راهبات العائلة المقدسة ٥٤٥
الرهبة الكرملية ٣٩٤	راهبات القديس يوسف [الظهور] ٤٥٧ ٤٦٤
الرواقية ٢٢٠ - المدرسة ٢٢٠	راهبات القديس يوسف من مرسيليا ٥٤٥
رودس ١١٦ ١٣٩ ١٩٨ ٢١٦	راهبات الناصرة من ليون ٥٤٥
٢٩٥ ٣٩٣	رب عدي ١٠٣ ١٠٤
الروس ٤٣٣	رباح الخازن ٤٥٣
روسو ٥٦٩	ربلة ١٨١
روسيا ٤٤٧ ٥١٢ ٥٢٧ ٥٣٣	رتنو ٨٨
٥٣٤ ٥٣٩ ٥٣٦ -	رجينالد ٣٦٥ ٣٦٧
حامية الكنيسة الارثوذكسية	رزق الله حسون، صاحب مرآة الاحوال ٥٦٥
٥٢٣ - معاهدة كوتشوك	رستم باشا ٤٤ ٥٤١ ٥٤٢ - الرشوة
كينارجي ٥٢٣	في عهد ٥٤٢ - شق طريق
الروشة ١١٤	بيروت - طرابلس ٥٤٢
الروم : حملات ٢٩٠ - تقسيم لسورية	رشف = ارسوف
٢٩٤ - تساعد مدن الساحل	رشميا ٢٩٨
٢٩٣ - اساطيل ٢٩٧ -	رشيد الدحداح ٥٠٧
قواد الجراجمة ٢٩٩ -	رشيد عالي الكيلاني ، ثورة ٦٠٢
غزوات ٣٣٩ - هجمات	الرشيد = هرون الرشيد
ضد سورية ٣٣٦	رعمسيس الثاني ٣ ١٠٥ ١٠٧
الروم الارثوذكس ٣١١ ٣٨٥ ٤٤٣	١٧٩
٤٩٨ - مناطق توطنهم في لبنان	رعمسيس الثالث ١١١
٣١١ - قتل ٥٣١	الرعية والملة ٤٤١ - ٤٤٤
الروم الكاثوليك ٤١١ ٤٧٨ ٤٩٨	رفع ١٠٩ ٢٠٥
٥٠٤ - في دير القنبر ٥٠٤	الرملة ٣٤٩ ٣٦٩
الروم الملكيين = الروم الكاثوليك	
الرومان ٦ ٣٥٨ ٤٣٨ - اباطرة ٤٠	
١٣٤ - مراكب ١٤١ -	

٥٨٠	الزجل اللبناني ، مجلات	النقود ١٤١ - العهد ١٣٥
٥٢٧ ٥٠٥ ٣١١ ٢٣٣	زحلة	٢١٥ - امبراطورية ٢٢٨ -
٥٤٥ ٥٤٢ ٥٣٦ ٥٣٢		جمهورية ٢٢٣ ، ابنية في بيروت
٥٣٢ ٥٤٦ ٥٦٠ - حريق		٣٤٠ - اروع ابنية ٢٦٧
- مدرسة يسوعية ٥٤٥ -		رومة ٢١١ ٢٢٧ ٢٤٧ ٢٤٨
بنايات سنة ١٨٨٥ ص ٥٧٨ -		٢٦٦ ٢٦٧ ٢٧٧ ٢٧٨
مهاجرون ٥٧٩		٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٩
٤٩١	الزرنوجي	٤٢٤ - الثروات ١٣٥ -
٤٨٧	زغرتا ، مدارس	تصادم ١٤٧ - جاليات سورية
٥٠	الزفت ، معدن	٢٤١ - سيدة العالم ٢٥٢ -
٢٥٤ ٢٢٤ ١٤٤	زفس	الطلاب الموارنة ٤٨٧ -
٢٤٢	زفنا	باباوات ٣٩٤
١٠٨	ذكر بعل	رياض الصلح ٦٠٤
٢٨٠ - كتاب ٢٨١	زكريا الغزاوي ٢٨٠	الريال ٤٨٥
٤٨٥	زلطه	ريفون ٥٣١ - دير للعازارين ٥٣٠
١٠٤	زمريدا	ريكاردوس ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠
٣٦٣ ٣٦٢	زنكي (عماد الدين)	ريموند ٣٤٧ ٣٤٩ ٣٥١ ٣٥٣
٥١٩	الزنوج	٣٥٥
٦١٢	الزهراني ، انايب النفط	ريموند ابن صنجيل ٣٤٥
٢٧١ - عبادة ١٦٠	الزهرة (Venus)	ريموند الثالث ٣٦٥ ٣٩١
٥٧٣	الزوق ، اقشة	ريموند كلل ٣٩٥
٥٠٤	زوق مخائيل	ريزان ، ارنست ٥٤٥
٦١٤	الزيتون	
٢٨٨	زيد بن حارثة	
٤٩٨	زين الدين (الشهيد الثاني)	
٤٣٣ - ٤٣٢	زين الدين بن بركات	
٤١ - شجرة ٦٣ ٣٨ ٣٧	الزيتون	١٤٧
٤٢ - زيت ٤١ ٤٢		٢١
زينون ، مؤسس المدرسة الرواقية ٢٢٠ -		٥٧٤
٢٢٦ ٢٢١		١١٨

ز

الزاب = نهر الزاب

زاما ، موقعة

الزبداني

زبيب

زبلون

٩٢	ست [اله مصري]	٢٢٢	زيتون السيداوي
٣١٦	ست الملك		
	الست نسبية [ام الامير فخر الدين المعني]		
٤٥٥			
٢٤٦ ٢٣٨ ٢٣١ ١٤١	سترا ابو		
١٨٩	ستراتون		
١٠٦ ١٠٥	ستي الاول		
١١	سدني		
٥٠٣ ٤٨١	سدني سمث		
١٧٢ ٨٠	سرجون الاكدي		
١٧٧	سرجون الثاني		
	سرجيوس = مار سر كيس		
٢٩١	سرجيوس . قائد الروم		
٤٠٤ ٣٨٤	سرحول		
١٦٥ ١٤٧ ١٤٣ ١٣٩	سردينية		
٢٤٢	سرميوم		
٣٠٣	سروم		
٤٣ ٣٩	السرو		
٣١٠	السريان الغربيون، عددهم في لبنان		
	السريان الكاثوليك ، عددهم في لبنان		
٣١٠	— مرجعهم رومة		
٢٥١—٢٥٠ ٢٤٣	السربانية ، اللغة		
٣٠٢ ٣٠٨	— كلمات		
٣٨٥	مسترسية		
٥٢٣	سردينيا		
	سعد الخوري ٤٧٦ ٤٧٧ . صاحب		
	خزينة ٤٧٧		
٤٧٤	سعد الدين المعظم		
٣٠٥	سعيد بن البطريق		
٥٣٤ ٥٣١	سعيد جنبلات		
		٢٢٢	
			س
			ساحة الشهداء، في بيروت ودمشق ٥٨٩
		١٣ ٥٤٤	الساحل
		٢٦ ٤٥١	ساحل علما
		٢١٢	الساسانيون
		٥٢٦	سافوي
		٢٤٢	سالونة
		٣٣١	سامراء
		١٧٨	السامرة
		٢١٦	السامري . الميكا
		١٤٤	ساموس
			السامية . الحجرات ١٤٠ — عبادة
			الخصب ١٥٥ — عادة قديمة
			١٥٩ ١٦٠ — طقس ١٦٣ —
			السيادة ١٨٥ — الحصار ١٨٥
		٧٦ ٧٥	سنايون
		٥٧٧ ١١	سن بولو
		٤٦٥ ٤٥٥	سنديز
		٥٩٢	سان ريمو . مؤتمر
		٦٠٥	سان فرنسيسكو
		٥٤١	سانت بطرس برج
		٦١٨	سانت جيمس
		١٢٦	السايسية الحصار
		١٣٢	سبارسة
			سبتوس سميرس [لامبراطور] ٣
		٢٧٦ ٢٧١ ٢٠٥ ٢٣٤	

٢٠٨	سلوقس الثاني	السفارة الافرنسية، مقرها في بيروت ٥٤٦
٢١٧	سلوقية	سفر ارميا ١٨١
٢١٦ ٢١٢ ٢٠٤ ١٩	السلوقيون	سفر الامثال (لسلیمان الحكيم) ١٥٣
٢٢٧ ٢٦٢	ادارة البلاد	١٧٠
٢٠٤	مملكة ٢٠٥ ٢٠٩	سفر ايوب ١٧٠
٢١٠ ٢١٢	ضعف	سفر التكوين ١٥٤ ١٥٣
٢٠٧	حكم ٢٠٩	سفر الجامعة ١٧١
٢١٧	يضيفون اسماً سامياً	سفر المزامير ، طبعة عربية ٥٥٥
٢١٩		طبع ٥٥٦
٤٨	السلوى	سفر نشيد الانشاد ١٧٠ ١٥٣
٢٨٢	سلونيك	سفروس اسقف انطاكية ٢٨٣-٢٨٠
٤٣١ ٤٣٠ ٣	سلیم [السلطان]	٣١٠
٤٣٩ ٤٣٧ ٤٣٣ ٤٣٢		٢٧٧
٤٥١ ٤٤٤ ٤٤١ ٤٤٠		السكبان ٤٥٥
٤٦٧	وفاة ٤٣٣	سكة حديد بيروت - دمشق - حوران ٥٤٢
٥٢١ ٥٢٠	سلیم الثالث [السلطان]	٥١٨
٥٢١	اصلاحاته	سكوت
٥٢١	بالثقافة الافرنسية	سكوتلندا ٥٢٦
٥٦٢	سلیم [ابن بطرس البستاني]	السلاجقة ٣٣٧ ٣٤٥ ٤٢٨ - اعتنقوا
٥٦٧	سليم تقلا ، مؤسس الاهرام	الاسلام ٤٢٧ - يستولون على
٥٨٥	سليم ملحمة	بغداد ٣٣٢
١٣٦ ١٣٠ ٤٣	سليمان (الحكيم)	١٨٧
١٢٠ ٢٦٧ ٤١٦	هيكل	سلاميس
١٢٨ ١٦٨	مركبات	السلطان الاشرف = الاشرف
٤٤٥ ٤٤١	سليمان الاول (السلطان)	سلطان الاطرش ٤٩٥
٤٤٦ ٤٥٧	عهد ٤٤٦	السلطنة العثمانية ، ٥١٦ ٥٢٣ ٥٨٨
٤٤٦		٥٩٤
٤٤٦	سليمان باشا = سيف	ساحية ٣٣٥
٥٦٢	سليمان البستاني	سلفستردى سامي ، دراسة عن الدروز ٣١٩
٥٨٥	الى العربية	٣١٩
٤٤٨	سليمان القانوني	سلوقس (الاول) ٢١٧ ٢٠٢

٥٧٤	السهرة	٣٠٣	سمار جبيل
	سهل البقاع = البقاع	٤١٧ ٣٤٠	سمرقند
١٣	السهل الساحلي اللبناني	٤٨	السمرم
١٤	السودان	٥٩٣	سمطس
٢٥٧ ٢٣١ ٢٢٩ ٢٢٨	سورية	٣٩٠	سمعان الحداثي
٣١٨ ٣١٠ ٢٩٩ ٢٩٠	.	٣١٢	السمعاني [عائلة]
٣٣٩ ٣٣٦ ٣٣٥ ٣٣٣		٤٩٠ ٤٦٥	السمعاني ، يوسف سمعان
٣٧٤ ٣٦٥ ٣٦٢ ٣٤٢		٤٩٣ ٤٩٢	
٤٠٠ ٣٩٩ ٣٩٧ ٣٩٤		٤٧٠	السمقانية ، مؤتم
٤١٥ ٤١٤ ٤٠٨ ٤٠٢		٤٨	السمن
٤٣١ ٤٣٠ ٤٢٩ ٤١٦		٣١	السموم
٤٦٦ ٤٣٩ ٤٣٨ ٤٣٢		١٧٣ ١٠٥ ١٠٠ ٩٥	سميرا [مدينة]
٥٠٣ ٤٨٢ ٤٧٩ ٤٧٨		١٠٣	استرداد
٥١٦ ٥١٤ ٥١١ ٥٠٥		٢٨١	سميساط
٥٤٥ ٥٣٣ ٥٢٤ ٥١٩		٣٢٢	السنة
٥٩٤ ٥٩٢ ٥٨٤ ٥٧٩		١٧٨	سنجرلي
٦٠٧ ٦٠٢ ٦٠١ ٥٩٦		٤٤٠	سنجق بيروت
٦٠٩ — سهول ١٩ — الصحراء		٤٤٠	سنجق تدمر
٢١ ١١٣ — النحاس ٦٩ —		٤٤٠	سنجق صيدا
٢١٠ ١٩٥ ١٧٤ ٨١ شمالي		٤٤٠	سنجق غزه
٣٦٢ ٤٣٠ ٤٣٢ — الزجاج		٤٤٠	سنجق القدس
١٣٠ الكتان ١٣١ — ولادة		٤٤٠	سنجق نابلس
١٩٠ — الخزف في الشمال ٦٧ —		٢٠٥ ١٧٧	سنحاريب
سكان الشمال ٧٣ — اماكن			السند = وادي السند
٧٤ — اقليم روماني ٢٢٧ —		٤٣ ٣٩	السنديان
احتلال ٢١١ — حاكم روماني		٧٩	سنفرو (مؤسس الدولة الرابعة)
٢٢٧ — اضطهاد المسيحيين ٢٥٧		٢٤٧ ٢٤٦	سنكه نيانون
— زنكي يغزو ٣٦٢ — توحيد		٨٨	سنوسرت الاول
٣٧٤ — التبشير ٣٩٤ — فلاحون		٨٨	سنوسرت الثاني
٤٠٨ — ولادة ٤١٤ — مركز		٢١	سنير

٤٨	سييرية	القوة الرومانية ٢٣١ - في يد
	سييدة لبنان = مريم العذراء	الروم ٢٩٠ - الجراجة يغزون
٢٤٢	سيرا قوسه	٢٩٩ - المنوفسيه ٣١٠ -
٥٣٣	سيف، اعتنق الاسلام	تتلقى هجمات الروم ٣٣٦ -
٣٥٣ ٣٣٤	سيف الدولة	القطن ٤١٥ - اعاده حكم
٤٥٣	سيف الدين التنوخي	الماليك ٤٧٩ - خيام البدو ٥٧٥
٤٥٤ ٤٥٢ ٤٥١ ٤٥٠	(بنو) سيفا	القومية ٥٨٢ - جمعيات سرية
٤٦٦	يهاجون الانكشارية	وعلنية ٥٨٦ - احوال الحرب
٤٥٢	يقضون على مشايخ	٥٨٩ - معاهدة مع فرنسا ٦٠٠
٤٥٢	جيش رأس الحزب	تقاوم الانتداب الفرنسي ٦٠٠ -
٤٥٤	اليمني	عيد الاستقلال ٦٠٣ - سياستها
١٥١ ١٥٠	سيناء	الاقتصادية ٦١٠ - اقتصاد
		٦١٤ - الجيش ٦١٨
		سورية ولبنان ٢١٢ ٤٣١ - السلوقية
		٢١٣
		سورية الشمالية ٤١٦
		سورية الكبرى ٦٠٧
٥٧٩	شارع البرازيل في زحلة	سورية المحوفة ١٨ ٢٠٦ ٢٠٩ ٢٣٤
٥١٨	شارل هنري تشرشل صديق الدروز	٢٤٩ - مقاطعة عربية ٢٣٤ -
١٥٢	شافاط - بعل	واطلب البقاع
٤٧٣ ٣٩٦	الشام	السوري - اللبناني - الشاطيء ١٩٢
٤٧٥	شاهين تلحوق	السوريون - في القاهرة ٥٦١
٤٩٧	شبا	سوسه [مدينة] ١٨٧
٥٤٧	الشبانية ، مصح	سوق الغرب ٤٧٦ ٥٦٠ ٦١١ -
٥١٩	الشبق	ارساليات اميركية ٥٤٦
٩٧	شبلوليوما	السومريون ٨١ ١٧٢ - الامبراطورية
	شيلي العريان ، زعيم الدروز في حوران	كلمات في اللغة العربية ١٧٢ -
٥٢٧		حضارة ١٧٢
٤٢٦	شبه جزيرة البلقان	سويسرا ٥٢٦
٢٨٧	شبه الجزيرة العربية	سيبويه ٥٥٩
٤٤٥	شبه جزيرة القرم	

ش

شركة البحر المتوسط لتكرير النفط ٦١٣	١٧٦	شتي - بعل
شركة كاليفورنيا ٦١٣	٣٨	شجرة الجنة
شركة النفط الاميركية السعودية ٦١٢	٣٧٢	شجرة الدر
شركة النفط العراقية ٦١٢	٤٨٩	شدرا
الشركس ٣٧٢	٤٥٠ ٤٢٤ ٣١٢	الشدياق [عائلة]
شريف مكة = الحسين	٤٦٩	
الشعير ٦٣ ٥١ ٤٠	٥٥٣	الشدياق (اسعد) ، موته
الشقبة : مغاره ٦٠ - حفريات ٧٤	٥٥٣	الشدياق ، طنوس
شقيف ارنون ٣٧٤	٥٥٣-٥٥٤	الشدياق ، فارس - اعتق
شقيف تيرون ٤٦٦ ٤٥٣ ٣٦١	٥٥٤	الاسلام - اصمداره
شكا - شيجاتا	٥٥٤	الجوائب في استنبول -
شكري غام ٥٨٣	٥٥٤	نقل وفاته الى الحازمية
شكشير ٥٦٩	٥١٨	الشرانق
شكيب افندي ٥٢٩	٥٥٩	شرح ابن عقيل لالفية ابن مالك
شكيم = نابلس		شر شربك = شارل هنري تشرشل
شلال جزين ٤٦٦	٥٥٥ ٥٤٩ ٥١٩ ٧٦	الشرق
شلناصر الثالث ١٧٥ ١٧٤	٥٥٦ ٥٧٩	بضائع ١١٧
شلناصر الخامس ١٧٧ ١٧٦	٣١ ٢٦ ٩	الشرق الادنى
شلق ٣١	٦٠٨ ٥٩١ ٥٤٧ ٦٦	
شمأل = سنجرلي	٦١٨	اطعمة ٤٠ - الرعاة
الشمس : عبادة ٦٤	٦٤	زراعة الزيتون ١٤٥ -
شمس الدين العاملي ٤٩٩	استراتيجية ٥٤٩	شوائب
شملان ٤٧٦ ٤٧٥ ٣٨٣ ٢٣٣	الحكم ٦١٧	
٥٤٦ - عمل حل الشرانق	٥٤٩ ٥٢٤ ٢١٣	الشرق الاقصى
٥١٨	٦٠٢	الشرق الاوسط
الشهابيون ٤٥١ ٤٥٠ ٤٠٤	٥٥٢ ٥٤٩	الشرق العربي
٤٧٣ ٤٧٠ ٤٦٨ ٤٥٤	٤٦٣ ٣٩٤ ٢٣٤ ١٩	شرقي الاردن
٤٨٢ ٤٧٧ ٤٧٦ ٤٧٥	٣٩٤ ٥٩٢	جند -
٥٠٦ ٥٣٧ ٥٩٧ - مدة	٦١٤	مالكو الارض -
حكم ٤٥١ - اماره ٤٧٠ -	اقتصاد ٦١٤	

٤٢٤ ٣٨٤ ٣٨٣	صالح بن يحيى	لبنان الكبير ٤٧٣ - احراق
٢٣٩	الصالحية	قصورهم ٥٢٧
٤٦٣ ٤٤١ ٤	الصباهيون	الشهيد الثاني (زين الدين) ٤٩٨
٦١٢ ١٢٠ ٢١	الصحراء السورية	الشوح ٣٩
٢٩٣	صحراء سيناء في ايدي المسلمين	الشوف ٣٢٠ ٣٢٢ ٤٠٤ ٤٣٧
—	الصحراء الكبرى في افريقية ٢٢٩ -	٤٥٠ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٦٩
	الضبع ٦٠	٤٧٢ ٤٧٣ ٥٢٧ ٥٢٩
٣١٢	صدد	الحكم المعني ٤٠٤ - اقطاع
٣٦٣	صرخد	للجنبلاتيين ٤٥٢
٣٨٢	صرفند	الشوير = ظهور الشوير
٣٩٨ ٣٧٤ ٣٧٠ ٣٢٠	صفد	الشويات ٤٢ ٥٢٧ ٥٦٥
٤٤٠ ٤٠٩ ٤٠٣ ٤٠٠		شيبان (خاروية) ٣٣٣
٤٧٣ ٤٦٦ ٤٥٩ ٤٥٥		شيجاتا ٩٩
— ٤٧٩ ٤٧٨ ٤٧٤		شيخ الاسلام ٤٤٣
—	بايدي الافرنج ٣٧٠ -	شيخ الجبل - راشد الدين سنان ٣٩١
—	جنود ٤٩٨ - قلعة ٤٠٢ -	شير ٣٨٦
—	الطاعون ٤٠٣ - استرداد	شيشرون ٢٢٣
٤٧٤		الشيعة ٩ ٢٨ ٣١٢ ٣١٤ ٣١٦
٤٢٦	الصفويون	٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٣٥
٣٤٠ ٣٣٥ ٢٤٤ ١٣٩	صقلية	٣٩٨ ٣٩٧ ٣٤٢ ٣٤١
٤٦٠		٤٩٥ ٤٧٣ ٤٠٤ ٤٥١
—	صك الانتداب الفرنسي ٥٩٣ - بنود	٤٩٨-٤٩٩ ٥٠٣ ٥٩٧ -
٥٩٤		اتباع علي ٣٠٢ - غلاة ٣٢٣ -
٣٦٣ ١٩٢ ٣	صلاح الدين الايوبي ٣	ائمة ٣٢٣ - المهدي المنتظر ٣٣٥
٣٦٧ ٣٦٦ ٣٦٥ ٣٦٤		نظرهم الى علي ٣٢٣ - يقطنون
٣٧٢ ٣٧٠ ٣٦٩ ٣٦٨		في لبنان ٣٢٣ - عددهم ٣٢٣
٣٩٥ ٣٩٣ ٣٩١ ٣٧٤		الشيوعيون ٦١٧
٣٩٦ ٤٢١ -	قلعة في القاهرة	
٣٧٢ -	ضرب صيدا ٣٩٦ -	
٥١٧	قصة	
		ص
		صالح بن علي ٣٢٧

١٩٧	١١٧	١٠٣	٨٤	صور	٦١٢	الصلبية القلاع
٢٣٤	٢٣٢	٢٢٨	١٩٩		٣٩٠	الصلبي [عائلة]
٢٤١	٢٣٩	٢٣٨	٢٣٦			الصلبية الحروب - اطلب الحروب
٢٥٥	٢٥٤	٢٤٧	٢٤٦			الصلبية
٢٩٦	٢٩٣	٢٧١	٢٦١		٣٠٥	الصلبيون
٣٣٩	٣٣٨	٣٣٧	٣٣٦		٣٤٢	٣٠٧
٣٥٦	٣٥١	٣٤٨	٣٤١		٣٥٠	٣٤٣
٣٦٧	٣٦٠	٣٥٨	٣٥٧		٣٥٦	٣٥١
٣٧٩	٣٧٧	٣٧٥	٣٦٩		٣٦٥	٣٥٧
٣٨٧	٣٨٥	٣٨١	٣٨٠		٣٧٤	٣٦٩
٤٠٤	٤٠٠	٣٩٦	٣٨٨		٣٩٢	٣٨٠
٥١٨	٤٧٨	٤٨٣	٤٧٣		٤٠٤	٣٩٥
٦١٢	٥٩٧	٥٩٣	٥٤٥		٤٣٨	٤٠٧
٦١٥	١٠٣	ازدهار			٤٨٢	٤٥٥
١٤٦	ثورة ١٧٦	السيطرة				عهد ٤٨ - في اتجاه المقدس
الاشورية ١٧٦	استسلام				٣٤٥	٣٥٢
١٧٨	محاصرة ١٨١	١٨٢				قلاعهم ٣٥٧ - في جبال لبنان
مدينة مستقلة ١٨٦	ملوك				٣٩٠	٣٩٢
١٨٦	خراب ١٩١	١٩٧				في بيروت ٤٠٤ - في صيدا
١٩٩	المهرجانات ٢٠٦				٤٠٤	٤٠٤
استقلال ذاتي ٢٠٧	ملجأ				٤٠٧	٤٢٦
سياسي ٢٠٨	الزجاج ٢١٥				٥٧٧	صلبا
نقطة تاريخ ٢١٨	الحياة				٣٩	الصنوبر ٣٨ - البري ٣٧ - الجوي
الاجتماعية ٢٢٥	امتيازات				٥٣٢	٥٠
٢٢٨	٢٧١	عاصمة فينيقية			١٦	صنين
٢٣٦	٢٣٤	البحرية			٦٠٢	الصهيوني ، التسرب
٢٣٩	٢٣٨	الرخام			٤٩٠	الصهيوني ، جبرائيل
٢٤١	٢٤١	المهاجرون الصوريون			٦٠٩	الصهيونية
٢٤٦	٢٤٦	مفكرون				الصهيونيون = اليهود
٢٤٧	٢٤٧	ذكر السيد المسيح				صور [جزيرة في الخليج الفارسي] ٨٣

٣٨٦ ٣٩٦ ٤٠٠ ٤٠٤
 ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩
 ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤٣٨
 ٤٥٤ ٤٥٧ ٤٦٤ ٤٦٥
 ٤٧٠ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٧
 ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨٣ ٤٨٤
 ٤٨٥ ٥٠٦ ٥١٨ ٥١٩
 ٥٢٨ ٥٣٧ ٥٤٠ ٥٤١
 ٥٤٢ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٦٣
 ٥٩٢ ٥٩٧ ٦١٢ -
 السمك المتحجر ٢٧ - بساتين
 البريقال ٣٦ - النحاس ٥٠ -
 مجلس الشيوخ ١١٤ - صناعة
 الارجوان ١٣٢ - ١٣٤ -
 ازدهار ١٤٦ - اماكن الراحة
 ١٦٨ - تحت تصرف الاشوريين
 ١٧٦ - استسلام ١٧٨ -
 عاصمة ١٨٦ - ملوك ١٨٦
 ١٨٧ - ثورة ضد الفرس ١٩٠
 - مراكب حربية ١٩٨ -
 تحت حكم البطالسة ٢٠٢ -
 تصك النقود باسمها ٢٠٨ -
 صناعة الزجاج ٢١٥ ٢٣٨ -
 نقطة تاريخ ٢١٨ - امتيازات
 خاصة ٢٢٧ ٢٢٨ - مجلس
 حكام ٢٢٨ - مفكرون ٢٤٦
 - منافسة فكرية ٢٤٧ - ذكر
 السيد المسيح ٢٥٤ - كنيسة
 مسيحية ٢٥٥ - مقر اسقفي
 ٢٥٦ - في يد معاوية بن

جالية مسيحية ٢٥٥ - مجمع
 كنسي ٢٥٥ - المركز المسيحي
 الاول ٢٥٤ - الهة ٢٦١ -
 مستعمرة ٢٧١ - في يد معاوية
 بن ابي سفيان ٢٩٣ - قاعدة
 بحرية ٢٩٦ - من اقطاع الحاكم
 بامر الله ٣٣٦ - السكر ٣٣٨ -
 ميناء ٣٣٩ - اسواق ٣٤١ -
 اكثر سكان ٣٤١ - ثورة ضد
 الفاطميين ٣٤٨ تحصينات
 صليبية ٣٥٦ - قلعة صليبية
 ٣٥٧ - حرير يصنع في صور
 ٣٨٠ - كاتدرائية نوتردام ٣٨١
 تشبه طرابلس ٣٨٧ - استرداد
 ٤٧٤ - زراعة التبغ حول ٤٧٨
 صوري او سورية [نسبة] ، قواد ١٢٩
 - ارجوان ١٣١ - سيادة
 ١٤٦ - نقود ١٤٦ - حي
 [شارع] ١٧٦ - ١٨٧ -
 المراكب ١٩٧
 الصوريون ١٨٨ - [جاليات] ١٩٨
 صيدا [على شاطئ الجزيرة العربية
 الشرقي] ٨٣
 صيدا ٨٤ ١٠٠ ١١٧ ١٩٧
 ١٩٨ ٢٢٨ ٢٣٨ ٢٤٦
 ٢٤٧ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦
 ٢٩٣ ٢٩٧ ٣٢٣ ٣٣٦
 ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٧ ٣٥٠
 ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٦٧
 ٣٧٠ ٣٧٣ ٣٧٧ ٣٨٢

ط

٤٠٣ ٤٠٢	الطاعون	ابي سفيان ٢٩٣ - من اقطاع
٥٣٠	طانيوس شاهين [من ريفون] ٥٣١	الحاكم بامر الله ٣٣٦ - سور ٣٤٠
٢٦ ٢٣	الطباشيرية ، الطبقة	- بساتين ٣٤١ - تحصينات
٤٧٩ ٤٧٨ ٤٥٥ ٣٩٧ ٣٦٦	طبرية	صليبية ٣٥٦ - قلعة البحر ٢٥٧
٩٢	طحوتس الاول	- بايوي الافرنج ٣٧٠ -
- ١٧٤ ٩٦ - ٩٢	طحوتس الثالث	خراب ٣٧٣ - كنيسة ٣٨٢ -
	فتوحات ١٢٩	وصف ٣٨٦ - يخر بها صلاح
٥٤ ١٧ ١٦ ١٣	طرابلس	الدين ٣٩٦ - الصليبيون ٤٠٤
٢٣٤ ٢٢٨ ١٨٩ - ١٨٨		السكر ٤١٤ - الفاكهة لمصر
٣٣٨ ٣٣٧ ٢٩٧ ٢٩٣		٤١٥ - الخان الفرنساوي ٤٥٧
٣٤٧ ٣٤٦ ٣٤٠ ٣٣٩		الكبوشيون ٤٦٥ - والي صيدا
٣٥٥ ٣٥٣ ٣٥٢ ٣٥١		٤٧٠ - ضربها الاسطول
٣٦٦ ٣٦١ ٣٥٨ ٣٥٧		الروسي ٤٧٩ - مركز قنصلية
٣٧٦ ٣٧٥ ٣٦٩ ٣٦٧		فرنسية ٤٨٣ - الالتحاق بلبنان
٣٨٧ ٣٨٦ ٣٨٥ ٣٨٠		٥٤٠ ٥٤١ - ارساليات
٣٩٤ ٣٩١ ٣٩٨ ٣٨٩		اميركية ٥٤٦ - مدرسة اميركية
٤٠٣ ٤٠٠ ٣٩٦ ٣٩٥		٥٦٧ - مصفاة للنفط جنوبي
٤١٤ ٤١٢ ٤١١ - ٤٠٩		٦١٢ - مركز لتصدير النفط
٤٣٨ ٤٢١ ٤٢٠ ٤١٦		- ٦١٣
٤٧٠ ٤٦٥ ٤٥٢ ٤٥١		الصيدانيات
٤٨٦ ٤٨٤ ٤٧٧ ٤٧٣		صيدون
٥١١ ٥٠٦ ٥٠٤ ٤٩٢		صيدونا (Siduna) = صيدا
٥٦٣ ٥٤٢ ٥٣٧ ٥١٨		الصيدونيون ١١٨ ١٢٠ ١٨٨ ٢١٦
٥٩٣ ٥٩٧ - مجمع تحالف		القنانون ١١٩ - النساء ١١٩
١٨٩ - نقود ٢٠٨ - حصار		مهرة ١٢٥ - سبي ١٩٠
العرب لما ٢٩٣ - جاليات		الصين ٢٣٨ ٣٠١ ٣٠٩ ٣٧٣
		٤٢٥ - بعثات تبشيرية ٣٠٩

- فارسية ٢٩٧ - نربة ٣٣٨ -
الورق ٣٤٠ - امارة ٣٥٢ -
طرابلس القديمة ٣٥٢ - قاضي
شيعي ٣٥٣ - دار العلم ٣٥٣
- في عهد بني عمار ٣٥٣ -
قلعة صليبية ٣٥٧ - تدمير
٣٧٦ - مناطق ٣٨٠ ٤١٢
- الجامع الكبير ٣٨٥ - في
ايدي المسلمين ٣٨٥ - زازال
٣٨٦ - مركز للتبشير ٣٩٤ -
الرهينة الفرنسية ٣٩٥ -
ميناء ٤٠٣ - عاصمة
نيابة ٤٠٩ - ٤١١ - اقنية
الماء ٤١٢ - تمون السكر
لاوروبة ٤١٤ - قنصل من
البندقية ٤١٦ - المدارس ٤٢٠
دور الطرق ٤٢١ - بيارستانان
٤٢١ - ولاية ٤٤٠ - مقر
بني سيف ٤٥١ - اخذها ٤٨٤
- قلعة ٣٥٢ ٤٨٩ -
ارساليات اميركية ٥٤٦ -
انابيب النفط ٦١٢

ظ

- طرابلس الغرب ٥٣٤
الطربوش الاحمر ٥٢١
طربيه [عائلة] ٣٩٠
طرسوس ٤٢٩ ٣٤٥ ١٤٢
طرطوس ٣٧٥ ٣٦٧ ٣٥٨ ٣٤٦
٣٧٧ ٣٨١ - تابعة
لطرابلس ٣٤٦
طريق الهند ٥١٢
- الظاهر برقوق ، في دير قنوبين ٤٠٤
الظاهر بيبرس ٣٩٧
ظاهر العمر ٤٧٦ ٤٧٤ ٣٦٠
٤٧٧ - ٤٧٩ ٤٨٠
ظهر القضيبي ١٦
ظهور الشوير ٢٣٧ ٦١١ - سقوط
المطر ٣٠

ع

عبد القادر الجزائري ٥٣٣
 عبد القادري الجيلاني = الجيلاني عبد القادر
 عبد المجيد [السلطان] ٥٢٠ ٥٢١ -
 اصلاحات ٥٢٢ - النصارى
 في عهد ٥٢٢ - قوانين ٥٢٤
 - خليفة المسلمين ٥٨٦
 عبد ملقارت ١٧٧
 عبد الملك الخلافة العربية في عهد ٣٠٠
 - ٣٠١ - يدفع ضريبة الى
 امبراطور الروم ٢٩٩ - يدفع
 ضريبة للجراجمة ٢٩٩
 العبران = اليهود
 عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية ٣٣٥
 عبيه ٣١٨ ٤٢٤ ٤٥٣ ٤٦٩ -
 مزار للدروز ٣١٨
 عبيه ٥٢٧ ٥٦٠ ٥٦٨ - حادثة سنة
 ١٨٤٥ ص ٥٢٩ - مدرسة
 عالية ٥٤٠ - ارساليات اميركية
 ٥٤٦ - المدرسة الوطنية
 لبطرس البستاني ٥٦١
 عثرت = عثرت
 عثليت ٣٧٧
 عثمان، مؤسس دولة العثمانيين ٤٢٧ ٤٢٨
 عثمان بن عفان ٢٩٥
 العثمانيون ١٠ ٣٧٢ ٤٢٨ ٤٢٩
 ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٣ ٤٣٩
 ٤٤٠ ٤٤٢ ٤٤٦ ٤٤٨
 ٤٦٥ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧٦
 ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٩ ٥٠٤
 ٥٠٥ ٥١١ ٥١٥ ٥٢٣

العائلة اللبنانية ، تفكك ٥٧٤
 العادل سيف الدين [الملك] ٣٧٠
 العاصي = نهر العاصي
 العاضد ٣٦٤
 العاقورة ٢٣٣ ٣١٢ ٤٠٨ ٤٩٠
 العالم العربي ٥٦٥ ٥٦٦ ٦١٣ -
 الصحف العربية ٥٦٦
 عالي سمث ٥٥٥ ٥٦١
 عاليه ٤٢٤ ٤٩٦ ٥٨٨ ٦١١ -
 مجلس عرفى ٥٨٨
 العامية [ثورة] ٥٠٥ ٥٨٢
 عاي ٥٣٢
 عباس [الشاه] ٤٥٤ ٤٩٩
 العباس [عم النبي محمد] ٣٢٤
 عباس الاول [الخديوي] ، صرف
 الاجانب من الحكومة المصرية ٥٧٦
 العباسيون ٣٠٧ ٣٢٤ ٤٦٩
 عبد اشيرتا ٩٩ ١٠٠ ١٠٣ -
 موت ١٠٢
 عبد الاومنس ١٩٧
 عبد الله (ملك شرقى الاردن) ٦٠٧
 عبد الله بن علي ٣٢٥
 عبد الله التتوخي ٣١٨ ٤٢٤
 عبد الله زاخر (الشماس) ٥٥٦
 عبد الحميد الاول ٤٤٨ ٥٨٠ ٥٨٢
 ٥٨٣ - عزله ٥٨٥
 عبد عثرت ١٢١

العراق القديم ٧٩ ٢١٢ - الامبراطورية	٥٣٨ ٥٣٦ ٥٣٠ ٥٢٦
الاولى ٨٠ - لغة الكنائس	٥٧٩ ٥٦٧ ٥٤٩ ٥٤٤
٢٥٠ - قصص ١٧٢ واطلب	٥٨٩ ٥٨٨ ٥٨٦ ٥٨٥
ما بين النهرين .	الباب العالي ١٠ - الحكام
العرب ٧٥ ٥٤٩ ٥٧٠ ٦٠٨	وقطع الاشجار ٤١ ٥٩٠ -
٦٠٩ - الفاتحون ١٠ - الاسلوب	امتيازات ١٣٧ - موالي ٣٣١
العربي في عصر الانحطاط ٢٢٣	- من السنة ٣٤٢ - دخلوا
- جغرافيو ١٩ ٢١ ٢٢	القاهرة ٤٣٢ - ادب ٤٢٧ -
٤٩ - اعراق ٧٥ - الكتاب	مهددون ٤٣٨ - الضرائب
٥٨٠ - شعورهم بالقومية	٤٣٩ - النيابة ٤٣٩ - اخذوا
٥٨١ - القومية ٥٨٣	عن الحضارة الفارسية ٤٤٩ -
عرب الجنوب ، هياكل ١٥٩	يغزون لبنان ٤٥٣ - الولاة
العرب المسلمون ١٨٥	٤٧٠ - عملاء في لبنان ٥١٥ -
عربا ١٤٤	الحكم المباشر ٥٢٥ - العملة
عربستان ٤٦٣	الورقية ٥٩٠ - حكم ٥٨٠
العربية [اللغة] ، انتشارها ٣١٣ - في	العثمانيون الاتراك ٤١٧ ٤٢٦ ٤٢٩ -
اول عهد المالك ٤٢٣ -	اول عهدهم ٤٢٧ - مقدمهم
والتطور الحديث ٥٧٠ - لغة	٤٢٦ - ٤٢٨
رسمية ٥٨٣ - رابطة ٦٠٦	عجلون ٤٦٣
العربية السعودية ، البدو ٥٧٥ -	عدلون ، مغاور ٥٣
نقط ٦١٢	العدراء مريم = مريم العدراء
العراق الالي ٧٤ - ملامح ٩٧	العراق ٢٩٢ ٣٣٤ ٣٦٢ ٣٦٥
عرقه ٩٩ ٢٣٤ ٢٥٨ ٢٩٣	٤٣٠ ٤٢٨ ٤١٥ ٣٧٠
٢٩٧ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٨٦	٦١١ ٦٠٩ ٦٠٢ ٦٠١
٤٥١ - في يد معاوية بن أبي	شمالي ٣٦٢ ٣٦٥ - دويلة
سفيان ٢٩٣ - جاليات من	ايوبية ٣٧٠ - الانتداب
الفرس ٢٩٧	الانكليزي ٥٩٣ - الجيش في
العرقوب ٤٧٣	العراق ٦١٨ - العشائر ٥٧٥
عرمون [الغرب] ٤٩ ٢٧٢ ٤٠٤	- سياسة ٦٠٧ - مالكو
عرمون [كسروان] ٤٥١	الارض ٦١٤ - اقتصاد ٦١٤

١٧٦	عقرون	٥٠٣	العريش
٢٥٥ ٢٣٤ ٢١٠ ١٣٠	عكا	٣٧٢	عز الدين ايبك
٣٣٩ ٣٣٨ ٣٣٣ ٢٩٦		١٩٩	عز الملك
٣٥٩ ٣٤٩ ٣٤٨ ٣٤١		٣٣٥	العزير [الفاطمي]
٣٧١ ٣٧٠ ٣٦٨ ٣٦٦		١٩	عزير [إله سامي قديم]
٣٨١ ٣٨٠ ٣٧٧ ٣٧٦		٤٣٧	عساف التركماني
٣٩٢ ٣٩١ ٣٨٥ ٣٨٢		٣٦٩ ٣٦٧ ٣٥٧	عسقلان ٨١
٤٠٢ ٣٩٧ ٣٩٦ ٣٩٥		٣٩٦ - قلعة صليبية ٣٥٧	
٤٧٨ ٤٧٠ ٤٥٧ ٤١٤		٢١٩	عشرت ١٦٢ - طقس رمزي
٤٨٣ ٤٨١ ٤٨٠ ٤٧٩		٢٥٤	عشروت ١٣٣ ١٦١ - معبد
٥٦٣ ٥١١ ٥٠٢ ٥٠٠		٢٥٤	عشروت = تموز - عبادة
نقود ٢٠٨ - مقر الباشوية ٤٧٠		٢٦١	عشروت جبيل
- دفاع ٤٨١ - مفتاح الاستانة		٦٠٠	عصبة الامم
والهند ٤٨١ - جالية مسيحية		٥٨٠	العصبة الاندلسية
٢٥٥ - الزيتون ٣٣٨ - ميناء		٧٠	عصر البرونز
٣٣٩ - جامع ٣٤١ - تحصينات			للعصر الجيولوجي الثالث - تحركات
صليبية ٣٥٦ - معركة ٣٦٨ -			ارضية ٢٦
مركز للرهبنة الفرنسيسكانية ٣٩٥		١٥٤	العصر الحجري الجديد
الشكر ٤١٤		٥٤ - ٥١	العصر الحجري القديم
٤٦٣ ٤٥٢ ٤٥١ ٤١	عكار	٨٥	حضارة
٤٨٩ - الاقطاع ٦١٤		٧٢ ٦١ - ٥٩	العصر الحجري المتوسط
		٥٨ - ٥٧	انسان - حضارة
٣٣٦	علاقة : يصك نقودا باسمه	٦٨ - ٦٦	خزف
٣٢٤	العلويون	٧٥ ٦٩	العصر النحاسي الحجري
٤٦٦	علي [ابن فخر الدين المعني]	٧٦ - انسان ٦١	
٤٨٠ ٤٧٩	علي بك	٥٤٧	العصفورية
٤٢٤	علي بن خليل الطرابلسي		العقبة = خليج العقبة
٣٢٣ ٣٢٢ ٢٩٩	علي بن ابي طالب	١١	العصور الوسطى
٢٩٩ - خلافة مع معاوية		٥١٨	العُقَال
حقه في الخلافة ٣٢٢		٥٣	العقية [بين صيدا وصور]

- الغرب الادنى [منطقة من لبنان] -
 اقطاع للارسلانيين ٤٥٢
 غرب آسية ١٨٩ - شعوب ٩٢
 الغربي السامي [في اللغات] ٨٢
 الغرش ٤٨٥
 الغريون ، الرحالة ٥٢٦
 غريفون ٤٢٣
 غريغوريوس [صاحب العجائب] ٢٧٩
 غريغوريوس الثالث عشر ٤٨٧ ٤٨٩
 غريغوريوس النازينزي ٢٧٩ ٢٨٠
 الغز [قبائل] ٤٢٧
 الغزالي ٤٣٧
 غزه ١١١ ٢٨١ ٢٩١ ٣٦٧
 ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٦ - سقوط
 بيد الاسكندر المقدوني ١٩٩ -
 الطاعون ٤٠٣ - طلاب ٢٨١
 غزير ٤٥١ ٤٥٢ - مدارس ٤٨٧ -
 معهد اللاهوت اليسوعي ٥٤٥
 الغزيري - ميخائيل - ناظر مكتبة
 الاسكوريال ٤٩٢
 الغساسنة ٢٩٠ - آل الخازن ٣١٢
 الغسول ، قليلات ٦٩ ٧١ - الحضارة
 ٧٣ ٧١
 غلاة الشيعة ٣٣٤
 غوته ٥٦٩
 غورو [الجنرال] ٣ ٥٩٦ ٦٠١
 مع فيصل في دمشق ٥٩٦
 الغوري ، قانصوه ٤١٨ ٤٤٠
 غندور ابن سعد الخوري ٤٨٦ ٥٠٧
 أمين سر الامير يوسف ٤٨٦
 غودفري دي بويون ٣٤٦ ٤٣٩
 الغوري = قانصوه الغوري
 غوطة [دمشق] ٢١
 غي دي لوزينيان ٣٦٥ ٣٩٣
 الفاتيكان ٤٨٨ ٤٩٤ ٥٣٨ ٥٥٦
 مكتبة ٤٩٢ - والكنائس
 الاخرى ٤٩٤ - المطبعة العربية
 الاولى ٥٥٦
 الفارابي ٣٣٥
 فارس ٢٥٩ ٢٨٧ ٢٧٩ ٤١٥
 ٤٢٦
 فارس الخوري ٥٨٤
 فارس الشدياق - الشدياق فارس
 فارس غر : مؤسس المقتطف ٥١٧
 الفارسي : الاسطول ١٨٧ ١٩٧ -
 قصر لاحد ولادة ١٩١ - غلبة
 الفرس ١٩٢ - الاميرة اطورة
 ١٩٩
 فاروس ٢١٣ ٢١٤ ٢٧١ - حاكم
 سورية ٢٧١
 فاربا ٤٥١
 فاطمة [ابنة الرسول محمد] ٣٢٣
 الفاطميون ٣٣٥ - ٣٣٦ ٣٣٩
 ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٧ ٣٤٨
 ٣٥٢ ٣٦٤ ٤٦٠ - حمود
 ٣٣٩ - شيعة ٣٥٢

٤٢٥	فرديناند مجلان	٣٠٧	فاماغوستا
٤٢٩ ٣٢٤ ٢٩٧ ١٣٥	الفرس	١٠٧	فتاح (اله وعيسير)
٤٦٣ ٤٣٠		٢٩٣ - ٢٩١	الفتح الاسلامي
٥٤٦ ٣٧١	فرسان القديس يوحنا	٤٥١	الفتوح . منطقة
	فرسان الهيكل = الداوية	٤٣٧ ٤٠٦	فخر الدين المعني الاول
٧٩	فرعون ، مركب لنقل نفس	٤٥٣	
٣٣٤	فرغانة	٣٢٠ ٤٩ ١٠	فخر الدين المعني الثاني
٥٨٩	الفرمان	٤٥١ ٤٣٨ ٣٦١ ٣٥٨	
٣٦١ ٣٥٥ ٣٥٣ ٣٥٠	الفرنجة	٤٦٢ ٤٦٠ ٤٥٩ - ٤٥٣	
٣٧٤ ٣٦٨ ٣٦٣ ٣٦٢		٤٦٦ ٤٦٥ ٤٦٤ ٤٦٣	
	- قواد من ٣٥٣ - ذروة	٤٨٣ ٤٧٨ ٤٦٩ ٤٦٧	
	انتصار ٣٥٥ - لم يخضعوا	٤٩١ ٥٠٠ ٥٤٩ - قصر	
	داخلية البلاد ٣٥٥	٤٩ - امتداد ملك ٣٢٠ - في	
	الفرنجة = الفرنج	قلعة نبحا ٣٦١ - ولايته على	
٣٩٠	فرنجية [عائلة]	الدروز ٤٥٣ - تحالف مع	
٣٩١ ٣٧١ ٣٠١	فرنسة [فرنسا]	مشايخ العريان ٤٥٥ - صفته	
٤٤٥ ٤٤٤ ٤٢٥ ٣٩٢		٤٥٥ - سياسته الداخلية ٤٥٦	
٤٨٩ ٤٨٤ ٤٥٦ ٤٤٧		- اعماله الانشائية ٤٥٦ -	
٤٩٤ ٥١١	- الموارد	سيرته ٤٥٩ - في صقلية ٤٦٠	
	وفرنسة ٣٩١ - بجانب محمد	- قصره في صيدا ٤٦٤ -	
	علي ٥١١ - واطلب الغال	هربه ٤٦٦ - هديته الى السلطان	
٥٢٨ ٥٢٧ ٥٢٣ ٥١٦		٤٦٧ - بين ماضي لبنان	
٥٣٥ ٥٣٤ ٥٣٣ ٥٣١		وحاضره ٤٦٧ - خان في	
٥٨٩ ٥٧٣ ٥٣٩ ٥٣٦		صيدا ٤٨٢	
٦١٤ ٦٠١ ٥٩٦ ٥٩٣		فخر الملك ابن عمار ٣٥٣ ٣٤٧	
	اطلب الغال - حامية الرعايا	٦٠٧ ٤٣٩ ٣٣٨ ٢٢٩	القرات
	الكاثوليك في المملكة العثمانية	٥١٤	القراعة
٥٢٣	- مدارس في لبنان	٢٦٤ ٢٣٩ ٢٣١ ٢٢٨	القرثيون
٥٤٥	وسورية وفلسطين	٢٥٠	فرجيل . شعر
	- تسحب جيوشها من لبنان	٤٥٦ ٤٢٩	فرديناند الاول

٤٥	فكتوريا ، الملكة	سنة ١٨٦١ ص ٥٣٦ اعمالها
٢٥٨	فلريان مضطهد المسيحيين	في لبنان سنة ١٨٦١ ص ٥٣٦
٢٣٤ ١٩٩ ١١١ ١٠٩	فلسطين	— اثر كتابي على نهر الكلب
٢٩٤ ٢٩٠ ٢٥٧ ٢٥٢		٥٣٦ — مع الملك فيصل
٣٣٧ ٣٣٣ ٣٢٧ ٣٢٥		٥٩٣ — الانتداب على لبنان
٣٦٦ ٣٦٣ ٣٤٩ ٣٤٢		وسورية ٥٩٣ — اعمالها في
٤٠٠ ٣٩٩ ٣٩٥ ٣٧٣		لبنان وسورية ٥٩٥ —
٤٥٥ ٤٥٢ ٤٣٨ ٤٠٦		تعترف باستقلال لبنان آسيا
٥٠٥ ٤٧٩ ٤٧٨ ٤٦٣		٦٠٠ واطلب الغال — فرنسا
٥٩٢ ٥٤٥ ٥١٤ ٥١١		الحررة ٦٠٣
— ٦١٧ ٦٠٢ ٦٠١		الفرنسيكان ٣٩٥ ٣٩٤ ٣٨٣
الخزف ٦٧ — النحاس ٦٩		٣٩٥ ٤٨٦ — الرهينة ٣٩٥
٧١ — عرق سكان ٧٣ —		— ارسالية في طرابلس ٤٨٦
القمح والزيت ١١٧ — مرتفعات		فرنسيس الاسيسي (القديس) ٣٩٥
١١٤ — مدن ١٩٩ — الجراجمة		فرنسيس الخازن ٥١٥
١٩٩ — قوافل ٢١٣ — صناعة		الفرنسيون = الافرنسيون
البردي ٢١٦ — جزء من		فرنسوا الاول ٤٤٦ ٤٤٤
الامبراطورية الرومانية ٢٢٧ —		الفرنك الفرنسي ٥٩٦
جند ٢٩٤ — مقاطعة عربية ٢٣٤		فرنكو باشا ٥٦٥ ٥٤٢ ٥٤١
— مقاطعة سورية ٤٥٢ —		فريد الخازن ٤٨٦
اضطهاد المسيحيين ٢٥٧ —		فريدريك بربروسا ٣٦٨
الزجاج ٣٣٧ — الب ارسلان		فرفوربوس الصوري ٢٤٩ ٢٤٨ —
٢٣٧ — اعادة حكم المالك		تعلم في صور ٢٤٨ — قضية
٤٧٩ — الانتداب الانكليزي		العقل عند ٢٤٩
٥٩٣ — تقسيم ٦٠٨ — اقتصاد		فروميتيوش ٢٥٥
٦١٤		فسباسيان — حربه ضد اليهود ٢٧٢
الفاسطينيون ١١٠ ١١١ ١١٣ ١٢٠		القسطاط ٣٣٤
شعب بحري ١٠٩ ١١١		فصل الخطاب في اصول الاعراب
٤١٥	فلورنس	لناصيف اليازجي ٥٦٣
٤٦٥ ٤٦٠ ٤٥٦	فلورنسا	فضل ، بنو فضل ٣٦٣

صناعة الزجاج ٢١٥ — ورق
البردي ٢١٦ — القوافل ٢١٣
خسارة الكيان ٢٢٧ — مقاطعة
عربية فينيقية ٢٣٤
فينيقية السورية ٢٣٤
فينيقي او فينيقية ٢١٩ — ٢٩٨ — حروف
الهجاء ٦ ١٤٩ ١٥٣ —
مستعمرات ٧ — مدن — دول
٨٣-٨٤ ١٧٥ ١٨٨ ١٨٩
مرتفعات ١١٤ — طريق بحرية
وبرية ١١٦-١١٧ — بضائع
١١٧ ٢١٢ — تجارة ١١٨ —
١١٩ — اقتصاد ١٢١ — انتاج
١٢٥ — تجار ١٢٤ ١٣٧
١٤٩ ٢٠١ — بناؤون ١٢٨
مراكب ١١٢ ١٧٦ ١٨٧
ملاحون ١٣٨ — استعمار في
بلاد الاغريق ١٤٣ ١٤٤
٢١٦ — محولات مراكب —
١٤٥ — الاثر الحضاري ١٤٥
١٤٦ ١٧١ — وسطاء ١٤٩
— فكر علمي ١٥٣ — حضارة
١٥٥ — الادب ١٧١ — ملوك
١٧٢ — مدن ١٧٤ ١٨٧
٢٠٢ ٢١٠ ٢١٨ — صناع
سفن ١٧٧ — الحيوية ١٨٣
١٨٤ — جاليات في فلسطين
١٨٦ — نقش على قبة ٢٠٥ —
قواد ١٨٨ — الولاء ١٨٩ —
التجارة ١٨٩ ١٩٢ — نقوش

١٦
فؤاد باشا ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٤١
٥٤٦ ٥٦٥
فورتينه بورتالس = بورتالس
فولك ٣٥٨ ٣٦٠
فولتي ٤٤ ٤٥٧ ٤٧٧ ٤٩٥ — بين
الدروز ٤٧٧ — بين الدروز
والموارنة ٤٩٥
فون زوخم ٣٩٤ ٤٠٩ ٤٦٢
فيا كامبانا ، مستودعات ٢٤١
فيترون ، مسابون سنيون ٤٥١
فيشي ، حكومة ٦٠١ ٦٠٢
فيصل ابن الحسين ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٦
في دمشق ٥٩٢
فيلا دلفوس بطليموس الثاني ٢١٣
فيلو الجبيلي ١٥٥ ٢٤٦ ٢٤٧
فيليب اوغسطس ٣٦٨
فيليب الثاني ٢١١
فيليب الخازن ، ترجمان القنصلية
الفرنسية ٤٨٦
فيليب دي طرازي [الكونت] ٥٥٩
٥٦٦
فيليب العربي ٢٦٦
فيليب المقدوني [والد الاسكندر] ١٩٥
فيينا ٤٤٥ ٤٤٦
فينيقية ٦١٢ — عصرها الذهبي ١١٤ —
تقسيم ١٨٥ — في يد بطليموس
٢٠٢ — تحت الحكم السلوقي
٢٠٥-٢٠٧ — احتلال ٢١١
— الرسل ٢٥٤ — النسيج ٢١٥

قاديشا ٥٥٥ — نهر ١٧ — منطقة ١٨	قبرية ١٨٩ — الآداب ٢١٩ —
وادي ١٧ ١٨ ٣٩ ٤٣	استقلال ٢٠٨ — النشاط ٢٠٩
٣٠٣ ٣٠٤ ٤٨٩ ٤٩١	— الصناع ٢١٥ — فيلسوف
٤٢٥ قاليقوط	٢٢١ — ميناء ٢٢٤ — اللهجة
قانسوه الغوري ٤٣٠ ٤٣١ —	(اللغة) ٢١٨ — المجتمع ٢٢٥
مسجد ٤١٨	— اللهجة ٢٣٥
القاهرة ١١ ٣٢ ٣٣ ٨٠	الفينيقيون ٦ ٢١٨ ٢٤٠ ٢٤٣
٢٠٤ ٣١٨ ٣٣٥ ٣٧٠	٤٢٦ ٥٧٦ — نقلهم الكرمية
٣٧٢ ٤٠٦ ٤١٠ ٤١٤	٣٨ — من الخليج الفارسي ٨٣
٤١٧ ٤١٨ ٤٢٤ ٤٣١	— معدنون ١٤٤ — معرفتهم
٤٣٢ ٤٦٦ ٤٨٠ —	بالحديد ١١٢ — مفتشون عن
بنايات ٤١٨ — عاصمة	الذهب ١٢٤ — صناعة الزجاج
الفاطمين ٣٣٥	١٣٠ — نقلهم القطن ١٣١ —
القاسمية = نهر القاسمية	صناعة الارجوان ١٣٢ — ١٣٥
قايتباي ٤١٨ ٤٢٩ ٤٣١ ٤٤٠ —	ملاحتهم ١٣٦ — مكتشفو
مسجد ٤١٨ — رسالته الى البابا	نجمة القطب ١٣٦ — سفرهم
مهدداً ٤٢٩	حول القارة الافريقية ١٣٧ —
قائمقامية جزين ٥٣٨	استعمار ومستعمرات ١٣٨ —
قائمقامية الدروز — عدد سكانها ٢٥٨	١٣٩ — طرق تجارة ١٤١ —
قائمقامية كسروان ٥٣٨	الخلود في نظر ١٦٨ — مهندسون
قائمقامية النصاري عدد سكانها ٥٢٨	١٨٨ — في بلاد الاغريق ١٨٩
قانون الاحوال الشخصية ٥٢٤ ٦٠٨	— المهاجرون ٢٤١
القاهرة ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٦ ٥٦٨	٢٩٦
٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٣ ٦٠٢	فينيك
قب الياس — معركة ٤٨١	فينكس = فينيك
قبرص ١١٦ ١٢٤ ١٢٩ ١٥٣	
١٦٤ ٤٧٧ ١٩٨ ٢٩٥	
٣٠٧ ٣٥٠ ٣٩٣ ٣٩٦	
٣٩٧ ٤٠٦ ٤١٤ ٥٠٣	
٣٠٧ ٥٢٠ — المستعمرات	

ق

١٤١ ١٤٠ ١٣٩	قادس
٨٦ ٩٥ ١٠٦ ٢١٧ —	قادش
٩٣ امير	

٤٥٣	قرقاز (الامير)	الفينيقية ١٧٦ - النحاس ٨٤
٤٥٤	قرقاز (والد فخر الدين المعني)	جاليات مارونية ٣٠٧
١٦	القرنة السودا	قبة ، لفظة فلسطينية
٣١٢	القريتين	القدس ٢٢٨ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٩٠
٢٩٥	قريش	٢٩٣ ٢٩٨ ٣٠٨ ٣٣٩
٩٧	قرل ارمق	٣٤٥ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩
٤٢٩	قرل باش	٣٥١ ٣٥٥ ٣٦٣ ٣٦٧
	قسطنطين لوقا ٣٣٠ - ٣٣١ - في بغداد	٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١
	٣٣٠ - موته ٣٣١	٣٨٩ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٠٤
٢٥٩ ٢٥٥ ٢٣٤	قسطنطين الكبير	٤٠٧ ٤٤٠ ٥١٩
٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٩	عهد	احتلال نبوخذ نصر ١٨٠ -
٢٥٥	مزيل الاضطهادات	سقوط في يد الكلدانيين ١٨١ -
	ضد المسيحيين ٢٥٩ - باني	سقوط ٢٧٣ - استسلام ٢٩٣
	القسطنطينية ٢٥٩ - منشيء	عاصمة المملكة اللاتينية ٣٤٨ -
	امبراطورية ٢٦٠ - هدم هيكل	سقوط بيد الصليبيين ٣٤٩ -
	افقا ٢٦١	الحج ٣٦٩ - في ايدي الافرنج
٣١٨	قسطنطين الثامن	٣٧٠ - الطاعون ٤٠٣
٢٦١ ٢٦٠ ٢٥٩	القسطنطينية	قدموس الصوري ١٤٤ ٢٢٢
٢٨٠ ٢٧٩ ٢٧٨ ٢٦٨		القديس سرجيوس = مار سركيس
٣٤٣ ٣٠٨ ٣٠٥ ٣٠٣		القرامطة ٣٢٣ ٣٣٣ ٣٣٤ - ياجمون
٥١٤ ٤٢٨ ٣٥١	زلزال	سورية ٣٣٣ - حركة ٣٣٤
٢٧٨		القرآن ٧ - اعتراض على طبعه ٥٥٧
٤٧٤	قصر آل العظم	قرطاجه ٧ ١٣٣ ١٤٥ - ١٤٨ ١٦٥
٥٠٨	القصر العيني	١٨٧ ١٩٧ - تأسيس ١٣٩
٤٠	القصيل	قرطبا (لبنان) ٢٣٣
٦١١	قطر	قرطبة (في اسبانيا) ١٤٢ ٢٤٢
٥٦٢	قطر المحيط [لبطرس البستاني]	قرطاجني ، نقش ١٤١ - الحرف ١٤٢
٣٧٣	قطر ، قتله	١٥٣ - تجارة ١٤٦
	قطنة ٩١ - احتلال ٩٩	القرطاجيون ٧ ١٤١ ١٨٣ ١٨٧
٥٥٦	القلاخ	قرقر (مدينة) ١٧٥

٤٢٠ ٤١١	القلقشندي	٤٢٤ ٤٢٣	القلاعي - جبرائيل
٢١	القلعون	٣٨٥ ٣٧٦ ٣٧٥	قلاوون
١٨٧ ١٨٥	قبيز	٤٢٠ ٣٩٧	
٦٤	القمر ، عيادة	٣٧٣	قلعة الموت
	قناة السويس = ترعة السويس	٣٦٠	قلعة بانياس
٢٩٤	قنسرين ، حبد	٣٥٧	قلعة البحر في صيدا
	القنصليات الاوربية ، مسلمون يهربون اليها ٥١٤		قلعة بعلبك = بعلبك
٥٨٨	القنصلية الافرنسية بيروت	٣٦٠	قلعة بلفورت = قلعة الشقيف
٥٦١	القنصلية الاميركية في بيروت	٥٨٨	قلعة تبنين
٤٩١ ٤٨٩ - ٤٨٨ ١٧	قنوبين		قلعة جمال
	قواعد اللغة السريانية ، للبطريك عميرة ٤٨٩	٦٠٥ ٦٠٤	قلعة الحصن = حصن الاكراد
٤٩٠	قواعد اللغة العربية للصهيوني	٥٠٥	قلعة راشيا
	قورس = قورش	٥٨٨	قلعة سانور
٣٠٤ ٣٠٢ ٣٠١	قورش	٣٦٧ ٣٦٠ ٣٥٨ ١٩	قلعة رشاد
٤٦٠ ٤٥٨	قوزما الثاني	٤٥٥ ٣٩٠ ٣٧٠	قلعة الشقيف
١٨٥	القوقاس	٣٦١	قلعة شيزر
٧٤	القوقاسي ، العرق	٣٦٠	قلعة الصبية
٣٦٥	القيروان	٤٠٢	قلعة صفد
٦٠٧	القومية السورية ، مميزاتها	٥٨٩ ٣٥٢	قلعة طرابلس
١٤٧	قيريني	٤٠٨	قلعة الكرك
٤٣٩	قيس (قبيلة)	٣٧٥	قلعة المرقب
٣٤٩ ٣٤٨ ٢٧٩ ٢٧٣	قيسارية	٣٧١	قلعة المزة
٣٧٤ ٣٧١		٣٦١	قلعة المسيحلة
٣١١	قيسارية كبدوكية	٣٦١	قلعة مصياف
٤٦٨	القيسيون		قلعة المضيق = افاميه
٥٢٣	القيصر (قيصر روسيا)	٣٦١	قلعة المنيطرة
		٣٦٠	قلعة النمروذ
			قلعة نبحا = شقيف تيرون

١٣١ - ١٣٢ - الأسرى ١٥٠
 - موسيقيون ومغنون ١٢٩
 ١٣٠ - حروف الهجاء ١٦٨
 - النظام المقطعي في كتابة ١٥٢
 - الادب ١٥٣ - لهجة ١٥٤
 - دين ١٥٥ - مرتفعات ١٦٢
 ١٦٧ - هياكل ١٦٥ - مباخر
 ١٦٦ - اصنام ١٦٧ - ملوك
 ١٦٨ - اثر في العبران ١٦٨ -
 ١٧١ - نماذج ١٦٩ - اثر اللغة
 في دين العبران ١٧٠ - الروح
 الوطنية ٢١٧ - لهجة ٢١٨
 ٢١٩
 الكنعانيون ٦ ٧٩ ١٢٢ - ١٢٤ -
 موسيقيون ومغنون ١٣٠ -
 ابجدية ١٦٨ - سكان مدينة
 هبو ٢٣٥
 ١٦١ كـوبس
 ٣٠٩ الكنيسة الاشورية
 ٣٠٢ كنيسة الروم الارثوذكسية
 ٣٠٩ - ٣٠٨ الكنيسة السريانية الشرقية
 ٣١٠ - ٣٠٩ الكنيسة السريانية الغربية
 ٣١٠ الكنيسة السريانية المندوفستية
 ٥٥٣ الكنيسة السورية الانجيلية
 ٣١٠ الكنيسة الغريغورية
 ٢٥٩ كنيسة القبر المقدس
 ٤٩١ كنيسة قزحيا
 ٣١٠ الكنيسة القبطية
 ٣٠٨ كنيسة القدس رئيسها
 ٢٨١ كنيسة القيامة في بيروت

٣٤٣ كلرمونت
 ٤٩٠ كلية ساينزا
 الكلية السورية الانجيلية ، قرار تأسيس
 ٥٤٦ واطلب الجامعة الاميركية
 في بيروت
 ٤٨٨ الكلية المارونية في روما
 ٥٩١ كليفلند هـ. دودج
 كليوبترا ١٣٤ ٢٢٨ ٢٦٩ -
 مسلة ٣٦٩
 كليفورنية ٣٠ - الجنوبية ٤٢
 كمال جنبلاط ، وزع بعض املاكه على
 الاجراء ٦١٨ ، مؤسس الحزب
 التقدمي الاشتراكي ٦١٨
 كميل نمر شمعون ، مثل لبنان في هيئة
 الامم المتحدة ٦١٨
 كندا ٥٧٧
 كنعان ٦ ٧٩ ١١٨ - تجزئة بلاد
 ٩٨ ١١٥
 الكنعانية - حضارة ٦ - مدن ٨٤ -
 قبل التاريخ ٧٩ - بلاد ٨٢ -
 ٨٣ - اثار ٨٤ - خزقات ٨٥
 - الصناعات ٩٠ - ارستقراطيون
 ٩١ - مدن مستقلة ٩٨ - لغة
 ٨٢ - صناعة الخزاف ١٢٣ -
 سكان الساحل ١١٠ ١١٤ -
 كاهن ١١٣ - المجتمعات ١٢٢
 ١٢٤ - التجار ١٢٤ - صناعات
 الاسلحة وغيرها ١٢٥ -
 الموسيقى والرقص ١٣٠ -
 الاسماء كنعانية ١٣٠ النسيج

المصرية ٩٣ - ٩٦ - حكام
وامراء ١٠٥ - جذوع من ارز
١٠٨ - خشب ارز لبنان، ارز
فينيقي ١١٧ ١٢٨ - معادن
الحديد ١٨٣ ٢١٦ ٢٣٧ -
لبنان ايلة ١٨٥ - ارز من لبنان
١٨٧ - اخشاب ١٩٨ -
قبائل عربية في لبنان الشرقي
١٩٨ - بطليموس الاول يخسر
لبنان [فينيقية] ٢٠٢ -
الفوضى ٢٠٩ - العلاقات
الثقافية ٢١٧ - جاليات ٢١٧
العلاقات التجارية في لبنان ٢١٧
اللهجة الكنعانية ٢١٨ - جزء
من الامبراطورية الرومانية
٢٢٧ - عدد سكان ٢٣٢ -
مناجم ٢٣٧ - في يد الروم
٢٩٠ - اضيف الى جند الشام
٢٩٤ - معقل الاقليات المذهبية
٣٠٠ - اول ظهوره على مسرح
٣٠٠ - موارد ٣٠٥ -
٣٠٦ - جزيرة مسيحية
٣١١ - ٣١٤ - ثورات ٣٢٧
- بلد النساك ٣٣٧ - ٣٤١ -
المقدس ٣٣٨ - وصفه ٣٣٩
- التبشير ٣٩٤ - الارسالية
الكبوشية ٣٩٥ - الارسالية
اليسوعية ٣٩٥ - خشب الارز
٣٩٦ - تقسيم المالك له ٤٠٠

٤٣٩ ٤٥٥ ٤٦٨ ٤٧٠
٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٥ ٤٧٦
٤٧٧ ٤٧٨ ٤٨١ ٤٩٨
٥٠١ ٥١٢ ٥١٥ ٥١٩
٥٢٤ ٥٢٦ ٥٣٣ ٥٤٠
٥٤١ ٥٤٥ ٥٥٠ ٥٧٣
٥٧٥ ٥٧٨ ٥٨٨ ٥٨٩
٥٩٢ ٥٩٧ ٦٠١ ٦٠٢
طابع مميز ٣-١٢ - اقدم
شعب ٦ - جبال ٨ ٩ ١٤ -
لا صحراء فيه ٨ - ملجأ
الاقليات ٩ ٢٨ - اسم ١٤ -
صخور ٢٤ - الطبقة الرملية
٢٣ - العصور الجيولوجية ٢٤
- جبال ٢٦ - طبقات ارض
٢٨ - معدل سقوط المطر ٣٠ -
الصخر الكلسي ٣٢ - جبال
لبنان مصيف ٣٢ - جبال
لبنان ١٧٣ - نباتات ٣٦ -
منحدرات ٣٨ - الكرمة ٣٨ -
احراج ٤٠ ١١٧ ٢١٥
٢٩٥ - اشجار مشمرة ٣٨ -
حيوانات ٤٦-٤٩ - الموارد
الطبيعية ٤٩-٥٠ - الحديد
٤٩ - علاقة سكان لبنان
العرقية ٧٣ - ذكر لبنان في
النقوش ٧٩ - آثار من خشب
ارز ٨٥ - جذوع من ارز
٨٥ - طريق دولية ٨٦ -
ضم لبنان الى الامبراطورية

— هو والغرب ٥٤٧ — المطبعة —
 ٥٥٥ — ٥٥٧ — المكتبات
 ٥٥٧ — ٥٦١ — الجرائد
 والمجلات ٥٦٥ — ٥٦٨ —
 المسرحية ٥٦٩ — ٥٧٠ — اللغة
 العربية ٥٧٠ — الحضارة ٥٧١
 — الزراعة ٥٧٢ — اقتصاد
 ٥٧٢ — ٥٧٤ — عدد سكان
 المدن ٥٧٣ — القديم والحديث
 ٥٧٥ — تكاثر السكان ٥٧٥
 — الصحافة ٥٧٦ — عدد
 السكان ينخفض ٥٧٧ —
 زجالون ٥٨٠ — جمعيات
 سرية وعلنية ٥٨٦ —
 الحكم التركي المباشر ٥٨٨ —
 احوال الحرب ٥٨٩ — المجاعة
 ٥٩٠ — خسارة سنة المجاعة
 ٥٩١ — اللاجئون سنة ١٩١٥
 ص ٥٩١ — الحرب العالمية
 الاولى ٥٩٢ — الانتداب
 الفرنسي ٥٩٢ — ٥٩٦ — مستقل
 عن سورية ٥٩٤ — دستور
 الحكم ٥٩٧ ، عدد سكانه سنة
 ١٩١٣ ص ٥٩٧ — ٥٩٨ —
 العلم اللبناني ٥٩٨ — جمهورية
 ٥٩٨ — التوازن الطائفي ٥٩٩
 الدستور الجديد ٥٩٩ —
 استقلال ٦٠٠ — الحرب العالمية
 الثانية ٦٠٢ — الاستقلال التام
 ٦٠٣ — عيد الاستقلال ٦٠٣

عدد سكانه في عهد المالك
 ٤٠٣ — الاقطاعية ٤٠٨
 ٤٠٩ — شمال ٤١٢ ٥٣١ —
 المدارس ٤٢٠ — حكم العثمانيين
 له ٤٣٩ — قيسي ويمني ٤٣٩
 — وجهاء لبنان ٤٧٠ — حاكم
 على لبنان ٤٧٠ — عسكرياً ٤٧٥
 — راهب ايطالي ٤٧٦ —
 الهجرة ٤٧٧ — علماء الشيعة
 ٤٩٨ — عهد المتصرفية ٥١٦
 ٥٢٥ — الحروب الاهلية
 ٥٢٥ — ٥٣٦ — ثورة سنة
 ١٨٤٠ ص ٥٢٦ — تقسيمه الى
 قائمقاميتين ٥٢٨ — عدد سكانه
 سنة ١٨٤٢ ص ٥٢٨ — نظام
 جديد لحكمه ٥٣٦ — نظام
 سنة ١٨٦١ ص ٥٣٦ — تنظيمه
 بعد حركة سنة ١٨٦٠ ص
 ٥٣٥ — ٥٣٦ — ولاية مستقلة
 (متصرفية) ٥٣٦ — سبعة
 اقضية ٥٣٧ — مع الباب العالي
 ٥٣٨ — ٥٣٩ — احتلال الحلفاء
 ٥٤٤ — نواح مشرقية فيه
 ٥٤٤ — ٥٤٨ — من احسن
 مناطق الشرق الادنى ٥٤٤ —
 مدنية الغرب ٥٤٩ — ٥٧٠ —
 يختلف عن تركيا ٥٥٠ —
 الارساليات في القرن التاسع
 عشر ٥٥١ — ٥٥٤ — هو
 والاقطار العربية المجاورة ٥٤٧

- تعديل الدستور ٦٠٤ — يعلن
الحرب على المانيا واليابان ٦٠٥
— يوقع على ميثاق هيئة الامم
المتحدة ٦٠٥ — معاهدة مع
فرنسا ٦٠٥ — اتجاه نحو الغرب
٦٠٦ ٦٠٧ — جيران ٦٠٦
— والمجموعة العربية ٦٠٧ —
جيش ٦٠٨ — ممثلوه في الامم
المتحدة ٦٠٨ — قانون
الانتخاب ٦٠٨ — الضمان
الجماعي ٦٠٩ — دور الوسيط
٦٠٩ — حلف بغداد ٦٠٩ —
وميثاق الجامعة العربية ٦٠٩ —
تجارة حرة ٦١٠ — سياسته
الاقتصادية ٦١٠ — الدخل
التجاري ٦١٠ — ٦١١ —
الاصطياف والاشياء ٦١١ —
التزلج على الثلج ٦١١ — شركات
النفط ٦١٢ — طرق مزقتة
٦٤٣ — الزراعة ٦١٤ — ٦١٦
— عدد سكانه ٦١٤ — مجلس
الانشاء والتصميم ٦١٥ — اتفاقية
اقتصادية مع الولايات المتحدة
٦١٥ — صناعة الخمر والصابون
وعود الثقاب ٦١١ — صناعة
النسيج والاثاث ٦١١ — صناعة
المأكولات المعلبة ٦١٦ —
صناعة تكرير زيت الزيتون
٦١٦ — صناعة الدباغة ٦١٦
— صناعة الاسمنت ٦١٦ —
- الصناعة ٦١٦ — ٦١٧ — قانون
العمل ٦١٦ — الضمان الجماعي
٦١٦ — قرض من البنك الدولي
٦١٦ — العمال والتقابات ٦١٧
— حرية القول والفكر ٦١٧ —
رسالته ٦١٨
- لبنان الجنوبي ٥٩٠ ٥٩٢ — اسلحة
نحاسية ٨٤ — شهرته ٤٩٥
لبنان الشرقي ٨ ١٣ ٢٠ ٢١
٢٢ ٢٤ ٢٦ ٤٧ ٥٣ —
جوانب ٣٣ — اشجار ٤٠ —
قبائل ١٩٨
- لبنان الشمالي ٩ — شهرته ٤٩٤
لبنان الغربي ١٣ ٢١ ٢٢ ٢٤ ٢٦
لبنان الكبير ٤٧٣ ٥٩٣ ٥٩٦ ٦٠٠ —
— كلمة الجنرال غورو فيه
٥٩٦ — ٥٩٧
- لبنان المهاجر ٥٧٥ — ٥٨٠
لبنان — سورية ، علاقات ٦٠٩
لبنان (جريدة) ٥٦٥
لبنانية — سلوكية ، آداب ٢١٩
لبناني (او لبنانية) ، الشعب اللبناني ٤
— ما قدمه اللبنانيون ١٠ —
جاليات لبنانية معاصرة ١١ —
الطبوغرافية اللبنانية ١٣ —
مناظر لبنانية ٢٤٠ — مهاجرون
لبنانيون ٢٤ — المناخ اللبناني
٢٩ — بناؤون لبنانيون ٢٩ —
فلاحون لبنانيون ٣٢ — الصخر
الكلسي اللبناني ٣٢ — اخشاب

- وقود لبنانية ٣٧ ٤١ ٤٥ —
اشجار لبنانية ٣٩ — الخزف
اللبناني ٦٦ — ٦٨ — التوت
اللبناني ٣٨ — الحضارة اللبنانية
٦٨ ١٤٢ ١٩١ — شواطئ
لبنانية ٧٩ ٨٢ ٢١٠ ٢٣٢ —
— الانتاج اللبناني ١٢٥ —
اللبنانيون وصنع صباغ القرمز
١٣٥ — شاطئ لبناني ١٤٤ —
— الساحل اللبناني ١٤٩ —
المدن اللبنانية ١٨٠ — لبنانيون
في نيويورك ١٨٧ — لبنانيون
في سان باولو ١٨٧ — لبنانيون
في بونس ايرس ١٨٧ — المدن
اللبنانية [الفينيقية]
التجارية ٢٠٧ — سكان
لبنانيون ١١٧ — مهاجرون
لبنانيون ٢١٩ — لبنانيون ادباء
وشعراء ٢٢٠ — المفكرون
والكتاب اللبنانيون ٢٢٢ —
الزجالون اللبنانيون ٢٢٣ —
الضيافة اللبنانية ٥٠٥ —
المهاجر واخلاقه ٥٧٩ —
الهجرة ٥٧٦
اللبنانيات ، ملابسهن ٥٧١
اللبنانيون ٥٨٩ ٥٩٣ ٦٠٢ — في
مصر ٥٧٦ — في القاهرة ٥٦١
— ثروة التجار في مصر ٥٧٦
— عددهم في مصر ٥٧٧ —
عددهم في الولايات المتحدة
- ٥٧٧ — جرائد ومجلات
المهاجرين ٥٦٦ — اكتشفوا
اميركا الشمالية ٥٧٧ — في
المهجر الاميريكي ٥٧٧ —
المهاجرون تبرعوا سنة ١٩٥١
و ١٩٥٢ ص ٥٧٨ ٥٧٩ —
والقومية ٥٨٠ — ٥٨٤ — ميلهم
للانتداب الافرنسي ٥٩٣
اللخميون ٢٩٠
لسان الحال (جريدة) ٥٦٦
اللعازريون ٤٧٨
لغورنا ٤٥٨ ٤٥٩
لكسمبورغ ٢٤٣
المعيون ٣٩٨ ٤٥٢ ٤٧٥ ٥٢٨
المقدمون ٤٧٢
لندن ٥٢٣ ٥٤١ ٦٠٨ — سفارة
٥٤١ — نشر التوراة ٤٩٠
لوز ٥٧٤
لوسيان السموساطي (السميساطي) ١٥٦
لوغال زغيسي ٨٠
لوكندة ٥١٧
لاومدون ٢٠٢
لويثان ١٧٠
لويس التاسع (البابا) ٣٥٧ ٣٧١
٣٧٢ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٦
لويس الثالث عشر ٤٩٠
لويس الرابع عشر ٤٨٢ ٤٨٦ —
تعليماته الى سفيريه في استنبول
وسورية ٤٨٢
لويس الخامس عشر ٤٤٤ ٤٨٣

المتن	٢٤ ٥٠ ٣١١ ٣٢٢
المتن	٣٩٨ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٤
المتن	٤٦٩ ٥٢٩ - صنوبر ٣٩
المتن	اقطاع لامراء ابي اللمع ٤٥٢
المتن	١٧٦
المتن	٣٣٤ ٣٣٥ ٦١٥ - شرح
المتن	ديوانه ٥٦٣
المتن	٥١٤
المتن	٧١ ٩٦ ٩٧
المتن	٩٦ ٩٠
المتن	٣٩١ ٣٣١ ٣١٣ ٣٠١
المتن	٤٣٠ ٤٣٢ ٤٣٣ -
المتن	شروطه على النصارى ٣١٣
المتن	مجانى الادب فى حدائق العرب ،
المتن	للويس شيخو ٥٦٥
المتن	٢٩٨
المتن	٢٩٨
المتن	٢٩٨
المتن	٢٩٨
المتن	مجدو ، سقوطها بيد الاسكندر ٩٣ -
المتن	اصطبلات ١٢٩
المتن	المجلة ٥٢٤ - شرح ٥٦٣
المتن	٥٨٨ - حله ٥٨٥ -
المتن	٥٩٩
المتن	٥٨٨ - مشجع
المتن	٥٨٩
المتن	٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ -
المتن	٥٨٤
المتن	٥٩٩
المتن	١٩٤٣ - ص ٦٠٤
المتن	٥٦٣
المتن	٣١٠
المتن	٤٩٤ - ٤٩٣
المتن	٥٦١
المتن	٣٨١
المتن	٥٣٨ ٥٣٥
المتن	٥٣٨
المتن	٤١٠
المتن	٥٨٧ - مولد ٢٨٧ -
المتن	٢٨٨
المتن	٣١٦ ٣١٥
المتن	٣١٧
المتن	٣٣٤
المتن	٣٢٢
المتن	٥٦١ ٥٥٧
المتن	٤٤٨
المتن	٥٨٥
المتن	٥٨٦
المتن	٥٨٢
المتن	٤٥٢

٤٢١	المدرسة النجمية [في بعلبك]	٥١٣	محمد علي ٤٠ ٥٠٦ ٥٠٨
٥٦٨ ٥٦١	المدرسة الوطنية في عبيه	٥٥٦ ٥٦٥ ٥٧٦	— مؤسس
٥٣	مدوخا [البقاع]	٥٠٨	القصر العيني في مصر
٥٨٢	مذكرات نقولا الترك	٤٤٨ ٤٢٩	محمد الفاتح
٣٣٠	مذهب الاوزاعي	٤٢٨	محمد الثاني [السلطان]
٤٣٩ ٣٣٠	المذهب الحنفي	٤٤٤	محمود الاول
٣٣٠	المذهب الشافعي	٥٢٥ ٥٢٢ ٥٢٠	محمود الثاني — قتله
٤٢٩	المذهب الشيعي	٥٢١	الانكشارية — تنظيمات
٣٣٠	المذهب المالكي	٥٢١	— الطربوش لباس
٦٠٨	المرأة اللبنانية تقترح	٢٢٩ ١٤٠ ٢٩ ٧	المحيط الاطلسي
٥٦٥	مرآة الاحوال [لرزق الله حسون]	٣٧٥ ٣٠١	— اكتشافه ١٤١
٤٥٢ ٤٤٨	مراد الثالث	٥٧٧	— لبنانيون على شواطئ
٤٦٦ ٤٦٣	مراد الرابع	٥٦٢	محيط المحيط [لبطرس البستاني]
٥٧٥ ٥٢١ ٤١٤	مراكش	١٨٥ ٣١	المحيط الهندي
	مرثوس = عمريت		مخائيل الغزيري = الغزيري مخائيل
٤٣٧ ٤٣١-٤٣٠	مرج دابق، معركة ٤٣٠-٤٣١	٥٢٩	المختارة
٥١٤	مرجبا، مناجم	٥٨٤	مدحت باشا
٥٩٧	مرجعيون	٤٢٥	مدارس
٢٩٨-٣٠١ ٤٠٣	المردة — يتلقون	٥٦٠	المدرسة البطريركية في بيروت
٢٩٩	ضريبة من خليفة المسلمين	٥٦٨ ٥٦٣	
٥٦١	المرسلون الاميركان	٥٤٦	مدرسة لتدريب المعلمات في بيروت
٤٨٣ ٣٤٨ ٤١ ١١	مرسيليا	٥٦٠	مدرسة الثلاثة اقطار
٥٧٨	— راهبات القديس	٥٦٠	مدرسة الحكمة
٥٤٥	يوسف	٤٢٠	المدرسة الخاتونية
٣٦٠	المرقب	٥٤٦	مدرسة سوق الغرب
٣٠٢	مرقيانوس، وسع بناء دير مار مارون	٤٨٧	المدرسة الشرقية في روما
٤٩١	مرهج ابن نمرون	٥٦٠	المدرسة العثمانية
٣٢٥	مروان الثاني	٤٢٠	المدرسة القرطائية [في طرابلس]
١١٦	مريسة	٦١٧	مدرسة للعميان [في لبنان]
		٥٦٨	مدرسة عينطورة

مريم العذراء	٩	١٣				— وذوبان لبنان ٦٠٧ — في
المزامير ٤٢ ٤٥ ١٥٣ ١٥٥ ١٧٠						عهد عبد المجيد ٥٢٢ — في
مزيارة	٥٧٧					المقاطعات الدرزية ٥٢٥ — في
مسابكي [عائلة]	٥٣٣					عهد ابراهيم باشا ٥١٣ — في
المسألة الشرقية	٥٢٣ ٥٢٤					دمشق ٥١٣ — حالة اللاجئين
المستشارون الفرنسيون	٥٩٩					والهاربيين في حركة ١٨٦٠
المستشفى الالماني في بيروت	٥٤٦					ص ٥٣٥ — الثقافة الغربية ٥٥١
مستشفى القديس يوحنا في بيروت ٥٤٦						المسيحية (الدين) ٢٢٩ — دين الدولة
مستشفى الروم الارثوذكس	٥٦٤					الرسمي ٢٥٩ — ٢٦١
المستضيء	٣٦٤					المسليحة
مسجد برقوق	٤١٨					مسيليا = مرسيليا
مسجد الغوري	٤١٨					مسينا ٢٤٢ ٤٦٠ ٤٦١
مسجد قايتباي	٤١٨					— الاثر المسيحي في الخرف ١٢٤
مسجد المجيدية	٥١٦					المشتري = زفس
المسرحية في لبنان	٥٦٩					المشتري البعلبكي ٢٦٣ ٢٧٤
مسعد [عائلة]	٣١٢					المشتري الدمشقي ٢٦٣
المسعودي	٣٠٤ ٣٠٥					مشرقه = قطنة
— امة ابن عبد الملك بن مروان ٣٠٠						المشرق (مجلة) ٢٩٨ ٥٦٤
مساهوز ٩ ٢٨ ٥٥٦ ٥٦١						مشروع الليطاني ٦١٥ ٦١٦
٥٨٢ ٥٨٨ ٥٩٧ — نساك						المصالح المشتركة ٦٠٤
٢٨ — دراويش ١٣٠ — هجرة						مصب نهر الكلب ، كنيسة ٢٥٧
٥٧٨						مصيح هملن ٥٤٧
المسيح ٦ — تجلي ٢٢ — لغة ١١٠						مصر ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨
المسيح المنتظر ٥٢٠						٢٢٨ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٦٨
المسيحيون ٣٠٣ ٣٠٥ ٣١١						٢٩٣ ٣١٨ ٣٣٣ ٣٣٤
٤٢٢ — ٤٢٣ ٤٤٩ ٥٠١						٣٣٥ ٣٤٢ ٣٦٥ ٣٧٠
٥٢٦ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٨٨						٣٧١ ٣٧٤ ٣٧٩ ٤٠٠
النساك ٧ ٩ ٢٨ — آباء						٤٠٢ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤١٥
الكنيسة ١٥٦ — يفرض عليهم						٤١٨ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٤٥
٤١١ — مدارس ٤٢٢ — ٤٢٣						٤٥٢ ٤٦٣ ٤٦٦ ٤٧٩

الكتابة الرمزية ١:٩-١٥٠	٤٩٧ ٥٠٦ ٥١٣ ٥٦٨
— الافكار العلمية	٥٧٦ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٩٢
والدينية ١٥٣ — العبادة ١٥٦	٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٩ —
الآداب ١٧١ — فراعنة ١٧٢	اخضاع سوريا ١٠٤ — التعاويد
القوة ١٧٣	١٢٤ — عادات ١٢٥ — قصبة
مصرية — حثية معاهدة ١٠٦	مرضوخة ١٨١ — قوافل تجارية
المصريون — حربهم ضد اليونان ٥١٤ —	٢١٣ — صناعة الزجاج ٢١٥
تنظيماتهم في لبنان ٥٢٠ — ٥٢٤	— ورق البردي ٢١٦ — اضطهاد
مصطفى الاول ٤٦٦	المسيحيين ٢٥٧ — اعمدة من
مصطفى ارسلان ٥٥٧	المرمر ٢٦٨ — يملكها محمد بن
مصطفى كمال ٤٢٧ ٤٢٩ ٤٤٩	طنج الاخشيد ٣٣٤ — عاصمة
٥٢١ ٥٧٨ يلغي الطربوش	الفاطميين ٣٣٥ — دويلة ايوبية
٥٢١	٣٧٠ — فلاحو ٤٠٨ — المدارس
مصياف ٣٧١ ٣٧٥	٤١٨ — تفقد استقلالها ٤٣٢
مطار بيروت الدولي ٣٣٠ ٦١٣	— تزايد السكان ٥٧٥ ٦١٤
مطار القاهرة ٦ ٣	— القومية ٥٨٢ — جمعيات سرية
المطبعة الاميركية في بيروت ٥٠٨ ٥٥٥	وعلمية ٥٨٣ —
— في مالطة ٥٥٤ — نقلها الى	مصر السفلى ٢٠٦ ١٧٩ ٨٥
بيروت ٥٥٥	مصر العليا ٨ ١٤ ٨٥ ٣٢٥
مطبعة بولاق ٥٥٦	المصري ، ثورة ضد الحكم ٥١٤
مطبعة فانو [في ايطالية] ٥٥٦	المصرية ، نقوش ٣ — البضائع ٦ —
المطبعة الكاثوليكية ٥٥١ ٥٥٥	آلهة ٣٥ — مستعمرة في جبيل
مطران المواردنة في بيروت نفيه ٥٨٩	٨٧ — مستعمرة في اوغاريت
مظفر باشا الفساد ٥٤٢	٨٧ — السيادة ٨٨ — حلى ٨٨
معاد : كنيسة ٣٠٣	الجيش ٩٣ — [الجيش]
معاصر الشوف ٤٣	عامل مصري ١٠٠ — المتحف
المعاملتين مصحح ٥٤٦	٨٠ ١٠٥ — العائلة المصرية
معان ٢٩١	الاولى ٨٥ — العائلة المصرية
معاهدة سيفر ٥٩٣	الثانية ٨٦ — اصل الكتابة
	١٥٠ — نقود ٥١٣ —

القيسي ٤٥٤ - دروز ٤٦٥ -	معاوية [بن ابي سفيان] ٥ ١٩٢
ممتلكات ٤٦٩ - انقراضهم ٤٦٩	٢٩١ ٢٩٣ ٢٩٤ - ٢٩٥
معهد اللاهوت اليسوعي ، نواة جامعة	٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠
القديس يوسف في بيروت ٥٤٥	٣٠٣ ٣١٢ ٤٤٧ -
مغارة ابلون [ابلو] ٢٠٤ - ٢٠٥	مؤسس الدولة الاموية في دمشق
مغارة جعيتا ١٧ ٣٥	٢٩١ ٢٩٤ - يرحل بعض
مغارة الوادي ٧٤	السكان عن السواحل ٢٩٥ -
المغرب ٣٤٠	عامل على سورية ٢٩٤ - ٢٩٥
المغول ٢٦٧ ٣٣٢ ٣٧٢ ٣٧٣	قبّل ان يكون خليفة ٢٩٥ -
٣٧٥ ٣٩٨ ٢٩٦ ٤١٦	الاسطول العربي ومعاوية ٢٩٥
يحتاجون بغداد ٣٣٢ - غزوتهم	- خلافة مع علي بن ابي طالب
٣٧٣ - غزوة اخيرة ٤١٦	٢٩٩ - يدفع جزية للروم ٢٩٩
مغنيزيا [في آسية الصغرى] ١٣٤	- حكم ٣١٢ مقاومة الشيعة له
مقاطعة الغرب ٤٠٦ ٤٥٢ - لآل	٣١٢
تلحوق ٤٥٢	معجم المطبوعات العربية والمصرية
المقاطعية ٤٥٢	[لنجيب اليان سركيس] ٥٥٩
المقاطعية الدروز ٥٠١	معرة النعمان ٣٠٤ ٣٤٥
مقامات مجمع البحرين ٥٦٣	المعري (ابو العلاء) ٣٤٥ ٣٥٣
المقتطف [مجلة] ٥٦٧ ٥٦٨ - ظهرت	المعز (الفاطمي) ٣٣٥
في بيروت ٥٦٧ - انتقلت الى	معلولا ٢١
القاهرة ٥٦٧ - احتجبت ٥٦٧	معن الايوبي [الامير] ٤٥٠
المقتنى بهاء الدين ٣١٨ ٣١٩ -	معن = المعنيون
رسائله الى الاتباع ٣١٨	المعنيون ٣٢٠ ٤٠٤ ٤٣٧ ٤٣٨
المقدسي ٣٣٨ ٣٣٩	٤٣٩ - ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٣
المقدمون ٤٠٣ ٤٠٨	٤٥٤ ٤٥٩ ٤٦٥ ٤٦٨
مقدمو البقاع ٤٠٨	٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧٣ ٤٧٥
المقدوني = اسكندر المقدوني	٤٧٦ ٤٨٢ ٥٣٧ ٥٩٧
مقدونية . جاليات ٢٠١ الحكم ٢٠١	في الشوف ٤٠٤ -
المقرزي ٤٠٢	يعتقون المذهب الدرزي
المقطم ٥٦٧ - احتجبت ٥٦١	٤٣٨ - ٤٣٩ - رأس الحزب

١٦٣ ٦٤	ملوك	٢١٦ ٢٠٧	المكابين ، ثورة
٤٢ ٣٩	الملول	٥٨٩	مكة
٣٧٤ ٣٧٢ ٣٦٣ ٣٥٧	الماليك	٤٩٢	مكتبة الاسكوريال
٣٩٩ ٣٩٧ ٣٩٥ ٣٧٦		٤٩٢	المكتبة الشرقية (السمعاني)
٤٠٦ ٤٠٤ ٤٠٣ ٤٠٠		٥٥٧ ٤٩٢	مكتبة الفاتيكان
٤١٩ ٤١٧ ٤٠٩ ٤٠٧		٥٥٧	مكتبة محمد امين ارسلان
٤٢٩ ٤٢٦ ٤٢٣ ٤٢٠		٥٥٧	المكتبة الوطنية في فرنسا
٤٣٩ ٤٣٧ ٤٣٢ ٤٣١		٥٧٧	مكسيكو
٤٤٠ ٤٧٩ — يخلفون		٢٤٧	مكسيموس
الايوبون ٣٧٢ — سياسة ٣٩٧		٢٧٩ ٢٥٨ ٢٥٦ ٢٣٧	مكسيميان
— تقسيم ممتلكات ٤٠٠ —		مضطهد المسيحيين ٢٥٨	
سكان لبنان ٤٠٣ — الادارة		٥٦٩	ملتون
٤٠٩ — عهدهم الثقافي ٤١٧		٤٧٤ ٤٧٣	ملحم (ابن الامير حيدر)
— نظام المدارس ٤٢٠ —		٤٧٥ ٤٧٦ — يسترد البقاع	
علاقتهم مع العثمانيين ٤٢٩ —		٤٧٤ — في بعلبك ٤٧٤-٤٧٥	
قتلهم جميعاً ٤٣٢		٤٦٩	ملحم (ابن بن يونس)
٣٧٢	الماليك البحرية	٤٨٦ ٤٨٥	ملحم المغني (الامير)
٤١٨ ٣٧٢	الماليك البرجية	٢٤٢ — نقش ٢٤٢	ملقا (Malaga)
١٨٦ ٧٩ ١٣٧	مفيس	١٣٢ ١٢١ ١٢٠	ملقارت (هرتل)
المملكة الجديدة = الامبراطورية المصرية		١٦٣ ١٦١ ١٤٣ ١٣٧	
٣٤٨ ٣٤٤	مملكة القدس اللاتينية	١٩٩ ٢١٩ ٢٦١ — معبد	
٣٦٦ ٣٦٥ ٣٦٣ ٣٥٠		في صور ١٢٨ ١٩٩ — هيكل	
١	جيش في القدس ٣٦٣	في كنوبس ١٦١ — آلهة ٢٦١	
٩٠ ٨٨	المملكة المتوسطة	٢٧٠	الملك الصالح اسماعيل الايوبي
٩٦	المملكة المصرية الجديدة ٩٢ — سقوط ٩٦	٣٧٥ ٣٧٤ ٣٧٣ ٣٧٢	
٨٦	المملكة (المصرية) القديمة	١٦٣	الملكة
١٧٧	مملكة يهوذا	٣١١-٣١٠ — يقبلون مقررات	الملكيون ٣١٠-٣١١
منارة الاسكندرية = فاروس		المجمع الخلقيدوني ٣١٠ —	
١٣٤	منبج	منطقتهم الرئيسية في لبنان ٣١١	
٢٤٢	منزكرت ، (معركة)	٣١٦	الملوخية

الجزية للامويين ١٠ - نساك
 ١٧ - البطريكية ١٧ -
 دراسة ٧٥ - الدروز
 والموارنة ٢٩٧ - يحتكمون الى
 معاوية بن ابي سفيان ٣٠٣ -
 يعترفون بسلطة البابا ٣٠٧ -
 يهاجرون الى قبرص ٣٠٧ -
 يسترعون انتباه أوربة ٣٠٧ -
 تمام اتحادهم بالكنيسة الكاثوليكية
 ٤٩٤ - عددهم ٣٠٨ - فرع
 ٣٠٨ - قبل الدروز في لبنان
 ٣١٤ - في الولايات المتحدة
 الاميركية ٣١٤ - وفرنسة
 والبابا ٣٩١ - شمالي لبنان ٤٠٣
 - نيابة طرابلس ٤١٠ -
 فلسطين ٤٢٣ - اساقفة الموارنة
 في السجون ٤٢٣ - يتكلمون
 السريانية ٤٢٣ - يهجرون
 طرابلس ٤٥١ - جنود ٤٥٨
 - بطرك ٤٨٣ - في جيش
 ابراهيم باشا ٥١٤ - عددهم
 سنة ١٩١٣ ص ٥٩٧

٢٨٨ مؤنة
 ٥٨٣ المؤتمر العربي الاول في باريس
 ١٥٥ موت
 ١٠٩ ١٠٦ مَوْتَالش
 ٥٩٢ مودروس
 ٣٨ ٣٧ ٣٥ ١٤ الموز
 ٥٩١ مؤسسة الغوث الاميركية
 ٥٥ المسترية - اللافوازية

منصور (الامير ابن فخر الدين المعني)

٤٥١ ٤٦٦ ٤٧٥ ٤٧٦
 ٤٧٧ - تنازل ٤٧٧

منصور بن سرجون ٣١٣

المنصور (ابو جعفر) ٣٢٦ ٣٢٧ -
 مؤسس بغداد ٣٢٦

المنطرة ، سيدة ٢٥٤

منطقة الغرب (في لبنان) ٥٢٧

منشو المصري ٣٨٢

المنيطرة ٣٢٧

منبولس ٢٠٦

المهاجرون اللبنانيون النصارى نقلوا
 الطباعة العربية ٥٥٧

المهاجرون اللبنانيون - فضلهم على

اقطار الشرق العربي ٥٧٠ -

عودتهم ٥٧٧ - عددهم في

الولايات المتحدة ٥٧٧ - في

البرازيل ٥٧٧

المهدي [الخليفة العباسي] ٣٠٤

المهدية ٣٣٥

مؤاب ١٨١

الموارنة ٣ ٩ ٢٩٧ ٣٠٣

٣٠٧ ٣٠٨ ٣١٤ ٣١٥

٣٤٢ ٣٤٢ ٣٩١ ٣٩٢

٣٩٣ ٣٩٩ ٤٠٣ ٤١٠

٤٢٣ ٤٥١ ٤٥٥ ٤٥٨

٤٧٢ ٤٧٧ ٤٨٣ ٤٩٤

٤٩٥ ٥١٥ ٥٢٣ ٥٢٧

٥٢٩ ٥٤٧ - رفضوا دفع

نقولا الترك ٥٨٢ - في مصر ٥٨٢	في بيروت ٥٦٢ - لم يعتنق
نقولا المسابكي ٥٥٦	البروتستانتية ٥٦٢
نكد (بيت) ٥٢٦ - لقب بك ٥١٣	نبتون = بوسيدون
- يحرقون دير القمر ٥٢٧	نبع الصفا ٣٥ ٥٠٩
النمسا ٤٤٧ ٥١٢ ٥٣٣ ٥٣٤	نبع مار سركيس ١٧
٥٣٦	نبوخذ نصر البابلي ٣ ١٨٠ ١٨١
نهر ابو علي ١٧ ٥٤ ٣٣٨ ٣٥٢	- قصر ٢٠٠
٤١١	نحو [فرعون مصر] ١٣٧ ١٨٠
نهر ابراهيم ١٧ ١٥٨ - مغارة	النساطرة ٤٢٣
٥٣ ١٧	نسطور ٢٩٠ ٣٠٨ - هو والكنيسة
نهر الاردن ٣٦٠ ٣٦٣	الشرقية ٣٠٩
نهر الاندلس ١٨٥	النشرة الاسبوعية [مجلة] ٥٦٤ ٥٦٥
نهر الاولي ٣٥ ١١٩ - جسر ٤٥٦	النصارى في لبنان ، والقومية اللبنانية ٥٨٤
نهر بردى ٢١	النصارى = المسيحيون
نهر البليخ ٣٣٨	النصرانية ، المرأة وحجابها ٥١٨
نهر بيروت ٣٤ ٣٥ ٣٩٨ ٤٥٦	نصري فرنكو باشا = فرنكو باشا
جسر ٤٥٦	نصيبين ١٣٧
نهر التبر ٢٤١	النصيرية ١٦ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٤٢
نهر الجوز ٥٤	٣٩٧ ٣٩٨ ٤٠٩ - جبال
نهر جيحون ٤٢٧	١٦ ٢٦ - وطنها في لبنان
نهر الجيرون ٢٤٢	٣٢٢ - فرقة من الاسماعيلية
نهر الدامور ٣٥ ٥٠٣ ٥٠٨	٣٢٢ - اقدم ذكر لها ٣٢٢ -
نهر الدينير ٤٤٥	هم من الباطنية ٣٢٢
نهر الرون ، وادي ٢٤٢	النطوفية = وادي النطوف
نهر الرين ٢٢٩ ٢٤٣	نعوم باشا ٥٤٢
نهر الزاب موقعة ٣٢٥-٣٢٦	نفاع (عائلة) ٣٩٤
نهر السند ٣٠١	نفير سوزية (لبطرس البستاني) ٥٦٢
نهر سيحون ٢٠٠	النقطة الرابعة ٦١٥
نهر العاصي ١٩ ٣٠٢ ٣٤٥ ٣٦١	نقفور فوكس ٣٣٦
نهر قاديشا = قاديشا	نقمد ١٥٤

نهر القاسمية ١٦ ١٩ ٦١٥ - جسور ٢٥٦	نيارخوس [امير البحر عند الاسكندر المقدوني] ٨٣
النهر الكبير ١٦ ٨٨ ٢٢٨	نيازي ، ثورته ضد عبد الحميد ٥٨٤
نهر الكلب ٣ ١٣ ٥٤ ٤٥٥	نيحا ، نقش ٢٣٣
٤٥٦ ٤٩٣ ٥٠٨ - نقوش	نيغر ٢٧١
٣ - ٤ ١٠٦ ٥٩٢ - مصب	النيقاوي ، الايمان ٢٥٦
٣ ١٣ ٦٦ - منبع ٥٤ -	نيقوسيا ٣٩٣
نقشان كلدانيان عند مصب ١٨٢	نيقيا ٣٤٤ - مجمع كنسي ٢٥٦
- جسور ٤٥٦ - نقش افرنسي	النيل = نهر النيل
لحمة سنة ١٨٦١ ص ٥٣٦ -	نينوى ، جسر من الارز ٤٦ - حفريات ٤٦ - خراب ١٨٠ - موقع ٢٠٠
نقش لبناني عصري ٦٠٥	نيوزيلندا ٥٧٧
نهر الكنج ٣٧٩	نيويورك ١١ ٢٦ ٥٧٧ ٥٧٨
نهر كوش ١٨٥	٥٨٠ - الجرائد العربية ٥٩١
نهر الليطاني ١٨ ١٩ ٣٤ ٣٥٨ -	٥٦٦ - الجالية اللبنانية ٥٨٣
مشروع ٦١٥ ٦١٦	- جمعيات سرية وعلنية ٥٨٦
نهر النيل ١٤ ٣٧٢ - فيضان ٢٩ -	
وادي ١٤٩ - دلتاه والطريق	
الدولية ٨٦	
نهر هاليس = قزل ارمق	
النوبة ٣٦٥	٨
نوح ، حمامة ٤١	هارون الرشيد [مسرحة لمارون النقاش] ٥٦٩
نور الدين بن محمود [ابن زنكي] ٣٦٣	هرون الرشيد ٣١٣ ٣٢٦ ٣٤٠
٣٦٤ ٣٦٥ ٤٢١ - استولى	هيو ١١٨ ١٤٠ ٢٣٥
على دمشق ٣٦٣ - وفاة ٣٦٥	الهجرة اللبنانية ٥٧٧
النورمان ٣٤٣	هدد ١٦١ - كتابات ٢٤١
نوزي [حفريات] ١٣١	هدد بعلبك ، الهة ٢٦١
نوكراتس ١٦٠	هدد رمون ٢٥٣
نيابات [جمع نيابة] ٤٠٠	هدد ، المشتري ٢٦٨ ٢٦٧
نيابة دمشق ٤٠٦	

١٨٥	هندو - ايرانية ، الحضارة	٢٣٧	هديرانوس
٥٩٩	هنري دي جوفينان	٢٩١ ٣٠٢ ٣٠٥ - في دير	هرقل
٤٢٧	هنود اميركا ، دين	مار مارون ٣٠٢ - مدافع عن	
٢٥٠	هوراس	اصحاب الطبيعة الواحدة ٣٠٢	
٥٩٣	هورد بلس ، اقتراح	- في حصص ٢٩١	
٣٧٣ ٣٢٦ ٢٦٧	هولاغو	٦١٥ ٢٦٩	الهرمل
١٢٤ ١١٨ - اشعار	هوميروس	٥٢٠-٥١٩	هستر ستانوب
١١٨ - عهد ٢٤١		٢٩٦	هشام [ابن عبد الملك]
١٧٠	هيدرا هرقل	٤٦ - سيادة ٩٠ - ٩٢ -	الهكسوس
٢٧٢	هيرودس	يعرفون الحصان ٩١	
٢٢٨	هيرودس الادومي	٦٠٧ ٥٦٨ ٥٦٦ [مجلد]	الهلل
٣٤٠	هيرودس اغريبا	١٦٥ ٨١ ٧٦	الهلل الخصب
١٤٦ ١٤٠ ١٢٨ ١٣٠ ١٢	هيرودوتس	٢٩٠ ٢٩٧ - قبائل عربية	
٥٩٦	هينغو	في اطرافه ٢٩٠	
٢٧٠ ٢٦٧	هيكل اتركاتس	٢٢٤	هليكارنسوس
	هيكل باخوس = هيكل اتركاتس	٢١٣ ٢١٢ ٢٠٦ ٢٠٢	هلينية
	هيكل سليمان = سليمان هيكل	٢٣٥ ٢١٩ ٢١٧	
٢٦٧	هيكل المشتري	٢١٦	هلينية الفينيقيين
٣٧٤	الهيكليون	١٩٢ - واطلب اليونانيون	الهليون
	هيلانة (ام قسطنطين) ، عثرت على	همدان = اكبتانا	
	خشب الصليب ٢٥٩	هملقار برقة	
١٣٤ ١٣٣	هيلانة الطروادية	١٤٢	
	هيليوبوليس ، لفظة ٢٦٢ - كتابتها	٢٣٨ ٢١٣ ٢١٢ ٢٠٠	الهند
	على النقود ٢٦٦	٣٧٣ ٣١٨ ٣٠٩ ٢٣٥	
	هيليوبوليس = بعلبك	٤٨١ ٤٢٦ ٤٢٥ ٤١٥	
		٥٤٢ ٥٤٩ - الافاويه	
		والعطور ١١٧ - طريق ٤٢٥ -	
		٤٢٦ - بعثات تبشيرية ٣٠٩	
		الهندو - اوروبي (الشعب) ، خدماته	
		الحضارية ١١٣ - العرق ٢٩٠	
		هندو - اوربية (قبائل) ٩١ ٩٦	
١٨٢	وادي بريسا		

٦١٥ - الموارنة ٣١٤	٤٥٠ ٤٠٤ ٣١٧	وادي التيم
ولاية حلب ٤٤٠ ، واطلب حلب	٥٣٧ ٥٠٣ ٤٦٦ ٤٥٤	
ولاية طرابلس ٤٤٠ - واطلب طرابلس		- الشهابيون ٤٠٤
الوليد الثاني ٢٩٦	٦١١ ٥١٠	وادي حمانا
الوليد بن عبد الملك ، يستولي على مقر		وادي الرافدين ١٤٩ - منطلق الافكار
الجراجمة ٣٠٠		العلمية والدينية ١٥٣ ، واطلب
وليم بت ٥١٩		العراق القديم ، ما بين النهرين
وليم الصوري ٣٨١ ٣٧٩ ٣٠٥	٣٧٣	وادي السند
٣٨٧ ٣٨٩ ٣٩٠	٣٤٦ ٣٠٤ ٣٠٢	وادي العاصي
وليم الطرابلسي ٣٩٥ ٣٩٠	٣٠٤	جالية مارونية
ون - امون ١٠٨ ١٠٧	٢٩١ ١٩	وادي العربية
الوهايون ٥٠٤		وادي قاديشا = قاديشا - مقر البطركية
ويغان [الجنرال] ٦٠١	٣٠٤ - واطلب قاديشا ، وادي	
		الوادي المقدس = قاديشا
	٧٤ ٦٤ ٦٢ ٦٠	وادي النطوف
	٦١ ٤١ ١٠ ٥	وادي النيل
	٥٧٦ ٧٩	
	٤٨	الورور
اليابان ٦٠٥	٦١٦ ٦٠٨	واشنطن
ياسين بك ٤٧٥		واصه باشا ، سكة الحديد في عهده ٥٤٢
يافا ٣٧٠ ٣٦٩ ٣٢٥ ٢٠٤ ١٢٨		وحيد الدين = محمد السادس
٣٧١ ٣٧٤ ٣٩٧ ٤٨٣ -	٥٩٣	ودرو ولسن
بايدي الافرنج ٣٧٠		وزارة الشؤون الاجتماعية في لبنان ٦١٧
ياكين - ايل ١٧٨	٥٨٥	وزير المناجم
يب - شمو - اب ٩٠	٥٦٥	الوقائع المصرية
يتوس ٤٠٦	٥٤٠	الوقف الدرزي
يحيى ابو صالح ٤٠٧		الولايات العربية ، سلخها عن تركيا
اليرموك - معركة ٢٥٢	٥٨٦	
يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ٢٩١	٣٩ ٤	الولايات المتحدة الاميركية
٢٩٣ ٢٩٤ ٣١٣	٦٠٨ ٦٠٤ ٥٩٠ ٥٤٧	

ي

١٣٤ - يفرض عليهم ٤١١ -	اليسوعيون ٣٩٥ ٤٨٢ ٤٨٦ ٥٣٥
دولة ٦٠٨ ٦٠٩	٥٥١ ٥٦٣ ٥٦٦ - اتساع
اليهودية [نسبة] ٨٢ - صناع ١٢٦	اعمالهم ٤٨٦ - مدارس ٥٤٥
- الشعر ١٥٥ - طقوس	يشوع بن نون ٥٣٢
وفرائض ١٦٩ - انبياء ١٦٩	اليعاقبة ٣٠٢ ٣٠٣ ٣١٠ ٣١٣
اليهودية ١٨١ - عاصمة ١٧٨	٣٨٥ ٣٩٢ ٤٠٣ ٤٢٣
اليهودية [دين] اعتناق ٢١٦	٤٩٤ - خلافهم مع اتباع
يهورام ١٢١	القديس مارون ٣٠٢ -
يهوه ١٥٦ ١٦٩ ١٧٠	يستعملون اللغة السريانية ٣٠٢
يوتيكا ١٢٠ ١٣٣ ١٣٩	- قتل من كان يتوطن وادي
يوجين اللاهوتي ٢٥٨	العاصي من رهبان مارون ٣٠٢
يوجينيوس الرابع [البابا] ٤٠٣	- يحتكمون الى معاوية ٣٠٣ -
يوحنا [الطالب المصري] ٢٨٢	في انطاكية ٣٩٢
يوحنا الدمشقي ٣١٣	اليعاقبة السريان ٤١١
يوحنا زيماس ٣٣٦	يعقوب [القديس] ٣٠٧ ٣٠٨
يوحنا فوكاس ٣٨٧	يعقوب ابن ايوب [الشماس] ٤٠٤
يوحنا كريسوصطم ٣٠٢ ٣١١	يعقوب البردعي = البردعي
يوحنا مارون ٣٠٣-٣٠٤	يعقوب صروف ٥٦٧
يوسبيوس ٢٤٦ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٦٠	يلباي ٤١٨
٣٨١ - مطران قيسارية	يمبليخوس ٢٤٩
يوستنيانوس او ٢٦٨ ٢٧٧ ٢٧٨	اليمن ٢٣٣ ٣٣٦ ٣٦٥ ٣٧٠
يوستنيان ٢٨١ - تشريع ١١	٦٠٩ - دويلة ايوية ٣٧٠
يوستنيانوس الثاني ٢٩٩ ٣٠٤ ٣١٠	اليمينيون ٤٦٦ ٤٦٨
يوسف (بن يعقوب) ٩٢	يني [عائلة] ٥١٧
يوسف بن سيف [الامير] ٤٥١ ٤٥٢	اليهود ٦ ١٠٨ ١١٠ ١١٣ ٢٠٩
٤٥٤ ٤٦٢ ٤٧٦ ٤٧٧	٣٩٧ ٤١١ ٤٤٩ ٦٠٨ -
٤٧٩ - وصي ٤٧٦ - اول	حاضرة ٦ - في مصر ٩٢ -
امير مسيحي ٤٧٧	انقسام مملكة ١٧٨ - اعياد
	وطقوس ١٦٧ - رئيس كنهة

- يوسف الاسير ٥٦١ - ٥٦٣
يوسف اليان سر كيس ٥٥٩
يوسف الدبس ٥٠٧ - مؤسس مدرسة الحكمة ٥٦٠
يوسف سمعان ، السمعاني = السمعاني -
يوسف سمعان
يوسف الشهابي [الامير] ٤٨٠ ٤٨١
٤٨٦ ٥٠٠ ٥٠٢ ٥٠٣
٥٠٧ - شفق ٤٨١
يوسف فرنكو باشا ٥٤٤
يوسف بك كرم ٥٣١ ٥٣٥ - رسالته الى القاتيكان وباريس ٥٣٨ -
تخلي عنه الاكليروس ٥٣٩ -
وفاته ٥٣٩
يوسيفوس ٢٧٣
يوليان ٢٦١
يوليوس قيصر ٢٢٨
اليونان ٢١٥ ٣٤٠ ٥١١ ٥١٤ -
شجر الزيتون ١٤٥ - نباتات ١٤٥
اليوناني (او يونانية) ، نقوش ٣ -
الفن ١٢٦ - مستعمره ١٤١ -
نقود ١٤١ - نظام استعماري ١٤٦ - صناعة الخزف ١٩٢
- التجارة ١٩٢ - جاليات
تجارية ١٩٢ ٢١٧ ٢١٨ -
تجار ١٩٢ ٢٠١ - مدن في
آسية الصغرى ١٩٥ - البضائع
٢٠١ - تيارات حضارية ٢٠١
- الصناع ٢٠١ - ارباب
الاعمال ٢٠١ - اللغة ٢٠١
٢١٨ - المدن ٢١٠ - بلاد
٢١٧ - الاعياد ٢١٨ -
الحضارة ٢١٧ ٢١٨ -
الادب ٢١٨ - النظرة (في
الفلسفة) ٢٢٢
يونانية - سامية ، الحضارتان ٢١٧
يونانية - فارسية ، حروب ١٨٨
يونانية - فينيقية ، نقوش مزدوجة اللغة
١٥٣ - التجارة ١٨٩ ٢٠١
- الادباء والشعراء ٢٢٣
اليونانيون ٦ ٢٠٦ ٢١٧ ٢١٩ -
تلاميذ للفنيين ١٤٩
يونس (الامير ابن الامير قرقاز)
٤٥٨ ٤٥٣
يونس الجبيلي ٥٥٦
يونغ ٣١٤

فهرس الخرائط

صفحة

١٥	لبنان وجواره خارطة طوبوغرافية
٢٥	خارطة جيولوجية للبنان وسورية وسيناء
٥٦	لبنان والأقطار المجاورة - المواقع الأثرية
١٠١	فينيقية في عهد رسائل تل العمارنة
٢١٤	لبنان وسورية - طرق التجارة والمواصلات الدولية
٢٣٠	لبنان وسورية في العهد البيزنطي
٢٤٤	الأمبراطورية الرومانية في ذروة اتساعها
٢٨٩	الفتح الإسلامي لسورية ولبنان
٣٠٦	لبنان الشمالي
٣٢١	لبنان الجنوبي
٣٥٤	الدول الصليبية في سورية ولبنان
٤٠١	لبنان في عهد المماليك
٤٠٥	الغرب في عهد البحريين
٤٧١	لبنان في عهد المعنيين والشهابيين
٥٤٣	سورية ولبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

محتويات الكتاب

القسم الاول

عصر ما قبل التاريخ

الصفحة	
٣	الفصل الاول الطابع المميز : الجغرافي والتاريخي والحضاري . . .
١٣	الفصل الثاني الجبل والسهل
	السهل الساحلي اللبناني - لبنان الحقيقي - المضائق والودية - البقاع - لبنان الشرقي - تركيب الطبقات الصخرية - العصور الجيولوجية - لبنان ملجأ امين .
٢٩	الفصل الثالث المناخ والنبات والحيوان
	الرياح والامطار - الحرارة - التآكل والسواقي - النبات - موطن الزهر - شجرة الزيتون - الارز سيد الغابات في لبنان - حيوانات لبنان - الموارد الطبيعية .
٥١	الفصل الرابع قبل التاريخ المدوّن
	العصر الحجري الاول - بقايا اقدم الهياكل العظمية - اسلوب عيش الانسان الحجري - اكتشافان جليلا القدر : النار واللغة - العصر الحجري المتوسط والحديث - تأنيس الحيوان والنبات - الحياة المستقرة - الحياة الراقية - الخزف .
٦٩	الفصل الخامس عصر المعادن
	العصر النحاسي الحجري - الحضارة الفسولية - علاقات شعوب الشرق الادنى العرقية .

القسم الثاني

العصور السامية القديمة

الصفحة

الفصل السادس الكنعانيون : اول شعب كبير توطن لبنان . . . ٧٩

قبيل انبلاج الفجر - بلاد كنعان - المدن الدول - علاقات لبنان مع مصر - السيادة المصرية - قصة سنوحي - سيادة دولة الرعاة على مصر (الهكسوس) - ضم لبنان الى الامبراطورية المصرية - المثنون في سورية - الحثيون : قوة عالمية - فوضى دولية - الخداع الدبلوماسي - مأساة رب ادي - الحل النهائي - مصر تفقد سيطرتها .

الفصل السابع فترة الاستقلال : التجارة والفنون والمستعمرات . ١١٠

الآراميون - الفلسطينيون - العبرانيون - العصر الذهبي : الاستقلال التام الناجز - العزلة السياسية - الطرق البحرية والبرية - صيدا وصور - الاقتصاد : الزراعة - الصنائع والفنون - فن العمارة - الموسيقى - الصناعة في فينيقية : الزجاج - النسيج - الارجوان - الملاحة - السفر بحراً حول القارة الافريقية - المستعمرات - في شبه جزيرة ايبيريا - الفينيقيون في بلاد الاغريق - قرطجنة .

الفصل الثامن الادب والدين ونواح حضارية اخرى . . . ١٤٩

حروف الهجاء - الادب - اوغاريت - تأليه الخصب وعبادته - تموز وعشروت - آلهة كنعان - هياكل كنعان - هياكل الفينيقيين - الاصنام - المرتفعات - الحياة بعد الموت - اثر الكنعانيين في الحضارة العبرية القديمة .

الفصل التاسع لبنان في العهد الاشوري البابلي . . . ١٧٢

علاقات لبنان مع بابل في العصور القديمة - الاشوريون - مقاومة صور الرائعة - صيدا وصور تستسلمان - الكلدانيون ورثاء اشور - الاشعاع الحضاري .

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل العاشر . لبنان إيالة فارسية ١٨٥

صيدا عاصمة الايالة السورية - اتحاد المدن الفينيقية ومحاولتهم
التحرر ونيل الاستقلال - النواحي الثقافية .

القسم الثالث

العصر الاغريقي - الروماني

الفصل الحادي عشر الاسكندر المقدوني وخلفاؤه : السلوقيون ١٩٥

هزيمة الفرس في معركة ايسوس - المدن الفينيقية تفتح ابوابها -
خراب صور - نهاية الامبراطورية الفارسية - الشرق والغرب
يلتقيان - بين حجري الرحي - تزعم صيدا مرة اخرى - تحت
الحكم السلوقي - فترة الاستقلال الذاتي - انتفاضة الاسرة السلوقية
الاخيرة - بومي - ملف تيرانس ملك ارمينية .

الفصل الثاني عشر الحضارة الهلينية : النواحي الاقتصادية والثقافية ٢١٢

التجارة - الزراعة والصناعة - النشاط الاستعماري - انتشار
الحضارة - فلاسفة وشعراء - زينون مؤسس المدرسة الرواقية .

الفصل الثالث عشر في ظل الحكم الروماني ٢٢٧

لبنان مقاطعة في ولاية - لبنان على عتبة عصر جديد - الانتاج
الاقتصادي - العلاقات التجارية والمستعمرات .

الفصل الرابع عشر نواحي فكرية ٢٤٦

البلاغة والبلغاء - ما قدمه الفينيقيون الى الافلاطونية المستحدثة -
الآداب اللاتينية - اللغة السريانية .

الفصل الخامس عشر تنصّر لبنان ٢٥٢

صور المركز المسيحي الاول - انتشار المسيحية شمل
واضطهادها - المسيحية دين للدولة الرسمي

الصفحة

الفصل السادس عشر بعلبك مركز ديني وبيروت مركز ثقافي . ٢٦٢

مستعمرتان رومانيتان - هياكل بعلبك العظيمة - بيروت مستعمرة
رومانية - بيروت مركز معهد الحقوق - حياة الطلاب .

القسم الرابع

العصر العربي

الفصل السابع عشر في ظل الاسلام ٢٨٧

الحملة العسكرية - مؤتمر الجاية - مراكز الاجناد والتقسيم
المسكري .

الفصل الثامن عشر الموارد والدروز وطوائف اخرى ٢٩٧

بقايا آرامية - المردة - القديس مارون - يوحنا مارون -
انتشار المارونية - الكنيسة السريانية الشرقية - الكنيسة
السريانية الغربية - الملكيون - جزيرة مسيحية في بحر اسلامي -
الدروز - انتشار الدرزية - النصيرية - المناولة .

الفصل التاسع عشر لبنان في عهد الخلافة العباسية والدويلات التي تلتها ٣٢٤

العباسيون - يحمون الامويين - موقعة الزاب الحاسمة - الثورة في
لبنان - الامام الاوزاعي - قسطا بن لوقا - انحلال الخلافة
العباسية - الاسرة الطولونية - الدولة الاحشيدية - الفاطميون
هجمات الروم - السلاجقة الاتراك - بلد النساك والاثمار الشهية .

الفصل العشرون الشرق والغرب يلتقيان ٣٤٢

الصليبيون - نداء البابا - الانتصارات الاولى - في طريقهم الى
بيت المقدس - وصول تنجو - القدس عاصمة المملكة اللاتينية -
احتلال الموالي اللبنانية - بنو عمار في طرابلس - الحصون -
قنعة الشقيف - ردة الفعل الاسلامية : زنكي - صلاح الدين -
معركة عكة - خلع صلاح الدين - المماليك يخلفون الايوبيين -
غزوة المغول - بيرس بطل مقاومة الصليبيين - قلاوون -
استرداد عكة .

الفصل الحادي والعشرون

العلاقات الاجتماعية والثقافية الاقتصادية بين اللبنانيين والافرنج ٣٧٨

ما تعلمه الافرنج من الشرق - اثر الحروب الصليبية في الشرق :
فن المارة - الاقتصاد - التفاعل الثقافي والاجتماعي - اللغة والدين -
الموارنة وفرنسة البابا - الحركة التبشيرية - الممالك ينتقمون .

الفصل الثاني والعشرون الحياة في القرن الرابع والخامس عشر ٤٠٠

تقسيم لبنان - بنو بختر في الغرب - الاقطاعية في لبنان - طرابلس
عاصمة نيابة - الزراعة - الصناعة والتجارة - غزوة المغول
الاخيرة - النواحي الثقافية - المدارس - مدارس النصارى -
المحصل الفكري .

الفصل الثالث والعشرون قبيل ظهور العثمانيين ٤٢٥

طريق الهند البحرية - مقدم العثمانيين الاتراك - الصراع مع الدولة
الفارسية - موقعة مرج دابق الحاسمة - القضاء على حكم الممالك
- قضية الخلافة .

القسم الخامس

تحت حكم الاتراك العثمانيين

الفصل الرابع والعشرون لبنان في العهد التركي ٤٣٧

الادارة العثمانية - الرعاية والملة - الامتيازات الاجنبية - الدولة
العثمانية في ذروة عظمتها - عوامل الضعف الداخلية والخارجية
- الحضارة التركية .

الفصل الخامس والعشرون امراء الجبل ٤٥٠

المعنيون - آل عساف وسيفا - الاتراك يفزون لبنان - فخر
الدين الثاني امير الامراء في لبنان - في ايطاليا .

الفصل السادس والعشرون امراء الجبل ٤٦٨

الشهابيون - الشهابيون يتولون الامارة - احداث ترتيبات

محتويات الكتاب

الصفحة

جديدة بين الامراء الاقطاعيين — الشهابيون — يوطدون اركان
لبنان الكبير — ظاهر العمر — احمد باشا الجزار .

٤٨٢ الفصل السابع والعشرون العلاقات الخارجية والداخلية

التجارة الخارجية — عائلة لبنانية تتقلد مناصب قنصلية افرنسية
— الطلاب الموارنة في روما — السمعاني — المجمع الكنسي اللبناني
الذي انعقد في سيدة اللويزة — جنوب لبنان — نظام المجتمع
الديني والاجتماعي عند الدروز — المتأولة .

٥٠٠ الفصل الثامن والعشرون القرن التاسع عشر : قرن تغير وتحول . . .

الامير بشير البنا الثاني للبنان الكبير — ابراهيم باشا في سورية —
بيروت تزعم المدن اللبنانية — المقيمون البريطانيون الاول .

٥٢٥ الفصل التاسع والعشرون فترة الحروب الاهلية : ١٨٤٠ — ١٨٦٠ .

نشوب الفتنة الاولى — حلول خلقت من المشاكل اكثر مما حلت —
سنة شؤم في تاريخ لبنان — التهذئة — اعادة تنظيم الحكم .

٥٣٧ الفصل الثلاثون متصرفية جبل لبنان

سبع متصرفين — نواح مشرق

٥٤٩ الفصل الحادي والثلاثون وقع مدينة الغرب على لبنان والبقظة العصرية .

المؤسسات التربوية الكاثوليكية والبروتستانتية — المطبعة —
المكتبات العامة ودور بيع الكتب — نظيمة من الادباء والعلماء —
الجرائد والمجلات — المسرحية .

٥٧١ الفصل الثاني والثلاثون التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

التغيرات التي طرأت على الاقتصاد اللبناني — توتر وتبدل — لبنان
المهاجر — القومية والديمقراطية السياسية — تركيبة الفتاة والعثمانية

٥٨٨ الفصل الثالث والثلاثون الحرب العالمية الاولى والثانية وفترة الانتداب بينهما

قرى مهجورة — الانتداب الافرنسي — اعادة لبنان الكبير الى
الوجود — استقلال اسمي — في ظل الاحكام العرفية —
الاستقلال التام .

٦٠٦ الفصل الرابع والثلاثون تحت راية الارز : نظورات ومشاكل

البحر — ساحة — بيروت بوابة الشرق —
مركز — تقدم اقتصادي — ثورة سلمية غير اما ثورة فعالة .

